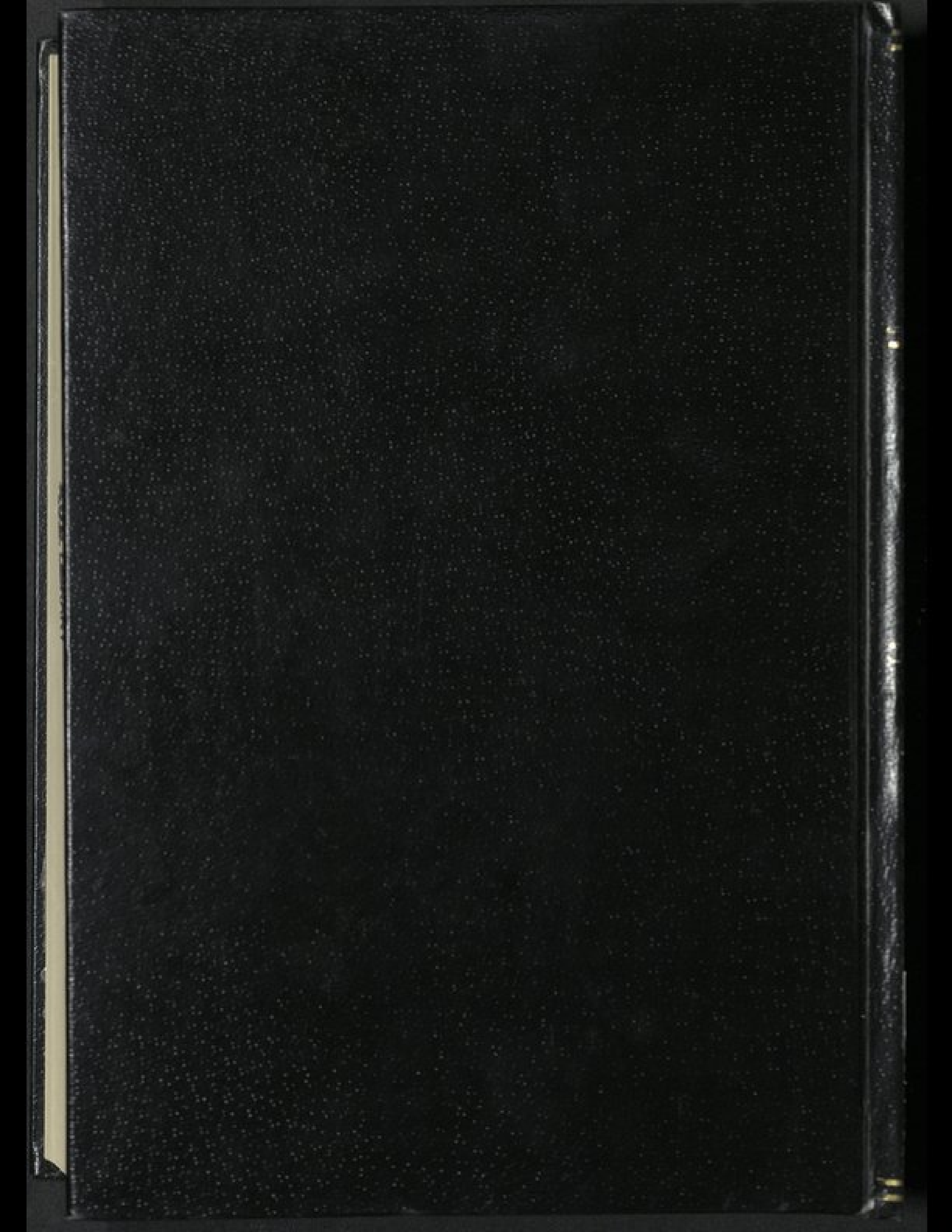
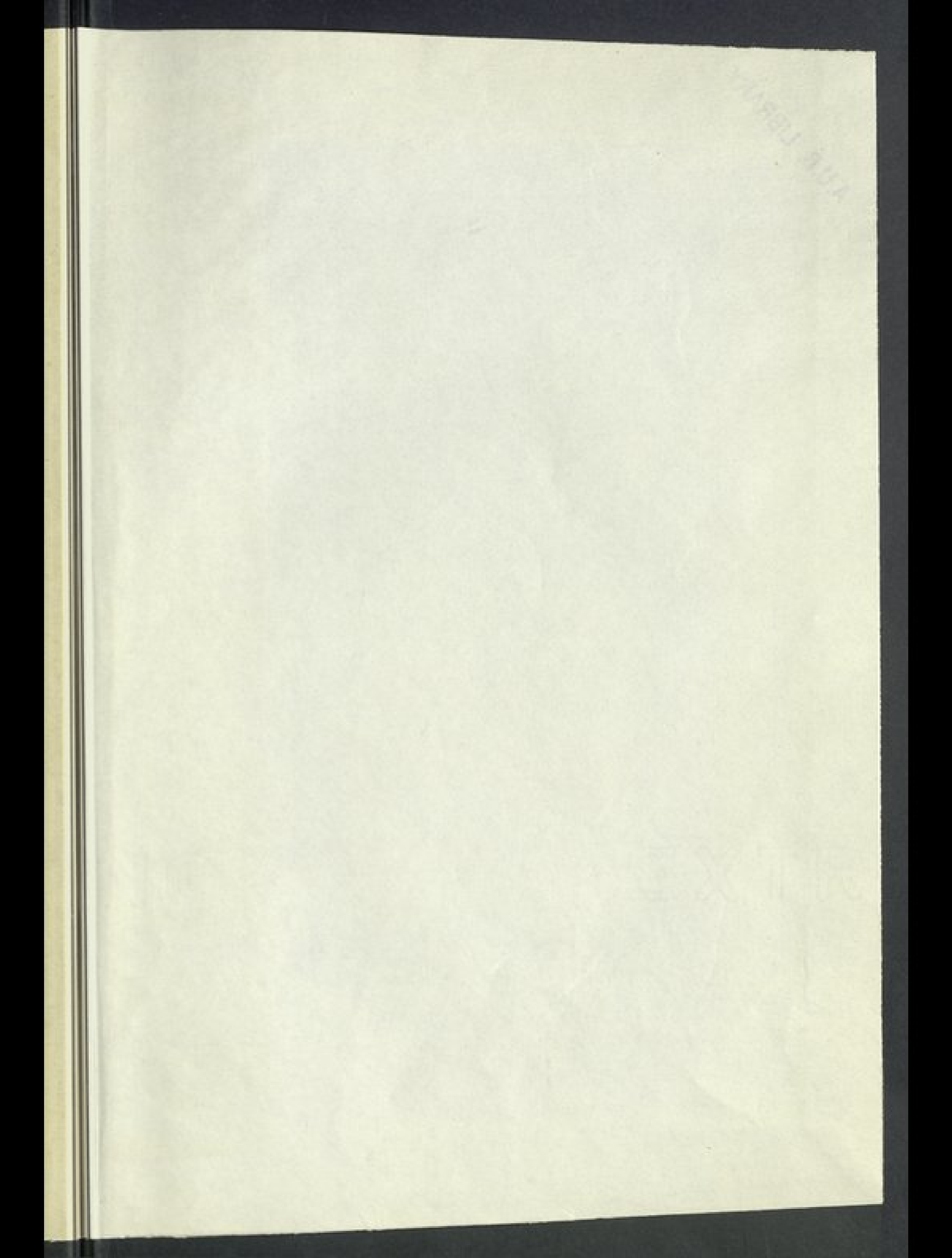



AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT


UNIVERSITY
LIBRARY



مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق



محاضرات

المجمع العلمي العربي

الجزء الثالث

دمشق

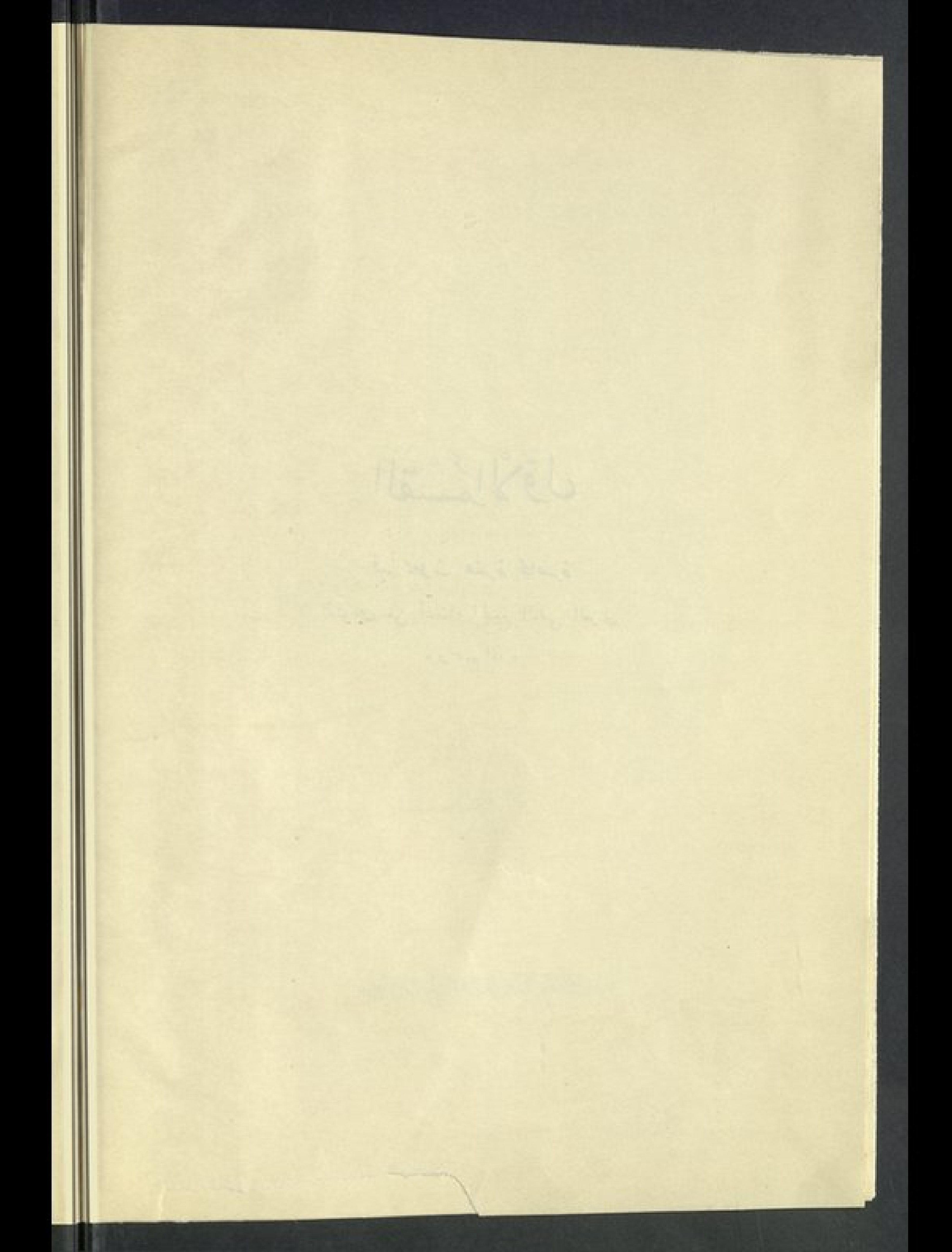
١٣٧٤ هـ — ١٩٥٤ م

القِسْمُ الأوّل

فيه ثلاث عشرة محاضرة

المتوفين من أعضاء المجمع العلمي العربي

« رحمهم الله »



أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية

للأستاذ محمد كرد علي

علم المشرقيات ومقاصد الغربيين :

كان اول احتكاك وقع بين العرب وأهل الغرب من الاوربيين ، يوم فتح العرب الشام ومصر وما اليها من بلاد الروم . ولما فتحت الاندلس أو اسبانيا والبرتقال الا قليلاً زاد هذا الاختلاط ، ثم أصبح على أتمه لما توطد ملك بني أمية في الاندلس في القرن الثاني والثالث والرابع ، واتسعت رقعة هذا الاختلاط بفتح العرب جزيرة صقلية ، وتوسطهم في جنوبي ايطاليا في القرن الثالث . ومنشأ هذا الاختلاط في الاكثر الحاجة الى الاتجار ودواعي الجوار . وكان تسامح الدولتين الأموية في الشرق ثم في الغرب ، والدولة العباسية في الشرق والغرب ، من أهم الدواعي الى هذا التمازج . وكأن ذلك كان يومئذ من حكومات العرب من باب تفضل الكبير على الصغير ، والعالم على الجاهل ، ولا غرابة في صنيعهم فالاسلام عرف بالتسامح ، والعرب من أهله خاصة أكثر الأمم ممارسة له كما ثبت بنصوص التاريخ الصحيح .

زاد هذا التمازج في الحروب الصليبية ، فاستفاد الصليبيون من العرب فوائد علمية واجتماعية جمة ، وقد رأوا مدنية أرقى من مدنيتهم إذ ذاك ، وعلماً وصناعات لا عهد لهم بها ، وأخلاقاً ووفاءً وعهداً ندرت في غيرهم ، فاستعاضوا بما حملوا معهم من الأوضاع عما خسروه من الرجال والمال ،

واغتبطوا بما كسبوا ، وتعزوا عما لقوا من الشدائد . وكان تعلم كثير من الصليبيين اللغة العربية ، واشتهر بذلك بعض أمرائهم وقوادهم وأذكيائهم وأهل الفكر منهم ، بل كان بعض الاوربيين قبل الحروب الصليبية يختلفون الى الأندلس ويأخذون العلم عن علمائها ، ومنهم البابا سلفستر الثاني الذي جلس على كرسي البابوية سنة ٩٩٩م وهو من أصل افرنسي درس في قرطبة واشبيلية على علماء العرب الرياضيات والفلك ورسم الأرض ، كما تعلم شانجه (Sanche) ملك ليون واستوريا الملقب بالسمين الطب على علماء قرطبة .

وكان جميع ملوك الافرنج على ما روى فولتير يستخدمون أطباء من العرب واليهود ، كما كان كثير من أذكياء الجلالقة والقشتاليين والليونيين والنافاريين ومن كان في البلاد الأندلسية تحت أحكام المسلمين من المسيحيين يتعلمون العربية للتوظف في الأندلس والاتجار مع أهلها الى غير ذلك من المرامي .

ولما بدا للباباوات أن ينشئوا الرهبنات في القرون الوسطى لبثّ الدعوة الدينية بين أبناء الشرق في آسيا وافريقية وفي الأندلس وصقلية من قارة أوربا ، ثبت لهم انه لا سبيل الى النجاح في هذا المشروع إلا بتعلم لغات المشارقة ولا سيما العربية . فقضى مجمع فينا سنة ١٣١١ م برئاسة البابا اكلنتس الخامس أن تؤسس في باريز واكسفورد وبولون وصلمنكا ، أي في عواصم العلم في فرنسا وانكلترا وايطاليا واسبانيا على ذاك العهد دروس عربية وعبرانية وكلدانية وسريانية يتخرج بها الوعاظ والدعاة .

وكانت المدرسة الطبية في مونبلية في فرنسا أنشئت سنة ١٢٢٠ وجعلت جلّ اعتمادها في التدريس على علماء الأندلس فكانت تقرأ فيها اللغة العربية لتفهم العلوم المكتوبة بها . ثم كثر إنشاء الجامعات في الغرب وكان تأسيس أول جامعة في أوربا الوسطى في كراكو من مدن بولندا سنة ١٣٦١ وبعد أربع سنين أنشئت جامعة فينا وهي أول جامعة ألمانية

وقيل ان جامعة بولون الايطالية أسسها تيودوس امبراطور الشرق في سنة ٤٢٥ م .

ولما كثرت الجامعات في الغرب أنشأ بعضها يعنى بتعلم اللغات السامية ، والعربية من جملتها ، ولكن بشيء من الضعف . وكلما كان يشتد غرام أهل الغرب بدرس فلسفة ابن رشد وابن سينا والرازي وابن زهر وغيرهم يحاذر رجال الدين كل الحذر أن تكون الفلسفة الاسلامية مقدمة الى ضعف الايمان وفشو الالحاد في المؤمنين من أبنائهم . ومع هذا أولع بعض أمراء ايطاليا بالعربية وتكلموا بها ، وعدوها لغة الأدب العالي ، واعتمد بعضهم في قصورهم وبيوتهم على علماء من أبناء المسلمين .

وممن عرف باتقان العربية من ملوك ايطاليا رجار الثاني ملك صقلية وانكبردية وقلورية الذي قدم له الشريف الادريسي كرة من الفضة فيها صورة العالم بمدنه وجباله وبحاره وألف باسمه كتابه المشهور « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ومدحه بأنه دان في ملته بدين العدل وانه خير مَنْ ملك الروم .

وقال الصفدي في الوافي بالوفيات ان رجار قال للشريف الادريسي لما استقدمه من العدوة : أريد تحقيق أخبار البلاد بالمعاينة لا بما ينقل من الكتب فوقع اختياره على أناس ألباء فطناء أذكياء وجهزهم رجار الى أقاليم الشرق والغرب جنوباً وشمالاً ، وسفروا معهم مصورين ليصوروا ما يشاهدونه عياناً ، وأمرهم بالتقصي والاستيعاب لما لا بد من معرفته . وكان اذا حضر أحد منهم بشكل أثبته الشريف الادريسي حتى تكامل ما أراد (توفي رجار سنة ٥٤٨ ه = ١١٥٤ م) .

وذكر الصفدي كيف بالغ رجار في تعظيم الشريف الادريسي وكيف رتب له كفاية لا تكون إلا للملوك بعد أن أعطاه مئة ألف درهم ، وفضة كثيرة زادت من عمل الكرة . قال : وكان يجيء راكب بغلة فاذا صار عنده يتنحى له عن مجلسه فيأتي فيجلسان معاً .

وممن كان يحسن العربية من ملوك ايطاليا غليام ، وكان كثير الثقة بالمسلمين يستخدمهم في بلاطه ومنهم أمراء دولتـه ، وهو ابن رجار . وكذلك كان فريدريك الثاني صاحب صقلية وبوليه وانكبرديه وزعيم الحملة الصليبية السادسة فانه كان يجيد العربية كل الاجادة . ولم يلبث بعض أمراء ايطاليا كأسرة ميديسيس المشهورة بخدمة الآداب أن أسست عقيب اختراع الطباعة مطابع بلغات الشرق .

وأول مطبعة أنشئت في مدينة فانو في جون البنادقة (بحر الادرياتيك) سنة ١٥١٤ طبع عقبها القرآن الشريف ثم كتب الطب والحكمة والطبيعة باللغة العربية . وقيل كان كثير من مدرسي جامعة بادو أو سالرنا في أرجاء ايطاليا من علماء العرب . وقد عرفت ايطاليا قبل غيرها قدر علوم العرب بما ترجم لها المتنصرون من اليهود من فلسفة ابقراط وأرسطو وغيرهما . وبما نقله الى اللاتينية من العربية أحد أبنائها جرردو دكريمونا المتوفى سنة ١١٨٧ م في مدينـة طليطلة من كتب الهيئة وأحكام النجوم والهندسة والطب والطبيعة والكيمياء والفلسفة . ويقال انه ترجم أكثر من سبعين كتاباً ومنها مافقد أصله العربي اليوم وبقيت ترجمته اللاتينية ، على نحو ما فقدت تآليف فلاسفة اليونان ولم تصل الى أوربا إلا بواسطة ترجمات العرب عنها .

وكانت ايطاليا أيضاً ، وهي مهد النهضة الحديثة في أوربا ومن بلادها انتشرت في أقطار الغرب ، أول أمة غربية عُنيت عناية خاصة باللغة العربية ، وهبت لطبع كتب العلم فيها لمقصد ديني أولاً ثم لمقصد علمي ساق اليه حب الاطلاع والتفقه . وهذا الخلق على أنه في أجيال الغربيين اكثر مما هو في الشرقيين على مارأينا .

وتقدمت ايطاليا في الدروس العربية لأنها أقرب بلاد الغرب من أرض الشرق ، واحتكاكها بالمشارقة قديم جداً ، ولأن مقام البابوية كان في رومية عاصمة تلك البلاد ، والباباوات كانوا مسيطرين على كل شيء

في الغرب الى الزمن الذي قام فيه لوثيروس في ألمانيا في الربع الأول من القرن السادس عشر .

وقد أنشأ البابا غريغوريوس الثالث عشر في رومية سنة ١٥٨٤ مدرسة الموارنة ساعدت على نشر العربية وتخرج فيها ثلاثة لبنانيين اشتهروا بحمل لواء العربية في أوربا وهم جبرائيل الصهيوني وابراهيم الحاقلاني وسمعان السمعاني وجاء بعدهم غيرهم ولا سيما من أسرة السمعاني نقلوا كثيراً من كتب العرب الى اللاتينية في القرن السابع عشر وبعده وتخرج بهم بعض علماء المشرقيات من أمم الغرب .

وكان المأمول أن تكون اسبانيا والبرتقال أول الممالك الاوربية التي تبادر الى اتقان العربية لامتزاج أهلها في الأندلس بالمسلمين نحو ثمانية قرون ولأن الخاصة من أعيان الاسبان كانت ترى تعلم العربية من أدوات التفوق في الأدب وشارات الظرف واللطف حتى كادت تنسى لغتها الاسبانية على عهد العرب . وقد أنشئت في مدينة طليطلة أول مدرسة عربية في اسبانيا أوائل القرن الحادي عشر وفي سنة ١٢٥٤ أنشئت في اشبيلية مدرسة عربية لاتينية لمزج الحضارتين العربية والاسبانية . أما البرتقاليون فجاؤا متأخرين جداً في هذا المضمار ، وبقي أفراد منهم يولعون بدرس العربية ولا سيما من الرهبان لغرض الدعاية المذهبية ولم يجدوا منشطاً من أمتهم ولا من حكومتهم ، أي ان المشرقيات العربية في البرتقال ما كانت في وقت من الأوقات محل عناية أمة ظل العرب ملابسين إياها قروناً .

وبينا كانت أكثر بلاد أوربا تحرص جد الحرص على آثار العرب وترفع منزلة من ينقل اليها علومهم - وكان لليهود من أهل الأندلس يد طولى في هذا الشأن - كان رجال الدين في اسبانيا عقي جلاء العرب عنها يحرقون الكتب العربية حيث صادفوها ، وظلوا خمسين سنة أي منذ أصدر الكردينال كسيمنس سنة ١٥١١ م أمره باحراق عشرات الألوف من كتب العرب في ساحات غرناطة ، يحرقون الأسفار العربية حتى كادت

تبيد مدنية العرب من تلك البلاد لولا المترجمات الى اللاتينية والعبرية .

وذكر كونده المؤرخ المستشرق الاسباني (١٨٢٠) ان مسيحي اسبانيا لما استولوا على قرطبة حرقوا كل ما طالت اليه أيديهم من مصنفات المسلمين وعددها مليون وخمسون الف مجلد جعلوها زينة وشعلة في يوم واحد ، ثم رجعوا على سبعين خزانة كبرى من خزائن الأندلس وأنشأوا يتلفون كل ما عثروا عليه في بلاد الأقاليم من مؤلفات العرب .

ومنذ القرن الخامس عشر ، وربما من قرن قبله ، أخذت أكثر الأمم الأوربية تبتاع بواسطة وكلائها وقناصلها وتجارها في الشرق مخطوطات عربية تزين بها قصور ملوكها وديرتها وبيعها ودور العلم فيها . وكان سان لوي أو لويز التاسع أحد ملوك فرنسا أول الشارعين بتأسيس خزائن الكتب وذلك انه بلغه لما كان في الشرق على عهد الحروب الصليبية ان بعض أمراء المسلمين جعلوا لأنفسهم خزائن كتب يطالعونها ساعات فراغهم فجرى هو على مثالهم ، كان هذا في القرن الثالث عشر . أما لويز الرابع عشر في القرن الثامن عشر فقد أرسل أحد علماء النمسا الى بلاد الاسلام ليبتاع له الكتب العربية والعبرية والسريانية واليونانية .

وهكذا لم ينتصف القرن التاسع عشر حتى قُدر عدد المخطوطات العربية في أوربا بنحو مائتين وخمسين الف مجلد .

وأهم الخزائن العربيـة في أوربا وأميركا : في لينينغراد وبرلين وباريز ولندرا وغوتنغن وليبسيك ومونيخ وفينا وليدن واكسفورد وادمبرج ودبلين وكمبردج وخزانة ريلندس في منشستر والجمعية الآسياوية في لندرا وفي باريز والاسكوريال وميلانو ورومية وبرنستون . وفي كل من هلسنغفورس وموسكو واوبسالا وكوبنهاغن وفرنكفورت وصونك وبوفه ودرسدن وجيسين وغوتا وتوبنغ وغريـوالد وستراسبورغ وكراكو وبراغ ومجريط وفلورنسه وتورينو وبلرم وخزانة وزارة الهند في لندرا ونيويورك وشيكاغو وبال وكليفورنيا وغيرها خزائن عربية تختلف بعددها ونفاستها باختلاف غنى الأمة التي نشأت بينها وبزمان نهوضها لاقتناء كتبنا .

ولكل خزانة من هذه الخزائن فهرس بل فهارس منظمة وصفت فيه مخطوطاتها العربية وصفاً مدققاً وذكرت تراجم مؤلفيها وكل ماله علاقة بها وذلك بارقام متسلسلة ونظام لم نستطع حتى الآن أن نحذو حذوه في إنشاء الفهارس وتصنيف الجزازات (فيش) بحيث يحيط المستعرب اليوم بجميع النسخ المحفوظة في مكاتب الغرب من الكتب النادرة وغيرها متى أراد طبع الكتاب أو الرجوع اليه في أبحاثه.

وما زالت هذه الخزائن على نمو مستمر لأن الجامعات والحكومات تنشط الى تنشيطها، والأفراد يتحفونها بمجاميعهم في حياتهم أو بعد مماتهم، فقد أعطى مؤخراً صديقي الأمير كايتاني من أعظم المستعربين في ايطاليا خزانته العظمى للمجمع العلمي في رومية في حياته، وأعطى غريفيني المستعرب الايطالي خزانته لجامعة ميلانو في ايطاليا بعد مماته، وباعت أسرة غولد صيهر المجري خزانة كتبه المهمة من الجامعة الاسرائيلية في القدس.

ولما انفثأت الثورة الدينية في الغرب وقامت مكانها الثورة الاستعمارية اشتدت الحاجة أكثر من قبل للاطلاع على آداب العرب وغيرهم من أمم الشرق، ودخل علم المشرقيات منذ أواخر القرن الثامن عشر في طور العلوم المنظمة فأنشأت النمسا سنة ١٧٥٣ مدرسة لتعليم اللغات الشرقية لقناصلها وتجارها، وأنشأت فرنسا في سنة ١٧٩٥ مدرسة اللغات الشرقية الحية لمثل هذه الغاية، وشادت ألمانيا مثلها سنة ١٨٨٧ ثم تبعتها روسيا وانكلترا وايطاليا فأسست كل منها مدارس للاخصاء بهذه اللغات. على أن أم جامعات الغرب لم تخل أبداً منذ القرن السادس عشر من دروس عربية ولا سيما جامعات ألمانيا وانكلترا وهولاندة. والعناية بدراسة هذه اللغة بالغة حدها من الجد والهمة.

ورأى علماء المشرقيات سهولة في تلقف لغات الشرق، ومنهم من كان يعرف خمساً وعشرين لغة شرقية وغربية مثل لودلف الألماني ومنهم نحو عشرين لغة مثل دي ساسي الفرنسي وفان برشم السويسري وهوميل

الالماني . ولا تقل اللغات التي يعرفها أحدهم عن خمس أو ست ، ومن أغربهم دوزي الهولاندي الذي كتب في سبع لغات كأنه أحد أبنائها فكتب باللاتينية والهولاندية والالمانية والفرنسية والانكليزية والاسبانية والبرتقالية ، ومثله فبري المجري فانه كان يكتب بالمجرية والتركية والعبرية واللاتينية والانكليزية والالمانية والفرنسية كأنه بعض المنشئين المشهورين في كل لغة لم تدخل واحدة منها الحيف على أختها .

وللمستعربين في تلقف العربية طريقة اعتمدوا عليها في تعلم اللغات الغربية عنهم ، وهو أن يأخذ طالب العلم في مدرسته أو بلده ما يمكنه أخذه من قواعد اللغة وأصولها ومفرداتها ثم يرحل للتلقي عن أهلها ، ليحصل لأذنه أنسة بسماع اللغة من أربابها ، كما كان أجدادنا يرحلون لتلقي الحديث ورواية الآثار والأشعار . فيجيء المستعرب يقضي ما شاء أن يقضي من الزمن في بلاد عربية ، وقد يفضلون مصر ثم الشام ، ومنهم من أتقن علمه العربي في الأزهر وآخرون تعلموا في مدارس المرسلين في بيروت أو قرأوا على مشايخ دمشق وحلب وبغداد وتونس وفاس ومنهم من تظاهروا بالاسلام وتطالت أنفسهم ليدرسوا علوم الاسلام في مكة المكرمة مثل سنوك هروغرون الهولاندي .

ولما كانت الأعمال الكبرى لا تظهر فائدتها الا باجتماع القوى المتفرقة وتوحيد المقاصد ، وكان للجمعيات والمجامع أثر كبير في خدمة العلم والمدنية ، أنشيء للبحث في المشرقيات في باتافيا في جاوة أول مجمع للعلوم والفنون سنة ١٧٧٨ . والهولانديون من أول الأمم التي حملت علم العلم والمدنية في الغرب ، ثم أنشئت الجمعية الآسياوية في البنغال في الهند في سنة ١٧٨٤ والجمعية الآسياوية في بومباي سنة ١٨٠٥ ، وأنشيء في القاهرة المجمع العلمي المصري سنة ١٨٩٨ ، وأسست الجمعية الآسياوية في باريز سنة ١٨٢٢ وكان من أعظم مؤسسيها أكبر مستعرب نشأ في فرنسا وأخذ عنه أئمة المستعربين من علماء المشرقيات من الألمان والهولانديين والسويديين

والايطاليين ، ونعني به العلامة سلفستر دي ساسي ، والمشرقيات العربية في القرن التاسع عشر في أوربا مدينة لهذا الرجل كثيراً لأنه سهل على المشتغلين بالعربية طرق تعلمها وتلقفها .

يقول هومبولد ان من أجمل نتائج المدنية الحديثة أن تؤلف جميع الأمم المستنيرة أسرةً واحدة عندما تمس الحاجة لخدمة العلم والآداب والفنون وكل ما ينشأ من تقرير حقيقة وينبعث عن فكر وحس ويرتفع به الانسان الى ما فوق الحاجات العادية في المجتمع . ولذلك رأينا بين المشتغلين بلغات الشرق من الغربيين شيئاً من التضامن الأدبي يشد بعضهم أزر بعض ، فلم يكتف المستعربون بمجامعهم وجمعياتهم وجامعاتهم ومجلاتهم التي تنشر أبحاثهم ، بل سمت هممهم الى عقد مؤتمرات يختلف اليها جميع علماء المشرقيات من الأمم والمستعربون في جملتهم ، فعقدوا أول مؤتمر لهم في باريز ثم في لندرا ثم في ليننغراد ففلورنسه فبرلين فليدن ففينا فاستكهولم فلندرا ثانية فجنيف فباريز ثانية فرومية فهامبورغ فالجزائر فكوبنهاغ فأثينة .

ثم عقد مؤتمر بعد الحرب العامة في ليبسيك لم تحضره أمم الحلفاء (فرنسا وانكلترا وايطاليا وأميركا) وعقد آخر في باريز لم تشترك فيه أمم الوفاق في أوربا الوسطى وشرقها (كالألمان والنمساويين والمجر ولا أمم الصقالبة أي السلافيين) .

وقد اعتاد علماء المشرقيات أن ينشروا بهذه المناسبة مجلدات ضخمة في أعمال مؤتمراتهم وما يقدمه بعضهم من الرسائل القديمة أو يكتبه من الأبحاث الطريفة في الفرع الذي اختص به . وكان للعربية من بين اللغات الشرقية التي يتدارسها علماء المشرقيات المقام الممتاز فنشرت بذلك رسائل قديمة مهمة كما نشرت رسائل نادرة من كتب العرب في الأسفار التي يؤلفونها عندما يريد علماء المشرقيات الاحتفاء بأحد اخوانهم الذين خدموا العلوم المشرقية عند بلوغه سناً معينة .

هذا ما قام به الغربيون لخدمة الدروس العربية ، وقل أن تجد في بلادهم جامعة مهمة الآن الا وفيها منبر لتدريس لغتنا ، مهما بلغ من قلة عدد أبناء تلك الأمة ، وبعدها عن الاستعمار وانصرافها عن الفتوح والغزوات ، بل يتعلمونها للتجارة والتثقيف .

وقد نبغ في كل أمة رجال يتكلمون العربية ويكتبونها كأبنائها ، ومنهم من اكتفوا بفهم النصوص في الكتب ، ولم يساعدهم الزمن ليتمكنوا من أدب العرب أو ليرحلوا الى البلاد العربية يدرسون لغتها ويمارسون التكلم بها مع أبنائها مدة .

وممن عرفناهم يكتبون العربية كتابةً جيدة جويدي ونالينو وماسنيون ومارسيه ومرجليوث وبرون وكرنكوف وبروكلمان وهارتمان ومورتس وكراتشقوفسكي وكوفالسكي وغريفيني وغولدصهير .

ومعظم من عنُوا بلغتنا من علماء المشرقيات نشروا كتباً ورسائل مهمة من آثار السلف الصالح ، ويكفي أن يقال في هذه الهمم الشماء ان الطبع باللغة العربية الذي انتشر منذ القرن الخامس عشر في ايطاليا ومنذ أوائل القرن السابع عشر في هولاندة ، ثم شاع بعد حين في سائر عواصم الغرب ، لم يصل الاستانة الا في القرن الثامن عشر ، ولم يهبط مصر إلا في اوائل القرن التاسع عشر وكان على ضعف في الشام في القرن الثامن عشر . وهذا أكبر دليل على انتباه الغربيين وتفوقهم علينا في ورود مناهل العلم والتذرع بأسباب نشره وتحبيبه الى الناس .

سادتي : يحتاج الوقوف على ما تم للغرب من تلك النهضة في الأخذ من علوم العرب الى بحث مستفيض خاص ، ويهمنا الآن معرفة أثر تلك النهضة فينا وفي لغتنا ، أي أن نعرض للجهة التي تخصنا من ذاك الجهاد العظيم الذي جهدوه في إحياء العربية فقط ، وذلك للتنويه بمن نشروا كتبنا فأسدوا الى لغتنا المحبوبة أياديهم البيضاء ، وعلمونا بما أحيوه دروساً في تاريخ أمتنا ومدنية أجدادنا كنا نجهلها ، مع أن أعمالهم هذه وصلتنا

بالعرض إذ لم يكن علماء المشرقيات أو جمعياتهم ومجامعهم يقصدون خدمتنا ، بل خدمة العلم أو الأفكار التي يريدون بثها ليتخذ بعضهم من كتب أسلافنا مادة تنفعهم في موضوع قد يرون غير رأينا فيه أو غير ذلك من المقاصد . ولكن مهما كانت النيات فقد استفادت العرب والعربية من هذه الهمة التي انبعثت من ديار الغرب ولذلك تقضي علينا أخلاقنا أن نعرف الفضل لصاحبه .

المشرقيات العربية في فرنسا وسويسرا وبلجيكا :

اهتمّ المستعربون من علماء المشرقيات في فرنسا بالنقل والاحتذاء من كتب العرب أكثر من اهتمامهم بنشر أصول تلك الكتب ، ومع ذلك فان في الذي نشروه من الكتب العربية دليلاً على ما بذله أفراد هذه الأمم في خدمة آدابنا . فقد نشر (سلفستر دي ساسي) إمام المستعربين في الغربيين كتاب كليلة ودمنة وألفية ابن مالك وكتاب الاعتبار لعبد اللطيف البغدادي في وصف مصر ومقامات الحريري ومعلقة لبيد .

ونشر (كاترمير) مقدمة ابن خلدون والروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة وسر الخليقة لبلنيوس الحكيم والقصائد السبع المعلقات والبرق اليماني ومطالع النيرين والتيجان وبلوغ المرام في تاريخ دولة مولانا بهرام .
ونشر (كوسين دي برسفال) المعلقات السبع وأمثال لقمان الحكيم .
ونشر (رينو ودي سلان) تقويم البلدان لأبي الفدا .
ونشر (دي سلان) ديوان امرئ القيس والجزء الأول من وفيات الأعيان لابن خلكان والجزء السادس من أخبار البربر في تاريخ ابن خلدون والزيج الحاكمي .
و (فريغري) رحلة ابن بطوطة .
ونشر (دوغا) بمعاونة (دوزي) الهولاندي و (ريت) الانكليزي نفح الطيب للمقري .

و (باربيه دي منار) مروج الذهب للمسعودي .

و (هارتويغ درنبورغ) كتاب سيبويه والاعتبار لابن منقذ واربع رسائل لملك غرناطة أبي الحسن علي الى دون دياغو القسطيلي وابنه والنكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية لعمارة اليمني وديوان النابغة الذبياني وطبع (أبوه) الرياض المزهرة في صرف اللغة العبرانية ونحوها لمؤلفه أبي الوليد مروان بن جناح القرطبي وتاريخ اتابكية الموصل .

و (بوشه) ديواني عروة بن الورد والفرزدق .

و (هوداس) نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي عشر للوفراني وتاريخ السودان لعبد الرحمن التومبوكتي وتذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان وتاريخ جلال الدين المنكبرتي وتاريخ الفتاش نشره مع (دلافوس) .

ونشر (باسيه) الخزرجية في العروض وتاريخ فتح الحبشة لعرب فقيه .

ونشر (بل) تاريخ بني عبد الواد ملوك تلمسان لأبي زكريا يحي وكتاب التكلة لكتاب الصلة لابن الابار بمعاونة ابن أبي شنب .

و (رافيس) زبدة كشف الممالك للظاهري .

و (سيلفسوهن) ديوان طرفة بن العبد .

و (ماسنيون) الطواسين للحلاج والأمثال البغدادية للطالقاني والاصطلاحات الفلسفية .

و (ماسيه) نظام ديوان المهردار لابن الصيرفي وتاريخ ابن الميسر .

و (بريه) ثماني مقالات لاهوتية ليحي بن عدي .

و (رو) معلقة زهير ولامية ابن الوردي ولامية العجم للطغرائي وقصيدة بانت سعاد .

و (زوتنبرغ) تاريخ ملوك فارس للثعالبي .

و (هوار) البدء والتاريخ للمطهر ابن طاهر ومقامات ابن ناقيا وديوان سلامة بن جندل .

و (منك) دليل الحائرين لابن ميمون ومعين الحياة لابن جبرول .
و (سيدبليو) كتاب أبي الحسن علي المراكشي المدعو جامع المبادي والغايات في الآلات الفلكية .
و (شيفر) وصف الشام لأبي الحسن علي الهروي والنهج السديد للمفضل بن أبي الفضائل .
و (ديكرانج ابنه) ذكر تملك جمهور الفرنسوية مصر والشام لنقولا الترك .
وطبع (دوبكه) رسالة في البراهين على مسائل الجبر والمقابلة لعمر ابن ابراهيم الخيامي .
و (مسكوراتي) أخبار بني مزاب .
و (كونغ) كتاب الكلى والمثانة للرازي .
و (اكزيكا قيصر) تاريخ جزيرة جربة لمحمد بن أبي راس احمد الناصر .
و (لولوقيل) كتاب صورة الأرض لمحمد بن جابر البتاني .
و (لانجليس) رحلات لأناس من العرب والفرس رحلوا الى الصين والهند في القرن الثالث للهجرة .
و (باتورني) وشاح الكتائب .
و (غوتيه) الدرة الفاخرة للغزالي .
و (كولين) تذكرة أبي العلاء ابن زهر .
و (مرسيه) حلية الفرسان لابن هذيل الأندلسي .
و (فران) الفوائد في معرفة علم البحر والقواعد لابن ماجد .
و (امار) مقدمة الوافي بالوفيات للصلاح الصفدي .
و (كي) كتاب الاشربة لابن قتيبة .
و (كارادي فو) كتاب ايرن في رفع الأشياء الثقيلة نقله الى العربية قسطا بن لوقا البعلبكي .
و (شولس) السويسري ديوان أمية بن أبي الصلت .

و (كللير) السويسري الجزء السادس من كتاب بغداد لأبي الفضل احمد بن أبي طاهر طيفور .
و (فودجه) البلجيكي كتاب الاشارات الالهية لابن سينا .
و (غيغ) الحاوي في علم التداوي لنجم الدين محمود الشيرازي .
و (موتلنسكي) أخبار الأئمة الرستميين لابن الصغير .
و (ميز) السويسري حكاية أبي القاسم البغدادي .

المشرقيات العربية في جرمانيا :

أخرج علماء الألمان أمهات كتب العرب التي تساعد على فهم دينهم وحضارتهم فقدموا المستعربين وغيرهم مادة مهمة للبحث والنظر . وأهم ما نشره (فليشر) تفسير القاضي البيضاوي والمفصل للزمخشري وكتاب ألف ليلة وليلة ورسالة هرمس في زجر النفس .

وطبع (وستنفيلد) سيرة ابن هشام ومعجم البلدان لياقوت الحموي ومعجم مااستعجم للبكري وطبقات الحفاظ للذهبي ووفيات الأعيان لابن خلكان وتهذيب الأسماء واللغات للنووي والمشترك لياقوت وعجائب المخلوقات للقزويني وآثار البلاد للقزويني أيضاً والمعارف لابن قتيبة وأسماء القبائل المتشابهة وغير المتشابهة لمحمد بن حبيب والاشتقاق لابن دريد وأخبار قبط مصر للمقريزي وسيرة فخر الدين المعني وتاريخ مدينة الرسول للسمهودي وتاريخ مكة للأزرقي والمنتقى من أخبار أم القرى وهي منتخبات من الفاكهي والفاسي وابن ظهيرة والاعلام للنهروالي الى غير ذلك من الكتب الممتعة التي عدّ وستنفيلد بنشرها من أعظم العاملين في تاريخ المشرقيات العربية .

ونشر (فلوغل) الفهرست لابن النديم وكشف الظنون لحاجي خليفة والمؤنس للثعالبي وتعريفات الجرجاني ونجوم الفرقان وتاج التراجم لابن قطلوبغا .

ونشر (سخاو) الطبقات الكبير لابن سعد وكتاب ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة للبيروني ونشر له أيضاً الآثار الباقية عن القرون الخالية والمعرب للجواليقي .

ونشر (فريتاغ) ديوان الحماسة لأبي تمام والافادة والاعتبار لعبد اللطيف البغدادي وولاية سعد الدولة على حلب وأمثال الميداني وفاكهة الخلفاء لابن عربشاه ووصف فلسطين والشام للادريسي .

ونشر (آلورد) دواوين الشعراء الستة النابغة وعنترة وطرفة وزهير وعلقمة وامرئ القيس والاصمعيات وديواني الأراجيز للعجاج والزفيان وديوان رؤبة بن العجاج [1] وديوان خلف الأحمر والفخري في الآداب السلطانية والجزء الحادي عشر من تاريخ مصنف مجهول .

و (ليبرت) تاريخ الحكماء للقفطي .

و (وابك) رسالة الخيامي في الجبر والمقابلة وكتاب الفخري للكرخي وتفسير مقالة اقليدس العاشرة لأبي عثمان الدمشقي .

و (وكستن) مقدمة الأدب لجار الله الزمخشري .

و (فولرس) معلقتي الحارث بن حلزة وطرفة بشرح الزوزني وتاريخ مصر لابن دقاق .

و (كريمر) النسوي الاستبصار في عجائب الأمصار والمغازي للواقدي والأحكام السلطانية للماوردي والقصيدة الحميرية .

و (فولف) المعلقات وشيئاً من ديوان البهاء ورسالة في أحوال القيامة .

و (ايفيلد) فتوح الجزيرة المنسوب للواقدي .

و (سيبولد) الشماريخ في التاريخ للسيوطي وأسرار العربية لابن الأنباري والمنى في الكنى له والمرصع لابن الأثير ورواية سول وشول وكتاب النقط والدوائر مع رسالتين في التوحيد .

---

(١) حرص المستشرقون على نشر دواوين العرب ولا سيما العرباء منهم لأن الشعر مرآة الأمم وقد يقع الباحث فيه على مواضعات وعادات لا تخطر له على بال .

و (سبرنغر) اصطلاحات الصوفية لعبد الرزاق السمرقندي وتاريخ الغزنوية للعتبي والاصابة في تميز الصحابة لابن حجر والاتقان للسيوطي وكتاب حدود الفاكهي .

و (بارت) فصيح ثعلب وديوان القطامي .

و (مولر) النمسوي صفة جزيرة العرب للهمداني والفرق للاصمعي .

و (مولر) الألماني طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة .

و (يوسف مولر) أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر وكتاب محمد بن كثير الفرغاني في الحركات السماوية وجوامع علم النجوم .

و (بنس) اتعاظ الحنفا للمقريزي .

و (هوروفيتس) الهاشميات للكميت .

وطبع (آبل) المعلقات السبع .

و (سوسين) ديوان علقمة الفحل .

و (ومسبكة) تاريخ أبي الفدا .

و (نولدكه) ديوان عروة بن الورد .

و (موجيك) النمسوي كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري وصفة الأرض للخوارزمي وعجائب الأقاليم لزهراب ورسم المعمور من البلاد لمحمد بن موسى بن شاكر احد الأخوة الثلاثة المعروفين بني موسى .

ونشر (بروكلمان) تلقيح فهوم أهل الآثار في مختصر السير والأخبار لابن الجوزى وعيون الأخبار لابن قتيبة وديوان لبيد وكتاب ما تلحن فيه العوام للكسائي .

وطبع (فيلمار) الأرجوزة المزدوجة لوجيه الدين البهنسي ومثلثات قطرب .

و (جورج يعقوب) طيف الخيال لابن دانيال الطبيب الكحال .

ونشر (كرابتشك) النمسوي النصوص التي تعين على جمع تاريخ بني مزيد .

و (باردنهاور) كتاب الأنساب المنسوب لأرسططاليس .

و (موريتس) التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية لابن الجيعان وتاريخ الفيوم لأبي عثمان النابلسي الصفدي .

و (شمولدرس) أرجوزة في المنطق لابن سينا .

و (بارتز) كتاب الشرائع لشالومون بن يوسف بن أيوب .

ونشر (هفنر) النمسوي عدة رسائل لغوية وهي القلب والابدال لابن السكيت وكتاب الابل للاصمعي وكتاب خلق الانسان له وثلاثة كتب في الأضداد للاصمعي والسجستاني وابن السكيت وذيل للصغاني . ونشر الدارات والنبات والشجر والنخل والكرم للاصمعي .

ونشر (ناغلبرغ) كتاب الشجر لابن خالويه .

ونشر (غرونر) أدب الكاتب لابن قتيبة .

ونشر (هيل) تذكرة الكحالين لعلي بن عيسى وطبقات الشعراء للجمحي وديوان الفرزدق .

و (هوخايم) الكافي في الحساب للكرخي .

و (وايل) الانصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين للانباري .

و (شوالي) المحاسن والمساوي للبيهقي .

و (شولتس) ديوان حاتم الطائي .

و (ديترسي) بعض رسائل الفارابي وحكمة أرسطاطاليس وتوحيده ورسائل اخوان الصفا .

و (بزولد) سيرة أحمد بن طولون لابن سعيد المغربي وقصيدة عمرو بن كلثوم بشرح ابن كيسان .

و (برونله) كتاب المقصور والممدود لابن ولاد وأعد للنشر الازمنة لقطرب والاضداد له وكتاب خلق الانسان للزجاج والعشرات لابن خالويه والمنضد لابن الهنائي والتنبيهات على أغاليط الرواة ونشر نظام الغريب للربعي وشرح السيرة النبوية لابي ذر الخشني .

و (مان) تحفة ذوي الارب لابن خطيب الدهشة ومشكل الانساب .
و (فيز) الفرج بعد الشدة للتنوخي .
و (جاهن) شرح المفصل لابن يعيش .
و (ريشر) معلقة عنترة وعليها شرح ابن الانباري والمعجم في بقايا الاسماء لأبي هلال العسكري وشرح معلقة زهير للانباري والمذكر والمؤنث لابن جني .
و (هنوسهير) شرح معلقة زهير .
و (بارمان) قول الحسن بن الحسين بن الهيثم في الضوء .
و (نوربكه) كتاب النحو للصباغ .
و (هوجنسن) النمسوي بغية المستفيد في أخبار زبيد .
و (شورتس) ديوان عمر بن أبي ربيعة .

ونشر في بلاد ألمانيا والنمسا في عصور مختلفة كتب ورسائل كثيرة منها أخبار الدول المنقطعة للازدي وديوان لبيد وديوان طرفة بن العبد وتذكرة الكحالين لعيسى بن علي وتاريخ الدولة الاتابكية لابي الحسن عز الدين وطبع لجابر بن حيان مصنف في أسرار الكيمياء ، وعدة رسائل لجعفر الصادق في هذا الفن نشرت في ستراسبورغ سنة ١٥٣٠ وطبع في هذا العصر كتاب الكيمياء في باسل .

المشرقيات العربية في هولاندة :

لم يقلّ الهولانديون عن الالمان في خدمة الآداب العربية ، فقد نشر مستعربوهم من الأمهات المعتبرة أيضاً ما كشف القناع عن وجه المدنية الاسلامية فقام (اربنيوس) سنة ١٦١٥ ونشر تاريخ الشيخ المكين جرجس بن العميد وحكايات لقمان ، وأنشأ مطبعة ليدن وجهزها بالحروف العربية التي ما زالت الى اليوم تطبع بأكثر من عشرين لغة من لغات الشرق .

ونشر (غوليوس) كتاب الفلك للفرغاني وعجائب المقدور في أخبار تيمور لابن عربشاه .

و (شولتس) سيرة صلاح الدين لابن شداد .

و (دوزي) المعجب لعبد الواحد المراكشي والبيان المغرب لابن عذارى وقسماً من جغرافية الادريسي بمعاونة (دي خويه) ومنتخبات من مصنف للمقريزي والحلة السيراء لابن الابار .

ونشر شيخ المشرقيات العربية (دي خويه) من الكتب في التاريخ والجغرافية أجلها حتى عدّ سيد المستعربين من الهولانديين بل لا يفوقه بكثرة ما طبع من جميع المستعربين في الأمم إلا (وستنفيلد) ويزيد عليه (دي خوي) في التحقيق والضبط وجميل الذوق في فهم كلام العرب . فما نشره تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري وصلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد ونشر أمهات من كتب الجغرافية سماها المكتبة الجغرافية العربية وهي مؤلفة من المسالك والممالك للبلخي والمسالك والممالك لابن حوقل وأحسن التقاسيم للمقدسي البشاري وكتاب البلدان لابن الفقيه والمسالك والممالك لابن خرداذبة مع نبذة من كتاب الخراج لقدامة بن جعفر والاعلاق النفيسة لابن رستة وكتاب البلدان لليعقوبي والتنبيه والاشراف للمسعودي وجزءاً مهماً من تجارب الأمم لابن مسكويه والعيون والحدائق وخلافة عمر الثاني ويزيد الثاني وهشام وشرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون وديوان صريع الغواني والشعر والشعراء لابن قتيبة .

ونشر (يونغ) المشتبه في أسماء الرجال للذهبي والانساب لابي الفضل المقدسي ولطائف المعارف للثعالبي والخراج ليحيى بن آدم وفتوح البلدان للبلاذري وصحيح البخاري .

ونشر (جوينبول) مراصد الاطلاع لعبد المؤمن بن عبد الحق والجبال والامكنة والمياه للزمخشري والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة وقصائد المتنبي وشعراء عصره في مدح سيف الدولة .

ونشر ابنه (وليلم) التنبيه في الفقه الشافعي للشيرازي وكتاب البلدان لابن واضح اليعقوبي .

و (هوتسما) زبدة النصرة للعماد الاصفهاني وتاريخ اليعقوبي والاضداد لابن الانباري .

و (بيت) لب اللباب للسيوطي .

و (مورسنج) طبقات المفسرين للسيوطي .

و (فارس) درة الاسلاك في دولة الاتراك لابن حبيب .

و (فان فلوتن) مفاتيح العلوم للخوارزمي والبخلاء للجاحظ والمحاسن والاضداد له وثلاث رسائل للجاحظ أيضاً .

و (آبل) ديوان أبي محجن الثقفي .

و (فان دانبرغ) فتح القريب لابن القاسم الغزي .

و (جر هاردوس) النزاع والتخاصم للمقريزي .

و (كونغ) المثانة والحصبة وثلاث رسائل في التشريح للرازي

و (فان ديرليت) عجائب الهند لبزرك بن شهريار الرامهرمزي .

و (انفلمان) ديوان الخادرة .

و (بالتنادلانداور) الامانات والاعتقاد لسعديا بن يوسف الفيومي .

و (بير) تاريخ الزندية لابن عبد الكريم علي رضا الشيرازي .

و (بيرام) المسائل في الخلاف بين البصريين والبغداديين .

ونشر في هولاندة الالمام بما في أرض الحبشة من ملوك الاسلام ومفحمات الاقران في مبهمات القرآن للسيوطي وغير ذلك من الكتب النفيسة .

المشرقيات العربية في انكلترا والولايات المتحدة

من أول ما نشر الانكليز من الكتب كتاب التصريف لابي القاسم خلف بن عباس الزهراوي .

ونشر (بوكوك) مختصر الدول لابي الفرج الملطي ونظم الجوهر لسعيد ابن بطريق.

و (كورتون) الملل والنحل للشهرستاني وعقيدة أهل السنة للحافظ النسفي ورحلة البطريك مكاريوس .
و (لومسدون) مقامات الحريري ونفحة اليمن لاحمد الشرواني وشرح المعلقات ومختصر المعاني للقزويني وقاموس المحيط للفيروزابادي .
و (ناسو) الكشاف للزمخشري وتاريخ الخلفاء للسيوطي ونوادر القليوبي وفتوح الشام للواقدي وفتوح الشام للبصري وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ونخبة الفكر لابن حجر العسقلاني .
ونشر (هاريس خون) ذكر فتح الاندلس لابن عبد الحكم .
و (همر) شوق المستهام في حل رموز الاقلام لابن وحشية .
و (بالمر) ديوان زهير المصري ؛
و (صموئيل لاي) الاشارات في معرفة الزيارات للهراوي .
و (ربت) الكامل للمبرد ورحلة ابن جبير ومجموعة سماها جُرْزة الحاطب وتحفة الطالب فيها ديوان طهمان بن عمر الكلابي تأليف ابي الحسن السكري وتلقيب القوافي لابن كيسان وصفة السرج واللجام لابن دريد والسحاب والغيث وأخبار الروادلة .
و (أميدروس) تاريخ الوزراء للصابي وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي .
و (برونو) كتاب الموشى للوشاء والاتباع والمزاوجة لابن فارس .
و (كارلايل) مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة لابن تغري بردي .
و (مرجليوث) معجم الادباء لياقوت الحموي والانساب للسمعاني ونشوار المحاضرة للتنوخي ورسائل المعري وديوان التعاويذي .
و (فنكل) ثلاث رسائل للجاحظ فيها الرد على النصارى وذم أخلاق الكتاب ورسالة القيان .
و (ارنولد) كتاب المنية والامل المرتضى في ذكر المعتزلة .
و (كاسل كاي) مجموعة في تاريخ اليمن لعمارة والمختصر من العبر لابن خلدون وأخبار القرامطة في اليمن للجندي .
و (هرشفيلد) ديوان حسان بن ثابت .

و (كركنوف) قصيدتين لمزاحم العقيلي وديوان عمرو بن كلثوم التغلبي والحارث بن حلزة اليشكري والطرماح والصحاح للجوهري وكتاب للعقيلي .
و (مهرمان) معيد النعم ومبيد النقم للتاج السبكي .
و (لايل) دواوين عامر بن الطفيل وعبيد بن الابرص وعمرو بن قميئة والمفضليات للضبي مع شرح أبي محمد القاسم الانباري والمعلقات العشر بشرح التبريزي .
و (نيكلسون) كتاب اللمع .
و (بفن) نقائض جرير والفرزدق .
و (مرجليوث) مع (جير) الالماني حماسة البحتري .
و (ستوري) الفاخر للمفضل بن سلمة .
و (مكارتني) ديوان ذي الرمة بشرح الانباري .
و (منغانه) الدين والدولة لابن رُبَّن .
و (ستروتم) فتوح الحبشة لاحمد ابن عبد القادر بن سالم بن عثمان .
و (روس) ظفر الواله في تاريخ كجرات للالغجاني .
و (كوست) تاريخ مصر وولاتها للكندي .
و (غويت) كتاب عبد اللطيف البغدادي .
ونشر (بوبر) الاميركاني النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي .
و (كوتهيل) الاميركاني تاريخ قضاة مصر للكندي وكتاب المطر لابي زيد .
و (كرنيليوس فانديك) الاميركاني رسالة في مرض الجدري والحصبة للرازي .
و (طوري) الاميركاني فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم .
و (جرث) الاميركاني الجزء الثامن من تاريخ مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي .
و (كونبج) الاميركاني تاريخ حكام مصر للكندي .
و (جاسترو) الاميركاني كتاب ابي زكريا يحيي بن داود هيوج .

المشرقيات العربية في ايطاليا واسبانيا والبرتغال :

كانت إيطاليا أول الأمم الغربية التي ذهبت بفضل السبق في نشر الكتب العربية ، فقد أحيا علماؤها المستعربون في مدينة البندقية سنة ١٤٧١ تآليف يحيى بن ماسويه الأصفر الحراني في الطب والفلسفة وطبعوا قانون ابن سينا في الطب مع كتاب النجاة في سنة ١٥٩٣ وبعدها نشروا رسائل أخرى في المنطق والطبيعة والكلام للرازي وطبعوا تحرير أصول أقليدس للطوسي.

ونشر (آماري) المكتبة العربية الصقلية وفيها جميع ما ورد في كتب العرب عن جزيرة صقلية وطبع الشروط والعقود السياسية بين جمهوريات ايطاليا وسلاطين مصر وغيرهم وكتاب الاشارات للهروي .

و (لانزوني) القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف وكتاب النخلة للسجستاني .

و (روبيزو) كتاب الأرصاد الكلية .

و (كايتاني) تجارب الأمم لابن مسكويه .

و (جويدي) شرح بانت سعاد لابن هشام وكتاب الأفعال لابن قوطية والاستدراك لأبي بكر الزبيدي .

و (كيسب فللا) كتاب ديوان مصر وزاد المسافر ورسالة لقسطا بن لوقا .

و (سكيابارللي) ديوان ابن حمديس الصقلي وجزءاً من أنس المهج وروض الفرج ورشدة الطالب في أسمى المطالب لابن بسام وعلم الشعر لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب .

و (نللينو) زيج البتاني في الفلك والبيان لابن رشد .

و (غريفيني) فقه زيد بن علي وديوان الاخطل والطبقات لأبي بكر الزبيدي ونصوصاً عربية في صقلية وقصيدة منسوبة لامرئ القيس وقصيدة قدم بن قادم وقصيدة الأعشى «ما البكاء» وأعد للطبع لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية للأمير عثمان بن ابراهيم النابلسي .

والآنسة (كودني) آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان لاسحق بن حسين المنجم .
و (بومجي) مقامات أبي طاهر التميمي .
و (روميو) كتاب الفرغاني في الطب .
و (برتولوميو) كتاب النحل للسجستاني .
و (كوزالوشي) و (لاغومينا) الصكوك المعينة على تاريخ استيلاء العرب على جزيرة صقلية ملحقاً للمكتبة الصقلية التي نشرها آماري .
وأنت ترى ان ما سما الايطاليون الى نشره أولاً كتب العلوم المادية فتداركوا من الضياع بعض ما أبقته الأيام من الكتب ، ولقد وضع السويسري سوتر من علماء المشرقيات كتاباً فيمن اشتغلوا من العرب بالعلوم الرياضية والفلك فقط فكان عدد من وصل الى تراجمهم نيفاً وخمسمائة رجل ُفقدت الآن أكثر كتبهم .
ونشر (بانكري) الاسباني كتاب الزراعة لابن العوام .
و (كازللا) لغز قابس .
وأهم ما نشره علماء المشرقيات الاسبان المكتبة الأندلسية . نشرها (كوديرا) .
و (ريبرا) وهي الصلة لابن ُبشكوال وبغية الملتمس في تاريخ رجال الاندلس والمعجم لابن الابار والتكملة لكتاب الصلة لابن الابار أيضاً وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي وفهرس ما رواه عن شيوخه أبو بكر ابن خليفة الاشبيلي .
و (اميليولافونت) أخبار فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم .
و (كيروس) علم ما بعد الطبيعة لابن رشد .
و (آسين) المدخل لصناعة المنطق لابن طملوس .
و (كنساليس) تقويم الذهن للداني .
و (ريبرهطرغوه) القضاة بقرطبة للخشني القروي .

و (شانجاس) اختصار الجبر والمقابلة لابن بدر .
و (غسبار) ريحانة الكتاب للسان الدين ابن الخطيب والجزء الثاني والعشرين من نهاية الأرب للنويري .
و (هويتي) كتاب التواريخ لابن بسام .
و (كلارزا) فلسفة الاسلام والغربيين .
ونشر (لوبس) البرتقالي كتاب أحوال البرتقاليين في مالابار الهندية للشيخ زين الدين وكتابات عربية متعلقة بالبرتقال .
و (صوصه) الصكوك العربية المتعلقة بتاريخ البرتقال .

المشرقيات العربية في روسيا وبولونيا وفنلندرا وهنغاريا وتشكوسلوفاكيا

أولع الروسيون بنشر خلاصات من كتب العرب فكانوا أشبه بالافرنسيين في هذا المعنى ، ومع هذا نشر من أبنائهم (كركاس) الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري .
و (غوتولد) تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الاصفهاني ومعجماً للقرآن والملقات .
و (كولسون) الأعلاق النفيسة لابن رستة .
و (خانيكوف) ميزان الحكمة للخازني .
و (بتروف) طوق الحمامة لابن حزم .
و (روزن) تاريخ الذيل الذي صنفه يحيى بن سعيد بن يحيى الانطاكي ومصنفاً في الجبر لأبي جعفر الخوارزمي .
و (كراتشقوفسكي) ديوان الوأواء الدمشقي .
ونشروا رحلة ابن فضلان والصور السمائية لعبد الرحمن بن عمر الصوفي ويعرف بكتاب الكواكب الثابتة .
ونشر (كوفالسكي) البولوني ديوان قيس بن الخطيم .
و (رودلف دفوراك) ديوان أبي فراس الحمداني .

ونشر (ولين) الفنلاندي حائية ابن الفارض « أوميض برق بالأبيرق لاحا » مع شرح عبد الغني النابلسي عليها .

ونشر (تلكويست) الفنلاندي المغرب في حلى المغرب لابن سعيد .

ونشر (غولدصهير) المجري كتاب المعمرين للسجستاني وفضائح الباطنية للغزالي وكتاب مهدي الموحدين محمد بن تومرت وديوان الحطيئة جرول بن أوس ومعاني النفس ومقالة لكاتب اسرائيلي في أسماء الله الحسنى وصفاته تعالى .

الدانيمرك والسويد ونروج :

نشر (مهرن) الدانيمركي عجائب البر والبحر لشيخ الربوة وعدة تآليف لابن سينا منها رسالة حي بن يقظان ورسالة في أسرار الحكمة المشرقية .

ونشر (تورنبرغ) السويدي تاريخ الكامل لابن الأثير والأنيس المطرب لابن أبي زرع الفاسي .

و (كرلولندبرغ) السويدي الفتح القسي في الفتح القدسي لعماد الدين الاصفهاني وديوان زهير بن أبي سلمى للاعلم الشنتمري .

ونشر (موبرج) السويدي درج الغرر ودُرج الدرر الميكالي .

و (نيبرغ) ثلاث رسائل لابن عربي وهي انشاء الدوائر وعقلة المستوفز والتدبيرات الالهية وكتاب البهجة لابراهيم الشبستري والانتصار في الرد على ابن الراوندي .

ونشر (بروخ) المفصل للزمخشري .

و (سترستين) السويدي تاريخ سلاطين مصر والشام وحلب وبيت المقدس وأمرائها لابراهيم مغلطاي وقطعة من كتاب تهذيب اللغة للأزهري .

الخلاصة :

هذا بعض ما أحياه علماء المشرقيات في الغرب من أسفار أجدادنا ، وهذه الجريدة أدنى الى أن تكون قائمة غير مستوفاة لأن بلاد الغرب

كبيرة ، والاستقصاء متعذر بعد عمل القوم هناك قروناً طويلة . وما زالت هذه اللغة كما قلنا مرة من لطف الله بها يخدمها الأعاجم ، ويغار عليها من ليسوا من أبنائها ، وقد يحسن الدخيل خدمتها أكثر من الأصيل. خدم الأعاجم حضارة العرب كثيراً في العهد القديم ، والأعاجم في العهد الحديث ما خرجوا عن هذه السنة معها ، وبعد فلولم يشرع الغربيون بنشر كتبنا منذ القرن الخامس عشر للميلاد لتأخر النور عنا مدة ، ولكان ضاع جانب من ثروتنا العلمية ، ولو حدث الانتباه في الغرب للحصول على كتب العرب في القرن العاشر للميلاد مثلاً لحفظت كنوز كثيرة تبعثرت بالحروب الصليبية في الشام ومصر ونكبة هولاكو في بغداد وفجائع البربر والاسبانيين في الأندلس ، وغير ذلك من الخطوب المدلهمة التي أصيبت بها كتب العرب من إحراق وإغراق وتمزيق وتفريق . ومع هذا فان هذه المادة الصالحة التي تلقفها الغربيون من أسفارنا بعد زمن نهضتهم ، قد أحيت معالم حضارتنا ، ولولا عنايتهم البالغة لضاع أكثر ما أبقته الايام لنا ، لأن ما حفظ من كتبنا في بلاد الغرب الأقصى والأدنى ومصر والشام والعراق والحجاز واليمن والهند وفارس وبخارى والاستانة وغيرها هو بقايا ضئيلة من تلك التركة العظيمة .

توفر المستعربون على طبع ما ظفروا به من كتبنا ورأوا مصلحة للعلم والآداب أو للسياسة والاستعمار غرضاً في إحيائه قبل غيره ، وقلما طبعوا كتاباً أو رسالة إلا عن فكر ولمقصد ، موفرين العناية بمعارضة النسخ بنسخ مثلها ، والرجوع الى المظان المنقول عنها ، يجعلون ذلك في الهوامش ، ويحشونها بالفوائد والاستدراكات والملاحظات وحل المشاكل والمفردات . وكانوا يكتبونها لأول الأمر باللاتينية لغة العلم عندهم ، ثم أخذ كل واحد يكتبها بلغته أي لغة الناشر ، ويفردون لكل كتاب فهرساً بل فهارس للأعلام من البلدان والجبال والأنهار والطرق والجسور والجوامع والمدارس والشوارع والدروب والأبواب والأسواق والأشخاص والقبائل والأمم

وأسماء الكتب التي وردت في متن الكتاب ، ويشفعونها بفهرس القوافي والأمثال وأيام العرب ان كان السفر من كتب الشعر والأدب ، وبفهرس المفردات ان كان الكتاب في اللغة والطب والهندسة والطبيعة والحكمة والجغرافية والفلك والحيوان والنبات الى غير ذلك مما يجزل الانتفاع من مطبوعاتهم ويقرب منالها على الطالب . وقد ينشرون الأصل من كتاب وينقلونه الى لغة من لغاتهم أو يقدمون له مقدمة فيها مزايا الكتاب وما يمكن أن يستفيد منه العلم الآن وكم من مقدمة حملت روح الكتاب وأرواحاً جديدة مع روحه .

وكل ما طبعه أولئك الأعلام ينمّ عن صبر طبيعي فيهم ، ودؤوب غريب ، وأمانة يصفق لها ، وتحرٍ للحق ، وتحرج من التلفيق ، حتى غدت مطبوعاتهم إلا ما ندر منها مثال النظر البليغ ، والطبع الجميل ، وأكبر معوان على المراجعة والمطالعة والانتفاع بالكتاب حق الانتفاع . وكم من كتاب عظيم ظهر في الشرق غفلاً من الفهارس التي تقرب مناله فما هو ان نقل الى الغرب حتى تصدى بعض علمائه ووضعوا له الفهارس ليتم الانتفاع بهِ ، كما فعلوا بكتاب الأغاني وأمالي القالي وغيرهما . وعلى العكس رأينا بعض الطابعين في الشرق ممن استحلوا انتحال طبعات علماء المشرقيات من الغربيين ، فأعادوا طبعها في شناعة صورة معراة من حواشيها وفهارسها ، ولم يذكروا كلمة واحدة في نسبة الكتاب الى طابعه الأول ، بل محييه من العدم وصاحب الفضل الأكبر في إخراجه للناس .

لم يصدر المستشرقون الكتب العربية على عجمتهم سليمة من الشوائب في الجملة ، ونحن على عربيتنا قد نرتكب في إحياء كتبنا أغلاطاً فظيعة ، ذلك لأننا نحاول أن نعمل عمل شهر في يوم ، وأن لا نتعب أنفسنا في البحث والتفكير ، فيأتي عملنا خِداجاً قبل أوانه ، ويأتي عملهم تام التراكيب ، مشبعاً بالتحقيق والتمحيص ، فنحن نُخدج وهم ينضجون .

ومع هذا نرى بعض المتحذلقين منا يرمون المستعربين بعدم الفهم ، اذا ظفروا لهم بغلطات معدودة في كتاب طبعوه . وهم لو أتي اليهم الأصل الذي طبع عنه المستعربون لارتكبوا أضعاف أغلاطهم ، وربما تعذر عليهم الاهتداء الى وجه الصواب في النقل والنشر ، ويقال لمن يعاجز هؤلاء الأعاجم ، ويذكر لهم هنات قليلة غاضاً الطرف عن سلسلة حسناتهم : هيا ائتنا بتأليف كتآليفهم التي يحيونها ، ونحن نتسامح معك في عدد الهفوات التي تسقط فيها . الانتقاد سهل ولكن الصعوبة في الابداع والايجاد .

وينتقد بعض من نظروا في الكتب التي طبعها المستعربون أن حروفها العربية ليست من جمال الهندام على مثال حروف المطابع في مصر والشام والاستانة ، ولهم بعض الحق في ذلك لأن الطابعين هناك اعتمدوا على هذه الحروف التي هي أشبه بالقاعدة المغربية ، وبها طبعوا معظم ما طبعوه منذ القرن السادس عشر ، على أن بعض مطابع انكلترا وفرنسا وألمانيا وايطاليا والسويد أخذت في العهد الأخير تبدل الأمهات القديمة بأمهات من الحروف الجديدة على القاعدة الاسلامبولية وغيرها ، فأخذت مطبوعاتهم تخرج علينا بهذا الضرب من الحروف المشرقة . وكيف كان الحال فالسعيد في نظرنا من يتهيأ له اقتناء خزانة من هذه المطبوعات العربية في الديار الغربية ، لأنها نادرة لقلة ما يطبع منها ، وبعد الزمن الذي قضى بنفادها ، وما نخال المستعربين ارتقوا في عدد ما يخرجون منها عن بضع مئات ، ولعلهم يجمعون بعد الآن الى هذا المقصد العلمي المقصد التجاري أيضاً ، فيكثرون من عدد النسخ المطبوعة ليشترك العربي في اقتناء كتب أجداده ، وتعم الفائدة وينجو المستعربون بعض الشيء من استحلال بعض الطابعين سرقة كتبهم وطبعاتهم في بعض بلاد الشرق .

وبعد فما برح العارفون منا يقدرون عمل المستعربين قدره ، بل يعجبون به ويمجدونه ، قال لي أستاذي علامة الشام الشيخ طاهر الجزائري : أليس من الغريب أن يكون تفسير القاضي البيضاوي المطبوع في ألمانيا

أصح من الطبعة التي طبعت في الاستانة ؟ وسمعت أستاذي الشيخ محمد المبارك يقول : لاحظت مع الجماعة الذين نجتمع وإياهم على قراءة سيرة ابن هشام ان الطابع الافرنجي عُني بطبعها وخدمها أكثر من عناية المصححين لها في المطبعة الاميرية في مصر اه .

وهذا من عجيب تدقيق علماء المشرقيات وسلامة نظرهم ، يحسنون طبع تفسير قرآننا وسيرة رسولنا أكثر مما نحسنها ، على حين نحن لم نحرص في كل عصر على شيء حرصنا على علوم الدين ومقوماته ، وأغفلنا ما عداها من العلوم إلا قليلاً . لا جرم أننا لم نصل الى اليوم في مصر والشام الى محاكاة الغربيين في باب العناية بطبع كتبنا ونشرها سليمة مقبولة ترتاح النفس اليها ويعول المحققون في تآليفهم عليها .

لولا عناية المستعربين باحياء آثارنا لما انتهت الينا تلك الدرر الثمينة التي أخذناها من طبقات الصحابة وطبقات الحفاظ ومعجم البلدان ومعجم الأدباء ومعجم ما استعجم وفتوح البلدان وفهرست ابن النديم ومفاتيح العلوم وطبقات الأطباء وأخبار الحكماء والمقدسي والاصطخري وابن حوقل والهمداني وشيخ الربوة وابن جبير وابن بطوطة الى عشرات من كتب الجغرافية والرحلات التي فتحت أمامنا معرفة بلادنا في الماضي وبها وقفنا على درجة حضارتها . لولا إحياؤهم تاريخ ابن جرير وابن الأثير وأبي الفدا واليعقوبي والدينوري والمسعودي وأبي شامة وابن الطقطقي وحمزة الاصفهاني وأمثالهم لجهلنا تاريخنا الصحيح وأصبحنا في عماية من أمرنا . ولو جئنا نعدد حسنات دواوين الشعر وكتب الأدب والعلم التي أحيوها لطال بنا المطال في الذي أوردناه من أسمائها فيما سلف غنية ، والمقصود بيان تلك المزايا ، والاشادة بالأيادي البيضاء التي أسداها القوم لآدابنا .

أعلى دي ساسي ودي سلان ورينو وفليشر ووستنفيلد وفلوغل وفريتاغ وموللر وسخاو وآلورد ودوزي ودي خوي وجوينبول وهوتسما وفان فلوتن وليس ورَيْت واميدروز ومرجليوث وبوبر وبفن ولايل ومكراتني وجويدي

ونلّلينو وكودرا وريبرا وغولد صهير وكركاس وروزن وغوتولد وتورنبرغ ومن تبعهم ومشى على أثرهم ممن طبعوا الأمهات أو طبعت تحت نظارهم وتحقيقهم — هؤلاء الرجال أعلوا مقام المشرقيات في الغرب . فان فضل كل واحد منهم بما نشر كفضل المؤلف في تأليفه وقد لا يكون التأليف من الصعوبة بالمكان الذي يقع فيه من يحاول إحياء تأليفه بعد أن تعاورته النساخ بالمسخ والتحريف . ومصيبة الأخذ من المخطوطات القديمة لا يشعر بها كل الشعور إلا من أصيب بها ، فان منها المهمل الذي لا إعجام في حروفه ومنها المشبك ومنها المحشى المهمش بأشياء تزيد البلاء في استثبات ما قاله المؤلف الأصلي . وأعظم الخطوب في ذلك أن ينسخ الناسخ ما لا يفهم معناه ولا مبناه وهناك البلية كل البلية .

فاحياء الأسفار على هذه الصورة فيما نرى تأليف وزيادة . ووستنفيلد وفليشر وفلوغل ودوزي ودي خوي وريت ومرجليوث وتورنبرغ وسخاو مثلاً بإحيائهم عشرات من كتبنا هم من أعظم المحسنين لآدابنا . ولسنا نذكرهم ونذكر رفاقهم مها قلّ عملهم في نظر المتشدقين إلا بالرحمة والاعظام ، ونعدهم أساتذتنا في نشر الكتب والتأليف والنقد . فعلى الأموات منهم الرحمة وعلى الأحياء السلام .

* * *

هذه أسماء المصادر التي اعتمدنا عليها في كتابة هذا الفصل :

(١) تاريخ علماء المشرقيات في أوربا من القرن الثاني عشر الى القرن التاسع عشر لدوكا (بالفرنسية) . (٢) تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر للأب لويس شيخو . (٣) اكتفاء القنوع بما هو مطبوع للدكتور ادوار فنديك . (٤) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان . (٥) غرائب الغرب لمحمد كرد علي . (٦) مجلة المشرق . (٧) مجلة المقتبس . (٨) مجلة المجمع العلمي العربي . (٩) المجلة الآسياوية البارزية . (١٠) مجلة العالم الاسلامي البارزية . (١١) مجلة الدروس الشرقية الايطالية .

دمشق : سنة ١٩٢٧

نهضة العرب العلمية في القرن الأخير

للأمير شكيب أرسلان

تمهيد :

لقد تكلمنا منذ أيام في النادي العربي عن نهضة العرب السياسية وسيرهم في طريق الاتحاد فيما بينهم اقتداءً بغيرهم من الأمم اللاتي كن مفككات مبعثرات ، فما زلن يسعين في الانضمام الى أن أصبحن كتلة واحدة . ونحن نتكلم الآن عن نهضة العرب العلمية التي هي في الواقع أساس النهضة السياسية مختارين لهذه المحاضرة مكان المجمع العلمي الذي هو المنبر الطبيعي للمباحث العلمية كما اخترنا النادي العربي منبراً للكلام عن الوحدة العربية التي هي من مباحثه ، وإنما كان الفرق بين البحثين أن الواحد منها سياسي صرف لا يجوز الخوض فيه إلا بالمقدار الذي تسمح به المصلحة ، وأن الآخر علمي بحت يقدر أن يستقصي فيه الباحث ما شاء دون أن يتعرض لمحذور أو يعرض أمته لضرر ، وبهذه المناسبة أعلن أني آسف بل جد آسف من أن أرى بعض اخواننا معتقدين ان الانسان إذا حاضر في باب السياسة وجب عليه أن يفرغ جعبته من أولها إلى آخرها ، وأن يجهر بكل ما يدور في خلده كما لو حاضر في باب العلم ، فهذا لا شك مذهب من يسميه الافرنج « بالولد المائل » ومن ليس في الواقع جديراً بان يطرق باب السياسة أصلاً بل بين هذا والسياسة ما بين المشرق والمغرب ، فنحن لا نرضى أن نكون من الأطفال المائلين ولا من الذين لا يعرفون الى أين يذهب الكلم ، بل نحن ولله الحمد من أمة اشتهرت بالمرونة والدهاء وسرعة اللحظ وقد جاء في أمثالها : اللبيب من

الاشارة بفهم ، ولقد كان هاديها الأعظم (ﷺ) إذا أراد غزوة ورّى بغيرها ، ومنا الذي يقول :

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

وقائل هذا البيت هو الذي قال فيه سيدنا عمر رضي الله عنه أنه أشعر العرب لقوله : ومن ومن ، ثم أبدأ بالكلام عن نهضة العرب العلمية فأقول :

منذ عشر سنوات (أي سنة ١٩٢٧) اقترح علي الطيب الذكر الأستاذ يعقوب صروف صاحب مجلة المقتطف الذي انتهت اليه رئاسة المجلات العلمية أن أكتب الى المقتطف شيئاً في موضوع النهضة الشرقية في هذه الخمسين سنة الأخيرة ، فكتبت يومئذ فصلاً ظهر في أجزاء المقتطف من تلك السنة وراق العلامة المشار اليه كثيراً وقد بدأته بما يلي :

لا حاجة بنا الى القول بأن أجلى مجالي هذه النهضة كان في العلم والتعليم ، وعندي انه لا نهضة للأمم سوى النهضة العلمية فاذا وجدت هذه جاءت سائر النهضات من سياسية وعسكرية واجتماعية واقتصادية الخ ... آخذاً بعضها برقاب بعض . فاذا قلنا إن الشرق الأدنى نهض نهضة علمية كفينا تعداد سائر مظاهر نهوضه ومعارج رقيه ، لأن العلم وحده هو المفتاح وبه وحده الدخول إلى داخل البناء ، وكل نهضة لا يكون ظهيرها العلم فما هي إلا ساعة وتضمحل ؛ وقد يقال ان نهضة شرقنا هذه ضئيلة لا تستحق أن تذكر بالقياس الى معالي الأمم الراقية ، واننا لا نبرح متخلفين بمساوف شاسعة عن أمد أوربة وأميركة واليابان ، فلماذا نشغل أنفسنا بما لا يشغل حيزاً في التاريخ العام ؟ وعلى هذا نجاوب أنه ليس العلم متعلقاً بالكمال وحده ، ولا البحث موقوفاً دائماً على ما بهر النهى وبلغ سدرة المنتهى ، وإنما العلم هو ما تناول الدرجات كلها الدنيا منها والقصوى ، والبحث هو الذي به توزن مقادير الأشياء ، وتحدد نسبة بعضها الى بعض ونسبتها الى الوقت ، ثم اننا اذا تحرينا الحقيقة وجدنا الشرق العربي قد اجتاز في

هذه الخمسين سنة في طريق العلم والحضارة الحديثة مالم يتهيأ لأوربة أن تجتازه قبلاً في أطول جداً من هذا الردح من الدهر ، وذلك أنه من الطبيعي أن يسهل على المتأخر مالا يسهل على المتقدم ، لأن المتقدم قد يضطر أن يمهد الطريق وييسر ، وأما المتاخر فما عليه إلا أن يلحقه ويسير على طريق مذلل أمامه .

محمد علي الكبير مؤسس النهضة :

فالنهضة الشرقية العربية — نسميها بالعربية إخراجاً لما سواها من نهضات الشرق كنهضة اليابان والصين في الشرق الأدنى بحذائنا — قد بدأت في الواقع منذ أكثر من مائة سنة لعهد محمد علي عزيز مصر فهو أول من لحظ الخطر الحائق على جراء جموده على أساليب العمران القديمة وجعل نصب عينه تحدياً الغرب في أساليبه الجديدة حتى يتأتى للشرق أن يقاتل الغرب بسلاحه ويدفعه عنه ويستقل بنفسه ، إذ كانت سنة الله منذ وجد العمران على سطح هذه الكرة أنه كما تقوى جانب منها سطا على الآخر واجتاحه وضرب عليه الذلة والمسكنة .

فمحمد علي هو المؤسس الحقيقي لهذه النهضة الشرقية العربية ليس بوادي النيل فحسب بل في البلاد التي تجاور هذا الوادي المبارك وفي مقدمتها سورية ، وأول ما استنشق السوريون ريح الحضارة الحديثة إنما كان في زمن محمد علي وفي زمن غزاة ولده إبراهيم باشا للشام ، ثم انكفأ ابراهيم باشا إلى مصر سنة ١٨٤٠ وبقيت في سورية آثار الانتباه ونزعة التجدد ، وجد السوريون لا سيما أهل الساحل منهم ينشدون أسباب المدنية الغربية لما رأوا فيها من القوة والرفاهية ، وأنس المرسلون الأميركيون هذا الاستعداد في أهل سورية فأسسوا في بيروت كليتهم الشهيرة التي كانت النبراس الأول الذي استضاءت به سورية ، ولا يزال هذا النبراس يزهر في آفاق الشرق الى يومنا هذا . ورأت أمم أخرى (كالفرنسيين والألمان والطليان والروس)

ان أرض سورية قابلة جداً لبذور المعارف فبثوا فيها المدارس والكتاتيب وكل ذلك كان يبدأ في بيروت ثغر الشام البسام ، ففي بيروت والحق يقال ابتزغ زرع العلم العصري وأخرج شطأه ثم أنبت في جميع الشامات ثم فيما جاورها واستغلظ واستوى على سوقه يعجب حتى الزراع الأوربيين أنفسهم ، واضطرت الدولة العثمانية أن تفتح المكاتب الرشدية والاعدادية في سورية ، وان تقبل كثيرين من شبانها في مكاتبها العالية في القسطنطينية فتخرج فيها ألوف من الناشئة منهم من تقلدوا مناصب ملكية او عدلية ، ومنهم أطباء وصيادلة ، ومنهم ضباط نبغوا في الفنون العسكرية وامتازوا بين الأقران . ان ضباط العرب في العراق وسورية واليمن كلهم ممن تخرج في مكتب (بانغالتي) في الاستانة ، وقد يزيدون على ثلاثة آلاف ضابط فيما يقال .

ومع أن النهضة العلمية في مصر لم يكن الأصل فيها لا الكلية الأمريكية ولا الكلية اليسوعية في بيروت ولا مكاتب الدولة في الأستانة ، لا ينكر أن مصر كانت ميداناً لجياد القرائح السورية ، وأن أنبغ الذين تخرجوا في بيروت إنما ظهروا واشتهروا وتملقت قناديلهم بمصر ؛ هذا كما أن لمصر على الشام فضل تخريج عدد لا يحصر من أبناء هذه في العلوم اللغوية والشرعية بالجامع الأزهر وتخريج عدد كبير من أطباء سورية بالقصر العيني ، فما زال كل من القطرين المصري والشامي يشدّ الواحد منهما الآخر في كل ضرب من ضروب الرقي العقلي ، وقلما جدّ في أحدهما شيء إلا سمعت رجيع صداه في الآخر . على أن النهضة الشرقية العربية وان كان قد ذرّ قرنها منذ قرن فأكثر لم تسر هذا السير الحثيث إلا في الخمسين سنة الأخيرة التي شهدها كاتب هذه الأحرف بجميع صفحاتها ، وذلك لأني بدأت بالكتابة في الصحف وبمرافقة الحركة العلمية في سيرها منذ ٢٥ سنة متوالية ، فلي الحق إذاً بأن أدعي معرفة تاريخ هذه النهضة وما دخل فيه من التطورات على قدر ما يستطيع خادم أمين للعلم زاول عمله في مكافحة الجهل طوال مدة خمسين سنة دون أن يتخلف يوماً واحداً .

الصحافة :

لا نزاع في أن الصحافة العربية قد كانت من أقوى عوامل هـذه النهضة بما أثارته من الحركة الفكرية ونقلت من أخبار الغرب الناهض الى أهل الشرق النائم ، وقد كان بحسب معلوماتي ، وربما أكون مخطئاً في بعضها ، أول جريدة عربية صدرت في الشرق جريدة الوقائع المصرية بعهد محمد علي ، ولكن بقيت سورية مدة طويلة لا تصدر فيها جريدة ، ويقال ان أول جريدة صدرت في بلادنا هي جريدة « حديقة الأخبار » أنشأها خليل افندي الخوري من شعراء لبنان في وقته وذلك سنة ١٧٦٠ ، ثم أصدر المعلم بطرس البستاني الشهير نشرات وطنية في بيروت لذلك العهد ، ولم يلبث أن نشر جريدة أسبوعية باسم الجنة ، ثم جريدة يومية باسم الجنينة ثم مجلة شهرية باسم الجنان ، وقد التزم هذه المادة في التسمية لمناسبتها مع اسمه « البستاني » ، وكان اليسوعيون قد أصدروا في بيروت جريدة باسم البشير تغلب عليها المباحث الدينية الكاثوليكية ، ثم أصدر القس لويس الصابونجي جريدة النحلة ، وأصدر غيره جريدة اسمها النجاح ، وأصدر الأمريكيون جريدة اسمها النشرة الأسبوعية ، ثم تحرك المسلمون فأصدروا جريدة سموها ثمرات الفنون ، وكانت تصدر بادارة الشيخ عبد القادر القباني ، وقد تولى تحريرها في البداية العلامة الشيخ يوسف الأسير ثم خلفه عليها العلامة الشيخ ابراهيم الأحدب الطرابلسي ، وهذا كله كان بين ١٨٦٠ و ١٨٨٠ أي في مدة عشرين سنة ، فوجدت في بيروت في ذلك العهد عدة مطابع ، وصارت تطبع الكتب العربية بعد أن كان طبع الكتب العربية منحصراً في مطبعة بولاق المصرية وغيرها من مطابع مصر ، وكانت قد صدرت في الاستانة في أثناء الحرب القريم سنة ١٨٥٥ جريدة مرآة الأحوال وذلك بأمر الدولة وتولى تحريرها رزق الله حسون الكاتب الشهير ، وقد وقعت إليّ عدة نسخ كانت باقية عندنا من تلك

الجريدة فيها أخبار حرب القريم وغيرها من الأخبار ، ومما أتذكره أنه كان عند ذكر خديوي مصر يلقبه بسعادة عزيز مصر ، وأظن ان جريدة مرآة الاحوال هذه هي الجريدة العربية الثانية بعد تقويم الوقائع المصرية ، وقد بقيت تصدر في عاصمة السلطنة العثمانية عدة سنوات الى أن فر رزق الله حسون من الاستانة الى اوربة على اثر حادثة جرت معه ، وقيل فيها انه اختلس مالاً للدولة فلاذ بالفرار ، وكان فارس أحمد فارس الشدياق في باريس فقدم الى الاستانة وأنشأ جريدة « الجوائب » المشهورة فكانت في وقتها أشهر جريدة عربية في العالم ، وكان لها مشتركون في جميع الاقطار الاسلامية ، نظراً لبراعة كاتبها أحمد فارس المعدود من أكبر كتاب القرون الاخيرة ؛ وأما رزق الله حسون فبعد أن فر الى أوربة نشر كتاباً تحت عنوان « النفثات » نال فيه من الدولة العثمانية ، ومن صاحب الجوائب ، فأشار هذا الى كتاب النفثات بقوله : « كان حسون لصاً وله سرقات ، فانقلب صلاً وله نفثات » وأظنني غير مخطىء اذا قلت انه لذلك العهد أو بعده بقليل ظهرت جريدة في تونس اسمها « الرائد التونسي » وظهرت جريدة أخرى في مصر باسم وادي النيل ، وربما يكون قد صدر في مصر جرائد أخرى لم أسمع بها ، ولست محاولاً في هذه العجالة الاحاطة باسماء جميع الجرائد العربية التي صدرت وتواريخ صدورها ، إنما أنا أذكر الآن أشهرها على سبيل التمثيل وأقول : انه لما انتشرت جريدة الجوائب بمكان احمد فارس من علم اللغة وبراعة الانشاء وسعة المدارك كانت عاملاً قوياً من عوامل النهضة العربية الادبية ، وصار صاحبها يطبع في الاستانة من نفائس الكتب العربية التي كانت مجهولة ، والتي اطلع عليها في خزائن كتب القسطنطينية ما أعجب به العالم العربي كله لا سيما انه نشرها بالطبع الجميل ، وربما كانت خدمته للثقافة العربية بهذه المطبوعات في الدرجة الثانية عن خدمة مطبعة بولاق ، واني قد أدركت ، وانا ابن ثلاث عشرة سنة أو أربع عشرة سنة ، عهدَ احمد فارس في أواخر عمره

وكان لا يزال ، وقد بلغ من العمر عتياً ، يخدم هذه اللغة الشريفة التي كان من أعلامها ، ومن شاء أن يعلم مدى براعة أحمد فارس ومبلغ بلائه في سبيل اللغة العربية والوطن العربي ، فليراجع مجموعة كنز الرغائب في منتخبات الجوائب في كتاب يحتوي على سبعة مجلدات لا يمكن أن يستغني عنه من أراد الاطلاع على الحركة العلمية العربية والحركة السياسية العالمية بين ١٧٦٠ – ١٨٨٠ .

الحركة العلمية :

ولنعد إلى سير الحركة العلمية في سورية فنقول : انه إلى حد سنة ١٨٨٠ كانت الجرائد منحصرة في بيروت لا تتعداها إلى غيرها من مدن سورية ، ولم يكن في دمشق سوى جريدة رسمية الولاية باسم (سورية) وبعد ذلك بكثير أصدر مصطفى واصف جريدة اسمها (الشام) ، وبعده أصدر الاستاذ كرد علي جريدة سياسية في دمشق اسمها (المقتبس) ، وكذلك كانت جريدة رسمية لولاية حلب باسم (الفرات) ، وكل من جريدتي سورية والفرات كان نصفها بالتركي والنصف الآخر بالعربي وقلما كانت تنشر شيئاً خارجاً عن الأخبار الرسمية . وكانت في بغداد جريدة رسمية اسمها (الزوراء) على هذا النمط أيضاً . وأما بيروت فكانت لا تزال على تقدمها في طريق العلم والعرفان ، وأول مدرسة داخلية في بيروت كانت المدرسة الوطنية التي أسسها المعلم بطرس البستاني ثم أخذت كل طائفة من الطوائف المختلفة التي في ساحل سورية تؤسس مدرسة داخلية في بيروت ، فكانت للروم الكاثوليك مدرسة يقال لها (البطريركية) والموارنة مدرسة يقال لها (الحكمة) والمسلمين مدرسة يقال لها المدرسة (السلطانية) تولى إدارتها مدة من الزمن العلامة الشيخ حسين الجسر الطرابلسي صاحب الرسالة الحميدية في التأليف بين العلم والدين ، وكان اليهود أيضاً أسسوا مدرسة داخلية باسم المدرسة (الاسرائيلية) كان يديرها زاكي كوهين .

وكان اليسوعيون قد أنشأوا الكلية (اليسوعية) مناظرة للكلية الامريكية ؛ وكان في لبنان مدرسة فرنسية في كسروان يقال لها : (مدرسة عينطورة) انتفع منها كثير ممن اشتهروا في اتقان اللغة الفرنسية ، ثم شرع أساقفة الموارنة يؤسسون مدارس لابناء طائفتهم فكانت مدرسة (قرنة شهوان) ومدرسة (غزير) لبني زوين ومدارس أخرى متعددة ، وقد كان للموارنة من قبل هذا مدارس قديمة أكليريكية مثل مدرسة عين ورقة ومدرسة مار عبدا هرهريا ومدرسة مار يوحنا مارون ، وكان للكاثوليك مدرسة في الشوير ، وقد اطلعت على مطبوعات قديمة ترجع إلى مئة سنة أو أكثر جرى طبعها في كسروان بمطابع للموارنة منها مطبعة دير سيدة طاميش ، وكان الموارنة من القديم يطبعون بالعربية والسريانية .

ولا يجوز أن ننسى المدرسة التي قام بانشائها الامير ملحم أرسلان بمساعدة سعيد بك تلحوق لطائفة الدروز في قرية عبية ، فقد كانت من أقدم مدارس لبنان يرجع تأسيسها إلى سنة ١٨٦٢ .

وكانت تقبل الطلبة مجاناً لاعتمادها في نفقاتها على الاوقاف التي ألحقها بها الامير المشار إليه ، ولما تولى قائمقامية الشوف ابن عمه الامير مصطفى زاد الاعتناء بها وانتدب لها من الاساتذة مثل العلامة الشيخ أحمد عباس البيروتي وأمثاله ، وهي هي نفس المدرسة التي يشرف على ادارتها الآن الاستاذ عارف النكدي مدير العدلية في الدولة السورية بما اشتهر به من الدراية والامانة وعلو الهمة .

ثم نقول : إنه كان ازدياد عدد الجرائد متساوقاً مع ازدياد عدد المدارس فظهرت في بيروت بعد الجرائد المتقدم ذكرها جريدة لسان الحال لصاحبها خليل سركيس وجريدة التقدم التي كان يتولى تحريرها أديب اسحق الكاتب المشهور في وقته ، وجريدة المصباح التي أنشأها المطران يوسف الدبس مؤسس مدرسة الحكمة ، وعهد بادارتها وتحريرها إلى نقولا أفندي النقاش من أعضاء مجلس الامة العثماني ، وإلى بولس زين من أدباء الموارنة ، وكانت

مجلة المقتطف قد صدرت في بيروت لصاحبيها العلامتين الدكتور يعقوب صروف والدكتور فارس نمر ومن أول نشأتها كانت مجلة راقية حافلة بالفوائد العلمية والصناعية والتاريخية واللغوية .

ومما لا جدال فيه أن للمقتطف أثراً بليغاً في عموم النهضة العربية ولا ينكره إلا كل مكابر — ومن مساعي العلامتين الشهيرين صروف ونمر تأسيس مجمع علمي في بيروت سموه المجمع العلمي الشرقي قد ضم نخبة العلماء والادباء الذين كان يشار إليهم بالبنان ، ولم يكن هذا المجمع أول مجمع علمي في بيروت بل قد سبقه جمعية علمية تأسست قبل ذلك بنحو من عشرين سنة ، كان رئيسها الامير محمد الامين أرسلان ، وكان من أعضائها الشيخ يوسف الاسير والشيخ ابراهيم الاحدب والشيخ ناصيف اليازجي والمعلم بطرس البستاني صاحب دائرة المعارف والسيد حسين بيهم وسليم أفندي رمضان وغيرهم من علماء ذلك الوقت وأدبائه .

وفي نواحي سنة ١٨٨٤ فيما أتذكر كان الشيخ عبد المجيد الخاني الاديب الدمشقي البارع جاء إلى بيروت فذكر ما رآه فيها من الرقي الفكري وسرد أسماء جرائدها نظماً فقال :

ثمرات مقتطف الجنان بشيرها ... بلسان مصباح التقدم قائلُ
ظل المعارف وارف في أرض بيرو ... ت ورهط الفضل فيها قائلُ (١)

ثم أنشأ علي بك ناصر الدين مجلة اسمها الصفاء، صارت فيما بعد جريدة سياسية ولا تزال إلى هذا اليوم قائمة حق القيام بخدمة العلم والادب ، وقد كان لي فيها أول مقالة صدرت من قلمي وذلك سنة ١٨٨٥ ، وأصدر عبد القادر أفندي الدنا جريدة باسم بيروت كان يكتب فيها الاستاذ البليغ السيد مرتضى الجزائري ابن أخي المغفور له الامير عبد القادر .

(١) الاولى من القول والثانية من القيلولة .

ثمانون جريدة في سورية :

ولكن عدد الجرائد لم يزدد هذا الازدياد الرائع إلا بعد إعلان الدستور العثماني ، ومن قبله صدرت جريدة طرابلس التي كان ينشئها الشيخ حسين الجسر ، ولم يكن جريدة سواها تصدر في غير بيروت من مدن سورية إلا أنه لما أعلن الدستور العثماني وتقررت حرية الصحافة أخذت الجرائد تنتشر بسرعة عظيمة فلما نشبت الحرب الكبرى كان ينشر في سورية وفلسطين ثمانون جريدة موزعة بين بيروت ولبنان ودمشق وطرابلس واللاذقية وحمص وحماة وحلب وصيدا وحيفا ويافا والقدس ، وكانت تظهر في هذه البلاد مجلات شهرية وأسبوعية لا تقل عن بضع عشرة مجلة ، ولا نجد لزوماً لسرد أسماء جميع هذه الجرائد وهذه المجلات . وهذا أول دليل على سرعة الرقي العلمي في سورية ، وليس في الكلام أفصح من الارقام ، فوفرة الجرائد دليل على وفرة عدد القراء ، ووفرة عدد القراء دليل على صدق عمل المدارس ، نعم إنه لا يزال عدد الاميين كثيراً في هذه البلاد وربما بلغ مع الاسف ٦٠ بالمئة ، ولكن المظنون بحسب ما نراه من إقبال الاهلين على تعليم أبنائهم أنه لا يمضي عشر سنوات حتى ينزل عدد الاميين إلى ٢٠ بالمئة . وقد كان في بيروت بضع عشرة مطبعة فتضاعف هذا العدد مرتين وثلاثاً ، وتأسست مطابع كثيرة في سائر المدن السورية ، وليس عمل هذه المطابع كله منحصراً في طبع الجرائد بل هي تقوم بطبع الكتب التي لا تطبع إلا إذا كان أصحاب المطابع يجدون لها عدداً كافياً من المشترين . وان مكانة الصحافة الآن في سورية ولبنان بالقياس إلى عدد أهلها لا تقل عن مكانة الصحافة في أوربة ، فأما في مصر فمما لا شك فيه أن الصحافة أرقى منها في سورية لان ثروة مصر أعظم من ثروة سورية بكثير ، وقد كان في أثناء ثورة عرابي باشا أي سنة ١٨٨٢ يصدر في مصر بضع جرائد لاغير منها الاهرام واللطائف والمفيد وغيرها ، فما زال عدد الجرائد يرتقي إلى أن

تضاعف مراراً ، وأن بعض جرائدها اليومية تصدر بثماني صفحات أو ست عشرة صفحة . ومنها جرائد مصورة كثيرة وربما تطبع الواحدة من جرائد مصر الكبرى من ٣٠ إلى ٤٠ ألف نسخة وقد أكد لي أحد الاخباريين الاوربيين الذين يراسلون الاهرام من أمهات الجرائد المصرية أن هذه الجريدة لو وضعت في جانب صحف باريس في الاتقان وسعة النفقات وكثرة القراء لكانت معادلة لاحسنها .

ولما كانت الامثال أحسن مظهر لحقائق الاشياء وأبلغ مؤثر في النفوس رأيت الآن ايراد مثال وقع معي ، وكنت قد ذكرته في مجلة المقتطف ، ومنه يتبين الفرق الهائل بين حالة الصحافة في مصر منذ ٤٠ سنة وحالتها منذ عشرين سنة .

قلت في المقتطف : انني كنت زرت مصر سنة ١٨٩٠ ، وكنا نجتمع في مجلس الامام الشيخ محمد عبده ، وأكثر ما كنا نسمر عند سعد باشا زغلول وهو يومئذ سعد أفندي زغلول وكان من المحامين المشهورين بمصر ، وكان ينتاب تلك الحلقة شيخ شخت الخلقة اسمه الشيخ علي يوسف ، إذا أتى جلس في آخر المجلس ساكناً ولبث اكثر المجلس مستمعاً تكاد ترثي له لضعفه ولمسكنته ، وكان قد بدأ باصدار جريدة اسمها المؤيد كانت تظهر مرتين بالاسبوع وهو يعجز أن يجعلها يومية إلا أن هذا الرجل على ضؤولة جسمه كانت بادية عليه سيماء الهمة والعزم فزرته مرة في مطبعة المؤيد فرأيته جالساً على مقعد رث لا يسع أكثر من ثلاثة جلوس بعضهم ملزوز إلى بعض ، وأمامه منضدة بدون غطاء عليها من بقع الحبر ما يهول الناظر وهو يعالج تحرير مقالته في دخول العام الهجري الجديد حينئذ ، ولا يعرف كيف يصوغها وكانت بجانب الغرفة غرفة ثانية فيها المطبعة ، وبين الغرفتين باب مفتوح وأنا من مكان جلوسي أرى منضدي الحروف من خلال ذلك الباب يصفون الحروف ، ثم اني رأيت الشيخ علياً في تعب زائد مع مقالته هذه عن الحول

الجديد ، وهو يكتب ويطلس ويمحو فقلت له : لو قلت كذا وكذا ... فأجابني : بالله عليك تكتب أنت هذه الافتتاحية فكتبتها أمامه ، هذا وبعد ٢٠ سنة من ذلك العهد جئت إلى مصر .

المؤيد تطبع ٣٠ ألف عدد :

وأنا ذاهب إلى حرب طرابلس فماذا وجدت ؟ وجدت جريدة المؤيد من أعظم الجرائد اليومية في مصر تطبع في كل يوم من ٢٠ إلى ٣٠ ألف نسخة ، ووجدت إدارة المؤيد تكاد تكون قصراً من قصور الامراء فيها الزرابي المبثوثة والطنافس الحريرية الفاخرة بدلاً من ذلك المقعد الحقير ، عليه ذلك الغطاء القديم من الشيت بدون حشوة ، ووجدت مطبعة بخارية من أكبر المطابع كان صاحب المؤيد اشتراها بخمسة آلاف جنيه ، مع أن تلك المطبعة القديمة التي رأيتها من قبل ما كانت لتساوي ١٠٠ جنيه .

ثم وجدت الشيخ علي يوسف نفسه من أكتب كتاب مصر وأسيلهم قلماً ، فضلاً عن اني وجدته عيناً من أعيان مصر وأشهرهم ذكراً ، ولم يغفل الشيخ عن أن يذكرني بزيارتي الاولى عندما كان على تلك الحالة الرثة ، وأن يقابل بها حالة الترف التي رأيته عليها يوم زيارتي الثانية ، فهذا المثل البارز كافٍ لقياس درجة الرقي الفكري في الشرق [1] .

انتشار الصحافة في العالم الاسلامي :

ولقد كانت الصحافة العربية فيما مضى منحصرة في القطرين المصري والشامي فصارت الآن منبثة في جميع الأقطار العربية ، ففي العراق بضع عشرة جريدة ومجلة منها ما هو في البصرة ، وكذلك ظهرت جرائد في

---

(١) لا حاجة بنا الآن إلى سرد أسماء الجرائد المصرية الكثيرة، ولا إلى سرد أسماء الجرائد السورية الصادرة في دمشق وحلب وبيروت وفلسطين ولا الى ذكر المجلات الشهيرة كالمقتطف والهلال والرسالة وأمثالها ، فان الأعلام الشهيرة لا تعرّف ولا تحتاج الى تعريف .

الحجاز قد كان أولها جريدة القبلة في زمن الملك حسين ، ولما استولى ابن سعود على الحجاز استبدل بها أم القرى ، ثم ظهرت جريدة اسمها صوت الحجاز في مكة وجريدة ومجلة في المدينة المنورة ، وصدرت جريدة الايمان للحكومة اليمانية في صنعاء ، وصدرت جرائد عربية وراء البحار أشهرها جريدة حضرموت في جاوة ، كما انه يوجد في الهند مجلة عربية اسمها الضياء للاستاذ مسعود الندوي .

أما في المهجر فان للعرب نحواً من ٣٠ جريدة ومجلة : منها ما هو في أمريكة الشمالية وما هو في أمريكة الجنوبية ، وفي المهاجر العربية هناك من الكتاب والشعراء والأدباء والأطباء والفلاسفة نفر تفخر بهم أوطانهم ، وهم جزء متمم للعالم العربي الأدبي لا يتم إلا بهم ، واني اشبه الجاليات العربية في وسط هاتيك الأمم الأجنبية التي تحصى بمئات الملايين بجزائر عربية صغيرة في أوقيانوس من العجمة لا نهاية له ، وقد احتفظت مع ذلك هذه الجزائر الصغيرة بلغتها العربية وآدابها وأذواقها ومنازعها ومشاربها ، وهذا لعمري برهان الأصالة والنبالة وعلو الهمة ، فان الذي يخجل بوطنه وقومه ليس بانسان ، وفي نيويورك شارع كبير خاص بالعرب تجد فيه على أبواب المخازن العناوين العربية فوق الانكليزية ، وتنظر المطاعم العربية التي تطهو من المآكل الشرقية المتنوعة ما يكون قد درس بتمامه في البلاد العربية الأصلية .

وانك لتسمع الموسيقى ثمة العربية كيفما توجهت سواء من المغنين أو من الآلات الحاكية ، وإذا نظرت إلى النوافذ وجدت فيها الأصص من الفخار فيها الرياحين وأكثرها من الحبق الذي يقال له الريحان في دمشق وفي لبنان الحبق ، ويظهر أن العرب يأخذون هذه الريحانة أينما ذهبوا في الأرض ، فاني قد وجدتها بكثرة في اسبانية وهي حافظة اسمها العربي فيقول لها الاسبانيول « حبقة » أي حبقة ، ومن غرائب ما سمعته عن اعتصام السوريين بعاداتهم القومية وهم في المهجر أن كثيرين منهم يسكنون

في حارات على حدة ، وربما بنوا قرى منفردة لأنفسهم ، وذلك ليكونوا أحراراً في ممارسة عاداتهم التي كانت لهم في بلادهم الأصلية ، فاذا حصلت أعراس عندهم حسبتها واقعة في نفس سورية بمـــا فيها من الأغاريد والأناشيد والزغاريد وما يقال له في لبنان « التراويد » ، وقد حضرت في نيويورك عرس فوزي بك البريدي من زحلة ، وقد اجتمع فيه أبناء العرب فخلت نفسي في زحلة أو في أية بلدة من لبنان وكذلك قيل لي انهم في الأماكن التي يسكن فيها السوريون على حدة يمارسون عاداتهم الأصلية بالمآتم فتندب النساء من جهة حول الميت ويندب الرجال من جهة أخرى ، وهم يذهبون ويجيئون وبأيديهم المناديل يهزونها في الهواء وهي ما كان العرب يقولون له المآلي واحدتها مئلاة ، إلا أن بقاء هذه الحالة عند السوريين المهاجرين لا يعدو العصر الحاضر ، لأن أعقابهم مع الأسف ذائبون إلا ندر في الجنسية الأمريكية ، وقلما رأينا من ذراريهم المولودين في أمريكا من يعرف اللغة العربية لا سيما الذين أمهاتهم من هناك ، وقد عالج بعضهم هذه الحالة وحاولوا استبقاء اللغة العربية بين المولودين في أميريكا من أبنائهم ، وفتحوا مكاتب وكتاتيب علمت بوجود اثنين منها في ديترويت مشيغن ، وحدثوني عن غيرهما ولكن هذا العوز لا ينسد مع الاسف ببضعة كتاتيب ، فالسوريون الذين في أميريكا الشمالية يزيدون على ٢٠٠ ألف نسمة ، وهم في الأميريكتين جميعاً أكثر من نصف مليون .

وقد قيل لي : إن أعلى المهاجرين العرب هماً من جهة الاحتفاظ بلغتهم هم مهاجرو العرب في البرازيل الذين عندهم مجلات راقية وجرائد مفيدة كما يوجد مثل ذلك في نيويورك ، ولم يقتصروا في البرازيل على بعض الكتاتيب لاستبقاء عروبة ابنائهم ، بل أسسوا هناك لهذا الغرض مدارس عالية ، يدرس الطلبة فيها العربية الفصحى في جانب اللغة البرتغالية التي يتكلم بها أهل البرازيل ، أما إذا بقيت أبواب المهاجرة مسدودة

على العرب في أمريكا الشمالية فلا يمضي عليهم هناك أكثر من نصف قرن حتى ينقرض منها مع الأسف كل شيء أصله عربي ، ويصير وجود العرب في تلك القارة خبراً من الأخبار التاريخية .

الصحافة العربية في شمالي أفريقية :

ولنعد إلى حديث الصحافة العربية الذي كنا في صدده فنقول : إن شمالي افريقية قد نهض في العصر الحاضر نهضة أكيدة ، وكثرت فيه الجرائد العربية والمطابع وسائر أدوات النشر التي تعول عليها كل أمة ناهضة ، ولم يكن في بادىء الأمر بغير تونس جرائد عربية مغربية ، وقد تقدم ذكرنا لجريدة الرائد التونسي التي كانت تصدر فيما أذكر من قبل احتلال فرنسة لتونس أي منذ ستين سنة وبعد ذلك صدرت في تونس جرائد أخرى ، وفي يومنا هذا تصدر في تونس عدة جرائد ومجلات راقية كالزهرة والنهضة والصواب والمجلة الزيتونية وغيرها وأما الجزائر فقد كانت تصدر فيها منذ خمسين سنة جريدة عربية واحدة اسمها المبشر ، وأظنها كانت الجريدة الرسمية للحكومة إلا أن الأهالي منذ بضع عشرة سنة نشروا جرائد متعددة في مدينة الجزائر وفي قسنطينة أذكر منها « البلاغ » « ووادي تراب » ، وأما اليوم فمن أشهرها جريدة البصائر ومجلة الشهاب ، ولم يقتصر اخواننا التوانسة والجزائريون على نشر أفكارهم في الصحف العربية التي أصدروها ، بل لأجل إمكان تفاهمهم مع الفرنسيس المحتلين لبلادهم وللمطالبة بحقوقهم عمدوا إلى نشر جرائد وطنية عربية اسلامية باللغة الفرنسية وذلك على نسق مجلتنا العربية المنهج الافرنسية الملهج « لاناسيون آراب » (1) ومثل ذلك وقع في المغرب الأقصى الذي كانت السلطة مانعة فيه الأهالي الوطنيين من نشر الجرائد بتاتاً ، خلافاً للاجانب فقد كان ولا يزال يؤذن لهم في ذلك ، بل كان محظوراً إدخال الجرائد العربية الصادرة في

(1) La nation arabe.

البلاد الاخرى إلى المغرب ، وربما عوقب من وجد قارئاً لجريدة كهذه ، إلا أن الاهالي لم يزالوا يعترضون على السلطة من اجل هذا الضغط الشديد على حرية القراءة في بلادهم حتى سمحت من سنوات لبعض الادباء باصدار مجلة علمية في الرباط اسمها المغرب أذنت لها في الظهور على شرط أن تكون موالية للحكومة فاضطر الحزب الوطني في المغرب إلى إصدار مجلة افرنسية في نفس باريز باسم المغرب Magreb جعلوا إدارتها بيد ضيف سورية الحالي روبير جان لونقة (١) الذي جاهد هو وأبوه كثيراً في النضال عن المسلمين الذين تحت حكم فرنسا وفي منحهم جميع الحريات التي لهم الحق فيها ، فلما ظهرت مجلة مغرب ، وأقبل شبان ذلك القطر العزيز ينشرون فيها باللغة الافرنسية من المقالات القيمة والآراء السديدة ما أحدث تأثيراً عظيماً في نفس باريس ، انتقمت السلطة من تلك المجلة بمنعها من دخول المغرب نفسه ، فأصبحت في المقيم المقعد مع الوطنيين الذين كانت ترأسهم عصبة العمل القومي ، ومنذ سنتين تمكن السيد محمد ابن الحسن الوزاني من زعماء النهضة الوطنية في المغرب من إصدار جريدة في فاس باللغة الفرنسية سماها عمل الشعب(٢) وجعل مديرها افرنسياً حتى لا تتمكن السلطة من تعطيلها ، فلما ظهرت هذه الجريدة وأخذت تناضل عن حقوق الأهلين وتناقش بشدة الصحف الفرنسية الصادرة هناك ، أمرت السلطة بتعطيل هذه الجريدة خلافاً للقانون ، فبقي أهل المغرب يئنون من هذا الضغط إلى أن تولت فرنسة ولله الحمد الوزارة الشعبية في السنة الماضية فراجعتها عصبة العمل القومي في موضوع حرية الاجتماع والكتابة وما زالت المراجعات مستمرة باصرار إلى أن أذنت السلطة لعصبة العمل القومي باصدار جريدتين إحداهما بالعربية اسمها الاطلس يتولى تحريرها السيد محمد اليزيدي ، وأخرى بالافرنسية اسمها العمل الشعبي (٣) يحررها السيدان أحمد بلافريج وعمر عبد الجليل من زعماء الحركة الوطنية المغربية ، وصدرت

---

(1) Robert Jean Longuet.
(2) L'action du peuple.
(3) L'action populaire.

أيضاً جريدة عمل الشعب للسيد محمد بن الحسن الوزاني ، وجريدة أخرى بالعربية يقال لها الوداد كما أنه صدرت في تطوان من المنطقة التي يحتلها الاسبانيول جريدة الحياة للسيد عبد الخالق الطوريس ومجلة السلاح للسيد محمد داود ، وأما في طرابلس الغرب فلم يكن أيام الدولة العثمانية غير جريدة الولاية الرسمية وفي الوقت الحاضر توجد جريدة للحكومة في طرابلس وأخرى في بنغازي ، ولكن الطرابلسيين يقرؤون الجرائد العربية التي ترد إليهم من الشرق والغرب بلذة زائدة ولا عجب فان علاقتهم من جهة الشرق مع مصر والشام ومن جهة الغرب مع تونس هي علاقات أقطار شقيقة وفي زنجبار من شرقي افريقية مطبعة سلطانية من قديم الزمن ، اطلعنا على كتب مطبوعة فيها ، ومؤخراً وصلت إلينا جريدة عربية صادرة في جزيرة زنجبار هذه .

فهذه هي لمحة دالة عن الصحافة العربية في الخمسين من السنين الاخيرة لانزعم فيها الاحاطة وإنما نجتزئ بالاشارة التي تعطي القارئ صورة صحيحة عن هذا البحث وبالجملة فالصحافة العربية كانت من أعظم عوامل نهضة العرب ولا تزال تتقدم الى الامام .

المدارس في العالم العربي :

ان الجرائد ليست وحدها هي المقياس الكافي لاجل إعطاء صورة صحيحة عن درجة الرقي ، بل المقياس الأكبر هو المدارس ، فمدينة بيروت مثلاً وعدد سكانها نحو من ٢٠٠ الف نسمة فيها من المدارس والجامعات ما لو قرنته بجامعات أوروبة ومدارسها لم تكن قاصرة عنها ، وربما كانت زائدة عليها إذا روعيت نسبة عدد السكان . وقد كنت منذ ٢٥ سنة في مدينة نابلس التي لم يكن أهلها يزيدون على ٢٥ الف نسمة ، فبحثت عن عدد المتعلمين في هذه البلدة فكانوا ٢٠٠٠ من الأحداث في المكاتب الاميرية ، وأحصينا عدد طلاب المدارس العالية في الاستانة فبلغوا مائة شاب ، فاذا

فاذا نظرنا إلى عدد أهالي نابلس وجدنا عدد طلاب العلم من أهلها لا يقل عما يجب أن يكون في أية بلاد راقية ، وليس هذا المثال وحيداً في بابه ، بل له أمثلة كثيرة في سورية وان كنت لا أزال أتأسف من بقاء الأمية في البلاد الى هذا الوقت أكثر مما كنت أظن وذلك بغلبة البرادي والقرى المفتقرة إلى التعليم ، ولم يكن هذا كله من تقصير الحكومة وفقد ارادة العمل ، وانما للميزانية المالية العمومية دخل في نزول درجة التعليم عما يجب أن تكون ، ومن الغريب ان الأمية في مصر لا تزال أكثر منها في سورية بالرغم من ان بين القطرين بوناً شاسعاً في درجة الثروة ، أما تقدم التعليم في سائر البلاد العربية فأكثر ما برز منه للعيان بمدة قصيرة هو في المملكة العراقية لا سيما بعد أن حصلت على استقلالها ، فانه في وقت قصير أنشئت في العراق عدة مدارس عالية كدار المعلمين في بغداد والموصل ومدرسة الطب والثانوية المركزية وعدة مدارس ثانوية متوسطة ، وعدد لا يحصى من المدارس الابتدائية ، وفي العراق المدارس المسماة (رياض الاطفال) كثيرة وهي أرقى من أمثالها في سورية ، والفضل يرجع في اتقان هذه الرياض الى المربي العربي الكبير الاستاذ ساطع الحصري ، ثم قد بلغني أن الكتبية من القاهرة وغيرها يصدرون كل سنة مقادير جسيمة من الكتب المدرسية الى العراق وان هذا يزداد عاماً فعاماً .

أما في سورية فجامعتها العلمية تتألف من كلية الطب وكليـة الحقوق والمدرسة التجهيزية الكبرى للبنين ، ومن فروعها دار المعلمين الابتدائية والعاليــة ، ومدرسة تجهيزية أخرى للبنات وفيها دار المعلمات أيضاً ، ومدارس ابتدائية كثيرة ، وفي حلب مدرسة تجهيزية ومثلها في دير الزور في حماة وأخرى في حمص ، ولو كانت الميزانية المالية كافية لقطعت سورية في أقصر وقت أبعد مرحلة في طريق التعليم ، وهذا ما نأمل الوصول اليه في غير بعيد من الزمن ولا سيما بعد أن نالت البلاد استقلالها فانه لا يرجى نهضة علمية إلا بنهضة سياسية فهاتان توأمان دائماً ، وقد بلغني من وزير

المعارف الدكتور الكيالي أنه لما ضاقت مكاتب الحكومة في هذه السنة عن استيعاب جميع الأولاد الذين يريد أهلوهم إدخالهم فيها ، أوصى الوزير مديري المدارس الابتدائية بتسجيل جميع من يريد الدخول فيها ، كما أوصى مديري الكتاتيب الأهلية الحرة بأن يقبلوا كل من يأتيهم على أن تؤدي إليهم الحكومة النفقات اللازمة ، فيقظة الأمة ولا سيما بعد استقلالها الحديث غير محتاجة إلى استدلال .

المجمع العلمي في دمشق ومصر

ولا يجوز لنا أن ننسى ذكر مجمعنا العلمي هذا الذي كان أول مجمع على نسق أكاديميات أوروبة في الاقطار الشرقية ، فانه يضم نيفاً ومائة عالم شرقي ومستشرق كلهم من ذوي الشهرة الطائرة سواء في الغرب أو في الشرق ، وللمجمع مجلة علمية من أرقى ما صدر من المجلات في العربية وأدقها بحثاً وأحسنها أسلوباً وأجمعها للنوادر وأحفلها بالفوائد ، ولا يستغني متخصص في العربية إذا أراد جد الاطلاع عليها عن اقتناء مجموعة هذه المجلة منذ صدورها ، وقد سبقت سورية مصر في تأسيس هذا المجمع ، ولكن مصر عادت فسدت هذا العوز بتأسيس مجمعها الحالي ، فكلا المجمعين الشقيقين يخدم هذه اللغة الشريفة وثقافتها بكل ما أوتي من قوة ووسائل ولنا الأمل بأن يسير المجمعان معاً إلى الأمام خطوات واسعة ، وان حكومتي القطرين تشد أزرهما بالمال إلى الحد الذي يمكنها من القيام بخدمات جلى للعربية والعروبة كما هو الشأن في أكاديميات الممالك الاوروبية ، فان أمام العرب مهمات عظيمة في إثارة دفائن عقولهم وكشف دارس مدنيتهم والتنقيب عن دقائق تاريخهم لا يقوم بها إلا هذه المجامع العلمية التي هي أيضاً لا تقوم إلا بتوفير أقساطها من الميزانية المالية ، ولست متعرضاً الآن إلى الكلام عما قام به المجمعان الشامي والمصري من الخدمة اللغوية بايجاد الألفاظ التي تقتضيها حاجة العصر ، وإحياء ما وجد منها

في لغتنا بتطبيقه على المعاني المناسبة له ، فان من شاء أن يعرف طائلا من هذا الأمر بقدر أن يراجع مجلات هذين المجمعين .

وإنا نكون غفلنا عن الحق وأهملناه جانباً إذا كنا لا نقول إنه في القرون الأخيرة لولا بقاء الأزهر والأموي والزيتونة والقرويين لم يكن بقي أثر من آثار اللغة العربية فضلاً عن الشريعة الاسلامية ، فهذه المساجد الأربعة هي التي في الدرجة الأولى قد وقت هذه اللغة من الدثور ، وهذه الشريعة من البوار ، وقد كانت الفوضى في القرون الأخيره المذكورة قد نسفت عمران هذه البلدان إلا بقايا تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد ، وتسلط على هذه الأقطار ولاة اتوا على الحرث والنسل ، وهدموا كل شيء وطمسوا كل رسم ، ومع هذا فقد بقيت هذه المساجد الأربعة بنوع خاص مع مساجد أخرى كانت تجري مجراها تقيم العربية على أركان ، وتصد غارات الجهل عليها وعلى الشريعة بقدر الامكان ، فكيف ثبت هذه الشريعة وهذه العربية في وسط هذا الزوال وكيف بقيتا في بهرة هذا الفناء مدة تزيد على أربعة أو خمسة قرون تعاور العالم الاسلامي فيها الانهيار من كل جانب ، ان هذا العجب عجاب !

ولا شك أن ثبات الشريعة واللغة في وجه هذه الصدمات السياسية التي تدكدك الجبال هو الدليل الكافي على متانة أصولها ورسوخ قواعدها وغزارة القوة الحيوية التي فيها . وفي مصر عدا الأزهر معاهد كثيرة للعلم مثل الجامعة المصرية ومدرسة القضاء الشرعي ومدارس الحقوق والهندسة والزراعة مما لا يتيسر لي استقصاؤه الآن ، وإنما أشير إلى نتائجه الباهرة فانه لا يكابر مكابر في أن الحركة السياسية الأخيرة التي جرت في مصر في الشتاء الماضي وانتهت باستقلالها بالرغم من معارضات الانكليز تحت مختلف العلل إنما كانت ثمرة هذه المدارس ، لأن الذين تولوا هذا الامر هم العشرة آلاف طالب الذين ثاروا في القاهرة ثورة الرجل

الواحد وتنجزوا الاستقلال التام لوطنهم تنجز المستميت باذلين من دونه دماءهم بذل السخي لماله .

أثر الزيتونة والقرويين والأموي :

وكما قام الأزهر بالواجب الذي عليه في مصر وكان أشبه بالصخرة العالية التي كانت تتكسر عليها أمواج الجهل والفوضى كذلك كان جامع الزيتونة في تونس وجامع القرويين في فاس والجامع الأموي في دمشق ، ومنها ومن المساجد الأخرى خرج العلماء الأعلام والمصابيح الذين أناروا الاسلام في دياجي ذلك الظلام ، ومن هؤلاء أيضاً خرج أولئك العلماء الوطنيون الذين أرادوا إدخال العلوم العصرية في البلاد والتحقق بمعارف الأوربيين حتى لا يبقى الشرق متصراً عن الغرب فكانت الجامعات والمدارس العصرية الكثيرة وكان إرسال البعثات العلمية إلى أوروبة من أيام محمد علي إلى اليوم .

النهضة العلمية والدعوة الوهابية :

ولا يظن ظان أن الحركة التعليمية في جزيرة العرب قد بقيت كما كانت عليه قبل ، وأما في نجد والحجاز فلا يخفى أن الدعوة الوهابية توجب حمل جميع الناس على التعليم بدون استثناء ، وهو عندهم بمقام الجهاد فترى المعلمين والفقهاء يجوبون الحواضر والبوادي ويفتحون الكتاتيب للأحداث وربما شرقت قبائل من العرب وغربت والمعلمون معها حتى لا ينقطع التعليم بالرحيل ، فالأمية في البلدان الخاضعة لسلطان ابن سعود ستكون نادرة ، ولكن يعترض بعضهم قائلاً :

ان هذا التعليم النجدي لا يساعد الرقي المدني بل هو من النمط القديم الجامد الذي ليس فيه كبير جداء لأهل هذا العصر ، وهذا القول مردود من وجوه ؛ أولاً أن النجديين يلتزمون تعميم القراءة

والكتابة في البدو والحضر فزوال الأمية هو بنفسه درجة عالية من العلم ، ثم انهم يحفظون الأحداث القرآن الكريم ويفسرونه لهم بعد رشدهم ، وأي كتاب حث على العلم والتعليم والسير والنظر أكثر من القرآن ، وأي كتاب قدس العلم والعلماء ونوه بالحكمة والحكماء أكثر من القرآن .

الإصلاح والعمران في المملكة السعودية

ثم ان منزع النجديين في الدين منزع إصلاح وترقية وتنقية ، ومشربه بعيد بالمرة عن الخرافات فهو مشرب إصلاحي مستحب جداً في العصر الحاضر ، وإذا سألت الأوربيين أنفسهم قالوا لك : ان مثل هذا المشرب هو الذي فك قيود الأفكار وحل عقال العقول في أوربة . وكان فاتحة عهد الارتقاء ، وكثيراً ما أطلق الأوربيون على الوهابيين لقب (بروتستان الاسلام) ، ثم ان هذا الملك عبد العزيز بن سعود امام الوهابيين القائم بتنفيذ مبادئهم لا يقف عن قبول أي علم نافع أو اختراع عصري مفيد ؛ فهو يجهز مملكته بجميع طرق العمران الحديثة ، وعنده التلغراف السلكي واللاسلكي في جميع بلاده ، وعنده التليفون والراديو ، وعنده السيارات الكهربائية تسير في طول البلاد وعرضها حتى صارت تلك الأرض الشاسعة تطوى طي السجل للكتاب ، ومن أعمال ابن سعود اعتناؤه بالصحة العمومية وتعويله فيها على الوسائل العصرية الحديثة ، وقد بدأ يستخدم الطيارات في الجيش ، ولو كانت ميزانيته المالية تأذن له في الانفاق كما يشاء لما سبقه في هذا الميدان سابق ، ولكانت الأدوات العصرية في جيشه لا تقل عن مثلها في أي جيش أوروبي ، ولكن المال قوام الأعمال ، ثم إذا كان المراد من العلم والتعليم هو إيجاد الأمنة في السوابل فلا يكون في هذا المعنى أرقى من مملكة ابن سعود لأن الأمن العام ضارب أطنابه في بلاده كلها وواصل إلى الدرجة التي يتحدث عنها المؤرخون في الكتب بعد أن كانت تلك الصحارى أشبه بمسبعة تزأر فيها

الضواري من كل فج ، وبالاختصار فالوهابيون يقبلون كل إصلاح ما لم يصادم الدين ، والعلم والدين لا يتصادمان في الحقيقة إلا عند من لم يحسن فهم كل منهما .

النهضة العلمية في اليمن

أما في اليمن فانه يضارع مملكة ابن السعود في أمرين : عموم التعليم والأمن الشامل ، فقد بلغني أنه لا يكاد يوجد في اليمن قرية تخلو من فقيه يعلم الأحداث القراءة والكتابة ، وأنه لا توجد مدينة ولا قصبة في اليمن إلا فيها حلقات تدريس للعلوم اللغوية والشرعية ، فالأمية في اليمن نادرة ، نعم لا يوجد هناك من يعتني بالعلوم العصرية إلا نادراً وهي علة قد تزاح قريباً ، لأن العلوم الأدبية لا بد تثير حركة في الأفكار وتجعل نهضة في النفوس ، وهـــذه من شأنها أن تهتف بنشدان العلوم الطبيعية وذلك كما جرى في مصر والشام وغيرهما . هذا وإمام اليمن يحيى بن محمد بن حميد الدين هو بنفسه عالم فاضل متبحر سيال القلم لا يغرب عن باله شيء مما يجب لترقية بلاده ، لذلك نراه مهتماً بالمدرسة العسكرية التي في صنعاء ، وعنده معمل سلاح صغير شاهدته بعيني أنا وزميلاي هاشم بك الاتاسي رئيس الجمهورية السورية والحاج أمين الحسيني مفتي القدس الشريف ورئيس المجلس الاسلامي الاعلى ، وعلمنا أن هذا المعمل يقدر أن يعمل البنادق وعلف البنادق كما يصنعونها في أوروبة ، ورأينا مصنوعات هذا المعمل عياناً ، ولنا الأمل بأن تتسع دائرة هذا المعمل ، وأن يتأسس في البلدان العربية معامل أسلحة كثيرة تكون وافية بحاجات أهلها ، ولا ننسى أن العراق والشام والمملكة السعودية هي في مقدمة الأقطار العربية التي تحتاج إلى مثل هذه المعامل ، لان على العرب واجباً لا يجوز أن يغفلوا عنه طرفة عين ، وهو أن لا يكونوا عيالاً على أوروبة في التسلح

فانه إن أمكنهم ذلك في زمن الحرب استطاعوا أن يدفعوا الأخطار عن بلادهم وخير للأرض أن تستغني بمائها عن مياه غيرها التي يجوز أن تنقطع عنها .

الشعر والشعراء

أما اللغة العربية من حيث هي ، فقد طارت في هذه الخمسين سنة الأخيرة بجناحين وصارت إلى جلالها الماضي وعنجهيتها القديمة فكثر في السنين الأخيرة سواد الكتاب والشعراء حتى صاروا يحصون بالمئات إن لم يكن بالالوف ، ونبغ منهم فحول يقدر الانسان أن يلزهم في صفوف المنشئين والشعراء من أهل القرون الأولى للاسلام عندما كانت اللغة في ابان سورتها فلا تنظر في جريدة إلا تجد فيها من النظم الفائق والترسل الرائق لشبان لم تسمع في عمرك باسمائهم ، هذا عدا المفلقين والعباقر الذين سارت بذكرهم الركبان وحفظ الرواة من شعرهم كما يحفظون شعر المتنبي وأبي تمام ، ولم يكن منذ خمسين سنة بمصر والشام والعراق والمغرب معشار العدد الذي تجده في يوم الناس هذا من هذه الطبقة الراقية في الأدب منذ خمسين سنة أو ستين سنة فما قبل ، وكان إذا نبغ شاعر أو برع كاتب ضرب به المثل لتفرده وخلو الجو من حوله ، والحال أنه لو نشرته اليوم من قبره ، وعرضته في الجمع لوجدت أمثاله يعدون بالعشرات ، وإن كانت لا تزال له طلاوة ، فهذه الطلاوة ، لا ترفع به إلى صفوف العبقريين وإنما تجعله في صف الجيدين ، وقد كنا في سورية لا نعرف شاعراً أحسن من نصيف اليازجي اللبناني الذي نبغ في بيروت وصارت له تلك الشهرة الطائرة باستحقاق ، وهو لو وجد في زماننا هذا لما كان إلا واحداً من جماعة ، وكان في بيروت من الشعراء المجيدين عمر الأنسي البيروتي يقرأ الانسان شعره بلذة وكان قبل الأنسي واليازجي أمين الجندي وبطرس كرامة كلاهما من حمص ولها

قصائد كسبا بها شهرة لا تزال لها إلى اليوم ، ولو أنها عاشا في هذا العصر لم تكن لها هذه الشهرة بالرغم من إجادتها ، وعلو طبقتها ، وقد سأل الأمير بشير الشهابي أمير لبنان في وقته الشيخ أمين الجندي عن المعلم بطرس كرامة قائلاً له : ما نسبة المعلم بطرس إليك في الشعر ؟ فاجابه : نسبة الثعلب إلى الأسد ، ولم يكن هذا الجواب صحيحاً لأن لبطرس كرامة من الشعر لا سيما في الغزل والنسيب ما لا يقل رونقاً عن شعر الجندي ، وكان في بغداد ثلاثة شعراء أو أربعة اشتهرت اسماؤهم في بلادنا مثل عبد الباقي العمري وصالح التميمي وعبد الحميد الموصلي وعبد الغفار الأخرس ، وكان أكثرهم شهرة عبد الباقي العمري وعبد الحميد الموصلي هنا بسبب مراسلاتها مع نصيف اليازجي كما أن شهرة صالح التميمي كانت بسبب المناقشة التي وقعت بينه وبين بطرس كرامة ، وهذه الطبقة وان كانت تعد من العالية في الأدب ، فان الذين جاءوا بعدها ردوها إلى الوراء فبعد أن كانت من المجلين صارت من المصلين ، اللهم إلا إذا حسبنا الشاعر الأزري الذي لا يلز هؤلاء في قوته ، ومن قبله ابن معتوق الذي كان يضارع الشعراء الأولين . وأما في مصر فما بدأ الشعر ينهض إلا بنبوغ محمود صفوت وبعده محمود سامي وهو صاحب النهضة الشعرية الكبرى ، وقد أجمع مؤرخو الأدب على أنه مجدد الشعر العربي في هذا العصر ، وأنه الذي أعاد إليه ديباجته الأولى التي كانت القرون الأخيرة لا تعرف منها شيئاً ، وما كان شوقي وحافظ وغيرهما من شعراء مصر إلا مبعوثين في عالم الأدب بأنفاس محمود سامي العالية ، واليوم لا يكاد يحصى عدد المجيدين من شعراء مصر وأغرب منه نبوغ شعراء في السودان لا يقل شعرهم في الاجادة عن شعراء الاقطار العربية الأخرى ، وقد نبغ في تونس في القرن الماضي محمد قباد وهو صاحب تشطير (أفاطم لو شهدت ببطن خبت) الذي دخل فيه مدخلاً لا يفترق عن الأصل ، والذي له قصائد أخرى جياد ، وجاء بعده شعراء في تونس لم أعلم منهم أحداً بلغ مداه ، وقد

هبت ريح الأدب في هـذا العصر في أرجاء الجزائر والمغرب الأقصى ، وظهر شعراء ومترسلون يمكن أن يضعهم القارىء في صعيد واحـد مع شعراء الشرق ، ومها قيل في ترقي الشعراء في هذا العصر الأخير فأعظم منه قد كان ترقي الكتابة التي لم تتقدم في فصاحة الألفاظ وتنقيح الجمل فقط بل علت ببلاغتها وحسن أسلوبها وتشبعها بالمعاني الكثيرة التي أوجدتها الحركة العلمية الحديثة فاديل من الصناعة اللفظية والسجع الرنان بالمسحة العلمية والانشاء المرسل الملآن ، وهـــذا النوع من الكتابة هو أصعب أنواعها لمن أراد أن يسمى كاتباً ، ولا نزاع في أن ترقي كل من فني الشعر والكتابة في الأدب العربي قد كان وليد النهضة العلمية العامة التي حملت المتأدبين على مراجعة أحسن ما كتب العرب وخلفوه في زوايا المكاتب فسمت الهمم بسبب هـذه النهضة العلمية إلى طبع الكتب التي لا تزال مجهولة ، أو مما ينحصر اقتناؤه في بيوت الأمراء والكبراء فصارت هذه الكتب من مثل ترسل ابن المقفع والجاحظ وأمثالها مشاعاً بين جميع عشاق الأدب ، وكانوا كلما قرأوا كتب الأوربيين شعروا بحاجة إلى مادة أغزر من اللغة العربية وأساليب أطلى وفنون أبدع ومجال أوسع فكأن اللغات الأجنبية هي نفسها قـد كانت الحافز الأعظم على إتقان العرب المحدثين للغتهم وارتوائهم من معينها ، ولا عجب في ذلك فالعلم يزيد بعضه بعضاً سنة الله في خلقه .

الفقه الإسلامي وعلماء الدين :

هذا ما كان من جهة الأدب العربي ، وأما من جهة الفقه الاسلامي فلا نقدر أن نقول أنه تقدم إلى الأمام بل رجع في الحقيقة إلى الوراء وذلك باستغناء الناس عنه بعلم الحقوق منذ ترجمت الدولة العثمانية هذا العلم عن قوانين أوربة إلى التركية والعربية ، ومن عادة الناس أن يكون أكثر انشغالهم بما ينفعهم في دنياهم ، وليس كل العلم طراز مجالس

نحن أولاء قد أدركنا في أواخر القرن الماضي طبقة عالية من علماء العلوم الشرعية في دمشق مثل السيد محمود الحمزاوي والشيخ سليم العطار والشيخ بكري العطار والشيخ سعيد الاسطواني والشيخ الطنطاوي والشيخ علاء الدين عابدين والشيخ محمد البيطار وأخيه الشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ طاهر الجزائري والشيخ عبد الغني الميداني والشيخ محمد الخاني والشيخ جمال الدين القاسمي وغيرهم ، وكان الناس يستفتونهم في النوازل ويعولون على آرائهم في الدين والدنيا ، فلما انتشرت العلوم العصرية ومنها القوانين الأوربية المترجمة التي عملت الدولة بها صار إذا مات واحد من هؤلاء الفقهاء لا يخلفه غيره ، وما زال الأمر كذلك إلى أن كادت هذه الطبقة تنقرض بالمرة ، وكذلك كان في بيروت الشيخ محي الدين اليافي والشيخ يوسف الأسير والشيخ ابراهيم الأحدب ، وفي طرابلس الشيخ حسين الجسر والشيخ محمود نشابة فمات كل هؤلاء ولم يخلفهم أحد ، وصار النبوغ للمحامين الذين تخرجوا في المدارس الأوربية أو في مكاتب الدولة العثمانية ، والمحامون بمصر أكثر منهم بالشام لما في مصر من استبحار العمران .

إلا أنه نظراً لوجود الأزهر ومدرسة القضاء الشرعي في مصر بقي حملة العلوم الشرعية فيها أكثر منهم في سورية ، وكان الواجب على هذه الأمة في كل قطر أن لا تهمل هذا العلم الذي هو من مفاخر الثقافة العربية ومن محاسن تاريخها والذي لا يستغني عنه المسلمون في المعاملات الدنيوية فضلاً عن المسائل الاعتقادية .

الطب والأطباء والصيدلة :

وأما الطب فهو من العلوم التي يقوم عليها المشارقة أكثر من غيرهم ويوفقون فيها ، ومن الأطباء الشرقيين من يقيمون الآن في أوربة ويشتهرون بالنبوغ بين أهلها ، وقد كانت الدولة العثمانية من الدول الراقية

في علم الطب حتى يقال أنهـا في الدرجة الخامسة بالنسبة إلى الدول الأخرى ، وقد نبغ فيها عدد كبير من الأطباء الجراحين يعدون في الطبقة العليا بالنسبة إلى أطباء أوربة وجراحيها أنفسهم منهم أتراك ومنهم عرب ومنهم أروام ومنهم أرمن ، ولا نقدر أن نقول ان سورية متأخرة في حلبة الطب هذه عن غيرها بل اني أتذكر أنه لما نشبت الحرب العامة واحتاجت الدولة إلى أطباء لجيشها ساقت إلى الجيش ٢٠٠ طبيب ذي شهادة من جبل لبنان وحده وبقي عدد كبير منهم في البلاد . واليوم قد ازداد هذا العدد على ما كان عليه قبل ، وبلغني أن في دمشق وحدها اليوم (١٥٠) طبيباً ، وانا نرى خريجي مدارس الطب من السوريين يتعاطون صنعتهم هذه في مصر والعراق والسودان والحجاز وغيرها ، وما يقال في الطب يقال في الصيدلة التي لها ممثلون كثيرون من أبناء سورية ، وكذلك بدأ كثير من الشبان يدرسون في أوربة علم الجراثيم (البكتريولوجية) .

منافسة سورية للبلاد العربية :

وما من علم يجد في أوربة إلا أقبل عليه الشرقيون كما أقبل الغربيون وأخذوا منه بنصيب ، فالمباراة إذاً جارية بكل ما يمكن من الهمة ، على أن سورية في علم الطب وتوابعه هي ذات المركز الاول في البلدان العربية ، وذلك لسبقها غيرها إلى ورود حياض العلوم الكونية فلا مصر ولا العراق ولا جزيرة العرب ولا إيران ولا المغرب تضارع سورية في في هذا الموضوع ، ولكن نحن على ثقة أن جميع البلاد العربية من الآن إلى ثلاثين وأربعين سنة تصير متساوية بعضها إلى بعض في درجة الرقي العلمي .

ومن العلوم التي يمتاز بها العرب ، ولا سيما السوريين منهم ، العلوم العددية وقد نبغ الكثيرون ممن لا نقدر على احصاء اسمائهم نذكر منهم

على سبيل التمثيل الشيخ محمد الطيبي في دمشق والمعلم بطرس البستاني والمعلم أسعد الشدودي في بيروت وغيرهم .

ولما كان السوريون من أقوى أمم الأرض على التجارة كان علم الحساب من العلوم التي يتخصصون بها بطبيعة الحال ، وكذلك في مصر لا ينكر ترقي العلوم الرياضية التي مصر من مراكز ازدهارها بل نقدر أن نقول أن المهندسين فيها أكثر منهم عدداً في سورية نظراً لأن الزراعة في وادي النيل أرقى بكثير منها في سورية .

بقي علينا أن ننظر كيف يكون اتجاه الأمة العربية في المستقبل من جهة الثقافة ! أتأخذ بالثقافة الغربية ولوازمها ومتمماتها إلى النهاية أم تبقى معتصمة بثقافتها الشرقية الأصلية لا تبغي بها بدلاً ولا عنها حولاً أم تأخذ من الثقافتين معاً وتجعل من ذلك ثقافة خاصة لا شرقية ولا غربية ! هذا سؤال يرد كثيراً على خواطر الباحثين وكل منهم يذهب في الجواب مذهباً ، وأظن أن ثقافة العرب المستقبلة ستكون عصرية آخذة من التجدد بأوفى نصيب لكن مع الاحتفاظ التام بالطابع العربي ، وهذه أشبه بما سبق للثقافة العربية في زمن بني العباس وفي زمن بني أمية بالأندلس حينما نقل العرب حكمة اليونان إلى لغتهم واطلعوا على علوم فارس والهند فجعلوا من هذه الثقافات الثلاث ومن الثقافة العربية الأصلية ثقافة جديدة عالية كانت أرقى ثقافة في القرون الوسطى ، لكنها كانت زاهرة بطابعها العربي الذي لم يكن يفارقها بحال من الأحوال ، وهكذا ستكون ثقافة العرب بعد اليوم غير جامدة على القديم الذي ثبت للعرب المحدثين وجوب التعديل فيه والاضافة إليه ، ولن تكون منسلخة من القديم جاهدة في التبرؤ منه على النحو الذي نحاه الأتراك الكماليون الغالبون على تركية اليوم ، ولكنها تكون ثقافة جامعة بين القديم والجديد مختارة من كل شيء أحسنه مع بقاء الصبغة العربية التامة غير المفارقة للعرب ، وذلك على النحو الذي نحاه اليابانيون الذين اقتبسوا جميع علوم

الأوربيين ولم يغب عنهم منها شيء ولا فاتهم من صناعات أوربة دقيق ولا جليل ، ولبثوا مع ذلك يابانيين أصلاء في لغتهم وأدبهم وطربهم وطعامهم وشرابهم وجميع مناحي حياتهم ، وحسب العرب قدوة للاقتداء ومثالاً للاحتذاء هذه الأمة اليابانية العظيمة التي لا يوجد أشد منها رجوعاً إلى قديم ولا أخذاً منها بحديث .

والآمال معقودة بأنه ستكون في الشرق الأدنى نهضة عربية علمية تضاهي النهضة العلمية التي رأيناها في الشرق الأقصى .

لماذا تأخر الشرق الأدنى عن الشرق الأقصى :

وإن كان الشرق الأدنى قد تأخر عن الأقصى في درجة الرقي العصري فلم يكن ذلك كما يتوهم بعضهم من جمود الامم الشرقية العربية وتفوق اليابانيين عليهم في حب العلم ونشدان وسائل القوة ، وإنما كان الموقع الجغرافي للبلاد العربية قد عرّضها من هجوم الأجانب وغاراتهم المتوالية لما لم يتعرض له اليابانيون بسبب تقاصي ديارهم وبعد مزارهم بحيث خلا لهم الجو وتمكنوا من أن يتعلموا ويتهذبوا آمنين على حوزتهم ، وهذا فرق طالما غفل عنه الناس ولم يتفطنوا لخطورته ، فحملوا بسبب غفلتهم عنه على الشريعة الاسلامية وجعلوها ظلماً وعدواناً هي المسؤولة عن هذا التأخر ، والمسؤول الحقيقي في الواقع هو الاعتداء الأجنبي المتواصل الذي يتيسر في الشرق الأدنى ما لا يتيسر في الشرق الأقصى ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

دمشق : سنة ١٩٣٧

اللغة العربية وخزائنها الأدبية
قديماً وحديثاً [1]

للأستاذ خليل مطران

أيها السادة

قد شرفني الجهابذة الأجلاء عماد هـذا المجمع العلمي الجليل بادناء مكاني من مكانهم . وأين أنا من أولئك الذين تملأ الأفق أنوارهم وتعمر الشرق آثارهم . أين أنا منهم لولا نظرة عطف من معالي رئيسهم البحاثة العلامة الذي بعث في زمنه أشتات مفاخر وطنه ، فقلد العربية قلادة من المنن لا تقوم بثمن ، ولولا حسن استجابة من زملائه الفضلاء لدعائه الكريم في شأن صديقه القديم . فلهم فضل أول بما أولوني من شرف الانتخاب ، أعقبه فضل ثان بما أتاحوا لي اليوم من حظ المثول لدى صفوة من شيوخ تباهي بهم الحاضرة الأموية سائر الحواضر ، ونخبة من فتيان أرى فيهم تباشير صبح جديد لسعادة الدولة السورية ورقيها الحسي والمعنوي إلى الغاية التي تجدر ببلوغها أمة عظيمة كهذه الأمة الكريمة .

قد سمعتم المعجب والمطرب من ذاك البيان الخلاّب الرائع الذي خصني به صديقي الأستاذ الكبير الشيخ عبد القادر المغربي وأخذتكم بلا شك في بسطه الجميل قوة فصاحته ، فهل ترك لي ذريعة وأنا أتكلم بعـده لأكون عندما أقر في نفوسكم من حسن الظن بي على أنه إذا فاتني فيما أزجيه من البضاعة أن أبلغ ما أراد ابلاغي من عالي رأيكم فلي شفيع لا يخيب في رحابكم ، اني لضيفكم واني لجاركم وأنتم خير من أكرم الضيف وأعز الجار .

أثيرت في أخريات هذه السنين حركة عمد مثيروها إلى إحداث ريب في النفوس من جهة صلاح اللغة العربية الفصحى أو كفايتها لمجاراة العصر

---

(١) ألقاها الأستاذ خليل مطران في ايلول سنة ١٩٢٠ لمناسبة انتخابه عضواً مراسلاً في المجمع العلمي العربي .

في مقتضياته حتى الأدبية منها ويقيني أنه إذا كان هنا قصور فهو منا وليس منها ، فلذلك بدا لي أن كلمات ألقيها من على هذا المنبر في إثبات ما أعتقده اعتقاداً راسخاً من صلاح لغتنا أو كفايتها للإبانة بسلامة وقوة وجمال عن أنواع الأغراض الحديثة وخصوصاً ما يتصل منها بالأدب ـ تكون أخلق بأن تسترعي لها أسماعكم . وقد توخيت لهذه الكلمات من طريق موافقتكم عليها ـ إن فازت بشرف هذه الموافقة ـ أن تصدر عن ندوتكم هذه درساً يجني منه شبابنا في مختلف الأقطار العربية فائدتين جليلتين : أولاهما أن يعرفوا ما وسائل لغتهم الفصحى وأدواتها المتوافرة ومناجم مفاخرها . وثانيتهما أن يتبينوا ما تسومهم الرغبة في معرفتها وإجادتها من المطالبات على ما يحول بينهم وبين استيفائها في الحالة الراهنة من المشاق التي نرجو أن تقل تدريجاً على يد هذا المجمع الجليل وسائر المعاهد الرسمية وغير الرسمية التي تنحو نحوه في الأمم الناطقة بالضاد .

لم تخلق اللغة العربية من أصل جامد فيقضي عليها بالجمود ولم ترسم لها من بدء أمرها دائرة ضيقة فيحظر على المجتهدين أن يتعدوها وقد نبه على ذلك أئمة من المتقدمين فقالوا ان اللغة تقع متلاحقة متتابعة ، فهي إذن تنمو بنمو حضارة أهلها وتتسع وتتشعب باتساع حاجاتهم وتشعبها . على أن نفي المشاركة في أصول اللغة أية كانت أو في الفروع التي تستنبتها الدهور على تلك الأصول لا يستطاع ، ونفي الأثر الذي تحدثه كل لغة في الأخرى بحكم الجوار أو الفتح الحربي أو الغلبة السلمية من فكرية واقتصادية لا يستطاع أيضاً . ولكن كل ذلك لا ينبغي أن يغير طابع اللغة ولا أن يعدل ذاتيتها أو يمس جوهرها إذا رد إلى حدود المقومات التي تفرق بينها وبين سواها كما تختلف الوجوه وتتمايز الشخوص .

تألفت لغتنا العربية في منشئها من لغات تقدمتها ومن مواضعات جمة أعارتها إياها لغات عاصرتها . حسبنا في الدلالة القاطعة عليها ما ورد من ألفاظها في أفصح كتاب عربي فهي أي اللغة لم تكن وحياً ولا توقيفاً .

كذلك المشاركة في المعاني واتجاهاتها وأشتات المذاهب التي يذهبها الكتاب في طرائق ابرازها للناس لتقع مواقعها في نفوسهم تبعاً لاتساع الحضارة وضروب التأنق في العيش وتهيؤ الأذهان حيناً بعد حين لايثار خطة في الانشاء على خطة أخرى لا سبيل للارتياب فيها وحكمها في لغتنا حكمها في كل لغة عتيدة أو عهيدة .

غير أن هـــذه المشاركة مهما تعددت مآتيها شيء وذاتية اللغة شيء آخر .

عناصر الجسم مما تشترك فيه الطبيعة كلها ولكنه بها يصبح جسماً حياً له قوامه الخاص وبها يعيش عيشة تختلف بمفاعيلها عن عيشة كل جسم سواه .

إذا تقرر هـذا فلنسرح الطرف من مشترف عال مارّين بمخلفات الأحقاب مروراً سريعاً لنتبين هل من محل للارتياب في أن اللغة العربية الفصحى تكفي حديثاً كما كفت قديماً لتجاري بأدبها الخاص أدب أية لغة سواها . ولعل أحسن ما يتأتى لنا به حصر هذا البحث وتضييق دائرته على قدر ، هو أن يقع التفاهم بيننا على تعريف الأديب ، فمن هو الأديب ؟

هو الذي يحسن التعبير بالاصطلاحات المتواضع عليها في كل لغة عمـا يوحيه إليه عقله أو تجيش به نوازعه وأهواؤه أو يقع عليها حسه ، مصوغاً في ألفاظ فصيحة ، مفرغاً في قالب أصيل خالص ، والسر كل السر في إحسانه الابانة أن يملك لغته فيصرفها في الأداء تصريف المتضلع منها المستبحر في فنونها ، البصير بمفرداتها ، الخبير بتراكيبها ، المتشبع بروحانيتها - ولكل لغة روحانيتها - الواسم بوسمها كل مادة يجري بهـا قلمه وكل سانحة صادرة عنه أو طارئة عليه ، المجدد تبعاً لزمانه ومكانه ما تلقاه عن أئمتها وثقاتها في الصورة التي ينوعها كل زمان وكل مكان

وكل مكان . المضيف اليها من ابتكاره أو ابتداعه طرائف لا تعتل معها صحة طابعها ولا تمس بها جواهرها ولا مقوماتها .

فيما قدمناه نظرنا إلى الأديب ولم نشرك معه الفيلسوف والرياضي والكيماوي فان المقصود في بحثنا إنما هو الأديب المحض لا تنفي عنه أن يضرب بسهام في اشتات العلوم ولا أن يلم بكل فرع وفن مما يستكمل به وسائل التفكير ليتسنى له التعبير عن مختلف الأغراض الحادثة مع لزوم الحد الذي رسمه الأدب اللباب ويتأتى معه حسن النسج ولطف اختيار الاساليب لجلاء المدلولات فان كان الأديب ما عرفنا وكان الميدان الذي يجول فيه لسانه وقلمه ما وصفنا فقد ثبت بالبداهة أن كل لغة مستكملة الوضع واضحة الأعلام قائمة التخوم راسخة القواعد مانعة للشرود والبلبلة صالحة لتكوين الأديب .

وتكوين الأديب له شرطان : أحدهما حصوله على ملكة اللسان وثانيهما وجدانه في لغته من ضروب النماذج ما يفتق ذهنه ويعين قريحته على الابتكار ويتيح له مجاراة الفكر في تحولاته المستمرة ، ففي يقيني أن لغتنا العربية الفصحى تكفي كل الكفاية لتكوين الأديب وفي قديمها وحديثها لمن أكب على المطالعة وتوفر على المدارسة ما يستطيع به أن يعبر عن ضروب المقاصد ما دق منها وما جل ، فان أوجز : فما اجتمع الكثير من المعاني في القليل من الكلام كما اجتمع في مقاطر أقلام الناطقين بالضاد ، وان أسهب : فلينظر كيف جرت المجاجات العذبة من يراع الجهابذة المسهبين جري السلسبيل من الينابيع بلا رنق ولا تفكك ولا انقطاع وأي مطلوب لحسن التشبيه وجمال الاستعارة أدنى إلى التناول في لغة منه في لغتنا .

وأي لغة قديمة أو مولدة فيها بذاتها ما في لغتنا من الغناء بالاشتقاق وبابه فيها أوسع باب لوالجيه عن حصافة واستقامة سجية .

غير أن الأديب بالمعنى الأشرف والأمثل ليس الذي يحاكي غيره حكاية الصدى ويجري وراء سابقيه جري التطريس بالاقدام ، بل هو

الذي يستعين بما بين يديه على الابداء والخلق . شأنه شأن المصور الذي يتوفر على استكشاف خبايا الفن في المقاييس والملامات وسائر ما توصل به المبرزون من متقدميه إلى الاتقان العظيم ثم يجيل ريشته في اللوح ليبرز أنواراً وظلالاً ووجوهاً ومناظر على النحو الذي استحبه بتقديره الخاص وآثره بحكم فكره الذاتي ، شأنه كذلك شأن الموسيقي يتقيد بقيود الأصول العامة لصناعته ولكنه يتخير بين آلاف الأجزاء المشتركة في الضروب ما يؤلف منه نغمه الخاص ، نغمه الذي لم يكن فيه ماسخاً صنع غيره أو آخذاً اخذه حذوك النعل بالنعل بل مفتناً مخترعاً .

أتيسح لنا في لغتنا العربية مثل أعلى لا نظير له فلنتخذه نبراساً لمطالعتنا هذه . العرب في الجاهلية قالوا الشعر فما امتد النفس في جيده إلى أطول من المعلقات ، وقالوا النثر فما يوشك المتخلف منه أن يملأ صحائف كراس صغير على الشتات بين المعاني والأغراض فلما أراد الله أن يبدي للعالمين آية من آيات قدرته أنزل كتابه المبين كتاباً عربياً .

ومم اتخذ مادته ؟ من أدوات تلك اللغة ، لم يخلق معجماً جديداً ولم يقض قضاء على السنن المتعارفة . بل أخرج من مأثور ما ألفوه واصطلحوا عليه وتفاهموا به تلك المثاني والمثالث التي حيرت الألباب وملأت النفوس بالعجب العجاب . أنزلهـــا من كلامهم وأين منها كلامهم . ألزمها حدود لسانهم ومعانيها وراء كل حد . وهذا هو سر الانشاء وسحر الابداء .

أخرج القرآن المجيد من اللغة العربية الجاهلية ، لغة استقلّ بها فلم تجار ما قبلها وهيهات أن تتشبه بها محاسن الشعر أو عيون النثر في الجاهلية ولم يجارها ما بعدها في البلاغة والفصاحة لمكانها من الاعجاز .

ثم جاءت روائع الحديث معقبة من مكان دان على ما هبط به الوحي ، ونور الوحي متحدر إليها كتحدر شعاع الشمس من قمم الجبال الشماء إلى رؤوس الهضاب المتطامنة بجانبها فاتصلت به أسباب التأصيل والتفريع ، واتسعت وتشعبت ذرائع التحويل والتوسيع .

لغة جديدة تدفقت اليها جداول الفصاحة القديمة من نواحيها المتعددة فاذا الحوض الذي أفضت إليه بحر عذب يهيء الري والغذاء للحدائق الفيحاء التي ازدهى بها الأدب العربي وازدهر في ذلك العصر الكبير وفي سائر ما تلاه من العصور .

من هذه اللغة الجديدة يومئذ استمار الخلفاء الراشدون — وناهيك منهم بالامام علي — جمال بيانهم وجلال تبيينهم . تكلموا بكلام هو من صميم مادة العربية لكنهم جاؤوا بمعان بديعة في صور شائقة غير مسبوقة .

فكانت هنيهة من الدهر سنوات معدودة تم فيها الانقلاب الأول والتحول الأعظم في لغة الضاد . فاذا رجعت إلى الكتاب على رأس مخلفاتها تحرثه حق حراثته وإذا تقفيت بعده خطب الخلفاء الراشدين وأسفارهم متدبراً أساليبها جد التدبر فما تجد من شيء تريد الكتابة فيه إلا وله مثال قل أو كثر طال أو قصر تسترشد به وتهتدي بهديه فيما أنت منه بسبيل . وهناك حصل التصرف العجيب في الحاق معان حدثة بالألفاظ القديمة على ما اقتضاه التحول الديني والتصور الطاريء في مجالات الحياة . ذلك البيان الذي اجتمعت فيه طرائف اللغة العربية ، وانتفت منه العنجهية والحوشية . ونفحت فيه المفردات والجمل بنفحات قدسية صالحة للمعاش والمعاد . قد أطلع فجراً جديداً على البيان العربي في الحقبة التي تلت ظهور الاسلام إلى ما ناهز خمسة قرون .

وفي الضوء الساطع الذي أضاء ذلك الفجر به أمم الشرق أخرجت القرائح أعاجيبها عقلاً ونقلاً ، فقها وسياسة ، وأبدت السجايا في مختلف تلك الأمم ضروب زيناتها باللهجات الفصحى كما أبرزت الألباب كوامن قواها في استصلاح تلك اللهجات لكل شأن من الشؤون العامة والخاصة نظماً وترسلاً . فكانت بجملتها وتفصيلها لغة عربية خالصة ولكنها لغة حقبتها .

تنبهت أذهان العالم الشرقي العربي والعالم الغربي العربي اءما تنبه

للتحبير والتحرير على السنة الجديدة فأوجد النابهون منهم ما لم تسبق به الظنون مما يشتمل عليه الأدب من الفنون ذهب كل مذهبه وأتى عجباً فجرى السهل الممتنع على قلم عبد الله بن المقفع وصنوه عبد الحميد واندفعت خواطر الجاحظ في كل ما وصل إليه ذهنه من منظور ومحسوس ترسل أشعتها إلى أغوار السرائر . ونقل الطبري إلى تاريخه ذخائر معرفته بأخبار الأيام في أسلوب رشيق شائق واستفاض أبو الفرج الأصفهاني في أغانيه بما تقف لديه اكباراً وقوفك تجاه البحر الزاخر وجاء بديع الزمان في ترسله وتعمله بما لا يزال نسيج وحده . وجمع الحريري من مكنونات اللغة في مقاماته ما لا تحصيه المخيلة . وأتى الثعالبي في يتيمة الدهر بما طبق اسمها على مسماها أحسن تطبيق . وصاغ ابن خلكان سير الأعيان في قلائد من الجمان . ناهيك بأحمد بن أبي طاهر في كتابه المنثور والمنظور وبالعتبي في مغازي السلطان محمود بن سبكتكين . إلى كثير غير أولئك من النوابغ الذين لا تنفسح لتعديد أسمائهم الدقائق المعدودة .

وأما في قرض الشعر فهل أذكر لكم بعد المعلقات المجمهرات والمشوبات والمذهبات والمفضليات والأصمعيات وروائع بشار بن برد ومسلم بن الوليد وأبي نواس ومروان بن أبي حفصة وأبي الشيص ودعبل . ثم هل أذكر المتنبي في ابتكاره والبحتري في رقته وأبا تمام في جزالته والمعري في حكمته وسمو فكره وسماحة فطرته والشريف الرضي في إفاضته المدهشة وابن الرومي ومهياراً في أساليبها المشتملة على ما شاء الابداع من دقائق الوصف مع امتداد النفس وراء ما كان مألوفاً من صناعة السابقين .

بقي أن نشير بكلمة إلى ما جاء به أهل الأندلس والمغرب فقد حفظوا البليغ والمأثور من كلام عرب الشرق أحسن حفظ وقوّموا ملكاتهم على الأساليب الفصيحة المبينة ولكنهم أدخلوا في صياغتها ومحسناتها ما شاءته طبيعة بلادهم وما آثرته سجايا أهليها . فاذا قرأت منثورهم فكله وضاء زاهر رقيق متجاف مواطن الوحشية متساوق اللفظ والمعنى في شوط الجلاء

على ما تراه في تصفحك المقدمة لابن خلدون والعقد الفريد لابن عبد ربه ونفح الطيب للمقري والإحاطة للسان الدين بن الخطيب وقلائد العقيان ومطمح الأنفس للفتح بن خاقان ، والمشرق والمغرب لابن سعيد وأولاده وإذا قرأت منظومهم فقل ما شئت في عبقرية ابن هانىء الملقب بمتنبي الغرب وطلاوة بن خفاجة ورقة بن حمديس وسهولة بن سهل . والابتكارات واللطائف التي لا تنافسها عقود الدر ولا قطرات الندى ولا نسمات الرياض في الموشحات وتفاريعها وزهرياتها وخمرياتها وفراقياتها بين جد ودعابة .

أولئك المتقدمون شرقاً وغرباً ممن اوردت اسماءهم او لم أوردها قد اتحفونا بلغة ذات أجهزة وافية ، وآلات متنوعة نهاية التنوع ، يستخدمها فكر الأديب الأريب في التعبير عن الكليات مهما كبرت ، والجزئيات مهما صغرت ، بأنق ديباجة وأبدع وشي ، وألطف ما يصل به اثر القلب الموحي ، إلى أبعد طوايا القلب الذي يتلق ذلك الوحي مطالعة أو سماعاً .

غير أن مناجم تلك الجواهر ومنابت هاتيك اللآلىء دفينة في بطون أسفار جمة ضخمة ، وهي فيها متباعدة المظنات مفقودة الأعلام مبهمة الصوى لا يبلغنا إليها إلا التنقيب عنها واعنات الروية وكد الذهن في تعرف أماكنها واستخراج نفائسها . علة القصور لم يتلاف إلى الآن القوام على اللغة إلا بعضها ، ولكن الأديب لا يكون أديباً إلا وقد تجشم هذه الشقة وبذل ذلك الجهد وأصبح بالمواضع التي يصيب منها سداداً لحاجته ووفاء بغرضه عليماً بصيراً . ولن يكون على هذا بالأديب التام فما تلك إلا مرحلة بجهاده واجتهاده توصله إلى تقويم لسانه وتمحيصه وابعاده عن مزلات الرطانة واللكنة والعجمة وتعرفه كيف يحسن الاقتداء بالسلف ليبدع في غير بدعة تهدم بها تخوم لغته وتنفصم عرى عروبته .

هي الأولى من مرحلتين وهي أشقها مطلباً وأبعدها غاية . أما الثانية فهي الاطلاع على ما حدث في البيان العربي بعد تلك الحقبة الكبرى أي

من بدء زمن الانحطاط الطويل إلى مستهل البعثة العتيدة إلى نهاية ما وصلت إليه في هذه الأيام .

أمرّ مروراً عاجلاً بحقبة الانحطاط التي لم تخل من مجيدين في النظم ان لم يبلغوا المتقدمين صفاء ديباجة ولا فتق ذهن فقد أسلسوا من مقادة الغريب في الألفاظ والأساليب وأحدثوا طرائق خاصة لتسهيل ما صعب من ضروب التصرف فى مخلفات الأزمنة الأولى إلى صورة حال جديدة وفي مقدمة هؤلاء صفي الدين الحلي وابن النبيه وابن معتوق والابيوردي وابن العفيف التلمساني والبهاء زهير وابن الفارض وابن مطروح وابن نباتة كذلك لم تخل تلك الحقبة من المجيدين في النثر كابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار والقلقشندي في صبح الأعشى والمقريزي في الخطط وشهاب الدين النويري فى نهاية الأرب وابن الأثير الكاتب في الترسل أما جمهرة الناثرين فكانوا من كتاب الدواوين وفي برهتهم هذه كان الاشتغال بالبديع آية احلال التحليات اللفظية محل المعاني .

بعد هذه النظرة أفضي بكم إلى عصرنا هـذا لأتبين معكم بمثل لمح الطائر ما صار إليه اللسان العربي وما يستطيع المتأدب أن يستفيده منه ليستكمل عدة أدبه على النحو الذي يوافق حضارة الزمن ومتباينات مطالبه .

بدئت البعثة الأدبية في مصر منــــذ عهد محمد علي وكانت العجمة والركاكة العامية المتشبعة بخليط لا وصف له من الرطانات والكلمات المنحرفة عن أصل مدلولاتها هي الأداة الغريبة التي يتفاهم بها القوم نطقاً وكتابة .

بدئت النهضة والأزهر مصدرها غير أنها كانت مما يمتّ إلى عهد الانحطاط بسبب ولوع أصحابها بتقليد البديعيين ولكنها كانت هبّة من سبات الجهل والخمول وحفزة إلى غاية من العرفان والنباهة . وفي طليعة أرباب الاقلام يومئذ بعصر الشيخ حسن العطار ، الشيخ حسن قويدر ، محمد سيد أحمد باشا ، رفاعة بك ، رجال مدرسة الألسن . ثم أعقبتها على الأثر وقفة لم تجاوز مدتها مدة عباس الأول وسعيد . فلما تولى

اسماعيل استأنفت نشاطها وأظهر من ظهر في مبادئها الشيخ محمد شهاب الدين شاعراً وناثراً على رأس سلسلة ينتظم الاستقراء فيها أسماء :

عبد الله فكري باشا ، علي مبارك باشا ، السيد علي الدرويش ، ابراهيم بك مرزوق ، محمد فني ، محمود صفوت الساعاتي ، ابي السعود سلامة ، النجاري ، الشيخ أحمد عبد الرحيم ، الشيخ علي الليثي ، الشيخ علي ابي النصر ، عبد الخالق الزرقاني ، بين ناثرين وشعراء . بعض هؤلاء أدرك زمن توفيق وفي عهده قويت النهضة بارزة بها أسماء :

شفيق منصور ، عبد الله نديم ، الشيخ حمزة فتح الله ، محمود واصف ، الشيخ احمد مفتاح ، احمد سمير ، حسن حسني الطوراني الخ الخ .

من مخلفات هؤلاء جانب ضاع ولكن جانباً منها ولعله أغلاها قيمة نجا بفضل الله ، على أن الروح التي صدرت عنها تلك الحركة ما عتمت أن أبدت في سماء البيان كوكبين من كواكب الأقدار الكبرى هما محمود سامي باشا البارودي شاعراً ، والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ناثراً . ثم أخذت سماء ذلك البيان تزدان بالنجم تلو النجم في نظام سأذكر من رجاله لكم الذين استأثرت بهم رحمة الله ، وادع ذكر الأحياء مدّ الله في آجالهم لانكم تعرفونهم . فمن الشعراء .

اسماعيل صبري ، محمد حفني ناصيف . ومن الكتاب عدا الشيخ محمد عبده :

ابراهيم اللقاني ، ابراهيم المويلحي وابنه محمد المويلحي ، الشيخ عبد الكريم سلمان ، مصطفى نجيب ، الشيخ علي يوسف ، قاسم امين ، محمد فتحي زغلول ، الشيخ المهدي ، مصطفى كامل ، الشيخ المنفلوطي ، الشيخ الخضري ، أمين الرافعي ، سعد زغلول هذا في مصر .

وأما في الشام ولبنان ونهضتها متصلة منذ الساعة الأولى بنهضة مصر

وكتب الفريقين متداولة بين البلادين فقد برّز كتّاب وشعراء . اذكر منهم الذين توفاهم الله ولهم بقايا أدبية يرجع إليها وهم :

محمد بن حسين الحلبي العطار ، كمال الدين الصمادي الجراعي ، حسن جينه ، بطريرك الروم الكاثوليك مكسيموس مظلوم ، جبرائيل بن يوسف الخلع ، كمال الدين الغزي ، محمد عابدين صاحب الحاشية الشهيرة في الفقه ، عبد الغني الميداني ، الأمير عبد القادر الحسني ، محمد نور الترمانيني واخوه احمد ، رزق الله حسون ، امين الجندي ، فرنسيس المراش ، أديب اسحق محمود الحمزاوي مفتي دمشق ، الشهاب احمد المنيني ، ابراهيم الحوراني ، ميخائيل مشاقة ، الشيخ طاهر الجزائري ، الشيخ محمد مبارك ، السيد محمد مرتضى ، الشيخ عبد الرزاق البيطار ، الشيخ جمال القاسمي ، السيد عبد الرحمن الكواكبي وشقيقه الشيخ مسعود ، الشيخ بشير الغزي ، رفيق العظم .

وأما العراق فبجانب جماعة من السادة الالوسية فتحت سلسلتهم بابي الثناء وتمت إلى عهد قريب بالسيد محمود شكري الالوسي ، يذكر من الشعراء والكتاب الذين انتقلوا إلى اكرم جوار :

كاظم ورضا الأزربان ، عبد الحميد الأطرقجي ، عمر رمضان ، صالح التميمي ، عبد الغفار الأخرس ، عبد الباقي العمري ، أحمد عزت باشا العمري ، السيد حيدر الحلي ، حسين العشاري ، محمد الغلامي ، احمد الجنابي ، عبد الفتاح الشواف ، حسن الأصم ، حسن البزار ، السيد ابراهيم الطباطبائي ، السيد حسن الداودي ، السيد أحمد الفخري وأخوه أحمد ، السيد محمد سعيد حبوبي الحسيني ، السيد جعفر الحلي .

وأما في لبنان فقد برّز من الشعراء والأدباء الذين لقوا ربهم : ناصيف اليازجي ونجلاه ابراهيم وخليل ، بطرس كرامة ، ابراهيم الأحدب يوسف الأسير ، قاسم أبو الحسن الكستي ، عمر الأنسي ، احمد البربير عمر اليافي ، احمد فارس الشدياق ، مارون النقاش ، خليل الخوري ،

البستانيون بطرس وسليم وسليمان وعبد الله ، نجيب وأمين الحداد ، الياس صالح ، امين وشبلي الشميل ، بشارة زازل ، يعقوب صروف ، اسكندر وداود عمون ، فرح انطون ، اسكندر شاهين ، نعوم لبكي ، جرجس همام ، نصيف المعلوف الخ .

عددت أعلام النهضة الحديثة في الأقطار العربية الثلاثة بلا تدقيق في الترتيب الزمني لما فاتني في رحلتي من وسائل المراجعة واستغفر الله إلى ذكرى الذين انساني ضيق الوقت والاسراع في اعداد هذه الكلمات اسماءهم ففاتتني على غير عمد .

ماذا أهدى إلى الأدب العربي أولئك الأدباء والشعراء ؟ أضافوا إلى الذخائر القديمة ذخائر مما أوحت إليهم أيامهم . ألانوا أعواد اللغة من جفاف وآنسوا أوابدها من نفار . عدلوا شيئاً كثيراً من السبك العام للمواضيع في الأسلوب العام للكتابة . ادنوا قطوفاً لم تكن دانية . زادوا على المفردات طائفة مما دعت إليه الحاجات . وسهلوا التحصيل وفتحوا أبواباً واسعةً للتفكير .

صنعوا عظيماً ، ولكن ما بقي عمله أعظم .

وهنا كان ولا يزال محل اتهام اللغة بالتقصير في رأي الذين قابلوا بينها وبين سواها فيما يتعلق بالتعبير عن أغراض هذا الزمن وطريقة الأخذ به كأنهم يريدون الطفرة والطفرة محال . اجل بقي علينا عمل أعظم مما عمل ليتسنى القرب بين ما هو كائن وما يجب أن يكون ولكن التبعة في التقصير هي علينا وليست على اللغة .

وفي وسع أدبائنا استكمال ما نقص في الاسماء ، وانتهاج النهج الذي يريدونه في تصوير الخيال ، والذهاب في المذاهب التي يؤثرونها لاداء معانيهم مع صحة اللغة وصيانة الاساليب الخالصة . وان تكون الاديب على أي حال أريد ، ليسور بالمادة التي بين يديه من قديم الكتب العربية وحديثها على انه مطلب شاق ومرمى بعيد . لكن الصعوبات تسهل والعقبات تذلل

لدى مديم النظر ومدمن المطالعة ومصرف الفكر في وسائل الخلق والتجديد .

لقد كان بودي لو أضرب لكم الامثال فانها أدنى متناولاً وأبلغ في استيفاء التبيين بيد ان الوقت لا يتسع في هذه المرة فليكن ما ذكرته مقدمة اجمالية موجزة ليستأنف هذا البحث من هو أقدر عليه مني ويسهب فيه بالقدر الذي يربحكم من ثمين الوقت ما اضاعه سابقوكم من المعاصرين في التماس المسادة الكافية بين قديم الادب العربي وحديثه الموفاء بكل ما تقضيه مطالب هذا الزمن من الانواع الشعرية والنثرية المتعددة .

واختتم كلامي بالثناء عليكم لحسن استماعكم وبالرغبة إلى الله أن يقيض من فتيان الاقطار العربية للغة الفصحى ادباء يحكمون المباني ويبتكرون المعاني . ويخرجون في الاعراض البيانية الحديثة كتباً تنفسح لها صدور الاندية في العالم بجانب اقوم الكتب التي اخرجها ادباء الغرب .

دمشق : سنة ١٩٣٠

في مهرجان المتنبي (١)

المتنبي وسيف الدولة

للدكتور أحمد أمين

- ١ -

كان لسيف الدولة ناحية فنية قوية ، لا تقل شأناً عن ناحيته السياسية والحربية ، فهو يحب الفن ويولع به ، ويتذوقه ويساهم فيه .

وقد وردت في ذلك أخبار متفرقة تدل عليه .

فهو مولع بالتصوير ، رغم النزعة الشائعة إذ ذاك في كراهيته ، فيروي صاحب اليتيمة أن سيف الدولة أمر بضرب دنانير للصِّلاب في كل دينار منها عشرة مثاقيل وعليه اسمه وصورته ، فأمر يوماً لأبي الفرج الببّغاء بعشرة منها ، فقال :

نحن بجود الأمير في حَرَمٍ ... نرتع بين السُّعود والنِّعمِ

أبدعُ من هـذه الدَّنانيرِ لَمْ ... يَجْرِ قديماً في خاطِرِ الكَرَمِ

فقد غـدَتْ باسمِهِ وصُورَتِه ... في دهرِنا عُوذةً من العَدَمِ

ولعله استوحى ذلك من صورة دنانير الروم .

وأدل على ذلك ما ذكره المتنبي في صفة خَيْمَة لسيف الدولة ، تدلنا

---

(١) أقام المجمع العلمي العربي مهرجان للمتنبي في تموز سنة ١٩٣٦ وكان من خطبائه الأستاذ أحمد أمين .

على ذوقه وحبه للفن حقاً ، فقد ذكر المتنبي أن هذه الخيمة أو القبة التي كانت تضرب على سيف الدولة ، كانت قطعة فنية رائعة .

ففيها صورة روضة بديعة لم يحكها السحاب وإنما حاكها النسّاج ، وأغصان الأشجار ترفرف عليها طيور لا تنقص عن الطيور الطبيعية إلا بالغناء .

وفيها صُوَر وحوش يحارب كل جنس عدوه ، ولكنها سُلبت الروح فتسالمت .

وإذا ضربتها الريحُ ماج بعضها في بعض فكأن صُوَر خيل تجول ، وكأن صُوَر الأسود تختِلُ صُوَر الظباء لتصيدها وتدركها .

وفي ناحية من الخيمة صورة ملك الروم ، وصورة سيف الدولة ، وملك الروم يسجد لسيف الدولة ، ويخضع له ويتذلل ، ويقبّل بساطه إذْ لا يقدر على تقبيل كمه ويده لارتفاع مكانه .

وبين يدي سيف الدولة الملوك متكئين على مقابض سيوفهم من هيبته .

وفي حواشي الخيمة لآليْ من النسيج تكاد لا تختلف عن اللآلي الحقة إلا أنها لم تنظم ولم تثقب . في ذلك يقول المتنبي :

عليها رياضٌ لم تحُكْها سحابةٌ	وأغصانُ دَوْحٍ لم تُغَنِّ حمائمُهْ
وفوق حواشي كلِّ ثوبٍ موجَّهٍ	من الدُّرِّ سِمْطٌ لم يُثقِّبْهُ ناظمُهْ
ترى حيوانَ البرِّ مُصْطَلِحاً بها	يحارب ضِدٌّ ضِدَّهُ ويُسالمُهْ
إذا ضربَتْهُ الريحُ ماجَ كأنَّهُ	تجولُ مَذاكيهِ وتدأى ضراغمُهْ
وفي صورة الروميِّ ذي التاجِ ذِلَّةٌ	لأبلجَ لا تيجانَ إلا عمائمُهْ
تُقبِّلُ أفواهُ الملوكِ بساطَهُ	ويكبُرُ عنها كُمُّهُ وبَراجمُهْ
قياماً لمن يشفي من الداء كَيُّهُ	ومن بين أُذْنَيْ كلِّ قَرْمٍ مَواسمُهْ
قبائعُها تحتَ المرافقِ هيبةً	وأنفذُ مما في الجفونِ عزائمُهْ

وهي صُورة بديعة ، تشهد بحب سيف الدولة للتصوير والفن .

ثم أولع بالموسيقى ، فكان في قصوره الجواري المغنيات ، ويرون أن الفارابي لما زاره عرض عليـــه سيف الدولة قيانه فأسمعنه ، فأسمعه الفارابي من قانونه خيراً مما سمع .

وأنمى من هذا وأظهر ناحيـة سيف الدولة الأدبية ، ولم يذكر المؤرخون لنا كيف ثقف وكيف علم ، إلا أنهم ذكروا أنه كان من شيوخه أبو ذر الشاعر وابن خالويه اللغوي النحوي ، وانه درس دواوين الشعر القديم ، وكانت تغذي عواطفه العربية ، من تمدح بالشجاعة والكرم كما كان يعرف أيام قبيلته (تغلب) ومفاخرها .

وتدل الدلائل كلها على دقة حسه الادبي وذوقه الفني . يقول فيه المتنبي :

عليمٌ بأسرار الديانات واللُّغى   له خطراتٌ تفضحُ الناسَ والكُتُبا

فهل نستدل بهذا على أنه كان يعرف غير اللغة العربية أيضاً ؟ أظن ذلك ؛ فابن خلكان يروي في ترجمة الفارابي أنه كان لسيف الدولة مماليك ، وله معهم لسان خاص يحدثهم به .

ومن مظاهر حبه للأدب وسعة اطلاعه وحسن ذوقه أنه كان كثيراً ما يتمثل بأبيات قديمة ، وتعجبه أبيـات يرددها ، أو قافية يستملحها ، أو معنى يستجيده ؛ فيطلب من الشعراء أن يجيزوها أو يقولوا على قافيتها . فمرة — مثلا — ورد على خاطره بيتان للعباس بن الأحنف :

أمينِّي تخاف انتشار الحديث   وحظِّيَ في ستـــره أوفر

ولو لم أصنـــه لبُقْيا علي   ك نظرتُ لنفسي كما تنظر

واستحسن المعنى ، فأرسل رسولا مستعجلا لأبي الطيب ومعه رقعة فيها البيتان يسأله اجازتها ، فقال المتنبي أبياته المشهورة :

رضاكَ رضاي الذي أوثر   وسرُّك سِري فما أظهر الخ

وديوان المتنبي وغيره من الشعراء مملوء بهذه الأمثال .

ثم مجلسه الأدبي الحافل في حلب ، والذي قلّ أن يكون له نظير ؛ فالشعراء والأدباء في مجلسه يثيرون الموضوعات المتنوعة ، ويساهم فيها سيف الدولة ، ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه ، ويجزل العطاء لمن أجاد ؛ فأحياناً يستذكرون الشعر القديم ، وأحياناً يسألهم اجازة شعر ، وأحياناً مسألة نحوية . واخرى مسألة لغوية ، حسبما اتفق ؛ فمثلاً مرة ينشىء سيف الدولة هذا البيت :

لكَ جِسْمي تُعِلُّه فدَمي لِمْ تُحِلُّه

ويطلب من أبي فراس أن يجيزه فيقول :

أنا إن كنت مالكاً فَلِيَ الأمر كله

ومرة يسأل المتنبي أن يعيد انشاد قصيدته :

على قدر أهل العزم تأتي العَزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وكان سيف الدولة يحب هذه القصيدة ويستعيدها ، فلما وصل الى قوله :

وقَفتَ وما في الموت شكٌ لواقف كأنك في جَفْنِ الرَّدى وهو نائم
تمر بك الأبطالُ كَلْمى هزيمةً وَوَجْهُكَ وضّاحٌ وثغرك باسم

قال سيف الدولة : قد انتقدنا عليك هذين البيتين ، لأن الشطرين لا يلتئمان ، وكان خيراً أن تخالف بينهما فتقول :

وقفت وما في الموت شك لواقف ووجهك وضاح وثغرك باسم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة كأنك في جفن الردى وهو نائم

وهو نقد دقيق ، وإن كان المتنبي قد رد عليه فقال : « إن الثوب لا يعرفه البزاز معرفة الحائك » .

وسأل سيف الدولة مرة مَن في مجلسه : هل تعلمون اسماً ممدوداً وجمعه مقصور ؟ فلم يحيروا جواباً الا ابن خالويه فقال عفراء وعذارى ، وصحراء وصحارى . وهكذا كان مجلسه حافلاً بالأدب والنقد .

وهو مع ذلك شاعر غير انه مقل ، فقد رويت له في كتب الأدب

أشعار ، وان كان كثير منها قد نسب لغيره في بعض دواوين الشعراء . فلعله كان يتغنى بها فيظن بعض الناس انها له ، ولكن بعضها يكاد يجمع الرواة على أنه لسيف الدولة ، كقوله في جارية رومية له كان يهواها ويخشى عليها من حظاياه ، فأودعها قلعة وقال :

راقبتني العيون فيك فأشفقـ ت ولم أخل قط من إشفاق
ورأيت العذول يحسدني فيـ ك مجداً يا أنفس الأعلاق
فتمنيت أن تكوني بعيداً والذي بيننا من الود باق
رب هجر يكون من خوف هجر وفراق يكون خوف فراق

وقال :

تجنى علي الذنب والذنب ذنبه وعاتبني ظلماً وفي شقه العتب
وأعرض لما صار قلبي بكفه فهلا جفاني حين كان لي القلب
إذا برم المولى بخدمة عبده تجنى له ذنباً وإن لم يكن ذنب

سيف الدولة هذا الفنان الناقد الشاعر الملك ، هو الذي اتصل به المتنبي .

كان المتنبي بعد خروجه من سجنه لدعواه النبوة ، أو لما قيل من دعواه النبوة بائساً فقيراً ناقماً على الزمان وأهله ، يشعر بعظمته وعلو نفسه ؛ ثم لا يجد لهذه العظمة منفذاً ؛ فهو يتردد على من يسميهم الناس عظماء ، فيمدحهم فلا يجد عندهم تقديراً لنفسه ولا لشاعريته ، حتى رووا انه مدح علي بن منصور الحاجب بقصيدته التي مطلعها :

بأبي الشموس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلاببا

فأعطاه عليها ديناراً واحداً فسميت القصيدة الدينارية .

وقالوا إن أكثر ما نال على شعره قبل اتصاله بسيف الدولة كان مائة دينار منحها له الأمير أبو محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج بالرملة .

فكان اتصاله بسيف الدولة صفحة جديدة في أدبه ، وصفحة جديدة في رخاء عيشه .

كان أبو الطيب يتنقل في ربوع الشام مادحاً من يخاله كريماً محسناً ، حتى نزل على أبي العشائر ، عم سيف الدولة ، وعامل أنطاكية ، ومدحه بقصائد كثيرة ، يقول فيها :

شاعرُ المجدِ خِدْنُهُ شاعرُ اللفْـ ظِ كلانا ربُّ المعاني الدِّقاقِ
لم تزلْ تسمعُ المديحَ ولكـ نْ صهيلَ الجيادِ غيرُ النهاقِ

وسار مع أبي العشائر سيرة مصغرة للسيرة التي سارها بعد مع سيف الدولة .

في شهر جمادي الآخرة من سنة ٣٣٧ هـ زار سيف الدولة انطاكية ، وكان بها أبو الطيب . وكان قد سمع سيف الدولة به وبشعره ، ورأى أن يزين به بلاطه ، فقدمه اليه أبو العشائر ، وعرض عليه أن يكون شاعره .

كان غير أبي الطيب من الشعراء لو عرض عليه مثل هذا العرض يطير فرحاً ، ورى أن ذلك أمنية الأماني وسعادة الدهر . ولكن أبا الطيب تردد طويلا ، وأداه تردده أن يشترط . لم يشترط مالاً يعطاه ، ولا جائزة ينالها ، وهو لهذا ضامنٌ . ولكنه اشترط ألا يعامَل معاملة سائر الشعراء ، لأنه ليس شاعراً فحسب ، بل شاعراً وعظيماً . وقد سمع أن الشعراء يذلون لسيف الدولة ذلة لا يرضاها لنفسه ؛ سمع انهم يقبّلون الأرض بين يديه ، وانهم ينشدون شعرهم وهم وقوف أمامه ؛ فاشترط ألا يكون شيء من ذلك ، انما يكون « ملك الشعراء يمدح ملك الناس » ؛ فاذا كان سيف الدولة راكباً مدحه المتنبي وهو راكب ، إذا كان جالساً مدحه وهو جالس ، ثم لا يظهر بمظهر الخضوع من تقبيل الأرض ونحوه .

وعرف سيف الدولة منزلته وشهرته ، وأنه سيكون صوتاً مدوياً في العالم العربي يشيد بذكره فقبل شروطه .

لبث المتنبي مع سيف الدولة نحو عشر سنين من سنة ٣٣٧ إلى سنة ٣٤٦ أغلبها في حلب ، وقال فيها نحو ثلث شعره كماً ، وأجود شعره كيفاً .

لم يجُدْ شعر المتنبي في زمنٍ جودته أيام سيف الدولة لأسباب : أهمها أن المتنبي لم يجد ما يغذي نفسه وعواطفه في نواحيها المختلفة كما وجدها في هذه الأيام ، فالمتنبي عربي يعتز كل الاعتزاز بعربيته ؛ فكان يحتقر كافوراً لأعجميته ، ويسب ابن خالويه لأعجميته ، ويقول في أبياته :

تُهابُ سُيُوفُ الهندوهي حدائدٌ فكيف إذا كانت نِزارية عُرْبا

وجرى ذكر ما بين العرب والأكراد من الفضل ، فسأل سيف الدولة المتنبي ما تقول ؟ فقال :

إن كنتَ عن خيرِ الأنام سائلا فخيرُهُمْ أكثرُهُمْ فضائلا
من كنتَ منهم يا همام وائلا الطاعنـين في الوغى أوائلا
والعاذلين في الندى العواذلا قد فضلُوا بفضلك القبائلا

فكان — لهذا — إذا مدح كافوراً وغيره لم يُخلص ولم يواته طبعه ، وإذا مدح سيف الدولة مدح عربياً لا يرى غضاضة في مدحه ، وانثالت عليه المعاني العربية انثيالا .

وكان المتنبي وسيف الدولة لِدَين ، شاء الله أن يولدا في سنة واحدة سنة ٣٠٣ ، واصطحبا وسنهما أعز أيام الشباب ، فقضيا معاً من سن ٣٤ إلى ٤٤ ، والعواطف تمازج وتتحاب ؛ إذا تقاربت في السن واتفقت في الشباب .

وسيف الدولة فارس والمتنبي فارس ، كلاهما يعشق الخيل والضرب والطعان ، فان خرج سيف الدولة فارساً خرج المتنبي فارساً ، وقد صحبه في عدة غزوات إلى بلاد الروم ، ومنها غزوة قالوا إنه لم ينج منها إلا سيف الدوله وستة نفر من صحبه أحدهم المتنبي ، فاذا شعر المتنبي في الغزوات

والقتال والشجاعة والحرب فانما يستمد ذلك من نفسه . ومن شعوره ، لا من ألفاظ حشاها في رأسه ينظمها ولا تتصل بقلبه .

ثم ما أغدق عليه سيف الدولة من مال لم يحلُمْ به ولم تره عينه من قبل ؛ وكان المتنبي محباً للمال حباً لا يتناسب وطلبه المجد وعلو همته ، وقد علله هو بأن ذلك يرجع الى أيام صباه يوم كان لا يجد قوت يومه ، فعلّمه ذلك قيمة المال والشهوة اليه والحرص عليه ، ويعبر عما في نفسه من ذلك فيقول :

فلا يَنْحَلِلْ في المجد مالُكَ كلُّه فينحلَّ مجدٌ كان بالمال عَقْدُه
ودبِّرهُ تدبيرَ الذي المجدُ كفُّه إذا حارب الأعداءَ والمالُ زَنْدُه
فلا مجدَ في الدُّنيا لمن قلَّ مالُه ولا مالَ في الدُّنيا لمن قلَّ مجدُه

فغذاه سيف الدولة من هذه الناحية حتى أتخمه ، وكان في سيف الدولة الأريحية العربية والكرم العربي فتقابلت هذه الصفة مع شَرَهِ المتنبي وطمعه ، فكان يعطيه في كل سنة نحو ثلاثة آلاف دينار ، غير الهدايا من أفراس وجوار وسيوف ، وأقطعه مرة إقطاعاً بناحية معرة النعمان كان يخرج اليها المتنبي أحياناً ، فزاد العطاء في فصاحة المتنبي وحمله على العمق في استخراج المعاني ، والأشهى تفتح اللُّها .

وفوق هذا وذاك فقد كان كل الوسط الذي حول المتنبي أيام سيف الدولة يتطلب منه الاجادة . فلقد كان حوله شعراء عديدون نابهون كأبي فراس والنامي والببغاء وابن نُباتة وغيرهم ، ونقاد ونحاة ولغويون ، والملك على رأسهم يشعر وينقد ويقدر ، ويأتي من أعمال الفروسية والبطولة ما ينطق العيي .

فكيف بعد ذلك كله لا يكون عصر المتنبي مع سيف الدولة خير عصوره وأحسنها انتاجا . وقد سئل هو نفسه في ذلك : لم تراجَعَ شعره بعد مفارقة آل حمدان فقال : قد تجوزت في قولي وأعفيت طبعي ،

واغتنمت الراحة ، منذ فارقت آل حَمْدان . وفيهم من يقول (تسائلني من أنت وهي عليمة) يعني أبا فراس ، وفيهم من يقول :

وقدْ علمتْ بما لاقتهُ منّا قبائلُ يَعرُبٍ وبني نزار
لقيناهمُ بأرماحٍ طوال نبشّرهم بأعمارٍ قِصار

يعني أبا زهير بن مُهلْهِل الحَمْداني .

وفيهم من يقول :

أأخا الفوارس لو رأيتَ مواقفي والخيل من تحت الفوارس تنحط
لقرأت منها ما تخط يدُ الوغى والبيضُ تَشكُلُ والأسنة تنقط

يعني أبا العشائر . ا هـ .

وهكذا اجتمعت كل هذه الأسباب على إحسان المتنبي في هذه الفترة كل الاحسان . وان كان ذلك الخوف من الناقدين ، والعمق في إعمال الفكر ، أخرجه أحياناً إلى ما يسميه النقاد بالخيال الواهم ، ويعنون به في الخيال إلى حد الوهم .

— ٢ —

اتصل المتنبي بسيف الدولة وأصبح شاعر بلاطه الأول ، فأخذ يسجل أحداثه الحربية والمدنية تسجيلاً أدبياً . فان سجل المؤرخون الحقائق صرفة فالمتنبي يسجلها ممزوجة بعواطفه ومشاعره .

قد كانت هذه الفترة فترة غزوات متوالية من سيف الدولة للروم وللخارجين عليه من أقاربه وغيرهم ، فأخذ المتنبي يقول قصيدة لكل موقعة ، فقد ظفر بحصن برزُوَيه سنة ٣٣٧ فقال المتنبي قصيدته :

وفاؤكما كالرَّبْع أشجاهُ طاسِمُهْ بأنْ تُسْعِدا والدمعُ أشفاهُ ساجِمُهْ

وحارب سيف الدولة القرامطة هذا العام ، واستنقذ منهم عمه أبا وائلٍ ، فقال المتنبي قصيدته :

إلامَ طَماعِيَةُ العاذِلِ ولا رأيَ في الحُبِّ للعاقِلِ

وخرج هذا العام لنصرة أخيه ناصر الدولة على معز الدولة الديلمي ، فاضطر معز الدولة الى الصلح ، فقال المتنبي قصيدته :

أعلى الممالكِ ما يُبْنَى على الأَسَلِ والطَّعنُ عِندَ محبيهِنَّ كالقُبَلِ

واستعد لغزو الروم سنة ٣٣٩ وأعد جيشه فقال المتنبي قصدته :

لهذا اليومِ بَعْدَ غَدٍ أريجُ ونارٌ في العَدُوِّ لها أجيجُ

فلما انهزم سيف الدولة في هذه الوقعة قال قصيدته :

غيري بأكثرِ هذا الناسِ ينخدعُ إن قاتلوا جبُنوا أو حدّثوا شجعوا

وقال : إن سبب الهزيمة ما لحق بسيف الدولة من الضعفاء والجبناء ، وإن كل غزوة بعد هذه الغزوة فلسيف الدولة النصرة . لأن جنوده قد نقيت من الأنذال ، ولم يبق فيهم الا الأبطال .

وبنى سيف الدولة مَرْعَش سنة ٣٤١ ، فقال المتنبي قصيدته :

فديناكَ من ربعٍ وإنْ زدتنا كرباً فانكَ كنتَ الشَّمسَ للشرقِ والغربا

وجاء رسول ملك الروم إلى سيف الدولة يلتمس الفداء سنة ٣٤١ ، فقال المتنبي :

لقيتَ العفاةَ بآمالها وزُرتَ العُداةَ بآجالها

وبنى سيف الدولة ثغر الحدث سنة ٣٤٣ ، فقال فيه المتنبي القصيدة المشهورة :

على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ وتأتي على قدْرِ الكِرامِ المكارمُ

وهكذا كان كل عمل حربي يأتيه سيف الدولة يسجله المتنبي ويفلسفه ويؤدبه ، ويخرجه قصيدة رائعة .

وكذلك كان يسجل أحداث سيف الدولة المدنية ، فتموت أم سيف الدولة فيرثيها بقوله :

نُعِدُّ المَشْرَفِيَّةَ والعوالي وتَقتلُنا المنونُ بلا قتالِ

ويموت ابن سيف الدولة فيرثيه بقصيدة :

بِنا منكَ فوقَ الرملِ ما بكَ في الرملِ وهذا الذي يُضني كذاك الذي يُبلي

ويموت غلام سيف الدولة « يماك » فيرثيه بقصيدته :

لا يُحزِنِ اللهُ الاميرَ فانّني لآخُذُ من حالاتِهِ بنَصيبِ

وتموت أخت سيف الدولة فيرثيها بقصيدته :

إن يكن صبرُ ذي الرزيئة فضلاً تكنِ الأفضلَ الأعزَّ الأجلا

ويمرض سيف الدولة فيقول المتني :

إذا اعتَلّ سيفُ الدولةِ اعتلّتِ الأرضُ ومَنْ فوقَها والبأسُ والكرمُ المحضُ

ويخرج لسيف الدولة دُمل فيقول المتنبي :

أيَدْري ما أرابَكَ مَنْ يُريبُ وهل تَرقى إلى الفَلَكِ الخُطوبُ

ويشفى سيف الدولة فيقول المتنبي :

المجدُ عوفيَ إذ عوفيتَ والكَرَمُ وزالَ عنكَ إلى أعدائك الألَمُ

ويأتي عيد الفطر فيهنئه ، وعيد الاضحى فيهنئه .

وبذلك أصبح شعر المتنبي في هذه الفترة سجلا لكل أعمال سيف الدولة وأحداثه كبيرها وصغيرها ، سلمها وحربها ، أحزانها وأفراحها ، جدها وهزلها ،

والمتتبع للديوان يرى أن شعر المتنبي في وصف حروب سيف الدولة ، وشعره في الحزن ؛ أرق من شعره في المديح وشعر السرور . وسبب ذلك — على ما يظهر — أن نوع الشعر الذي يشتد اتصاله بنفس المتنبي ، يجود ويغزر — وقد كان المتنبي فارساً تعجبه الفروسية والبطولة ، فاذا قال في ذلك يستخرجه من أعماق قلبه . وكانت نفسه حزينة لأنه لم ينل المجد الذي يصبو اليه ، فيحزن حزناً عميقاً على الميت ، وهو في الحقيقة يحزن على ليلاه . أما السرور وأما المديح في غير البطولة فصباغته لا تمس إلا السطح الظاهري من قلبه .

وكما سجل المتنبي أحداث سيف الدولة ، سجل نفسه في مشاعرها المختلفة ، وانقباضها وانبساطها ، وأمنها واضطرابها . وكان المتنبي حاد الذكاء ، حاد المزاج ، صريحاً ، لا يستطيع أن يخفي ما في نفسه ، وقد توالت عليه أوقات شدة ورخاء ، وتتابعت عليه ساعات أمنٍ وساعات قلق . وكان مضطرباً بين الرضا والغضب ، والبؤس والنعيم . ومما زاد الأمر صعوبة أن سيف الدولة من جنسه سريع الرضا ، سريع الغضب ، سمح الى آخر حدود السماحة ، منتقم الى آخر حدود الانتقام ، ينفعل أحياناً لقصيدة واحدة للمتنبي انفعالات متعاكسة ، فيعجبه البيت في مدحه فيطرب له أشد الطرب ، ويفخر المتنبي عليه بنفسه فيهيج أشد الهياج — وطبعان على نمط واحد بهذا الشكل لا يمكن أن يسودهما الصفاء التام ولا الجفاء التام ، فاذا ساد الصفاء فسرعان ما يتعكر ، واذا اعتكر فسرعان ما يصفو . وهكذا كان حالهما دائمـــاً ، فنرى سيف الدولة يعطي المتنبي الألوف في لحظة ، ويرضى عن قتله في لحظة ، ونرى المتنبي له عينان ، عين في المجد وعين في المال ، يأخذ المال فيرضى ، وينظر المجد فيثور ، والمجد في نظره أن يسود هو ، ولا يكون مسوداً لأحد ، حتى ولو كان سيف الدولة .

وبجانب ذلك كان بلاط سيف الدولة مسرحاً تمثل فيه دسائس كثيرة للمتنبي ؛ فقد كان فيه شعراء كثيرون ، كانوا شعراء سيف الدولة قبل المتنبي وأيامه ، وكانوا ذوي حظوة كبرى عند سيف الدولة ، فكسفهم المتنبي ، وعلاهم بنفسه وبشعره ؛ فكان من الطبيعي أن يحقدوا عليـــه ويدسوا له ، وغير الشعراء من الادباء والعلماء كذلك ، يرون المتنبي يأخذ أكثر مما يأخذون ، وينال القرب من سيف الدولة أكثر ممـا ينالون ، فكيف لا يغضبون ؟

وربما كان أشد من هؤلاء عداوة له أبو العباس النامي الشاعر وأبو فراس وابن خالوَيه النحوي اللغوي .

كان سيف الدولة يميل الى النامي قبل المتنبي ، فلما جاء المتنبي مال عنه ، فغاظ ذلك النامي ، وخلا يوماً بسيف الدولة وعاتبه وقال له : لم تُفَضِّلْ عليَّ ابن عَبْدان السقا ؟ (يعني المتنبي) فأمسك سيف الدولة عن الجواب . فلما ألح قال سيف الدولة : لأنك لا تحسن أن تقول كقوله :

يعودُ من كل فتحٍ غيرَ مفتخرٍ ... وقد أغذَّ اليه غيرَ محتفلِ

فنهض مغضَباً ، واعتزم ألا يمدحه أبداً !

وأبو فراس يقول لسيف الدولة : « إن هذا المتشدق كثير الادلال عليك ، وانت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد ، ويمكن أن تفرق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره » .

ويأخذ دائماً المسالك على المتنبي ، فاذا قال بيتاً جميلاً قال أبو فراس إنك سرقته من قول بشار ، أو من قول دعبل .

ويتجادل المتنبي وابن خالويه في مسألة لغوية ، فيغضب ابن خالويه (وهو أستاذ سيف الدولة) فيخرج من كمه مفتاحاً حديداً ليلكم به المتنبي .

وهكذا كان بلاط سيف الدولة حرباً علنية وخفية على المتنبي . ولم يخلص للمتنبي من حول سيف الدولة من الشعراء إلا أبو الفرج الببغاء . فقد كان المتنبي يأنس به ويبثه شكواه من سيف الدولة وممن حوله ، ويأتمنه على سره ؛ وقد ساعدت طباع أبي الطيب على نجاح هذه الدسائس فهو يتعاظم فيغضب الشعراء ، بل ويتعاظم فيغضب الأمير ، وهو دائم الاعلان عن نفسه والفخر بها ؛ ويجفو سيفُ الدولة فيجفو المتنبي ، ويتكلم سيف الدولة فيجيبه المتنبي ، وتأتي المناسبات ليقول الشعراء وتنتظر سيف الدولة من المتنبي أن يقول فلا يقول ، والمتنبي حائر النفس بين المجد والمال ، يجفو مجداً ، فلا يمعن في الجفاء مالا ، ويصدر لأنفته ، ويخضع لطمعه ، وهي حال تُريك النفس وتعقد الحياة .

هذا كله قد سجله المتنبي أيضاً في شعره في سيف الدولة ، فمن السنة الثانية لاتصاله بسيف الدولة يذكر الحسد ويذم الناس ويقول :

فأبلغْ حاسديَّ عليَّ أني كبا بَرقٌ يحاولُ بي لحاقا
وهل تُغني الرسائلُ في عدوٍّ إذا ما لم يكنَّ ظُبىً رقاقا
اذا ما الناسُ جرّبهمْ لبيبٌ فاني قد أكلتُهمُ وذاقا
فلم ارَ ودَّهمُ الا خداعاً ولم أرَ دينَهمُ إلا نفاقا

ويتمنى لو تعطي الملوكُ على أقدار الناس ، فلم يكن ينال الخسيسُ شيئاً

ليتَ الملوكَ على الأقدارِ مُعطيةٌ فلم يكن لدنيءٍ عندَها طمعُ

ولعل أوضح ما يدل على هذه الحال قصيدته التي مطلعها :

وأحرَّ قلباه ممن قلبه شبِمُ ومن بجسمي وحالي عنده سقَمُ

فهي تصور هياج نفسه أشد هياج ، فهو لا يعبأ بسيف الدولة إلا مداراة ، ولا يعبأ بمن حوله من الناس ومن الشعراء ، ويمدح سيف الدولة ليمدح نفسه ، ويعرض بأبي فراس وغيره من الشعراء :

يا أعدلَ الناسِ إلا في معاملتي فيكَ الخصامُ وانت الخصمُ والحكمُ
أعيذُها نظراتٍ منكَ صادقةً أن تحسبَ الشحمَ فيمن شحمه ورمُ
وما انتفاعُ أخي الدنيا بناظرِهِ إذا استوتْ عنده الأنوارُ والظلَمُ
سيَعلمُ الجمعُ ممن ضم مجلسُنا بأنني خيرُ من تسعى به قدمُ
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعتْ كلماتي من به صممُ

* * *

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

* * *

ما كان أخلقَنا منكم بتكرمةٍ لو أن أمرَكمُ من أمرنا أممُ

* * *

كم تطلبون لنا عيباً فيُعجزُكم ويكرهُ اللهُ ما تأتونَ والكرم
ما أبعدَ العيبَ والنقصانَ من شرفي أنا الثريا وذانِ الشيبُ والهرمُ

ثم يهدد بالرحيل :

إذا ترحَّلْتَ عن قوم وقد قدَروا ألا تُفارقَهمْ فالراحلون همُ
شر البــلاد مكانٌ لا صديق به وشر ما يَكسبُ الانسانُ ما يَصمُ

ثم يطعن الشعراء حوله فيقول :

بأي لفظ تقول الشعر زعنِفَةٌ تجوزُ عندك لا عُرْبٌ ولا عجَمُ
هــذا عتابُكَ إلا أنه مِقَــةٌ قد ضُمّنَ الدُّرَّ إلا أنه كلِمُ

قصيدة — من غير شك — من أقوى شعر المتنبي ، سكب فيها نفسه ، ولم يعبأ بمقام أحد ، وكانت كافية لأن يطرده سيف الدولة شر طردة ، ولكن — كما قد قلت قبل — ان سيف الدولة من جنس المتنبي ، فلئن كانت القصيدة أغضبته أشد الغضب فقد جاء فيها :

إن كان سَرَّكم ما قال حاسدُنا فما لجُرحٍ إذا أرضاكمُ ألمُ

وهذا أطرب سيف الدولة أيما طرب .

وانتهت المعركة بأن أعطى سيف الدولة المتنبي ألفاً وألفاً ، فقال المتنبي :

جاءت دنانيرك مختومة عاجلةً ألفاً على ألف
أشبهها فعلُكَ في فيلق قلَّبْتَه صفاً على صف

ولكن إن انتهت هذه الحادثة فلا بد أن يعقبها حوادث مثلها ما دام سيف الدولة والمتنبي على ما هما والبلاط على ما هو .

وظل المتنبي يتعاظم في شعره ويعرّض بغيره من الشعراء ، ويقول لسيف الدولة :

إن هذا الشِّعرَ في الشِّعر مَلَك سار فهو الشمس والدنيا فلك
عدل الرحمن فيــه بيننــا فقضى باللفظ لي والحمد لك
فاذا مــر بأذني حاسد صار ممن كان حياً فهلك

وشاء القدر أن يكون آخر شعر في سيف الدولة من هذا القبيل وعلى هذه النغمة وهو :

لا تطلبنَّ كريماً بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يداً خُتِموا
ولا تبال بشعر بعد شاعره قد أفسد القول حتى أحمد الصَّمَمُ

وظلت السعايات تعمل ، فابن خالويه وغيره يلح في الايقاع بالمتنبي ، والمتنبي يمعن في تعاليه حتى فاض الاناء ، فملَّ سيف الدولة كثرة القول في المتنبي ، ومل المتنبي كثرة الغضب والعتاب ، فتلاقت رغبة المتنبي في الخروج من حلب برغبة سيف الدولة في الراحة مما ينظر ويسمع ، فرحل المتنبي الى مصر ، وأسدل الستار عن فصل من رواية المتنبي ، وان كانت الرواية لم تتم فصولا .

وفي الحق ان الزمان أخطأ فوضع المتنبي في غير موضعه ، اعطاه نفس ملك ولسان شاعر ، ووقفه يدف على أبواب الأمراء يمدحهم ، وهو إذ يمدحهم يرى منزلته — حقاً أو باطلا — فوق منزلتهم ؛ فكان شأنه شأن كثير من الناس لا تتلاءم نفسيتهم ومنصبهم ، نفس رئيس ومنصب مرؤوس ، أو نفس حرب ونضال ومنصب ذلة وهوان ؛ وهذان العنصران اذا اجتمعا سببا شقاء صاحبها ؛ لذلك كانت نفس المتنبي ثائرة دائماً . ومن يدري ؟ لعل ما منُحِنا من شعر جزل جميل كان نتيجة هذا العناء ، ولو تلاءم منصبه ونفسه لأخلد الى الراحة ؛ فكم كان الشقاء والبؤس والفقر والاضطهاد والعذاب نعمة على الانسانية بما أخرجت من شعور نبيل وفن جميل .

وبعدُ ، فمع هذا كله لم يجد المتنبي عوضاً عن سيف الدولة في علو شأنه وكرمه وعربيته وذوقه وفروسيته ؛ وخرج ينشُد الملك في مصر وغير مصر فلم ينل ملكا ولم يجد ممدوحا ينطقه بالمعاني كما أنطقه سيف الدولة ، وعرَّض في أول أمره بعصر بسيف الدولة ، ولكنه أدرك الحقيقة المرة بعدُ ، فتاب وأناب وندم على ما كان ، وحن الى سيف الدولة وحن سيف الدولة اليه ، فيقول من قصيدة في غير ديوانه :

عبرتُ بسيري نحو مصر ولا لما — بها ولماً بالسّير عنها ولا عبْرا
وفارقتُ خير الناس قاصدشرهم — وأكرمَهم طُرّاً لألأمهم طرا
فعاقبني المخصيُّ بالغدر جازياً — لأنَّ رحيلي كان عن حلب غدرا
وما كنت إلا فائل الرأيلم أُعن — بحزم ولااستصحبت في وجهتي حِجرا

لقد كان المتنبي حين فارق سيف الدولة يعتقد أنه غدر به فيقول :

حَبَبْتُكَ قلبي قبلَ حُبِّكَ مَن نأى — وقد كان غدّاراً فكُنْ أنتَ وافيا

ولكن مرور الزمان ، وتكشف الحوادث وخيبة الأمل في غيره جعلته يرى غير رأيه الأول ، وان المتنبي لا سيف الدولة كان هو الغادر ، إذ يقول : « لأنَّ رحيلي كان عن حلب غدرا » .

وحن سيف الدولة إلى المتنبي ، فبعث اليه ابنه من حلب الى الكوفة ، بعد أن خرج من مصر ، وبعث اليه مع ابنه هدية ، فكتب اليه المتنبي قصيدته التي يقول فيها :

ليس إلاكَ يا عليُّ هُمامُ — سيفُهُ دونَ عِرْضه مَسلولُ

* * *

أنتَ طولَ الحياة للرُّوم غازٍ — فمتى الوعدُ أن يكونَ القُفولُ

* * *

ما الذي عنده تدار المنايا — كالذي عنده تُدار الشَّمولُ

* * *

من عَبيدي إن عشْتُ لي ألف كافو — رٍ ولي من نداك ريفٌ ونيلُ
ما أبالي إذا أتقتْكَ الليالي — مَن دهَتْهُ حبُولُها والخُبول

ثم بعث اليه سيف الدولة كتاباً بخطه يسأله المسير إليه فاعتذر بالوشايات .

وما عاقني غير خوف الوُشاة — وإنّ الوشايات طُرْقُ الكذب

كان ذلك في سنة ٣٥٣ ، ولم تطل مدة المتنبي بعدُ ، فقد قتل في السنة التي تليها ، وهي سنة ٣٥٤ ، كلاهما يحمل نفساً حبيباً الى صاحبه .

فلسفة القوة في شعر المتنبي

للدكتور أحمد أمين

يخطيء من يظن أن أبا الطيب عمد إلى ما أثر من الحِكم عن أفلاطون وأرسطو وأبيقور وأمثالهم من فلاسفة اليونان فأخذها ونظمها، ولم يكن له في ذلك إلا أن حول النثر شعراً، كما رأى ذلك من تتبعوا سرقات المتنبي وأفرطوا في اتهامه، فأخذوا يبحثون في كل حكمة نطق بها ويردونها إلى قائلها من هؤلاء الفلاسفة. فلسنا نرى هذا الرأي، فان كان قد وصل الى أبي الطيب قليل من حكم اليونان فان أكثر حكمه منبعها نفسه وتجاربه وإلهامه، لا الفلسفة اليونانية وحِكمها، ذلك لأن الحِكَم ليست وقفاً على الفلاسفة ولا على من تبحروا في العلوم والمعارف، إنما هي قدر مشاع بين الناس يستطيعها العامة كما يستطيعها الخاصة، ونحن نرى فيما بيننا أن بعض العامة ومن لم يأخذوا بحظ من علم قد يستطيعون من ضرب الأمثال والنطق بالحكم الصائبة ما لا يستطيعه الفيلسوف والعالم المتبحر، وهذا الذي بين أيدينا من أمثال إنما هو من نتاج عامة الشعب أكثر مما هو من نتاج الفلاسفة. وكلنا رأى بعض عجائز النساء ممن لم تقرأ في كتاب أو تخط بيمينها حرفاً تنطق بالحكمة تلو الحكمة، فيقف أمامها الفيلسوف حائراً دهشاً يعجز عن مثلها ويحار في تفسيرها. ومرجع ذلك الى ينبوعين وهما التجربة والالهام، فاذا اجتمعا في امرىء تفجرت منه الحكمة ولو لم يتعلم ويتفلسف، فكيف إذا اجتمعا لامرىء كأبي الطيب ملىء قلبه شعوراً وملئت حياته تجارب وكان أمير البيان وملك الفصاحة؟

فنحن إذا التمسنا له مثالا في حكمه فلسنا نجده في أفلاطون وأرسطو وأبيقور ، وإنما نجده في زهير بن أبي سُلْمى وقد نطق في الجاهلية بالحكم الرائعة مما دلته عليه تجاربه وأوحى اليها إلهامه ، كما نجده في شعر أبي العتاهية وقد ملأ عالمه حكما وأمثالاً خالدة على الدهر . وكل ما بين أبي الطيب وهؤلاء الحكماء من فروق يرجع إلى أشياء : المحيط الذي يحيط بكل شاعر ، وقدرة نفس الشاعر على تشرب محيطه ، والقدرة البيانية على أداء مشاعره . لقد ألمّ زهير من الحرب ورأى ويلاتها فشعر فيها ونطق بالحكم الرائعة يصف شرورها ومصائبها ، وفشل أبو العتاهية في الحياة فزهد وملك الزهد عليه نفسه فملأ به ديوانه وكان لأبي الطيب موقف غير هذين فاختلفت حكمه عنها وإن نبعت من منبعها .

ودليلنا على ذلك أن أبا الطيب — فيما نعلم — لم يثقف ثقافة فلسفية إنما ثقف ثقافة عربية خالصة ، قرأ بعض دواوين الشعراء ولقي كثيراً من علماء الأدب واللغة كالزجّاج وابن السرّاج والأخفش وابن دريد ، وكل هؤلاء لا شأن لهم بالفلسفة ومناحيها .

وما لنا ولهذا كله ، فاننا لو رجعنا إلى حِكَمه لوجدناها منطبقة تمام الانطباق على محيطه ونفسه ليس فيها أثر من تقليد ولا شية من تصنع ، فهو ينظم ما يجول في نفسه وما دلته عليه تجاربه لا ما نقل اليه من حِكَم غيره إلا في القليل النادر .

ونحن إذا أردنا أن نجمل نفسه ومحيطه قلنا : إنه بدأ حياته حياة فتوة وفروسية ، تعرفه الخيل والليل والبيداء ، ويحب الحرب والنزال ، ويشتهي الطعن والقتال . قيل له وهو في المكتب ما أحسن وفرتك ؟ فقال :

لا تحسُنُ الوَفْرَةُ حتى تُرى منشورةَ الضَّفْرَيْنِ يومَ القتال

على فتىً معتقلٍ صَعْدَةً يَعُلُّها من كلِّ وافي السِّبالِ(١)

كما نشأ طموحاً الى أقصى حد في الطموح ، يعتد بنفسه كل الاعتداد ، ولا يرى له في الوجود نداً ولا مثيلا . قال في صباه :

أميطُ عنك تَشبيهي بما وكأنه فما أحد فوقي ولا أحدٌ مثلي

يقول إن قومه من خير العرب بيتاً ومع هذا يجب أن يعتز قومه به لا أن يعتز هو بقومه وبيته :

لا بقومي شُرفتُ بل شَرفوا بي وبنفسي فَخَرْتُ لا بجدودي

وبهم فَخْرُ كل من نطق الضا د وعَوذُ الجاني وغَوثُ الطريد

إلى جانب هذا الاعتزاز بالنفس استصغار للناس ونفوسهم وشؤونهم :

ودهرٌ ناسه ناس صِغار وإن كانت لهم جثثٌ ضِخامُ

وما أنا منهُم بالعيش فيهم ولكنْ معدِنُ الذهب الرَّغامُ

امتلأت نفسه بهذه العقيدة حتى في صباه ، فوضع لنفسه هذا المنطق الساذج البسيط . «إذا كنت خير الناس فلم لا أكون نبيهم أو على الاقل ملكهم » فبدأ ينفذ برنامجه في سهولة ويسر ظاناً — وهو فتى غرير — أن الدنيا تُحكَمُ بمثل هذا المنطق البسيط . ولم يعلم بعد أن منطق الدنيا أعقد من منطقه . نعم إنه سيلاقي في هذا شداداً وصعاباً ولكن لا بأس فهو مسلح بكل ما يحتاج اليه ذلك من سلاح :

أيَّ محلٍّ أرتقي ؟ أيَّ عظيم أتقي ؟

وكلُّ ما قد خلق الله وما لم يخلُقِ

محتقَرٌ في همتي كشَعرةٍ في مَفرِقي

---

(١) الوفرة الشعر المجتمع على الرأس ، وكان من عادة العرب نشر ضفائرهم يوم الحرب تهويلا لها ، والصعدة الرمح القصير ، واعتقل الرمح حمله ، ويعلها يسقيها مرة بعد مرة ، والسبال الشوارب او ما استرسل من مقدم اللحية .

ولكن حوادث الدهر علمته شيئاً فشيئاً أن الزمان أكبر من همته ، وأنه لا يكفي أن يكون خير الناس في زعمه ليكون نبي الناس أو ملك الناس . ومن أجل هذا تدرجت مطامحه وأخذت في النقصان ؛ فقد بدأ يطلب النبوة ، فلما فشل فيها بدأ يطلب الملك ، فلما فشل فيه بدأ يطلب ولاية أو إقليما في مصر ففشل في ذلك أيضاً ، فأخذ يعتب على الزمان ويذمه ويلعنه .

بدأ النبوة فقال :

ما مُقامي بأرض نَخلة إلا كمُقام « المسيح » بين اليهود
أنا تِرْبُ الندى وربُّ القوافي وسِمامُ العدى وغيظُ الحسود
أنا في أمةٍ تداركَها الله غريبٌ « كصالح » في ثمود

ثم صدمه الزمان بالأسر والحبس فعدل عن النبوة الى طلب الملك ، فأخذ في شعره يحقر ملوك زمانه ويقيسهم بنفسه فلا يرى لهم فضلاً عليه وله عليهم كل الفضل . ويضع خطة أن العرب يجب أن يحكمها العرب لا العجم فيقول :

وإنما الناس بالملوك وما تُفلح عُرْبٌ ملوكها عجم

ويقول :

سادات كل أناس من نفوسهمُ وسادة المسلمين الأعبدُ القزَمُ

إذن يجب أن يكون الملوك من العرب ، وإذن فليكن هو ملكاً ، وقد طوَّف بالبلاد يلتمس السبيل لتحقيق مأربه ونيل مطلبه ، ويقول في ذلك تلميحاً لا تصريحاً :

يقولون لي ما أنت في كل بلدة وما تبتغي ؟ ما أبتغي جلّ أن يُسمى
إذا قلّ عزمي عن مدًى خوفَ بُعده فأبعدُ شيءٍ ممكنٌ لم يجِدْ عزما
وإني لمن قوم كأن نفوسَهم بها أنَفٌ أن تسكنَ اللحم والعظما

وقد حلَم أن سيكون له جيش كبير يقوده بنفسه فيجوب البلاد ويفتح الأمصار ويخلع الملوك ويستولي على عروشهم فيقول :

سيصحبُ النَّصلُ منّي مثلَ مضرِ به — ويَنجلي خبري من صِمّةِ الصِّمَمِ (١)
لقد تصبرتُ حتى لات مصطبرٍ — فالآن أقحمُ حتى لاتَ مقتحمِ
لأتركنَّ وجوهَ الخيلِ ساهمةً — والحربُ أقومُ من ساقٍ على قدمِ
والطعن يُحرِقُها والزجر يُقلِقُها — حتى كأن بها ضرباً من اللَّمَمِ (٢)

رِدي حِياضَ الردى يا نفس واتركي — حياضَ خوفِ الردى للشاء والنَّعم
إن لم أذرْكِ على الأرماح سائلةً — فلا دُعيتُ ابنَ أمِّ المجد والكرم
أيملكُ الملكَ — والأسياف ظامئة — والطير جائعة — لحمٌ على وضَم ؟
من لو رآني ماءً مات من ظمأ — ولو عُرِضتُ له في النوم لم ينم
ميعادُ كلِّ رقيقِ الشَّفرتينِ غداً — ومن عصى من ملوك العرب والعجم (٣)
فان أجابوا فما قصْدي بها لهُمُ — وإن تولَّوا فما أرضى لها بهِمِ (٤)

ثم رأى أن الزمان لا يسعفه إلى ما طلب ولا يعينه على ما أمل ، فرحل إلى مصر وطلب من كافور أن ينيله ولاية فأغدق عليه ذهباً فقال :

وما رغبتي في عَسْجَدٍ أستفيدُه — ولكنها في مَفْخَرٍ أستَجِدُّه

وقال :

فارم بي ما أردت مني فاني — أســـدُ القلب آدميُّ الرُّواء
وفؤادي من الملوك وإن كا — ن لساني يُرى من الشعراء

---

(١) صمة الصمم : اشجع الشجعان .

(٢) اللمم : الجنون .

(٣) رقيق الشفرتين : السيف حاد الجانبين .

(٤) اي إن أجابوا دعوتي ونزلوا على حكمي فلست اقصدهم بسيوفي ، وإنما اقصد من عصاني ، وإن أعرضوا عن طاعتي فلست اقنع بقتلهم وحدهم بل واقتل كل من رأى رأيهم .

ثم صرح بعد الكناية فقال :

إذا لم تَنُطْ بي ضَيعةً أو ولايةً ... فجودُكَ يكسوني وشغلك يسلبُ

حتى ولا هـذه استطاع أن ينالها ، وصدمته الحقيقة فاعترف بأنه « يود من الأيام ما لا توده » ، وقد كان في صباه يقول :

ولو بَرَزَ الزمانُ إليَّ شخصاً ... لخضَّبَ شَعرَ مِفْرِقِهِ حسامي
وما بلغَتْ مشيئتَها الليالي ... ولا سارَتْ وفي يدِها زمامي
إذا امتلأتْ عيونُ الخيل مني ... فويلٌ في التيقظ والمنام

عذبته الدنيا فجعلت نفسه نفس ملك ، وهمته همة ملك ، وشعره ملك الشعر أو على الأقل فيما يعتقد هو ، ثم جعلته فقيراً لا يملك من الدنيا شيئاً ، ولا يرث من آبائه مالاً ولا ملكاً ولا جاهاً ، وكان يأمل في صباه أن تتحقق نبوته ، فالنبوة لا تحتاج إلى مال ، فلما يئس طلب الملك والملك يحتاج الى مال ، فطلبه بشعره ولكن لم تذل نفسه كما ذلت الشعراء فكان يرى أنه يعطي لممدوحيه أكثر مما يأخذ منهم ، فهو يمنحهم شعراً خالداً وهم يمنحونه عرضاً زائلاً . وكان يتجلى ذلك في عتابه وهجائه يوم يعتب على ممدوحه أو يهجوه .

فتباً لهذا الزمان الذي وضعه هذا الوضع ، منحه طموح الملوك ولم يجعله ملكا ، وحرمه المال ولم يحرمه النفس ، فلم يوائم بين نفسه وحاله — يرى أن الناس لو عقلوا لثاروا ولم يرضوا على ما هم فيه من بؤس وشقاء وللمّكوا عليهم خيارهم - ولعله يعني نفسه — ولكنهم خاضعون مستسلمون يقيمون على الذل ولا يأنفون من عار .

أما في هـذه الدنيا كريمٌ ... تزول به عن القلب الهمومُ
أما في هـذه الدنيا مكانٌ ... يُسَرُّ بأهله الجارُ المقيمُ
تشابهت البهائمُ والعِبِدّى ... علينا ، والموالي والصميمُ
وما أدري إذا داءٌ حديث ... أصاب الناسَ ، أم داءٌ قديم؟

اعتداد بالنفس لا حدّ له ، وطموح ليس بعده طموح ، ونقمة على الزمان لأنه لم يسعفه ، ونقمة على الناس لأنهم لم يحققوا أمله — هذا كله روح فلسفة المتنبي — وكل ما قاله من حِكَم وكل ما شرحه من حالة نفسية فهو صدى لهذا الوضع ، وترجمة لهذه الأحداث ، وتعبير عن شعوره بها .

أوضح ما تنتجه هذه الحال في نفس كنفس المتنبي « فلسفة القوة » وكذلك كان ، فالمتنبي قوة في الحلة على الناس وعلى الزمان . تتجلى القوة في كل أقواله وفي جميع حالاته ، وهذه القوة أكثر ما تكون في سنيه الأولى أيام كان يتنقل في البلاد ويدبر خطته ليحقق أمله . وقد ظل على هذه الحال إلى أن بلغ الرابعة والثلاثين ؛ ثم ضعفت بعض الشيء يوم اتصل بسيف الدولة يتبعه حيثما كان ويمدحه في الحل والترحال . وأثر في نفسه فشله عنده فرحل إلى مصر وبها كافور ، وشتان بن سيف الدولة في عربيته وفروسيته وكافور في عجمته وعبوديته . ولكنه الزمان الغادر رماه بأقصى ما لديه حتى جعله مادحاً كافوراً ، فهو في مدحه يغالب نفسه ويلعب في كثير من المواقف بالالفاظ ليصوغ مدحاً يشبه الذم ، فاذا تحرر من ذلك وأخذ في هجائه عادت إليه قوته وكأنه استرد حريته . فهو قوي في نفسه لا يهاب الدهر ولا يكترث لأحداثه :

إن تَرمني نكبات الدهر عن كَثَبٍ ترمِ امرءاً غير رِعْديدٍ ولا نَكِسِ

وهو قوي في احتقاره اللذات الوضيعة وطموحه إلى أعلى غايات المجد :

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

يأبى أن يضعف نفسه بالغزل والخمر فانهما يحولان دون المجد :

تمرّستُ بالآفات حتى تركتُها تقول : أماتَ الموتُ أم ذُعِر الذُّعر؟
ذر النفسَ تأخذْ وُسْعَها قبل بَيْنِها فمفترقٌ جاران دارُهما العُمْرُ

ولا تحسبنَّ المجدَ زقاً وقينة فما المجدُ إلا السيفُ والفتكةُ البِكرُ
وتركُكَ في الدنيا دوياً كأنما تداولَ سمعَ المرء أنمُلُهُ العشْرُ

وهو قوي في هجائه ، فهو إذا رمى أصمى ، وإذا مس أدمى ، يطوق من يناله الذم . ويقلده الخزي ويلزمه عاراً لا تمحوه الايام .

وهو قوي في دعوته للنـــاس أن يثوروا ويؤسسوا مملكتهم على حد السيف :

أعلى الممالكِ ما يُبنى على الأسلِ والطعنُ عند محبيهن كالقبلِ
وما تقرُّ سيوفٌ في ممالكها حتى تقلقل دهراً قبلُ في القُلَلِ (١)

وهو قوي في احتقار الناس إذ لم تعل همتهم كهمته ، ولم يرتفعوا عن السفاسف رفعته :

إذا ما الناسُ جرَّبهم لبيب فاني قد أكلتُهُمُ وذاقا
فلم أرَ ودهمْ إلا خداعـــاً ولم أر دينهمْ إلا نفاقا

كل شيء في سبيل المجد لذيذ محبب إليـه ؛ فالقتل والموت والعذاب وقطع الفيافي عذب المذاق :

فموتي في الوغى عيشٌ لأني رأيتُ العيش في أربِ النفوس

* * *

سبحان خالق نفسي كيف لذتها فيما النفوس تراه غاية الألم

* * *

وهانَ فمـا أبالي بالرزايا لأني ما انتفعت بأن أبالي

وأخيراً نرى القوة تشيع في جوانب أساليبه وقوافيه ، فاذا اشترك المتنبي وغيره من الشعراء في معنى من المعاني رأيت أبيات المتنبي غالبـاً أرصن أسلوباً وأجزل لفظاً وأقوى قافية وأمتن تركيبا ، لأنه يسبغ عليها

---

(١) تتقلقل : تتحرك ، والقلل : الرؤوس مأخوذ من قلة الجبل رأسه

من قوته ويزيد في شدتها من شدته وحدته — حتى لقد يقول المألوف والفكر الشائع الذي توارد عليه الشعراء في كل العصور فيخلع عليه بعض نفسه ، ولوناً من حسه ، فكأنما هو جديد وكأنه لم يسبق اليه .

لعل موضع الضعف عنده أنه أنفق حياته في مدح الولاة والأمراء والملوك يصوغ الثناء لهم ، وينظم عقود المدح فيهم ، ويجهد عقله وخياله في اختراع معاني الكرم والبأس ونسبتها اليهم ، ويرحل من بلد إلى بلد طلباً لعطاياهم ، ويقف على أبوابهم انتظاراً لمنحهم ، ويتربص الفرص للقول فيهم ، فاذا أقبل العيد هنأهم ، وإذا مرضوا عوذهم ، وإذا انتصروا في حرب شاد بفعالهم ، وإذا انهزموا لطف من هزيمتهم ، وإذا مات لهم ميت عزاهم ، وإذا ولد لهم مولود بادر بتهنئتهم . وذلك ما لا يتفق كثيراً ونفسه الكبيرة وهمته العالية التي يتحدث عنها — لو أنه ترفع عن هذا كله وقنع بأن يتغنى بشعره في وصف شعوره لوائم بين نفسه وشعره ، ولكنه — على ما يظهر — لم يشأ عيشة الزهد وإنما شاء عيشة الرفعة والشهرة بالملك أو بالولاية فرأى أن يتصل بالملوك للاستفادة منهم والاستعانة على تحقيق غرضه بهم وبمنحهم وبايجاد الصلة بينه وبينهم ، ولكنه من حين لآخر يشعر بلذعة في أعماق نفسه من هذا الموقف فيفلسف التهنئة ويقول :

إنما التهنئات للأكفاء ولمن يدَّني من البُعداء
وأنا منك لا يُهني عُضوٌ بالمسرات سائرَ الأعضاء

ثم هو لا يتنزل إلى مدح غير العظماء ، وإذا أنشد شعره أنشده في علو وكبرياء ، فاذا لم يتحقق غرضه أو أحس بتيه ممدوحه عليه ثار ثورة من جرحت عزته ونيل من كبريائه ، وكأنما تجلت له الحقيقة وهي صعوبة الجمع بين نفس تمتلىء عزة وشاعر يقف شعره على المديح

— وهكذا كلما جذبته شؤون الحياة الى الضعة والضعف أبت عليه نفسه ، وحولته من ضعف إلى قوة ومن ضعة إلى رفعة :

ما كنت أحسبني أحيا إلى زمن يسيء بي فيه عبدٌ وهو محمودُ

* * *

ويلذّها خطةً ويلذّ قابلها لمثلها خُلِقَ المهريةُ القودُ

وعندها لذ طعمَ الموت شاربُه إن المنيةَ عند الذل قِنديدُ(١)

وبذلك فلسف الحياة كلها فلسفة قوة كما فلسف أبو العتاهية الحياة فلسفة زهد — فويل للضعيف ، وويل للجبان ، وويل لمن يخاف الحوادث وويل لمن يهاب الموت :

ولا قضى حاجته طالب فؤاده يخفق من رعبه

دمشق : تموز سنة ١٩٣٦ .

---

(١) القنديد : عسل قصب السكر والخمر

المتنبي رسول العروبة (١)

للأستاذ أمين الريحاني

ايها السادة والسيدات .

في العقد الاخير من السنة الأخيرة من القرن العاشر ، شاع في البلاد الاوربية إشاعة خطيرة خبيثة ، روّعت الناس والقتهم في بحر من اليأس والجزع ، إشاعة جسمتها الأوهام ، والأوهام كانت كالأوبئة في انتشارها ، وفي هول أخبارها ، نفخ الناس بالصور ، ودعوا بالويل والثبور ، ووعظ الواعظون في الكنائس ، ونادى المنادون في المدن والقرى أن استعدوا ليوم الدينونة فقد دنا ، ستخرب الدنيا وتنتهي الحياة ، في انتهاء السنة الاخيرة من الألف .

صدّق الناس ذلك ، صدقوه جميعاً ، كبيرهم وصغيرهم ، عالمهم وجاهلهم ، فتركوا أعمالهم ، ونبذوا آمالهم ، وهجروا بيوتهم وعيالهم ، وراحوا يصلون في الكنائس ويهيمون في البراري متورعين متضرعين ، تابوا إلى الله ، وشرعوا يتأهبون للموت ، ولليوم الآخر يوم الدينونة

دقت السنة المخوفة وذر قرن شمسها الأولى ، فارتعشت له فرائص اولئك الآدميين المتعبدين ، ومرت السنة الألف بكاملها ، وغابت شمس يومها الأخير ، فتنفس الناس الصعداء ، وشكروا رب الأرض والسماء ، لأنه رحمة بهم واستجابة لطلبات كهانهم كما زعموا ، اجّل سبحانه وتعالى ، يوم الفناء ألف سنة أخرى !

وفي تلك الحقبة السوداء الهائلة بينا كان الأورويون يتخبطون في دياجي الجهل ، مثقلة نفوسهم بالخرافات والأوهام ، كان العرب في الشرق والغرب

(١) ألقيت في مهرجان المتني الذي أقامه المجمع العلمي العربي بدمشق في تموز سنة ١٩٣٦ .

في بلاد الشام وبلاد الأندلس ، يشعلون للعلم والفلسفة مصابيح وهّاجة جديدة ، ويرفعون للأدب والشعر أعلاماً وضّاحةً مجيدة ، بينا كان الأوروبيون يستعدون لنهاية العالم ، كان العرب يجدون في بدايته ، وهم آخذون بنواحي الحياة ، يوردونها الموارد الكافية ويعززونها بالأعمال والآمال ؛ بينا كان أبناء أوربة يخيطون الأكفان ، كان أبناء يعرب يشيدون صروح الرقي البشري والعمران .

مرت السنون ، المئة منها تلو المئة ، والعرب في القرون الثمانية للهجرة حاملون مشاعيل المدنية شرقاً وغرباً ، من الهند والسند إلى الأندلس وما وراء البيرانيس ، وكانت تلك المدنية في انتقال مصابيحها منا إلى الفرنجة تزداد نوراً عندهم وتقل نوراً عندنا ، فانقلبت الآية ، وصرنا نحن ، بعد خمسة قرون مظلمة ، نخيط الأكفان بينما هم يجدون في تشييد صروح العلم ، وتعزيز أسباب العمران .

ولكن الأمم التي كان لها في نشر المدنية أيد بيضاء لا تضمحل بل هي خالدة في مآثرها ، وحية فتية على الدوام في يقظاتها ووثباتها ، وإنها يوم تستيقظ تحمل مصابيح الرسالة ، كما حملتها في الماضي ، ويلحق المتأخر فيها بالمتقدم ، فتستعيد منزلتها العالية ، وتصبح من عوامل الخير الكبرى في العالم .

إن العرب لمن هذه الأمم الخالدة ، وإننا والأمم الأوربية اليوم مشتركون بالعقيدة الواحدة ، عقيدة النشوء الدائم والارتقاء المستمر ، عقيدة العمران المؤسسة على العلم والعمل ، وعلى الثقافة الجامعة العالية المقربة الأمم بعضها من بعض .

وهذه الألف الثانية من دورة الزمان الحديث ندنو منها ثابتين في عقيدتنا ، واثقين بالله وبأنفسنا ، آمنين شر الأوهام والخرافات ، وعاملين في مكافحة شرور الجهل كلها ، فالأوربيون على عكس ما كانت عليه جدودهم في السنوات الأخيرة من القرن العاشرة ، يبنون اليوم باسم العلم

فتزداد الاختراعات والاكتشافات ، والفتوحات العالمية والاقتصادية ، ونحن العرب نستيقظ من سباتنا الطويل الأجل ، فندرك ما كانت عليه جدودنا من علم وثقافة ، ومن شريف السجايا ، فنسعى لنكون جديرين بذلك الارث المجيـــد ، فتزداد في مساعينا همة ونشاطاً ، وتزداد طموحاً وثباتاً وأملاً .

أما اننا نعود إلى الماضي فلا لنقلده بحذافيره ، بل لنستنير بأنواره ، ونكمل الرسالة التي حملت الجدود أعلامها ، رسالة العلم والثقافة والرقي البشري ، وإننا اليوم في عودتنا إلى الماضي نقتدي بالأوربيين وقد سلكوا مسلكاً جديداً في العود إلى الماضي ليمجدوا الخالدين منه فيحتفلون بذكراهم الطيبة ويقيمون لها المهرجانات المئوية والألفية .

وقد كانت باكورة هذه الاحتفالات الذكرى الستمائية للشاعر الايطالي العظيم دانته ، وتلاها منـذ بضع سنوات الاحتفال بذكرى الالفي سنة للشاعر الروماني المجيد فرجيل .

وفي السنة الماضية حذونا حذوهم ، فاحتفلنا في هذا الشرق الأدنى في إيران بمرور الألف سنة على وفاة الشاعر الفارسي الأكبر أبي القاسم الفردوسي ، فكان مهرجانه الألفي في طهران وطوس مهرجاناً عظيماً .

وها نحن في هذا العام ، بعد مرور ألف سنة على عهدٍ في تاريخنا المجيد ، نحتفل الاحتفال الأول الاحتفال الألفي بشاعر العرب العظيم الخالد أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي .

ان في هذه الاحتفالات بأرباب الشعر والأدب دليلاً على أننا في تقدم مستمر . فمن خياطة الاكفان إلى تشييد صروح الأدب والعمران مرحلة كبيرة . وان فيها الدليل الآخر على أن سنة العمران واحدة ، وحلقاتها ، وان تقطعت في حقبة من الدهر اتصال بعضها ببعض . يكفينا شر الحاضر أيها السادة والسيدات ، ولا يكفينا خيره . فيجب علينا أن

نضيف إليه خير الماضي ، وإن في هذا العمل الدليل الأكبر على أننا مدركون السر في سنة الرقي البشري ومنتفعون به .

أجل ، انا لفي تقدم . وإني أرى في عالم الغيب ، بعد ألف سنة أخرى من دورة الزمان ، أمة من سلالتنا العربية ، تبني على ما بنيناه ، وتزيد ما أحرزته في عشرة قرون من العلوم الطبيعية والاقتصادية ، ومن الثقافات القومية والعالمية ، ومن الفلسفات الأدبية والروحية ، ومن الفنون الجميلة والصناعات كلها .

وسوف لا تنسى تلك الأمة وهي من لحمنا ودمنا ، من تقدموها ، وكانوا في مآثرهم مشرقين لها ممهدين سبيلها . سوف تقيم الحفلات الألفية والمئوية للمستحقين في ابنائها الأقدمين ، أرباب الفنون والعلوم ، وبينهم شاعرنا العربي العظيم أبو الطيب المتنبي .

نعم ، سيذكر أبو الطيب بعد ألف سنة كما نذكره اليوم ، فيقيم له عرب القرن الثلاثين ، المهرجان الألفي الثاني ، كما أقام أمس العالم الغربي مهرجان الألفين للشاعر الروماني فرجيل .

قلت : الشاعر العربي ، فقلت : الأمة العربية ، ذلك لأني ، على شدة إعجابي بالمتنبي ، لا أرى في شعره غير القليل مما يؤهله لأن يكون شاعراً عالمياً . إن شاعرنا العربي العالمي هو سوري المولد وقد جاء بعد أبي الطيب — ولد بعد وفاته بنحو عشر سنوات — وكان من أول المعجبين بشعره .

فشرحه فيما أسماه معجز أحمد ، وبالغ في مدحه ، نعم ، نعم إن شاعرنا العربي العالمي إنما هو المعري أبو العلاء ، وستحتفل الأمة بذكراه الألفية في وقتها ان شاء الله ، وسيجيء العلماء والأدباء من أوربا واميركا وبلاد المشرق ، ليشاركوا بذلك الاحتفال .

عذراً على هذه الكلمة الاعتراضية ، التي أوجبها الاستدراك وقبل أن أدخل ، موضوعي « المتنبي رسول العروبة » ، يجب علي أن أمر

— وسأمر مسرعاً — ببعض ما أراه من مواطن الضعف والنقص، ليس في شعره فقط، بل في عبقريته أيضاً. على أني لا أقف عندما عابه عليه الناقدون قديماً أو حديثاً من الشواذات اللغوية، اذ ليس ذلك من اختصاصي.

عندما بدأت أطالع ديوان المتنبي، منذ ربع قرن ونيد، أخذت أعلق على الهامش ما كان يعنّ لي من خواطر الاعجاب أو الانتقاد. وأول ما قرأته في تلك النسخة، كما عدت أمس إليها، كلمة جاءت في احدى الصفحات الأولى تقول: «هذا شاعر شاب في صباه، أو أنه في صبا جعل الشيب مما اتخذه حلية لصبابته».

وفي تلك القصيدة التي مطلعها:

«كم قتيلٍ كما قتلتُ شهيدِ»

المنظومة في صباه، ومن الاعجاب بنفسه، والكذب لها، ما هو أعجب من الشيب المصطنع في رأسه، ومع ذلك فان فيها من سحر بيانه، وجليل معانيه، ما ستسمعون فيما بعد بعضها.

أقف الآن عند المبالغة في شعره، بل الاغراق، بل الغلو، وقد اهتم أدباء العرب لعظم تقديرهم هذا النوع من البديع اهتماماً خاصاً به، فحللوه، ودققوا فيه، وقسموه إلى ثلاثة أقسام، الممكن عادةً، والممكن عقلاً لا عادةً، وغير الممكن لا في العادات ولا في المعقولات، وهذا الاخير المقصود الآن، فان في ديوان المتنبي، بل في الشعر العربي على الاطلاق بحراً منه هل أدركني روح الغلو فاستعرت «بحر» الشعراء لاعبر عن رأيي؟

ولكني وأنا مع المتنبي وممدوحيه، أمسك تورعاً، فلا أتجاوز دور المستعرض المستعجب، فما هؤلاء الممدوحون من الناس، بل هم من الأرباب، وكل واحد منهم يستطيع، إذا أراد الشاعر أن ينقل الجبال

ويحمل النجوم في الرحال ، ويفدق منها على الأسد والأشبال ، ويقول حتى للبحر هال هال !

هو ذا سيف الدولة ، والبحر عبد من عبيده ، أو صاهل من خيله ، فقد تجاوز المتني المبتذل في مدحه ، فما قال إنه البحر ، بل قال إن البحر أطراف أنامله ، وما قال إنه طود من الأطواد ، بل أشار إلى أن تربل (جبل في آسيا الصغرى) يليق أن يكون حجراً ثميناً في خاتم نصره .

فهل تعجب بعد هذا لقوله :

« إذا اعتل سيف الدولة اعتلت الأرض »

وهل يغالي الشاعر في خوفه على النجوم إذا حاربت سيف الدولة :

وقد زعموا أن النجوم خوالدٌ ولو حاربته ناح فيها الثوا كلُ

وما كان أدناها له لو أرادها وألطفها لو أنه المتناول

ان هي إلاّ خيالات صبيانية . وليس كافور في ساعة الوغى أقل صولة واقتداراً من الرب العربي . فهو كذلك يركب الأهوال ، ويضرب الجماجم بالبيض الطوال ، ويهب الهبات الغواليا ، ولا يفعل الفعلات الاعذاريا . ولا تظنه لسواده يخفى على الشمس ، أو يتوارى رحمة بها . فقد قال المتني فيه وفيها :

تفضح الشمسَ كلما ذرت الشمـــسُ بشمسٍ منيرةٍ سوداءِ

بل قال أكثر من ذلك . قال أن تلك الشمس شمسنا لا تغيب إلا باذن منه ، أي من كافور !

هو ذا المتني في شيء من غلوه . وقد يكون من أمره أن تصوره الجبابرة ، واختياره اياهم لمديحه ، هو من باب الرغبة بالأضداد ، فقد كان هو في جسمه صغيراً نحيلا على ما يظهر من قوله :

كفى بجسمي نحولاً أنني رجلٌ لولا مخاطبتي إياك لم ترني

وقد سبقه الشاعر بشار إلى هذا الخيال خفنرنا في جسمه الهزيل قائلاً

« لو توكأت عليه لانهدمْ »

ان في الشعر العربي من هذا الغلو شيئاً كثيراً . ولا تجوز اضاعة الوقت في احصاء الامثال منه . كفى أن نذكر الخدود التي تجرحها خطرات النسيم ، والبنان الذي يدميه لمس الحرير ، وتلك الفتانة التي اذا كلمت ميتاً يقوم من اللحد .

ان لمثل هـذا الغلو مسارح في الغرب تمثل عليها الروايات الهزلية ، فيجيء فيها وفي أغانيها ونكاتها ، ما يضاهيه من مضحكات التشابيه والكنايات . وهي تندر في شعر الفرنجة الا ان يكون من باب المجون .

على أن المتني لم يكن ماجناً في حياته الشعرية . فانك لا تسمع في ديوانه ضحكةً واحدة ، وقلما ترى للابتسام خيالاً ، العفو قد استعجلت في الاطلاق فقـد اضحكتني — ومن لا تضحكه ؟ - الشمس السوداء شمس كافور ، التي كانت تفضح شمسنا المسكينة كلما أشرقت .

ما سوى ذلك ، فالمتني قطب مجد وقوة ، وطود هول وجلال . بل هو في الجلال والمجد روح عابس قمطرير . وإننـا إذا قارنا بينه وبين شعراء العالم الكبار كشكسبير وهوغو وغوته وهوميروس تراه بينهم ، ساعة يضحكون ، اعجوبة من اعاجيب العبقرية . فان لـكل من أولئك الشعراء العالميين ناحية من مناحي العبقرية لألاءة ، يخفف نور ابتسامها من اعباء الحياة ، أو يزيدنا نشاطاً وصبراً وأملاً في احتمالها . ان هـذه الناحية مفقودة في المتني ، ناقصة في عبقريته .

أما اذا كانت الناحية المضحكة من الحياة دون اهتمامه ، فان في عالمه العالي المجيـد الذي يدور على محور الفروسية والملك والشعر والكرم ، ما يستوجب في تدوين أخباره وتمجيد اعلامه مراعاة القاعدة الأساسية في كل فن وصناعة ، أي قاعدة التناسب والانسجام .

ليس المتني الشاعر العربي الوحيد الذي لا يرعى دائماً هذه القاعدة فالانسجام في الشعر العربي يكاد ينحصر في الالفاظ وفي الصيغ اللغوية . اما في المعاني فهو نادر وكثيراً ما تجيء المعاني مستقلة بعضها عن بعض ،

ومتقلقلة في قصائد اكثر الشعراء . فتقرأ القصيدة عكساً أو طرداً ، او تبدأ في الوسط منها دون أن تدرك أو تشعر ان معنى الشاعر اختل او اعتل او جاء مبتوراً ، هذا فضلاً عن التفاوت في الفكر والخيال في القصيدة الواحدة ، وهي كثيراً ما تشبه قلادة يتخلل لؤلؤها كثير من المخشلب (اللفظة للمتني) .

فالشاعر في لامية العرب مثلاً يفتخر ببطولته ، ويفاخر بها الأبطال ثم ينتقل فوراً من ساحة الوغى الى السماط فيقول :

وان مدت الايدي الى الزاد لم أكن   بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجلُ

فأين الصلة أو شبه الصلة ، وأين التناسب والانسجام بين الموقفين والمعنيين ؟

وما هذا الخلل المعنوي بقليل في ديوان المتني . فقد فتحته ذات يوم خيرةً ، فكان في ما قرأت من أول قصيدة يمدح فيها سيف الدولة ، قوله في وصف البطل الحبيب :

ويضحي غبارُ الخيل أدنى ستوره   وآخرُها نشرُ الكباء الملازمة

فما هي يا ترى الستور الاخرى بين غبار الخيل ودخان البخور ؟ إنها لصورة شعرية جميلة ، ولكنها في الغلو مضللة . ساعة البخور في خيمة الأعرابي أو في ديوانه ، وساعة خيله في ساحات الوغى ، لا تتصلان ولا تتناسبان . فضلاً عن ان الحقيقة هي خلاف ما تصوره الشاعر . فالامير العربي ، ولا فرق بين من عرفت في رحلاتي العربية ، وبين من كان في أيام سيف الدولة ، لا يحمل بخوره الى الحرب ، واذا حمله فلا يستتر بستر دخانه .

وأشبه بهذا التنافر في البيت الواحد ما نجده بينه وبين البيت الذي يليه . فان الصلة مفقودة بين معناه ومعنى البيت السابق . ولا أثر لاشارة الانتقال من أمير كثير الستور الى قوله :

وما استغربت عيني فراقاً رأيته   ولا علمتني غير ما القلب عالمهُ

على أن في هـذه القصيدة وصفاً للجيش يقصر دونه هوميروس في الياذته ، وقد لا نجد في شعر العالم مثل هذه الصورة في إيجازها وبلاغتها وهول حقيقتها . فقد وصف المتنبي جيش سيف الدولة يصحبه الى ساحة الوغى جيش من العقبان فقال :

سحاب من العقبان يزحف تحتها   سحاب ، اذا استسقت سقتها صوارمهْ

اي اذا استسقت العقبان الجيش سقاها بصوارمه من دم الاعـداء . هي ذي ذروة عاليـة رائعة من ذرى البلاغة ، وصورة هائلة من صور الحرب ، ولكن الشاعر يقف عندها تعباً كليلاً ، بل يقف كليل البصر ، كليل النفس ، كليل الخيال ، وبالبيته وقف بكلكله عندها ، فهو يصطدم هناك بنفسه ، ويهبط واياها ، يتدهور — الكلمة الوضعية يسف — ثم يسف إسفافاً مفجعاً فيقول :

سلكتُ صروف الدهر حتى لقيته   على ظهر عزمٍ مؤيداتٍ قوائمهْ

فيـدخل على فخامة المشهد وروعته ، بل على حوله وهوله صورة الشاعر ، وقد ركب من عزمه جواداً قوي القوائم ، وجاء ينشد سيف الدولة ويشدو به ، فوقف في أروع مجالي المديح ليقول انه هو كذلك عظيم الشأن رفيع الجناب .

ومن التقلقل في معانيه وخلو سبكها الفني والمنطقي من الانسجام ، ما جاء في أول القصيدة التي يرثي فيها أخت سيف الدولة :

أجلُّ قدرك أن تسمي مؤبنة   ومن يصفك فقد سمَّاكِ للعربِ

هذا مفهوم مقبول :

غدرت يا موت كم أفنيت من عددٍ   بمن أصبت وكم اسكت من لجبِ

وهذا مفهوم مقبول معقول

أما البيت الذي يجيء بينها فهو يعترض المعنى اعتراض الشاعر لسياق القصيـدة في أماكن شتى من ديوانه ، ويقطع الصلة المنطقية والفنيـة قطعاً جازماً :

لا يملك الطَّرَبُ المحزونُ منطقهُ ودمعهُ وهما في قبضة الطربِ

ليت شعري هل تفقد القصيدة شيئاً كثيراً أو قليلا من قيمتها لو لم يكن هذا البيت ، وفيه ما فيه من تفسير الماء بالماء ، وفيه كذلك لفظة معناها المألوف أي الطرب هو غير ما يريده الشاعر ، إذ أنه يريد بالطرب الحزن فيلتبس المعنى على القارىء غير المتضلع من اللغة .

أما وقفات الشاعر الشخصية في قصائده ليلفت النظر إلى نفسه بل ليهنئها ، ويفخر ويفاخر بها ، فهي تقطع على القارىء لذته العقلية والفنية ، وتكدر مشربه مما سبق من حلاوة المعاني والألفاظ . وفي القصيدة السيفية التي تقدم ذكرها يعترض الشاعر سياقها المنطقي والفني ثلاث مرات ! ولو ترفق بنا أو فضَّل الفن على الانانية لختمها بذلك البيت الفريد في بلاغته :

سحابٌ من العقبان يزحف تحتها سحابٌ إذا استسقت سقتها صوارمهُ

على أن لهذه الوقفات الشخصية قيمتها العالية في رسالة العروبة وستذكر في محلها . إنما من العدل أن اقول الآن إنه في بعض هذه المواقف التي يعرض فيها عن ممدوحه ليمدح نفسه ، يريحنا من ضرب الجماجم وركوب الأهوال في سبيل الفناء والمحال .

قلت إني لا أعنى بما في شعر المتنبي من الشوارد والشواذات اللغوية ، ومن التعقد والارتباك في الصيغ البيانية ، ومن الاغراب والاعجام والغموض والابهام ، فان لها من الاختصاصيين من يعنون بها . وقد عنوا بها ، قديماً وحديثاً ، ووفوها حقها .

انما أريد ان اشير ها هنا الى حسنة من محاسن شعره غير الصافية ، وإن نوه بها جميع من كتبوا عن المتنبي مدحاً وانتقاداً .

أريد بهذه الحسنة إشارته اللطيفة في معانيه ، فهي حيناً لطيفةٌ مفهومة وحيناً ترهق منك اللطف والفهم ، فتعجز كل العجز وتحتمي بالكلمة المأثورة المعنى في قلب الشاعر .

فيا قلب شاعرنا ، ما قول صاحبك :

« فتى ألف جزء رأيه في زمانه .

وما معناه في البيت الحسابي الآخر :

« أحادٌ أم سداسٌ في أحاد »

وماذا تريد يا قلب في قول صاحبك :

« وقتلن دفراً والدهيم فما ترى »

وما معنى قوله كشف الله عنك وعنه :

وكلُّ شريكٍ في السرور بمُصبَحي أرى بعده من لا ترى مثله بعدي

هذه الألغاز الحسابية ، والأسرار اللغوية ، والاشادات البعيدة عن الأفهام العربية يجيئنا الشاعر بها حباً بالابداع ورغبةً بالاغراب ، فيختلف في تفسيرها وشرحها جهابذة اللغة ، بل تتضارب فيها آراؤهم ، ولا يبلغون بعد كد القريحة وإجهاد النفس ، وبعد التحكيم في الاجتهاد والتحمل في الاستنباط لا يبلغون اقول ، الفاء والهاء من فهمنا ، فتظل الألغاز ألغازاً ، ولا يستقيم في تلك « الاشارات اللطيفة » غير الغموض .

لا وقت لنا أيها السادة والسيدات ، لمثل هذه الترهات الشعرية في هذا الزمان ، زمان العمل والسرعة . لا وقت لدينا نضيعه في درس معميات شاعر مها عظم شأنه ، وعلا قدره وقد نلبسها بعد إضاعة الوقت في درسها ، أثواباً من التأويل والتفسير لم تخطر للشاعر في بال .

أعيد بهذه المناسبة ما قلته مراراً في القوالب الشعرية القاسية ، قوالبنا العربية التي تحكم غالباً على الشاعر بما في شعره وقوافيه لفظاً ومعنىً ، من الخزعبلات والركاكات ، وان للقوالب الشعرية شركاء في هذه الذنوب اللغوية والبيانية والفنية ، منها الكسل الفكري ، وعدم الاكتراث ، والعجب بالنفس ، وعجزها ، وتعمد الاغراب والابداع .

اما الشعر الصافي ، الشعر العالي الممتاز في معانيه وصيغه وفي صوره وقوافيه ، فهو لا يحتاج الى تفسير وتأويل . هذه دواوين الشعر العالي في الشرق وفي الغرب فانك لا تجد فيها بيتاً من الشعر يحتاج الى حاشية

ذات سطر واحد لتفسير أو لشرح معناه .

إن الشعر الصافي العالي لمثل نور الشمس في صفائه وبهائه . وإنه لمثل ماء السواقي في جريه وفي خريره ، وإنه في جمال فنه لمثل الورد كلله ندى الصباح . تقرأ هذا الشعر فتدخل معانيه القلب والعقل منك بسهولة النور والماء ، وبسهولة عرف الطيب والهواء ، وبسهولة لفظ الحبيب للحاء والباء .

ان المتنبي مقدرة فائقة في تصريف الكلام وتشقيقه . وإن له تفنناً عجيباً في تقديمه وتأخيره وفي اقتضاب حذافيره . ولكنه لا يبالي بما يلحق بالمعنى من غموض وتشويه ، وهو يتوسع بالمعنى السخيف في بعض الأحايين فيزيده سخافة . مثال ذلك أبياته الجوفاء في تقبيل رسوم الروم لكم سيف الدولة . وهي من أسخف مجاملاته .

وان له في التناقض الفكري ما يزري بالمعقول البسيط ولا يبالي بالذوق السليم فهو في نفس واحد ، في بيتين متحاذيين ، زينة لسيف الدولة ، ورب للشعر والكائنات .

وما أنا إلاّ سمهريٌ حملته . . .

وما الدهر إلاّ من رواة قصائدي . . .

فلو جاء الشطر الأول في اول القصيدة مثلاً ، والشطر الثاني في آخرها ، لما ضج التناقض على القارىء هذه الضجة المنكرة .

وكثيراً ما يلبس المعاني السخيفة ثوباً من الألفاظ الفخمة الطنانة ، فيسترها فلا تفضح . خذ قوله في عفافه :

ويمنع ثغره من كل صبٍّ   ويمنحه البشامةَ والأراكا

فهل تظن ان البشامة والأراك اسمي ملكين من ملائكة الفردوس ، أو حوريتين من حور الجنان ؟ البشامة : واحدة البشام وهو مثل الأراك شجر بستاك بعيدانه .

أي إن هذا الرجل العظيم ، الذي قلما ينزل من عليـــاء الفخامة الشعرية يقول إنه يمنع ثغره من تقبيل كل صب ، ويمنح هـذه اللذة المسواك !

قلت ليس في الديوان ضحكة واحـدة فأخطأت . ان لفي المسواك الضحكة الكبرى .

قبل ان انتقل من هذه الناحية من الموضوع ، يجب أن أقول كلمة في صور المتنبي الشعرية ، كلمة لا بد منها ، ما زلنا في مواطن الضعف والنقص من شعره . إن صوره الشعرية محدودة ، وهي في الغالب صناعية تقليدية لا علاقة فيها ولا أثر للعقل المقرون بالروح ، أي للخيال الذي تغذيه الرؤيا ، فالغيث عنده للجود ، والاسد للشجاعة ، والشمس للمجد ، والبحر للعظمة ، والجبل للقوة ، والبدر والنجوم للسمو والعلى . ولكن له في هذه الاستعارات والكنايات ، التي كانت مبتذلة حتى في زمانه تفنناً عجيباً هو ركن من أركان عبقريته .

وان مواضيعه مثل استعاراته محدودة ، ذلك لأنه استوحى بيته فقط ، بل استوحى ما يرى في الحياة ، وما مد ببصره وبصيرته الى الى ما لا يرى . وانه في ما يرى ما رأى غير اصحاب السيادة والجاه . ولا عجب فما صاحب هذا العربي العظيم غير الأمراء والأعيان من الناس ، فزينت له أحوالهم ناحية من الحياة ، نعبر عنها اليوم بالارستقراطية .

وليس في شعر المتنبي ، اذا استثنينا غزله وبعض المناحي الشخصية التي يلين فيها عنفوانه ، وتنكمش جوانب كبريائه ليس فيه شيء من رقة العواطف ووداعة الشعور ؛ ليس فيه اتضاع الفيلسوف ، وليس فيه ورع الرجل الصالح التقي . وقـد تستغربون قولي إني لم اجد في كل الديوان ذكراً للرحمة اللهم الا في بيت واحد .

مرة واحدة يجيء ذكر الرحمة في ديوان هـذا العبقري العربي ،

فكأنه كون على الشكل الذي تصورة الفيلسوف الالماني « نيتشه » بعده بتسعمائة سنة . كأنه كون على شكل السوبرمان . إنمـــا الحق للقوة ، وإنما الدنيا للقوة ، أما الشفقة فان هي إلاّ ضعف وضلال ! السوبرمان المتنبي . مرة واحدة يذكر الرحمة ، وقد يكون ذلك عرضاً .

أأحزم ذي لبٍّ وأكرم ذي يدٍ وأشجع ذي قلب وأرحم ذي كبدِ

هو المهدي الذي يشبه ابن العميد به . ولا بد للمهـدي من الرحمة تكملة لفضائله ، على أنه من الممكن أن تكون اللفظة قد جاءت زينة وزيادة — أكرم أحزم أرحم — في الطباق البياني .

بالرغم عما تقدم اقول ما قال الهمذاني : « المتنبي ابن عصرنا » فهو لا يزال اليوم كما كان في ذلك الزمان ابن عصرنا ، بل اقول ما قاله فيه الثعالبي مع تصحيح صغير في ظاهره ، كبير في حقيقته . قال الثعالبي « المتنبي واسطة عقد الدهر » (وان كانت العبارة لا تحتمل التدقيق) إنه واسطة عقد الدهر في العروبة وفي الشعر .

بهذا التصحيح أدخل الموضوع الذي يظهر لي في أعلى منزلة من الأهمية ، فلولا العروبة في المتنبي ، العروبة الممتازة بنطقها ، وبروحها ، وبطولتها ، لما اهتممنا اليوم بشعره وعبقريته هذا الاهتمام .

أما ما رمي به من سفالة الأخلاق فقال بعض أبناء زمانه ، وردها الناقدون : إنه كان جباناً ومحبا للمال وبخيلاً ، فقد أمست ولا قيمة لها في تقديرنا عبقريته ، حتى وإن اعتقدنا أن من رموه بها نزيهون صادقون .

ولكننا ننساها كما ننسى شوارده اللغوية والشعرية ، وكما ننسى شواذاته ومعمياته الصناعية ، وكما سينسى الناس في المستقبل ما سيفقد قيمته الدائمة من وصفه للمعارك ، وتمجيده للحروب .

ما الذي يبقى بعد ذلك من المتنبي ؟ يبقى من المتنبي شعره الصافي ، وتبقى الرسالة العربية . وقد تصير هذه الرسالة عالمية إنسانية ، إذا جردت مما يثقلها من أسباب السيادات القديمة ، ومثلها العليـا الآخذة بالتضاؤل

والزوال ، نعم ، يا سادتي سيشجب المستقبل الحرب شجباً حاسماً عاماً ، وسينقل الى المتاحف للدرس والاعتبار كل ما في الآداب والفنون الراقية من آثار الحروب وأخبارها

أما الشعر الصافي في المتنبي ، فانه في المنزلة الأولى شعر عربي ، سحره في ألفاظه وفي صيغه ، وفي لهجته وديباجته ، وفي مزيته الموسيقية المطربة ، إننا لنسحر بشعر المتنبي ، قبل أن ندرك معانيه . إن رنات الألفاظ وجلجلة القوافي ، لتدخلان القلوب في انسجام ألحانها ، قبل أن يدخل معناها العقول .

أجل ، اننا لنسحر بشعر المتنبي ونحن نردده وننشده . ونترنم بقوافيه . ثم نسحر في هذا الشعر الصافي بالخالد من معانيه . ولكنا ونحن نترنم بقوافيه تعلق رناتها وغمغمات اصواتها ، في الاذن وفي النفس ، فترسب في العقل الباطن فتمسي قسماً غنائياً منه ، يردده صداه على الدوام دون ان يشترك بهذا العمل العقل والادراك .

فكم مرة سمعت أذني صوت النفس يردد ابياتاً للمتنبي من بعض قصائده المشهورة . وكم من مرة في عهد التنازع العقلي الروحي العاطفي ، سمعت صوت المتنبي ، وقد تموج في بحر الزمان والفضاء إليّ فأدركني في نيويورك كما أدركني في البادية ، وأنا أردد صدى قوافيه الخالدة .

أريد من زمني ذا أن يبلغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمنُ

* * *

ما كلُّ ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفنُ

* * *

كلما أنبت الزمانُ قناةً ركّب المرءُ في القناة سنانا

* * *

وإذا كانت النفوسُ كباراً تعبت في مرادها الأجسامُ

* * *

إذا أردتُ كُميتَ اللونِ صافيةً   وجدتها وحبيب النفس مفقودُ
ماذا لقيتُ من الدنيا وأعجبه   أني بما أنا شاكٍ منه محسودُ

* * *

هو ذا يا سادتي شيء من الحياة البشرية خالد ، وقد صوره الشاعر صورة صادقة بلغة خالدة .

إن هذه الناحية من شعر المتنبي تدوم في جدتها وقوة فعلها في النفس ما دام في العالم ناطق بالضاد ، وسيرددها العربي بعد ألف سنة ، كما رددها هذا العربي في هجرته بأميركا ، وفي عزلته بلبنان .

هي ذي إحدى الناحيتين الخالدتين من شعره ، وسيطنب غيري في معالجتها فيستجلون بدائعها وروائعهـا ، إن كان في الغزل أو الوصف أو التاريخ .

أما الناحية الأخرى الخالدة . فهي التي تنحصر بالعروبة ورسالتها الثقافية ، الروحية والسياسية . ومن الغريب أن تجيء هذه الرسالة في ما امس عندنا من مبتذل الشعر ، أي في المديح . على أنهـا في نظري أعطت مديح المتنبي تلك الصفة التي تشترك والصناعة الشعرية في خلوده ، وقد تكون العامل الاكبر فيه . إن هذه الصفة ظاهرة في مديحه كله ، منذ صباه في بوادي الشام وحواضرها ، الى أيامه الاخيرة في كنف ابن العميد وعضد الدولة ببلاد فارس ، فقد بدأ بمدح عربي :

« خير قريش أبا وأمجدها . . . »

وانتهى بمدح من كان عربي اللسان والثقافة في الاقل ، أي عضد الدولة .

أروح وقد ختمتُ على فؤادي   بحبك أنْ يحلّ به سواكا

وكان الشعر في هذا القول أصدق الصادقين . فقد اتى حتفه على يد ذلك الفاتك الغير الاسدي بعد بضعة عشر يوماً من نظم قصيدته هذه الاخيرة ، فما حل في فؤاده حب بعد حبه لعضد الدولة . وكذلك كان عربياً اول من مدح ، وعربي اللسان والثقافة آخرهم .

وما هي هذه العروبة التي تغنى بها المتنبي ، ومجّدها ، ونشر أعلامها في كل بلد حلّه من هذا الشرق الادنى ؟ قد يدهشكم قولي إنها لم تكن كلها في من مدحهم المتنبي . بل قد كانت بأجمعها ، وبأبهى مظاهرها ، في المتنبي نفسه . وقد يستغرب قولي إنه في مدحه سيف الدولة مثلاً أو ابي العشائر ، أو ابن العميد ، كان يمدح ذلك العربي الذي يدعى المتنبي ، كان يتغنى بتلك الصفات الشريفة العالية التي يشعر أنها صفاته ، او يشتهي ان تكون صفاته ، فتنعكس على قلمه وفي قوافيه مدحاً يخص به من عرفوا قدره وأكبروا عبقريته العربية .

أقول إن المتنبي في مدحه سيف الدولة مثلاً كان يمدح نفسه . ولا أقول إنه كان يفعل ذلك بادراك منه ، أو بحس ظاهر فيه . إنما عقله الباطن العربي كان يملي عليه ويسخره لنشر اعلام المثل العلياالعربية في الناس بواسطة أفراد كبار من الناس .

وقد عاش المتنبي ، كما لا يخفى على من له اقل المام بحياته وعصره ، يوم كانت الشعوبية ضاربة أطنابها شرقاً وغرباً ، وعاملة لافساد العروبة وهدم أركانها . بيد أن الدولة الحمدانية في تلك الايام كانت حصن العروبة الأحصن ، وعلمها الأعلم ، ونورها الأنور الالمع ، وعندما نقول الدولة الحمدانية نقول سيف الدولة ، وعندما نقول سيف الدولة ، نقول المتنبي .

المتنبي ذلك الروح العبقري الذي أحيا كل ما لمس بنظره وقوله ـ البادية ومن فيها ، المعارك وقواضبها وعواليها ، الخيل وفرسانها ، المجالس الشعريةوأنوارها التي كانت تترجرج حوله ترجرج النجوم حولالقمر ، والربيع في شعب بوّان ، والأسد والغزلان ، أحياها كلها في شعره كما أحيا كل من مدح وهجا ، وكل من قال فيه ولو قافية حافية .

المتنبي ذلك الروح العربي المشتعل حماساً ، المتوهج شعراً ، المتلألئ ذكاء ، المتموج حباً وحنيناً ، المتعالي عظمةً ومجداً ، ذلك الروح القلق الثائر الحائر المضطرب المشرق المغرب في البوادي والحواضر ، الحامل

بين جنبيه ناراً قدسية ، وأنواراً سماوية يشعلها ويضرمها في كل مكان ، باسم ربيعة وتميم وتنوخ ، بل باسم قحطان وعدنان ، بل باسم العروبة الباسطة أجنحتها فوق القبائل والعواصم جمعاء .

هاكم المتنبي في العواصم العربية ، وفي العواصم التي كان يشعل فيها روحاً عربية .

هاكم المتنبي بشممه بسموه ، بعظمته بطموحه ، بكل ما ورثه من أجداده الفاتحين ، ومن أرباب الشعر الخالدين ، وهو دائماً يريد من زمانه ما ليس يبلغه في نفسه الزمان .

هاكم المتنبي في العواصم العربية وغير العربية – في حمص وحلب وانطاكية ، في لبنان وبعلبك والشام ، في طبريه ، في مصر ، في شيراز .

وقد كان في تشريقه وتغريبه ، وفي حله وترحاله ، كالبرق الخاطف تارة ، وطوراً كالرعد القاصف ، وقد كان كنور الشمس في الشروق في الهجيرة . وقد كان حيناً كالعرف الطيب في ساعات المساء الساكنة ، وحينا كالاعصار في البحار ، وكالسموم في البادية . وقد كان قبل ذلك وبعد ذلك صوتاً عالياً خالداً ردده الدهر قبلنا ، وسيردده الدهر بعدنا ، كما نردده نحن الآن .

أنا صخرة الوادي إذا ما زوحمت وإذا نطقت فانني الجوزاءُ

* * *

تحقَّرُ عندي همتي كل مطلب ويقصر في عيني المدى المتطاولُ

* * *

وأني إذا باشرت أمراً أريده تدانت أقاصيه وهان أشدُّهُ

* * *

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلمُ

* * *

هو ذا المتنبي في جوله وصوله ، وفي عظمته ومجده ، هو ذا العربي الذي يقول في العربي إنه :

رجلٌ طينه من العنبر الورد وطين العباد من صلصال

ويقول :

للشمس فيه وللسحاب وللبحا ر وللأسود وللرياح شمائلُ

هو ذا الروح العربي الصميم الذي كان يصيح بالعرب المذبذبين بين العروبة والشعوبية :

وإنما الناس بالملوك وما تفلح عربٌ ملوكها عجمُ

لا أدبٌ عندهم ولا حسبٌ ولا عهودٌ لهم ولا ذمم

هو ذا الروح العبقري العربي الذي جاب البلاد شرقاً وغرباً فبشر بالعروبة ، وحث عليها ، ورفع عالياً أعلامها .

وما كان المتنبي في تجواله ، على جدة ما شاهد من التكريم ، ووفرة ما لاقى من التعظيم ، ما كان لينسى بلاد العرب بلاده فما عاب على « افصح الناس طراً » اي ابن العميد الا انه في بلاد غير عربية . وما جمع بينهما في أرجان غير العروبة والثقافة العربية العالية . وعندما خرج وعضد الدولة للصيد بدشت لارزن ، ذكرته وحوشها بغزلان نجد وأنعامها .

إن في ضواحي شيراز مكاناً هو من أجمل ما في الدنيا ، اسمه « شعب بَوّان » وصفه المتنبي وصفاً بليغاً ، ثم قال ، وقد حمله الحنين الى مراتع صباه :

أحب حمصاً الى خناصرةٍ وكلُّ نفسٍ تحب محياها

لقد حمل المتنبي بلاده في قلبه حيثما قذفت به أنواء الزمان ، فتغزل وهو في شيراز بحسان دمشق . وقال وهو مأخوذ بمغاني شعب بَوّان .

ولكنّ الفتى العربيّ فيها غريب الوجه واليد واللسان

وقد ذكر في تلك الجنان تفاح لبنان ، وحن وهو في أرجان إلى

من ودعهم في العراق . ولفرط شوقه الى دمشق ومنازلها ، كان يرى خيالها مصاحباً له ، حتى في أجمل مشاهد العجم الطبيعية والاجتماعية .

ايها السادة — ان لكل شاعر بلادين ، بلاد خياله ، وبلاد مولده وأجداده ، وهو يقيم حيناً في هذه ، وحيناً في تلك . تارة يكون مثل إخوانه في مراتعهم ومنازعهم ، وطوراً يصعد الى دنيا خياله ، فيبعد منهم ويعلو عليهم ، ويظل مع ذلك يذكرهم بكل ما في دنياه العليا من محسنات للوجود ، ومكملات للحياة . وإن له بين البلادين موطئ قدم لاستراحة أشواقه وآماله ، هو قسمته من الحياة الدنيا . ولكن همه الأكبر حتى ها هنا هو أن ينقل شيئاً من دنيا الخيال إلى دنيا الجدود . وان أحزانه وأفراحه تقاس بما يستحيل ، وبما يمكن أن ينقله لنا من عالمه الأعلى .

كذلك كان المتنبي وطنان يتنازعان فؤاده . والتنازع في قلب الشاعر شديد على قدر خياله أو وحيه ، وقل على قدر سكراته الشعرية . فان له سكرات هي النعيم ؛ تلوها يقظات هي الجحيم . اذ يرى نفسه في عالم أجداده ، ولا يرى غير القليل مما يريده لاخوانه من عالمه الأعلى ولكنه يجد بعض التسلية بمديح من يمدحهم ، بل هو يغدق عليهم من فيض روحه دواء لأشجانه ، وبلسماً لجروحه . ومع ذلك فلا مهرب له من اليأس ؛ ولا ملجأ من السأم والملل غير النظم ، ثم النظم ثم النظم . فهل يلام إذا افتخر بنفسه ليعيد إليها نشاطها وأملها ؟

مفرشي صهوة الحصان ولكـ ... ـن قميصي مسرودة من حديدِ
أبداً أقطع البلاد ونجمي ... في نحوسٍ وهمتي في سعود

وإذا ما اشتد اليأس عليه وكان أشده بأسه في قومه يقول :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي ... وبنفسي فخرت لا بجدودي

ولكنه هو العربي الأبر ، يستدرك فيذكر في البيت التالي قائلاً :

وبهم فخرُ كل من نطق الضا ... د وعوذ الجاني وغوث الطريدِ

إن جدود المتني جدودنا . وإن عروبته عروبتنا . وإن كل ما في ممدوحيه وكل ما في نفسه من الفضائل عملا وقوة هي من معونة تلك العروبة ، الكرم والشمم ، والشجاعة والاقدام والفروسية والأريحية ، والمروءة والعفاف ، والصبر والصدق والوفاء ، كل هذه الفضائل يراها المتنبي في عالمه الاعلى وينقلها على لسان شعره الى عالم مولده وأجداده ، فيراها مجسمة في ممدوحيه ، ويرى نفسه كامنةً فيها . لولا ذلك لما استرعت عظيم إعجابه ، واستحقت خوالد قوافيه .

جميلة هي المعالي في شعره ، ولكنها في أعمال من يسمون لها ويدركونها أجمل وأعلى .

وقد كانت تلك الفضائل تلج في صدره كلما مدح عربياً أيا كان . فتراه يلين حتى لاعداء سيف الدولة لبنى كلاب وبني كعب ، ويسأله الرفق بهم لأنهم من العرب .

إذا لم يُرْعِ سيدهم عليهم فمن يُرْعي عليهم أو يغارُ
تفرقهم وإياه السجايا ويجمعهم وإياه النجار

ثم قال يخاطب سيف الدولة :

لهم حق بشركك في نزارٍ وأدنى الشرك في أصلٍ جوارُ

ويوم كان معتقلا في حمص قال في جدود الأمير واليها :

سعوا المعالي وهم صبيةٌ وسادوا وجادوا وهم في المهود

هو العقل الباطن . وما حمل من رسالة العروبة ، فجدود الأمير هم جدود المتنبي ، كما أن جدود المتني جدودنا ، وإذا رابك من الأمر شيء ، أو انحل فيك حبل الثقة بربك وبنفسك ، فاسمع المتنبي يناديك قائلاً :

عش عزيزاً أو مت وأنت كريمٌ بين طعن القنا وخفق البنودِ
فاطلب العز في لظى ودع الذ لّ ولو كان في جنان الخلود

هذا ما كان يقوله لسيف الدولة ممدوحه ولنفسه ، هـــذا ما كان

يمليه عليه العقل الباطن ، ليبدد من أمامه غيوم اليأس ويقيه العثار والهوان أو ليس هو القائل :

من يهن يسهل الهوانُ عليه ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ

قلت ان المتنبي كان يزين ممدوحيه بتلك الشمائل التي حمل معدنها في نفسه ، أو بالحري وجده في عالمه الأعلى . وان بين هذا العالم الاعلى وأعماق النفس حلة خفية قد تكون بعيدة كما هي في عامة الناس ، وقد تكون على قيد شعرة كما هي في الشاعر الكبير ، شاعر قومه وشاعر الانسانية .

وليس المتنبي منفرداً في هذا التمجيد القومي . فان له في سائر الأمم المتمدنة زملاء وإخواناً حتى من الشعراء العالميين الكبار ، يكفي أن أذكر منهم شكسبير الذي يمجد الانكليز في أبطاله التاريخية ، وهوغو ممجد الفرنسيس في شخص نابليون الأول ، ودنته ممجد اللاتين في رجال حزبه السياسي .

ولا يفوتنكم ان في كل من هؤلاء العباقرة يعمل العقل الباطن عمله فيملي عليهم في مجموع ما رسب فيه من تراث الاجداد ، وثقافة الاجيال وقد يضيف اليها العبقري ما يتجلى له في تحليقه الشعري أو ساعة الفيض والتنزيل من المثل العليا في شتى مناحي الحياة .

كذلك كان المتنبي في سكراته الشعرية مسيراً بعوامل العقل الباطن أي العوامل الداخلية ، وبالفيض الشعري والخيال اي العوامل الخارجية . وهو فيها كلها عربي قح ، لا يلبس من مدحهم ، أبطاله ، غير الفضائل التي ذكرت ، الفضائل العربية ، وفي المنزلة الأولى منها : الشجاعة والكرم .

وإن من الفضائل ما لا ينفصل عن الشجاعة . فالشجاع قوي ، والقوي صادق ، والصادق شريف صريح أبي . فهل من ينكر على العرب الشجاعة والصراحة في القوم ، والمجابهة في العداء ؟

إذا تولوا عداوةً كشفوا وإن تولوا صنيعةً كتموا

والشجاعة تمنع من البخل ، لأن فيه خوف الفقر ، وهو ضرب من الجبانة ، والجود يمنع من الجبن ، لأن فيه الحرص على الروح وهو ضرب من البخل ؛ هذا ما يعنيه المتنبي في قوله الوجيز البليغ في سيف الدولة :

هو الشجاع يعد البخل من جبنٍ وهو الجواد يعد الجبن من بخلِ

فالشجاع في نظره كريم ، والكريم شجاع . وقلما كان يرى السجية الواحدة دون الأخرى . هما سجيتان عربيتان متلازمتان . وإن المثل الأعلى في الاثنين ليتجلى في ممدوحيه العرب ، بل في ممدوحيه جميعاً ، من الأمراء كانوا ، أو من العلماء ، أو من أهل البر والتقوى .

خذ مثلاً قصيدته في ابن ابي الاصبع ، وإحدى قصائده في ابن اسحق التنوخي ، فلولا الاسم في القصيدة لظننت ان المتنبي يمدح سيف الدولة .

كأنك في الاعطاء للمال مبغضٌ وفي كل حربٍ للمنية عاشقُ

هذا ابن اسحق التنوخي .

ترك الصنائع كالقواطع بارقا تِ والمعالي كالعوالي شُرَّعا

وهذا ابن ابي الأصبع الذي لم يكن في الفوارس بل كان كاتباً ، وقد قال في ابن زريق الطرسوسي ما لم يقل هوميروس مثله في رب أرباب الاغريق .

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه لما أتى الظلمات صرن شموسا
أو كان صادفَ رأسَ عازرَ سيفُهُ في يوم معركةٍ لأعيا عيسى
لو كان لُجُّ البحرِ مثلَ يمينه ما انشق حتى جاز فيه موسى
أو كان للنيران ضوء جبينه عُبِدَتْ فكان العالمون مجوسا
لما سمعتُ به سمعتُ بواحدٍ ورأيتُهُ فرأيتُ منه خميسا
ولحظتُ أنمله فسلن مواهباً ولمستُ منصُلَه فسال نفوسا

فهل تجاوز هذا الغلو والعلو في كل ما قاله في سيف الدولة ؟

هو العقل الباطن يملي على المتنبي فيمدح في ممدوحيه خير ما في عاله

الأعلى وخير ما في أعماق نفسه ، بل هو يمجّد العرب والعروبة في ممدوحيه جميعاً . كأني به كان يقول قبل ان يباشر النظم : هذا الرجل من سادات العرب ، فيجب أن يكون له من شمائل العرب أشرفها وأعلاها أو أنه يقول : هؤلاء هم العرب وأنا منهم ، فكيف لا تكون العظمة من سجاياهم ، وكيف لا اكون أنا عظيما ؟ اني لا أرى في الوجهين حقيقة رائعة .

ولنا أن نقول دون أن نتوغل في درس العوامل النفسية والباطنية ، إن المتنبي في مدحه الكرم والشجاعة ، والمروءة والوفاء ، وحب القوة والمجد ، أصاب ما في نفس كل عربي في زمانه وبعده ، كما يصيب ما في انفسنا اليوم وغداً .

إنما تنجح المقالةُ في المر ، إذا وافقتْ هوىً في الفؤادِ

وكيف لا يكبر العربي ، ويعتز بعروبته عندما يقرأ في أحد ملوك العرب قول شاعر العرب :

أرى كل ذي ملك اليك مصيرُهُ كأنك بحرٌ والملوكُ جداولُ
إذا مطرت منهم ومنك سحائبٌ فوابلهم طلٌ وطلك وابل

أيها السادة والسيدات ؛

لا تظنوني أسلي نفسي بالمحال ، وأحاول أن أسليكم بعذب الأقوال ، إن الشمائل التي حمل المتنبي أعلامها ، وجعلها المثل الاعلى في سيادة الناس ، بل في الناس أجمعين ، لجديرة بأن يتحلى بها ، ويتخذها سنة في أعماله كل من كان سيداً في الناس وإذا ما اجتمعت هذه الفضائل كلها لأمير من الأمراء ، أو لحاكم من الحكام ، وكان لهـــا في شعبه اصوات وأصداء ، وكان لهـا في شعبه الاعمال المعززة ، فذلك الأمير الحاكم مدرك لا محالة أعلى ذرى القوة والمجد والاحسان .

وإن للعرب كما قلت في مقدمة خطابي يقظات . وإن لهم وثبات . وإن لهم عودات ونهضات . أفلسنا اليوم في يقظة جـديدة ؟ إن دلائل

هذه اليقظة كثيرة أعد منها ولا أعددها . بل أكتفي الآن من « منها » بهذا المعرض الدليل الأكبر ، وهـــذا المهرجان الدليل الأبهر . فهل تنهض أمة بلا ثقافة قومية عالية ؟ وهل يقوم وطن في هـذا الزمان بلا معدات النهضة الاقتصادية ؟

أجل إن العرب اليوم لفي يقظة جديدة ، وإن لليقظة هذه كل عوامل النهضة الكبرى ، أي العوامل الوطنية والاقتصادية والسياسية والأدبية .

أقول العرب ، واستوقفكم عندها . أنتم يا رجالات سورية ، وأنتم يا رجالات لبنان ، وانتم يا فتيان البلدين ، استوقفكم عند هذه الكلمة ؛ إننا وإياكم عرب ، وإن في ذلك فخرنا الأكبر ، إنا لعرب وكفى ، فقد كانت العرب قبل الاسلام وقبل المسيحيين ، وستبقى العرب بعد المسيحية وبعد الاسلام .

إني أعد الزمان في تاريخ الامم بالقرون لا بالسنين . فنحن اليوم نحتفل بذكرى الف سنة مرت على وفاة المتنبي . وبعد مئة سنة يحتفل أبناء البلاد العربية بذكراه الطيبة في هذا البلد الطيب ، في دمشق القديمة الجديدة . وقد رفع حول علمها الأعلى علم العروبة الخالد ، أعلام العواصم كلها ، من القاهرة الى بغداد ، ومن حلب الى صنعاء اليمن . ويومئذ يقف الشاعر فيخاطب رب ذلك الملك ، شخصاً فرداً كان او برلماناً جامعاً ، فيمجده ويمجد المتنبي معاً مما قاله المتنبي في سيف الدولة .

تشرف عدنان به لا ربيعةٌ وتفتخر الدنيا به لا العواصمُ

دمشق : تموز سنة ١٩٣٦

سيفيات المتنبي

نثر الشعر ، قول في أبي الطيب

للأستاذ محمد اسعاف النشاشيبي

قال ابن أبي الحديد صاحب الشرح الكبير (للنهج) في كتابه : (الفلك الدائر على المثل السائر[1]) : « كنت شرعت في حل (سيفيات المتنبي) لشهرتها وغلبتها على ألسنة الناس ، وأن أجعل ذلك كتاباً مفرداً أتقرب به الى الخزانة الشريفة[2] — عمرها الله تعالى — فخرج بعضه ، وصدف عن إتمامه عوائق الوقت وشواغله » .

فهل أكمل ابن أبي الحديد هذا الكتاب ؟ وأين هو ؟

إن كان الزمان — وقد كان — قد أضاعه فانه أبقى بقية منه . وفيها الدليل عليه ، وأنا مورد اليوم منتقاها طرفة أدب لأدباء العرب ، وإعلاماً أن احمد بن الحسين قد شغل حكيماً وعالماً متكلماً مثل (ابن أبي الحديد) كما شغل الأدباء واللغويين وغيرهم : فأديب نقده ، ولغوي شرحه ، ومؤرخ كتب سيرته ، وعالم نثر شعره او حل نظمه ، وآخر جمع حكمته . وانها لسعادة ما نال مثلها شاعر ، وما أسعد (احمد) الا عبقريته ، والعبقري في الدنيا شقي وسعيد ،

وحل النظم من أفانين الأدب في القديم ، وقد دُفع اليه الكتاب حين اتسع مجال الإنشاء . « وأول من فكّ رقاب الشعر وسرّح مقيده إلى النثر عبد الحميد الأكبر كاتب بني أمية إلى انقضاء خلافتهم »[3] والجاحظ من أوائل من نثروا الشعر ، واستعانوا في كلامهم بقريض القارضين . روى عبدالقاهر في (دلائل الأعجاز) هذه الرسالة للجاحظ الى ابن الزيات وقال : إنه نثر قول نصيب :

---

(١) مطبوع في الهند . (٢) خزانة الكتب للخلافة العباسية في بغداد .

(٣) ورد ذلك في صبح الأعشى نقلاً عن كتاب (الريحان والريعان) .

فعاجوا فأثنوا بالذي انت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائبُ

قال الجاحظ : « نحن (أعزك الله) نسحر بالبيان ، ونموه بالقول ، والناس ينظرون الى الحال ، ويقضون بالعيان . فأثر في أمرنا أثراً ينطق إذا سكتنا ، فان المدعي بغير بينة متعرض للتكذيب » .

وروى بعضهم : « نظر أبو تمام الى سليمان بن وهب وقد كتب كتاباً فقال كلامك ذوب شعري » .

وفي (كتاب الصناعتين) لأبي هلال العسكري : « سمع بعض الكتاب قول نصيب (فعاجوا البيت) فكتب : لو أمسك لساني عن شكرك لنطق عليّ أثرك . وفي فصل آخر : ولو جحدتك احسانك لأكذبتني آثاره ، ونمت علي شواهده . وقريب من ذلك قولهم : شهادات الأحوال أعظم من شهادات الرجال » .

وفي (كتاب الصناعتين) « قال بعضهم : الكتابة نقض الشعر . وقيل للعتابي : بمَ قدرت على البلاغة ؟ قال : بحل معقود الكلام » .

ولأبي منصور الثعالبي كتاب سماه (نثر النظم ، وحل العقد[1]) نثر الكتاب المترجم بـ (مؤنس الأدباء) وهو مختار صغير من الشعر وقد تقدم اليه في حله (أبو العباس خوارزم شاه) كما ذكر الثعالبي ذلك في ديباجة الكتاب .

ولضياء الدين بن الأثير صاحب (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) كتاب في هذا المعنى اسمه (الوشي المرقوم في حل المنظوم[2]) وفيه أيضاً حل لآيات قرآنية وأخبار نبوية . قال ابن خلكان : « وهو مع وجازته في غاية الحسن والافادة » قال ابن الأثير في هذا الكتاب : « وكنت

---

(١) منه مخطوطة في (الخزانة الظاهرية) في دمشق ، وقد طبع في مصر .
(٢) منه مخطوطة في دار الكتب المصرية .

حفظت من الأشعار القديمة والمحدثة ما لا أحصيه كثرة ثم اقتصرت بعد ذلك على شعر الطائيين : حبيب بن اوس ، وأبي عبادة البحتري ، وشعر أبي الطيب المتنبي . فحفظت هذه الدواوين الثلاثة ، وكنت أكرر عليها بالدرس مدة سنين حتى تمكنت من صوغ المعاني ، وصار الادمان لي خلقاً وطبعاً . واما ذكرت هذا الفصل في معرض أن المنشيء ينبغي أن يجعل دأبه في الترسل حل المنظوم ، ويعتمد عليه في هذه الصناعة » .

والتعويل كل التعويل على ما يقول ابن الاثير ، فيه — عندي — من الضرر ما فيه ، وشرح هذه المضرة — ان اردناه — يطول ، ولسنا الآن في مقام تبيينها . واستظهار الاشعار وكلام العرب انما هو للظفر بالملكة والاهتداء الى الاسلوب العربي ثم الكاتب وبراعته في التوليد والاختراع والابداع ، واين الحرّ المبدع في القديم والحديث اين ؟

وحل الابيات الشعرية ينقسم عند ابن الاثير الى ثلاثة اقسام ذكرها في (مثله السائر) :

(الأول) منها وهو أدناها مرتبة ان يأخذ الناثر بيتا من الشعر فينثره بلفظه من غير زيادة ، وهذا عيب فاحش ، ومثاله كمن اخذ عقداً قد اتقن نظمه ، واحسن تأليفه ، فأوهاه وبدده . وأيضاً فانه اذا نثر الشعر بلفظه كان صاحبه مشهور السرقة فيقال : هذا شعر فلان بعينه لكون الفاظه باقية لم يتغير منها شيء .

واما (القسم الثاني) فهو أن ينثر المعنى المنظوم ببعض الفاظه ، ويعبر عن البعض بالفاظ أخر . وهناك تظهر الصنعة في المماثلة والمشابهة ومؤاخاة الالفاظ الباقية بالالفاظ المرتجلة .

وأما (القسم الثالث) وهو أعلى من القسمين الاولين فهو أن يؤخذ المعنى فيصاغ بالفاظ غير الفاظه وثم يتبين حذق الصائغ في صياغته ، فان استطاع الزيادة على ذلك المعنى فتلك الدرجة العالية . وإلا أحسن التصرف واتقن التأليف ليكون أولى بذلك المعنى من صاحبه الاول .

وقال (ضياء الدين) في التدريب على الحل :

« من أحب أن يكون كاتبا أو كان عنده طبع مجيب فعليه بحفظ الدواوين ذوات المدد ولا يقنع بالقليل من ذلك ، ثم يأخذ في نثر الشعر من محفوظاته . وطريقه أن يبتدىء فيأخذ قصيدة من القصائد فينثر بيتاً بيتا على التوالي ، ولا يستنكف في الابتداء أن ينثر الشعر بالفاظه أو باكثرها فانه لا يستطيع الا ذلك ، واذا مرنت نفسه ، وتدرب خاطره ارتفع عن هذه الدرجة وصار يأخذ المعنى ويكسوه عبارة من عنده ثم يرتفع عن ذلك حتى يكسوه ضروبا من العبارات المختلفة . وحينئذ يحصل لخاطره بمباشرة المعاني لقاح فيستنتج منها معاني غير تلك المعاني ، وسبيله أن يكثر الادمان ليلا ونهارا . ولا يزال على ذلك مدة طويلة حتى تصير له ملكة . فاذا كتب كتابا ، أو خطب خطبة تدفقت المعاني في اثناء كلامه وجاءت الفاظه معسولة لا مغسولة ، وكان عليها حدة حتى تكاد ترقص رقصا » .

* * *

سيفيات المتنبي ، حل أبيات منها لابن ابي الحديد :

فصل في التهنئة بعيد :

لا زالت المواسم تغشاك وأغصانها وريقة وحدائقها أنيقة ، والأعياد تلقاك وأنت عيدها على الحقيقة ، ولا برحت تهتصر الشباب لدناً رطيباً ، وتنضو من الاعياد سملاً وتلبس قشيبا . فهذا اليوم الشريف في الايام ، مثلك في الانام لكنه أوحد عام محصور ، وأنت أوحد الأعوام والدهور . ولا أحيل ذلك على محض الجد الذي ميز بين اليومين ، وفضل إحدى العينين ، بل على الجد الذي أسهرك وحاسدك راقد ، وشانئك قاعد .

هذا محلول قوله :

هنيئاً لك العيد الذي أنت عيده … وعيدٌ لمن سمّى وضحى وعيدا .
ولا زالتِ الأعياد لُبسك بعده … تسلم مخروقاً وتعطى مجددا .
فذا اليوم في الأيام مثلك في الورى … كما كنت فيهم أوحداً كان أوحدا .
هو الجدُّ حتى تفضل العين أختها … وحتى يكون اليوم لليوم سيدا .

وقد زدت عليه بأن جعلت توحيده بالاستحقاق لا بالجد والاتفاق ، وفيه زيادة أخرى وهي عموم توحيده وخصوص توحيد العيد في أيام العام .

* * *

فصل في ذكر المراسلة :

وتوالت منهم رسائل جعلوها عليهم أدراعاً ، وقصدوا بها تزجيةً للوقت ودفاعاً ، فظاهرها الاعظام لنا والاجلال ، وباطنها الارجاء لهم والامهال .

هذا محلول قوله :

دروع لملك الروم هذي الرسائل … يرد بها عن نفسه ويشاغل .
هي الزرد الضافي عليه ، ولفظها … عليك ثناءٌ سابغٌ وفضائل .

* * *

فصل

بابه المعمور كعبة الحيا ، ومغناطيس الشفا ، فالملوك تقبل بساط ديوانه وتقصر عن تقبيل كفه وبنانه .

هذا محلول قوله :

تقبل أفواهُ الملوكِ بساطه … ويكبر عنها كمه وبراجه .(١)

* * *

(١) البرجمة المفصل الظاهر او الباطن من الأصابع ، الجمع : براجم .

فصل

أنا أستعديك عليك ، فالخصومة فيك ومنك واليك واستميحك عدل قضائك الذي عمّ الخلق وعداني ، وشمل الناس وتخطاني ، وأعيذ مرآة فكرك وهو الجوهر الشريف ، والشفاف اللطيف أن يظهر فيها تلبيس الحاسد وبهتان الكاشح المعاند ، وأخلاقك التي تظلم اذا قيست في اللطافة بالسلافة ، وفي الصفاء بالصهباء أن تحمل قذى الغش الصّراح ، وهي ألطف من أن تمزج بالماء القراح .

هذا محلول قوله :

يا أعدل الناس الا في معاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

وقول غيره :

أخلاقك الغرّ الصفايا ما لها حملت قذي الواشين وهي سلاف ؟
واللبس في مكنون رأيك ماله يخفى ، وأنت الجوهر الشفاف ؟

* * *

فصل

العادة طبيعة غالبة ، وسجية الى فعل المعتاد جاذبة ، وعاداتك الطعن في الأحداق وضرب الأعناق ، فأجر منها على اعراقك ، ومعهود عوائدك وأخلاقك ؛ فان الملك لا تثبت دعائمه حتى تخضب بالدم صوارمه .

هذا محلول قوله :

لكل امرىء من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الطعن في العدى.

وقوله :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يُراقَ على جوانبه الدمُ .

* * *

فصل في صفة السيوف

فتهدنا اليهم وفي أيدينا النار الموقدة في الرؤوس ، المعبودة قبل ملة المجوس التي لا يفسدها الماء ، ولا يطفيها الهواء ، ولا تحرق الا غماد ، ولا خمدت ليلة الميلاد . ترمي بالدم لا بالشرر ، وتوقد بالناس لا بالحجر ، تحكم تارةً بالتعظيم وتارةً بالتصغير ، وتجمع قوماً جمع السلامة وقوماً جمع التكسير .

هذا محلول قوله :

وفي أكفهم النار التي عبدت	قبل المجوس ، الى ذا اليوم تضطرم .
هندية ، إن تصغر معشراً صغروا	بحدها أو تعظم معشراً عظموا .

وقد زدت عليها زيادات كثيرة ، ورمزت الى الخبر الوارد في أن نار فارس خمدت ليلة ميلاد نبينا وخرجت الى قوله تعالى (إنها ترمي بشرر كالقصر) وقوله سبحانه (وقودها الناس والحجارة) ثم خرجت الى نكتة نحوية وهي جمع السلامة وجمع التكسير .

فصل

السيف بالضارب لا بمضاء المضارب ، والحسام في يد الجبان كهام ، والكهام في يد الشجاع حسام ، ولذلك قال عمرو لعمر : لا لوم عليّ ولا حيف ، فاني لم أنحلك الساعد وانما نحلتك السيف .

هذا محلول قوله :

إن السيوف مع الذين قلوبهم	كقلوبهنّ اذا التقى الجمعان .
تلقى الحسام على جراءة حده	مثل الجبان بكف كل جبان .

* * *

إن القتيل مضرجاً بدموعه	مثل القتيل مضرجاً بدمائه .

القتيل المتشحط في نجيعه كالعاشق المستخرط (١) في دموعه ، وكلا الماءين دم الا أن هذا سال على أصل الخلقة ، وهذا صعدته (٢) حرقة الفرقة .

* * *

القتيل الذي قطعت شرايين نجيعه أروح من القتيل الذي قطعت شرايين دموعه ، فذاك قد فارق الدنيا فأمن شرها وخيرها ، وهذا كلما نضجت جلوده بدل جلوداً غيرها .

* * *

الدمع دم أحالت لونه نار الهوى فابيض ، وقطعت سلكه يد النوى فتبدد وارفض ، ولا فرق بينها عند النصر والبصيرة الا أن هذا يسيل من عضو واحد ، وذاك من أعضاء كثيرة .

* * *

فصل

عذر الخيمة واضح في السقوط ، لأنها علت على مولانا فتأدبت له في الهبوط ، وعلمت عجزها عن أن تشمل من يشمل الزمان ، وأن تعلو على من يعلو على بهرام وكيوان (٣) ، فأرجاؤها في السعة بحيث يركض في كل قطر منها جحفل ، ولكنها تضيق عن العالم المجموع في الواحد الأجل وتقصر عنه وتطول على القنا الذبل ، وأظنها لما أشرقت بأنواره ، وتاهت لما غدت من جملة دياره — لم تملك نفسها فخرت وضعفت ، ورب نفس أفرط عليها الفرح فزهقت ، ولو رزق الناس ما رزقت من الشرف الباذخ البنيان لخانتهم الأرجل وخروا سجوداً للجباه والأذقان ، وما سقطت

(١) في (اللسان والقاموس) : « استخرط الرجل في البكاء : لج فيه واشتد » .

(٢) في (اللسان) : التصعيد الاذابة ومنه قيل : خل مصعد وشراب مصعد اذا عولج بالنار حتى يحول عما هو عليه طعماً ولوناً .

(٣) بهرام اسم المريخ ، كيوان زحل .

عبثاً وانما اشارت بارحيل ، كما أن القصواء ما خلأت (١) وانما حبسها حابس الفيل .

هذا محلول قوله :

ايقدح في الخيمة العذل	وتشمل من دهرها يشمل ؟!
وتعلو الذي ، زحل تحته	محال لعمرك ما تسأل .
تضيق بشخصك ارجاؤها	ويركض في الواحد الجحفل
وتقصر ما كنت في جوفها	ويركز فيها القنا الذبل .
رات لون نورك في لونها	كلون الغزالة لا يغسل .
وان لها شرفا باذخا	وان الخيام بها تخجل .
فلا تنكرن لها صرعة	فمن فرح النفس ما يقتل .
ولو بلغ الناس ما بلغت	لخانتهم حولك الارجل .
ولما أمرت بتطنيبها	اشيع بانك لا ترحل .
فما اعتمد الله تقويضها	ولكن أشار بما تفعل .

وزدت على ذلك ، الخبر المشهور وهو أن رسول الله ركب ناقته القصواء في عام الحديبية متوجها الى مكة فلم تنبعث تحته فزجرها مرارا ، وزجرها أصحابه فلم تنبعث . فقالوا . خلأت القصواء . فقال النبي : ما خلأت وانما حبسها حابس الفيل ، وجرى من توقفه عن مكة وصلحه قريشا ما هو مشهور .

* * *

فصل

قصار رماحك اطول من ظلالها ، وطول رماح اعدائك اقصر من زجاجها ونصالها ، وكم من رمح قصر فأطلته بخطاك ، وكم من بلد بعد

---

(١) خلأت الناقة : حرنت . قالوا : يقال : خلأت الناقة ، والح الجمل ، وحرن الفرس .

فقربته ببراك . وقطرك في الندى والردى سيول وبحار ، وعزمك في الخصوم والعدى نصول وشفار ، وأناملك راجحة ولكن خلقت سيوفك من عجل ، فكلما نهيتها عن ولوغ الدماء قالت : سبق السيف العذل . وقد ينسب الجاهل حلمك أحياناً الى تدبير او خداع ، ولا يعلم ان الليث لا يأكل الجيفة ولا يفترس الضباع .

هذا محلول قوله :

طوال قنا تطاعنها قصار	وقطرك في ندى ووغى بحار .
وفيك اذا جنى الجاني اناة	تظن كرامة وهي احتقار .

وقول السموءل :

اذا قصرت اسيافنا كان وصلها	خطانا الى اعدائنا فتطول .

* * *

فصل :

الآراء الصائبة والشجاعة الثابتة تستعبد الصوارم وتستخدم الخاذم . فالتدبير أمير والشجاعة جنده ، والرأي حسام والصرامة [1] غمده ، ولو لم يلحظ هذا المنى ويعتبر لكانت السباع أفضل من البشر ، وطالما نكست الاعلام بالاقلام ، وملكت الاصقاع بالرقاع ، ونفذت المكايد قبل نفوذ الحدائد ، فاذا اجتمع لنفس سعيدة هذان الامران نالت أقصى الامكان ، وبلغت من العليا كل مكان .

هذا محلول قوله :

الرأي قبل شجاعة الشجعان	هو أول وهي المحل الثاني .
فاذا هما اجتمعا لنفس حرة	بلغت من العلياء كل مكان .

---

(١) في (الاساس) : رجل صارم ماض في الأمور ، وقد صرم صرامة . وفي (تهذيب الالفاظ) : الصرامة قطع الامر والعزيمة .

ولربما طعن الفتى اقرانه ... بالرأي قبل تطاعن الاقران .
لولا العقول لكان ادنى ضيغم ... أدنى الى شرف من الانسان .

* * *

وما الحسن في وجه الفتى شرفاً له ... اذا لم يكن في فعله والخلائق .

شرف الفتى بافعاله ، لا بحسنه وجماله . كالسيف يقطع بجوهره ، لا بحسن منظره . لو كان الفخر بما بدا في الصورة وظهر ، لا بما بطن من المعنى واستتر ، لكانت صورة النمارق أشرف من الحيوان الناطق .

* * *

فصل

حسام لولا ترقرق الماء في جوانبه لتمست النار الموقدة من مضاربه . فقد أضرّ به حب الجماجم والاعناق ، حتى عاد نضوا كالهلال ، وودت سباع الطير والوحش انها تفديه بالمخالب والانياب اذا فدي غيره بالانفس والاموال ، فاحسن ما خضب به الدم المار ، لا العسجد والنضار . والحسناء حسناء وهي في الاسمال والاطمار ، واذا كان الحلي لاتمام النقص يعمل فقشف الافضل انبل ، وعطل الاكمل أجمل .

هذا محلول قوله :

أحسن ما يخضب الحديد به ... وخاضبيه النجيع والغضب .

* * *

فصل

فلو كشف لك عن قلوبنا لرأيت الشوق قد فعل فيها ببرحائه فعل قنا الامير في صدور أعدائه . فانه جعلهم هلكى ، يطعنون مخلوجة وسلكى فالفضاء الرحب لديهم احرج من التابوت ، ونسج داود عليهم أوهن من بيت العنكبوت .

هذا محلول قوله :

نودعهم والبين فينا كأنه ... قنا ابن أبي الهيجاء في قلب فيلق .

قواض مواض، نسج داود عندها ... اذا وقعت فيه كنسج الخدرنق(١)

وفيه أيضاً حل قول امرىء القيس :

نطعنهم سلكى ومخلوجة ... كرّك لأمين على نابل (٢)

* * *

فصل في وصف منهزم

اجفل اجفال النعام ، واقشع اقشاع الغمام . يتوهم كل حفيف بسمعه رشق نابل ، ويرى الارض في عينيه كفة حابل . وقد كان آلى الا ينكص له قدم ، ولا يعقب يمين الجنان حنث ولا ندم . واذا تزلزلت الاقدام لم تزد اليمين في الاقدام . والحرب تحسن الهزائم ، وتغير العزائم ، وتجعل أهون شيء ما تقول اللوائم .

هذا محلول قوله :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ... ماذا يزيدك في اقدامك القسم ؟!

وقوله :

والعيان الجلي يحدث للظن زوالا وللمراد انتقالا .

وقول بعض شعراء الحماسة :

ملأت عليه الارض حتى كأنها ... من الضيق في عينيه كفة حابل

وقول القائل :

---

(١) الخدرنق : العنكبوت

(٢) السلكى بضم السين الطعنة المستقيمة ، (المخلوجة) للموجة عن يمين وشمال . (كرك لأمين) أي ردك لأمين وهما السهمان على من يرمي . يقال اذا القيتهما لم يقعا مستويين ، وربما استوى احدهما وتعوج الآخر . ويقال : سهم لأم اذا كان عليه ريشه .

اذا هبت النكباء بيني وبينكم   فأهون شيء ما تقول العواذل.

* * *

فصل في الصفح عن الجرائم

سيف الاحسان والاجمال اقتل من سيف القتل والاستئصال . وطالما غلَّ يداً مطلقها ، واسترق رقبة معتقها ، الا أن اللئيم يفسده الاحسان ، ويصلحه الهوان .

هذا محلول قوله :

وما قتل الاحرار كالعفو عنهم   ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا ؟ .
اذا انت اكرمت الكريم ملكته   وان أنت أكرمت اللئيم تمردا .

* * *

فصل

اذا كان الهوى من القلب في الشغاف والصميم ، واللوم يحوم حول ذلك الحمى والحريم ، وكلما شاهد الحر فر ، وكلما عاين النار استطار — لا جرم أنه يستحيل جوهره هباء ، ويذهب زبده جفاء ، ويثبت في محله ذلك الهوى ، ويلقي عصاه وتستقر به النوى .

هذا محلول قوله :

عذل العواذل حول قلبي التائه   وهوى الاحبة منه في سودائه .
يشكو الملام الى اللوائم حره   ويصد حين يلمن عن برحائه .

* * *

لا تعذل المشتاق في اشواقه   حتى يكون حشاك من احشائه .

لو ذقت ما يذوق العاشق لتركت عذله وعرفت عذره ، ومن يضع يده في الماء يجد برده ويعرف حره .

تباري نجوم القذف في كل ليلة نجوم له ، منهن ورد وأدهم .

فما زلنا نقطع الادهم الواقف بالدهم السائرات ، ونباري الشهب النيرات بالشهب الطائرات . الا أن تلك نجوم القذف والرجوم ، وهذه نجوم الغارة والهجوم .

***

فصل

عزائمك لا تفل ، وآراؤك لا تضل ، ومدائحك لا تمل ، وأحكامك لا تميل ، وسيفك شريك المنايا في قبض النفوس ، فهذه لاختطاف الارواح وهذا لاختطاف الرؤس . وكل دم لم تصنه ظباك أصبح مطلولا ، وكل ممات لم تشارك فيه عد خيانة وغلولا .

هذا محلول قوله :

شريك المنايا والنفوس غنيمة فكل ممات لم يمته غلول .

***

وقد حل ابن الاثير أبياتا كثيرة من شعر المتنبي اوردها في (رسائله) و (وشيه المرقوم) و (مثله السائر) وهذا نموذج منها :

إذا اختلفت العينان في النظر فالعذل ضرب من الهذر (أو) لا تعذل المحب فيما يهواه حتى تطوي القلب على ما طواه

هذا حل قوله :

لا تعذل المشتاق في أشواقه حتى يكون حشاك من أحشائه .

***

القتيل بسيف العيون كالقتيل بسيف المنون ، غير أن ذلك لا يجرد من غمده ، ولا يقاد صاحبه بعمده (أو) دمع المحب ودم القتيل متفقان في التشبيه والتمثيل ولا تجد بينها بونا ، الا انهما يختلفان لونا .

هذا حل قوله :

ان القتيل مضرجا بدموعه   مثل القتيل مضرجا بدمائه .

* * *

لما التقى الجمعان اصطفت يمين وشمال ، وزحفت جبال الى جبال ، وكثرت النفوس على المنايا حتى كادت لا تفي بالآجال . وقدمت الخيل اقدام فرسانها ، واظلم النقع فلا تبصر الا بآذانها .

هذا حل قوله :

في جحفل ستر العيون غباره   فكانما يبصرن بالآذان .

* * *

وكان بها مثل الجنون فأصبحت   ومن جثث القتلى عليها تمائم .

سرى الى حصن كذا مستعيدا منه سبية نزعها العدو اختلاسا ، وأخذها مخادعة لا افتراسا . فما نازلها حتى استقادها . ولا نزلها حتى استعادها ، وكأنما كان بها جنون فبعث لها من عزائمه عزائم ، وعلق عليها من رءوس القتلى تمائم .

وفي هذا من الحسن ما لا خفاء به فمن شاء أن ينثر شعرا فلينثر هكذا وإلا فليترك .. ! وقد جئت بهذا المعنى على وجه آخر وذاك اني أضفت الى هذا البيت ، البيت الذي قبله وهو :

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا   وموج المنايا حولها متلاطم .

ولما نثرت هذين البيتين قلت :

بناها والأسنة في بنائها متخاصمة ، وأمواج المنايا فوق أيدي البانين متلاطمة . وما أجلت الحرب عنها حتى زلزلت أقطارها بركض الجياد ، وأصيبت بمثل الجنون فعلقت عليها تمائم من الرءوس والاجساد ، ولا شك ان الحرب تعرد (١) عمن عز جانبه ، وتقول : ألا هكذا فليكسب المجد كاسبه !

---

(١) تهرب .

وقد تصرفت في هذا الموضع بزيادة في معناه ونثرته على اسلوب أحسن من هذا الاسلوب فقلت :

بناها ودون ذاك البناء شوك الاسل ، وطوفان المنايا الذي لا يقال ساوي منه الى جبل . ولم يكن بناؤها الا بعد أن هدمت رءوس عن أعناق ، وكأنما أصيبت بجنون فعلقت القتلى عليها مكان التمائم او شينت بعطل فعلقت مكان الاطواق .

* * *

قول موجز في المتنبي

في (شذرات الذهب) لابن العماد الحنبلي : « قال في العبر : ليس في العالم أشعر من المتنبي أبداً ، وأما مثله فقليل . »

ولقد جاء أحمد بن الحسين بما جاء به وهو من تلك القافية وذاك الوزن في سجن . ولولا هذان لجودت الايام أيما تجويد تسطير ما أملى فلم يقل :

ولم تحسن الايام تكتب ما أملي

* * *

رب ما لا يعبر (الشعر) عنه والذي يضمر الفؤاد اعتقاده

والقافية في اكثر الأحايين هي القائلة لا القائل ، والوزن هو الوازن لا شعور الشاعر ، فأكثر الشعر ليس لأهله لكنه للوزن أو للقافية ، انه مما وجد ، ليس هو مما قصد .

ولولا أن عبقرية منتخبة قوية عند أبي الطيب قد انكرت الجري على أساليب القوم

اذا كان مدح فالنسيب المقدم أكل فصيح قال شعراً متيم ؟!

فاختطت له تلك الخطة — لاقام دهره من تباع (أبي تمام) يأخذ بأخذه فلا يجاريه ، ويكد روحه في أن يصوغ فلا يساويه ،

وحبيب في صوغه وغوصه لا يلحق ، وقلما ضارع مقلد عظيماً مقلدا .

ولم يستطع المتنبي — على تبرزه وارتقائه — أن يزحزح (حبيباً) عن مكانه ، وما قدر الا أن يقعد في عرش الشعر معه ، وليس بقليل أن يقتطع من ملك حبيب ورعيته ما اقتطع .

وقد قالوا : أبو تمام عند الخاصة أشعر ، والمتنبي أشعر عند العامة ، وما أنصف المتنبي هؤلاء القائلون ، ولئن كان لأبي تمام عشر قصائد علا بهن علواً كبيراً إن للمتنبي قدامها مئة [1] قصيدة .

وكان شيوخ ابن خلدون يرون — كما قال — أن نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء — الله أكبر ! — لأنهما لم يجريا على أساليب العرب .

وكلام هؤلاء الشيوخ (شفاهم الله) ليس بشيء الا شيئاً لا يعبأ به .

وتنكب المتنبي عما تنكب عنه ، وسلوكه السبيل الذي سلكه ، ما ضاراه بل ظاهراه في ابداعه ونبوغه ، فرأت العربية أكبر شاعر ، وظهر في العرب شاعرهم .

فدعْ كلّ صوت غير صوتي فانني أنا الطائر المحكي والآخر الصدى

دمشق : تموز سنة ١٩٣٦

---

(١) قال ابن قتيبة في (أدب الكتاب) في باب ما زيد في الكتاب : « ومائة زادوا فيها ألفاً ليفصلوا بينها وبين منه ألا ترى انك تقول : أخذت مائة وأخذت منه . فلو لم تكن الألف لالتبس على القارىء » . قلت : زيدت الألف في مئة أيام لا اعجام وواجب في هذا الزمان حذفها حتى لا يضل القارىء اللافظ وكم أضلت هذه الألف ففتح الميم لافظ المئة ومد .

الشعر

للسيد محسن الأمين الحسيني

ما جاء في ذم الشعر

قال : الله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون) وقال تعالى في حق النبي ﷺ وما هو بشاعر فيقال لو كان الشعر صفة مدح لما نفاه عنه وقال ﷺ : لأن يمتلىء قلب الرجل قيحاً خير من أن يمتلىء شعراً . وكتب جعفر بن الحسن بن سعيد الهذلي الحلي المعروف بالمحقق فقيه الامامية المتوفى سنة ٦٧٦ هـ الى والده بهذه الأبيات :

ألم ترَ أني كل يوم الى العلا	اقدم رجلاً لا تزل بها النعل
وغير بعيد أن تراني مقدماً	على الناس حتى قيل ليس له مثل
تطاوعني بكر المعاني وعونها	وتنقاد لي حتى كأني لها بعل
ويشهد لي بالفضل كل مبرز	ولا فاضل الا ولي فوقه فضل

قال فكتب اليّ فوق هذه الأبيات : لئن أحسنت في شعرك لقد أسأت في حق نفسك أما علمت أن الشعر صناعة من خلع العفة ولبس الحرفة والشاعر ملعون وان أصاب ، ومنقوص ولو أتى بالشيء العجاب ، وكأني بك قد دهمك الشعر بفضيلته فجعلت تنفق منه ما تنفق بين جماعة لا يرون لك فضلاً غيره فسموك به وكان ذلك وصمة عليك آخر الدهر أما تسمع :

ولست أرضى أن يقال شاعر   تباً لها من عدد الفضائل

قال فوقف عند ذلك خاطري حتى كأني لم أقرع له باباً ولم أرفع له حجاباً .

ما جاء في مدح الشعر

قال : رسول الله ﷺ ان من الشعر لحكمة وقال ﷺ ان من البيان لسحراً لما أعجبه كلام عمرو بن الاهتم . وعنه ﷺ روّوا أولادكم لامية الشنفرى ولا ترووهم مقاطعة آل غسان كما يأتي . وقد استنشد رسول الله ﷺ الشعر واستحسنه ومدح قائله وأجاز عليه وعفا بسببه عمن يستحق العقاب وقبل وسيلة من توسل به وشفع من استشفع به ، والصحابة كان فيهم الشعراء ومن يستنشد الشعر ويجيز عليه ، والنبي ﷺ كان له منهم شعراء يهجون المشركين عبدة الاوثان وشعراءهم ويجيبونهم ويحامون عن النبي ﷺ منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة وغيرهم . وكذلك التابعون وتابعو التابعين والعلماء في كل عصر وجيل . وكفى ذلك دليلا على فضيلة الشعر ومدحه .

وقال عبد الملك بن مروان لمؤدب ولده : روهم الشعر روهم الشعر يمجدوا وينجدوا . وقال الزبير بن بكار : رووا أولادكم الشعر فانه يحل عقدة اللسان ويشجع قلب الجبان ويطلق يد البخيل ويحض على الخلق الجميل . ومما قيل في مدح الشعر من الشعر قول القائل :

ومستخف بقدر الشعر قلت له ... لا ينفق العطر الا عند عطار

وقول الآخر :

وفي الناس من لا يحسب الشعر رتبة ... وما الناس لولا الشعر إلا بهائم

وقال أبو اسحق ابراهيم بن عثمان بن محمد الغزي المتوفى سنة ٥٢٤ :

ان يكرهوا نظم القريض فعذرهم ... باد كحاشية الرداء المعلـ

ـم محرمون عن المناقب والعلا ... والشعر طيب لا يحل لمحرم

وقال أيضاً :

قالوا تركت الشعر قلت ضرورة ... باب الدواعي والبواعث مغلق

لم يبق في الدنيا كريم يرتجى ... منه النوال ولا مليح يعشق

ومن العجائب أنه لا يشترى ... ويخان فيه مع الكساد ويسرق

وقال الامير أبو فراس الحارث بن سعيد الحمداني من أبيات

الشعر ديوان العرب ... أبداً وعنوان الأدب

أما ما جاء في ذم الشعر مما مر فمحمول على اتخاذه للهو واللعب والغناء به كما كانت تستعمله الملوك والامراء وعلى استعماله فيما لا يرضي الله تعالى من مدح من يستحق الذم وذم من يستحق المدح والكذب فيه وثلب أعراض الناس بالهجاء أو الاشتغال به عما أوجبه الله تعالى أو غير ذلك وامتلاء القلب منه المشار اليه في الحديث الشريف يشير الى الاكثار منه والاشتغال به عن كل شيء ، والشعراء الذين ذمهم الله تعالى في الآية السابقة قد بين صفتهم فالمذمومون هم أصحاب تلك الصفة . وأما آية «وما هو بشاعر» فهي رد على قريش الذين قالوا عنه ﷺ انه شاعر ولا دخل لها بذم الشعر ولا بمدحه ان لم تدل على عظم قدر الشعر عند العرب . وأما قول بعض العلماء المتقدم ان الشعر صناعة من خلع العفة ولبس الحرفة وجعله ملعوناً ومنقوصاً فالمراد به اتخاذ الشعر حرفة يستجدي بها الناس ويمدح به من لا يستحق المدح أو يمدح الشخص بما ليس فيه ويهجى به الناس وتثلب أعراضهم وتقذف به المحصنات ويتعاطى فيه الفحش ونحو ذلك ولهذا جعله صناعة من خلع العفة ووصمة يعاب بها الرجل طول عمره . وهذا العالم خاف على ابنه أن يتعاطى صناعة الشعر ويشتهر به ويشغله ذلك عما كان يتوسمه فيه من الارتقاء في درجات العلوم وكل هذا ليس ذماً للشعر من حيث أنه شعر بل ذم لما يعرض بسبب تعاطيه واتخاذه صنعة كما كان يقع من الشعراء الذين يتخذونه للمدح والهجاء من الانشغال به عن الكمالات والاتسام به على النحو المذكور .

مزية الشعر

ان للشعر من بين أنواع الكلام مزايا ليست لغيره قال أحمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي في كتابه العقد الفريد : الشعر ديوان خاصة العرب والمنظوم من كلامها والمقيد لايامها والشاهد على حكامها حتى لقد بلغ من كلف العرب به وتفضيلها له ان عمدت الى سبع قصائد خيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة وعلقتها في أستار الكعبة، فمنه يقال مذهبة امرىء القيس ومذهبة زهير ويقال لها : « المعلقات »

لامرىء القيس (قفا نبك) ، لزهير (أمن أم أوفى) ، لطرفة (لخولة أطلال)، لعنترة (يا دار عبلة)، لعمرو بن كلثوم(الاهبي) ، للبيد (عفت الديار)، للحارث بن حلزة (آذنتنا ببينها أسماء) .

ومن كلف العرب بالشعر وسمو منزلته عندها انها كانت اذا أرادت انشاد قصيدة المهلهل لا تنشدها حتى تغتسل اعظاماً لها واعجاباً بها .

فمن مزايا الشعر التي ليست لغيره من أنواع الكلام انه لكونه مقفى وعلى أوزان خاصة يسهل حفظه ويروق انشاده فيطرب النفوس ويكون أشد تأثيراً فيها وكانت العرب تحدوا بهـا ابلها في سيرها فترى انه يؤثر فيها ويحملها على الاسراع .

(ومنها) انه يوجب بحفظه وانشاده تهذيب الاخلاق والحث على محاسن الافعال بما فيه من حكم وآداب وحماسة ونحو ذلك وقد يحمل على ضد ذلك بحسب ما يشتمل عليه ولذلك قال النبي ﷺ فيما روي عنه : رووا اولادكم لامية الشنفرى فانها تعلمهم مكارم الاخلاق ولا ترووهم مقاطعة آل غسان — وذلك لما في لامية الشنفرى من الحث على اباء الضيم

ومفارقة من لا خير فيه والصبر والجلد وتحمل المشاق لنيل المآرب الجليلة والتباعد عن منة الخلق وغير ذلك . وما في مقاطعة آل غسان من الحث على الانتقام وترك العفو والصفح ، فمن لامية الشنفرى المعروفة بلامية العرب قوله يحث على اباء الضيم ومفارقة من لا خير فيه وان كان حميا قريباً وترك البلاد التي ينال المرء فيها الأذى إلى غيرها :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فاني الى قوم سواكم لأميل
وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متحول
لعمرك ما في الأرض ضيق على امرىء سرى راغباً أو راهباً وهو يعقل

يقول فيها :

وإن مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن بأعجلهم إذ اجشع القوم أعجل
وما ذاك إلا بسطة عن تفضل عليهم وكان الأفضل المتفضل

ثم يقول في مفارقة من لا خير فيه :

واني كفاني فقد من ليس جازياً بنعمى ولا في قربه متعلل
ثلاثة أصحاب فؤاد مشيع[1] وأبيض إصليت وصفراء عيطل[2]

ثم يقول في تجنب ما لا يحمد من الصفات :

ولست بمهياف[3] يعشي سوامه[4] مجدعة[5] سقبانها[6] وهي بهل[7]
ولا جبأ[8] أكهى[9] مرب[10] لعرسه يطالعها في أمره كيف يفعل
ولا خرق[11] هيق[12] كان فؤاده يظل به المكاء[13] يعلو ويسفل

---

(١) شجاع جريء . (٢) عيطل طويلة وهي القوس .
(٣) المهياف السريع العطش . (٤) يرعاها ليلا خوفاً من العطش
(٥) سيئة الغذاء . (٦) اولادها
(٧) عليها سرارها وهو ما يشد به ضرع الناقة لئلا يرضعها ولدها .
(٨) جبان . (٩) جبان ضعيف .
(١٠) ملازم . (١١) دهش من الخوف
(١٢) رقيق طويل . (١٣) طائر .

ولا خالف[1] دارية[2] متغزل يروح ويغدو داهناً يتكحل
ولست بعَلٍّ[3] شره دون خيره ألف[4] اذا ماجئته اهتاج أعزل[5]
ولست بمحيار الظلام إذا انتحت هدى الهوجل[6] العسيف[7] يهماء هوجل[8]

ثم وصف جلده وصبره على المتاعب وإقدامه وقوته فقال :

إذا الأمعز الصوان لاقى مناسمي تطاير منه قادح ومفلل
أديم مطال الجوع حتى أميته وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل

ثم وصف إباءه عن تحمل منة الناس ولو كان في أشد الحاجة وقادراً على الكسب الدنيء فقال :

واستف ترب الأرض كيلا يرى له علي من الطول امرؤ متطول
ولولا اجتناب الذأم لم يلف مشرب يعاش به الى لدي ومأكل
ولكن نفساً حرة لا تقيم بي على الضيم إلا ريثما أتحول
وأطوي على الخمص[9] الحوايا[10] كما انطوت خيوطة ماري[11] تغار[12] وتفتل
وأغدو على القوت الزهيد كما غدا ازل[13] تهاداه التنائف أطحل[14]

ثم وصف سيره ليلا وتبكيره فقال :

وتشرب اساري[15] القطا الكدر[16] بعدما سرت قرباً[17] أحناؤها[18] تتصلصل[19]

---

(١) لا خير فيه .
(٢) لا يفارق البيوت .
(٣) العل للمسن الصغير الجثة .
(٤) عاجز .
(٥) لا سلاح معه .
(٦) الطويل الذي فيه تسرع وحمق .
(٧) الآخذ على غير الطريق .
(٨) فلاة لا أعلام بها .
(٩) ضمور البطن .
(١٠) الأمعاء .
(١١) اسم رجل أو كساء .
(١٢) يحكم فتلها .
(١٣) خفيف الوركين والمراد الذئب يتولد من الضبع والذئب .
(١٤) لونه بين الغبرة والبياض
(١٥) جمع سؤر وهو بقية الماء .
(١٦) الكدرة الغبرة .
(١٧) القرب سير الليل لورود الغد .
(١٨) جوانبها .
(١٩) تصوت .

ثم ذكر انه لا يتغير في حالتي عدمه وغناه فقال :

وأعـــدم أحيانا وأغنى وانما ينال الغنى ذو البعدة[١] المتبذ[٢]
فلا جزع من خلة[٣] متكشف[٤] ولا مرح[٥] تحت الغنى أتخيل[٦]

ثم وصف صبره على المتاعب والشدائد وشظف العيش فقال :

ويوم من الشعرى[٧] يذوب لعابه[٨] أفاعيه في رمضائه تتململ
نصبت له وجهي ولا كن[٩] دونه ولا ستر الا الاتحمي[١٠] المرعبل[١١]
وضاف[١٢] اذا هبت له الريح طيرت لبائد عن أعطافه ما ترجل[١٣]
بعيد بمس الدهن والفلي عهده له عبس[١٤] عاف[١٥] من الغسل محول[١٦]

* * *

ومن مقاطعة آل غسان قوله :

ما كل يوم ينال المرء ما طلبا ولا يسوغه المقدار ما رغبا
لا تقطعن ذنب الافعى وتتركها ان كنت شهماً فاتبع رأسها الذنبا
هم جردوا السيف فاجعلهم له جزراً وأضرموا النار فاجعلهم لها حطبا

* * *

(١) اسم للبعد . (٢) الذي لا يصون نفسه .
(٣) حاجة وفقر . (٤) مظهر حاجته وفقره للناس .
(٥) ذو مرح وبطره . (٦) اتكبر
(٧) نجم يطلع في شدة الحر . (٨) مايرى متدليا أعناء الهاجرة كالخيوط .
(٩) لا ستر . (١٠) نوع من البرود .
(١١) للتخرق . (١٢) شعر كثير طويل .
(١٣) ما أسرح . (١٤) وسخ .
(١٥) متروك . (١٦) اتى عليه حول .

(ومنها) انه يخلد لصاحبه ذكراً على ممر الدهور والاعوام ولولا الشعر لكان جماعة كثيرون من المشهورين في عداد المنسيين لا يذكرهم ذاكر ولا يعرفهم أحد وانما عرفوا واشتهروا وخلد ذكرهم على الألسن وفي بطون الدفاتر بما أثر عنهم من الشعر وإلا فمن الذي كان يعرف رعاة العرب ولصوصهم وصعاليكهم وكثيراً من أهل الجاهلية لولا الشعر وجماعة من أهل الفضل لم يعرفوا إلا بشعرهم .

(ومنها) ان الشعر تقيد به الحوادث التاريخية وتحفظ وجملة منها قد عرفت من الأشعار أكثر مما عرفت من كتب التاريخ .

(ومنها) ان الشعر تعرف منه نفسية الشاعر ويكون أبلغ مترجم عنها وتفيد المؤرخ والمترجم ما لا تفيده كتب التاريخ .

(ومنها) انه يصير في عنق من قيل فيه كطوق الحمامة مدحاً وذماً فتتناقله الألسن وتحفظه الناس حتى الصبيان والعواتق في خدورها ولذلك كان الملوك والأمراء يتقون ألسنة الشعراء ويحتملون منهم ما لا يحتملون من أحد ويجزلون لهم العطايا والمواهب وفي ذلك يقول ابن الرومي :

لا تقبلن المدح ثم تعقه ... وتنام والشعراء غير نيام

واعلم بأنهم إذا لم ينصفوا ... حكموا لأنفسهم على الحكام

وظلامة العادي عليهم تنقضي ... وعقابهم يبقى على الأيام

وكان الشعراء في تلك الأعصار أشبه بأهل الجرائد اليوم وكان بنو أمية يكرمون الفرزدق وكثير عزة ويجيزونها ويحتملون منها وكلاهما علوي الرأي طمعاً في المدح وخشية من القدح وكذلك بنو العباس كانوا يكرمون السيد الحميري ويجيزونه وهو علوي الرأي

(ومنها) تهييجه النفوس وتأثيره فيها تأثيراً يتفاوت بحسب مرتبته في الفصاحة والبلاغة ورقة اللفظ وحسن سبكه وانسجامه واشتماله على النكات المستملحة والخصائص البديعة والألفاظ المستعذبة والأمور المهيجة للنفس بحسب المقامات كالرقة في الغزل والتهويل في الحماسة ووصف الحرب وحسن الأسلوب في الاعتذار والشفاعة والحث على الحلم والصفح والتفجع في الرثاء وغير ذلك .

فالشعر بشدة تأثيره في النفوس يرقق القلوب ويعطفها ويحمل على العفو عن المذنبين . وكم جاد به البخيل وبخل الجواد وشجع الجبان وجبن الشجاع وأبغض الحبيب وحبب البغيض واستملح القبيح واستقبح المليح واطفئت ثائرة الغضب وقبلت الشفاعات فيمن استحق أشد العقاب وصفح عمن استحق القتل وشاهده وقتل من نال العفو وعوقب من لا يستحق العقاب وفرج عمن هو في ضيق وأثار الفتن بين القبائل ولانت القلوب القاسية وقست اللينة وتعلم الجاهل واتعظ المتمادي وفرح الحزين وحزن الفرح وسلي الشجي وشجي الخلي واستغنى الفقير وافتقر الغني ونبه الخامل وخمل النابه واتضع الرفيع وارتفع الوضيع وقهر العدو وسر الولي وأدرك الثأر وفتحت البلاد الى غير ذلك مما يجده المطلع على أخبار الماضين من الشعراء والملوك والأمراء وغيرهم .

فمن ترقيق الشعر للقلوب ان النبي ﷺ بعد ما قتل النضر بن الحارث ابن كلدة عقب أسره يوم بدر لشره وشدة أذاه لما سمع أبيات بنته أو أخته قتيلة التي تقول فيها :

أمحمد ولأنت ضنء نجيبة في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما منّ الفتى وهو المغيظ المحنق

رق لها وبكى وقال : لو بلغني شعرها قبل قتله ما قتلته .

(ومن) الشعر الذي صار في عنق من قيل فيه كطوق الحمامة واتضع به الرفيع أن بني نمير كانوا جمرة من جمرات العرب وكانوا إذا سئل أحدهم ممن الرجل فخم لفظه ومد صوته وقال من بني نمير ! فلما قال فيهم جرير من قصيدة يهجو بها الراعي

فغض الطرف انك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

جعلوا اذا سئلوا عن نسبهم لا ينتسبون إلى نمير ويتجاوزونه إلى أبيه

عامر بن صعصعة . ولما قال هذيل الأشجعي في عبد الملك بن عمير قاضي الكوفة من أبيات :

إذا كلمته ذات دل لحاجة ورام بأن يقضي تنحنح أو سعل

روي واشتهر حتى قال عبد الملك ربما جاءتني السعلة والنحنحة وأنا في المتوضأ فأردهما لما شاع من شعره .

وكان في العرب قبيلة تسمى (بني أنف الناقة) وذلك أن جدهم قريع ابن عوف بن مالك نحر ناقة وقسمها على أولاده ونسي ولده جعفراً فأرسلته أمه اليه ولم يبق غير الرأس فأعطاه إياه فأدخل أصابعه في الأنف وجعل يجره فلقب أنف الناقة فكان بنوه إذا سئلوا ممن يقولون من بني قريع فيتجاوزون جعفراً أنف الناقة إلى أبيه فرقاً من هذا الاسم إلى أن نقل أحدهم ، وهو بغيض بن عامر بن لؤي بن شماس بن جعفر أنف الناقة ، الحطيئة الشاعر من ضيافة الزبرقان بن بدر إلى ضيافته وأحسن إليه فقال الحطيئة :

سيري أمام فان الأكثرين حصى والأكرمين إذا ما ينسبون أبا

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا ؟

فصاروا يفخرون بهذا النسب بعد ما كانوا يفرقون منه

ولما بذل عرابة الأوسي وسق بعير تمراً للشماخ بن ضرار في سنة شديدة قال فيه الشماخ :

رأيت عرابة الأوسي يسمو إلى الخيرات منقطع القرين

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

صار ذلك مثلا سائراً وأثراً باقياً .

(ومن) رفع الشعر الوضيع أن الأعشى قدم مكة وكان المحلق امرأة أو أم عاقلة فقالت له أن الأعشى قدم وهو رجل مفوه مجدود في الشعر ما مدح أحداً إلا رفعه ولا هجا أحداً إلا وضعه وأنت رجل فقير خامل

الذكر ذو بنات فلو سبقت الناس اليه فدعوته إلى الضيافة ونحرت له واحتلت لك فيما تشتري به شراباً لرجوت لك حسن العاقبة فسبق اليه المحلق فأنزله ونحر له وخبزت المرأة وأخرجت نحياً فيه سمن وجاءت بوطب لبن فلما أكل الأعشى وأصحابه قدم الشراب واشتوى له من كبد الناقة وأطعمه من أطايبها فسأله عن حاله وعياله فعرف البؤس في كلامه وذكر البنات فقال الأعشى كفيت أمرهن وأصبح بعكاظ ينشد قصيدته:

أرقت وما هذا السهاد المؤرق وما بي من سقم وما بي معشق

إلى أن قال:

نفى الذم عن آل المحلق جفنة كجابية الشيخ العراقي تفهق

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرق

تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

رضيعي لبان ثدي أم تحالفا بأسحم داج عوض لا نتفرق

ترى الجود يجري ظاهراً فوق وجهه كما زان متن الهندواني رونق

فما أتم القصيدة إلا والناس ينسلون إلى المحلق يهنئونه والأشراف من كل قبيلة يتسابقون إليه يخطبون بناته لمكان شعر الأعشى .

(ومن) استملاح القبيح بسبب الشعر ما يحكى أن رجلاً قدم المدينة بخمر سود فبارت عليه فوعد بعض الشعراء بشيء من المال لينظم له شعراً في مدح الخمار الأسود فقال:

قل للمليحة في الخمار الأسود ماذا فعلت بناسك متعبد

قد كان شمر للصلاة إزاره حتى قعدت له بباب المسجد

فتسابقت الناس على شراء تلك الخمر .

ومن تمليح الشعر ما ليس بمليح إنه لا أبشع ولا أقذر من حالة اعرابي وسخ الثياب والبدن قد كثر القمل في ثيابه وانتشر فوق اهابه وتغلغل

في شعره فجلس في الشمس يفلي ثيابه ويقتل منها القمل وقد صبغت أظافره بدمائها فلما وصف الشاعر العربي حاله وأجاد في وصفها بحسن أسلوبه كان ذلك من جملة مختارات أبي تمام في ديوان الحماسة ومما يتلى في الجامع وتلذه القلوب والمسامع وتشرح العلماء ألفاظه وتعجب ببلاغته ويخلد ذكر من قاله وقيل فيه في بطون الكتب ، والا فماذا يتصور المتصور ان يفعل من يريد وصف اعرابي جلس في الشمس يفلي ثيابه ويقتل منها القمل وماذا يستطيع أن يأتي به في هذا الموضوع قال أبو تمام في الحماسة وقال آخر ومر بأبي العلاء العقيلي يفلي ثيابه :

واذا مررت به مررت بقانص متشمس في شرقه مقرور
للقمل حول أبي العلاء مصارع من بين مقتول وبين عقير
وكأنهن لدى زرور قميصه فذ وتوأم سمسم مقشور
ضرج الأنامل من دماء قتيلها حنق على أخرى العدو مغير

(ومن) تبغيض الشعر للحبيب وتحبيبه للبغيض أنه صرف رأي النعمان ابن المنذر عن نديمه وجليسه المقدم عنده حين وفد على النعمان العبسيون والعامريون بنو أم البنين وكان الربيع بن زياد العبسي ينادم النعمان فطعن على العامريين لعداوته لهم وصرف قلب النعمان عنهم فرأوا منه جفاء بعد ما كان يكرمهم وكان معهم لبيد الشاعر المشهور الذي قال فيه رسول الله ﷺ : أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد وهي :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وهو غلام يرعى إبلهم ويحفظ أمتعتهم فرآهم يتناجون فسألهم فزجروه فقال والله لا احفظ لكم متاعاً ولا أسرح لكم بعيراً أو تخبروني وكانت أمه عبسية فقالوا له خالك غلبنا على الملك فقال اجمعوا بيني وبينه غداً عند الملك فامتحنوه ببقلة فذمها أبلغ ذم فقال لهم رئيسهم عامر بن جعفر

ملاعب الأسنة انظروه فان رأيتموه نائماً فليس أمره بشيء وان رأيتموه ساهراً فهو صاحبكم فرقبوه فوجدوه قد ركب رحلاً يكدم وسطه حتى أصبح فألبسوه حلة ودخلوا به على النعمان فوجدوه يتغدى ومعه الربيع فأنشد لبيد يقول :

يارب هيجا هي خير من دعه ... اذ لا تزال هامتي مقزعه
نحن بني أم البنين الأربعه ... ونحن خير عامر بن صعصعه
الضاربون الهام تحت الخيضعه ... والمطعمون الجفنة المدعدعه
مهلا أبيت اللعن لاتأكل معه ... ان استه من برص ملمعه
يدخل فيها كل يوم أصبعه ... يدخلها حتى يواري اشجعه

كأنه يطلب شيئاً ضيعه

فقال النعمان للربيع أكذلك أنت ؟ فقال كذب ابن الحمق اللئيم فقال النعمان أف لهذا الطعام لقد خبث عليّ طعامي وأمر الربيع بالانصراف إلى أهله فطلب أن يبعث له من يجرده ليعلم أنه ليس كذلك فقال النعمان :

قد قيل ذلك إن حقاً وان كذباً ... فما اعتذارك من قول إذا قيلا

ومن تسبيب الشعر العفو عمن استحق العقوبة ان النبي ﷺ عفا عن كعب بن زهير بن أبي سلمى بعد ما أهدر دمه وحباه وأكرمه لما أنشده قصيدته المشهورة المعروفة بانت سعاد .

وعفا رسول الله ﷺ عن اسرى حنين من هوازن بشعر أبي جرول الجشمي وكان رئيس قومه قال أسرنا النبي ﷺ يوم حنين فوقفت بين يديه وأنشدته :

أمنن علينا رسول في حرم ... فانك المرء نرجوه وننتظر
أمنن على نسوة قد كنت ترضعها ... يا أرجح الناس حلماً حين يختبر
انا لنشكر للنعمى اني كفرت ... وعندنا بعد هذا اليوم مدخر

فقال ﷺ أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لله ولكم فقالت الأنصار وما كان لنا فهو لله ولرسوله .

وعفا المعتصم عن تميم بن جميل من الأوس بن تغلب بشعر قاله حيث خرج عليه فقدم الى السيف والنطع ليقتل فقال .

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً   يلاحظني من حيث ما أتلفت
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي   وأي امرىء مما قضى الله يفلت
ومن ذا الذي يدلي بعذر وحجة   وسيف المنايا بين عينيه مصلت
يعز على الأوس بن تغلب موقف   يسل علي السيف فيه وأسكت
وما جزعي من أن أموت وانني   لأعلم أن الموت شيء موقت
ولكن خلفي صبية قد تركتهم   وأكبادهم من حسرة تتفتت
كأني أراهم حين أنعى إليهم   وقد خمشوا تلك الوجوه وصوتوا
فان عشت عاشوا خافضين بغبطة   أذود الردى عنهم وإن مت موتوا
وكم قائل لا أبعد الله داره   وآخر جذلان يسر ويشمت

ومن تسبيب الشعر العقوبة بعد العفو ان أبيات العبدي التي أنشدها عبدالله بن علي بن عبدالله بن العباس بفلسطين وأولها (وقف المتيم في رسوم دبار) كانت سبباً في قتل من عنده من بني أمية ، وأبيات سديف بن ميمون التي أنشدها السفاح وأولها :

أصبح الملك ثابت الآساس   بالبهاليل من بني العباس

كانت سبباً في قتل من عنده من بني أمية .

ومن قبول شفاعة المتشفع بسبب الشعر أن امرأة عاذت بقبر غالب أبي الفرزدق وضربت عليه فسطاطاً وكان الفرزدق لا يعوذ بقبر أبيه عائذ إلا قضى حاجته فسأل الفرزدق عما نزل بها فقالت ان ابناً لي اسمه حبيش أغزي إلى السند مع تميم بن زيد وهو واحدي فكتب اليه الفرزدق :

تميم بن زيد لا تكونن حاجتي   بظهر فلا يخفى عليّ جوابها

وهب لي حبيشاً واتخذ فيه منة ... لحرمة أم ما يسوغ شرابها
أتتني فعاذت يا تميم بغالب ... وبالحفرة السافي عليها ترابها

فلم يعرف التميم أن اسمه حبيش أو حنيش (لأن النقط لم تكن معروفة) ولم يعرف ابنها بعينه فعرض جميع من معه من الجند وأطلق كل من اسمه حبيش أو حنيش .

وغضب مالك بن طوق على قومه بني تغلب حين أفسدوا الطرق في عمله فتشفعوا بأبي تمام فقال يخاطبه :

ورأيت قومك - والاساءة منهم - ... جرحى بظفر الزمان وناب
فمضت كهولهم ودبر أمرهم ... أحداثهم تدبير غير صواب
لا رقة الحضر اللطيف غذتهم ... وتباعدوا عن فطنة الأعراب
فاذا كشفتهم وجدت لديهم ... كرم النفوس وقلة الآداب
لك في رسول الله أعظم أسوة ... وأجلها في سنة وكتاب
أعطى المؤلفة القلوب رضاهم ... كرماً ورد أخائذ الأحزاب

فقبل شفاعته فيهم .

وغضب سيف الدولة بن حمدان على بني كلاب فأغار عليهم فغنم الأموال وسبى الحريم فأتى بعضهم أبا الطيب يسأله أن يذكرهم له في شعره ويشفع فيهم فقال من قصيدة :

ترفق أيها المولى عليهم ... فان الرفق بالجاني عتاب
فانهم عبيدك حيث كانوا ... اذا تدعو لنائبة أجابوا
وعين المخطئين هم وليسوا ... بأول معشر خطئوا فتابوا
وماجهلت أياديك البوادي ... ولكن ربما خفي الصواب
وجرم جره سفهاء قوم ... وحل بغير جارمه العذاب

ومن تسبيب الشعر تشجيع الجبان أن أبيات عمرو بن الاطنابة التي يقول فيها :

وقولي كلما جشأت وجاشت ‍ ‍ ‍ ‍ مكانك تحمدي أو تستريحي

كانت سبباً في توقف معاوية عن الحرب يوم صفين بعد ما وضع رجله في الركاب ليهرب .

ومن تسبيب الشعر اثارة الحمية وايقاع الفتن بين القبائل ان قول البسوس لما ضرب كليب ضرع ناقتها بسهم :

لو انني أصبحت في دار منعة ‍ ‍ ‍ ‍ لما ضيم زيد وهو جار لأبياتي

ولكنني أصبحت في دار غربة ‍ ‍ ‍ ‍ متى يعدفيها الذئب يعد على شاتي

هاجت حرباً بين بكر وتغلب بن وائل دامت أربعين سنة .

ومن تسبيب الشعر عقاب من لا يستحق العقاب ان بيتين قالتها امرأة مدنية كانا سبباً في حلق رأس نصر بن حجاج ونفي الخليفة اياه إلى البصرة وهما :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها ‍ ‍ ‍ ‍ أو من سبيل إلى نصر بن حجاج

إلى فتى طيب الأعراق مقتبل ‍ ‍ ‍ ‍ سهل المحيا كريم غير ملجاج

ومن تسبيبه الفرج عمن هو في ضيق أن عمر سمع وهو يتجسس في الليل امرأة تقول :

لقد طال هذا الليل وازور جانبه ‍ ‍ ‍ ‍ وليس إلى جنبي خليل ألاعبه

فوالله لولا الله تخشى عواقبه ‍ ‍ ‍ ‍ لزعزع من هذا السرير جوانبه

فأرسل اليها فقالت ان زوجها في البعث فأمر برده وأن لا يبقى الرجل في البعث أكثر من أربعة أشهر .

دمشق : سنة ١٩٤٥

بماذا يكون انتظام المجتمع الانساني

للأستاذ سعيد الكرمي

أيها السادة الكرام والأخوة الاعزاء والأبناء البررة !

قيض لي حسن الحظ أن أقف هذا الموقف بينكم مذكراً لا مرشداً إذ فيكم من رئيس المجمع الفاضل وزملائي الأفاضل من لا أستغني عن الاقتباس من أنوار علمه فأضرع إلى آدابكم ومكارمكم أن تسبلوا ذيل الصفح عما سترونه من هفوات دعا إليها تشعب مسائل الموضوع الذي توخيته (وما تشعب تصعب) واستدعاؤه بحثاً أكثر ووقتاً أوسع والله أسأل وبنبيه الأكرم صلى الله عليه وسلم أتوسل أن يأخذ بيدنا جميعاً لانهاض هذا الوطن من كبوته وما ذلك على الله بعزيز إن صدقت النيات واتحدت القلوب وعرفنا الحق لأهله ووضعنا كل شيء في محله .

ان الله تعالى خلق الخلق محتاجين وفطرهم عاجزين ليكون منفرداً بالغنى مختصاً بالقدرة وجعل الانسان أكثر حاجة من جميع الحيوان لأن من الحيوانات ما يستقل بنفسه عن جنسه والانسان مطبوع على الافتقار إلى جنسه واستعانته به صفة قائمة في جوهره قال تعالى (وخلق الانسان ضعيفا) يعني عن الصبر عما هو مفتقر إليه واحتمال ما هو عنه عاجز .

ولما كان الانسان أكثر حاجة من جميع الحيوان لاحتياجه إلى أشياء استغنى عنها غيره وهي الملبس والمسكن اللذان استغنى عنهما أكثر الحيوانات إن لم نقل كلها والمطعم الذي لا يتناوله الانسان إلا بعد اجهاد عدة صناع فيه أنفسهم ومزاولة عدة صناعات ، قيل الانسان مدني بالطبع أي أنه لا يقوم بحاجياته بنفسه بل يحتاج إلى مدنية أي مجتمع تتوفر فيه حاجياته وقد

جعله الله تعالى بهذه الصفة نعمة منه عليه ولطفاً به ليكون ذل الحاجة ومهانة العجز مانعين له من طغيان الغنى وبغي القدرة لأن الطغيان مركوز في طبعه إذا استغنى والبغي مستول عليه إذا قدر قال تعالى (إن الانسان ليطغى ان رآه استغنى) وقال عنه (إنه كان ظلوماً جهولا) (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض) .

ثم إنه جل وعلا جعل لنيل الانسان حاجته أسباباً ولدفع عجزه حيلة دله عليها بما وهبه من نعمة العقل وأرشده إليها بالفطنة وأنعم الله على الناس بما أودعه في الأرض من الخيرات حيث قال خلق لكم ما في الأرض جميعاً فوجب أن يكون سكانها على حالة رضية من الانصاف وحسن العشرة والمودة والمعاونة واسداء المعروف واحتمال الأذى فانهم إن لم يكونوا كذلك ضاع ما أودعوه من تلك الخيرات أو اختص به بعضهم دون الآخر فضاع العدل والانصاف وفقدت الالفة والانتظام وهما زينة المجتمع الانساني .

ولم تزل قلة الانصاف قاطعة بين الرجال ولو كانوا ذوي رحم

ثم أودع فيهم غرائز التزموا بطبعهم المحافظة عليها مثل الغيرة والاباء وحب الأثرة وهي مراكب جماحة إن لم تلجم وتروض فشرع عز وجل الشرائع على لسان رسله الكرام لمحافظة هذا المجتمع من الفساد والاختلال فكانت زبدة ما أمرت به من أساسيات الانتظام المحافظة على خمسة أشياء واصلاحها وهي (١) الدين (٢) النفوس (٣) العقول (٤) الانساب (٥) الأموال فافساد الدين بالكفر والبدع والأهواء المضلة . وإفساد النفوس بالقتل أو قطع أو تعطيل بعض الأعضاء أو منافعها . وإفساد العقول بشرب المسكرات أو تضليل الغير على ارتكاب ما يمس دينه أو شرفه . وإفساد الأنساب بالاقدام على الزنا فانه يضيعها ، أو بعقوق الوالدين وقطع الأرحام فانها يضيعان ثمرتها من التناصر والتوادّ . وإفساد الأموال بالغصب

والسرقة والرشوة وكذا أخذها بالغش وأصناف الحيل وكل وجه غير مشروع . ويدخل في ذلك اغتصاب المنفعة كأنواع السخرة وعدم تأدية الاجير أجره فان المنفعة متقومة .

ومن قارن بين قول التوراة (أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر لا يكن لك آلهة أخرى أمامي لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء مما تحت الأرض ولا تسجد لهن ولا تعبدهن لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض لا تقتل لا تزن لا تسرق لا تشهد شهادة زور لا تشته بيت قريبك الخ) . وبين قوله تعالى في القرآن (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن وأوفوا الكيل والميزان بالقسط وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ، وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) .

علم أن أساس الأديان في تنظيم الهيئة الاجتماعية واحد بدليل قوله تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) فكما علم أن للهيئة الاجتماعية حقوقاً ونظاماً ينبغي أن يعلم أن لكل فرد منها كذلك حقوقاً ونظاماً ولنبين ذلك إجمالاً لأن تفصيله يحتاج إلى مجلدات إذ هو زبدة الشرائع والمقصود بالذات منها اما إصلاح المجتمع وانتظامه بأسره فلدى الاستقراء وجد في ستة أشياء (١) دين متبع (٢) سلطان قاهر

(٣) عدل شامل (٤) أمن عام (٥) خصب دائم (٦) أمل فسيح أولها الدين الحقيقي لأنه يصرف النفوس عن شهواتها ويعطف القلوب عن إرادتها حتى يصير زاجراً للضمائر رقيباً على النفوس . وهذه الصفات لا يتوصل اليها بغير الدين ولا تعيش أمة عزيزة كريمة بغير آداب ولا فضائل ولا يمكن أن تبنى الفضائل على غير قواعد الدين فالدين هو مقلل الشرور وأقوى روابط الاجتماع التي قيل أنها الدين واللغة والوطن والنسب وأنا أزيد عليها المشاكلة في الطباع فلا يصحب الانسان إلا شبيهه وإن لم يكونا من قبيل ولا بلد لكن تلك الروابط لاتنتظم بدونه وهو أقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها وأجدى الأمور نفعاً في انتظامها وسلامتها ولذلك لم يخل الله تعالى خلقه منذ فطرهم عقلاء من تكاليف شرعي واعتقاد ديني ينقادون لحكمه حتى لا تختلف بهم الآراء وتتصرف بهم الأهواء ومن هنا قيل وهو الصحيح ان الحسن ما حسنته الشرائع والقبيح ما قبحته خلافاً لمن حكّم العقل في التحسين والتقبيح .

نعم ان العقول قد تقضي بأشياء حسنة غير انها لا تهتدي لمعرفة الحسن حقيقة بدون شريعة الا مصادفة والغالب أن ما يأتي به من عندها لا يجمع عليه نظراً لتفاوت العقول واعجاب كل امرىء برأيه فقد روى التاريخ أن شون أحد ملوك الصين الذي كان في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد وضع لأمته خمس قواعد تتضمن الواجبات المتعينة على كل من الآباء والأبناء والملك والرعايا والشيوخ والشبان والزوج والزوجة والصديق وصديقه ولم يبين لنا التاريخ تفصيل ذلك وكيفما كان الحال فلا بد أن يكون في بعضها مخالفة للشرائع فان من المعمول به عندهم للآن أنه إذا مات أحد الزوجين ألحق به الآخر حرقاً حتى لا يفترقا . ثم وجد في تلك الأمة كونفوشيوس الحكيم سنة ١٧٦٦ قبل الميلاد فجعل النواميس الأساسية ثلاثة وقال انها التي تقوم عليها الصلات بين الحاكم والرعية

والأب والابن والرجل والمرأة وقال ان الفضائل الأصلية خمس وهي محبة الانسان لابناء جنسه بدون تميز بينهم والعدل أي إعطاء كل ذي حق حقه بلا تفضيل لأحد على آخر والمحافظة على العادات التي رسخت والأديان التي أمرنا بها حتى لا تكون للأمة إلا حالة معاشية واحدة يستوي الناس في التمتع بحسناتها ويتشاطرون سيئاتها ونكدها والاستقامة وفسرها بطلب الحقيقة بلا تضليل ولا خداع والصدق وفسره بالاستقامة في السلوك والخطاب اهـ .

فانت ترى أن حكمه بأن تكون للأمة حالة معايشية واحدة مع خروجه عن دائرة الامكان مخالف لكل الشرائع فان اختلاف المعيشة أمر لا بد منه بمقتضى نظام الكون إذ هو من أدل الدلائل على قدرة الخالق الحكيم وقد ورد في القرآن (نحن قسمنا بينهم معيشتهم وفضل بعضكم على بعض في الرزق) ولم تزل تعاليم هذا الحكيم إلى الآن حية بين قومه وعليها مدار نظامات الصين لا بد لكل طالب علم عندهم أن يستظهرها لينال في الامتحان الشهادة التي تخوله حق الدخول في الوظائف فياحبذا لو نقتدي بهم الآن في جعل الاخلاق علماً وعملاً من شروط نيل الوظائف . ثم انظروا حفظكم الله الى شرائع مانو الهندي الذي يعتقد فيه الهنود انه الأب العام للبشر وهي منظومة في ٥٣٧٠ بيتاً من الشعر تنقسم إلى ١٢ باباً تحتوي على عدة أشياء منها المبادىء التي يجب أن يجري عليها الفرد والأسرة والمدينة وواجبات الأمراء وأهل كل من الطبقات المختلفة والنظام المدني والعسكري ولخص ذلك كله بقاعدتين احداها تقضي على الأمة بخضوع طبقاتها بعضها لبعض وثانيتها تقضي على الفرد بالطهارة الحسية والمعنوية ، وجعل الأمة أربع طبقات الكهان والعسكر والفلاحون مع التجار والمحترفون مع الأسرى والمغلوبين وجعل السيادة للطبقات الثلاث

الاولى فيحظر عليها مصاهرة الطبقة الرابعة ثم وجد في القرن السادس قبل الميلاد رجل يدعى سا كيموني ويلقب بيوذا فنقض هذا الاساس وجاهر بأن الناس أمام الشرائع الادبية متساوون وأن الفضيلة ما يفعله الانسان من خير لا ما يقوم به من الشعائر الدينية وأن كل امرىء من أي طبقة كانت يحصل بتقواه وفضله على النجاة وأن للانسان مكملات ستاً وهي العلم وقوة العزيمة على مقاومة الشهوات والطهـــارة وحب الناس والصبر والبر . اه . فانظروا كيف خالف هذا من قبله لتفاوت عقل الرجلين أما الشرع فلكونه وضعاً إلهياً يكون نظامه مطرداً مقبولاً والدليل أيضاً على ما قدمناه ما كان عليه الفلاسفة الاقدمون الذين زعموا أن الرياضة توصل إلى درجة النبوة وأن النبوة مكتسبة من الاخلاق السافلة التي ينفر منها الطبع السليم فان منهم طائفة تسمى الكلبية رئيسها انتشيونس ثم تلميذة ديوجانس كانت ترى حب أقاربها واخوانها وبغض غيرهم من سائر الناس وترى النغوط في الطرقات بلا ستار فلقبهم الناس بالكلبيين لان خلقهم خلق الكلاب . ومن آراء ديوجانس انه إذا احتاج الانسان إلى شيء وأخذه فلا تثريب عليه وكان يرى أن الحياء من ضعف النفس ولذا كان لا يستحي من فعل قبيح الاشياء أمام الناس .

هذه الامم الثلاث الصين والهند واليونان العريقة في الوجود وهذه قوانينها التي لم تستند إلى شرع سماوي ولو أردنا تعداد آراء الفلاسفة الذين لم يأخذوا العلم والمدنية من طريق الدين لضاق بنا المجال ويكفي أن منهم الدهريين الذين لم تهدهم عقولهم الى معرفة الصـــانع ووجوده فجحدوه والطبيعيين الذين بحثوا عن أفعال الطبائع وانفعالاتها وما صدر عن تفاعلها من المواليد الثلاثة الحيوان والنبات والجماد فحصل من هذا أن العقل وحده غير كاف في الوصول الى معرفة الحسن والقبيح بل لا بد له من دين يعدل

سيره أما كيفية تعليم الدين الصحيح الذي لبابه الأخلاق الفاضلة فهي عقدة العقد وبها صلح ما صلح ، وفسد ما فسد إذ هي الأساس لما نحن بصدده فان كثيراً ممن تصدى لذلك أفسد أكثر مما أصلح وذلك لسببين أولها أنه ادخل في الدين ما ليس منه مما لا يثبت على محك الانتقاد من خرافات لا يقبلها العقل ولا يؤيدها صحيح النقل فكانت في دماغ مبتدعها ذرة صغيرة ولما انتقلت الى فضاء أرض المتعلم الساذج باضت وفرخت وهكذا يزداد نتاجها كلما زرعت في محل فيه قابلية لنمو الترهات ثم انه موه على العامة بتخشع كاذب وورع مصنوع حتى اعتقدت حجية قوله وهيهات من أوتي سحر هاروت وماروت أن يزيل ما علق بأذهانهم من خزعبلاته وهنا يجب أن نبين بقليل من الايضاح فساد حال من هـذه حاله ، ان من ظن الزهد التمنع عن أكل المشتهى اللذيذ الحلال فقد تنطع لأن الله تعالى خاطب المؤمنين بما خاطب به المرسلين فقال (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) وقال (يا أيها الذين آمنوا كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) والطيبات هي الحلال . وأصرح من ذلك قوله تعالى (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) فمن فعل ذلك معتقداً أنه من الدين فقد ضل وأضل وبعضهم يلبس لباساً ذرياً تقشفاً ويتخشع في مشيته تصنعاً مع أن النبي ﷺ كان يمشي كمن ينحط من صبب (أي علو) ورأت عائشة رجلاً متصفاً بهذه الصفة فقالت ما هذا استهجاناً لحالته فقيل لها هذا زاهد فقالت سبحان الله أهو أزهد من عمر وكان إذا مشى أسرع وإذا ضرب أوجع .

والسبب الثاني عدم تمكنه في العلم فيتصدى للتعليم الذي يحتاجه هو ويتزيا بزي من تزويق لباسه وإتقان هندامه ظناً منه ان العلم عبارة عن ذلك ولم يعلم أن العلم الناقص شر من الجهل التام لأنه يدعوا صاحبه

إلى أن يفتي بغير علم حذراً من أن يقال عنه أنه جاهل وربما حابى الأمراء أو الأغنياء فأفتاهم بما يشتهون مما لا يعرفه الدين إذ لم يكن عالماً حقاً حتى يردعه علمه عن زخرف القول ومنكره وهناك سبب آخر وهو عدم العمل بمقتضيات الدين فالعمل في المعلم من موجبات تأثير العلم في المتعلم وقد قيل الواعظ من يعظ بفعله لا بقوله فمتى انتفت هذه الأسباب حصلت ثمرة التعليم وهي الأخلاق الفاضلة وتتأصل في النفس فتكون زاجراً قوياً لها عن ارتكاب ما لا يليق وهذا الزاجر هو المراد بقول من قال :

لا ترجع الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

وإنما كان التلقين بهذه المثابة من الأهمية لأنه الأكسير الذي تنقلب به الأعيان وتتحول به الأحوال لأن الأفعال دائماً آثار الأفكار والأفكار دائماً آثار الكلام فالكلام الواصل الى النفوس إن كان خيراً كانت الأفكار خيراً فكانت الأفعال خيراً وبالعكس ، فالكلام هو الأصل في الأشياء ومبدؤها وهو الذي يأخذ القلوب يميناً وشمالاً . وإني لأعجب ممن قال أن الأخلاق لا تتغير والواقع يدل على خلافه لأننا نشاهد الحيوان الوحشي يخرج عن طبعه بالتهذيب فهذا البازي يصير طوع الانسان يأمره فيؤتمر وينهاه فينتهي وهكذا الفرس الجموح أو الحرون تتبدل صفاتها بالمعالجة ولولا أن ذلك حاصل لما أرسل الله الرسل بالشرائع فيها الأمر بالحسن والنهي عن القبيح وترتيب الثواب والعقاب على الأخلاق حسناً وقبيحاً .

ويا حبذا لو اعتنى اولوا الأمر بمنع دجالي هذه الصنعة أشد من اهتمامهم بمنع الطرقية من دجالي الطب فالضرر هنا أشد لأن طبيب الأجسام الجاهل ربما ساعدته المصادفة على شفاء من يطببه أما طبيب العقول فلا شبهة في أنه يودي بحياة مريضه الأدبية ويوصله إلى شقاء دائم في الآخرة .

والثاني من الستة التي بها صلاح المجتمع الانساني سلطان أو ذو سلطة قاهر تتألف من خوفه الأهواء المختلفة وتجتمع لهيبته القلوب المتفرقة وتنكف بسطوته الأيدي المتغالبة وتمتنع من خوفه النفوس العادية لأن في طباع الناس من حب المغالبة على ما أحبوه والقهر لمن عاندوه ما لا ينفكون عنه إلا بمانع قوي ورادع ذي سطوة وهو الذي يحمي الدين والعلم ويدعو بسطوته إلى اتباعها ولذلك قيل ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن وقال تعالى (لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله) فهو القائم على صون الأخلاق أن تفسد والمحافظة على صلاحها .

والثالث من الستة عدل شامل يدعو إلى الالفة ويبعث على الطاعة وتمو به الأموال ويكثر به النسل ويعم به الأمن الممالك والمملوك فقد قال الهرمزان لعمر بن الخطاب لما رآه نائماً في المسجد بلا غطاء ولا وطاء فضلاً عن الحرس والحجاب : عدلت فأمنت فنمت . وأمهات العدل ثلاث عدل الرئيس مع من في حوزته ويكون بعدم إعناتهم وترك التسلط عليهم بالقوة وعدل الانسان مع من فوقه كالرعية مع حاكمها والمرؤوس مع رئيسه وهو يكون بإخلاص الطاعة وبذل النصرة وصدق الولاء وعدل الانسان مع أكفائه ويكون بترك الاستطالة عنهم ومجانبة الادلال وكف الأذى فهذه الأمور إن لم تكن في الأكفاء تقاطعوا تقاطع الأعداء ففسدوا وأفسدوا والعدل لازم للانسان أيضاً في نفسه بان يحافظ على صحته بعدم تعاطي ما يضعفها ويعمل صالحاً حتى لا يكون معذباً في الآخرة ومن حملها شيئاً من الجرائم فقد ظلمها إذ سبب لها العذاب في الآخرة وفي عائلته بأن يقوم لها بما كلفته به الشرائع من سد حاجاتها وأن يسوي بين أفرادها في المعاملة ، ألا ترون قول النبي ﷺ (إن الله يأمركم أن تعدلوا بين أولادكم حتى في القبل) بل العدل لازم في كل أسباب المعيشة التي هي الصناعة والزراعة والتجارة والامارة الذي منه الرفق

بالحيوان الأعجم ولو أردنا بيان كيفية العدل فيها لما اتسع له الوقت وأجمع شيء في تعريف العدل هو أن ينصف الناس من نفسه فلا يفعل معهم إلا ما يحب أن يفعلوا معه ومن العدل أيضاً معرفة الحق لأهله فان دعوى كل انسان ما ليس فيه يفسد نظام المجتمع أعظم فساد ومن تعاطى صنعة لا يتقنها أو تقلد وظيفة لا يحسن القيام بها أو لم يعرف لذي الفضل فضله ولم يحله في المنزلة التي يستحقها وأخذ في انتقاصه أو ادعى انه أحق بشيء من صاحبه كان جاهلاً أو حاسداً أو غاشاً وكلها من دواعي الفساد . وفي الحديث (اذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة) قيل وكيف اضاعتها قال بتوسيد الأمر إلى غير أهله . وسأل رجل علي ابن أبي طالب رضي الله عنه لم انتقضت الأمة عليك ولم تنتقض على أبي بكر وعمر فقال له لما كنت أنا من رعيتهم انتظم الأمر ولما صرت أنت وأمثالك من رعيتي صار الأمر إلى ما تقول أي ان علياً ومن كان معه زمن إمارة الخليفتين كانوا يعرفون حق العمرين أما رعية علي فكان فيهم من لم يعترف له بالحق فلهذا انتقض أمر الأمة ووقع ذلك البلاء العظيم ويتعلق بالعدل أيضاً أمور خاصة يكون العدل فيها بالتوسط في حالتي التقصير والسرف لأن العدل مأخوذ من الاعتدال فما جاوزه فهو خروج عن العدل وذلك كما في الفضائل فانها هيئات بين خلتين ناقصتين وأفعال الخير توسط بين رذيلتين كالشجاعة فانها بين التهور والجبن والحلم فانه بين إفراط الغضب وعدمه كما أوضح ذلك علماء تربية النفس مما ليس هذا موضعه .

والرابع من الستة أمن عام تطمئن اليه النفوس وتنتشر فيه الهمم ويسكن اليه البريء ويأنس به الضعيف .

والخامس خصب تتسع به النفوس ويشترك فيه الغني والفقير فيقل فيهم الحسد وينتفي عنهم التباغض وتكثر المواساة والتواصل لأن الخصب يؤول

إلى الغنى والغنى يورث الأمانة والسخاء ان اقترن بعلم يهذب صاحبه ويعرف به مضار المال الذي لم يكتسب من حله ولم يؤد منه حق الله هكذا عد هذين الاثنين أعني الأمن والخصب بانفرادهما من أسباب صلاح المجتمع من تكلم في نظام المجتمع وأنا أرى أنهما ثمرة العدل ونتيجته فلا لزوم لعدهما سببين .

والسادس أمل فسيح يدعو الانسان إلى اقتناء ما يقصر العمر عن استيعابه فلولا أن الأخير ينتفع بما أنشأه الأول حتى يستغني به لافتقر أهل كل عصر إلى إنشاء ما يحتاجون اليه من منازل السكنى وغيرها من أراضي الحرث وأشجار الثمر وذلك لا تتسع له أعمارهم فلذلك منّ الله على خلقه باتساع الآمال فعمرت به الدنيا وعم صلاحها وصارت تنتقل بعمرانها إلى قرن بعد قرن فيتمم الثاني ما أبقاه الأول من عمارتها ويرم الثالث ما أحدثه الثاني من شعثها لتكون أحوالها مدى الأعصار ملتئمة وأمورها منتظمة ولو كانت الآمال قصيرة ما تجاوز الواحد حاجة يومه ولا تعدى الضروري لوقته ولكانت تنتقل إلى من بعده بأسوء حال حتى لا ينمو فيها نبت ولا يمكن فيها لبث فعلى الناس جميعاً أن يتساندوا في نفع بعضهم بعضاً والسعي في استجلاب الخيرات ودفع المضرات كل على مقدار طاقته فالخلق عيال الله وأحب خلقه اليه أنفعهم لعباده وخير الناس أنفعهم للناس وقد ظن بعض من ران على قلبه الجهل أن الانزواء عن الخلق أسلم لدينه مع كونه قادراً على الاختلاط بهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وحسب ذلك يعود عليه بالثواب الجزيل ومن كان كذلك فهو كَلٌّ على الهيئة الاجتماعية وعضو أشل فيها أيظن هذا وأمثاله ان عمل الصالحات المأمور به في الكتب السماوية هو عبارة عن الصوم والصلاة فقط كلا بل العمل الصالح أعم من ذلك يبتدىء بإماطة الأذى عن الطريق وسقي الماء

ولو على الماء ونطارة البساتين ورعي المواشي ويترقى إلى فك الأسير وإغاثة الملهوف والاعانة بالنفس والمال وكل عمل تعدى نفعه فهو أفضل من عمل المرء لنفسه ودليل هذا ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه ذكر عند النبي ﷺ رجل فقالوا يا رسول الله خرج معنا حاجاً فكنا إذا نزلنا منزلاً لم يزل يصلي حتى نرحل فاذا ارتحلنا لم يزل يذكر الله حتى ننزل فقال ﷺ فمن كان يكفيه علف ناقته وصنع طعامه قالوا كلنا يارسول الله قال كلكم خير منه .

والخلاصة ان كل من عرف شيئاً فيه نفع للهيئة الاجتماعية مادياً أو أدبياً وجب عليه استعماله في ذلك بنصح وإخلاص ومن لم يفعل فقد خان النوع الانساني بل الدنيا بأسرها لأنه انتفع بالمأكل والملبس والمسكن ولم يؤد عن ذلك عوضاً .

على أن التوغل في العبادة وترك التعرض للتجارب يورثان البله كما قال الجاحظ فقد كان عامر بن عبدالله بن الزبير من المتوغلين فيها فأتاه يوماً عطاؤه وهو في المسجد فقام إلى منزله ونسيه فلما صار الى منزله وذكره بعث رسولاً ليأتيه به فقال له وأين نجد ذلك المال بعد أن تركته فقال سبحان الله أو يأخذ أحد ما ليس له . وسرقت مرة نعله فلم يتخذ نعلا حتى مات وقال أكره أن أتخذ نعلاً فلعل رجلاً يسرقها فيأثم وقال الجاحظ ان الخلفاء والائمة أفضل من الرعية وعامة الحكام أفضل من المحكوم عليهم ولهم لأنهم أقوم بالحقوق وأرد على الناس وعليهم بهذا أفضل من عبادة العباد لان نفع هؤلاء لا يعدو قمم رؤوسهم ونفع اولئك يخص ويعم والعبادة لا تورث البله إلا لمن أكثر الوحدة وترك معاملة الناس ومجالسة أهل المعرفة فمن هناك صاروا بلهاً حتى صار لا يجيء من أعبدهم حاكم ولا إمام .

وأما ما يصلح به حال الانسان وحده فثلاثة أشياء (١) نفس مطيعة

تأمر بالرشد وتنتهي عن الغيّ (٢) والفة جامعة تنعطف عليها القلوب ويندفع بها المكروه وكفايه من العيش تسكن نفس الانسان اليها ويستقيم اوده بها . فأما الأولى وهي النفس المطيعة فانها إذا أطاعته ملكها واذا عصته ملكته فأهلكته لأنها كما قال تعالى (أمارة بالسوء) ولسنا الآن بصدد بيان وصول النفس إلى تلك الرتبة العلية فانه علم تكلفت ببيانه الشرائع وأفرد بالتأليف .

وأما الثانية وهي الألفة الجامعة فلأن الانسان مقصود بالأذية محسود بالنعمة فاذا لم يكن آلفاً مألوفاً تخطفته أيدي الحاسدين وتحكمت فيه أهواء الأعداء وإذا كان مألوفاً انتصر بالألفة على أعاديه وامتنع من حاسديه ولذلك قيل المرء كثير بأخيه وقال قيس بن عاصم :

ان القداح اذا اجتمعن فرامها بالكسر ذو حنق وبطش أيّد

عزت فلم تكسر وان هي بددت فالوهن والتكسير للمتبدد

ولهذا قيل ان الله مع الجماعة أو يد الله أو قدرته مع الجماعة ومن كان الله معه فلا يعجزه شيء ألم تروا أن جماعة تضامنت بالمعاونة فقاومت الجبال الشم بهممها وجعلت البحر براً مع بعد غوره وطوت السنين في أيام معدودة وأفهمت من في المشرق كلام من في المغرب فكم في الجماعة من نفق فتح وجدول أسيل وسدّ نصب وطريق حديد مدّ وخط برقي سحب كل ذلك بفضل الجماعة التي دربها العلم فعلها الجد في خدمة المجتمع الانساني ولو كان علم الشرقيين تاماً لما تركوا غيرهم يسبقهم إلى تلك الخدمة الجليلة التي عززت منافعها الأدبية والمادية والأسف كل الأسف على هذه الحال فان مثلنا كرجل خزائنه مملوءة بالنقود ولا ينتفع بها ويرى غيره يفتحها ويصرف منها وهو ساكن ساكت وإذا كانت الالفة تجمع الشمل وتمنع الذل اقتضى الحال ذكر أسبابها وهي خمسة (١) الدين (٢) النسب أي القرابة (٣) المصاهرة (٤) المودة (٥) البر . أما الدين وهو الأول من أسباب الالفة فلأنه يبعث على التناصر ويمنع من التقاطع

والتدابر . واما النسب ثانيها فلأن تعاطف الارحام وحمية القرابة يبعثان على التناصر والالفة ويمنعان من التخاذل والفرقة انفة من استعلاء الاباعد على الاقارب وتوقياً من تسلطهم عليهم وللنسب درجات تتفاوت الحمية فيها فدرجة الابوة اشد عطفاً من درجة البنوة والعصبات اعظم انفة وغيرة من ذوي الارحام والتوسع في بيان ذلك يخرجنا عن الايجاز المطلوب . واما المصاهرة ثالثها فلانها مواصلة صدرت عن رغبة واختيار وانعقدت على خير وايثار فاجتمع فيها اسباب الالفة ومواد المناصرة . واما المؤاخاة بالمودة رابعها فلانها تكسب بصادق الميل اخلاصاً ومصافاة فيحدث بذلك وفاء ومحاماة وهذا اعلى مراتب الالفة ولذلك آخى رسول الله ﷺ بين اصحابه لتزيد الفتهم ويقوى تظافرهم وتناصرهم وهنا كان يجب ان ننبه على شروط الاخاء وحقوقه لو كان في الوقت متسع . واما البر خامسها فلانه يوصل الى القلوب محبة ويثنيها انعطافاً فكم من عدو صار بالاحسان اليه صديقاً ولذلك ندب الله تعالى الى التعاون عليه وقرنه بتقواه فقال تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) لان في التقوى رضاء الله تعالى وفي البر رضاء الناس ومن جمع بينها فقد تمت سعادته وعمت نعمته . ثم ان البر نوعان جود ومعروف فالجود بذل المال في الجهات المحمودة لغير غرض مطلوب والباعث عليه سماحة النفس وسخاؤها ويمنع منه شحها واباؤها وحد السخاء بذل ما يحتاج اليه عند الحاجة وان يوصل الى مستحقه بقدر الطاقة . واما قول من قال الجود بذل الموجود فجهل بحدود الفضائل ولو كان الجود بذل الموجود لما كان للسرف وجود ولا للتبذير موضع وقد ورد الكتاب بذمها واذا كان السخاء محدوداً كما ذكرنا فمن وقف على حده سمي كريماً ومن قصر عنه كان بخيلا .

واما المعروف فنوعان ايضاً قول وعمل اما القول فهو طيب الكلام وحسن البشر والتودد بجميل القول قال عمر بن الخطاب يخاطب احد بنيه : بني ان البر شيء هين وجه طليق وكلام لين . ويجب ايضاً ان يكون محدوداً كالسخاء فانه ان اسرف فيه كان ملقاً مذموماً وان توسط

فيه كان معروفاً وبراً محموداً واما العمل فهو بذل الجاه والاسعاد بالنفس والمال بالمعونة في النائبة وهذا يبعث عليه حب الخير للناس وايثار الصلاح لهم وليس في هذه الامور سرف ولا لغايتها حد .

واما الكفاية وهي في آخر القواعد فلأن حاجة الانسان لا يعرى منها بشر واذا عدم المادة التي هي قوام نفسه لم تدم له حياة ولم تستقم له دنيا واذا تعذر عليه شيء منها لحقه من الوهن في نفسه والاختلال في دنياه بقدر ما تعذر عليه منها لان كل قائم بغيره يكمل بكماله ويختل باختلاله . ثم لما كانت مادة الكفاية مطلوبة لاحتياج الكل اليها فقدت من غير طلب وعدمت من غير سبب واسباب المحبة مختلفة وجهات المكاسب متشعبة ليكون اختلاف اسبابها علة للائتلاف في تحصيلها وتشعب جهاتها توسعة لطلابها حتى لا يجتمعوا على سبب واحد فلا يأتلفون ويشتركوا في جهة واحدة فلا يكتفون . ثم هداهم اليها بعقولهم واميالهم حتى لا يتكلفوا الائتلاف في المعايش المختلفة فيعجزوا . ثم ان الله تعالى جلت قدرته جعل سد حاجتهم وتوصلهم الى منافعهم من وجهين : بمادة وكسب . اما المادة فهي حادثة عن اقتناء اصول نامية بذواتها وهي شيئان : نبت نام وحيوان متناسل واما الكسب فيكون بالافعال الموصلة الى المادة والتصرف المؤدي الى الحاجة وذلك من وجهين تقلب في تجارة وتصرف في صناعة فصارت اسباب المواد المألوفة وجهات المكاسب المعروفة من اربعة اوجه نماء زراعة ونتاج حيوان وربح تجارة وكسب صناعة فمن خرج عنها كان كَلاًّ على اربابها .

اما الزراعة فهي مادة اهل الحضر وسكان الامصار والاستمداد فيها اعم نفعاً ولذلك ضرب الله تعالى به المثل فقال (مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة) وقال ﷺ : (التمسوا الرزق في خبايا الارض) وقال كسرى للموبذ ما قيمة تاجي هذا فاطرق ساعة ثم قال ما اعرف له قيمة الا ان تكون مطرة في نيسان . واختلف الناس في تفضيل الزرع او الشجر بما

لا يتسع الوقت لذكره . والثاني من اسباب الكفاية نتاج الحيوان وهو مادة اهل الفلوات وسكان الخيام لأنهم لما لم تستقر بهم دار افتقروا الى الاموال المتنقلة معهم وما لا ينقطع نماؤه بالظعن والرحلة فاقتنوا ما يستقل في النقلة بنفسه ويستغني عن العلوفة برعيه وهو الحيوان ثم هو مركوب ومحلوب فكان اقتناؤه على أهل الخيام ايسر لقلة مؤنته وتسهيل الكلفة به وجدواه عليهم اكثر بنسله ورسله الهاماً من الله تعالى لخلقه في تعديل المصالح فيهم وارشاداً لعباده في قسمة المنافع بينهم . واما التجارة فهي فرع لمادتي الزرع والنتاج وهي نوعان تقلب في الحضر من غير نقلة ولا سفر والثاني تقلب بالمال في الاسفار والاول قناعة واختصار والثاني اعم جدوى غير انه اعظم خطراً واما الصناعة فقد تتعلق بما مضى من الاسباب الثلاثة وتنقسم الى ثلاثة اقسام : صناعة فكر وصناعة عمل وصناعة مشتركة بين الفكر والعمل . اما صناعة الفكر فتنقسم الى قسمين احدهما ما وقف على التدبيرات الصادرة عن نتائج الآراء الصحيحة كسياسة الناس وتدبير البلاد وهي الامارة والثاني ما ادت الى المعلومات الحادثة عن الافكار النظرية وهذه هي الوظائف التي يقوم بها اولوا العلم كالقضاة والاطباء وغيرهم .

واما صناعة العمل فتنقسم قسمين ايضاً عمل صناعي وعمل بهيمي والعمل الصناعي اعلاها رتبة لانه يحتاج الى معاناة في تعلمه وتصوره فصار بهذه النسبة من المعلومات الفكرية . والآخر انما هو صناعة كد وآلة مهنة كذوي صنعة الحالة واستخراج الحجارة واما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل فتنقسم قسمين ايضاً احدهما ما تكون صناعة الفكر فيه اغلب والعمل تبعاً كالكتابة . والثاني ان تكون صناعة العمل اغلب والفكر تبعاً كالبناء فهذه احوال الخلق التي ركبهم الله تعالى عليها في ارتياد مواردهم ووكلهم الى نظرهم في طلب مكاسبهم وفرق بين هممهم في التماسهم ليكون ذلك سبباً لائتلافهم فسبحان من تفرد بلطيف حكمته واظهر فطننا بعزائم قدرته هذا واني وان اطلت فقد بقي من متممات هذا البحث شيء كثير ربما اعود اليه اذا عادت لي النوبة في هذا الموقف والسلام عليكم .

دمشق : تموز سنة ١٩٢١ .

اعراس الخليفة المأمون

« ببوران بنت الحسن سنة ٢١٠ هـ »

للاستاذ فطاكي الحمصي

ايها السادة :

نستأذنكم في بيانٍ لا بد منه . نجعله تمهيداً للوصول الى ليلة العرس وهو ينطوي على التعريف بالعريس ، وقد لا يوجد بيننا من يجهل صاحب هذا الاسم العظيم ، الا ان في تعريفنا فائدةً وفكاهةً غير خارجتين عن موضوع محاضرتنا .

وفي علمكم ان الدخول على العظماء من السلاطين والامراء ، لم يكن مباحاً الا بعد الاستئذان ، وانتظار الايام الطوال . لصدور الاوامر الملوكية ، ثم لا يتم ذلك الا بعد المرور في الساباطات والاقباء . ودخول القصور والتقدم في متعدّد الأفنيـــة والردْاه والأبهاء ، الى ان يُبشر بالوصول الى بهو السُدَّة ، ومعاينة صاحب السرير ، ونحن سنسير على هذا النحو ، فننتقل من تعريف الى تعريف ، حتى نصل الى وصف ذلك العرس الشريف .

اما المدة او المسافة التي بيننا وبين ليلة العرس فهي الف سنة ومئة واحدى وثلاثون سنة وهي مسافة شاسعة لا يمكن قطعها في ليلة واحدة ، بل لا بد لنا من تجاوز هذه المدة ايضاً الى ما قبلها بمئتين واربع عشرة سنة ، فتكون جملة المسافة التي نجتازها للوصول

الى بدء تاريخنا ، الفاً وثلاثمائة واحدى وستين سنة .

ولا يهولنكم قطع هذه المسافة الشاسعة ، فاننا في عصر الكهرباء ، وسنجاري الكهرباء بسرعتها ، فنقطع كل سنة بثانيتين .

للأمم وملوكها ودولها تواريخ مجهولة ، وتواريخ معلومة ، اما المجهولة فهي المدد التي عاشت فيها تلك الامة دون دول وملوك ، وكانت في حالة الهمجية واما تواريخها المعلومة ، فالقديمة منها ما وصلت الينا أخبارها وشاهدنا بعض آثارها ، كالدول المصرية القديمة . واليهودية . والكلدان . والآشوريين والحثيين . وفارس . واليونان والرومان . وكثير غيرها ، وكلها قد باد ملكها وزالت دولها ، وتشعبت شعوبها او انقرضت وضاعت لغات اكثرها حتى لم يبق على وجه الارض فرد ينطق بها أو يقرأ كتابتها او يحل رموزها ، ولا يُستثنى من مئات تلك الامم ، الا امة واحدة ، هي الامة العربية ، أمتكم .

« الامة العربية »

هذه الأمة أقدم الأمم من بعد قوم نوح ، وأعظمهم قدرة وأشدهم قوة . وآثاراً في الارض ، واول أجيال العرب من الخليقة ، وكان لهم ملوك ودول في جزيرة العرب ، وامتد ملكهم الى الشام ومصر وقيل ان فراعنة مصر منهم ، ويقال انهم انتقلوا الى جزيرة العرب من بابل لما زاحمهم فيها بنو حام ، ثم كان لكل فرقة منهم ملوك وحصون وقصور وابنية مرتفعة ، وكانت مواطنهم بين اليمن وعُمان الى حضرموتَ والشّحْر ، وقوم منهم العماليق اختطوا يثرب ، ومن العرب بنو ثمود وكانت ديارهم بين الحجاز والشام وكانوا ينحتون بيوتهم في الجبال ، وهؤلاء كلهم يسمون العرب العاربة او العرب البائدة لطموس اخبارهم وبُعْد تواريخهم وهم الطبقة الاولى من هذه الامة .

اما الطبقة الثانية منها وتسمى العرب المستعربة ، فأشهر ملوكها يعرب ابن قحطان واشهر شعوبها حمير وكهلان .

واما الطبقة الثالثة فتسمى العرب التابعة للعرب وهم من البادية اهل الخيام لم يزالوا من أعظم أمم العالم واكثر أجيال الخليقة ، ينتهي اليهم العز والغلبة بالكثرة ، فيظفرون بالملك ، ويَغلبون على الاقاليم والأمصار ثم يهلكهم الترفه والتنعم فيُغلبون . وهذا كله ملخص عن ابن خلدون وهو من ثقات المؤرخين .

ولقّب العرب بعد الاسلام من كان قبلهم على أمتهم بالجاهلية ، اختصوا بذلك عبدة الاصنام والمشركين ، اذ انهم كانوا يعلمون ان قبائل خيبر يهودٌ عرب مثلهم ، وعرب الشام نصارى وكان لهم قبل ذلك ملك الحجاز وكلاهما اهل كتاب .

ولكن هذا اللقب لا يصدق ايضاً على عبدة الاصنام والمشركين من العرب اللهم الا من قبَل تمسكهم بعباداتهم بعد الاسلام ، او جهلهم الكتب المنزلة ، قال في كتاب موسوعات العلوم الكبيرة الفرنسوية ما تعريبه : ان هذا النعت لا يطابق الحقيقة ، اذ للبدو معرفة واسعة بالانساب وكل ما يتعلق بالتاريخ ، وكانوا يعرفون مراقبة سير النجوم ، بل فوق ذلك كله كانوا يقرضون الشعر المنتخل اللطيف ، وهو ما لا يتفق مع الخشونة التي ألصقوها بهم ، ثم انه وان كان الكلام عن عامة العرب ، فيجب أن لا يفوتنا ان العرب كانوا قسمين ، قسماً ظاعناً ، وقسماً مقيماً ، فالمقيمون منهم كانت لهم مدن في الامصار العربية ، وهؤلاء أدركوا شوطاً بعيداً من المعارف . انتهى كلام الموسوعات .

وان أمة بنت سد مأرب ، وقصر غمدان ، وضربت السكة ، ونقشت عليها صور ملوكها ، واخترعت الحروف الحميرية ، وكتبت وحفرت كتاباتها على الحجر وغيره ، وهي بين أيدينا بعد عشرين قرناً ، نقول ان

أمة كهذه قد اتقنت ولا ريب فن الهندسة وما يتعلق بها ، ورصدت النجوم ، وقرضت محاسن الأشعار ، وبرعت في غير ذلك من العلوم والصناعات ، لا تنكر عليها المدنية كما انكرها عليهم بعض علماء المشرقيات في الغرب ، ومنهم العلامة (پرو Preux) ، الا انه لم ينكر مدنية الشرق الاسلامي كما تغالى بعض متعصبي الفرنجة ، فأنكر الهندسة العربية ، والعربية الاسلامية وآثارها ماثلة للعيان في الاندلس وغيرها ، ولكن لا عبرة بقول من يجحد المنظورات ولله در القائل :

ويظهر الجهل بي وأعرفه والدرّ درٌّ برغم مَن جهلَه

هذه أيها السادة مقدمة إجمالية ، في اولية الامة العربية ، ولما كانت جميع الدول العربية السابقة الاسلام ، كالعيون بالنسبة الى الاوقيانوس ، او كالبروق في ظلمات الليالي ، بجانب الشمس المنيرة يجمل بنا ان ننظر في أولية الدول العربية ومنشئها :

خذ ما نظرت ودع شيئاً سمعت به في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل

« دولة الخلفاء الراشدين »

اول عظيم قام في العرب ، هو ولا ريب النبي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الى عبد مناف فما فوقه . ثم خلفه بعد وفاته ابو بكر الصديق ، ثم خلفه عمر ابن الخطاب ثم عثمان بن عفان ، ثم علي ابن ابي طالب وهذه هي الدولة العربية الاولى في التاريخ الاسلامي ، بَدؤُها منذ اعلان محمد نبوته ، وذلك لستمائة وعشرين سنة مسيحية اي بعد مولده الشريف باثنين واربعين او احدى واربعين سنة الى وفاة الامام علي مقتولاً وذلك سنة ٦٦٧ فتكون مدتها نحو سبع واربعين سنة . فتحت بها هذه الدولة البدوية ، اليمن والعراق والشام (اي سورية) بفلسطينها ، وممالك فارس وارمينية ومصر وطرابلس الغرب وبلاد اذربيجان وافريقية والاندلس وقبرس والافغان .

« بدء الدولة العربية الثانية دولة بني أمية »

في السنة الاربعين من الهجرة وهي السنة السابعة والستون بعد الستمائة للمسيح ، بويع بالخلافة في بيت المقدس اول من أسس دولة بني أمية وجعل سرير الخلافة في دمشق .

ومعاوية هو السلطان العظيم داهية رجال العرب معاويةُ بن ابي سفيان صخر بن حرب بن أمية الذي يُنسب اليه الأمويون ، مَلك ثماني عشرة سنة ، وكان في الحلم غاية لا تُدرك ، ومما يؤثر من كلامه قوله : اني لأرفع نفسي من ان يكون ذنبٌ أعظم من عفوي ، وجهلٌ اكبر من حلمي ، وعورةٌ لا أواريها بستري ، وإساءةٌ اكثر من احساني » وأغلظَ له القول رجل ، فقيل له : أتحلم عن هذا ؟ فقال اني لا احول بين الناس وألسنتهم ، ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا » .

وهو اول خليفة في الاسلام ، بايع ولده واكره الناس على مبايعته واولُ من استعمل الحجّاب على بابه من ملوك العرب ، واول من اتخذ منهم ديوان الخاتم وحزم الكتب اي ختمها .

ومن مُلح التاريخ ان عامله على مصر عمرو بن العاص أول ما قَدِم عليه في جماعة من اكابر مصر قال لهم عمروٌ قبل دخولهم على معاوية : لا تسلموا عليه بالخلافة — اي لا تقولوا له السلام على أمير المؤمنين — ذلك أهيب لكم في قلبه وصغّروا ما استطعتم وبلغ ذلك معاوية فاوصى حجابه ان يتعتعوهم اشد ما يكون قبل دخولهم عليه ، أي أن يسترهبوهم ويستنزلوا الرعب والخوف على قلوبهم فيتتعتعون ، اي يستولي عليهم العي والحصر فيترددون في كلامهم ، فقال اولهم عند دخولهم السلام عليك يا رسول الله وتتابع القوم على ذلك ، فلما خرجوا قال لهم عمرٌ لعنكم الله نهيتكم ان تسلموا عليه بالامارة فسلمتم عليه بالنبوءة .

وخلفه بعده ابنه يزيد ملك ثلاث سنين وتسعة اشهر واياماً . ثم ملك بعده ابنه معاوية الثاني أقام أربعين يوماً ومات . وتولى الخلافة بعده مروان ابن الحكم بن أمية وأقام عشرة اشهر وتوفي . ثم خلفه في الملك بعده

ابنه عبد الملك ، وكان من اعظم بني أمية بطشاً ، واوفرهم دهاءً ، واكثرهم حروباً ، واشدهم شجاعة وحزماً ، واغزرهم علماً وعقلاً ، وهو اول من ضرب الدنانير والدراهم في الدول العربية بعد الاسلام ، واول من نقل الديوان ، اي حسابات الدولة من الفارسية الى العربية ، واول من نهى عن الكلام في حضرة الخلفاء ، وكانت مدة ملكه عشرين سنة وخمسة اشهر ودفن بدمشق .

ثم خلفه ابنه الوليد ، وكانت مدة ملكه تسع سنين واربعة اشهر واياماً . ثم خلفه اخوه سليمان وملك سنتين وسبعة اشهر . ثم خلفه ابن عمه عمر بن عبد العزيز بن مروان ، ظلَّ سنتين واربعة اشهر ، ودفن بدير سمعان ، وبه وبعمر ابن الخطاب جرى المثل بعدل العمرين . ثم خلفه يزيد بن عبد الملك وأقام اربع سنين . ثم خلفه اخوه هشام وأقام تسعة عشرة سنة واياماً ودفن بالرصافه . ثم تولى بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك أقام سنةً وشهرين ونيفاً وقتل بدمشق . ثم تولى يزيد بن الوليد أقام خمسة اشهر واياماً . ثم خلفه ابراهيم بن الوليد أقام سبعين يوماً وخلع نفسه . فخلفه مروان الثاني أقام خمس سنين الا عشرين يوماً وكان شجاعاً حازماً ، الا ان ايامــه كانت ايام فتن وحروب ، قُتل بآخرها في كنيسة من بوصير بصعيد مصر ، وكان هارباً من وجه العباسيين ، وهو آخر خلفاء هذه الدولة ، وعدتهم اربعة عشر خليفة . بنوا المدن ، ومدنوا القبائل وغزوا وفتحوا ، وعمروا بلاداً عديدة ، ومدوا ملكهم الى الهنـد بآسيا ، والى صقلية اي سيسيليا باوربا ، والى اقاصي المعمور من افريقية في مدة تسعين سنة فقط .

« الدولة الثالثة وهي دولة العباسيين »

بُدئت بابي العباس الملقب بالسفاح لكثرة من قتل في اول دولته وسميت بالعباسية نسبة الى جد هذا البيت ، العباس من بنى هاشم ، وبنو هاشم

وبنو أمية ينتمون جميعاً الى عبد مناف ، وكلهم من قبائل قريش ، ويدعي الهاشميون الرئاسة وتعترف لهم بها قريش كلها الا ان بني أمية كانوا اكثر عدداً من بني هاشم ، والعزة بالاكثر ، ولهم قبيل الاسلام شرف معروف فوصل معاوية الى الخلافة بذلك ، وأسس قواعد الدولة الأموية ، فكان بين العباسيين وبين الأمويين منذ تبوأ معاوية الخلافة ، ما يكون بين بيوت الملك في الدول ، من التحاسد والتضاغن ، وكان العباسيون لا يفترون هم وقومهم من بني هاشم ، عن نصب المكائد ، وتسعير الفتن وايغار الصدور ، والطعن على اعمال الأمويين وعمالهم ، والادعاء عليهم باغتصاب الخلافة من بيتهم . وكان الأمويون يشدّدون على بني العباس وشيعتهم ، بين سجن وتعذيب وقتل كلما رابهم منهم مريب ، وكان بين البيتين من الوشاة والحساد والمفسدين ، ما يكون مثله في قصور الملوك ودور الامراء ، سنة في الخلق وخليقة من طبائع العمران .

ولم تعدم دولة الأمويين خلفاء يعدون من أعاظم ملوك الارض دهاء وتدبيراً وحزماً وعدلاً ، كعبد الملك بن مروان وابنيه الوليد وهشام وعمر بن عبد العزيز ، كما انها لم تخل من خلفاء أبطرهم الملك فأفسدوا وأساؤا كالوليد بن يزيد ، وكانت اتسعت فتوح الدولة الاموية وامتدّ ملكها امتداداً لا يصونه ، الا العدل والقوة والتدبير ودهاء السياسة . وكان دعاة بني العباس منذ زمن طويل قد انتشروا في الحجاز والعراق وبلاد فارس ، يبثون الدعوة للعباسيين ، ويفسدون على الأمويين اعمالهم ، ويطعنون فيهم وفي عمالهم حتى انحرفت عنهم اكثر قلوب الامة .

ولما استوثق السفاح من شيعته ، جاهر بدعوة الخلافة لنفسه ، فبايعه الناس بالكوفة وغيرها في السنة الثانية والثلاثين بعد المئة للهجرة ، وهي تقع في الخمسين بعد السبعمائة للمسيح ، وظلت خلافتهم في بغداد خمسمائة واربعاً وعشرين سنة ، تولاها سبعة وثلاثون منهم ، ثم انتقلت الى مصر وتولاها فيها ثلاثة عشر خليفة منهم ، خلافة لم يكن لهم منها غير الاسم .

أقام السفاح اربع سنوات وأشهراً وتوفي سنة ١٣٦ ثم خلفه اخوه ابو جعفر المنصور ، كان مهيباً شجاعاً يقظاً مدبراً عالماً فصيحاً ، داهيةً ظالماً بخيلا ، بنى مدينة بغداد ومهد اطراف ملكه الشاسع وترك عند موته خزينة الملك مملوءة من أموال الخراج والمظالم ما يكفي خلفه عشر سنين ، بعد أن أقام في الخلافة اثنتين وعشرين سنة وتوفي للثامنة والخمسين بعد المئة . ثم خلفه ابنه المهدي ملك تسع سنين وعشرة اشهر ، وكان حليماً كثير العفو عن المذنبين ، باهر الجمال ، توفي مسموماً على اصح الروايات للتاسعة والستين بعد المئة .

ثم خلفه ابنه موسى الهادي ملك سنة وثلاثة اشهر ، وكان جواداً فصيحاً عالماً مهيباً ، مات مسموماً في السبعين بعد المئة .

اما هرون الرشيد فهو ابعد ملوك الارض صيتاً ، وأعظمهم همةً ، واكثرهم غزواً ، وأوفرهم حباً للأدب والشعر ، وأشدهم كرماً ، كان داهيةً باحوال السياسة ، شديد البطش ، عالماً ناصراً للفنون ، شاعراً محباً للعمران والحضارة ، زين بغداد بالقصور المتعددة ، والمباني الفخمة ، والمصانع النافعة ، والمدارس والمساجد ، وبنى مدينتي الرقة والهارونية ، ولم تزل أطلال قصره وبعض جدرانه قائمة الى اليوم في الرقة . وقد شاهدتها وعدت عنها حزيناً .

ولم يسبقه احد من ملوك الارض بفرط تكريم العلماء والشعراء ولم يحاكه احد بوفور الانعام عليهم ، وكان موفقاً محظوظاً .

فقد ازدان ملكه بوزرائه بني برمك الذين كانوا من محاسن الدنيا عقلاً وحكمة ، وادباً وجوداً ، ثم نكبهم نكبة تناقلتها القرون ، لاستبدادهم بالملك والملك عقيم .

الا ان بعض مؤرخي الفرنج ـ ومتأخرهم ينقل عن متقدمهم ما يروونه

عن العرب دون تمحيص – لم ينصفوا الرشيد فأكثرهم يصفه انه كان أثراً ظالماً عتياً ، يستشهدون بإيقاعه بالبرامكة وبما حكاه القُصاص من العرب عن نكبتهم ، وما نكهنوه لها من الاسباب التي تخالف كل قياس منطقي ، وذلك نقلاً عن ألسنة العامة بعد وقوعها بزمن طويل . اذ اننا لم نجد مؤرخاً ثقةً نقل حقيقة السبب الذي حدا الرشيد الى ذلك القصاص الشديد بعد علو القدر وجلالة المنزلة التي كانت ليحيى البرمكي واولاده عنده ، وأحسن ما قرأته عن ذلك وأحسبه أقرب الى الحقيقة من كل ما روي ، ما ورد عن سعيد بن سالم وقد سئل عن جناية البرامكة فقال ما تحصيله : ان الرشيد رأى كثرة حمد الناس لهم ورميهم بآمالهم دونه . والملوك تتنافس بأقل من هذا ، الى ان قال ووقع منهم بعض الادلال خاصةً جعفر والفضل دون يحيى : فانه كان أحكم خبرةً وأكثر ممارسةً للامور ولاذ بالرشيد ، من اعدائهم كالفضل بن الربيع فستروا المحاسن وأظهروا القبائح .

هذا ما ظهر لهذا الرجل ، وما يدرينا ما ثبت عليهم عند الرشيد من الذنوب والجنايات ، كإصدار امرٍ او نهيٍ باسم الخليفة دون مشورته ، او استخفاف باوامره ونواهيه ، ولعل هذا كل السبب في ذلك كما يفهم من اطلاق جعفر ليحيى بن الحسين وكان خارجاً على الخلافة ، ولما سأله عند الرشيد أقسم له برأسه انه لم يزل محبوساً ، وكما يفهم من الابيات التي رفعت الى الخليفة وهي :

قل لأمين الله في ارضه	ومَن اليه الحلُّ والعقدُ
هذا ابن يحيي قد غدا مالكا	مثلك ما بينكما حدٌّ
امرك مردودٌ الى امره	وامره ليس له ردٌّ
وقد بنى الدار التي ما بنى	فرْسٌ لها مثلا ولا الهند
ونحن نخشى انه وارثٌ	ملكك ان غيّبك اللحد
ولن يباهي العبد أربابه	الا اذا ما بطِر العبدُ

ونحن نرى في هذه الحكاية ووراء هذا اللفظ يداً بل أيدياً عباسية وصدوراً مُلئت حقداً على جعفر وغيرةً منه ، ونفساً هاشمياً ، والناقد البصير يرى في صَلب جعفر وحبس ابيه وأخيه وسائر قرابتهم ، ما يؤكد ان ذلك القصاص الشديد كان قمعاً لفتنة كامنة ، وقطعاً لالسنة طاعنة ، وردعاً لكل استخفاف بسلطان الخلافة ، وقد حُظر على الناس التحدث بذلك يومئذ كما يفهم من قول الشاعر الرقاشي في رثاء البرامكة :

فلم ار قبل قتلك يا ابن يحيى	حساماً فلّه السيف الحسام
اما والله لولا خوفُ واشٍ	وعين للخليفـــة لا تنام
لطفنا حول جذعك واستلمنا	كما للناس بالحجر استلام

ووقع أمثال هـذه الحادثة بعدَها في كثير من دول الغرب ، ورأى غير واحد من مؤرخيهم عدالة ذلك القصاص في شرع السياسة . على ان أدقَّ من نظر من المؤرخين في هذه الحادثة نظراً سياسياً مطابقاً لعادات ذلك العصر وشؤونه ، ودحض هذر القصاص ، هو الفيلسوف ابن خلدون وبهذا كفاية للرد على أقوال بعض المؤرخين من الفرنجة وغيرهم .

ولنعد الى تتمة الكلام على هارون الرشيد فقـد تحلى بلاطه بعظماء الرجال من كل فن ، فمن أطبائه آل بختيشوع ، ومن شعرائه ، ابو نواس وابو العتاهية . ومسلم ابن الوليد . والعباس بن الاحنف وأضرابهم ، ومن القُصّاص الخليل بن احمد واضع العروض . والاصمعي ، ومن الندماء ابراهيم الموصلي . وزلزل . وابن جامع . وابن الزفّ وأضرابهم ، وقضاته ابو يوسف يعقوب الانصاري وابنه يوسف ، وابو البختري وهب القرشي وأمثالهم ، ومن العلماء سيبويه . وابن يونس ، ومن الائمة ابو حنيفة . والشافعي . والامام احمد بن حنبل . ملك اثنتين وعشرين سنة وسبعة اشهر شمسية وتوفي للسنة الثالثة والتسعين بعد المئة للهجرة في طوس ودفن بها . وأجمع المؤرخون على ان الرشيد ترك في بيت المال

تسعمائة الف الف دينار ، والدينار يساوي مثقالاً ذهباً او نحو ليرة فرنسوية ولعل الاصل تسعون الف الف اي تسعين مليوناً .

وقال ابن خلدون وهو ثقة : رأيت في بعض تواريخ الرشيد ان المحمول الى بيت المال في ايامه سبعة آلاف قنطار وخمسمائة قنطار في كل سنة انتهى قوله . والقنطار فيما ذهب اليه المحققون اربعة آلاف دينار ، فتكون جملة ذلك ثلاثين مليوناً من الدنانير ، وهو مبلغ لا يستكثره مَن وقف على سلطان الدولة العباسية . وقد كانت الدولتان العربيتان قبلها مهدتا لها الملك الشاسع ، فاستباحتا لها ملك فارس والروم اهل الدولتين العظيمتين في العالم لذلك العهد ، والترك بالمشرق حتى الصين ، والفرنجة والبربر بالمغرب ، والقوط (الكوت) بالاندلس ، وخطت جنود العرب من الحجاز الى السوس الاقصى ، ومن اليمن الى الترك باقصى الشمال واستولت على الاقاليم السبعة . وكانت لعهد الرشيد تحمل المكوس والضرائب والجزية والخراج الى بيت المال من الهند والصين ومصر وفارس وسورية وغيرها .

ثم خلفه ابنه محمد الامين أقام في الملك اربع سنين وخمسة اشهر او تزيد ، وكان شجاعاً اديباً شاعراً ، محباً للهو ناقص التدبير ، فاختل الملك وسعى الوشاة بينه وبين اخيه المأمون ، ففسد ما بينهما ، وكثرت الفتن وقامت الحرب بينهما ، وقتل في آخرها الامين وذلك سنة ١٩٨ .

ثم قام في الملك بعده بطل محاضرتنا امير المؤمنين ابو العباس عبد الله المأمون السابع من بني العباس . واذ وصل بنا الحديث الى خلافة المأمون فيجدر بنا ان نلقي نظرة إجمالية على بسيط ملكه الممتد الاطراف ، البعيد الاكناف ، ثم على دخل خزينته ، ليكون السامع على ثقة بما نرويه عن نفقات ذلك العرس ، وهو مما لم يروَ له شبه في تاريخ أمة من الامم ثم نلمح بغداد مقر الخلافة العباسية لمحة سريعة لنعلم كيف كانت لعهد ذلك العرس ، ثم نلم بشيء من صفات المأمون واخلاقه وعلومه وغزواته ، ثم نتعرف بحمي الخليفة وهو الحسن بن سهل ، ثم ببوران ابنته عِرْس المأمون

« المملكة العباسية »

كانت المملكة العباسية لعهد المأمون ممتدة في آسيا من بغداد وسائر العراق الى الحجاز واليمن وفلسطين والشام (أي سورية) وارمينية ومملكة فارس (ايران) وأفغانستان وقسم من الهند والصين، ثم مصر في افريقية وأكثر المعمور منها أيضاً، قال ابن خلدون: وجد بخط أحمد بن محمد ابن عبد الحميد عمل (أي حساب) بما يحمل الى بيت المال ببغداد أيام المأمون من جميع النواحي نقلته من جراب الدولة (أي دفتر) وعدّد الغلات بلداً بلداً ومملكةً مملكةً فبلغت ثلاثة ملايين وثمانمائة وسبعة عشر الف دينار ومائتي مليون وسبعة وستين مليوناً وثمانمائة وخمسة وعشرين الفاً وثمانية دراهم. اه. فاذا حسب الدرهم عشر الدينار حسب رواية ابن خلدون وغيره، كان مجموع الدّخل في تلك السنة ثلاثين مليوناً من الدنانير، ما خلا ألوفاً من سبائك الفضة، وألوفاً من الحيوان كالخيل والبغال والبرازين والبقر والغنم، والرقيق والثياب والاكسية الحريرية والزيت والعسل والعود الهندي والفرش والبسط والتمر وعطر الورد والسكر وغيره، وذلك كما كان لعهد أبيه هرون الرشيد حسبما بيناه بل ربما زاد عنه، وهذه الأموال كانت تحمل إلى بيت المال من العمال والولاة في تلك الأقطار، وكان الخليفة يولي عليها كبار الرجال والقواد من أهل بيته، أو ممن لهم سابقة خدمة في الدولة من أهل الكفاية والتدبير، وهؤلاء يولون من هم دونهم من ذويهم وصنائعهم على جباية الخراج، وكانوا في الغالب يجعلون الجباية إقطاعاً أي إلزاماً أو مزايدة، كالتعشير ليومنا هذا، ولما كان الظلم من الاخلاق الانسانية، والامانة عزيزة في الطبائع البشرية، وكانت الفتوح في ذلك العهد وقبله كثيرةً، وطرق الكسب والغنائم سهلة متوفرة، فكان كسب الولاة وعمالهم يومئذٍ مما

لا يكاد يصدق لو لا ما لدينا من الحقائق التاريخية التي لا ريب فيها .

وكان للدولة العباسية خزانة أخرى تسمى بيت مال المظالم ، وهي الاموال التي كان يستصفيها الخليفة من وزرائه وعماله ، او التي كان يعتصرها الولاة والعمال ممن هم دونهم عند الارتياب بأمانتهم ، أو الطمع بثروتهم ، فيُنزلون عن مراتبهم ويسجنون ، وعاقبة ذلك في الغالب القتلُ صلباً أو خنقاً ، وتُستصفى أموالهم من صامت وناطق ، وأملاكهم جميعها وتحمل إلى بيت مال المظالم . وأما ما كان هنالك من كنوز الاموال والدرر النادرة ، والجواهر الفريدة ، وغرائب التحف الثمينة ، وعجائب المصنوعات فحدث عن البحر ولا حرج ، ومثل هذا كان جارياً لذلك العهد وبعده ، في سائر الدول ، دون بيت مال يسمى مال المظالم ، وليس عهد ذلك ببعيد في الدولة التركية ، فاذا علم هذا كان تمهيداً لما يأتي عن ثروة الحسن بن سهل ختن المأمون وكرمه الجم .

« مدينة بغداد »

أمر ببنائها أبو جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين . وأتم بناء قصره الكبير فيها في السنة ١٥٧ للهجرة ، وكانت لعهد ليلة العرس ، فسطاط العالم ، وأكبر مدينة على وجه الارض ، وقد بلغت من العظمة والأبهة والسعادة ، ما لم تبلغه مدينة ، فشيدت بها القصور الفخيمة ، والصروح العظيمة ، والمصانع العديدة ، والجسور والقناطر والمدارس تحاكي القصور ، والمساجد الجليلة ودور الكتب ، والجنات والحدائق والبساتين ، والأسواق الكبيرة وألوف الحمامات ، وأنشأ المأمون فيها مرصداً فلكياً ، وكانت دار الخلافة نفسها مرصعة بالمعادن النفيسة التي اجتلب من أطراف الممالك ، وفيها من الحجارة الكريمة والأمتعة الثمينة ، والرياش الفاخر والآنية البديعة ، وغير ذلك من نوادر التحف وغريب الماعون ، مالم يجتمع مثله في مدينة من مدن العالم ، وكانت ضواحيها

آهلة معمورة حتى الرقة ، وعلى جانبي بغداد كانت المدن الصغيرة كالجعفرية ، والهارونية ، والمهدية ، والمأمونية ، وفيها القصور للخلفاء ولوزرائهم وقوادهم وأكابر الناس ، والصروح والجواسق والجنان والبساتين والمزارع والقرى والمصانع ، مما يعجز القلم عن وصفه ، وبلغ عدد سكانها يومئذ في أقل إحصاء مليون نفس ، وورد لبعض المؤرخين انها بلغت المليونين .

كل ذلك في مدة لم تتجاوز خمسين سنة من وضع أساسها ، وهو مما لم يحكه التاريخ عن مدينة سواها على وجه البسيطة ولا عجب في ذلك ، فان أحوال هذه الأمة البدوية الفتية ، قد حيرت عقول الفلاسفة والمؤرخين والعلماء ، قال الفيلسوف غوستاف لوبون ما محصله : ان مدنية الأمة العربية لم يسبق لها مثال في تاريخ البشر ، وقد لا يكون لها مثيل إلى الأبد ، اذ أن هؤلاء البدو الذين حين فتحهم ممالك فارس والروم ، حسبوا الخبز المرقق ورقاً عندما قدموه لهم ، وظنوا الكافور الذي وجدوه في خزائن كسرى ملحاً فاستعملوه في عجينهم ، هؤلاء البدو قد بلغت حضارتهم في مدة قرنين ، مالم تبلغه أمة من الأمم في قرون متطاولة ، فقد أتقنوا الصناعات ، وبرعوا في أصناف العلوم ، ونقلوها إلى لسانهم ، وعلموها الأمم الأوربية ، فأوربا مدينة لهم اليوم بأكثر علومها وتأنقوا في المأكول والمشروب ، والملبوس والمفروش ، وسائر أدوات الزينة وأسباب الترفه والنعيم ، وتركوا في الأندلس وغيرها من آثار حضارتهم ، ما يُديم لهم فخراً لا يبليه تقادم الزمان ، وتبدل الحدثان .

وقال أرنست رينان سيبويه علماء المشرقيات ما تعريبه باللغة العربية : خرجت اللغات السامية من ضيق الدائرة التي ظلت سجينة بها إلى ذلك الحين ، وصلت إلى مقام شمل به تأثيرها أقطار الدنيا ، ولم يشهد البشر فتوحاً ، أوفر اتساعاً واعظم سرعة من فتوحاتها .

فاللغة العربية هي بغير مدافع ، اللغة التي امتد فتوحها في أوسع بقعة من الأرض ، ولا يوجد بين اللغات سوى لغتين تقاسمانها شرف الانتشار ، وتعدان لغتين عامتين ، وهما اليونانية واللاتينية ، أريد أنها لسان دعوة دينية ، أو فكرة سياسية ، وكلاهما فوق اختلاف الاجناس ولكن امتداد الفتوحات اليونانية واللاتينيـة ، لا يقارب الفتوحات العربية . لان المتكلمين باللاتينية كانوا من كامباني (مقاطعة من ايطاليا القديمة) حتى الجزائر البريطانية ، ومن الرن حتى جبال الاطلس (في شمال افريقيا) وكان المتكلمون باليونانية من صقلية (سيسيليا) حتى دجلة ، ومن البحر الاسود حتى الحبشة .

وأين هذه كلها في جنب مملكة اللغة العربية العظيمة ، وقد شملت اسبانيا وأفريقية حتى خط الاستواء ، وآسيا الجنوبية حتى جزيرة جاوة وروسيا حتى قازان .

وقال في موضع آخر من كتابه « التاريخ العام في اللغات السامية » : ان اوربا لم تنج من تأثير اللغة العربية الشامل ، فالاسبانيون والبرتقاليون قد أخذوا إلى لغتهم ألفاظاً عديدة عربية في سائر الاشياء ، وحوت جميع اللغات الرومانية — اللاتينية — عدداً كبيرا من الالفاظ العربية ، وجلها للتعبير عن الاشياء العلمية والصناعية ، وكانت أمم اوربا في القرون المتوسطة دون الاسلام (العرب) بمراحل .

أولئك أقوامي فجئني بمثلهم   اذا جمعتنا يا جرير المجامع

« فتوح المأمون وغزواته وأخلاقه وعلومه وصفاته »

قامت في سبيل المأمون عقب إعلان خلافته عقبات شتى ، اذ انتشرت الفتن على اثر اختلافه مع أخيه الأمين وحروبها ، وطمع بالخـلافة غير واحد من بني العباس ، وافترق الناس فرقاً ، فرقة مع هذا وفرقة مع

ذاك ، وكادت تتضعضع أركان الملك ، فأظهر المأمون من الحزم والشجاعة والحلم وحسن التدبير ، ما كان فيه نسيج وحده ، إذ قمع الفتن ، ومهد الأمن ، وبسط العدل ، وغزا وفتح فتوحاً جليلة .

وكان المأمون أعظم بني العباس سؤدداً ومجداً ، وعزماً وسماحة ، وحلماً وشجاعة ، وعلماً وفضلاً ، كثير العفو ، ومن مآثر كلامه « لو عرف الناس حبي للعفو لتقرّبوا إليّ بالجرائم » ، وكان عارفاً باليونانية والعبرية والهندية والفارسية ، عالماً كبيراً وشاعراً وخطيباً ومحدثاً ، متبحرا في الفلسفة والهيئة ، فصيحاً محباً للعمران والحضارة ، ولم يكن نظيره في كل من تقدمه من الخلفاء في حب العلوم والمعارف ، وكان لشغفه بالآداب والفضل عقد عهد صلح مع (تيوفيلوس) ملك الروم في القسطنطينية على أن يستنسخ له جميع المصنفات اليونانية ، ووجه بعثاً آخر يحمل اليه من جزيرة قبرس كل ما وجد هناك من الذخائر العلمية وكانت الجزيرة قد دخلت في حوذة دولته .

فأمر المترجمين كحنين بن اسحق وثابت بن قرة ويعقوب الكندي ويوحنا البطريق وغيرهم بتعريب مالديهم من الكتب اليونانية والسريانية في الحكمة والطب والموسيقى والعلم الطبيعي والسياسة المدنية والنفس والحيوان والنبات والجبر والهندسة والهيئة ، وكان عنده جماعة كبيرة من المنجمين فجمع علماء عصره وأمرهم أن يصنعوا آلات الرصد ليقيسوا بها الكواكب ويتعرفوا أحوالها ، كما صنع بطليموس ومن كان قبله ففعلوا ، وأمر ببناء المرصد في الشماسية ببغداد ، ومرصداً آخر على جبل قاسيون في دمشق ، وسموه (الرصد المأموني) .

ومن أعماله الخلدة في كتب العلم والتاريخ قياسه للدرجة من خط نصف النهار ، فانه أمر بني موسى محمداً وأخويه احمد والحسن بالوقوف على دور كرة الارض وكان الأقدمون يرون أن كل درجة من درج

الفلك يقابلها ستة وستون ميلا من سطح الأرض ، فلما مسحوا الأراضي المتساوية وحرروها وجدوا أن حصة الدرجة ستة وخمسون ميلا فقط وهو المعتبر ليومنا هذا بفرق قليل جداً .

ثم انه عكف على جمع الكتب وحمل القيم على خزانة كتبه محمد بن موسى الخوارزمي ، وهو أول من ألف في الجبر والمقابلة بالعربية ثم أمر بإنشاء المدارس للعلوم المتعددة ، وكثرت الكتب في أيامه ايضاً ونفقت سوق العلوم ، وقامت دولة الحكمة في عصره كسائر الفنون والناس على دين ملوكهم .

وكان يجمع في قصره العلماء مرة في كل اسبوع ، وهو اول مجمع علمي عقده سلطانٌ في قصره ، وكان يوزع جوائز ونعماً على المؤلفين البارعين في يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، ويحضر بذاته المحاكمات في ذلك اليوم حسب الفقه الحنفي .

« وزراؤه وقواده وعماله وشعراؤه والمباؤه وعلماؤه »

كان في رأس وزرائه ذو الرئاستين الفضل بن سهل السرخسي وكان داهية عاقلاً عالماً بعيد النظر حسن التدبير وفيه يقول مسلم بن الوليد :

أقمتَ خلافة وأزلتَ أخرى جليلٌ ما أقمتَ وما أزلتا

ومن عماله الحسن بن سهل وهو أخو الفضل وسيأتي ذكره ، ومن قواده ذو اليمينين طاهر بن الحسين الخزاعي الشجاع الأديب ، وهو صاحب الكتاب المشهور في كتب التاريخ والأدب ، كتبه إلى ابنه عبدالله عندما ولاّه المأمون مصر ، ولما وقف عليه المأمون قال ما أبقى أبو الطيب (يعني طاهراً) شيئاً من أمر الدنيا والدين والتدبير والرأي والسياسة وإصلاح الملك والرعية ، إلا وقد أحكم وأوصى به ، وأمر المأمون فكتب به إلى جميع العمال .

أما ابنه عبدالله هذا فكان أيضاً قائداً شجاعاً عاقلاً أديباً وتنسب اليه الأبيات المشهورة .

نحن قوم تليننا الحدق النجـــل على أننا نلين الحديدا
طوع أيدي الظباء تقتادنا العيـــن ونقتاد بالطعان الاسودا

وكان شعراء المأمون أبا العتاهية وصريع الغواني وعلي بن الجهم والصولي والخليع بن ياسر وأضرابهم ، ومن أطبائه حنين بن اسحق العبادي وجرجس ابن بختيشوع ويعقوب الكندي وأبو بكر الرازي وجبرائيل وقسطا ابنا لوقا البعلبكي وأمثالهم ، ومن منجميه الفرغاني وابن نوبخت ومحمد بن موسى الخوارزمي وأخواه وماشاالله اليهودي وابن منصور والجوهري واضرابهم ، ومن القصّاص الاصمعي وأبو عبيدة ، وأما العلماء والنحاة الذين كانوا يجلسون في حضرته فكثيرون نكتفي بذكر الفراء والكسائي واليزيدي وقطرب والجاحظ والأخفش وأضرابهم ، ومن قضاته يحيى بن أكثم وأبو عبدالله الواقدي واحمد بن أبي دؤاد ، ومن الفقهاء الامام الشافعي والامام أحمد بن حنبل .

وان ما ذكرناه طرف من صفات المأمون وما كان يشتمل عليه بلاطه من المجد والمفاخر ، ولو قصدنا إلى تصوير نفسه العالية الشريفة ، وتفصيل همته الصاعدة المنيفة لاحتجنا من الوقت إلى شهر ومن اللفظ إلى معادن الدرّ .

كان المأمون ربعة أبيض جميلا ، طويل اللحية رقيقها قد وخطها الشيب . فان فاخرت الأمم بقديمها وهي تفاخر دون شك ، فهذا قديمكم أيها السادة .

شرف ينطح النجوم بروقيه وعزٌّ يقلقل الأجبالا

« الحسن بن سهل حمو الخليفة »

كان كريماً عالي الهمة ولاه المأمون جميع البلاد التي افتتحها طاهر من كور الجبال والعراق وفارس والأهواز والحجاز واليمن ، ومن تولى مثل هذا الملك الواسع في ذلك العهد وكان حائزاً ثقة المأمون ورضاه لا عجب إذا كان أغنى غنيٍّ في تلك الدولة ، وقد كانت الطريقة أقطاعاً كما تقدم البيان .

« بوران بنت الحسن عروس المأمون »

اسمها خديجة وبوران لقب لها أو هو اسم فارسي واشتهرت به ، ولدت سنة ١٩٢ هـ وعُقد عليها المأمون في السنة الثانية بعد المائتين ، وكان عرسها في العاشرة بعد المائتين ، ولم يذكر المؤرخون شيئاً عن جمالها وعقلها ، بل ردد كلهم عبارة واحدة ، تلك ان المأمون تزوجها لمكان أبيها منه وهذا ليس بالبرهان المقنع ، فقد كان في آل العباس من هم أعلى قدراً في عيون الناس من الحسن بن سهل وأقرب رَحماً من المأمون ، ولو أزوجها المأمون واحداً من بني العباس المقربين منه لكفى الحسن بذلك شرفاً ، فلا بد من أن يكون اختيار المأمون بوران لجمالها أو لعقلها وعلمها أو لكليها معاً . وقد كان العقد في الثانية بعد المائتين للهجرة كما تقدم وعمرها يومئذ عشر سنوات ولم يتم الزواج إلا في العاشرة بعد المائتين ، وكانت بوران قد بلغت الثامنة عشرة وهذا مجال نظر للناقد ، فقد كانت العرب — وحرّ بلادهم معلوم ولا سيما بغداد — يتزوجون البنت في الثانية عشرة فما فوقها ويرون كمال فتوّتها وزهو صباها في الرابعة عشرة ولا سيما الملوك والأمراء ، فما السبب في تأخير عرس المأمون ثماني سنين ؟ أكانت غزوات المأمون وكثرة الفتن من الأسباب التي عاقته كل هذه المدة أم لسبب آخر ؟ لقد أغفل المؤرخون

الأولون ذكر كثير من امثال هذه الأحداث الهامة وأسبابها ، بيد أن لها شأناً عظيماً في أعين الناقد مستطلع عادات ذلك الزمن وأخلاق أهله وسائر احوالهم ومدنيتهم ، وبات الفوز بذلك بعد تطاول القرون وتقلب الشؤون مما لا مطمع في الوصول اليه أو الحصول عليه من مظانّه في كتب التاريخ فحسبنا أن نشير إلى ذلك هذه الاشارة حتى إذا اتفق لاحد الأدباء العثور عليه في تضاعيف القِصَصِ أو في كتاب من كتب الادب نبه عليه خدمة للعلم .

«البذخ العرسي»

كان الحسن بن سهل مع أهل بيته في معسكره بفم الصلح وهي بلدة كانت بين الكوفة والبصرة على نهر كبير يسمى الصلح تبعد ثماني مراحل عن بغداد ، فنهض المأمون اليها لثمان ليال مضت من رمضان في السنة العاشرة بعد المئتين يتقدمه العسكر والقواد والندماء والمغنون والشعراء والعلماء والقضاة والفقهاء ، وكبار العباسيين من أهل بيته ، وسار خلفه الحشم والخدم والأتباع وسائر بطانتـه على الخيول الرائعة والبراذين والبغال الفُرْه ، وكان يسبقهم الجمالون والمكارون والحمالون والملاحون والفراشون في جمع لا يدرك الطرف آخره .

وكان الحسن بن سهل قد خرج لاستقبال الخليفة بعسكره وحشمه ، فلما وقع بصره على موكب المأمون أمر عسكره بالمسير أمام عسكره ، وترجل حتى أقبل على قدمي المأمون ويديه يقبلها ، فقابله الخليفة بأنسه وبشاشته ثم أمره بمواكبته فسار في بطانته ، ولما وصلوا إلى فم الصلح خرجت المدينة بأجمعها لملاقاة المأمون وكان يوماً مشهوداً لم ير مثله الراؤون فنزل الخليفة عن جواده تكتنفه العظمة والجلال وتبسم له ثغور الأماني والاقبال ، وذلك الموكب العظيم يسير بين يديه وكانت قد ضربت له

الخيام والسرادقات والقباب من منسوج الحرير والديباج الموشى ، فدخل قبة فرشت أرضها بالبسط والزرابي الخسروانية وعلى طاقاتها الستور اليمانية وفي حضرته عظماء الدولة وأكابرها والشعراء والندماء والمغنون والعازفون وقام الحسن بن سهل يخدم بين يديه ، ثم مُدَّت أمامه الموائد الفارسية ، وتقدمت ألوان الطعام في الأواني الذهبية وأنشد المنشدون وتبارى المغنون ولما كانت الليلة الثالثة من وصوله زُفَّت اليه (بوران) فلما دخل قبتها كان عندها (حمدونة) بنت هارون الرشيد أخته لأبيه و (زبيدة) امرأة هارون الرشيد أم أخيه الأمين وجدة (بوران) أم أبيها ، وكان قد أوقد عندها شمعة عنبر مرفوعة على شمعدان من الذهب ثقلها مئة منّ ، وذلك نحو خمسة وعشرين رطلاً حلبياً ، وفرشت أرض القبة بحصير منسوج بالذهب ، ولما اقتربت بوران من المأمون لتهنئه بقدومه نثرت جدتها عليها الف درة من أنفس ما يكون من كبار اللؤلؤ كانت في صينية من الذهب ، ولما رأى المأمون تساقط اللآلىء على قدميه قال قاتل الله أبا نواس كأنه شاهد هذه الحال حين قال :

كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء درّ على أرض من الذهب

ثم أمر بجمعها فجمعت وأعطاها بوران وقال سلي ما ترغبين ، فلم تنطق بحرف ، فقالت لها جدتها (كلمي سيدك فقد أمرك) فقالت : أسأل سيدي الرضاء عن عمه الامير (ابراهيم بن المهدي) — وكان ذنبه عظيماً — فقال قد فعلتُ ، فقالت : وأسأل سيدي الاذن لسيدتي أم جعفر في الحج — وهي زبيدة زوج هرون الرشيد — فقال أذنتُ ، ثم ألبستها البدلة اللؤلؤيه الأموية المشهورة ، ولعلها مما استولى عليه العباسيون في جملة ما استولوا عليه من خزائن الأمويين .

وبينما كانت أم الحسن بن سهل تنثر اللآلىء على المأمون وبوران ،

كان والد بوران ينثر على الهاشميين والقواد وعظماء الدولة وسائر الطبقة الاولى بنادق مسك في كل بندقة رقعة باسم ضيعة أو دار أو مزرعة أو جارية أو فرس أو غير ذلك ، فيفتح الرجل البندقة ويقرأ ما فيها ، ثم يمضي إلى وكيل أرصد لذلك فيدفع إليه الرقعة والوكيل يسلمه ما في الرقعة سواء كان ضيعة أو ملكاً أو جارية أو غيرها ، ثم خرج الحسن من ذلك النادى وأقبل على الطبقة الثانية ، فبدأ يفرق بدر الدنانير إلى عشرة آلاف ، ثم انتقل إلى الطبقة الثالثة فنثر عليهم الدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر .

وظل المأمون عند الحسن تسعة عشر يوماً كان يُعدّ له فيها ولجميع من معه كل يوم من الأطعمة الملوكية والمشروب وسائر أسباب اللهو والسرور ما يقصر عنه الوصف ، فلم يكن في العسكر ومن ضمهم من المكارين والجمالين والملاحين من يحتاج الى شراء شيء لنفسه أو لدوابه ، وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين مليون درهم أو خمسة ملايين ليرة فرنسوية ذهباً .

ثم نهض المأمون وسار ومن معه الى مدينته المأمونية وكان بعث فأمر النواتية بتجهيز الحراقات (السفن) لاجازة خواص الناس بدجلة من بغداد إلى قصوره في المأمونية (مدينة المأمون) لحضور الولائم ، فكانت الحراقات المعدة لذلك ثلاثين ألفاً تسير في دجلة ، وقد تأنقوا في تزينها بالالوان وطلوها بالذهب وفرشوها بالبسط والسجادات وأناروها ليلا بمختلف الالوان ، فكانت كالسهام تشق قلب الماء وتظهر عن بعد في الظلماء كأنها نجوم السماء ولا يسمع منها إلا أصوات المغنين والمغنيات والعازفين والعازفات بين عود ومزمار وكاسات تُدار .

وكانت مدينة المأمون قد لبست من الزينة حللاً ما وراءها لمتطلع غاية ، وكان الحطب المُعَدّ للوقيد بدار الطبخ مائةً وأربعين بغلاً مدة

عام كامل ثلاث مرات في كل يوم وفنيَ الحطب لليلتين فأوقدوا القصب يصبّون عليه الزيت .

أما قصور المأمون فقد كانت تلك الليلة في حسن وأبهة يعجز القلم عن وصفها وكان الراكب في دجلة يشرف عليها من بعد شاسع ولا سيما قبابها ، فمن مجصص بالجص الأبيض الناصع كالفضة البارقة ومن مطليٍّ نصفه السفلي بالاخضر الناضر والنصف العلوي بالذهب النضار وفوقها جامات الذهب تتلامع كالشهب المتقدة ، ثم يبدو للعيون جمال تلك الحدائق الممتدة إلى أقاصي مدى البصر تتسرب فيها جداول الماء من برك عظيمة الاتساع مختلفة الاوضاع ينصب فيها الماء كالفضة الذائبة من أفواه حيتان أو سباع أو نسور أو ثيران ، من مرمر مختلف الالوان ، بالغ من الصناعة نهاية الاتقان ، بين جنات قد ازدحمت غياضها واشتبكت أشجارها وتغنت أطيارها وتعانقت أغصانها وامتد ظلالها ، يسير فيها الداخل تحت أقبية وأطواق من فسيفساء الاوراق ، في مماش كأنما أرضها خمائل سندسية ، وعلى جانبيها درابزينات لا يدرك الطرف منتهاها ، قد اعترش عليها الياسمين ، وتعلق بها الورد والنسرين ، ونمنمت حولها الازاهر والرياحين ، وقامت وسطها القصور الباذخة والصروح الشامخة والاروقة المرتفعة والجواسق المنمقة ذوات الساحات المترامية ، والصحون الفساح والافنية الرحاب والاندية العظيمة طبقاتها أبواب وأبوابها حيرة الالباب ، قد أرخيت عليها ستور الديباج والاستبرق كأنها أجنحة الطواويس ، وفرشت أرضها بأنواع الفسيفساء تحاكي أزاهر الجنان ومتعادي الحيوان ، من أسود ونمور وغزلان برخام متعدد الالوان ، يخالطه خشب الصندل والعود الهندي ، وفي كل بهو بركة أو برك تنساب اليها المياه الصافية على ملون المرمر كاللجين الذائب ، والسمك على اختلاف الاشكال والالوان تصعد في مائها وتنحط وتعوم كما يعوم فيها البط ، وقد رُقشت

حيطان تلك الابهاء بالقاشاني البديع ، يحاكي بألوانه ورسومه أزهار الربيع ، ورُفعت سقوف تلك الاندية والابهاء الرحاب على أعمدة المرمر ذوات الالوان الباهرة ، وقد أحكم صنعها ونقشها وتكامل حسنها بتذهيبها ورقشها ، وقامت قبابها على قناطر وحنايا وأضلاع ، بلغت بها صناعة الهندسة غاية الابداع ، ودارت فيها الطيقان كالقلائد في أعناق الحسان ، وقد قعدت على أساطين وسوار ركزت على قواعد من الصوان ، وتقنعت بأقداح كالنرجس من رخام ، وبلغت من الزهو والارتفاع ما لاسبيل معه إلى إمتاع النظر بأعاليها إلا بانقلاب رأس الناظر إلى آخر المستطاع . وقد طليت تلك السقوف والقباب بألوان تحار في محاسنها الابصار ، ويأخذ إبداع رسومها بمجامع القلوب ، وألبست من الذهب الوهاج أنواراً يرتد عنها الطرف كليلا .

وكانت لا تقع العيون في تلك الاندية والابهاء والغرف والمقاصير الا على محاسن قد تناهت في الظرف ، وملاحة وإبداع يقصر عنها كل وصف ، فمن حيطان من الزجاج رُفعت وراء الشرفات تنعكس عنها الانوار إلى داخل القباب ، ومن حيطان من جسيم الرخام حاكت بحفرها ورسومها حبائك الغمام ، أو أجنحة الطيور أو غلائل الحسان أو ظهور السمك والحيتان ، أو صور الغزلان وغيرها من الحيوان ، بين مجعَّد ومفوَّف ، ومسيَّر ومنمَّر ، ومكفوف وملفوف ، إلى أشكال وألوان يعجز وصفها ، ويضيق عنها التفصيل والتعبير ، والتمثيل والتصوير ، وفي كل قصر قصور ، وفي كل ناد روضة وغدر وغرف ومقاصير ، وسجوف مرسلة وستور متراخية وسرر مرفوعة وأرائك مصنوعة وحجال منصوبة ومجالس مفروشة ومقاعد موضوعة وكراسي مصفوفة وطنافس مبسوطة ، وموائد قاعة وأباريق مبثوثة وخواب مسنودة وزجسيات منسوقة ، وأوان مختلفة الأشكال نادرة الحسن والمثال ، من الصيني والزجاج والذهب ونفائس

المعدن وغرائب التحف وعجائب الطرف ، ومجامر العنبر ومباخر الند وقماقم ماء الورد إلى ما لا يبلغه عد ، ولا يتخيله فكر شاعر .

تلك هي القصور التي قامت بها الافراح المأمونية والولائم العباسية ، ولما وطئت أرضها بوران أعطاها المأمون في مهرها الف حصاة من نفيس الياقوت.

وقد ظلت الولائم قائمة في تلك القصور أياماً متوالية ، وكل الذي وصفناه ان هو إلا خيال ضئيل لحقيقة ذلك العرس الجليل ، فانه عرس لم يرو له التاريخ مثيلاً ولا بدع فالمأمون فرد لم يزل الزمان بمثله بخيلا .

ولعلنا نأتي في محاضرة أخرى على ما كان للدولة الاموية الثانية في الغرب من الفتوحات الباهرة ، والآثار الخالدة الفاخرة ، والمدنية العظيمة الزاهرة ، مما تنشرح له الصدور وتهتز النفوس ، وتعلو القيم وترتفع الرؤوس ، ويقال عنده لا عطر بعد عروس .

دمشق : ايلول سنة ١٩٢٣

لغة المتنبي[1]

للأستاذ عبد القادر المبارك

قال فيها البليغ ما قال ذو العـــــي وكلٌ بوصفها منطيقُ
وكذاك العدو لم يعدُ أن قا ل جميلاً كما يقول الصديقُ[2]

أبو الطيب المتنبي الذي يمت بنسبه إلى قحطان من العرب العاربة ولد وترعرع في الكوفة مدينة الشعر والعروبة في الاسلام بعد أن مضى على تمصيرها في عهد ثاني الخلفاء الراشدين ثلاثة قرون ظلت فيها مقرّاً لأقطاب اللسان العربي ورجالات اللغة الفصحى من عرب وأعراب . فلا غرو أن يكون أبو الطيب المتنبي الذي ولد ونشأ فيها معرقاً في عروبته اللسانية إعراقه في عروبته القحطانية . على أن الكوفة التي صارت بعد الاسلام من أعظم الحواضر العربية كانت بقعتها قبل إنشاء المباني فيها بادية مأهولة بعرب الجاهلية وأعرابها من سكان الوبر الذين كانت وفودهم لا تبرح غادية رائحة بين منازل ملوك العرب من اللخميين والمناذرة إذ ليس بين الحيرة عاصمة ملوك العرب في الجاهلية وبين الكوفة سوى ثلاثة أميال .

وفي جوار الكوفة الخورنق الذي ذكرته العرب في أشعارها وضربت به الأمثال في أخبارها كما قال ياقوت ونقل أيضاً عن الهيثم بن عدي[3] أنه لم يقدم الكوفة أحـــد من ولاتها إلا وأحدث في قصرها المعروف

---

(١) أقام المجمع العلمي العربي مهرجان المتنبي في تموز سنة ١٩٣٦ وكان من خطبائه الأستاذ عبد القادر المبارك

(٢) هذان البيتان لأبي البيداء اسعد بن عصمة الرباحي .

(٣) وهو كوفي ايضا .

بالخورنق شيئاً من الأبنية . وقال ياقوت أما ظاهر الكوفة فانها منازل النعمان بن المنذر والحيرة والنجف والخورنق والسدير والغريان وما هنالك من المتنزهات والديرة الكثيرة . اه ، فحق لأبي الطيب أن يكون من أعرق الشعراء في عروبته ومعرفته بلغة أولئك الذين يقول الأسود بن يعفر فيهم :

أهلُ الخورنق والسدير وبارق والقصرذي الشرفات من سنداد

وما من بقعة في الكوفة وما جاورها إلا وهي معهد من معاهد العروبة التي يحن أبو الطيب اليها حنين الأسد إلى عرينه ولبوته ، ومن أحق من عباقرة الشعراء بحب وطنه ولغته ، فالله أعلم بما اهتاج في نفس أبي الطيب من طرب حين تغنى بقوله :

تذكرت ما بين العذيب وبارقٍ مجر عوالينا ومجرى السوابقِ

ولئن كان أبو الطيب قد حيل بينه وبين وطنه فقضى معظم سني حياته بعيداً عنه فانه ما حيل بينه وبين لغته العربية التي لم ينزع إلى لغة سواها ولم يهو شيئاً هواها تلقنها طفلاً وشعر بها مراهقاً وتضلع منها يافعاً واستحوذ عليها فتىً وبذ فحول شعرائها مكتهلاً . ولو أراد أبو الطيب أن يكون كاتباً لأنسانا الصولي والجاحظ ولو أراد تدوين اللغة العربية على مثال معاجم أئمتها لما سبقه الأزهري في تهذيبه والفارابي في ديوانه والصاحب في محيطه وابن فارس في مجمله وابن دريد في جمهرته وأبو علي الفارسي في تذكرته وغلام ثعلب في يواقيته وابن جني في مقتضبه وخصائصه على أن شاعريته التي أخمل بها فحول الشعراء أفادتنا عشرات الكتب التي ألفها علماء اللغة العربية من كبار أدبائها وسراة نوابغها بسبب ديوان شعره شرحاً وبحثاً ونقداً وسيظل شعره مدعاة لرجال الأدب العربي إلى خدمة هذه اللغة ما دام أهلها غيارى عليها .

ولقد كان لأبي الطيب من الشهرة بالنبوغ والعبقرية في حياته ما كان للجاحظ كما يظهر مما ذكره ياقوت في معجم الأدباء من أن الخطيب أبا الوليد بن عسال حج فلما انصرف تطلع إلى لقاء المتنبي واستشرف ورأى

أن لقيته فائدة يكتسبها وحلة فخر يحتسبها فصار اليه فوجده في مسجد عمرو بن العاص ففاوضه قليلاً ثم قال ألا تنشدني لمليح الأندلس يعني ابن عبد ربه فأنشده :

يا لؤلؤاً يسبي العقول أنيقاً الخ

فلما أكمل إنشاده استعادها منه ثم صفق ثم قال يا ابن عبد ربه لقد تأتيك العراق حبواً .

وليس غرضي من هـذا الشاهد أن أبحث عن كنه ما أظهره المتنبي من استحسان لهذا الشعر وإنما غرضي أن الاندلسي شق عليه أن يعود إلى الأندلس دون أن يلقى عظيم أدباء الشرق .

ومن غرام أبي الطيب باللغة العربية حسن تخريجه لولده محمد الذي أجاز هذا البيت .

زارنا في الظلام يطلب ستراً فافتضحنا بنوره في الظلام

بقوله :

فالتجأنا إلى حنادس شعرٍ سترتنا عن أعين اللوام

وليس بعجيب على من نشأ تلك النشأة بين عرب الكوفة حضراً وعرب كلب بادية مع ما فطر عليه من لوذعية وشاعرية أن يصبح استاذاً في اللغة للجاحظ الثاني أبي الفضل ابن العميد الذي قرأ عليه كتاباً في اللغة من تصنيفه وكان يدهش لما يرى من مسابقته لايراد الشواهد وإفاضته في بيان أسرار القضايا اللغوية .

واستظهاره كتاباً عرض عليه في سوق الوراقين بتصفح يسير ، وجوابه للفارسي عما جاء على فِعلى ، ولابن خالويه عن أشجى في قوله :

وقاؤكما كالربع أشجاه طاسمه

ولسيف الدولة لما انتقد عليه قوله :

وقفت وما في الموت شك لواقفٍ كأنك في جفن الردى وهو نائمُ
تمر بك الأبطال كلمى هزيمةً ووجهك وضاح وثغرك باسم

كل ذلك من دلائل تبرزه في قوة الحافظة وامتلاك زمام اللغة التي ملكته كما ملكها وعنايته بالغوص على المعاني لا يبلغ في التعريف بفضله معشار ما يبلغه فيه شعره الشاعر . فكأن اللغة العربية في شعره غيرها في شعر غيره . والبيان كالجمال في كونه يملك القلوب ولا يحيط بكنه أسراره إلا علام الغيوب . فلا جرم إنه لجدير أن يسمى طوراً شعراً وتارة سحراً ، وتبارك الله أحسن الخالقين الذي خلق الانسان علمه البيان .

وأبو الطيب إنما كان نسيج وحده بيهاء بيانه وعبقري خياله إذ هو فيها كالشاعر الذي يقول :

إني وإن كنت صغير السن وكان في العين نبوٌ عني
فان شيطاني أمير الجن يذهب بي في الشعر كلَّ فن

وإنك لترحم الشاعر أو الخطيب إذا أطال خوفاً عليه من أن ينبهر أو يصير الى الاسفاف ، أما أبو الطيب فكلما أطال ازداد تحليقاً حتى يجعل مكان الرحمة من سامعه حسداً ، كما يحكى عن زياد بن أبيه . وهو في شاعريته الفنية بثروته اللغوية أجدر من أبي العتاهية الذي نشأ في الكوفة بأن يقال فيه : لو أراد أن يجعل كلامه كله شعراً لفعل .

فلسانه كلسان عبد الملك المنكدري الذي قال فيه ابن المعدل : كلما تذكرت أن التراب أكل لسان عبد الملك حقرت الدنيا في عيني ، وكلاهما أقام ردحاً طويلاً في البادية بين بني كلب ؛ وكان عبد الملك اذا حاور الامام الشافعي ظلَّ من يسمعها مبهوراً من فصاحتها لأن الامام تأدب في البادية بهذيل كما أن ذاك تأدب بخؤولته من بني كلب .

وكان أبو الطيب طباً بوضع الكلم في مواضعه أكثر مما كان عنترة الفلحاء طباً بأخذ الفارس المستلئم ، فهو كما قال امرؤ القيس :

يذود القوافي عنه ذيادا ذياد غلامٍ غويٍّ جرادا

ومن مزاياه العربية غيرته على شعره أن ينتجع به من لا يفقه أسرار

اللغة ، وكانت هـذه المزية من أشد البواعث على رغبته في إيثار سيف الدولة الذي كان يودّ أن لا يفارقه حتى يفارق دنياه .

ولولا ذلك لانتجع من نبغ في زمن خلافتهم من ملوك بني العباس وهم المقتدر ، القاهر ، الراضي ، المتقي ، المستكفي ، المطيع ؛ لكنه رأى السلطة في بلاطهم ، بله مملكتهم لطاطم الموالي وأقزام المماليك ، فكانت بغداد عنده كشعب بوّان في طمطانية المتحكمين فيها :

ملاعب جنةٍ لو سار فيها سليمانُ لسار بترجمانِ

وكل ما قاله في مدح غير سيف الدولة ليس إلا إغراء له بطلبه ومعاتبة له ، وهل يستطيع من وُلد وترعرع في مدينة المنبر العلوي منجبة الألوف من فحول البلغاء ، وهو بارّ بلغته إلا أن يكون كأبي الطيب اعتزازاً بعربيته واعزازاً لها ، وإشفاقاً عليها من آفات اللحن ، إشفاق ذلك الأعرابي الذي سمع أحد الخلفاء من العباسيين يلحن فصرّ أذنيه وقال : أشهد أنك ما وليت الخلافة إلا بقضاء وقدر .

وإليك مثالاً من فقه اللغة في الكوفة من محاورة بين كوفيّ واثنين من الأعراب في القرن السادس للهجرة ، بينما كان الكوفي عمر بن ابراهيم العلوي يغرس فسيلاً في حائط له إذ مرّ به أعرابيان فقال أحدهما للآخر أيطمع هذا الشيخ القحل أن يأكل من جني هذا الفسيل ، فسمعه الشيخ وقال : يا بني كم من كبش في المرعى وكم من خروف في التنور ، فسمع أحدهما دون الآخر الذي سأل رفيقه عما يقول العلوي ، فقال له إنه يقول : كم من ناب تسقى في جلد حوار ، فعلم الأعرابي ما قال وأعجبه ذلك .

هذا بعد عصر المعري الذي استنبط فيه العرب ، فما بالك بالعصور الأول في عكاظ الاسلام مربد البصرة وظاهر خدّ العذراء التي كانت من أكبر مدن العرب العرباء وفي مدرسة أبناء أشرافها أو كتابهم تلقى المتنبي دروسه الأولى باللسان العربي المبين الذي جرى على لسانه الطليق الذليق شعراً

مبشراً بعبقريته وهو ابن عشر سنين وبعد فاني أقول في لغة أبي الطيب ما قاله يونس بن حبيب في ابن العلاء البصري : لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله في كل شيء لكان ينبغي أن يؤخذ بقول أبي عمرو ابن العلاء كله في العربية ، ولكن ما من أحد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك إلا أفصح من نطق بالضاد نبينا محمداً عليه الصلاة والسلام .

وحبّ المتنبي اللغة العربية حدا به الى الامعان في تعرف أسرارها والحرص على تصفح خيرة معاجمها الكثيرة التي أولها العين الفراهيدي ، وآخرها المحيط للصاحب ، والصحاح للجوهري ، وكتاب العالم واللغة المفتتح بالفلك والمختتم بالذرة لأحمد بن أبان الأندلسي المتوفى سنة (٣٨٢) وهو مائة مجلد ، ولقد بلغت كتب اللغـــة في القرن الرابع للهجرة من الوفارة والكثرة ما يكفي في الدلالة عليه قول الصاحب ابن عباد كما في المزهر : أحتاج الى ستين جملاً أنقل عليها كتب اللغة التي عندي . فهل يصح بعد هذا أن يقال : كل ما في كلام المتنبي من الغريب المصنف سوى حرف واحد هو في كتاب الجمهرة وهو قوله : تطوى المجلحة العقـد كما يدعى صاحب كتاب إيضاح مشكل شعر المتنبي ، على ما نقل صاحب الخزانة الكبرى ، وأنى يمكن الوقوف على سند صحيح يثبت أن أبا الطيب لم يطلع على كلمة المجلحة أو العقد إلا في كتاب الجمهرة لابن دريد المتوفى سنة (٣٢١) ، وأبو الطيب طالما أحيا الليالي درساً حين لم يكن له سوى الكتاب سميراً رجاء أن يقف من طريق الصناعة على محاسن لغة أتقنها من طريق الطبيعة في مدرستها العالية حضارةً وبداوة .

ومثله يترفع أن يقول : إنني أطالع كتاب فلان وأدرس ديوان كذا ، وكلمة مجلحة جاءت في شعر بشر بن أبي حازم وفي شعر لبيد وفي شعر امرىء القيس وفي شعر بنت وثيمة في رثائها لأبيها كما في بيان الجاحظ في الباب الذي أوله (وكانوا يمدحون شدة العارضة) . وكلمة العقـد التي هي جمع الأعقد لهـــا شواهد أوفر وأكثر من شواهد المجلحة ،

والأليق بالصواب والأقرب الى المعقول في مثل المجلحة أن يقال استفادها من لغة الأعراب الذين كان يرحل برحيلهم وينزل بنزولهم من أهل البوادي . والتجليح لفظاً ومعنىً بابن الوبر أليق وأعلق منه بابن المدر وقلما تراه في كلام أهل الحضر ، ومعناه الذي هو أن يركب المرء رأسه ويحمل حملة الحيوان الضاري قلما يستغني عنه سكان الصحاري .

وكأن صاحب كتاب إيضاح المشكل أراد الغض من أبي الطيب الذي قدّر عليه ان يكون محسداً كما قدر عليه أن يكون أبا محسد بكونه قليل الاطلاع على كتب اللغة وأنه لم يطلع إلا على غريب أبي عبيد وعلى أقل من القليل من جمهرة ابن دريد والمتنبي يقول له بلسان الحال : حرف في قلبك خير من ألف في كتبك ، ورحم الله أبا ذؤيب إذ يقول :

وعيرها الواشون أني أحبها ... وتلك شكاةٌ ظاهرٌ عنك عارها

والمجلحة في كلام المتنبي جاءت في القصيدة التي مطلعها :

« أقل فعالي بلهَ أكثره مجدُ »

في هذا البيت :

وأمضي كما يمضي السنانُ لطيتي ... وأطوي كما تطوي المجلحة العُقَدُ

وجاءت في التي مطلعها :

« أيدري ما أرابك من يريبُ »

إذ يقول :

مجلحة لها أرض الاعادي ... وللسمر المناحرُ والجنوبُ

وكان الأولى بالأصبهاني اذا ادعى معرفة مصادر غريب اللغة في شعر المتنبي أن يقول : إنما أخذ المجلحة من بائية امرىء القيس التي أولها :

أرانا موضعين لأمر غيب ... ونسحر بالطعام وبالشراب

عصافير وذبان ودودٌ ... وأجرأ من مجلحة الذئاب

لأن أبا الطيب فحل شعراء العراق من سلائل عرب اليمن حقيق أن

يحفظ شعر امرىء القيس فحل شعراء نجد من أبناء ملوك كندة من اليمن لا سيما الشعر الذي قيل بسبب معركة حمي الوطيس فيها قرب الكوفة وكان يوما عصيبا من أشد أيام العرب هولاً ، وهو يوم الكلاب الذي عم امرىء القيس شرحبيل من قتلاه . ومثل أبي محمد من يعني بدراسة أخبار العرب لا سيما أيامها ، على ان ذلك كله تحكم ليس له مبرر ومن يستطيع ان يحكم عليه انه لم يسمعها ويحفظها في منزل أسرته في كندة بين احياء الكوفة في مدرسة الحياة الأولى التي يكون التعلم فيها بالفطرة ولكن يا ابا الطيب :

بحسبك اني لا ارى لك عائباً سوى حاسد والحاسدون كثيرُ

كما قيل في شأن معاصرك المفضال علي بن عيسى بن داود بن الجراح وليس هـذا التحكم عليك في دعوى انك لم تعرف كلمة المجلحة إلا من الجهرة بأغرب من تحكم من ادعى انك سرقت قولك :

ومن جهلت نفسهُ قدرَه رأى غيره منه ما لا يرى

من قصة قصار كان يعمل على شاطىء نهر ، وكان كل يوم يرى كركياً يجيء فيلتقط من الحمأة دوداً يقتصر في القوت عليه ، حتى رأى ذات يوم صقراً حلق ثم انقض على حمامة فاصطادها واكلها . فقال الكركي مالي لا اصطاد الطيور كما يصطاد هـذا الصقر وانا اكبر منه جسماً ، فارتفع في الجوّ وانقض على حمامة فأخطأها وسقط في الحمأة فتلطخ رأسه وريشه ولم يمكنه ان يطير ، فأخـذه الصياد ورجع الى منزله ، فقيل له ما هذا : فقال « كركي يتصقّر » ، فسمع المتنبي هذه الحكاية ، فأخذ منها معنى هذا البيت :

ومن جهلت نفسُه قدرَه رأى غيره منه ما لا يرى

قال ابن نباتة شارح رسالة ابن زيدون بعد هذه الحكاية : وهـذا من نادر التعصب على هذا الرجل الفاضل المحسود .

أبو الطيب له ولع ودربة باستعمال الفصيح في شعره ونثره وسائر

كلامه ، فاذا حاول العدول عن منهاج اللسان المضري القويم لم يستطع اليه سبيلا فما أصدقه في قوله :

وكلمة في طريق خفت أعربها   فيُهتدى لي فلم أقدر على اللحَنِ

من قصيدته التي مطلعها :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن   يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

فالمتنبي يستسهل بذل نفسه في سبيل صيانة لغته التي يفديها بروحه ، وكأنه يقول : لا بارك الله في الحياة بعد ضياع اللغة . من أجل ذلك رأى ارتكابَ ما فيه خطر على حياته أهون من ارتكاب ما فيه خطر على لغته . وفي البيت مسألتان : (خفت أعربها) من الفعل المضارع ، وتحريك حاء (اللحَن) اتباعا للام وشاهد الاول قوله تعالى « أفغير الله تأمروني أعبد » أي أن أعبد ، وقول طرفة ابن العبد :

ألا أيها ذا الزاجري احضر الوغى   وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

أي أن أحضر الوغى ، ومن هذا القبيل قولهم : مره يحفر بئراً أي أن يحفر ، وقولهم : خذه قبل يأخذك أي قبل أن يأخذك ، وتسمع بالمعيدي خير من أن تراه أي أن تسمع . والمتنبي كسائر فصحاء الكوفيين كثيراً ما يستعمل ذلك في قوله :

وتوقدت أنفاسنا حتى لقد   أشفقت تحترقُ العواذل بيننا

وقوله :

وما تسع الأزمان علمي بأمرها   ولا تحسن الأيام تكتبُ ما أملي

وقوله :

أشفق عند اتقاد فكرته   عليه منها أخافُ يشتعلُ

وقوله في ثياب أهديت اليه :

أقر جلدي بها عليّ فلا   أقدر حتى الممات أجحدُها

ويسوغ ان يعود الفعل المضارع مرفوعا مع إضمار أن قبله لأن الحرف

عامل ضعيف ، فاذا أضمر زال أثره ولم يقو على الظهور ، كما يسوغ أن يبقى منصوباً باعتبار ان المقدر كالثابت وعليه قول المتنبي :

نوقهُ ومتى ما شئت تبلوَه   فكن معاديه أو كن له نشبا

في التي مطلعها :

دمعٌ جرى فقضى في الربع ما وجبا

وقرىء كما في الكشاف للزمخشري (أعبدُ) مرفوعا وقرىء منصوباً في سورة الزّمر من قوله تعالى « أفغير الله تأمروني أعبد » .

وأما تحريك حاء اللحن بالفتح اتباعاً للامها فهو من قبيل تحريك الهاء في نهر وزهر ودهر . قال أبو النجم :

يا جبلا طال معداً فاشمخرّ   اشمّ لا يسطيعه الناس الدّهرْ

قال ابن منظور في لسان العرب : إما أن يكون الدهر والدهر لغتين كما ذهب اليه البصريون في هذا النحو فيقتصر على ما سمع منه ، وإما أن يكون ذلك مكان حروف الحلق فيطرد كما ذهب اليه الكوفيون اه ، والمراد من اللحن في بيت أبي الطيب الخطأ في الكلام والعدول عن سنن الصواب فيه ، ولم يرد شيئاً من معانيه الاخرى كاللغة والفهم والفطانة والالغاز والتعريض والغناء والتطريب ، وان كان لفظ اللحن مشتركا في ذلك كله . إن أبا الطيب في تمسكه بعربيته والتزامه فصحاها لهجةً وألفاظا مطبوع يجري في ذلك على مقتضى طبعه ، فهو من أشبه الناس بالاعرابي الذي كان الترافع اليه ليكون حكما بين سيبويه والكسائي فلم يستطع أن يلحن فيقول : فاذا هو اياها ولكن استطاع أن يكذب فيقول : الحق مع الكسائي ولو اكره على التلفظ بالنص المتناقش فيه لظهر أن الحق مع سيبويه ، لان لسانه لا يجري حينئذ الا بقوله : فاذا هو هي ، على ما ذهب اليه سيبويه ، فكان احتمال عار الكذب عنده أهون من احتمال عار افساد لغته الفصحى الجبلة التي بها جاء أحسن الحديث وحياً ، كلما زدته تلاوة زادك حسنا وطلاوة . وليس أبو الطيب بدعا في عشقه لغة مضرية تجلت له من عرائسها :

وجوه لا تزال تزيد حسنا ... لمثل جمالها خلق الغرامُ

ومن أشباهه في الشنشنة ذلك الامير جبلة بن عبد الرحمن الذي كان يكتب باللسان المبين اسماء الاطعمة التي يريدها في رقاع يبعث بهـا الى طاهيه ، وكان هذا لا يقدر على الاستقلال بفهمها لضعف عربيته فيراجع ابن أبي إسحاق الحضرمي أو يحيى بن يعمر العدواني للاستيضاح عما كتبه له سيده جبلة في تلك الرقاع ، فاذا عرف ما فيها من أنواع الاطعمة أتاه به ، وكان من أجل ذلك يبطيء عليه في إحضارها فقال له :

ويحك أيها الطاهي ما بالك تبطيء كأنك تريد بابطائك أن تحملني على الصيام ، فقال له الطاهي : سهِّلْ كلامك أسهلْ طعامك ، فقال له سيده : يا ابن اللخناء أفأدع عربيتي من أجل عيِّك .

ولصحة الطبع في اللغة كان لفصحاء العهد الجاهلي وصدر الاسلام أعلى مقام بين طبقات أمراء الكلام ، وهيهات أن تظهر عبقرية البيان الا بسلامة الذوق وطلاقة اللسان ، ولقد أصاب المحز وطبق المفصل من قال :

نعم عون الفتى اذا طلب العلـ ... ـم ورام الآداب صحةُ طبعِ

فاذا الطبع خانه بطل السعـ ... ـي وصار العناء في غير نفع

وقال المتنبي :

أبلغ ما يطلب النجاح به الطبـ ... ـعُ وعنـد التعمق الزللُ

لا جرم أن لهؤلاء المطبوعين في كلامهم أن يعجبوا ممن يلحن ويتهاون بالإعراب ويحيد في كلامه عن سنن الصواب كالأعرابي الذي كان يقول :

عجبت للتجار الذين يلحنون فيستطيعون مع لحنهم أن يربحوا في متاجرهم ، وكالذي سمع بعض الخلفاء في العهد العباسي يلحن في كلامه فقال : لولا القضاء والقدر لما قدر أن يكون هـذا خليفة ، ولكن قدر فكان ، وليس بضائر فارس الطخرور أبا محمد وشعره شعره قول ابن خالويه فيه : إنه لم يكن يعرف أن البعير يستعمل بمعنى الحمار ، كأنه انفرد بمعناه ولم يحوه سواه .

دمشق : تموز سنة ١٩٣٦ .

روح الطموح في المتنبي (١)

للأستاذ احمد رضا

منشأ الطموح

طردُ الهم أو دفع الألم هو كما قال ابن حزم « مذهب اتفقت الأمم كلها عليه فلا يعتمدون بسعيهم أمراً سواه » لكن للنفس نزعات ورغبات تأتيها من طريق الشعور بالحاجة او بما يؤثر في ميولها من وراثة فتحاول طرد الهمّ بما يحول دونها . فالناشيء في سلف عزيز وخلف أعزة تنزع نفسه إلى العز ، والنابت في منبت شهواني أو سلف أَلِفَ الشهواتَ يحارب كل ما يحول بينه وبينها ليدفع عن نفسه ألم حرمانها . وما طلب المال طالبه إلا لطردهمّ الفقر ، ولا رغب في الحياة راغبها إلا لدفع همّ الموت ، ولا ابتغى الصيت مبتغيه إلا لطرد هم الخمول ، ولا طلب المعالي من الأمور إلا من يكره أن يستعلي عليه عال .

الانسان روح وأشد ما تكره الروح أنّ يستعلي عليها مستعل أو يسيطر عليها مسيطر . ولكن هذه الروح قد تستخذي للقوة القاهرة إذا ضعفت عن مقاومتها فتخضع على كره منها وهي مفعمة هماً مملوءة كرباً ، فاذا طال عليها الامد ، وهي خاضعة ، ألفت الخضوع وعلى نسبة هذه الالفة يخف ألمها وينفرج كربها .

عزة النفس العربية

العرب أمة نشأت على عزة النفس والاباء فرأت انها أعز الأمم جارا وأمنعهم ذمارا وأشرفهم محتدا وأذكام عنصرا ، ثم تجاوزت الحدّ فرأت أن كلّ من عدا العرب أعاجم لا يدانون العرب منزلة ولا يوازونهم كفاءة .

---

(١) أقام المجمع العلمي مهرجان المتني في تموز سنة ١٩٣٦ وكان من خطبائه الاستاذ احمد رضا .

فليس عجيباً والحال هذه أن يأنف النعمان بن المنذر وهو عامل كسرى على قرى الطف من تزويج ابنته من كسرى لما خطبها اليه فيقتله كسرى تحت أرجل الفيلة انتقاماً من أنفته . ولا أن ينتقم له العرب بوقعة ذي قار لأنه ذهب شهيد الكبرياء العربية وفي سبيل صيانة الدم العربي .

وليس غريباً أن تعتصم ليلى بنت لكيز بعفتها ولا ترضى أن تكون في نساء كسرى لأنها عربية وهو أعجمي . وهي بنت الصحراء أو ربيبة البوادي واليفة المضارب ، وهو صاحب الدور المشيدة والصروح الممردة والملك العظيم والنعيم المقيم . لكنه مع هذا كله ليس بكفء لها لانها عربية وهو أعجمي .

هذه هي كبرياء العرب وطموح العرب ، فلا عجب إذاً أن نرى عربياً قحاً كأبي الطيب ارتفع بذكائه وعلا أقرانه ببيان ساحر وقلب جريء وعزم ثاقب وعلم جم تهب عليه ريح الطموح وتطغى فيه روح التعاظم وهو العربي منبتاً ونسباً وأدباً .

المتنبي عربي صحيح النسب

ضربت بعرق المتنبي دوحة يمان ، فهو من حيث أبوه جعفي من سعد العشيرة من مذحج ، وهو من حيث أمه همداني ، وهمدان واسطة عقد العرب اليمانيين مجداً وشجاعة وسيد العرب بعد النبي المختار يقول فيهم :

ناديت همدانَ والأبواب مغلقة ومثل همدان سنوا فتحة البابِ

كالهندواني لم تفلل مضاربه وجه جميل وقلب غير وجّابِ

يقول أبو الحسن ابن ام شيبان : إن أبا الطيب كان جعفياً صحيح النسب ، ويقول أبو الحسن محمد بن يحيى العلوي الزيدي ، ان والد المتنبي كان يقول انه من جعفي ، ثم قال وكانت جدة المتنبي همدانية صحيحة النسب لا أشك فيها وكانت جارتنا ، وابو الطيب يقول على قلة اعتداده بمجد الآباء :

ومجـدي يدل بني خندف على أن كل كريم يماني

ويقول :

وإني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنفٌ أن تسكن اللحم والعظما

فيدعي مثل هذه الكبيرة ويفخر هذا الفخر ويبالغ في أنفة قومه هذه المبالغة فلا بد إذن لهذه الدعوى من أصل في شرف آبائه . أما أن لا يكون لدعواه هذه أساس تبنى عليه هذه المبالغه فاني أراه غير مقبول في العادة ، والا فلمَ تركها له حساده والناعون عليه وما أكثرهم حوله وما أحصاهم لكل دقيقة وجليلة عليه ! وإذا لم يكن له أصل من شرف آبائه وهو مع ذلك يقول فيهم مثل هذا القول فكيف يسكتون عنه من هذه الناحية من فخره بعد أن طبلوا وزمروا في تنقصهم له ، وكل ما قالوه في نسبه ان أباه ويلقب بعيدان كان خامل الذكر فقيراً ومها اشتد الفقر لا يكون مزريا بالأحساب والأنساب ، وخمول الذكر مها استحكم لا يكون ميزاناً لمجد الآباء وشرف المنصر ، وأما ما جاء به بعض المخرفين عنه من أنه انما افتخر بنفسه دون آبائه فلكي يسرّ وهناً في نسبه . فهو دليل لا يصح الركون اليه واذا كان المتنبي يقول :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي

فانها سنة كبار النفوس ، وهذا عامر بن الطفيل العامري وهو من علت مقامه في العرب حسباً ونسباً يقول :

وما سودتني عامرٌ عن كلالةٍ أبى الله أن أسمو بأمي أو أبي

إذا كانت نفس عصام سودت عصاما فليس معناه أن آباءه لم يكونوا ذوي سؤدد وسيادة بل هو على حد قول الفضل اللهبي الهـاشمي الذي يقول :

لسنا وإن أحسابنا كرمتْ يوماً على الأحساب نتكلُ

نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثلما فعلوا

على أن أبا الطيب قد استدرك ما قد يتوهم من قوله بل شرفوا بي بقوله بعده :

وبهم فخر كل من نطق الضاد وعوذ الجاني وغوث الطريد

وليس عجباً من ذي كبرياء وطموح مفرط كالمتني أن يقصد المعنى الذي أراده الشاعر :

وكم أب قد علا بابن ذُرى شرف كما علت برسول الله عدنانُ

إن المتني الكبير النفس المتجاوز حد التعاظم بمثل قوله :

فدع عنك تشبيهي بما وكأنه فما أحدٌ فوقي ولا أحدٌ مثلي

والذي يقول:

وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق

محتقر في همتي كشعرة في مفرقي

يأبى أن يستند في فخره إلى مجد عظامي ، وإن كان شامخاً باذخاً ، ويريد أن يحقق بنفسه القاعدة المشهورة : « المرء بجِده لا بجَده » على أن خمول ذكر والده وعدم مساعدة الزمان له على أن ينال مقاماً يعرف به لم يسلبه عبقرية صالحة جعلته يمتع نفسه بولده بما حرمت نفسه منه من علم وثقافة ، فسافر به إلى الشام حيث الهواء العذب والماء الروي ، والأدب ناشر أعلامه ، ومجالسه حافلة بالفحول من الشعراء وأعلام اللغة ، حيث منبت الطائيين اللذين انتهت اليها زعامة الشعراء ، حيث موطن العتابي والنمري والسلمي وابن زرعة الدمشقي وغيرهم ، « حيث رزقت الشام ملوكاً وأمراء من آل حمدان وبني ورقاء ، وهم بقية العرب والمشغوفون بالأدب ، والمشهورون بالمجد والكرم ، والجمع بين السيف والقلم » ، حيث ملتقى أئمة اللغة ونحاريرها وفحول العربيـــة وأساطينها أمثال ابن خالويه والفارسي .

ويقول الثعالبي : « سافر به أبوه الى الشام فلم يزل ينقله من باديتها إلى حضرها ومن مدرها إلى وبرها ويسلمه في المكاتب ويردده في القبائل ومخايله نواطق بالحسنى ، ضوامن النجح فيه حتى ترعرع وشعر وبرع » .

المتنبي بعد موت أبيه

ما زال هم الطموح يعتلج في صدر أبي الطيب ويتقد وهو منصرف إلى مغالبة العوائق ، فعكف على التحصيل ، وكان كثيراً ما يغشى الوراقين يتزيد من دفاترهم علماً ، ويجهد نفسه في المطالعة واستظهار ما يروقه . وهو من جودة الحافظة وحضور الذهن في منزلة لا أدل عليها مما رواه بعض الوراقين ، وكان هذا في أول صباه من أنه حفظ كتاباً للأصمعي يدخل في ثلاثين ورقة بنظره فيه نظرة واحدة ، فروى أيام العرب وتعمق في درس اللغة فقنص شواردها وتأنس أوابدها حتى بلغ من ذلك الغاية ، وحسبك شهادة أبي علي الفارسي له لما سأله عن الجموع بوزان فعلى وأجابه أبو الطيب بلا توقف انها حجلى وظربى . يقول الفارسي انه قضى ثلاث ليال يراجع كتب اللغة فلم يجد لها ثالثاً .

دعوته الى نفسه وجرائرها

أبو الطيب عربي خالص العروبة ، تفتحت عيناه على عز العرب وما هم فيه من دولة ورأى ذوي المواهب يتسابقون فيها إلى امتلاك زمام الامر والنهي ، هذا بهمته وجهوده وذاك بعصبيته وقومه ، وذلك بعلمه وثقافته فليس غريباً أن تزداد روح الطموح فيه نشاطاً وهو يرى أنه أعلى منهم ثقافة وأكبر همة وأعز نفساً ، فكيف لا يدفع هم استعلاءهم عليه بكل طريق بحسب القدرة من نفسه عليه .

وكأنه رأى أن أعلى مقام للسلطان هو الخلافة ، وهي فوق مقدوره لحاجتها إلى بيعة شاملة أو ولاية عهد مؤيدة ولكنها فرع النبوة وعلى النبوة قامت دعائمها ، والنبوة تبتدىء بالدعاية الفردية ثم تنتشر فيكثر حولها الأنصار فتشتد فيعلو أمرها . رأى ذلك وعنده من قوة الجنان وسحر البيان وفصاحة اللسان ما يخلب به ألباب الأعراب وكانت قد فشت في ذلك العصر بدع المتنبئين ودعوات الحلول وعليها قتل ابن الشلمغاني والحلاج وغيرهم وفشت دعوى القرامطة المبنية على مثل هذا الأساس .

فتخيل أن الزمان يؤاتيه حيث كانت الممالك فوضى بعد أن ضعفت الخلافة في بغداد وأصبح كل أمير مستقلاً بعمله ، ففي البصرة ابن رائق وفي خوزستان البريدي ، وفي فارس عماد الدولة بن بويه ، وفي الري وأصفهان والجبل ركن الدولة بن بويه وابن زيّار يتنازعان عليها ، وفي الموصل وديار بكر وربيعة ومضر بنو حمدان ، وفي مصر والشام الاخشيديون ، وفي المغرب وإفريقية الفاطميون ، وفي الأندلس عبد الرحمن الناصر الأموي ، وفي بلاد البحرين واليمامة القرامطة .

تخيَّل هذا وهو من طموحه في غرور متجاوز الحد ، فحاول دعوى النبوة أو انه أظهرها على اختلاف أمهات الروايات في ذلك ، وقد رأيت أن ألم بها لاستجلي ما يتراءى لي من تحقيق فيها .

قال علي بن المحسن التنوخي عن أبيه عن أبي الحسن بن أم شيبان الهاشمي الكوفي : « كان المتنبي لما خرج إلى كلب وأقام فيهم ادعى أنه علوي ، ثم ادعى بعد ذلك النبوة ثم عاد يدعي أنه علوي إلى أن أشهد عليه بالشام بالكذب في الدعويين ، وحبس دهراً طويلا وأشرف على القتل ، ثم استتيب وأطلق[1] وهذه الرواية تصلح بادعائه العلوية ، وأن حبسه كان طويلا ، لاقى فيه العذاب وأشرف على القتل ولكنها لا تقول بأنه اجتمع

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب م ٤ ص ١٠٤

عليه أحد وبنو كلب بأرض نخلة وهي بلدة في بعلبك على ثلاثة أميال منها ، ولعلها نحلة بالحاء المهملة ، المعروفة اليوم في بعلبك ويدل على إقامته في هذه القرية قوله :

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

قال العكبري في شرح هذا البيت : دار نخلة على ثلاثة أميال من بعلبك وهي قرية لبني كلب .

وروى التنوخي عن أبيه عن أبي علي بن أبي حامد قال : سمعت خلقاً بحلب يحكون – وأبو الطيب المتنبي بها إذ ذاك – أنه تنبأ ببادية السماوة ونواحيها إلى أن خرج اليه لؤلؤ أمير حمص من قبل الاخشيدية فقاتله وأنفره وشرّد من كان اجتمع اليه من كلب وكلاب وغيرهما من قبائل العرب وحبسه في السجن حبساً طويلا فاعتل وكاد أن يتلف حتى سئل في أمره فاستتابه . ثم قال : وكان قد تلا على البوادي كلاماً ذكر أنه قرآن منزل[١] .

وهذه الرواية تقول إنها سمعت بحلب وجاء بها بلفظ (ويحكون) وانها حكيت وأبو الطيب في حلب إذ ذاك أي في زمن سيف الدولة وبعد نيف وعشرين عاماً من خروجه وهي لا تتعرض لدعوى العلوية ، بل تقول إنه أظهر النبوة وتبعه خلق من قبائل شتى اجتمعوا عليه وان الذي خرج اليه وحبسه واستتابه هو لؤلؤ الأخشيدي .

وقال الثعالبي « وقد بلغ من كبر نفسه وبعد همته ، أن دعا إلى بيعته قوماً من رائشي نبله على الحداثة من سنه والغضاضة من عوده ، وحين كاد يتم له أمر دعوته ، تأدى خبره إلى والي البلدة ، ورفع اليه ما هم به من الخروج فأمر بحبسه وتقييده[٢] »

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب م ٤ ص ١٠٤ .
(٢) يتيمة الدهر م ١ ص ٧٩ .

ويحكى أنه تنبأ في صباه وفتن شرذمة بقوة أدبه وحسن كلامه ، وحكى أبو الفتح عثمان بن جني قال : سمعت أبا الطيب يقول إنما لقبت بالمتنبي لقولي :

أنا ترب الندى ورب القوافي وسهام العدى وغيظ الحسودِ
أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمودِ[1]

وروايتا الثعالبي هاتان تدل اولاها على أنه دعا إلى بيعته ولم تصرح بان البيعة كانت للنبوة أو للولاية . وعلى أنه قبل أن تتم دعوته حبسه الوالي وانه كان هم بالخروج أي أنه همّ ولم يفعل ، فهو اذاً على هـذا لم يخرج فعلا .

وجاء الثعالبي في الثانية بلفظ (ويحكى) مما يدل على توهين أمرها وزاد في المتوهمين تعقيبه لها بما رواه ابن جني عن المتنبي نفسه في سبب تلقيبه بالمتنبي وفوق ما رواه ابن جني تنصّل أبي الطيب من دعوى التنبؤ والقرآن المزعوم ، فقد روى التنوخي عن أبيه أن المتنبي كان إذا شوغب في مجلس سيف الدولة ونحن إذ ذاك بحلب تذكر له هذا القرآن وأمثاله مما يحكى عنه فينكره ويجحده ويقول أنا لست أرضى أن أدعى بهذا (أي بالمتنبي) وإنما يدعوني به من يريد الغض مني .

فالمتفق عليه إذاً من هذه الأحاديث أنه حاول الخروج على السلطان وانه حبس في ذلك حبساً طويلا حتى كاد يتلف وانه استتيب واطلق ، وهذه الروايات إنما هي عن أقرب المؤرخين اليه عصراً فالخطيب البغدادي ولد سنة ٣٩٢ والثعالبي ولد في حياة المتنبي سنة ٣٥٠ والظاهر ان اعتماد من تأخر عنهما في حديث المتنبي كان عليهما ، ويظهر من التدقيق في نص هذه الروايات القول بأنه همّ بالخروج وانه خرج في طلب إمارة هو أقرب

(١) اليتيمة م ١ ص ٨٠

الى الصواب من أنه تنبأ واجتمع عليه جماعة من قبائل شتى ومن أنه أظهر قرآناً لأن الرواية التي تقول هذا لم تخلُ من كلمات تحفظ مثل أسنادها الى الحكاية ومثل ان الرواية كانت بحلب وأبو الطيب إذ ذاك بها بخلاف الرواية الأولى التي أرسلت كأنها حقيقة ، وأنت تعلم أن أبا الطيب في حلب زمن سيف الدولة كان يستغيث من كيد حساده وقوة بأسهم وشدّتهم في الغض منه والحط من شأنه فيقول له :

أزل حسد الحساد عني بكبتهم   فانت الذي صيرتهم لي حسّدا

أولئك الذين أخرجوه من حلب مغاضباً سيف الدولة لأنه لم ينتصر له منهم على شدة حبه له وحنينه اليه بعد فراقه ، ويحكى عن بعضهم أنه مات حسداً لأبي الطيب وحنقاً منه .

وفي الصبح المنبي رواية أخرى غير ما تقدم وهي أن المتنبي خرج بأرض سلمية من أعمال حمص في بني عدي وان الذي قبض عليه هو ابن علي الهاشمي في قرية يقال لها كوتكين وانه أمر النجار أن يجعل في رجليه قرمتين من خشب الصفصاف وان المتنبي قال في ذلك :

زعم المقيم بكوتكين بانه   من آل هاشم بن عبد منافِ
مذ صرت في أبياتهم متنبأً   صارت قيودهم من الصفصافِ

وانه كتب إلى الوالي من السجن يستعطفه بقوله :

ان يكن قبل أن رأيتك أخطأ   ت فاني على يديك أتوبُ
عائب عابني لديك ومنـه   خلقت في ذوي العيوب العيوب

وظاهر هذه الرواية أن الذي قبض عليه وحبسه ثم تاب على يديه هو ابن علي الهاشمي ، وان خروجه كان بأرض سلميه في بني عدي .

دفاعه عن نفسه وهو في السجن

هذه هي الروايات المختلفة في ما رمي به المتنبي ، فلنرجع في التحقيق إلى ما يقوله هو في دفاعه هذه التهمة ونستخرج من قصيدته التي أرسلها

من سجنه إلى الوالي (لائحته الدفاعية) التي يستحق عليها اجازة كلية (ليسانس) فهو يقول :

وقبل عدوت على العالمين بين ولادي وبين القعودِ
فما لك تقبل زور الكلا م وقدرُ الشهادة قدر الشهود
فلا تسمعنّ من الكاشحين ولا تعبأن بمحك اليهود
وكن فارقاً بين دعوى أردْ تُ ودعوى فعلتُ بشأوٍ بعيد
تعجل فيّ وجوب الحدود وحدي قبل وجوب السجود
وفي جود كفيك ما جدت لي بنفسي ولو كنت أشقى ثمود

ان أبا الطيب قلب الدفاع في أبياته هذه على وجوه :

الأول : أن يقابل الدعوى بإنكارها من أساسها بقوله فما لك تقبل زور الكلام .

الثاني : أن يردّ شهادة الشهود بجرحه لهم لأنهم سفلة سقاط ذوو محك كمحك اليهود بقوله : وقدر الشهادة قدر الشهود . وقوله : ولا تسمعن من الكاشحين .

الثالث : على فرض قبول شهادتهم وعدم قبول هذا الجرح فان شهادتهم جاءت على أنني أردت لا على أنني فعلت ، والحد والعقاب لا يجبان على معتقد الجرم ما لم يفعله فاذا هو فعله استحق العقاب على الفعل ، وأنا لم أفعل فلا عقـــاب علي . وذلك في قوله : وكن فارقاً بين دعوى أردت .

الرابع : وعلى فرض رد ذلك كله ، فانما تجب الحدود على البالغ وأنا صبي لم أبلغ الحلم ولم تجب عليّ الصلاة ، فكيف يحكم عليّ بالعقاب والعقاب فرع التكليف ، وأنا لم أكلف فلا عقاب عليّ . وفي ذلك يقول تعجل في وجوب الحدود .

الخامس : وعلى فرض الاعراض عن كل ما جئت به من وجوه الدفاع فانني أطلب العفو والصفح وهذا آخر ما يطلبه المحكوم عليه وهو قوله :
وفي جود كفيك ما جدت لي .

ويظهر من هذا أن التهمة وجهت اليه وهو دون سن البلوغ أي دون سن الخامسة عشرة من عمره ، وهي السن التي يقع معها التكليف ، أو كان حوالها على فرض المبالغة ، وفي تفننه في وجوه الدفاع بل في إنكاره التهمة من أساسها ما يدل على أنه ما ادعي عليه به من التنبؤ لم يكن على حد التواتر ، ولو انتشرت دعوته واجتمع عليه جماعة من قبائل شتى لكانت لأجلها متواترة ، وكان مثل هذا الدفاع ومثل هذا الانكار مكابرة ومماحكة وهراء من القول فكيف يتسنى لأبي الطيب حينئذ أن ينكرها من أساسها بل كيف يتسنى لمثل أبي العلاء المعري وهو أقرب الناس إلى زمانه وأكثرهم معرفة به واعجاباً أن يشكك فيها !

من الذي سجنه

بقي الكلام في اسم الوالي الذي قبض عليه وسجنه ثم استتابه وفي هذه القصيدة من صفات الوالي ما يدل عليه ، وقد سمعت مما تقدم أنه أحد الرجلين : لؤلؤ الاخشيدي أو ابن علي الهاشمي . يقول أبو الطيب :

فمن كالأمير ابن بنت الأمير ... أم من كآبائه والجدود
رمى حلبا بنواحي الخيول ... وسمر يرقن دما في الصعيد
فولى بأشياعه الخرشني ... كشاء أحس بزأر الأسود

قالوا لي إذاً هو أمير ابن بنت أمير له آباء وجدود يفتخر بهم ، وليس للؤلؤ مثل هذه الصفات لا حقيقة ولا ادعاء فكونه ابن علي الهاشمي أقرب إلى التحقيق . ويدل قوله : رمى حلباً بنواحي الخيول انه قاد الجيوش إلى حلب ، ولم تكن يومئذ حرب بين حلب وحمص ، فهو اذاً قد

ساقها لنصرتها لا لحربها وذلك فيما وراء حلب لقتال الروم بدليل قوله فولى بأشياعه الخرشني ، وليس الخرشني إلا الدمستق صاحب عسكر الروم شرقي القسطنطينية وكانت له حرب مع هذه البلاد في سنة ٣١٩ وعمر أبو الطيب يومئذ ست عشرة سنة ، وأرجح أن متولي كبر الكراهية في هذه الحرب بنو حمدان أمراء الموصل لأن حفظ ثغور الروم كان مفوضاً اليهم من خليفة بغداد ، ولم يكن الاخشيديون يوماً من الأيام مناصرين للحمدانيين .

بعد السجن

قال ياقوت « ولم يزل (المتنبي) بعد خروجه من الاعتقال في خمول وضعف حال حتى اتصل بأبي العشائر (ابن حمدان) ومدحه وعرف منزلته وكان والي انطاكية من قبل سيف الدولة ، ولما قدم سيف الدولة أنطاكية قدّم المتنبي اليه وأثنى عليه عنده ، وعرفه منزلته من الشعر والأدب » وسيف الدولة ملك حلب سنة ٣٣٣ وعرفه سيف الدولة منذ قدمه أبو العشائر كما هو ظاهر قول ياقوت سنة ٣٣٧ فتكون المدة بين خروجه من السجن واتصاله بسيف الدولة حوالي سبعة عشر عاماً .

وما زال أبو الطيب في ضنك عيش وسوء حال بعد خروجه من السجن يدفع هم الفقر بطرق أبواب الأمراء والولاة ، فلا يجد عندهم إلا خسيس العيش ولم ترفعه صلاتهم الى أن يستبدل بنعليه مركوباً ولا برجليه راحلة فيقول يومئذ :

لا ناقتي تقبل الرديف ولا بالسوط يوم الرهان أجهدها
شراكها كورها ومشفرها زمامها والشسوع مقودها

ويقول :

ومهمه جبته على قدمي تعجز عنه العرامس الذلل
في سعة الخافقين مضطرب وفي بلاد عن أختها بدل

ويقول في قصيدته الدينارية :

أظمتني الدنيا فلما جئتها مستمطراً مطرت علي مصائبا
وحُبيت من خوص الركاب بأسود من دارش فغدوت أمشي راكبا

فكان من جملة مصائبه أن يفرغ إلى علي بن منصور الحاجب من جور زمانه ويمدحه بمثل هذه القصيدة الغراء فيجيزه عليها ديناراً واحداً وكأنه أراد أن يمن عليه بهذا الدينار ليشتري به بدلاً من حذائه الذي قطعه في المشي اليه .

ويقول المتنبي في قلة الجدوى :

لُم الليالي التي أخنت على جدتي برقة الحال واعذرني ولا تلم
أرى اناساً ومحصولي على غنم وذكر جود ومحصولي على الكلم

والظاهر أن أول من اتصل به من الرؤساء هو أبو عبد الله معاذ بن اسماعيل اللاذقي فان معاذاً يقول : انه جاء اليه في سنة ٣٢٠ ولا عذار له وله وفرة جميلة . وارجح أن اتصاله بمعاذ إذا صح أنه كان سنة ٣٢٠ كان بعد خروجه من السجن ، لأنه لما كان في السجن بدعوى الخروج (ولم يعلم أنه سجن قبلها أو بعدها) كان في الخامسة عشرة أو حوالها . وأما ما جاء في حديث معاذ من أنه مخرق له وأغواه بضرب من السحر تعلمه من اليمن ، وأن معاذ رجع عن الغواية به لما علم أن ما جرى منه كان قد تعلمه من اليمن بعد أن سأله هل دخلت السكون؟ فأجابه المتنبي نعم أما سمعت قولي :

أمنسي السكون وحضرموتا ووالدتي وكندة والسبيعا

فهو ظاهر الوضع لأن البيت المذكور هو من قصيدة مدح بها المتنبي علي بن ابراهيم التنوخي سنة ٣٢٣ على أنه لم يرو أن المتنبي دخل اليمن وما السكون وحضرموت وكندة في البيت إلا أسماء محال بالكوفة قال ذلك شراح ديوانه .

قضى أبو الطيب ثلاث عشرة سنة بين اللاذقية ومنبج وطرابلس وطبريا والرملة وغيرها من البلاد لا يروي ظمأه الى المعالي ولا يبلغ آماله من المال ، وكان في تلك الحال السيئة يقول :

إذا لم تجد ما يبتر الفقر قاعداً فقم واطلب الشيء الذي يبتر العمرا
هما خلتان : ثروة أو منية لعلك أن تبقى بواحدة ذكرى

وما زالت هذه حاله حتى نعم بكرم أبي العشائر ، فاستيقظت مع الرخاء ونعمة العيش روح كبريائه ، ولما أراده سيف الدولة لصحبته لم يجبه أبو الطيب إلا على شرط أن لا ينشده قائماً ، وأن لا يقبل الأرض بين يديه كما كانت سنة الشعراء مع الملوك والأمراء يومئذ وقبل سيف الدولة شرطه حرصاً على الاستئثار بفرائده وقلائده الخالدة على الدهر ، وهذه الميزة لم يعطها سيف الدولة لأحد ممن كان في حضرته من الشعراء غير أبي الطيب ، ولما أنشده أول قصيدة مدحه بها وقال في مطلعها « وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه » ، اعترضه ابن خالويه وكان حاضراً ، فقال لأبي الطيب أتقول أشجاه وانما هو شجاه فقال أبو الطيب له (اسكت ليس هذا من علمك انما هو اسم لا فعل)

وابن خالويه من أئمة العربية يجبيه أبو الطيب بمثل هذه الغلطة لأنه انتصر عليه وهو من الاعتداد بنفسه وبعلمه بالمحل الذي علمت .

ولعل هذا التعاظم من أبي الطيب على ابن خالويه كان أساساً للتعادي بينهما الذي انتهى أمره بأن ضربه ابن خالويه بمفتاح من حديد على وجهه في حضرة سيف الدولة فأدماه .

توالت نعم سيف الدولة على أبي الطيب فاستبدل بالأسود الدارش أفراساً نعالها من عسجد وترك السرى وقطع القفار لمن قل ماله وأصبح يقول :

في الشرق والغرب أقوام نحبهم فبلغاهم وكونا أبلغ الرسل
وخبراهم بأني في مكارمه أقلب الطرف بين الخيل والخول

ولكن أبا الطيب لم يجد بعد هذا كله قيد الاحسان يقيده في ذرى سيف الدولة كما زعم .

شهرته الطائرة في شعره وأثرها في طموحه وكبريائه .

يقول صاحب المثل السائر : « وأما المتنبي فقد شغلت به الألسن وسهرت في أشعاره الأعين وكثر الناسخ لشعره . والغائص في بحره والمقتبس من جمانه ودره » وإنما شهرة أبي الطيب إنما نمت وعمت منذ اتصل بسيف الدولة فأكثر هـذا حساده بكثرة انعامه عليه وبما رفع من منزلة لديه .

نشطت روح الطموح في أبي الطيب بعد أن سار ذكره في الأقطار مسير الشمس وتناقل شعره البدو والحضر وعمرت به أندية الأدب ، واستمان بألفاظه ومعانيه جمهور الكتاب حتى من كان شديد الكره له عظيم النقمة عليه كالصاحب بن عباد .

ويقول ابن العميد وقد ماتت أخته : « انه ليغيظني أمر هـذا المتني واجتهادي في أن أخمد ذكره ، فقد ورد علي نيف وستون كتاباً في التعزية ، ما منهم إلا وقد صدر كتابه بقوله :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فزعت فيه بآمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملا شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

فكيف السبيل إلى إخماد ذكره » وهذان البيتان من قصيدة أنفذها أبو الطيب إلى سيف الدولة في رثاء أخته سنة ٣٥٢ وكان اتصال أبي الطيب بابن العميد سنة ٣٥٤ ولا ريب أن غيظ ابن العميد منه كان قبل أن يقدم عليه ، فلا يكون إذاً بين نظم القصيدة وانتشارها بين المتأدبين والكتاب في كل البلاد حتى استفتح بأبياتها هذا العدد الجم من أدباء الأقطار المختلفة ، إلا عام وبعض عام ، على تباعد الأقطار وصعوبة الأسفار .

وجاء في الصبح المنبي عن بعض أئمة الأدب أن رجلا من مدينة السلام كان كلما دخل بلداً يسمع فيه ذكر أبي الطيب يرحل عنه حتى وصل أقصى بلاد الترك فسأل عن أبي الطيب فلم يعرفوه ، فتوطنها فلما كان يوم الجمعة ذهب إلى صلاتها بالجامع فسمع الخطيب ينشد بعدما ذكر أسماء الله الحسنى :

أساميا لم تزده معرفة وإنما لذة ذكرناها

فرجع إلى دار السلام .

فلا عجب إذاً لرجل ملأ ذكره الأسماع وشغل الدنيا كما يقول أن ابن رشيق أن يزداد كبراً وتعاظماً ويقول لسيف الدولة :

أجزني إذا أنشدت شعراً فانما بشعري أتاك المادحون مرددا
ودع كل صوت غير صوتي فانني أنا الصائح المحكي والآخر الصدى
وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

وأن يترفع بعد هذا عن مدح غير الملوك وأعيان الزمان ، فلم يجب دعوة الصاحب ابن عبّاد مع ما بذله هذا من الجهود لاستقدامه اليه . فيقول أبو الطيب فيه : «أن غلياً معطاء باري» ، يريد أن أزوره وأمدحه ولا سبيل إلى ذلك ، على أنه معطاء يعني الجوائز ، فلم يستعمله ذلك اليه لأنه استغنى ، فلم يفعل ما كان يفعله أيام بؤسه لغلبة عزة النفس والكبرياء عليه .

وقد أثار إعراضه هذا حفيظة الصاحب ، فاتخذه غرضاً يرشقه بسهام الوقيعة ويتتبع عليه سقطاته في شعره وهفواته ، وينعي عليه سيئاته وهو أعرف الناس بحسناته وأكثرهم حفظاً لها وتمثلاً بها في محاضراته ومكاتباته[1] وأعرض عن الوزير المهلبي وزير الدولة البويهية في بغداد حتى أغرى هذا به حساده من شعراء العراق كابن حجاج وابن سكرة الهاشمي والحاتمي وغيرهم ، فنالوا من عرضه وتباروا في هجائه

---

(١) البقية

وتماجنوا وتنادروا عليه . ولما قيل له في ذلك لم يزد على قوله « فرغت من اجابتهم بقولي في من هم أرفع طبقة في الشعر منهم :

أرى المتشاعرين غروا بذمي ومن ذا يحمل الداء العضالا
ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا

وخشي ابن العميد وزير ركن الدولة ابن بويه وزعيم الحضرة والمقيم بمصالح المملكة في أرجان وهو على أشد ما يكون من الرغبة في لقائه واستقدامه اليه ، أن يعرض عنه كما أعرض عن زميله المهلبي في بغداد ، فغري بذمه وانتقاده ، حتى إذا جاءه أبو الطيب مراغماً المهلبي ، فتح له ابن العميد صدره وأجزل ثوابه وأحسن وفادته ، وسل ما كان في نفسه عليه من موجدة .

وأنف أبو الطيب من مدح ابن حنزابة وزير كافور والمقرب منه ، وهو من بيت شريف أهل وزارة ورياسة ، ومن الأدب والعلم بموضع جليل . فأفسد هذا عليه كافوراً بما كان يقبح أثره عنده ، وبما كان ينبه على مغامزة في مديحه له حتى خرج أبو الطيب من مصر خائفاً يترقب واتخذ الليل جملاً وهرب .

روح أبي الطيب في الاباء قوية ؛ ولكن طمعه في الولاية ولذة الامر والنهي والاستعلاء وافراطه في هذا الطمع غطى على هذا الاباء في بعض المواقف ، فاستقاد واستذل ، وإلا فما معنى قوله في كافور بعد أن ترك سيف الدولة :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت به انسان عين زمانه وخلت بياضاً خلفها ومآقيا

* * *

فأصبح فوق العالمين يرونه وان كان يدنيه التكرم نائيا

ويقول فيه :

وأخلاق كافور إذا شئت مدحه وان لم تشأ تملي علي فأكتب
فتى يملأ الأفعال رأياً وحكمة وبادرة احيان يرضى ويغضب

يقول هذا وكثير مثله فيه وهو العبد الزنيم الذي أذنه في يد النخاس دامية وقدره وهو بالفلسين مردود ، ويقبل منه ما لم يقبله من سيف الدولة فيخضع للانشاد بحضرته قائماً وهو يعلم أن الفرق بين سيف الدولة وكافور علماً وأدباً ونسباً وشرفاً ونوالاً ، كالفرق بين الدرة والبعرة لا يقاس بحد ، وما كان كل ذلك الا طمعاً في الولاية ، ولعله طمع في خداع هـذا الأسود بما يحسبه من ضعف العقل في السودان فازداد في تملقه اذ يقول له ولم يفتأ يذكر الولاية :

اذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية ... فجودك يكسوني وشغلك يسلب

يضاحك في ذا العيد كلٌ حبيبه ... حذائي وابكي من أحب وأندب

أحن الى أهلي وأهوى لقاءهم ... واني من المشتاق عنقاء مغرب

فان لم يكن الا أبو المسك أدهم ... فانك أحلى في فؤادي وأعذب

وليس هذا ملق كاذب أن يجعل الأسود الذي مشفره نصفه أحلى في فؤاده وأعذب من اهله الذين يحن اليهم هـذا الحنين ويهوى لقاءهم كما ترى .

دمشق : تموز سنة ١٩٣٦

الكرم وتأثيره في عالم الاجتماع

للأستاذ سليم عنحوري

ايها السادة : لقد أسمعكم هذا المنبر منذ عامين محاضرات جمة . وخطباً عديدة في الأدب واللغة وانواعاً شتى من العلوم والفنون . فلاق بي الآن ان انتقل بكم في محاضرتي هذه الى موضوع أخلاقي عمراني . هو مزية من مزاياكم . ومكرمة من مكارم أسلافكم . له عظيم تأثير في حالة الاجتماع الانساني شرقاً وغرباً ، بدْواً وحضراً . الا وهو الكرم . وفي يقيني انكم تجدون فيه لذةً وفكاهةً وارتياحاً وعبرة . فأقول :

الأغنياء يعظمون لانهم أقوى على الامداد والاحسان
فاذا تباخل ذوغنى أضحى الفقير أجلّ نفعاً منه للعمران
فعلامَ يُكرمُ منعم ذو ثروة لم يُجد خيراً عالم الانسان
وإلام يُرزى بالبُس ذو حرفة يشقى لينعم ذو الغنى المتواني
سبحان ربي كم نرى في ذا الورى حيفاً وظلماً واضح البرهان

الكرم ، والجود ، والسخاء ، والحباء ، والسماحة ، والعرف ، والمعروف ، والعرفان ، والنوال ، والنائل ، والرفد ، والاحسان ، والبذل ، والجدى ، والندى ، والمنح ، والنفح ، والسيب ، والنفل ، والهبة ، والصلة ، والهدية . كلمات مترادفة تدل مع بعض الفوارق على معنىً واحد . يراد به العطاء نبلاً وأريحية . او عطفاً وشفقة . أو إغاثةً ومعونة بلا مقابل مادي . او موجب ديني أو قضائي .

فالكرم إذن بمقتضى هذا التحديد والتعريف لا يكون اداء لدين او سابق حق . ولا وفاء لزكاة او نذر . ولا جزاء لعقوبة . او ضماناً

لغرامة . او صلحاً عن خصومة . او قياماً بما يلزم المرء عيالته من اليتامى والاقربين . فان هذه المعدودات وأشباهها انما هي من قبيل ايفاء الحقوق وابراء الذمم والنهوض بالفروض والواجب فلا تحسب من الكرم في شيء كما تعلمون .

والكرم نوعان إما خاص وإما عام . فالخاص ما شمل شخصاً أو أسرة او جماعة في حال من الاحوال . فيكون نفعه موقتاً ومنحصراً بالمحسن اليهم دون سواهم . والعام ما يبذل في سبيل خيريّ او علميّ . بحيث ينفع قوماً بجملتهم او أمة بأسرها أمداً مديداً . وكلاهما مفيد ولازم للجامعة الانسانية . وان كان الثاني أنفع وأبقى وأعم وأتم .

ولا فرق من حيث النتيجة بين ان يكون العطاء عفواً قبل الطلب . او تلبيةً للسائل بعد الطلب . وان كان الاول منها أوضح دلالةً . وأنصع برهاناً على علو كعب الكريم الجواد واتساع مروءته ونزاهة غايته .

قال الحسن رضي الله عنه : المعروف ما كان ابتداءً من غير مسألة . فمن تعطيه بعد المسألة انما يأخذ بما بذل لك من ماء وجهه .

وكان قد دخل على أسامة بن زيد وهو يجود بنفسه فرآه يتأوه لدين عليه : ستين الف درهم لا يجد له قضاء فحملها عنه قبل السؤال ومضى .

والى فضل هذا النوع من العطاء أشار يزيد بن محمد المهلبيّ مادحاً الوزير سليمان بن وهب :

وكم ملحف قد نال ما رام منكم ويمنعنا من مثل ذاك التجملُ
وعوّدتمونا قبل ان نسأل الغنى ولا بذل للمعروف والوجه يُبذل

وشر العطاء ما جاء بعد وعدٍ ومطل . وتسويفٍ وتأجيل . ولذلك قيل : « خير البر عاجله » .

مدح بشار بن برد أحد الامراء فوعده بجائزة ثم مطله زماناً ، ثم حجبه فاعترضه يوماً في الطريق بعد ان سئمت نفسه وقبض على شكيمة فرسه وأنشد :

أظلت علينا منك يوماً سحابةٌ أضاءت لنا برقاً وأبطا رشاشُها
فلا غيمها يصحو فييأسُ طامعٌ ولا غيثها يهمي فتروي عطاشُها

فخجل الأمير وبذل له صلته .

وقد تعجبون يا سادتي لكثرة الكلمات الدالة على معنى الكرم . ولكن هذا العجب يزول متى عرفتم ان العرب من شأنهم اذا أحبوا شيئاً ، او خافوا شيئاً ، او تفاخروا وتنافسوا في شيء أكثروا له من اسماء الذات والصفات حتى لقد يتجاوزون في بعضها المئات : كالإبل والأسد والخيل والحية ، والسيف والرمح والمرأة ، والخمرة ، وغيرها وغيرها . تلك مزية تفردت بها هذه اللغة الشريفة فلا يضارعها بها غيرها من سائر اللغات .

والكرم كما تعلمون من مميزات هـذه الامة ، واسمى مفاخرها . وبه اشتهرت في كل دور من أدوارها — اي حال جاهليتها واسلامها . وفي أطوار بداوتها وحضارتها ، وفي عهد تقدمها وتأخرها — فلا عجب اذا تكاثرت فيها اسماؤه وتعددت صفاته . وهو في عرف اهلها سجية من سجايا النفس يهتز لها الجواد اهتزاز المهنّد في كف الشجاع ، فتفيض يده بما تفيض إحساناً على من يريد ، فيضاً تنبسط له روح المحسِن كما تُسرُّ به نفس المحسَن اليه على حد قول القائل :

تعوَّد بسط الكف حتى لو انه اراد انقباضاً لم تطعه أنامله
يفيض سروراً كلما فاض سيبُه كأنك معطيه الذي انت نائله
فلو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بهـا فليتق الله سائله

وهذه السجية موهبة من مواهب الله عزَّ وجلَّ يخصُّ بها من طاب عنصره . وسمت أعراقه من عباده . فلا تأتي تكلفاً ولا تطبعاً : فان البخيل اذا تظاهر بالجود حيناً من الدهر لغرض في النفس او حياء من الناس او تطاولٌ لمنزلة الاجواد لا يبطيء ان يعود الى سالف حاله . وسابق خسّه . ولقد صدق من قال :

كل امريء راجع يوماً لشيمته وان تخلّق اخلاقاً الى حين

وكفى بالكرم شرفاً أنه من صفات الجمال المطلق والكمال الالهي ولله فيه من الاسماء الحسنى . الكريم . والاكرم . والجوّاد . والمعطي . والمحسن . والواهب . والوهاب . والرازق والرزاق . وما بعد ذلك من حاجة لمستزيد .

وللعرب في الكرم كما قلنا الطراز المُعلَم ، والحظ الأوفر ، والذكر الشائع . وان أمة نشأ فيها امثال (كعب بن مامة) الايادي الذي آثر رفيقه على نفسه بنصيبه من المـــاء وهو يموت من الظمأ ، واضراب (حاتم الطائي) الذي ذبح ايام المجاعة فرسه ليطعم ضيوفه واهلَ حيه ، وهو جائع لا يبقي لنفسه قوتاً . واشباه (هَرِم بن سنان) المري الذي كان يحمل الديات عن ذوي الثأرات ليصلح بين القبائل حقناً للدماء ، وإزالة للشحناء . وأنداد (صعصعة بن ناجية) الدارمي التميمي جد الفرزدق الشاعر المشهور محيي الوئيدات اي البنات اللواتي اعتاد العرب في جاهليتهم ان يدفنوهن حيات ليأمنوا شرّ إملاقهن في المجاعات وعار سبيهن في الغارات : فان (صعصعة) هذا كان يفتديهن من آبائهن بالمال استحياء لهن حتى جاءهم الاسلام فحرم فيما حرم الوأد . ومنه بعد اذ كان (صعصعة) استحيى اربعمائة فتاة . وفي ذلك يقول حفيده الفرزدق :

وجدّي الذي منع الوائدات واحيى الوئيدَ فلم يوأدِ

أجل : ان أمة نبغ فيها امثال هؤلاء الاجواد في الجاهلية . ومئات بل الوف غيرهم في الاسلام ممن تضرب بجودهم الامثال . وتفيض بذكر مآثرهم الاندية والاودية — لجديرة بالقول انها المجلية في مضمار البذل والعرفان بين أمم الأكوان . منذ خلق قحطان حتى هذا الزمان .

ولم يقتصر الكرم العربي على الرجال فقط فقد نبغ في نسائهم من حاكينهم فيه : فسفّانة بنت حاتم كانت كأبيها تقري الضيوف وتهب الالوف وتكسو الفقراء الشفوف ولا تبالي .

وأم البنين بنت عبد العزيز الأموية تعتق في كل يوم رقبة وتحمل

عتيقها على فرس وتقول « لو كان البخل قميصاً ما لبسته ، ولو كان طريقاً ما سلكته » .

وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : ارسل اليها عبد الله بن الزبير مئة وثمانين الف درهم فقسمتها بين الناس فما امست وعندها منها درهم واحد . ولقد روي عنها ايضاً أنها احسنت بسبعين الف درهم في يوم واحد وهي في درعٍ مرقّعٍ لا ثوب لها سواه .

وسكينة بنت الحسين رضي الله عنها كان يحتكم اليها مجيدو الشعراء كالفرزدق وجرير وجميل وكثير ونصيب فتسمع ما يقولون وتحكم بينهم ثم تحسن اليهم حتى انها اعطت جميلاً العذرى في يوم واحد كسوةً وطيباً وخمسمائة دينار ولكل من رصفائه مئة مئة .

وزبيدة ابنة جعفر زوج الرشيد : لقيها نُصيب (الصغير مولى المهديّ) في طريق الحج فترجل وأنشد ابياتاً منها :

سيستبشرُ البيتُ الحرامُ وزمزمُ بأم وليّ العهد زين المواسم
ويعلمُ من وافى المحصّب أنها ستحمل ثقل الغرم عن كل غارمِ

فجادت عليه بعشرة آلاف درهم وفرس .

والعباسة بنت المهدي مدحتها جمناه بنت نصيب هذا باربعة ابيات آخرها :

عليكِ ابنة المهديّ عوذي ببابها فان محل الخير في حيث حلّتِ

فأمرت لها بثلاثة آلاف درهم وكسوة وطيب .

وأم سلمة زوج السفاح سمعت كلاماً مستحسناً قاله خالد بن صفوان لزوجها فأمرت له بخمس بدر وخمس حلل .

وفيما ذُكر غنىً عما لم يذكر من امثال هذه النوادر الدالة على جود ربات الحجال فان المقام مقامُ إلماعٍ وايجاز لا مقام تفصيل واسهاب .

ولم ينته الكرم بأهله الى هذا الشأو ، ويرتفع بصاحبه الى الاوج الاسمي من المجد والسؤدد الا لأنه المرآة الصافية التي تتجلى من شعاعها عاطفة الانسان نحو اخيه الانسان . ومبلغ ما تكنّه الافئدة النقية من

شواعر الرقة والرأفة والحنان . فهو كما لا تجهلون ابن الرحمة وأثرها الظاهر للعيان : فان الأريحية لا تنبعث في النفوس فتفيض على الأكف فتتهلل لها الوجوه بحيث تكشف ضيماً ، وتزحزح بلاءً ، وتدفع مصيبة ؛ الا اذا مست الرحمة قلوب أصحابها ، وتسربت الشفقة الى صميم شغافها . فتحدو بها إغاثة ذي المحنة بالمال الذي يسمونه سيد الارض ، وعديل الروح وقاضي الحاجات – وما إطلاقه من الايدي بالهين السهل – لولا ذلك الشعور الفاعل بالاعصاب الحساسة فعل الكهرباء الا وهو الرحمة الباعثة على المكارم .

ولقد جاء في الحديث النبوي الكريم : « ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء » فالمراد من الرحمة هنا ليس التوجع والتفجع لمصائب الناس فحسب ، بل يراد بها مع ذلك ظهور آثارها بالمعونة والاغاثة والامداد مالاً وجاهاً وعملاً على قدر الوسع والطاقة بلا منٍّ ولا إذاعة ولا استعلاء لان الرحمة غير المقرونة بالاحسان والاسعاف لا نفع لها ولا جدوى ما دامت مقصورةً على التأوه والتألم فقط ولا تتعداه الى الاغاثة والمعاونة التي هي أس العمران ودعامة الحياة وركن الاجتماع .

يظن بعض الناس ان التعاون انما يراد به ان يكون احدنا مثلاً نساجاً والآخر حراثاً والآخر نجاراً . فيتبادل كل منا حاجته من الآخرين بالشراء بحيث تستغني الافراد عن تعدد الاعمال التي تقتضيها الحياة ؛ وهو ما يقال له (توزيع الاعمال) وتبادل المنافع . وعليه تجري جميع أمم الارض ، وبه تقوم الحضارة ، ويصلح شأن الجماعات في كل عصر ومصر .

أجل ان ما وصفناه هنا انما هو ضرب من ضروب التعاون الذي هو نتيجة ضرورية وطبيعية لحياة المجموع . وليس هو التعاون كله : فان له ضروباً أخرى أهمها ما كان صادراً عن عاطفة الرحمة : فان الحياة الدنيا كثيرة المعاثر والصدمات والجوائح والامراض . فاذا لم يكن كل فرد عوناً لصاحبه او لمن حوله من بني نوعه حال عثاره ومحنته سقط

المجموع لتخاذل الافراد وآل امره الى التعس والشقاء المؤديين الى الضعف والبوار والانقراض وهيهات يتوفر لأمة حظ او يستقيم لها شأن الا بهذا الضرب من التعاون المجانيّ الطوعيّ الذي نسميه هنا كرماً وإحساناً وعاطفة ورحمة بل بمقدار ما يزداد عدادُ الرحماء الكرماء المحسنين في قوم زادت حياتهم بسطةً ومنعة ومعيشتهم راحةً ودعةً . وظهر في أفرادهم ومجموعهم من آثار القوة والنعمة ما ينيلهم الغبطة والسعادة والنعيم والهناء والعكس بالعكس . ولكن قل من يتفكرون .

لقد مرّ بكم يا سادتي عن الكرم واسمائه ومعانيه وحدوده ومنزلته وأنواعه وتأثيره في المجتمع الانساني ما يحتمله المقام . ولقد رأيت قبل ان أعالج تقسيمه الى اقسام تميز فيها منافعه من مضاره ان أروي لكم لمعاً من مكارم الأجواد من السلف مما فيه فكاهة وعبرة وذكرى .

فمن هؤلاء (حاتم الطائي) الذي مرّ بكم ذكره وهو أشهر أجواد العرب ذكراً وأبعدهم صيتاً . واليه ينسب الكرم في الجاهلية . فيقال (كرمٌ حاتميٌّ) كما ينسب في الاسلام الى البرامكة وزراء الرشيد فيقال (كرم برمكي) . .

وكان حاتم هذا مع جوده شاعراً مطبوعاً وبطلاً مغواراً وغازياً مظفراً اذا قاتل غَلَب ، واذا غَنِم أنهب ، واذا سُئِل وهب ، واذا ضرب بالقداح فاز ، واذا سابق سبق ، واذا أسر أطلق .

ومما تفوّق به على اقرانه حتى كان سبباً لشهرته وإذاعة صيته انه كان يرسل عبيده في ليالي الشتاء الباردة المظلمة فيضرمون النار على رؤوس النجاد ، وفي مفارق الطرق ، ليهتدي بها أبناء السبيل ، فيقصدونه للقرى والمبيت . فاذا جلبت النار ولو ضيفاً واحداً عتق موقدها من الرقّ سروراً بضيفه وفي ذلك يقول مخاطباً عبده :

اوقد فان الليل ليلٌ قرٌّ عسى يرى نارك من يمرٌّ
ان جلبتْ ضيفاً فأنت حر

وكان اذا أهلَّ الشهر الاصم الذي تعظمه العرب في الجاهلية نحر كل يوم عشراً من الابل . فيطعم الناس . فلما زاد إتلافه المال وهو لا يزال في حجر اوليائه ارسله ابوه وقيل جده الى المراعي ليبعده عن الناس . فمرَّ به هناك ثلاثة من الشعراء وهم عبيد بن الابرص وبشر بن ابي حازم ونابغة بني ذبيان ؛ ففرَّق بينهم ما لأهله من الابل وقفل الى الحيّ مسروراً كمن عاد من ظفر او غنيمة . ولما سأله جده سعد عن الابل قال له « طوَّقتك بها طوق الحمامة مجداً وكرماً » فقال مغتاظاً (شهد الله اني لا أساكنك بعد اليوم ابداً) ثم ترك له جاريةً وفرساً ذات فلو ورحل عنه . وفي ذلك يقول حاتم من ابيات :

وما ضرَّني ان سار سعدٌ باهله　　وافردني بالدار ليس معي اهلي

سيكفي ابتناء المجد سعد بن حشرج　　واحمل عنكم كل ما ضاع من نفلي

فما علم ان جاءه جماعةٌ من بني أسد وقيس . وقالوا له : ان لنا صاحباً فقد راحلته فقال حاتم خذوا فرسي هـذه واحملوه عليها . فلما اخذوها تبعها المهر فجرت الجارية وراءه لتمسكه وتعيده فصاح حاتم بالقوم « ما تبعكم فهو لكم » فذهبوا بالجميع اي بالفرس والمهر والجارية . وبقي وحده لا يملك شيئاً .

ومرَّ في احد الاشهر الحرم بقوم من بني عنزة واذا باسير لهم يدعوه باسمه ويقول له : انقذني فقد اكلني الاسار . فقال له : ويحك ما انصفتني فقد نوهت بي واستجديتني وانا هنا غريب ولا مال لي . ثم ساوم القوم وافتداه منهم على مال معلوم . وقال لهم : خلُّوا سبيله . وأنا أقيم مكانه في قيده حتى أعطي الفداء ففعلوا وما برح اسير القوم يقاسي الذل والامتهان حتى تيسر له الوفاء .

وقيل نزل عليه ضيف ولم يكن عنده شيء فنحر ناقة الضيف واطعمه منها . ثم قال له قد نحرت ناقتك فاحتكم قال (راحلتين) قال حاتم لك عشرون أرضيت قال نعم قال فلك اربعون . ثم قال لمن لديه من قومه من

اتاني بناقة الآن فله ناقتان بعد الغارة فاتوه باربعين فدفعها للضيف . وأداها لهم ثمانين .

وكان قيس بن عاصم المنقري من سادات العرب وأجوادهم فنزل به ذات يوم ضيف فأطعمه واكرمه جرياً على عادته . واذا بقومه يتصارخون ونسائه يبكين . فسأل ما الخبر ؟ فقالوا له ان ابنه قتل . وان القاتل هو الضيف . فقال ما لكم اليه من سبيل ، فقد دخل في ذمامي وتحرّم بطعامي ، ثم عزل من ماله دية القتيل ودفعها الى أمه ، وما زال يرعى ضيفه ويتحارسه حتى بلغ حماه .

وكان قيس هذا اذا قدموا له طعاماً يقول التمسوا أكيلاً اي ضيفاً يأكل معي فلم يأكل مرة وحده .

وسر تنافس العرب بإيواء الضيف وإطعامه كائناً من كان انما هو كونهم اهل مضارب وخيام واصحاب إبل وشاء . يدفعهم الاحتفاظ بها والقيام على تربيتها وانمائها الى انتجاع منابت الكلاء وارتياد مناهل الماء فهم ابداً متنقلون من مرتع الى مربع ، ومن سهل الى واد ، لا يستقر بهم مكان ، ولا يقوم لهم بنيان . فلا يجد المسافرون منهم في طول تلك البوادي وعرضها نزلاً او خاناً او دسكرة للمبيت او الطعام كما يوجد في المدن والعواصم على النحو المعروف منا الآن . فيلجأون بحكم الضرورة الى استضافة بعضهم بعضاً التماساً للراحة والنوم والقوت ، وتخلصاً من وحشة الانفراد في حنادس الليل ، ووقاية لنفوسهم مما قد يفاجئها في تلك الفلوات الخالية من عدو غادر ، او اسد كاسر ، او وحش جائع نافر .

فمن كان من سادتهم واشرافهم كريم النفس ، واسع النعمة ، طلاباً للشهرة رفع عماد سرادقه ، وتوسط به الحي تمييزاً له عن سواه ليقصده المسافرون فيبذل طعامه للصادرين والواردين والرائحين والغادين ، ولو كابد في ذلك عرق القربة ومنتهى المشقة .

ولقد شاعت هذه المكرمة فيهم ، وتمكنت من خاصتهم وعامتهم . حتى

عدّ الاضراب عنها والزهد فيها عاراً وسبةً تشتم فيها الابناء عن الآباء ، وتذم الاحفاد عن الأجداد ، ولقد يطرق الضيف ارملةً عجوراً وحيدةً لا مال لها الا شاة او عنز تقتات بدرّها وتكتسي بصوفها او شعرها فتذبحها اكراماً لضيفها وهي طلقة الوجه مبذولة الأنس ثم تبقى الى ما شاء الله أليفة الفقر حليفة البؤس فيحسب عملها هذا مأثرة لها يتحدث بها فتيانهم ، ويتناقلها ركبانهم الى امد مديد .

ولا يزال ذلك شأن البدو وبعض اهل المدر حتى يومنا هذا : فكم وكم في بلادنا هذه من شيوخ عشيرة او قرية لا تطفأ ابداً نارهم ولا تنزل قدورهم يبسطون كل يوم عشرات من الاسمطة للذاهبين والآيبين ويبذلون العلف والماء لخيول المقيمين والراحلين لا يلتمسون عن ذلك بدلاً ولا يبتغون اجراً ، الا طيب الأحدوثة ونباهة الذكر . وغاية ما يتطالون اليه من دواعي الفخر ان ينزل بهم ضيف خطير فينحرون له كبشاً ، ويطبخون ارزاً ، ويجمعون اهل الحي او القرية على جفانهم فيأكلون هنيئاً مريئاً ، وينقلبون حامدين شاكرين .

واذا استقرأنا يا سادة ما مرّ بكم من اخبار الكرم الجاهلي نجده منحصر في اربعة انواع : وهي بذل الديات عن متحاربي القبائل والعشائر كما كان يفعل هرم بن سنان ، واستحياء المؤودات من البنات بافتدائهن من آبائهن بالمال كالمأثور عن صعصعة بن ناجية جدّ الفرزدق . وافتداء الاسرى بالمال او بالنفس كما فعل حاتم باسير بني عنزة . وقرى الضيوف وايواء ابناء السبيل كما هو شائع عند الجميع .

وهذه الأنواع الاربعة منبعثة بالضرورة عن الحاجة فهي والحالة هذه متلائمة مع عادات ومعايش الوسط الناشئة فيه . موافقة كل الموافقة لاقوام رحالين ذوي غزوات لا تنقطع ، وأسفار لا تهدأ ، وعداوات لا تزول . وفي ذلك برهان على ان أولئك البدو أقدر من كثيرين منا على إنزال سخائهم مواضعه . بخلاف ما فعل حاتم من توزيع مال جدّه برمته بين

ثلاثة من الشعراء سرفاً وتبذيراً . واعطائه ضيفه بدل الناقة التي نحرها لاطعامه اربعين ثم أداء الاربعين الى قومه ثمانين بينما هو فقير وقير لا يملك من حطام الا ما يؤمل اغتنامه من سلب ونهب عن طريق الغزو والحرب فان في ذلك من سفه الرأي ما لا يصدر عن عاقلٍ مفكر بصير .

بيد ان ظهور الاسلام وانضواء متفرقي القبائل وشذاذ القوم كافةً تحت لوائه بعد ان كادت تطحنهم الأحقاد والضغائن ، وتأكلهم الحروب والغارات . ثم دخولهم عن طريق الجهاد والفتح في بلاد الفرس والروم وما وراءهما من شواسع البلاد وأطراف الممالك وانتقال الخلافة من الحجاز الى الشام على العهد الأموي ثم الى العراق على العهد العباسي . كل ذلك قد وسّع نطاق الكرم العربي وحوّله الى جهات أخر . فتفنن فيه أجواد ذلك العصر الذهبي تفنناً ينطبق على حضارتهم المكتسبة وثروتهم المغتنمة ، وترقيهم الناشيء حتى صار امير كمعن بن زائدة الشيباني — وهو من صنائع المنصور ورجاله — يركّب في قسيّه نصالاً من الذهب فيرمي بها العدو والصيد وفي ذلك يقول الشاعر :

يركّبُ في القسيِّ نصالَ تبرٍ ويرمي للعدى كرماً وجودا
فللأسرى شفاءٌ من جراحٍ وأكفانٌ لمن سكن اللحودا

ومعن هذا رجل عصاميٌّ ، نشأ في بني شيبان وكان أدلّ بيدٍ على الخليفة المنصور بان أنقذه من تهلكة فرفع شأنه ، وأسنى مقامه ، حتى صار أميراً ممدّحاً يشار اليه بالبنان . وقد اشتهر بالحلم كما اشتهر بالكرم حتى قيل انه لم يغضب ، ولم يغتظ قط .

ولما شاع عنه هــــذا الخُلق وتداولته الألسن تراهن احد شعراء الأعراب مع قوم على مئة بعير يُعطاها اذا استطاع إحراجه وإخراجه عن حلمه ويعطيهم مثلها اذا أخفق . ففاجأه يوماً وهو على سريره بين أشراف قومه وخاصة اهله . وابتدره بلا تحية ولا سلام بقوله :

أتذكر إذ لحافك جلد شاةٍ وإذ نعلاك من جلد البعيرِ

فبهت الحضور من قحة الرجل وسوء أدبه وتعمده الحط من كرامة الامير . اما معن فبقي محافظاً على سكينته وأجابه بلا حدة ولا استياء قائلاً : نعم اذكر ذلك ولا انساه . فقال الشاعر :

(فسبحان الذي أعطاك ملكاً وعلّمك الجلوس على السريرِ)

فقال معن : سبحانه على كل حال . فقال الشاعر :

(اميرٌ يأكل الفالوذ سراً ويطعم ضيفه خبز الشعيرِ)

فقال معن : الزاد زادنا . نأكل منه ما نشاء . ونطعم ما نشاء . فقال الشاعر :

(فلست مسلّماً ان عشت دهراً على معنٍ بتسليم الاميرِ)

فقال معن : السلام سنة تأتي بها كيف شئت . فقال الشاعر :

(سأرحل عن بلاد انت فيها ولو جار الزمان على الفقيرِ)

فقال معن : ان جاورتنا فمرحباً بك . وان رحلت فمصحوب بالسلامة فقال الشاعر :

(فجد لي يا ابن ناقصة بشيء فاني قد عزمت على المسيرِ)

فقال معن : أعطوه الف درهم . فقال الشاعر :

(قليلٌ ما أتيت به واني لأطمع منك بالمال الكثيرِ)

فقال معن : أعطوه الفاً أخرى . فتقدم الشاعر الى سرير معن وقد يئس من إغضابه فقبل يده وقال :

(سألت الله ان يبقيك ذخراً فمالك في البرية من نظيرِ)

فقال معن : أعطيناه على هجونا الفين فأعطوه على مدحنا اربعة آلاف . ولما عرف منه قصة الرهان الباعثة له على هذا التهجم أعطاه ايضاً مئة بعير مكان التي خسرها بالرهان . ومئة أخرى بدل التي كان يتوقع ربحها .

واحاديث معن في الكرم اكثر من ان تحصى . ومما قيل فيه رثاءً له بعد موته :

(كأن الشمس يوم أصيب معنٌ من الظلماء مُلبَسَةٌ جلالا)
(وكان الناسُ كلهمُ لمعنٍ الى ان زار حفرته عيالا)

وقيل دخل يزيد بن مزيد مسجداً باليمن فوجد في قبلته مكتوباً :

(مضى معنٌ وخلَّفني بيمني على معن بن زائدة السلامُ)

فسأل يزيد عن قائله ولما اهتدى اليه أعطاه الف دينار . فقال الرجل رحم الله معناً : فقد أحسن اليَّ حياً وميتاً .

ومن فنون السماحة عند العرب قبل الاسلام وبعده ان يقصد الرجل جواداً منهم يؤدي عنه مهر فتاة أحبها لخطبها ولا مال له فيحمل عنه المهر مهما كان جسيماً ويعطيه ما ينفق في وليمة بنائه بها . كما فعل عمر بن ابي ربيعة الشاعر غير مرة . وهو ايضاً من أفضل أنواع الكرم وأنجعها كما لا يخفى .

اما صلات الشعراء بالألوف وعشرات الألوف فهو شأنهم بدواً وحضراً وجاهليةً وإسلاماً . وقد فاضت باخبارها كتب التاريخ . والأدب العربي حتى لم تبق حاجة لمستزيد .

ومن لطيف فكاهات هذه الصلات . ان عليَّ بن جبلة مدح ابا دُلف القاسم بن عيسى العجليَّ احد كبار قوّاد المأمون ثم المعتصم بقصيدة منها هذان البيتان :

(انما الدنيا ابو دُلَفٍ بين باديه ومحتضرهْ)
(فاذا ولّى ابو دُلَفٍ ولّت الدنيا على أثرهْ)

فأعطاه الف دينار . ثم بينما كان بعد أعوام يسير ابو دُلف في بعض الأزقة مع رفيق له اذ أشرفت فتاتان من قصر فسمع احداهما تقول للاخرى « انظري : هذا ابو دُلف الذي يقول فيه الشاعر « انما الدنيا ابو دُلف الخ » فقالت الاخرى : أو َهذا هو ؟ قد والله كنت أحب ان أراه منذ سمعت ما قال فيه ذلك الشاعر . فالتفت ابو دُلف الى رفيقه وقال له : ما انصفنا عليَّ بن جبلة ولا وفيناه حقه . فانه اعطانا مجداً

باقياً واعطيناه مالاً زائلاً . وان ذلك لمن اكبر همي . ثم بعث الى عليٍّ وكان مريضاً لا يقوى على مفارقة بيته بالف دينار وما زال يبرّه ويواصل إحسانه اليه حتى مات .

ومن عجيب امر ابي دُلف هذا انه مع فرط سخائه بالمال كان بخيلاً بالطعام حتى اشتهر عنه ذلك فقيل فيه :

(ابو دُلف يجود بالف الف ويضرب بالحسام على الرغيف)
(ابو دُلف لمطبخه قتارٌ ولكن دونه ضرب السيوف)

ومن أغرب نوادره في الصلات انه لكثرة جوده قد ركبته الديون حتى لزم داره واشتهر عنه ذلك فدخل عليه بعض الشعراء وأنشد :

(أيا ربَّ المنايا والعطايا ويا طلق المحيا واليدين)
(لقد خُبِّرتُ ان عليك ديناً فزد في رقم دينك واقض ديني)

فقضى دينه ووصله . وابو دُلف كان مع كرمه الذي تجاوز حد الاسراف وحلمه الذي لم يتقدمه ولم يتأخر عنه من يضاهيه فيه ذا رأيٍ اصيل وغناء رخيم وشعر جيّد وبأس شديد . وهي صفات ومحامد قلّما اجتمعت في غيره . ومن شعره متحمساً ومفتخراً :

(أجود بنفسي دون قومي دافعاً لما نابهم قِدْماً واغشى الدواهيا)
(وأقتحم الامرَ المخوفَ اقتحامه لادراك مجدٍ او أعاود ثاويا)

وله الابيات المشهورة في الغزل الممزوج بالفخر :

(أحبك يا جنان فأنت مني مكان الروح من جسد الجبانِ)
(ولو اني أقول مكان نفسي خشيت عليك بادرة الزمانِ)
(لاقدامي اذا ما الخيل حامت وهاب كماتها حرَّ الطعانِ)

فما مرَّ بكم من اخبار معن وابى دُلف هذين يظهر لكم مبلغ إسراف أولئك الناس وإغراقهم بالجود والبذل حتى كانوا يستدينون ويهبون ويُغنون غيرهم ويفتقرون وكلما توسعوا في العطاء على طالبي رفدهم ومستجدي فضلهم كان هؤلاء يتفننون في استنباط الحيل واختراع الأساليب المبالغة باستدرار

النعم منهم واسترادة أنواع الصلات والهبات لهم . متزلفين اليهم بضروب من الوسائل لا تمر على خيال مفكر ولا تخطر على فؤاد لبيب . حتى صار الشعراء والرواة والمفتنون في تلك العصور اكثر الناس مالاً ، وأعظمهم جاهاً ، وأوسعهم نفوذاً وتبسطاً وترفاً .

فالأخطل التغلبي الشاعر كان يدخل على الخلفاء والامراء من بني أمية وهو يتبختر ثملاً وعجباً وفي عنقه قلادة الذهب ثم يخرج وفي يده الصلات الكبار والهبات الجسام ثم يشفع فيمن يريد فلا تردّ شفاعته . كل ذلك لانه مدّاحهم المجيد القائل فيهم :

(شمس العداوة حتى يستقادَ لهم   وا كرم الناس أحلاماً اذا قدروا)

وجرير التميمي اخذ من عبد الملك بن مروان عشرة آلاف درهم وعشرين راحلةً وجاريةً حسناء . لقوله في المروانيين :

(ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راحِ)

ومروان بن ابي حفصة كان يرفل بالحرير والخزّ ويتقلب على الاستبرق والديباج ويأخذ من المهديّ العباسيّ فما بعده من الخلفاء حتى المتوكل مئات الالوف من الدراهم والدنانير لانه رجّح أحقيـــة الخلافة للعباسيين على الفاطميين من آل البيت بقوله :

(أنى يكون وليس ذاك بكائن   لبني البنات وراثة الأعمامِ)

قيل لما دخل على المهديّ اول مرة وأنشده الشعر الذي يقول فيه هذا البيت وصله بسبعين الف درهم . وقال له هي لك مني في كل حول ما دمت حياً . وفي ذلك يقول مروان مفتخراً :

(بسبعين الفاً راشني من حبائه   وما نالها في الخلق من شاعر قبلي)

وأبانُ بن عبد الحميد اللاحقي اخذ من الرشيد عشرين الف درهم في اول مرة دخل عليه لقوله ضارباً على الوتر ذاته الذي ضرب عليه مروان بما يتعلق بإرث الخلافة :

(نشدت بحق الله من كان مسلماً   أعمُّ بما قد قلته العجم والعربْ)

(أعمّ رسول الله اقرب زلفةً لديه ام ابن العم في رتبة النسبْ)
(وأيها اولى به وبعهـده ومن ذا له حق التراث بما وجبْ)
(فان كان عباسٌ أحقّ بتلكمُ وكان عليٌّ بعد ذاك على سببْ)
(فأبناء عباسٍ همُ يرثونه كما العم لابن العم في الارث قد حجبْ)

وابو العتاهية مات عن سبع عشرة بدرة من المال لانه كان ملازماً باب الرشيد واعقابه من بعده متقرباً الى قلوبهم بما يبدو في شعره من آثار الزهد في الدنيا مع انه كان من أشد الناس حرصاً عليها وطمعاً بها .

وابن الخياط الشاعر دخل يوماً على المهدي مستجدياً مادحاً فأمر له بخمسين الف درهم . فلما قبضها فرقها بين الناس وانشأ يقول :

(لمست بكفي كفه ابتغي الغنى ولم ادر ان الجود من كفه يعدي)
(فلا انا منه ما افاد ذوو الغنى أفدت واعداني فبددت ما عندي)

فأعطاه خمسين الف دينار :

ودخل اسحق الموصلي المغني على الرشيد يصحبه الاصمعي الراوية وكان الرشيد منقبضاً كئيباً . فأنشده ابياتاً مطلعها :

(وآمرةٍ بالبخل قلت لها اقصري فذلك شيء ما اليه سبيلُ)

وختامها :

(وكيف أخاف الفقر او احرم الغنى ورأي امير المؤمنين جميلُ)

فقال له الرشيد : « لله درّ ابيات تأتينا بها ما أشدّ اصولها ، واحسن فصولها ، واقلّ فضولها » . ثم احسن اليه بخمسين الف درهم . فقال له اسحق : ان وصفك لشعري يا امير المؤمنين احسن منه فعلامَ آخذ الجائزة ؟ فضحك الرشيد . وقال اجعلوها له مئة الف درهم . فقال الاصمعي الآن علمت ان اسحق احذق مني بصيد الدراهم .

ودخل يوماً ابو دُلامة الشاعر على ابي العباس السفاح وكان كثير الادلال عليه فطلب منه كلب صيد فأعطاه ، فطلب غلاماً يقود الكلب ، فأعطاه ، فطلب دابة تحمل الصيد فأعطاه ، ثم طلب جارية تصلح الصيد

فأعطاه ، ثم طلب منه داراً تجمعهم فأعطاه ، ثم مالاً ثابتاً ينفق عليهم من غلته فأعطاه ارضاً عامرة وارضاً غامرة ثم استبدل الغامرة بالعامرة فجعل له الاثنتين عامرتين .

فتأملوا يارعاكم الله كيف فرّق ابن الخياط الدراهم ليأخذها دنانير وكيف احتال اسحق حتى جعل الخمسين الف درهم مئة الف وكيف تذرع ابو دُلامة بطلب كلب للصيد حتى توصل ببعض كلمات الى نيل هذه النعم المتوالية التي تعود عليه بالخير الكامل والهناء الشامل . وفي ذلك من شدة الحرص على ابتزاز الاموال ما لا تجهلون .

وكل ما اشرت اليه من احاديث الجود على إفراطه ، ومآثر الاحسان على عظمتها ، لا يعدّ شيئاً في جانب ما كان يصدر عن البرامكة وزراء الهادي فالرشيد من مدهشات العطاء الذي تجاوز حدّ المعقول . وكاد يحسب من مبالغات اهل التاريخ : فقد كان لآل برمك في هذا الخُلق القِدح المعلّى والسهم الأنفذ والنصيب الأوفر حتى قيل عنهم انهم شفاء اسقام دهرهم ، وغياث اجداب عصرهم ، ومفزع ملهوفي زمانهم لا سيما احدهم الفضل الذي قال فيه ابو النضير :

(وللناس معروفٌ وفيهم صنائعٌ ولن يجبر الاحزان الاجدا الفضلِ)
(اذا ما العطايا لم تكن برمكيةً فتلك العطايا ما تمرّ وما تحلي)

وهم ولئن لم يكونوا عرباً في الاصل بل كان جدّهم الاعلى فارسياً الا انهم نشأوا في العراق وترعرعوا في دور الخلفاء ، وخالطوا خاصة العرب وعليتهم واقتبسوا آدابهم وعاداتهم حتى اصبحوا كأنهم من صميمهم .

كان البرامكة يخرجون بالليل سراً وهم متنكرون معهم الاموال صرراً بين الثلاثة آلاف والخمسة آلاف فيطرقون الأبواب من بيوت المحاويج اهل الستر والحرمات فيدفعون الى اصحابها الصرة بعد الصرة . وربما طرحوا ما معهم في عتب الابواب فكان الناس لاعتيادهم ذلك يعدون الى العتب اذا اصبحوا فيأخذون ما يجدون .

واتصل بخلف المصريّ ان يحيى بن مُعاذ في حاجة وقد ركبه من الدين ثلاثمائة الف درهم حتى أرغم على إغلاق بابه تواريًا عن غرمائه . فأخبر الفضل بن يحيى . فقال له : دللتنا على مكرمة ، ثم امر له بمائة الف درهم . وحمل الى يحيى بن معاذ ثلاثمائة الف درهم قضى دينه بها .

وخرج الواقدي من المدينة بعد ان ساءت حاله وركبه الدين قاصداً البرامكة وهو لا يعرفهم وهم لا يعرفونه . فدخل على يحيى بأسمال من الثياب تحيط به الكآبة والبؤس وقصارى ما يتمناه الف درهم فدفع اليه كيساً ولم يعلم ما فيه . فلما تناوله خرج مهرولاً حتى اذا انتهى الى بيته فتحه فاذا فيه اربعة آلاف دينار . فكاد يغشى عليه من السرور ثم ما ابطأ ان ابتاع اثواباً اصلح بها حاله وبكّر من الغد على يحيى ليودّعه ويشكره فتوسم فيه يحيى علماً وفضلاً وادباً فقال له أقم عندنا ولك مثلها في كل عام فأقام عنده عزيزاً مكرماً موسعاً عليه حتى فرّقت بينهما النكبة .

ونظم أبان ابن عبد الحميد كتاب كليلة ودمنة شعراً ليسهل حفظه مبتدئاً بقوله :

(هذا كتاب ادب ومحنهْ   وهو الذي يدعى كليله ودمنهْ)

فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار . واعطاه ابنه الفضل خمسة آلاف دينار . وقال جعفر سأستظهر كتابك هذا . وحسبك مني ان اكون راويتك فيه .

وما الممت عنه من مكارم البرامكة ان هو الا صبابة من بحر مما يؤثر عن هذه الاسرة التي لم يقم بعدها ولا روي عن احد قبلها من يحاكيها او يتحداها بالجود الفائض والسخاء الأتم لا سيما على المحاويج من أهل النعمة وبيوتات المجد والعلم والفضل . خلافاً لسيف الدولة الحمداني صاحب حلب الذي كان يصادر أموال الناس ويبتز مواريثهم لينعل افراس شاعره ابي الطيب المتنبي بالعسجد . ويهب سائر من يقف ببابه . ويلتف حوله من الشعراء فأرات المسك ونوافج العنبر . ونفائس الخلع والالوف المؤلفة

من الدنانير لقاء ما يسمعونه من الاطراء غير المعقول كقول ابي الطيب مخاطباً اياه :

(كأنك في ثوب وصدرك فيهما على انه من ساحة الارض أوسع)

وفي ذلك وامثاله ما يخالف قواعد الاجتماع ، وسنن العطاء ، وقوانين الاقتصاد في هذا العصر الذي لكل نفقة فيه حساب ، ولكل بذل مقياس فان ابواب المثرين والمتمولين في الغرب من ملوك وامراء وسوقة محجبة . وخزائنهم مقفلة دون امثال هؤلاء المدّاحين المخرقين . وانهم يبذلون الملايين في سبيل مشروع خيري او معهد علميّ ويرصدون مئات الالوف لمن يكتشف مثلاً دواء ناجعاً للسل او السرطان او الطاعون . ويهبون ما هو فوق المأمول لمن يؤلف احسن كتاب في التربية او نوع من العلوم ولا يبذلون ديناراً واحداً لمستجد او مداح كاذباً كان او صادقاً بل يقولون له انصرف الى العمل ما دمت قادراً عليه فان عجزت فلك من ملاجىء العجزة ما يغنيك عن التسول المنافي لسنة الحياة . فان الانسان المعافى ُخلق ليعمل . لا ليعيش َكلاًّ على عواتق الناس .

وفي هـــذا القول ما ينطبق على ما اوحته الشرائع التي اجمعت على وجوب العمل وكراهة البطالة حتى عدّ العمل ضرباً من العبادة . وما دام الانسان معافى في جسمه وعقله لا يجدر به ان يكون ساقط الهمة ، دنيء النفس ، يبذل ماء وجهه التماساً لما في ايدي غيره من ثمرات اتعابه ليعيش على بساط الراحة والدعة والخمول متنقلاً من معصية الى كبيرة . ولا بدع ولا غرابة فان رأس البطال مخزن الشيطان . والاحسان الشخصي انما يكون للارملة واليتيم والمريض والسجين والعاجز والمُرْهق . لا لرجال اشداء اقوياء يقاسمونك مالك استجداء وتحيلاً ، ليبددوه في سبيل شهواتهم وهم وادعون .

والكرم بوجه عام يقسم الى ثلاثة اقسام : القسم الاول ما نسميه

(الكرم العادل) ويُحق لصاحبه ان يسمى المحسن الجواد . والقسم الثاني (الكرم الجائر) ويقال لصاحبه المسرف المتلاف . والقسم الثالث (الكرم الاحمق) ويدعى صاحبه المبذّر السفيه .

القسم الاول : الكرم العادل

هو الكرم الحقّ الذي يستحق وحده ان يسمى كرماً . وله شرطان الشرط الاول ان يكون من فضلة مال المحسن لا من صلبه ، لانه اذا كان من صلب المال لا يلبث المحسن مهما كان مثرياً واسع النعمة ان يفتقر فيظلم نفسه واهله وبلاده : اذ يصبح عاجزاً عن الكسب ، قاصراً عن الاحسان ، بل عالة على سواه . وهنا تتجلى حكمة الآية الكريمة (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط) : الشرط الثاني ان ينزل المرء احسانه منزلته ويضعه في محله بحيث ينفع المحسن اليهم نفعاً صحيحاً ، لا يضر بمستقبلهم واخلاقهم وعاداتهم

ولنضرب لذلك مثلاً — زيد متوسط النعمة ، ريعه السنوي الف دينار ، ينفق منها بلا تبذير ولا تقتير ثلاثمائة ، ثم يقسم الباقي وهو سبعمائة ، الى شطرين احدهما يضيفه الى رأس ماله انمــاءً له ، وتحوطاً لعثرات الايام ، والآخر يرصده للاحسان . ان شاء احتبسه الى ان ينمو ويتضاعف بما يليه في مستقبل الاعوام بحيث يصبح كافياً لاحسان ثابت عام ، كانشاء مدرسة او مكتبة او مأوى للايتام تدوم فائدته ، ويعم نفعه ، ويُبقي لصاحبه الذكر الخالد . وان شاء أطلقه لوجوه بعض الاحسان الخاص كامداد عائلة أخنى عليهــا الدهر فسلبها نعمتها حتى كاد ينكشف سترها ، ويفتضح امرها ، بحيث تصبح مضغةً في أفواه الشامتين . او إغاثة تاجر امسى على شفير الافلاس ، فينقذه من ذلّ التقاضي ووبال السجن بان يعاونه سراً على نفقاته وايفاء ما استحق اجله من ديونه الى ان يأذن الله بالفرج . او ان يتوسم باحد اولاد البؤس النباهة والذكاء

فينفق على تثقيفه وتعليمه ما يصيره نافعاً لأسرته ، جلاباً للفوائد له ولوطنه فلا يبقى تعساً يعيش كالحشرات ، عالةً مفسداً ، ويموت ذميماً شقياً غير مأسوف عليه ذلك من ضروب المكارم التي تخفف الآلام ، وتزيل المحن ، وتفرّج الكروب ، وتجلب الفوائد .

هذا هو الكرم العادل الذي تبنى عليه الأمم الراقية الآن . فيرضى عنه الصواب وتقرّ به عين الحكمة ، وتتوفر فيه شروط الإحكام والاتقان والانصاف . فلا يظلم المحسن بان يستهلك ماله في سبيل اريحيته ، ويصبح من المملقين بل يدوم راتعاً في نعمته ، مقيماً على كسبه ، قديراً على مواصلة الاحسان لبني جلدته ، مستغنياً عن استجداء من لاخلاق لهم ولا مروءة ، ولا يُظلم المحسَن اليه بان يكون ميّالاً الى البطالة ، فيغريه بما يناله منه غنيمةً باردةً على الكسل وبغض العمل ، وتبديد ما يعطاه في سبيل اللهو والزهو والشهوات .

أجل ان هذا النوع من الكرم يا سادة هو المعوّل عليه عند بعيدي النظر من متمولي الغرب . وكل ما ننظره ونسمع به ، او نقرأ عنه من المرافق الحيوية والمعاهد الادبية والعلمية ، والملاجىء الخيرية القائمة في طول البلاد وعرضها على تضارب أنواعها ، وتفاوت مراميها وغاياتها ، انما هو اثر من آثار هذا الضرب من الاحسان . وهو لسوء الطالع مفقود ، او يكاد يكون مفقوداً تحت سماء هذه البقعة التي كتب عليها منذ مئين من السنين الغبن والحيف والجهل والحرمان .

أجل ثم أجل يا سادتي فان بهذا الكرم رُفع منار الانسانية ، وتمتنت دعائم العمران ، وتمهدت للامم الغربية سبل السعادة والغبطة والحضارة ، وخفت عنها وطأة شقاء الحياة وبؤسها . ولولاه لكان العجزة منهم يأنون منطرحين في زوايا الطرق ومنعرجات الأزقة ، شاكين آلام الامراض والجوع والمتربة يلتمسون الموت فلا يجدونه . ولكان ايتامهم وناشئة التعساء منهم هائمين على وجوههم ، يكتنفهم الجهل والفساد ، ويحيط

بهم الذل والمسكنة مما نرى أمثولته بيننا كل يوم . والعين تقطر دماً ، والقلب يتفطر حزناً . فان بهذا النوع من الكرم لا بغيره أنشئت مكاتب وملاجىء للعمي والصم والخرس والمقعدين . يتعلمون بها القراءة والكتابة والحساب وضروباً من الصناعات التي تلائم أحوالهم . فيعيشون رغداً آمنين مطمئنين . فلا يكونون عبثاً ثقيلاً على عواتق الناس ، فيكرههم اهلهم ، وتنبو بهم الارض ، وتبكي عليهم السماء .

وبه لا بغيره ترقت العلوم والفنون والصناعات ، وزاد الاكتشاف والاختراع حتى سخر الانسان العناصر لخدمته فغاص مسافراً في الماء ، وركب طائراً في الهواء واستنار بالكهرباء ، واستخدم البرق لنقل الاخبار والبخار لجر الاثقال وسرعة الترحال الى غير ذلك مما لو رُوي الى اسلافنا لعدّوه خرافات وأساطير تحكى ولا تعقل ، وتروى ولا تخيَّل .

هذا هو الكرم الحق الذي يعرج باصحابه الى مقام الاعلام المحمودي الأثر الخالدي الذكر لا ما افتخر به عنترة العبسي بقوله :

(ولقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجر بالمشوف المعلمِ)
(بزجاجة صفراء ذات أسرةٍ قرنت بأزهر بالشمال مفدَّمِ)
(فاذا شربت فانني مستهلكٌ مالي ، وعرضي وافرٌ لم يُكلمِ)
(واذا صحوت فما اقصّر عن ندى وكما علمت شمائلي وتكرمي)

فان من يفتخر بسكره ويستهلك ماله كله في سبيل أريحيته عادلاً كان أو جائراً ثملاً او صاحياً هو الى الجنون أقرب . وخليقٌ بمثله ان يحجر عليه الى ان يصبح من العاقلين .

القسم الثاني الكرم الجائر

وهو الذي يجور على صاحبه المثري فيستكثر ما لديه مما تركه له آباؤه او جاءه عن طريق الصدف والاتفاق . فيأخذ بالتوسع في العطاء والاسراف في الانفاق . فان مشى أحاطت به حاشيته من اهل البطالة واللهو ، وان

جلس طوقه فريق من اهل الحرص والطمع والنفاق ، وان ركب ، ركب في موكب يشبه مواكب الملوك . يقصده المحتالون المتخرقون من كل اوب وصوب . فيغدق عليهم النوال ويكيله لهم جزافاً ليقال عنه انه جوادٌ وهاب . يُعطي بغير حساب . فلا يمرّ عليه حين من الدهر حتى يصبح كـكثيرين من اولاد البيوتات في بلادنا خالي الجيب باديَ الانفاض . متدهوراً في مهواة اليأس والبؤس ، فهو ظالم لنفسه ، لانه أفقرها وأذلها ، ظالم لعائلته وذوي قرباه لانه أحوجهم وأشقاهم ، ظالم لمن أحسن اليهم لانه أغراهم بالتسوّل والكسل ، وكراهة العمل . فأصحاب هـذا القسم من الاحسان آفة الوطن الكبرى ، وبلاؤه الادهم ، وشره المستطير . ولو تدبروا ووعوا لـكان لهم من تراث آبائهم وتليد أموالهم وطارفها ما يقوون به على استدرار أخلاف النعمة . واستعمال ما أودعه الله في فطرتهم من مزايا البذل في موضعه مع الاعتـدال والرويّة والرفق . فعاش كل منهم سعيداً مجيداً ، ومات فقيداً حميداً ، حافظاً له الوطن واهلوه مكارم تعود عليه بحسن الاحدوثة وآثاراً تخلد له الثواب ، ولكنهم لا يتدبرون .

القسم الثالث : الكرم الاحمق

ينشأُ ابن النعمة في بيت ابيه طاعماً كاسياً مخدوماً مكفيَّ المؤونة لا يطالب بشيءٍ الا ان يكون رجلاً كاسباً مقتصداً نافعاً . فيلج باب الاعمال مديراً او كاتباً في احدى الخطط الاميرية او المؤسسات التجارية براتب لو تدبر فاحتفظ به ، وحرص على انمائه في الطرق المشروعة لالتف منه على تراخي الأيام ثروة يستطيع معها عند الحاجة ان يكون رب بيت ينفق عليه من سعة ثم يكون من المحسنين : فان اضافة شعرة الى شعرة تؤلف لحيةً كما يقول العوامّ . ومن لا يعبأ بالقليل لا يتسنى له الكثير .

(قليل المـال تصلحه فيبقى ولا يبقى الكثير مع الفساد)

فبدلاً من ان يسلك هذا السبيل الهادي الأمين الذي ينتهي به رويداً

رويداً الى منزلة أفاضل الرجال العاملين ، يقول في نفسه اني لا أزال في ريّق الصبوة وربيع العمر لا يطلب مني شيء ، ولا أسأل عن شيء ، فما ضرني لو بذلت راتبي باسداء الجميل واصطناع الاخوان ، فيبسط صدره ومجلسه لمن يعرض له من الآتراب والأقران فيستأنسون به ويتألبون حوله فتنفخه الكبرياء كالزق ويتوهم انه أصبح من مشاهير الاعلام المتميزين بالوجاهة والفضل ، فاذا استقرضه احدهم ديناراً نفحه بدينارين ، وان استحسن لديه تحفةً أهداه تحفتين . ثم ينتهز فرصة عطلته وأوقات فراغه فيدعوهم الى الولائم والمآدب ومعاهد النزهة والطرب . فلا يمضي من الشهر اسبوعان حتى ينفد راتبه فيستلف من بعض الصيارفة على راتب الشهر الآتي ولا يزال يتدرج في هذه الطريق حتى تتراكم عليه الديون ، ويضيّق عليه الدائنون ، فيهرع بعضهم الى ابيه فيشكون ، وبعضهم الى رئيسه فيتظلمون .

هنالك تنقشع الغمامة عن عيني ذلك الغرّ المسكين فتتجلى الحقيقة له كما هي فلا يشعر الا وابوه ماقتٌ له ورئيسه ساخطٌ عليه ، وأصحابه متفرقون عنه ، يتجنب الظهور في الأسواق لئلا يُرى فيُطالَب أمام الناس وينقطع عن الأندية ، ومجتمعات الخلق ، كيلا يضطر الى الانفاق ولا مال لديه ، يجلس في دائرة عمله ناكس الرأس ، خائر النفس ، متوزع الفكر لا تنبسط نفسه الى عمل ، ولا تصغي أذنه الى حديث ، ولا يبرح ذلك شأنه حتى ينتهي الى احد امرين : اما رأف به ابوه فيفي ما عليه ثم يكون مسيطراً على حركاته وسكناته الى ما شاء الله وهو ذليل واجم كظيم ، واما ان يتيسر له من غامض علم الله رزقٌ جديد أو زيادة في الراتب فيتخلص من شدته بعد ان تبلغ روحه الحلقوم ، فيتخذها عبرةً تنكّب به عن مثل هذه المهواة الى ان يوافيه الأجل المحتوم .

هذا اذا لم يدركه العزل وتنتابه الفضيحة من قبل . فيساوره الغم وتتقاسمه الامراض فيلازم البيت خاسئاً مخذولاً مقهوراً ، يرى الدنيا وما

حوت من زخرف ظلمات بعضها فوق بعض . ولبئست العاقبة لمن لا يزدجرون .

وهذا الفريق ايضاً حسكٌ ينشب في حلق الاجتماع الانساني فيمنعه هناءه ويسلبه قراره ، ويجعل حياة البلاد الاقتصادية الى الاحتضار أقرب . فالى الله المشتكى من قبل ومن بعد .

***

لقد طال بي يا سادة نفس الكلام حتى لم يبق سبيل للمزيد على انني أرجو ان يأتي يوم ، وهو منا قريب ، يقف فيه متمولونا وناشئتنا موقف الاعتدال بين منزلتي التقتير والتبذير ، ويختارون من ضروب الاحسان ما يجعله نافعاً مفيداً عاماً معززاً للعلم والصناعات وملاجىء الخير والمبرات مخففاً عن كواهل الانسانية مصابها وإحنها وأسقامها حينما يعرجون بهذا الوطن العزيز الى المستوى الذي يستحقه اهله من الغبطة والسعادة والرغد انه سبحانه ولي التوفيق .

دمشق : ايلول سنة ١٩٢٣ .

القضاء عند عرب البادية

للأستاذ عبد الله رعد

فطر الأعرابي على حب العز والفخار ، تصبو نفسه الى المكارم وشريف الاعمال ، ولا يخلد الى الذل والصغار ، مها جابهته المصاعب والأقدار . وهو لا يطمح إلى المعالي إلا لينال صيتاً بعيداً وشهرةً واسعة بين أقرانه وفي عشيرته . فيغار البدوي على شرفه . ويؤثر المنون على العار والهوان ، وتنهض به عزة نفسه إلى الانتقام ، أو طلب الحق أمام القاضي البدوي ، وقد يثور ثائره لأدنى أمر يحط بقدره ويخفض من حاله .

ماهي الحقوق البدوية التي يستند اليها قضاتهم

هي قوانين نقلية محفوظة في البادية مرسومة لتأديب المجرمين وتهذيب الأعراب ، يعرفها أرباب القضاء ويجرون عليها ، وبها يعوضون لصاحب الحق أو لأهله ما فقدوه من الشرف أو المال أو الحياة ، ومن هذه القوانين عندهم أن الاخذ بالثأر لا يعد فرية يجازى عليها المنتقم . فالانتقام عندهم من النواميس الشريفة والفرائض الضرورية المقدسة التي لا يسعهم تجنبها ولو طال عهدها ، فالضغينة تبقى مستورة في صدورهم كالنار تحت الرماد ، فتأتي الريح يوماً وتكشف الرماد وتظهر الثارات والأحقاد . وكثيراً ما يرفض الأعراب حكم قاضيهم ليرووا ظمأهم بدم الأعادي ، ويثأروا للقتيل وينالوا الطوائل بأيديهم وقد يجمع الأعرابي أولاده على سرير موته ويوصيهم أن يأخذوا الثأر من احد أعدائه ، ولا يدعوا الدم يصرخ الى السماء صراخاً اليماً . فانهم يعتقدون أن دم المقتول يصرخ دائماً في الليالي الدامسة ، ويطلب من أولاده وأقاربه وعشيرته أن ينتقموا له من قاتله .

ينتظر البدوي الفرصة المناسبة لأخذ الثأر بصبر عجيب ، ويقدم على هذا الأمر بنفس هادئة وسرور عظيم ، لأنه يعلم أن القضاء لا يطالبه بهذا الدم ، إذا كان دم القاتل نفسه أو دم أولاده أو أقربائه حتى الدرجة الخامسة ،أما اذا زادت هذه القرابة على الدرجة الخامسة فيعد قتله عندئذ جرماً . على أن أرباب الحق الذين يعجزون عن الأخذ بالثأر لقلتهم أو لضعفهم تجاه بسالة عدوهم ، فانهم يلتجؤون إلى أمير كبير من عشيرة أخرى يعرف بجرأته ، ورباطة جأشه ، وثبات جنانه ، وهو ينتقم لهم من عدوهم . أو يطلب القاتل ويلزمه بالقيام بحق الدم .

* * *

إن من يتأمل في عادة الانتقام ، أيها السادة ، يحكم لأول وهلة أنها بربرية لا يقدم عليها إلا الأمم المتوحشة . وهذا من الصحة على جانب كبير لولا وجود هذه السنة في البادية لغدت القفار الأعرابية دار حرب دائمة ، لأن المجرمين لا يهابون قتل النفوس البريئة ، إذ لا رادع يردعهم ، ولا سيف يمنعهم . وسنة الدم بالدم تصد الأشرار ، لذلك يندر القتل في البادية . وخوفاً من العقاب لا يهدر البدوي دم المسافرين ، بل يكتفي بسلبهم ثيابهم وأموالهم . ثم إن العرب يرحلون على ظهور أباعرهم طلباً للرزق الحرام من الغزوات ، فهم مع ذلك يتجنبون القتل لئلا تنزل بهم الضربات الهائلة التي تأمر بها شريعة الأخذ بالثأر . وهذه الشريعة تجعل البيداء في أمن وسلام ، يسافر فيها المرء غير خائف على نفسه وإن سلبوه ماله بخلاف القفار الإفريقية حيث يُقتل قبـــل أن يُسلب .

* * *

ما هو القاضي البدوي

قاضي العرب أمير من أمرائهم تسلطه القبيلة أو العشيرة على أفرادها ،

لاظهار الحق من الباطل طبقاً للتقاليد البدوية ، والعوائد النقلية القديمة .
على أن الأعراب قدلا يرضون بقاض واحد كبير يترأسهم ، بل يوكلون القضاء إلى وجوه العشيرة وكهولها فيأتون اليهم ويعرضون دعواهم فيحكمون بينهم بحسب عاداتهم الجارية . هؤلاء الرجال لا ينالون كالقضاة الحقيقيين راتباً لقضائهم ، وإنما يعملون ذلك ، كما يقولون ، لوجه الله الكريم ، والمتخاصمون لا يلبثون أحراراً في الخضوع لحكمهم أو رفضه ، ورفع الدعوى إلى القاضي الكبير .

القاضي الكبير يرثُ الحكم عن أبيه لأن العرب مولعون بحفظ الأصل والنسب . ولكنه لا يتسلط على الأعراب إلا إذا نال رضى الجميع ، بسديد رأيه ومعرفته للحقوق البدوية . ولهذا القاضي سلطة واسعة تفوق سلطة الحكام في الممالك المتمدنة والربوع العامرة . فاذا قال كلمته انقطع الحديث ، وباد الاعتراض وصمت المتخاصمون . ولهم عادة حميدة تذكر بالثناء عليهم ، وهي أن قاضي العشيرة إذا رُفعتْ اليه دعوى بأحد أقاربه لا يحكم فيها بل يحيلها إلى قاضٍ آخر غيره من القضاة المجاورين أرباب العدل والانصاف ، لئلا تحوم حوله الظنون .

* * *

كيف يجري القضاء عند العرب

اذا وقعت الخصومات بين العرب على ممتلكاتهم من الحيوانات والأرضين ، هاج هائجهم ، فتستفزهم في الحال نزوة الغضب ، فينتفضون من الغيظ ، ويرتجفون من الحنق ، فينتضون السيوف ويطلقون الرصاص ، لما طبعوا عليه من حدة الأخلاق ، وحفظ الحقد والضغينة . فاذا حلَّ الخصام ، وارتفعت الأصوات والشتائم ، وانتضيت السيوف وسمع أزيز الرصاص ، دخل المصلحون بين المتخاصمين ، وحملوهم على الكف عن الخصام ، وحلّ المشكل بالقسم أو بحكم القاضي .

أما القسم فمن أرهب الأمور عند العرب وأقدسها ، ولا يقدمون عليه إلا مضطرين ، لأن الأعرابي يتجنب الحلف ولو كان به صادقاً ، ويهاب اتخاذ المولى الكريم أو أحد أوليائه وأنبيائه شاهداً على صحة قوله ، ولو كان من قطاع الطرق .

والقسم عند العرب أنواع مختلفة : منه ما يسمونه القسم الجاري أو القسم الصغير ، ومنه قسم اليد ، والقسم الكبير ، ومنه قسم العُشبة ، ومنه قسم النملة والشملة .

ففي القسم الصغير يقوم الشيخ وسط الخيمة ويقول : أقسم عليك بالله وبصلاة محمد هل فعلت الأمر الفلاني . فيقول والله وصلاة محمد لم أفعل .

وفي حلف اليد ، يضع المحلّف يده على رأس الحالف ويقول : « أناشدك الله ، بما تحوش وتنوش ، بحلابات الحليب ونسافات العسيب (أي الخيل) وبالنساء وما تجيب ، داخل عليك عالمال والعيال ، من الحل والاستحلال ، اليوم بين عينيك وباكر بين متنيك (أي اليوم تراني وغداً تحملني على النعش) بنبيّه عليّ وبيّنه عليك ، إن أطلعتها تسرك وإن خبيتها تضرك ، أما صار كذا وكذا ؟ فيجيب : إي بالله ورسوله صار كيت وكيت . أو بالله ورسوله ما صار ذلك » .

ويقولون أيضاً في أقسامهم « أنا حاضر بحضارك وبموقد نارك ، أما صار كذا وكذا »

ويقولون في حلف العشبة : « بحق هذه العشبة الملوية والكاذب ما له ذرية » .

أما قسم النملة والشملة فدونكم وصفه : حينما يكون العرب وكبارهم ملتئمين في شقِّ الرجال من الخيمة ، وقد طال الجدال بين فريقين على أرض أو فرس أو غير ذلك ، يقوم أمير البيت ويخرج بمجلسه خارج الخيمة ، ثم ينتضي سيفاً ويخطّ به دائرة كبيرة ، ويضع في وسط الدائرة حبة حنطه ونملة ، والحنطة تدلّ عند العرب على أكرم ما خلق الله تعالى والنملة تمثل الحكمة والفطنة والإدراك . ثم يمدّ السيف في منتصف

الدائرة . عندئذ ينزع المتهم عنه سلاحه ويدخل في وسطها ويضع يده على نصاب السيف ويقسم قائلاً : « والله العظيم والسيف الكريم ما فعلت الشرّ ولا سرقتُ ولا قتلت الخ » .

وكثيراً ما يمتقع لون الرجل ، وترتخي مفاصله ، وترتجف يداه ورجلاه من الرعب ، وربما رجع عن الحلف وأقرّ بما فعل .

والحلف بالمقامات يعدّ عند الاعراب من الأقسام العظمى . وربما أقسم البدويّ بالله مراراً عديدةً وأبى أن يقسم بالأولياء والمزارات المقدسة كمزار النبي شعيب ، والنبي يوشع ، والشيخ عبدالله ونحو ذلك من المزارات المشهورة عند العرب .

على أن العرب يدعون غالب الأحيان القسم لرهبته ، ويلجأون إلى القاضي البدوي . وهذا ما يدعونه (بالقضوة) .

فما أجمل بيت الشعر حينما يزين بأنواع الأثاث ، ويفرش بالسجاد الفاخر ، ويعلّق على جدرانه السلاح اللامع . يجلس الأمير في صدره للقضاء ومن حوله وجوه العشيرة . فيُسمع صوت « المهباج » يدق القهوة فتطبخ ويطاف بها على الحضور دفعاتٍ متوالية . وبعد شرب القهوة يقوم أحد المتخاصمين وهو المدعي ، ويجلس في وسط الخيمة بين الحاضرين ويلتفت إلى القاضي ويقول : وهو عندهم بمثابة الاستدعاء يفتتحون به الدعوى : « وايش بك يا قاضينا ، بلي بحقك تراضينا ، جيتك هدّي ومشياً قدمّي ، أفلح وصلّ عالنبي (فيقول الجميع الصلاة والسلام عليه) ، حظّي وحظّك يدخلان على اربعة وأربعين نبي ، من الفوط والنوط والحق الردي ، وأنا داخل عالمال والعيال من شي مبيّن عليّ وعليك غبّي ، وانا حاططها بعيونك السود وربعك النمود ، وبالامرأة وما تجيب ونسّافات العسيب » . ثم يذكر ما جرى له بصوت جهوري بحيث يسمعه الحضور

من أطراف الخيمة ، ويوردُ البراهين في ذلك ، إلى أن ينتهي ويعود إلى مقامه الأول فيقوم المدعى عليه ويجلس في وسط المجلس ، ويكرر المقدمة نفسها : (وايش بك يا قاضينا) إلى آخر الديباجة التي أتينا على نصها بألفاظهم ولغتهم المستعملة في البادية . ثم يفصح عن أدلته . ولا أحد يعارضه في شيء . والقاضي بين كل ذلك صامت لا يبدي كلمة وفي آخر ذلك يلتفت القاضي إلى المتخاصمين ويقول : أفلحوا وأصلحوا خيرٌ لكم . فإذا أبيا إلا إظهار الحق يقول : قدموا الرزقة .

* * *

الرزقة

هي أجرة يدفعها أحد الخصمين للقاضي تقدر بربع قيمة ما يخاصم عليه وقد يجري في هذا التقدير جدال طويل يدوم ساعات من أجل تعيين مقدار الرزقة إن نقوداً أو عروضاً كفرس مثلاً أو سيف أو بعير . وربما لم يقبل بها القاضي فيرفض الحكم إلى أن يستحسن ما يقدّم له .

والرزقة أنواع كثيرة ، منها ما يسمونه رزقة المبطل ، ومنها رزقة الحق . فرزقة المبطل هي التي يدفعها المجرم أو المفتري للقاضي ، ورزقة الحق هي التي يدفعها صاحب الحق . وإذا استأنف المحكوم عليه دعواه إلى قاض أكبر وحكم له بالحق . وكان قبل ذلك قد دفع رزقات عديدة ردّها له المحكوم عليه . لأن المستأنف الكاسب حقاً بجميع الرزقات التي يكون قد دفعها للقضاة من قبل .

* * *

الكفلاء

وبعد أن يتفق الخصمان على الرزقة يجب عليهما أن يقدّم كل واحد كفيلاً يتعهد أمام الشهود بدفع الرزقة إذا أبى الآخر تقديمها . فيقولون :

«تري يا شيخ فلان هذه المسألة في وجهك» وان كان الكفيل غائباً يقولون : «ترى أن هذه المسألة في وجه فلان» أي أنه يتعهد بدفعها أو يحمل المتخاصمين على دفعها . فيقول القاضي للكفيل : «عندك الشيء الفلاني» : «فيجيب عندي ما تطلب ، وحق الله ورسوله اني ما أبوق» (أي لا أخون العهد) .

رأينا أن الكفيل نوعان : غائب وحاضر . فالغائب هو الذي لا يحضر مجلس القضاء حينما ترفع (الدعوى) فيختاره الحاضرون والقاضي لإنفاذ الأمر . والحاضر هو القائم بين الحضور في أثناء الدعوى . على أن لكل منها واجبات خاصة تختلف عن واجبات الآخر : فالغائب مضطر إلى قبول الكفالة ، والحاضر له الخيار في قبولها أو رفضها . لذلك جاء في أمثالهم : «الغائب مضطر والحاضر حر» . ولا بد للكفيل من صفات ، أخصها أن يكون معروفاً بين العشيرة بصدقه واقتداره على الدفع .

والذين يُحرمون حق الكفالة هم شاهدو الزور ، والجبناء الذين يشردون في الحروب والغزوات ، هؤلاء كلهم مرذولون عند العرب ، لا يقبلون في مجالس الكرام ، ولا يشربون القهوة في خيام الأمراء ، ولا تقبل لهم شهادة . واذا جلس أحدهم في مجلس الشيوخ صب له الشيخ القهوة ، وبينما هو يرفع الفنجان إلى فمه ينزعه الشيخ بعنف منه ويهرق القهوة على التراب ويقول له : أنت لا تستحق القهوة ولا لك مقعد بين الرجال .

* * *

الشهود في الدعوى

وبعد تعيين الكفيل ، يتجه القاضي نحو المدعي ويقول له : يا فلان ، إذا كان عندك شاهد لا يكذب ولا يوجد عليه اعتراض فليتقدم ويشهد . فيجيب : عندي يا قاضي العرب فلان وفلان وفلان . فيلتفت القاضي إلى أكبر الحاضرين ويقول له : وأيش تقول يا شيخ عن فلان ؟ فان كان مقبول الشهادة يقول : «والله انه مقبول الشهادة ، ما أنا خابر عليه الدرب الذي يذربه عن الشهادة» وان كان مرفوض الشهادة يقول: «والله انه غير مقبول،

وقد تقع الخصومات في اختيار الشاهد فمنهم من يرفضه ومنهم من يقبله ، ويطول الكلامُ بينهم إلى حدٍّ يسأمُ منه الحاضرون ، إلى أن يقرّ رأيهم على شاهدين . فيقفانِ ويقسمانِ القسم البدوي ، يقول كل واحد على حدة : « والله العظيم ، والربّ الكريم ، وحياة العود ، والربَ المعبود ، والكاذب ما له مولود ، لا غيظ شافيه ، ولا طمع راجيه ، (إي إنه لا يحلف لاخذ ثأر ولا لأجل مال) إلا حق الله من رقبتي مؤدّيه ، ان هذا الرجل قد فعل كذا وكذا » .

وللشاهد حقٌّ في طلب هدية ما إذ لا بد له من القسم ، والعرب كما أوضحت يرهبون القسم ولو كانوا صادقين . لذلك هم يقدمون للشاهد هدية بدوية كسيفٍ أو عباءةٍ أو نحو ذلك .

والنساء في جميع العشائر لا تُقبلُ لهم شهادةُ إلا عند عشائر النصارى في الصلت والكرك ومادبا وغيرها في شرق الاردن ، وشهادتهن ثابتة قوية .

* * *

الحكم

وبعد أن تنتهي المحاكمة ينطق القاضي بأمثال يبين فيها أحكام القضاة من قبله في أمور جرت في عهد قديم . فيروي حكايات واقعة أو خيالية يذكر فيها الحكم بمبهم الكلام ، وربما أتى بأمثـــال حيوانات تنطبق على الأمر الواقع ، حتى يدرك الحاضرون الحكم المراد قبل أن ينطق به . وأخيراً يفوه بالحكم القاطع بقوله : « أنا من عندي ومن عند القضاة الذين قبلي ، ومن عند أجاويد الله مثلكم ، إن فلاناً هو المجرم ، وفلاناً هو البريء » ويورد في ذلك الأدلة والبراهين والاسناد كي لا يبقى في الأمر ريب . وهنا ينتهي الحكم فيقوم جمهور الحاضرين وينصرفون إلى بيوتهم وهم يرددون الحكم المبرم .

* * *

العقوبات

والعرب يدعونها الحق . فمنها حق الشتائم ، وحق البيت ، وحق الوجه ، وحق الدخيل ، وحق الدم ، وحق الطنيب ، وحق القصير ، وحق العرض ، وغير ذلك .

وقبل أن نذكر شيئاً من هذه العقوبات عند البدو ، يجمل بنا أن نأتي على ذكر عواطف الشفقة والحلم التي تغلب عند عرب البادية مرات على حب الانتقام ، وتحملهم على الصفح . سمعنا حوادث كثيرة تدل على عفو العرب عن أعدائهم ودونكم النادرة الآتية :

كانت النار تضرم ذات ليلة في مضارب بني صخر ، والكلاب تنبح فتدعو المسافرين إلى خيمة الشيخ ، وإذا بشاب لطيف قد نزل عن فرسه وحيا الضيوف قائلاً : السلام عليكم . فقالوا وعليكم السلام قال حيا الله الرجال ، قالوا حيا الله الرجل . قال العوافي يا غانمين ، قالوا حيا الله الغانم . ثم جلس بالقرب من الشيخ وبات عند العرب أياماً طوالاً لا يسألونه فيها جهة القصد . إلى أن حان وقت طغاه فيه الشيطان فأسقطه في زلة كبرى : ذلك أنه رأى ابنة الشيخ فسحر بجمالها ، ولما انسدل الليل هجم على خيمتها فقتل العبد الحافظ لها وخطفها وسافر . فذاع الخبر بأقل من لمح البصر ولحقه اخوتها الثلاثة . وكان كلما تقدم اليه أحد يضربه برمحه فيرميه مجدلاً على الأرض . أخيراً لحقه الفرسان فانهزم إلى أن لقي خربوشاً (والخربوش هي الخيمة الصغيرة لها عمود واحد ، وكان على باب هذا الخربوش شاب في مقتبل العمر فصاح به وقال : يا أبا رشيده أنا في وجهك وفي مرقد عيالك . قال : لقيت خيراً ومرعى وأماناً . ولما أقبلت العشيرة تطلب الابنة وحق الدم أرجعها الشاب وقال : « هو البيت يحمي الطريد والشريد ، وهو الوجه يدفع صدمات العدو » . فرجع القوم صامتين . وسأل الخاطف الابنة عن صاحب البيت فقالت : « سوّد الله وجهك هذا ابن عمي وخطبي قد طلبني فوعد بما طلب ، وقد مهد الصعاب كي يتزوجني ، إذ قاتل اولاد عمه ،

فامتقع لونه وتغيرت هيأته . على أن صاحب الخربوش أكرم مثواه في تلك الليلة ، وأعدّ له خيمة العرس وزوجه بالفتاة ، ثم صالح العرب مع الشاب وسالمهم وعاهدهم بأن لا ينزلوا به ضرراً . هذه حكاية تدل على علو نفس وشهامة قد لا يوجد مثلها بين أصحاب التمدن ، كيف لا وقد صفح هذا البدوي عن قاتل أولاد عمه وخاطف خطيبته وصالحه مع العرب . وهل دفعه إلى هذا الصفح إلا سمو النفس وحبّ الذكر ؟

عقوبات أهل القوارع والشتائم

يعسر على البدوي احتمال أدنى شتيمة لأن العرب طبعوا على حب المجد والشرف ، لذلك هم يعدون الشتيمة أشد تأثيرا من حد السيف وقد تثير الشتائم الحروب في البادية وتحمل المشتوم بل وأهل المشتوم أيضاً على الانتقام .

حكي عن عبد المهدي قاضي العوازم انه قال : أرباب الشتائم يعذبون بأقسى أنواع العذاب . وروي أن رجلاً من عرب العدوان رفع يده على أبيه قائلاً « اخس يا شايب » فسمع بذلك شيخ العدوان فأمر بقطع لسانه . ويقال أن بدوياً بصق بوجه عدو له فحكم عليه أن تحلق لحيته إلى نصف الذقن فقط ويبقى النصف الآخر . ومن شتم من عرب الصخور يدفع للمشتوم فرساً أو سيفاً أو بعيراً أو ثلاثين ريالاً ، وعند بعض العشائر يضرب الشتامون بالسياط حتى يسيل منهم الدم . وبعضهم يضعون دبساً على وجه الشاتم ، ويربطونه بأوتاد فيأكله الذباب ، أو يربطونه ويوجهون عينيه إلى الشمس . ويروى أن بدوياً أهان أباه اذ رفع عليه محجانة (والمحجانة عصا صغيرة) فألزمه القاضي ان يحرث أرض أبيه مدة سنتين .

ومن أحاديثهم أن قدم شيخ هرم إلى قاضي البلقاء بن قلاب وقال : « وايش بك يا عواد بن قلاب ، يا حامي النسب ، بولد لي ربيته حتى نشأ وكبر ، واليوم قد جرني بجديلتي إلى خارج الخيمة وشتمني » فقال له القاضي « اذهب يا شايب ، ما صنعه ابنك بك سيصنعه به أولاده في المستقبل »

وحكم على الولد بأن يبني خيمة لأبيه ويدفع له خمسين نعجة ليكرم بها الضيوف . وقد صدق كلام ابن قلاب ، فان اولاد الابن جرّوا اباهم الى خارج الخيمة ، ولما انتهوا به الى الموضع الذي اوقع اباه فيه قال لهم : « كفاكم أيها الاولاد الاشرار الى هنا فقط جررت ابي » ، وتذكر قول ابن قلاب .

وروى أن شاعراً من بني حسن هجا ذئبة ابنة الشيخ عوده ابي تايه امير الحويطات . فلما ورد الشاعر الى مضارب الامير قال له عوده : قبحاً لهذه اللحية يا قذاف المحصنات ، لسانك يلسع كلسع الحيات . فهرب الشاعر كئيباً ولم يذق طعاماً عند الشيخ . ولما ابتعد في البرية أمر الشيخ عوده احد عبيده فلحق به في الخلاء وقتله على هجائه .

* * *

حق البيت

بيت شعر في البادية ، وإن كان خربوشاً ، هو رفيع الشأن عظيم الاكرام عند العرب . ومن اهان بيتاً عندهم اهان اصحابه النازلين فيه ، لا بل اهان العشيرة كلها . ومن تعدى عليه نال جزاء تعديه إهانةً وعذاباً . وهم يعدون اهانةً تكسر شرف البيت تلك التي تحصل من بدويين يتخاصمان في بيتٍ حتى يصل بها الخصام الى المسبّات والشتائم او رفع الاسلحة . فالبيت يطلب حقه . واذا أهين صاحب البيت في بيته ، فالبيت وصاحبه كسر شرفها ، وصار على الشاتم حقان حق البيت وحق صاحب البيت .

وبعض الاعراب يزعمون أن من ازدرى بالبيت واحتقره ، فقد صنع ذلك ليس نحو الاحياء النازلين به فحسب ، بل تتعدى الاهانة الى أجدادهم وأمواتهم .

إهانة البيت يحاكم عليها امام القاضي . فينتصب المدعي وهو صاحب البيت في وسط الجماعة ويقول : « ويش بك يا قاضي العرب ، يا حامي

النسب ، بفلان إنّي كسر شرفي بقوله كيت وكيت ، واهانني في عشيرتي وبحضور جماعتي ، واهان ضيفي ، فودّي منّك ان يبيض الوجه ، ثم ترد الشهود وتشهد على صحة مدّعاه . فينتصب القاضي ويقول : « انا من عندى ، ومن عند القضاة الذين قبلي ، فلان كسر شرف البيت وأهان صاحبه وضيفه ، ثم يحكم عليه بدفع عشرين ناقةً وخمسين نعجة لصاحب البيت ، وثلاثين ريالاً لضيفه المهان . فيقول المجرم « نعم انا مستعد ، امرك يا قاضينا فوق الراس ، وبعد ذلك يقوم احد الشيوخ الحاضرين ويقول لربّ البيت « حقك على الرأس والعين ، ولكن من شأن الشيخ فلان دع له خمس نياق ، فيقول « من شان خاطرك وخاطر السامعين تركت ما تريد » ثم ينتصب شيخ آخر ويقول « يا شيخ فلان اترك له من شان الجماعة ومن شان والديك كذا وكذا ، فيقول « تركت ما طلبت » وهكذا الى ان يصبح المطلوب سهلاً وخفيفاً . ثم يبيضون وجه رب البيت المحكوم له ، وذلك بان ينشروا له راية بيضاء يطوفون بها حول الخيام وهم يقولون « راية فلان بيض الله وجهه » .

* * *

حق الوجه

الوجه عند العرب هو الكفيل الموكل باجراء ما يتفق عليه فريقان من فعل خير او اتقاء شر . والوجه لا يخون صاحبه أبداً ولو فقد ماله وحياته . فاذا باع امرؤٌ ارضاً او فرساً او غيرهما من الأشياء يقول البائع للشاري « ترى بعتك بوجه فلان ان طلبتها ادفع كذا وكذا عقاباً على ذنبي » وكذلك الشاري يقول « ترى اشتريت بوجه فلان ، ان ارجعتها ادفع كذا وكذا عقاباً على ذنبي » . واذا تشاجر اثنان ثم تسالما يقول الواحد لصاحبه « ترى بوجه فلان تصالحنا ومن اضر قريبه لا يلوم الا نفسه » . ومن اودع وديعة وخاف عليها من السرقة او من الاتلاف يقول للمؤتمن عليها « ترى فلان وجهٌ عليك » . فمن تعدى على صاحبه في مثل هذه الأحوال يجد امامه اعداء كثيرين بسبب الوجه ،

لانّ العشيرة كلها تقوم مع الوجه يداً واحدة . والمعتدى عليه يلتجيء الى الوجه ويقول له « يا شيخ فلان ، قد صار الأمر الفلاني بوجهك ، وخصمي فلان تعدى عليّ وكسر وجهك ، فبيض وجهك ووجهي » فيجمع الوجه مجلساً مؤلفاً من القاضي البدوي والامراء المعروفين ويُرسل رسلاً ليأتوا بالمعتدي . فيقصُّ الوجه قصته على الحاضرين ، والمعتدي في أثناء ذلك راكع والعقال في رقبته دلالةً على التذلل . ثم يحكم القاضي على المعتدي بدفع ما عليه ويعاقبه بدفع عشرة خرفان للوجه .

حق الدخيل

الدخيل عند العرب هو الرجل المستجير الخائف من امر دهمه او سيدهمه ، فيعمد الى شيخ كبير قوي يستغيث به ويطلب حماه ، ويقول له « انا دخيلك احمني وارحمني » . ورب مستجير يأتي في الليل ويرتمي على فراش الاولاد في خيمة الشيخ ويقول بصوت متقطع حزين « انا بحضارك وموقد نارك ، انا داخل عليك من السيف والحيف ومن فلان صاحب الحق الردي » ثم يبسط له سبب اعتصامه به . فيقول له الشيخ « ابشر بالعز والهناء وعش في ديارنا فمرحبا بك » ثم ينزع كوفيته من على رأسه ويضعها على رأس الدخيل ويقول « الله ورسول الله لا احد ينزع من رأسك شعرة » .

وحينما يقبل الشيخ الدخيل في منزله يرسل رسلاً الى عدوّ الدخيل وطالبه يقولون له « ترى فلان دخيل في بيتي احذر ان تصيبه باذى » فيجيبه الرجل « اطلب خصمي الى القضاء » فيقول صاحب الدخلة « أعطه عطوة » والعطوة في البادية هي هدنة من الزمان يمتنع فيها العدوّ عن الانتقام الى ما بعد المحاكمة ، وهذه الهدنة تكون عند بعض العشائر اسبوعين ، وقد تمتد عند غيرها الى اكثر من ذلك ، ومعظمها شهران .

وفي اثناء المهادنة يبعث صاحب الدخلة وفوداً الى عدوّ دخيله ثلاث دفعات متوالية ، مستخدماً الوعد تارةً والوعيد أخرى حتى يرعوي وينثني للحق الذي يحكم به الاجاويد او القاضي ، وان ابى الا الانتقام وأخذ

الثار بيده ، يجمع الشيخ فرسانه الشجعان ويقودهم الى منزل العدو
فيسلبون ما يجدونه هناك من المواشي ويقودونها الى أرض قاحلة لا مرعى
فيها فيضطر حينئذ الى المصالحة . وان أصر على عناده تموت اغنامه
ويصبح فقيراً ولا يحق له ان يطالب صاحب الدخلة بشيء لانها تحسب
عقاباً له وهي حق الدخيل .

***

حق الدم

السنة عند العرب هي « الدم يطلب الدم » على ان من لا يقدر على
أخذ ثأره يطلب الدية ، وتدعى عند الأعراب « المقلة » وقدرها ٣٣٣٣٣
قرشاً . وقاتل المرأة وخصوصاً العذراء يدفع اربعة اضعاف الدية ، لان
المرأة انسان ضعيف وقتلها جرم كبير على الرجل وإهانة مذلة له .

فاذا ذبح أعرابي عدوه يسعى حالاً في طلب امير كبير يحتمي في ظله
ويعتصم بمعقله هو وماشيته خوفاً من ان يقتل وفاقاً لسنة الانتقام العاجل
التي تعطي اهل القتيل حقاً مدة ثلاثة ايام ان يأخذوا ثأرهم بذبح القاتل
واهله وهدم بيته وسلب ماشيته . فالامير المجير يلتزم أن يبذل جهد طاقته
لتخليص المجرم من طائلة هذا الانتقام ، ولو كان القاتل المستجير من
اعداء العشيرة ، او عدوه ، او قاتل ابنه او احد اقربائه ، لان الشهامة
العربية تحتم عليه ان يحامي عن الضعيف المستجير .

اذا وصل المستجير امام الخيمة وقال لصاحبها « انا دخيلك » او تمسك
باطناب الخيمة او وقف امام الخيمة فقط فقد عد دخيلاً . وان قتله احد
خارج الخيمة قبل ان يبلغها وكان المدى بين مكان وقوعه قتيلاً وبين
الخيمة التي أتى ليستجير بصاحبها لا يتجاوز رمية عصا ، فقاتله يضطر الى
دفع دية الدم وحق الدخلة .

وعندما ينزل القاتل عن فرسه يذهب توّاً إلى فراش الأمير فيجلس
عليه ويقول « أنا دخيلك بعيالك وحلالك ، من الحظ المنكود ، والسيف

المجرود ، والظالم الحقود ، والكاذب ماله مولود ، فيجيبه الأمير «يا هلا ابشر بالعز وطيب المنزل » عند ذلك لا يهتم القاتل بشيء بل يعيش بصفاء ، والسعي كله يعود على المجير . فيرسل بعثات متتالية الى أهل القتيل كي يقبلوا المصالحة ويأخذوا دية الدم . على انهم يرفضون الصلح دائماً في أول مرة ، ويطلبون الدم بالدم ، ويذكرون الدم المهدور ، الصارخ إلى السماء ، الطالب الانتقام . فيعود الوفد الاول خائباً . على أن المجير لا ييأس من هذا الجواب المؤلم لأن هذه هي العادة عندهم ، فيعيد الكرّة بعد أيام مرسلاً اليهم وفداً أكبر كي يصلحوا ذات البين ويأخذوا الدية فيرجع أيضاً الوفد الثاني مكسور النفس . وفي غالب الأحيان يصير الصلح بعد المرة الثالثة لأن العرب ترتفع بهم العواطف النبيلة إذا شاهدوا كبراء البيداء متذللين أمامهم . ولكن ان أبى أهل القتيل المصالحة بعد المرة الثالثة ، فتلك دلالة على أنهم لا يريدون إلا الانتقام ، ويجب على القاتل حينئذ أن يهرب في ظلمات الليـــل الى بلاد بعيدة ويعتصم بقبيلة شهيرة .

والذين تصيبهم سهام الانتقام هم أهل القاتل وأقرباؤه إلى الدرجـة الخامسة أي أبو القاتل وجدّه وأولاده وأولاد أولاده وأعمامه وأبناء أعمامه . أما الأباعد من الأسرة كابن العمة وابن الخالة ونحوهما فلا يؤذى بضرر بل يقدم لأهل القاتل بعيراً يسمى عندهم « بعير النوم » ويبقى في خيمته غير خائفٍ صولة الأعداء .

حق الطنيب

ويدعى أيضاً حق القصير ، والطنيب تصغير الطُنُب وهو حبل الخيمة . وعند العرب الطنيب هو الجار المستجير ، ويعتبر طنيباً إذا علق بعض آلات صناعته على طُنُب من أطناب الخيمة ، ومنهم من يكتفي بالكلام فقط فيقول : « يا شيخ فلان يا أبا فلانة أنا طنيبك » ، فيقول له « يا هلا بك » .

فمن الأعراب من يترك عشيرته وبيت أبيه فيحمل خيمته ويرفعها إلى جانب شيخ عظيم ، ويكون ذلك إذا خشي عدوا لا يقدر على مقاومته أو وجد ضدّه عدداً وافراً من الأعداء لا يستطيع منازلتهم أو قدم طلباً للرزق والشغل عنده في حراثة أرضه . فما من أحد إذاً يضطرّ إلى مجاورة أمير غريب عن عشيرته ووطنه إلا أن يكون ضعيفاً أو فقيراً . ويقول العارفون بعادات العرب أن الضيف يسمى عندهم ضيفاً مدة ثلاثة أيام وإن طال مكثه عُدّ طنيباً . وكم من قاتل مثلاً نزل بالقرب من أمير كبير في بلاد بعيدة عن وطنه فسمي باسمه وتطبع بطبائع عشيرته وقد نسي أصله ونسبه بعد طول الزمان .

ومن غريب ما يجري في هذا الحق إن بعضاً من التجار ينزلون في خيام العرب أو عند الشيخ ليبيعوا بضاعتهم من ملبوس ومأكول في حماه ، فيصبح شأنهم شأن طنيب هذا الشيخ أو قصيره . ويلزم الشيخ أن يجمع لهم ديونهم من المديونين ، وإذا تعصّب المديون وامتنع عن الدفع يضطر الشيخ نفسه إلى الدفع كي يبيض وجهه أمام القصير . وإذا سُرق شيء من القصير ، فعلى الشيخ أن يسعى باسترداده له .

* * *

حق العرض

البادية بلاد تنحت عن المنكرات ، وهي في هذا الباب أشرف من المدن المتمصرة حيث يظهر المنكر ظهوراً جلياً على حدما قال الشاعر الشعبي : « ما في شي اسمه عيب » . فالنساء في القفر على الجملة عفيفات يتجنبن الطرق السافلة وأبواب المحرمات . وقد تسير المرأةالبدوية وحدها في البادية ترعى الإبل والنعاج ، ولا يعارضها أحد أو يتعدى عليها .

على أن جرماً من هذا النوع كثير الحدوث في البيداء ، ألا وهو الخطف . وكم من شيخ بكى على ابنة له كانت سعادته في هذه الدنيا ، فغابت عن أنظاره في ليلة دامسة ، وبات هو يطوي الأيام والأوقات بالحزن والبكاء وهم يقولون فلانة خطفت فلاناً . ولا يقولون فلان خطف فلانة .

إذا رام الشاب البدوي أن يتزوج بابنة على غير إرادة أبيها واتفق معها على خطفها يتواعدان إلى زمان ومكان محدودين ، فاذا ستر الليل الأرض يأتي إلى الابنة ويردفها وراءه على فرسه ويهرب بها إلى بلد بعيدة وربما وجدها واردة على عين ماء أو في حقل فخطفها بعد أن يكونا قد اتفقا . ولا بد للخاطف من عقاب شديد إذا وقع .

قلتُ إن الخطف كثير في عرب البادية . وقد لا يمر شهر إلا ويسمع فيه خبر كهذا بين الاعراب ، والحق في ذلك في غالب الأحيان على أهل البنت الذين يطمعون ببيع بناتهم بأثمان باهظة حين زواجهن ، فان البنت عند العرب تكون لمن يقدّم مالاً وحلالاً أكثر من سواه ، لذلك يصير الزواج عندهم على غير حب ووداد .

فاذا خُطفت ابنةٌ وكان خاطفها من قبيلة قريبة ، ركب أهلها وأقاربها ليرجعوا الشرف المفقود والابنة الهاربة ، ولهم الحق بأن يصنعوا ما يشاؤون في مدة أيام ثلاثة فقط يسوغ لهم فيها أن يقتلوا الخاطف ويهلكوا غنمه ، ويهدموا خيمته ، ويذبحوا فرسه ، وهم يسرفون بما تصل اليه أيديهم إسرافاً لا يستبقون لانفسهم منه شيئاً وان هم استبقوا رذلوا وأهينوا ، وإذا مضت الأيام الثلاثة ولم يظفروا بالخاطف ولم يستطيعوا فيها إرجاع شرفهم المفقود ، حل بهم العار والخجل ، فيرحلون وينزلون وحدهم مؤثرين العزلة والغربة . والخاطف يتزوج بالفتاة التي خطفها آمناً لا حرج عليه

وفيما خلا الخطف ، فمن أقدم من البدو على الفواحش بنفس راضية ، يردعه الشيخ مع وجوه العشيرة مرات عديدة ، وان هو لم يرتدع يحكمون عليه بالنفي ، ويكون دمه مطلولاً لا يطالب به وهي عادة محمودة تحمل العرب على تجنب المنكر خوفاً من العقوبات الصارمة .

ومما يخفف وطأة الفواحش في البادية خوفهم من العار والهوان ، لانّ البيداء لها آذان تسمع وعيون تنظر ، فلا يخفى فيها خافٍ ، ولا يوجد فيها سرٌّ مكتوم . قال أحدهم إن أهل البادية كالمشرفين على رأس الجبل ، يراقبون الحركات والاشارات الخفية ، ومن وُجد جرم فظيع في بيته قد تحرق خيمته ويُنثر رمادها في الهواء .

دمشق : سنة ١٩٣٢

القسمُ الثّاني

في أربع عشرة محاضرة

[illegible] الروح [illegible] كثيراً من الصور الفارغة [illegible]

[illegible]

دمشق [illegible] ١٩٣٣

[illegible]

عدي بن الرقاع العاملي

للأستاذ خليل مردم بك

حياته

هو ابو داود عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع العاملي من بني عاملة . وهم من عرب اليمن ينتهي نسبهم الى كهلان ثم الى قحطان نزحوا عن اليمن الى الشام مع من نزح من اليمانيين قبل الاسلام . يقول الهمداني في صفة جزيرة العرب : « ديار عاملة مجاورة للاردن وجبل عاملة مشرف على عكا من قبل البحر يليها ويطل على الاردن » . ويقول أيضاً « وأما عاملة فهي في جبلها مشرفة على طبرية الى نحو البحر » . ويقول ابن خلدون في كتاب العبر : « إن بني عاملة بطن متسع ومواطنهم ببرية الشام » ، ويقول القلقشندي في صبح الاعشى : « ان بجبال عاملة من بلاد الشام الجم الغفير من بني عاملة » . ونسب الناس عدياً الى الرقاع وهو جد جده لشهرته .

وقد زعم بعض النساب أن عاملة من معد بن عدنان وليست من قحطان ، ولكن عدياً نفسه يتولى الرد عليهم بقوله :

قحطان والدنا الذي ندعى له   وأبو خزيمة خندق بن نزارِ

وفي لغة عدي أيضاً ما يصحح دعواه قال :

فانك والشعر ذو تزجي قوافيه   كمبتغي الصيد في عريسة الاسدِ

يريد « الشعر الذي تزجي قوافيه » ، وذو بمعنى الذي في لغة طيىء ، وطيىء من قحطان .

نحن لا نعلم على التحقيق في أي سنة ولد عدي ، ولكن يغلب على

الظن أن يكون مولده حوالي العقد الرابع من القرن الاول ، لان من أول ما روي عنه من الشعر أبياتا قالها في زمن يزيد بن معاوية وأنشده اياها . ويزيد بويع بالخلافة سنة ستين وتوفي سنة أربع وستين . فلا نكون مخطئين إذا قدرنا أن عديا كان وقتئذ شاباً .

اما منزله فقد كان بدمشق كما نص على ذلك صاحب الاغاني . وقال أيضا « هو من حاضرة الشعراء لا من باديتهم » ولقبه ابن دريد في كتاب الاشتقاق بشاعر أهل الشام . وعده محمد بن سلام الجمحي في الطبقة السابعة من شعراء الاسلام .

نشأ عدي في دمشق عاصمة الدولة الاموية ، وكان هواه مع بني أمية « يمدح أحياءهم ويرثي أمواتهم » كما قال الوليد بن عبد الملك ، ولا يقف عند هذا الحد ، بل يرى رأيهم ويقول بقولهم ، ويؤيد سياستهم ويتحمس لهم ، وهو سلم لمن أطاعهم وحرب على من عصاهم ، ينصرهم بلسانه وبسيفه لا عن رغبة بل عن رأي وعقيدة . قال يمدح عبد الملك ابن مروان بعد أن ظفر في الوقعة التي كانت بينه وبين مصعب بن الزبير ، وانتهت بمقتل مصعب بدير الجاثليق .

لعمري لقد اصحرت خيلنا	بأكناف دجلة للمصعبِ
فقدّمنا واضحٌ وجهه	كريم الضرائب والمنصب
أعين بنا ونصرنا به	ومن ينصر الله لم يُغلب
فداؤك أمي وأبناؤها	وان شئت زدت عليها أبي
وما قلتها رهبةً إنما	يحل العقاب على المذنب
اذا شئت نازلت مستقتلاً	أزاحم كالجمل الاجرب
فمن يك منا يبتْ آمنا	ومن يك من غيرنا يهرب

أفلا ترى صدق اللهجة في قوله « وما قلتها رهبةً .... » فضلاً عن بقية الابيات التي تنبيء بان الشاعر حارب في جيش عبد الملك .

فلما توفي عبد الملك وخلفه ابنه الوليد اختص عذي به ومدحه بقصائد من حر الشعر بقي منها قصيدتان مطلع الاولى :

عرف الديار توهماً فاعتادها من بعد ما شمل البلى أبلادها

ومطلع الثانية :

طار الكرى وألمّ الهم فاكتنعا وحيل بيني وبين النوم فامتنعا

وغيرهما من بقايا القصائد التي خلد بها مآثره واشاد باعماله العظيمة ، كما مدح ابنه عمر بن الوليد فقربه الوليد وقدمه وكان يدعوه « شاعرنا » . واذن أحب عدي بني أمية عامة ، فلقد آثر الوليد منهم خاصة وأخلص في حبه كثيراً حتى تمنى أن يموت بحياته ، فقال من قصيدة يمدحه بها :

عذنا بذي العرش أن نحيا ونفقده وأن نكون لراعٍ بعده تبعا

ولكن هذه الامنية لم تتحقق ، فقد توفي الوليد وبويع بعده أخوه سليمان ابن عبد الملك ، فاستقدم عديا وعاتبه على قوله هذا ووصله ، واجتمع مرة عنده مع الفرزدق وجرير وكثيّر . وتوفي سليمان وخلفه عمر بن عبد العزيز وعدي حي وقد ذكره بشعره إذ يقول :

لولا اختياري أبا حفص وطاعته كاد الهوى من غداة البين يعترمُ

ولم يذكر صاحب الاغاني ولا ابن عساكر في التاريخ الكبير ولا ابن سلام الجمحي في طبقات الشعراء ولا ابن قتيبة في الشعر والشعراء خبراً لعدي بعد عمر بن عبد العزيز الذي بويع بالخلافة سنة تسع وتسعين وتوفي سنة احدى ومائة ، فلا يبعد أن يكون عدي توفي في خلافته .

وكان تقدمه عند بني أمية أثار حسد الشعراء له ، فقد تعرض له جرير في مجلس الوليد بن عبد الملك فناقضه عدي ثم لم تتم بينهما مهاجاة لان الوليد منع جريراً من هجائه ، فهجاه جرير تعريضاً ولم يصرح باسمه خوفا من الوليد . وهجاه الراعي فرد عليه عدي . وكان كثيّر يبغضه لانه كان يبلغه عن عدي أنه يطعن على شعره .

وكان له بنت شاعرة اسمها سلمى ، فأتاه ناس من الشعراء ليماتنوه وكان غائباً ، فسمعت بنته وهي صغيرة فخرجت اليهم وقالت :

تجمعتمْ من كل أوبٍ وبلدةٍ على واحدٍ لا زلتم قِرنَ واحدِ

فالخمتهم . ويستدل من كنيته على أنه كان له ابن اسمه داود وسماه بعضهم دواداً ولا نعرف من خبره شيئاً . كما أن قوله :

« فداؤك أمي وأبناؤها »

ينبيء بان له اخوة خفيت علينا اسماؤهم .

وله ديوان شعر ذكره ابن النديم في كتاب الفهرست . وذكر عبد القادر البغدادي في خزانة الادب ج ١ ص ١٠ أنه اطلع على ديوان عدي بن الرقاع وعده في جملة الدواوين التي اعتمد عليها في تأليف الخزانة . ولكن لا يعلم الآن مكان ذلك الديوان .

صفته وأخلاقه

لم ينص أحد ممن ذكر ابن الرقاع على شيء من صفته غير ابن عساكر ، فقد ذكر أنه كان أبرص . ويصفه لنا عبيد الراعي الشاعر بأنه قصير أوقص إذ يهجوه ويقول :

جُنادفٌ لاحقٌ بالرأس منكبه كأنه كودنٌ يوشى بكلاّبِ(١)

من معشرٍ كحلت باللؤم اعينهم قُفْدِ الأكفِ لئامٍ غيرِ صُيَّابِ

والله يعلم مبلغ هذه الصورة من الصحة . على أن بعض أخباره التي أوردها صاحب الاغاني وابن عساكر مع البقية الباقية من شعره يمكن ان تصف لنا شيئاً من نفسه واخلاقه .

كان عدي يفخر بما يفخر به فتيان العرب : الحب والشجاعة والفصاحة وفي ذلك يقول :

---

(١) جنادف : قصير أراد أنه أوقص ، والكودن : البرذون ، ويوشى : يستحث ، والكلاب للمهماز ، وأقفد الكف : مائلها ، والصُيَّاب : السادة .

فلقد ثنيت يد الفتاة وسادةً لي جاعلاً يسري يديَّ وسادها
وأصاحب الجيش العرمرم فارساً في الخيل أشهد كرها وطرادها
وقصيدةٍ قد بت أجمع بينها حتى أقوّم ميلها وسنادها

وكان وافياً لأصحابه في سرائهم وضرائهم لا ينحرف عنهم بانحراف الزمان والسلطان ، عزل الوليد بن عبد الملك عبيدة بن عبد الرحمن عن الاردن وضربه وحلقه وأقامه للناس ، وقال للمتوكلين به من أتاه متوجعاً واثنى عليه فائتوني به ، فأتى عدي بن الرقاع وكان عبيدة اليه محسناً فوقف عليه وأنشأ يقول :

فما عزلوك مسبوقاً ولكن الى الخيرات سباقاً جوادا
وكنت اخي وما ولدتك امي وصولاً باذلاً لي مستزادا
وقد هيضت لنكبتك القدامى كذاك الله يفعل ما أرادا

فوثب المتوكلون به اليه فأدخلوه الى الوليد واخبروه بما جرى ، فتغيظ عليه الوليد وقال له أتمدح رجلاً فعلت به ما فعلت ؟ فقال يا أمير المؤمنين انه كان الي محسناً ولي مؤثراً وبي براً ففي أي وقت كنت أكافئه بعد هذا اليوم ؟ فقال صدقت وكرمت فقد عفوت عنك وعنه لك فخذه وانصرف ، وانصرف به الى منزله .

وكان شديد العارضة حاضر الجواب ، دخل جرير على الوليد بن عبد الملك وعنده عدي بن الرقاع ، فقال الوليد اتعرف هذا ؟ فقال لا يا امير المؤمنين ، فمن هو ؟ قال هذا عدي بن الرقاع . فقال جرير : فشر الثياب الرقاع ، فممن هو ؟ قال من عاملة . قال جرير : أمن التي قال الله تعالى فيها « عاملةٌ ناصبةٌ ، تصلى ناراً حامية » ثم قال :

يقصّر باع العاملي عن الندى ولكن = العاملي طويلُ

فقال له عدي :

أأمك كانت اخبرتك بطوله أم انت امرؤ لم تدر كيف تقولُ

فقال جرير : لا بل أدري كيف أقول . فقال الوليد والله لبر كبنك

شاعرنا ومادحنا والراثي لأمواتنا ، تقول هذه المقالة ؟ والله لئن هجوته لأفعلن ولأفعلن . فلم يصرح جرير بهجائه وعرض فقال قصيدته التي أولها :

حي الهدملة من ذات المواعيس

وقال فيها يعرض به :

أقصر فان نزاراً لن يفاخرهم　　فرعٌ لئيمٌ وأصلٌ غير مغروسِ
وابن اللبون اذا ما لز في قرنٍ　　لم يستطع صولة البزل القناعيس
قد جربت عركتي في كل معترك　　غلب الاسود فما بال الضغابيس

وكان عدي مدح الوليد بن عبد الملك بقوله :

عذنا بذي العرش أن نحيا ونفقده　　وأن نكون لراع بعــده تبعا

فلما توفي الوليد وبويع بالخلافة لسليمان بن عبد الملك ، استدعى عدياً ، فلما دخل عليه قال : ان كنت لكارهاً لخلافتي . قال وكيف ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال حين تقول في مدحة الوليد :

عذنا بذي العرش ان نبق ونفقده　　وان نكون لراعٍ بعده تبعا

قال ابن الرقاع والله ما هكذا قلت يا امير المؤمنين ولكني قلت :

عذنا بذي العرش ان نبق ونفقدهم　　وان نكون لراعٍ بعدهم تبعا

قال او كذلك ؟ قال نعم . فوصله واذن له بالانصراف .

ومن شعره ما يدل على انه كان تيّاهاً كثير الاعجاب والذهاب بنفسه ، قال من قصيدة :

وعلمت حتى ما اسائل واحداً　　عن علم واحدةٍ لكي ازدادها

واتفق ان عديا لما انشد الوليد بن عبد الملك القصيدة التي منها هذا البيت ، كان عنده كثيّر ، فلما انشد هذا البيت قال كثيّر كذبت ورب البيت الحرام ، فليمتحنك امير المؤمنين بان يسألك عن صغار الامور دون كبارها حتى يتبين جهلك وما كنت قط أحمق منك الآن حيث تظن هذا بنفسك . فضحك الوليد ومن حضر .

وروي عن محمد بن المنجم أنه قال : ما احد ذكر لي فأحببت ان

اراه فاذا رأيته امرت بصفعه الا عدي بن الرقاع قيل : ولم ذلك ؟ قال لقوله :

وعلمت حتى ما اسائل واحداً عن علم واحدة لكي ازدادها

فكنت اعرض عليه اصناف العلوم فكلما مر به شيء ولا يحسنه امرت بصفعه .

وقد سمى جرير عدياً الشاعر المغرور حين عرض به فقال :

اني اذا الشاعر المغرور جربني جارٌ لقبرٍ على مران مرموسِ

ولكنه مع هذا الاعجاب بنفسه لم يقو على مصاولة جرير بل خافه ، فقد روي أنه لما اجتمع بجرير عند الوليد بن عبد الملك وهدده جرير بالهجاء وثب عدي إلى رجل الوليد فقبلها وقال اجرني منه .

وإذا صح أن تكون الصفات التي ينعت بها الشاعر نفسه دليلاً على أخلاقه جاز لنا أن نقول إن عدياً كان جلداً لا يتضعضع لريب الدهر لقوله :

ونكبة لو رمى الرامي بها حجراً أصم من يابس الصوان لانصدعا

أتت عليَّ فلم أزع لها سلبي ولا استكنتُ لها شكوى ولا جزعا

وإنه كان حمولاً على نفسه غير سؤول لقوله :

فسترت عيب معيشتي بتكرمٍ وأتيت في سعة النعيم سدادها

ومهما يكن من مبالغة في هذه الصفات فانها تضرب بعرق إلى الحقيقة في نفس الشاعر ، أما هواه السياسي فقد كان مع بني أمية كما تقدم ذكر ذلك في حياته .

شعره

عاصر عدي بن الرقاع سبعة خلفاء من بني أمية ، وكان مقدماً عندهم لأن مذهبه السياسي أموي ، ولا عمل له غير الشعر ، وقد حدث في زمانهم من الاحداث ما يبعث الشعر في نفس عدي ، فمن المفروض أن يكون قال كثيراً من الشعر . وقد ذكر له ابن النديم في كتاب الفهرست ديواناً ، ولكن الزمان لم يبق من شعره إلا مقداراً يسيراً مشتتاً في كتب اللغة

والأدب والتاريخ وتقويم البلدان ، من ذلك أبيات قالها في الوقعة التي ظفر بها عبد الملك بن مروان وانتهت بقتل مصعب بن الزبير ، وقصيدتان مدح بها الوليد بن عبد الملك سبقت الاشارة اليها ، وأبيات مدح بها عمر بن الوليد ، ومقطوعات في معانٍ مختلفة كالوصف والغزل والأدب والفخر والمدح والهجاء والتهنئة ، وكلها لا تبلغ أربعمائة بيت ، وهو مقدار يسير لا يعطينا عن الشاعر صورة تامة واضحة ، ولكنا نحاول أن ندرس هذه البقية من شعره إلى أن يجود الزمان بشيء مما ضن به علينا .

* * *

عدي بن الرقاع شاعر إسلامي ، والشعراء الإسلاميون عامة كالفرزدق وجرير والأخطل وكثير وجميل والراعي ونصيب والقطامي ، — وعدي واحدٌ منهم — أعذب لغة وأحسن ديباجة وأكثر طلاوة من شعراء الجاهلية ، وذلك لتأثرهم بلغة القرآن وحسن انسجامه وسمو أسلوبه ، دع ما انفسح أمامهم من ميادين الحياة الإسلامية في مثلها العليا من دين وملك لم يكونا في أيام الجاهلية .

وربما كان عدي من أكثر هؤلاء الشعراء انسجاماً وتثقيفاً لشعره وتهذيباً لقوافيه وهو الذي يخبرنا كيف كان يحبر قصائده ويصقلها ويعود عليها بالتهذيب إذ يقول :

وقصيدةٍ قد بتُّ أجمع بينها حتى أقوم ميلها وسنادها
نظر المثقف في كعوب قناته حتى يقيم ثقافه منآدها

وهو في فنه صائغ ماهر لا يكره الشعر إكراهاً ولا يقتسر القوافي غصباً ولقد أتيح له من بارع الأبيات في انسجامها ما ذهب مثلا كقوله :

صلى الإله على امرىء ودعته وأتم نعمته عليه وزادها

فلقد صار عجز هذا البيت رسماً من رسوم الكتاب في ، رسائلهم ، قال أبو هلال العسكري في ديوان المعاني في فصل دعاء المكاتبة : « فاما قولهم وأتم نعمته عليه وزاد في إحسانه إليه ، فهو من قول عدي بن الرقاع :

صلى الاله ... الخ

وكقوله :

فلو قبل مبكاها بكيت صبابةً	بسعدي شفيت النفس قبل التندمِ
ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا	بكاها فقلت الفضل للمتقدمِ

وكم تمثل الناس بهذين البيتين

* * *

قالوا إن عدياً من حاضرة الشعراء لا من باديتهم ، وانه كان أثيراً مقدماً عند بني أمية ، ومعنى ذلك أنه من دعاة سياستهم لا من الشعراء الذين يبيعون الشعر بيعاً . فهل لذلك أثر في شعره ؟ نعم ان اطراد شعره وتساوق أبياته وتلاحمها وتهذيب قوافيه وحسن صياغته وما في تشبيهاته من معان حضرية وفي قصائده من ماء وظل ونعيم كقوله :

فقد أبيت أراعي الخود راقدةً	على الوسائد مسروراً بها واما

وقوله :

ومما شجاني أنني كنت نائماً	أعلل من برد الكرى بالتنسمِ
إلى أن بكت ورقاء في غصن أيكة	تردد مبكاها بحسن الترنم

أثرٌ من آثار نعيم العيش ورفاهته ، فان شعراء البادية يتوسدون في باديتهم أعضاد المطايا ، وعدي يراعي الخود على الوسائد ، ويعلل في ظلال الأيك بدمشق بنوم هنيء تترنم من فوقه الحمائم .

على أن حسن تأتيه في مدحه لبني أمية خلفائهم وأمرائهم أدل على لباقته وتحضره ، فهو شاعر مجيد من شعراء القصور يحسن القيام برسوم

الخلفاء والأمراء في مخاطبتهم على الوجه الأكمل ، ويمدحهم بما هو أشبه بالدعاية السياسية ، ويضفي عليهم رداء الجلال والعظمة ، فاسمعه يقول في مدح الوليد بن عبد الملك :

صلى الذي الصلوات الطيبات له والمؤمنون إذا ما جمعوا الجمعا
على الذي سبق الأقوام ضاحيةً بالأجر والحمد حتى صاحباه معا
هو الذي جمع الرحمن أمتـه على يديه وكانوا قبـله شيعا
عذنا بذي العرش أن نحيا ونفقده وان نكون لراعٍ بعده تبعا
إن الوليـد أمير المؤمنين له ملك عليه أعان الله فارتفعا

ويقول في مدحه أيضاً :

صلى الإله على امرئٍ ودعته وأتم نعمته عليـه وزادها
أو لا ترى أن البرية كلهـا ألقت خزائمهـا اليه فقادها
ولقد أراد الله إذ ولاّكهـا من أمة إصلاحهـا ورشادها
أعمرت أرض المسلمين فأقبلت وكففت عنها من يروم فسادها
وأصبت في أرض العدو مصيبةً عمت أقاصي غورهـا ونجادها
ظفراً ونصراً ما تناول مثـله أحد من الخلفاء كان أرادها
فاذا نشرت له الثنـاء وجدته جمع المكارم طرفها وتلادها
تأتيـه أسلاب الأعزة عنوةً قسراً ويجمع للحروب عتادها

فهل ترى نمطاً أليق بمخاطبة الخلفاء من هـذا النمط ؟ تحية الخليفة بالصلاة عليه ، وتعظيم للأمر المضطلع به ، وإشادة بعظائم أعمـاله في سبيل الأمة ، وإخلاص في محبته وتأييد لملكه وعرشه . بل كيف ترى الفرق بين هذا الأسلوب الحضري وبين أسلوب بعض بادية الشعراء الذين اعتـادوا أن يصفوا الممدوح بالحية الذكر ، ويمدحوه بتأريث النيران وعظم القدور ونحر الجزور ودعوة الجفلى والنداء على الطعام وكثرة الهبات . أو أن يصفوا عناء سفرهم إلى الخليفة وما لاقوه من المشاق وما هم عليـه وعيالهم

الذين خلفوهم وراءهم من الفاقة ليزيد الخليفة في رفدهم . هـذا جرير أطبع أهل زمانه على الشعر لم يستقم له في مدح الخلفاء ذلك الأسلوب الذي استقام لعدي ، فانه في مدحه لعمر بن عبد العزيز أشبه بالمستجدي منه بالشاعر قال :

إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا	من الخليفة ما نرجو من المطر
أأذكر الجهد والبلوى التي نزلت	أم قد كفاني الذي بلغت من خبري
كم بالمواسم من شعثاء أرملة	ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
يدعوك دعوة ملهوف كأن به	مساً من الجن أو خبلاً من البشر
ممن يعدك تكفي فقد والده	كالفرخ في العش لم يدرج ولم يطر
خليفة الله ماذا تأمرون بنا	لسنا إليكم ولا في دار منتظر
لتنعش اليوم ريشي ثم تنهضني	وتنزل اليسر مني موضع العسر

وما ذلك إلا لبداوة جرير وبعده عن حياة الحاضرة ، على أنه بحر لا ساحل له .

ولعدي أيضاً أبيات يمدح بها أحد أمراء بني أمية وهو عمر بن الوليد ابن عبد الملك ، تدل على لباقة وحسن تأت لو قالها أحد شعراء القصور في هذه الأيام لأثارت إعجاب الناس لما فيها من حذق ولباقة وهي :

وإذا نظرت إلى أميري زادني	ضناً به نظري إلى الأمراء
تسمو العيون إليه حين يرونه	كالبدر فرّج بهمة الظلماء
والقوم أشباهٌ وبين حلومهم	بونٌ كذاك تفاضل الأشياء
كالبرق منه وابلٌ متتابعٌ	جَوْدٌ وآخر ما يجود بماء
والأصل ينبت فرعه متأثلاً	والكف ليس بنانها بسواء
بل ما رأيت جبال أرض تستوي	فيما غشيتُ ولا نجوم سماء
والمرء يورث مجده أبناءه	ويموت آخر وهو في الأحياء

وفي شعر عدي عدا النعومة الحضرية مفردات ومعان تدل على الحضارة كذكر الكتاب والقلم والدواة والبريد والتجار كقوله :

تزجي أغن كأن ابرة روقه قلمٌ أصاب من الدواة مدادها

وكقوله :

لمن رسم دارٍ كالكتاب المنمنمِ بمنعرج الوادي فويق المهزَّمِ

وقوله :

ونحن بأرض قلَّما يجشم السرى بها العربيات الحسان الحرائرُ
كثيرٌ بها الأعداء يحسر دونها بريد الامام المستحث المثابر

وقوله :

مستطيرٌ كأنه سابريٌّ عند تجر منشّرٌ وملاء

على أن أثر البادية ظاهر جلي في شعره أيضاً ، فأنت تدرك به روح البادية كما تبصر أفياء الحاضرة ، فتراه يصف المطايا وصفاً يكاد ينفرد به من حيث الدقة والاستقصاء ، كما يصف المفاوز وما فيها من أعلام طامسة وأطلال دارسة ووحوش رائعة ، ولكنه ينتزع لها تشبيهات مما شاهده في الحاضرة ، بمتانة رصف وقوة أسر وجزالة تركيب ، ولعل عدم انقطاعه عن البادية هو الذي كفل لشعره السلامة مما يعتري كثيراً من شعراء الحواضر ويسميه النقاد باللين ، ويعنون به الرقة التي تفضي إلى الاسفاف ، ونجد هذا اللين أحياناً في شعر عدي بن زيد العبادي ، وأمية بن أبي الصلت ، وابن قيس الرقيات ، والوليد بن يزيد ، وكلهم حضريون .

وهكذا فشعر عدي بما فيه من روح البادية ورونق الحاضرة عربي في جزالته ورصفه وخياله ومعانيه وتفكيره ونظراته ، لا تجد فيه أثراً من ثقافة أجنبية شأن جميع الشعراء الاسلاميين ، لأن الحياة بجميع مظاهرها أيام بني أمية كانت عربية إسلامية .

لقد أحسن عدي في الوصف فانه وصف الطيف والغيث والبرق والليل

والحمر والمطايا والظباء والوحوش في حركاتها وما تثيره من الغبار في عدوها .

قال صاحب الأغاني ، قال عبدالله بن مسلم : « ومما ينفرد به (عدي) ويقدم فيه وصف المطية فإنه كان من أوصف الشعراء لها »

قال في الخيل :

يخرجن من فرجات النقع دامية ً كأن آذانها أطراف أقلام

وقال ابن قتيبة : عدي أحسن من وصف الظبية وولدها .

وقال جرير : سمعت عدي بن الرقاع ينشد الوليد بن عبد الملك قصيدته التي أولها :

عرف الديار توهماً فاعتادها

فحسدته على أبيات منها ، حتى أنشد في صفة الظبية والغزال :

تزجي أغنّ كأن إبرة روقه

فرحمته من هذا التشبيه ، وقلت بأي شيء يشبهه ترى ؟ فلما قال :

قلم أصاب من الدواة مدادها

رحمت نفسي منه وحالت الرحمة حسداً .

وقال أبو هلال العسكري في ديوان المعاني « وأما قول عدي في صفة قرن الظبي فليس له شبيه »

ولم يقل أحد كما قال عدي يصف حماري الوحش في عدوهما وما يثيرانه من الغبار :

يتعاوران من الغبار ملاءة ً غبراء محكمة ً هما نسجاها

تطوى إذا علوا مكاناً جاسياً وإذا السنابك أسهلت نشراها

وإلى ذلك أشار أبو تمام الطائي بقوله :

تثير عجاجة ً في كل أرض يهيم بها عـدي بن الرقاع

قال أبو هلال العسكري في ديوان المعاني بعد أن أورد بيتي عدي: « لا أعرف في صفة الغبار أحسن ولا أتم من هذا ».

وعدي في غزله محسن رقيق عذب يغلب عليه الوصف الدقيق في المعاني الغزلية، من ذلك وصف تفتير العينين ولم يقل أحد مثله. قال نوح بن جرير يا أبت من أنسب الشعراء؟ قال أتعني ما قلت؟ قال إني لست أريد من شعرك انما أريد من شعر غيرك، قال ابن الرقاع في قوله:

لولا الحياء وان رأسي قد عسا	فيه المشيب لزرت أم القاسم
وكأنها بين النساء أعارها	عينيه أحور من جآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرنَّقت	في عينه سِنَةٌ وليس بنائم

ثم قال لي ما كان يبالي ان لم يقل بعدها شيئاً.

وهذه الأبيات مما يتغنى به. قال محمد بن عباد كنت عند أبي عمرو وعنده رجل اعرابي كأنه مدني فقرأت عليه أبيات عدي: « لولا الحياء وان رأسي قد عسا »، فقال أبو عمرو أحسن والله، فقال الاعرابي أما والله لو رأيته مشبوحاً بين أربعة وقضبان الدفلى تأخذه لكنت له أشد استحساناً يعني إذا كان يغنى على العود.

قال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في كتاب الوساطة:

« وأما قول عدي « وسنان ... » فقد زاد به على كل من تقدم وسبق بفضله جميع من تأخر ولو قلت اقتطع هذا المعنى فصار له وحظر على الشعراء ادعاء الشرك فيه لما أراني بعدت عن الحق ولا جانبت الصدق ».

وقال ابو هلال العسكري في ديوان المعاني: قال أبو عمرو لأصحابه ما أحسن ما قيل في العيون؟ قال بعضهم قول جرير

إن العيون التي في طرفها حورٌ	قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لاحراك به	وهن أضعف خلق الله أركانا

وقال آخر قول ذي الرمة:

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالألباب ماتفعل الخمرُ

وقال آخر بل قوله

يذكرني ميأ من الظبي عينه مراراً وفاها الأقحوان المنورُ

فقال أبو عمرو أحسن من هذا كله قول عدي بن الرقاع العاملي :

وكأنها بين النساء أعارها عينيه أحور من جآذر جاسمِ

وسنان أقصده النعاس فرنَّقت في عينه سِنةٌ وليس بنائم

ومن غزله العذب قوله :

صادتك أخت بني لؤي إذ رمت وأصاب سهمك إذ رميت سواها

وأعارها الحدثان منك مودةً وأعير غيرك ودها وهواها

بيضاء تستلب الرجال عقولهم عظمت روادفها ودق حشاها

يا شوق ما بك يوم بان حدوجهم من ذي الموبقع غدوةً فرآها

وقوله :

ونبه شوقي بعد ما كان نائماً هتوف الدجى مشغوفةٌ بالترنمِ

بكت شجوها عند الضحى فتساجمت اليها دموع العين من كل مسجم

فلو قبل مبكاها بكيت صبابةً بسعدي شفيت النفس قبل التندم

ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا بكاها فقلت الفضل للمتقدم

وله نظرات في الأدب والحكمة تغلب عليها السذاجة العربية ، زين بها بعض قصائده في مناسبات شتى كالأبيات التي مدح بها عمر بن الوليد ابن عبد الملك وقد سبق ايرادها وغيرها كقوله :

أخبر النفس انما الناس كالعيـــدان من بين نابتٍ وهشيمِ

وقوله :

والدهر يفرق بين كل جماعة ويلف بين تباعدٍ وتناء

وقوله :

والمرء ليس وان طالت معيشته يرى الذي هو لاقٍ قبل أن يقعا

وقوله :

إني إذا ما لم تصلني خلتي وتباعدت عني اغتفرت بعادها

ومن المعاني التي نظم بها عدي التهنئة حين هنأ عبد العزيز بن الوليد ابن عبد الملك بزواجه قال :

قمر السماء وشمسها اجتمعا بالسعد ما غابا وما طلعا

ما وارت الأستار مثلها فيمن رأيناه ومن سمعا

دام السرور له بها ولها وتهنآ طول الحياة معا

وهو معنى لم تقل الجاهلية فيه .

* * *

أثر الشام في شعر عدي

الشعر العربي ابن البادية ، تعبق منه رائحة الشيح والقيصوم في بوادي الحجاز ونجد وهضاب اليمن وظلال الشام وشواطىء دجلة وسقي الفرات ، والشاعر العربي لعهد عدي يعتد روح البادية عمود الشعر وقوامه ، ولكن بالرغم من ذلك فان أثر الشام واضح جلي في شعر عدي ، فلقد ذكر مدنها وحواضرها وقراها وربوعها ورياضها وظلالها وأنهارها ومياهها وجبالها وباديتها ، كما ذكر آرامها ووحوشها وطيورها ، مثل حمص وخناصرة والأحص وجاسم والمرج والمناظر والأزرق واعامق وفلسطين وبيت رأس والاردن والغريفة وغيرها ، وطبيعة الشام المنسجمة الساحرة في أرضها وسمائها ، وما في دمشق يومئذ من جلال الخلافة وعظمة الملك ، أوحى إلى عدي كثيراً من ذلك الانسجام واللباقة والتثقيف في شعره ، حتى صار يعتد ذلك فناً خاصاً بالشاميين لا يجيده غيرهم ، ولذلك كان عدي ينتقد كثيّر عزة ويغمزه ويطعن على شعره ويقول « هذا شعر حجازي مقرور إذا أصابه قر الشام جمد وهلك » ، وهكذا فعدي فخور بعربيته وشاميته معترف بما توجبه طبيعة الشام الساحرة الى الشاعر العربي حتى يرى نفسه فوق شعراء العربية .

ولقد وجد عدي في بادية الشام مجالاً لرياضة الشعر على النحو الجاهلي في بوادي نجد والحجاز ، فاعتسف مفاوزها ووقف على الرسوم وبكى الاطلال ووصف الآل وحن إلى آكامها وداراتها وربوعها وشبب بنزلانها واهتاج للمع بروقها .

وهذه أمثلة من شعره يلوح عليها الطابع الشامي :

منعوا الثغرة التي بين حمص   والكهاتين ليس فيها عريبُ

* * *

وإذا الربيع تتابعت أنواؤه   فسقى خناصرة الأحص فجادها

* * *

وكأنها بين النساء أعارها   عينيه أحور من جآذر جاسمِ

والغريب أن القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني صاحب كتاب الوساطة على نفوذ بصره وصحة أحكامه في النقد ، أساء فهم هذا البيت ، فظن أن ذكر جاسم من حشو الكلام لا فائدة في ذكره ، فقال بعد أن قرظ البيت : « وقد رأيت ظباء جاسم فلم أرها الا كغيرها من الظباء ، وقد يختلف خلق الظباء وألوانها باختلاف المنشأ والمرتع ، وأما العيون فقلّ أن تختلف لذلك » وفاته أن عدياً شامي ، وجاسم من قرى الشام ، فلجآذرها منزل في قلبه لا يحتله غيرها .

ومن شعره المطبوع بالطابع الشامي :

فكأنّي من ذكركم خالطتني   من فلسطينَ جلسٌ خمرِ عُقارُ
عتّقت في الدنان من بيت راسٍ   سنواتٍ وما سبتها التجار

وقوله :

حتى وردن من الأزارق منهلاً   وله على آثارهن سحيلُ

وقوله :

فذرذا ولكن هل ترى ضوء بارق   وميضاً ترى منه على بعده لمعا
تصعد في ذات الارانب موهناً   اذاهزّ رعداً خلت في ودقه شفعا

الى ما يشابه هذه الأبيات في شعره . وهناك أبيات يلم فيها بالأحداث

السياسية التي جرت في الشام كوقعة مرج راهط التي كانت بين مروان ابن الحكم والضحاك بن قيس سنه أربع وستين وما كان من بلاء أهل الأردن الحسن مع مروان حتى قتل الضحاك وتم الأمر لمروان قال :

لولا الإله وأهل الاردن اقتسمت	نار الجماعة يوم المرج نيرانا

وكانتصار مسلمة بن عبد الملك على الروم سنة سبع وثمانين عند طوانة قال :

وكان أمرك من أهل الطوانة من	نصر الذي فوقنا والله أعطانا
أمراً شددت باذن الله عقدته	فزاد في ديننا خيراً ودنيانا

مختارات من شعره

ديوان عدي بن الرقاع مفقود ، ولم يبق من شعره إلا القليل ، وهـذا القليل غير مجموع في مكان واحد يمكن الرجوع اليه ، بل هو مبعثر في بطون الكتب ، لذلك فقد انصرفت مدة من الزمن أجمع كل ما عثرت عليه من شعره في كتب الأدب واللغة والتاريخ والتراجم وتقويم البلدان ، فقد أجد القصيدة من شعره مفرقة في أمكنة متعددة فأضم بعضها الى بعض ، وقد أجد أبياتاً من بحر واحد وقافية واحدة منثورة على سبيل الاستشهاد في كتب اللغة وتقويم البلدان كلسان العرب لابن منظور ومعجم البلدان لياقوت فأجتهد في ترتيبها وجعلها قطعة واحدة متتالية بعد التحري والروية . ولم أجد من شعره قصيدة كاملة في مكان واحد إلا قصيدته الداليـة التي مدح بها الوليد بن عبد الملك وأولها :

عرف الديار توهماً فاعتادها	من بعد ما شمل البلى أبلادها

فقد وردت برمتها في نهاية الأرب للنويري ج ٤ ص ٢٤٧ وشرح الكامل للمرصفي ج ٧ ص ٤٨ ومجلة الآثار ج ٢ ص ٤٤٤ .

وهاك طائفة مختارة مما جمعته من شعره :

قال :

لو نوى لا يريمها الف حول ... لم يطل عندها عليه الثواء

أهواها يشفه أم أعيرت ... منظراً غير ما أعير النساء

وقال :

وناعمة يجلو بعود أراكة ... مؤشرة يسبي المعانق طيبها

كأن بها خمراً بماء غمامة ... إذا ارتشفت بعد الرقاد غروبها

أراك إلى نجد تحن وإنما ... منى كل نفس حيث كان حبيبها

وقال يجيب الراعي لما هجاه :

حدثت ان رويعي الابل يشتمني ... والله يصرف أقواماً عن الرشد

فانك والشعر ذو تزجي قوافيه ... كمبتغي الصيد في عريسة الأسد

وقال :

صادتك اخت بني لؤي إذ رمت ... وأصاب سهمك إذ رميت سواها

وأعارها الحدثان منك مودة ... وأعير غيرك ودها وهواها

بيضاء تستلب الرجال عقولهم ... عظمت روادفها ودق حشاها

وكأن طعم الزنجبيل ولذة ... صهباء ساك بها المسحر فاها

فاذا تحلجل في الفؤاد خيالها ... شرق الجفون بعبرة تشجاها

يا شوق ما بك يوم بان حدوجها ... من ذي المويقع غدوة فرآها

ومنها يقول في صفة حماري وحش :

يتعاوران من الغبار ملاءة ... بيضاء محكمة هما نسجاها

تطوى إذا علوا مكاناً جاسياً ... واذا السنابك أسهلت نشراها

وقال :

وفي الخدور مهاً حور مصورة ... خلقن أحسن مما قال من يصف

إذا كررن حديثاً قلن أحسنه ... وهن من غير سوء يتقى صُدُف

وقال يصف غيثاً :

مزنٌ ترفع في ريح شآمية ... مكللٌ بمعاء الماء منتطقُ
تربص الليل حتى قل سائمه ... على الرويشد أو خرجانه يدق
القى على ذات أجفار كلاكله ... وشب نيرانه وانجاب يأتلق
نارٌ تعاود منها العود جدته ... والنار تسفع عيداناً فتحترق
فما به بطن واد غب نضحته ... وان تراغب إلا مسفهٌ تئق

وقال في طول الليل :

وكأن ليلي حين تغرب شمسه ... بسواد آخر مثله موصولُ
أرعى النجوم إذا تغور كوكبٌ ... أبصرت آخر كالسراج يجول

وقال يمدح عمر بن هبيرة :

إذا شئت ان تلق فتى البأس والندى ... وذا الحسب الزاكي التليد المقدم
فكن عمراً تأتي ولا تعدونه ... الى غيره واستخبر الناس وافهم
فتىً عزلت عنه الفواحش كلها ... فلم تختلط منه بلحم ولا دم
كأن زرور القبطرية علقت ... علائقها منه بجذع مقوّم
عملس أسفار إذا استقبلت له ... سمومٌ كحر النار لم يتلثم
يكافح لوحات الهواجر بالضحى ... مكافحةً للمنخرين وللفم
إذا ما رمى أصحابه بجبينه ... سرى الليلة الظلماء لم يتهكم

وقال يفتخر :

نسيتم مساعينا الصوالح فيكم ... وما تذكرون الفضل إلا توهما
فان تعدونا الجاهلية اننا ... لنحدث في الأقوام بؤساً وأنعما
بلا ذاك منا ابن المعدل مرةً ... وعمرو بن هند عام اصعد موسما
يقود الينا ابني نزار من الملا ... واهل العراق سامياً متمطيا
فلما ظننا انه نازل بنا ... ضربنا وولّيناه جمعاً عرمرما
ونحن فككنا عن عدي بن حاتم ... اخي طيىء الاجبال قدّاً محرما

وقال يمدح عمر بن عبد العزيز :

جمعت اللواتي يحمد الله عبده عليهن فليهنيء لك الخير واسلم
فأولهن البر والبر غالبٌ وما بك من غيب السرائر يعلم
وثانيةٌ كانت من الله نعمةً على المسلمين إذ ولي خير منعم
وثالثةٌ أن ليس فيك هوادةٌ لمن رام ظلماً أو سعى سعي مجرم
ورابعةٌ أن لا تزال مع التقى تخب بميمون من الامر مبرم
وخامسةٌ في الحكم أنك تنصف الضـ ـعيف وما من علمّ اللهُ كالعمي
وسادسةٌ أن الذي هو ربنا اصـ ـطفاك فمن يتبعك لا يتندم
وسابعةٌ أن المكارم كلها سبقت اليها كل ساعٍ وملجم
وثامنةٌ في منصب الناس أنه سما بك منهم معظم فوق معظم
وتاسعةٌ أن البرية كلها يعدون سيباً من أمام متمم
وعاشرةٌ أن الحلوم توابع لحلمك في فصل من القول محكم

وقال في الخمر :

فكأني من ذكركم خالطتني من فلسطين جلسٌ خمرٍ عقارُ
عتقت في الدنان من بيت راس سنوات وما سبتها التجار
فهي صهباء تترك المرء أعشى في بياض العينين منها احمرار

وقال :

عرفت بعفرى أو برجلتها ربعا رماداً وأحجاراً بقين بها سفعا
فما رمتها حتى غدا اليوم نصفه وحتى سرت عيناي كلتاهما دمعا
أسرمٌ ما لو تغلغل بعضها الى حجر صلد تركن به صدعا
أميد كأني شارب لعبت به عقار ثوت في دنها حججاً سبعا
مقدية صهباء تنخن شربها اذا ما أرادوا ان يراحوا بها صرعى
عصارة كرم من حديجاء لم تكن منابتها مستحدثات ولا قرعا
فذر ذا ولكن هل ترى ضوء بارق وميضاً ترى منه على بعده لمعا

تصعد في ذات الارانب موهناً إذا هز رعداً خلت في ودقه شفما
فما تركت أركانه من سواده ولا من بياض مستراداً ولا وَقْما (١)

وقال :

لولا الحياء وان رأسي قد عسا فيه المشيب لزرت ام القاسم
يصطاد يقظان الرجال حديثها وتطير بهجتها بنوم الحالم
وكأنها بين النساء أعارها عينيه أحور من جآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرنّقت في عينه سِنةٌ وليس بنائم

هذه طائفة مختارة مما جمعته من شعر عدي بن الرقاع العاملي إذا أضيفت الى ما ورد منه على سبيل الاستشهاد ، صورت للقاريء شاعراً فحلاً من شعراء بني امية الذين يمثلون الشعر العربي الخالص .

دمشق : سنة ١٩٣٦ .

---

(١) الوَقْم : المرتفع من الأرض .

سياسة تمخضت بلغة

للأستاذ عبد القادر المغربي

وهو ما وقع أيها السادة : فإن مشروعاً جغرافياً في أوله ، دولياً سياسياً في آخره تمخض عن بحث لغوي ، جعلته موضوع حديثي اليكم .

***

عدت إلى طرابلس الشام سنة ١٩٠٩ م . بعد إقامتي في مصر بضع سنوات محرراً في جريدتي الظاهر والمؤيد ، وفي السنة التالية أي في سنة ١٩١٠ م أخبرت وأنا في طرابلس بأن سياحاً من الانجليز يسألون عني ، ولما اجتمعت بهم ، إذا هما انجليزيان ، وثالثهم عربي عراقي ، وقد ذكروا أن غرضهم من مجيئهم سورية البحثُ عن المخطوطات القديمة . وبلغهم أن لديَّ منها ، فهم يريدونني لذلك .

والثلاثة في حدود الأربعين من أعمارهم ، وأحد الانجليزيين من سكان لندن المقيمين فيها : وهو ربعة ، ممتلىء الجسم ، حنطي اللون ، وقور ، تلوح عليه مخايل الأصالة ، وفيه حياء يتراءى من تحته قلق فكر ، واضطراب بال ، يعرف كلمات قليلة من العربية ، واسمه (السيد بكستون) ، وأُخبرت أنه من أشراف الانجليز . ومن كبار أغنيائهم .

أما رفيقه الانجليزي الآخر فسمَّى لي نفسه (الحاج عبد الله الزنجباري) والملامح الانجليزية ظاهرة في لونه وسحنته وزُرقة عينيه ـ أكثرَ من ظهورها في رفيقه « باكستون » ، وقال إنه من أصل انجليزي ولكنه مولود في زنجبار ، ولذا يتكلم العربية . وهو ضابط في الجيش الانجليزي وكان قبل بضع سنوات قام بسياحة من زنجبار إلى أواسط أفريقيا ، وله اكتشافات جغرافية : منها العثور على طريق جديد من زنجبار إلى بحيرة

فكتوريا نيانزا . وقد ألف في اكتشافه هذا كتابا طبع ونشر وانتفع به المعنيون بقارة افريقية من رجال السياسة . وانه هو ورفيقه « باكستون » مسلمان . لكنه لما ذكر اسلامية (باكستون) جمجم قليلا : إلا أنّ جهلَ باكستون للغة العربية يجعله عاجزاً عن فهم شرائع الاسلام . ومن أجل هذا اصطحب معلما يعلمه العربية . وأشار إلى ثالثهم العربي العراقي .

وقد لمحتُ من خلال كلام الحاج عبد الله أن « بكستون » هو رئيس الثلاثة . والمتكفل بنفقات السفر . وأن الحاج عبد الله كوْنَ لبُّهم أو موتيرهم المحرِّك . أما ثالثهم العراقي فاسمه الاستاذ او الحاج (عبد المجيد) وهو من مواليد بغداد ومقيم في لندن يعلم العربية وآدابها في احدى معاهدها ، وقد كتب على بطاقته مع اسمه هذه الكلمات (رقم ٢٣ شارع فيرهولم حيّ وبست كنزكتنّ) .

ولما علموا أني رجعت حديثا من مصر ، وكنت محررا في المؤيد ازدادوا اهتماماً بي . ورغبةً في إطالة مجالستي ومحادثتي .

هذا ما كان بيننا من الحديث في المرحلة الأولى من التعارف . أما المرحلة الثانية فكانت أكثرَ تفتقاً بالكلام . وأشدُّ صراحةً بالأسرار فقد قالوا : إن غرض الانجليزيين من رحلتهم إنما هو تعلم اللغة العربية . لفرط حاجتهم إليها في الشرق . وأنهم لذلك يقصدونني . ثم طلبا مني أن أهيء لهم دراسة في اللغة العربية تقرب اليهم الشُقّة اليها . فسألتهم وماذا تريدون أن يكون موضوع الدراسة ؟ فقال الحاج عبد الله : فيما له علاقة بالطعام والشراب ، لأن ألفاظها أكثر دورانا على الألسنة ، واستعمالا بين الناس .

وجاء الوقت المعين للدرس اللغوي فألقيته عليهم . وكان موضوعه طائفة من فصيح كلمات اللغة تتعلق بالطعام والشراب وخاصة الكلمات الدالة على وَجَبات الطعام اليوميّة عنـــد العرب ، ومقارنتها بوَجَبات الطعام عند الأفرنج .

وأعترف لكم أيها السادة بأني لم أكن موفقاً في هذا الدرس ولا مقارباً ، وذلك لأني عرضت عليهم من ألفاظ اللغـة غير المألوفة فوق طاقتهم ، وما لا حاجة لهم به في هذا الطور من تعلمهم . نعم إن (الحاج عبد الله) قد يستفيد بعض الشيء أما السيد (بكستون) فلا يمكن أن يستفيد من درسي ولا قلامة ظفر . وقد ظلمته بعلم الله كما ظلم ذلك الشيخ الأزهري مستشرقاً من الأوربيين من أصدقاء الشيخ محمد عبده : فقد سأل هذا المستشرق بعد أن أسلم ـ الشيخ عبده أن يدله على شيخ يعلمه كيف يصلي الصلاة الاسلامية ، فسلمه إلى شيخ (أظن أن اسمه الشيخ عبد المعطي) وقضيا أياما ، سأل بعدها الشيخ عبده صديقه المستشرق عما اذا كان بدأ يصلي ؟ قال لا يا سيدي ، قال : ولم ؟ ، قال لأني الآن في صدد تعلم الأقسام السبعة للماء الطاهر ، وبعد ذلك أتعلم الوضوء ثم الصلاة . فطار صوابُ الشيخ عبده غيظاً ، وكان حريصاً على تثبيت إسلامية هذا المؤمن الجديد . ونادى الشيخ (عبد المعطي) فوبّخه على هـذا المطل ، الناشئ عن جهل ، فقال عبد المعطي وكيف أصنع ؟ أتكون صلاةٌ من دون معرفة أقسام المياه ؟ فيعرفَ المرءُ ما يجوز منها وما لا يجوز ، فقال له الامام : ويحك !! ومن قال لك إن هـذا يحتاج إلى طول مُدة ، ودروسٍ عِدّة ؟ : ـ قل له (توضأ من المـاء الذي تستطيبه لشربك)

وهكذا أيها الاخوان ، كان أمري مع الانجليزي النبيل « بكستون » فبدل أن أعطيه عن الطعام والشراب تعابير بسيطة تفيده في لغة التخاطب حشوتُ أذنه بمسائل تصلح للاذكياء من أبناء اللغـة العربية ، وهـذه المسائل هي التي جعلتها موضوع محاضراتي وشجّعني مجمعنا العلمي على أن ألقيها عليكم ، ومن مواضع العجب أني ما كنت أجد من الانجليزيين ، وأنا ألقي الدرس اللغوي عليها تبرماً بدرسي ، ولا مَلَلاً من تدفّق بكلمات

اللغة الحُوشية احياناً بل كانا على العكس يظهران الارتياح ، وصرحا بأن البحث مفيد جداً ونافع جداً .

وقد رابني هذا يعلم الله منهم ، وأوقع في نفسي أن في الأمر سراً سوف يظهر ، نعم ظهر في المرحلة الرابعة التي كادت تورّطني في أهوال : أهونها ركوب أسفار ، ومفارقة صغار ، وبعدٌ عن الديار .

فقد صرح لي (الحاج عبد الله) أخيراً أنه هو ورفيقه « بكستون » مهتمان في تهيئة الوسائل إلى اكتشاف منطقة مجهولة في أقصى الجنوب من ليبيا . قلت فزّان . قال لا ، فقلت جغبوب ؟ قال أبعد منها ، قلت واداي وبورنو ؟ قال في شمالها . قلت ما اسمها ؟ قال (تيبستي) والقبائل الضاربة فيها تسمى (التيبو) قلت لم أسمع بهذا الاسم قط . قال هي جبال محاطة بقفار وسكانها منعزلون عن العالم تقريبا ، وقد أعددنا حملة في لندن لأجل الوصول إليها ، وسوف أعلن اكتشافها ، كما أعلنت اكتشافي الطريق إلى بحيرة فكتوريا .

فأطرقت قليلا كأنني تذكرت شيئاً ، ثم قلت : كنتُ كتبت في المؤيد وأنا في مصر مقالا أعلنت فيه أمر النزاع القائم في (واداي) بين أميرها صالح العباسي وبين بعض بني عمه بشأن ميل بعضهم إلى فرنسا التي تحاول نشر نفوذها في تلك الأصقاع وميل البعض الآخر إلى الدولة العثمانية صاحبة البلاد الشرعية . فذلك الصقع هناك كان يتنازعُهُ النفوذ الفرنسي والتركي والسنوسي بل والمصري ومن ورائهم ايطاليا تتجرع الغُصص ، وتترقبُ الفرص .

فقال لي الحاج عبد الله متفرّسا في وجهي : وممن استوحيت هذه المعلومات التي كتبتها في مقالك عن تلك البلاد ؟ فقلت أخذتها من صديقي (السيد عبد الله الكحّال) التاجر الدمشقي في خان الخليلي بالقاهرة : فان له تجارةً واسعة وعملاء في واداي ، وكان يرسل إليهم البضاعة ، ويدس فيها أعدادا من جريدة المؤيد التي أحرر فيها ، وقد أطلعني على

جوابأتهم إليه . فكنت أقرأ فيها نتفاً من حوادث تلك البلاد وأودعها مقالاتي في المؤيد . فأطرق الحاج عبد الله قليلاً وكأنه اكتشف سراً . وقال أطلعني على مقالك عن واداي واسمح لي أن آخذ صورة عنه ، ثم قطع الحديث معي إلى ما بعد قراءة المقال . وبعد أن أخذ عنه نسخة عاد ثاني يوم الي وقال : إن ميلي للاكتشافات وولع رفيقي « بكستون » بالسياحات جعلنا نهيئ حملة ، أو بعثة علمية ستقوم من طرابلس الغرب في الصيف الآتي إلى بلاد (التيبو) المجهولة . والحملة مؤلفة من كذا وكذا بغلا وبغالا وخيمة ومؤونة وسلاحا ، وقد وجدوا أنفسهم في حاجة إلى رفيق من علماء الاسلام يستأنسون به في سلوك تلك البلاد الاسلامية البحتة ، وأنهم وجدوا في تلك الشرائط التي يحسن أن تتوفر في ذلك الرفيق . واتفق أن كنت يومئذ أعالج سياسة حزبية وكنت منحازا إلى حزب الاتحاد والترقي الذي كانت بيده السلطة في ذلك الحين ولم يكن انحيازي هذا تهاونا بقوميتي العربية يعلم الله بل استمساكا باسلاميتي . لا جرم أن قيام حملة انجليزية من طرابلس الغرب الى جغبوب ثم واداي مقر أناس متعصبين لدينهم ودولة خلافتهم - حملة مثل هذه من مصلحتها أن يكون برفقتها شيخ مسلم متعمم عرف شيئا من أحوال تلك البلاد وعرفه أهلها مما كان يكتب في المؤيد ، وهو مغربي الأصل ومنسوب إلى أسرة مشهورة في تونس الى اليوم ، وفوق ذلك كله حزبيته التي تساعده على التفاهم مع (رجب باشا) والي طرابلس الغرب يومئذ ، وتدرأ عن الحملة تهمة خدمة الاستعمار أو التجسس والعمل على الاخلال بمصالح الخلافة الاسلامية .

كل ذلك كان يجول في نفس الحاج عبد الله الانجليزي . ثم قال لي : ولك الحق اذا رضيت ان ترافقنا في أن تملي علينا الشروط التي تراها في مصلحتك .

عندها رأيتني واقفا في مفترق الطرق حائرا مترددا بين السلب والايجاب ، بين الاقدام والاحجام ، وكان لي عم شيخ كبير فقيه شديد

المحافظة على التقاليد. فارتاع لهذا النبأ، وعارضني في الرحلة أشدّ معارضة، وكنت أقول له إن سفري فيه خدمةٌ لدولة الخلافة، وسيكون وسيلة لمعرفة اسرار تلك الأصقاع الاسلامية النائية ومقدار منعتها ومناعة سكانها فأقدّم بها تقريراً إلى الدولة، أو أكتب سياحتي في كتاب أنشره، فيستفيد منه المسلمون السياسيون وغيرهم.

ثم عرضت عليهم شروطي فقالوا إن ميزانية الحملة تضيق عنها، وأنهم أصبحوا بعد أن ذكرت ما ذكرت عن التاجر الدمشقي المقيم في مصر أعني السيد عبد الله الكحال - مضطرّين أن يسافروا إلى مصر فلندن فليبيا، ومن هناك يكتبون إليّ رأيهم في تسوية الشروط بيني وبينهم وسيذللون كل عقبة في هذا السبيل ثم إني بعد ذلك أوافيهم في طرابلس الغرب. وطلبوا مني كتاباً إلى صديقي التاجر الدمشقي في خان الخليلي. فأعطيتهم الكتاب وبعد سفرهم بأيام جاءني كتابان من السيد الكحال: الأول في (١ : نيسان) والثاني في (٢٤ أيار) من سنة ١٩١٠ قال فيها ما خلاصته: إنه اجتمع بأصدقائي اعضاء البعثة ونصح لهم بالعدول عن مشروعهم لوعورة الطريق وتعصب السكان ضد الدسائس الأجنبية، وخصوصا بعدما احتلت فرنسا (واداي) فانها سدّت الطريق بمرة واحـــدة. ومما قاله الكحال في كتابه: واليوم كانت جلسة الورداني قاتل بطرس باشا غالي ولا بد انكم تطلعون عليها من الجرائد وقال في كتابه الثاني «وأفهمنا الحاج عبد الله الزنجباري بخصوصه أن لا يسافر: لأن شبهه شبه الانجليز تماما بخلاف الحاج عبد المجيد رفيقهم العراقي، فظاهره شرقي مسلم، قال الكحال: لكن وجدنا رغبتهم في السفر مع بعضهم فأوعدناهم عندما ينفتح الطريق نعرفكم في طرابلس الشام فتعرفوهم في لندن، ثم قال وقد مكثوا في مصر ثلاثة أيام. ثم سافروا إلى لوندره».

هذه خلاصة ما جاء في كتب السيد عبد الله الدمشقي. أما الحاج عبد الله الانكليزي أو الزنجباري فأرسل إليّ كتاباً أيضا من مصر.

وخلاصة ما قاله فيه : (إنهم اجتمعوا بالكحال فأكرمهم ونصح لهم بأن السفر في مثل هذه الأوقات مستحيل ، قال ولكن داعيكم ما زلت عازماً على هذا السفر مها كلف الأمر ، وإن شاء الله أطلع من طرابلس الغرب في آخر هذا الصيف وسأكتب اليكم من لندن . والخواجه بكستون يسلم عليكم)

ثم طرأ ايها الاخوان ما لم يكن في الحسبان : ذلك ما كان من غارة إيطاليا على طرابلس الغرب قبل أن يأتي آخر صيف سنة ١٩١٠ م . وانقطعت عني أخبار أبطال قصتي هذه إلى اليوم .

ثم إني ما كنت أدري أكانت الحملة على نفقة رفيقهم (بكستون) كما أوهموني أو على نفقة الحكومة الانجليزية نفسها ، أما إسلام بكستون والحاج عبد الله فهو من نوع الاسلام السياسي المصطنع الذي أصبح أمره معروفا ، والغرض منه مكشوفا ، وأذكر أن مسألة (الحجاب والسفور) كانت على أشدها يوم مجيء هذه البعثة الى سورية وجاء ذكرها أمام (الحاج عبد الله الانجليزي) فقال . إنه يرى وجوب الحجاب على المرأة فلا تخرج من بيتها ولا تختلط بالرجال وكل ما عليها أن تلد وتخدم زوجها وتربي أولادها . وربما كان قوله هذا بمثابة حجة شرعية على صحة اسلامه .

هذه هي أهم السادة الواقعة السياسية التي تمخضت بمسائل لغوية اقترحها عليَّ أولئك الانجليز . وقد قلتُ لكم آنفا إني لم أكن موفقا فيها وأرجو أن أكون موفقا ولو بعض التوفيق في إلقائها عليكم وضم نغمتها الى نغمة أناشيد حركة (التحرير) التي تسمعون اهازيجها حواليكم (١٢ نيسان سنة ١٩٤٦)

* *

أشرت آنفا إلى أن موضوع الدرس اللغوي الذي ألقيته على أصحابنا الانكليز هو وجبات الطعام عند العرب ومقارنتها بوجبات الطعام عند الافرنج .

وقد رأيت أن أمهد إلى غرضي بذكر شيء له علاقة بالطعام والشراب فأقول : الذي يدعو إلى الشراب هو العطش . والعطش اسم عام لكل

ما اعتلج في النفس من شهوة إلى الشرب . فاذا صاحبَ هذه الشهوة ضجيج وشكوى وقلة صبر سمي العطش اذ ذاك (أواما) واذا صاحبَه دوران حول موارد الماء ، وفقد أسباب الوصول إليه سمّي (لُوابا) . واذا صاحبه صرير الصماخين وتصويتها سمي (تصريرَ الصماخ) . ومن عوارضه انسداد السمع . واذا صاحب العطشَ جفاف ريق ، سمي (طَلَى) . ويقال منه (طَلِيَ فمه) . واذا صاحبه اضطراب وقلق سمي (تَلَعْلُعا) يقال مرَّ فلان يتلعلعُ من العطش .

أما الجوع فان صاحبَه تَعَب سمي (سغبا) وإن قام الجائع يسعى هنا وهناك في طلب ما يأكل ، سمي جوعه (عَلَبا) . وإن صاحب جوعه غضب ، سمي الجوع اذ ذاك (ضَرَما) . وإن صاحبه برد سمّي (خَرَصا) . وإن صاحبه ضمور بطن سمي (خَوًى وطَوًى) . وإذا صاحبه جَزَع وشكوى ، سمي (قصَفا) . وفي هذه الحالة يسترخي البطن ويفتر ، فيُوصف بالقصيف . ويقال (بطن قصِف) . والجوع الذي يصاحبه لين وتكسر ، يسمي (جَخَرا) . وإن صاحبه ضعف صوت سمي (خفوتا) . وإن صاحبه انحناء ظهر وقرقرة بطن ، سمّي (أطيطا) . وإن اضطر الجائع إلى عَصْب بطنه ، سمي جوعه اذ ذاك (المَعْصَب) .

فاذا بادر الطهاة والنُدُل إلى إغاثته بالطعام بإناء يسع ما فيه كفايةَ رجل واحد ، سمي الإناء اذ ذاك (صُحيفة) . وإن وسع ما فيه كفايةَ اثنين أو ثلاثة ، سمي (مِشكلة) . وكفايةَ خمسة (صَحفة) . وكفاية عشرة (قصعة) . وكفاية ما فوق ذلك (جفنة) .

فاذا قدّم النُدُل إلى الجائع الشواء أو الشاة المصليّة من دون تقديم ما يؤكل معها عادةً من خبز ومقبلات صرخ في وجوه النُدُل : قائلاً (وأين مآدمها) ، أو (وأين أشماطها) ؟ فاذا عجّلوا بذلك له ، قيل :

أكَلَ فلان الشاة المصلية بمآدمها أو بأشماطها . وأكَلَ الشِواءَ بمآدمه أو بأشماطه .

وهذه المقبّلات والمشهيات على اختلاف أنواعها تسمى (الأبزار) . وتجمع على (أبازير) ويظهر أن الأبزار في الأصل جمع للبذر وهو الحبّ الذي يبذَر في الأرض للاستنبات ، ثم تصرفوا فيه ونقلوه إلى المشهّيات التي تكون بذور النبات مما يُستعمل فيها أحيانا . ويرادف الأبزار (الأفاويه) ، وأصلها الرياحين التي تيبّس ، ثم تسحق وتدخر للتطيب بها . والمشهّي اذا كان أخضر سمي في الغالب (تابلا) كالترخون مثلا . واذا كان يابساً سُمِّيَ (بِقا) ، ولعله اذا كان مسحوقا سمي (دقّة) واذا كان يلوّن الطعام سمي (صِباغا) .

وكانوا يتخذون من بذور البصل أو صِغاره تابلا ولذا كان (القِزْح) من اسماء التوابل .

هذا هو الأصل في وضع تلك الكلمات ، لكننا نراهم أحيانا ينقلون الكلمة من معناها الأصلي أو يعممونها بعد أن كانت خاصة أو يخصونها بعد أن كانت عامة ، شأنهم في معظم كلمات لغتهم .

وهناك كلمات يحسن اطراحها لِهُجنتها وكراهتها في السمع ، مثل (الجَخْخَر) وهو اسم لبعض أنواع الجوع كما مر ، ومثل (الكامخ) وجمعه كوامخ وهو اسم للمقبلات . قيل لأعرابي وقد حضر مائدة لأهل الحضر : هذا هو الكامخ ، كلْ منه . قال : وأيّكم كَمَخَ فيه . ومن أسماء المقبّلات ما ابتذل لكثرة استعمال العامة له فينبغي أن يستعاض عنه بما مر من الفصيح وهذا كالمخلل والطرشي .

* * *

وننتقل إلى هدف البحث أو موضوع الدرس وهو وجبات الطعام عند العرب والافرنج فأقول : تختلف المرات التي يتناول فيها الطعام

باختلاف طباع الأمم واقليمية بلادها وثقافة الاشخاص وترف معيشتهم .
والعادة الغالبة على طوائف البشر ، أن تكون مرات الطعام اليومية فيهم ثلاثاً :
صباحاً وظهراً ومساء .

ولكن من الاشخاص من يأكل مرة واحدة في اليوم كالسيد جمال الدين الأفغاني ، فقد قالوا في ترجمته إنه كان يأكل الوجبة أي الأكلة الواحدة في الاربع والعشرين ساعة .

ومن الأمم من يأكل خمس مرات أو أكثر كالشعب البريطاني :
بل قالوا إن بعض مترفيهم قد تبلغ وجبات طعامه اليومية نحو الثمان .

والوجبة اسم للأكل مرة واحدة في اليوم والليلة . ويقال وجَّب عياله : اذا جعل قوتهم كل يوم وجبة . ويقولون في كتب التراجم :
فلان من أصحاب الوجبات يعنون أنه يأكل في اليوم مرة واحدة

أقول : وإذا ضم الى الوجبة أكلةٌ ثانية أو ثالثة في اليوم الواحد هل يصح أن يطلق على هذه الأكلة المقرونة بأكلة اخرى اسم الوجبة والوجبتين والثلاث وجبات ؟ لم أظفر بنص على ذلك : والظاهر عدم الجواز بدليل اشتقاق فعل (وجَّب عياله) من مادة الوجبة ليدلّوا به على وقوع الأكل مرةً واحدة ، ولو كانت الوجبة بمعنى المرة الواحدة من الأكل لا الأكل مرة واحدة لكان معنى (وجَّب عياله) حدّد لهم مرات الأكل : مرةً أو مرتين أو ثلاثا مع أن معنى (وجَّب) ليس كذلك . ومها يكن فقد جوزّته واستعملته في بحثي هذا تسامحاً أو استنتاجا من حديث خالد بن معدان (مَن أجاب وجبة ختان فقد غفر له) ولا جرم أن من يجيب وجبة الختان لا يجب عليه أن يكتفي بها وحدها سحابة نهاره ، فهو يأكل في بيته مرة ثانية ويبقى اسم الوجبة على وجبة الختان بالطبع . وأيضا في حديث الحسن في كفارة اليمين (يُطعم عشرة مساكين وجبة واحدة) فالتنصيص بذكر (الواحدة) يجوز لنا ان نقول (لا وجبتين) فنكون بذلك قد سمينا الأكلتين في

النهار وجبتين ، واذا لم يسلم لي هذا الاستنتاج فلا مقدوحة لي عن الاعتذار بالتسامح في هذا الاستعمال وهو تسامح له نظائر في كلام البلغاء ، ولا سيما اذا كانت هناك قرينة تدل عليه وهي قولي هنا (الوجبات اليومية) فان كلمة اليومية تشعر بأن مرادي بالوجبات المرات وقد يقال أن التعبير بمواقيت الطعام يغني عن الوجبات . نعم ولكن ليس المواقيت مفرد مستعمل في معنى المرة الواحدة من الطعام .

وللوجبة في معناها أخوات وهن : (الوزمة) و (الوزبة) و (الوقعة) . وقد اشتهر استعمال الوقعة في معنى مرات الأكل اليومية أكثر من استعمال (الوجبة) اذ يقولون فلان يأكل أربع وقعات أو خمس وقعات أو وقعة واحدة .

على أن الوقعة في كلام البلغاء أكثر ما تستعمل في معنى أن يحدث المرء مرة واحدة في اليوم والليلة : ففي (الحديث) (كنت آكل الوجبة وأنجو الوقعة) . وسئل أعرابي : كيف كان سيرك في سفرك ؟ فقال : (كنت آكل الوجبة وانجو الوقعة وأسير الخَبَبَ الى آخر ما قال) .

ويظهر من تتبع كلمات اللغة أن لكل مرة من أكلات الطعام يأكلها الانسان في اليوم اسماً خاصاً بها عند العرب ، وهذه الاسماء قد تبلغ الخمسة أو الستة فتكون وجبات طعامهم خمساً أو ستاً .

* * *

الوجبة العربية الاولى

العُلقة (بضم العين) وقد قالوا في تفسيرها انها الطعام الذي فيه بلغة أي كفاية الى وقت الغـــداء . فقولهم : الى وقت الغداء يشعر بأن طعام العلقة يؤكل قبل ارتفاع النهار وهو الوقت الذي يقع فيه الغداء كما يأتي ، فطعام العلقة اذاً هو اسم الوجبة الاولى لمن يعتادها : إذ هي ليست عامة كالوجبات التي بعدها . وللعلقة معنى آخر في اللغة ، وهو ما تقع به الكفاية في تخفيف ألم الجوع الطارىء في أي وقت كان لا وقت الصباح وحده . وهذا المعنى لا علاقة له بالوجبات

الموقوتة التي نحن في صدد بيانها . ومثل العُلقة في هذا المعنى (البُلْغة) و (الغُفّة) و (الرماق) وهو قدر ما يمسك الرمق من الطعام . ويقابل الملقة والرماق عند الافرنج ما يسمونه كاس كروت (Casse Croûte) أي قشر الرغيف . وأصبحوا يريدون به ما يكسر ألم الجوع من الطعام القليل ولو قشرة رغيف أو الأكلة الصغيرة المختصرة (Petit repas Sommaire) .

والعلقة بمعنى طعام أول النهار له في اللهجات الدارجة تعابير تختلف باختلاف الأقطار العربية وأشهرها في بلادنا (فطور — صبحية — كسر صفرا — ترويقة) ويتداعى أهل دمشق الى الاجتماع على الصبحية في بيوتهم كما يتداعون الى الغداء والعشاء .

ويقابل الوجبة العربية الاولى اعني العلقة الوجبة الافرنجية الأولى ، وهذه المقابلات التي نعقدها بين وجباتنا ووجباتهم ، انما هي من حيث العدد والترتيب في الخارج ، لا من حيث المواقيت ، لأن المواقيت تختلف باختلاف الأشخاص أحياناً فضلاً عن الأمم .

فوجبة الافرنج الاولى يسمونها Pétit déjeuner ويسميها الانكليز (بريك فاست Breckfast) ومعناها فسخ الصوم أو كسر الجوع ، وهذا كما تقول كسر الصفرة .

الوجبة العربية الثانية

الغداء . وهو طعام الغدوة عند العرب . وربما كان هذا الاسم مأخوذاً في الأصل من وقت إطعام الابل ، ففي (المخصص) (رَعْيُ الابل في اول النهار غداء ، وقد تغدّت ، وغدّاها راعيها) ونحن اليوم نتناول الطعام نصف النهار وبعده ونسميه غداء ، مع أن الغداء والغُدوة عند العرب هما أول النهار لا نصفه . فوقت الغداء عند العرب الأقدمين ، الذي هو الوجبة الثانية نشغله نحن اليوم بطعام الوجبة الأولى أعني العلقة التي نسميها فطوراً .

ويقابل الوجبة العربية الثانية الوجبة الافرنجية الثانيـة واسمها عندهم (Déjeuner) ويسميها الانكليز (لانش Lunch) هذا ما دَرَجُوا عليه اليوم ، والا فان ترجمة « Déjeuner » طعام الصباح ، أما طعام الغداء فاسمه في الأصل Dîner .

ونرى المترجمين مضطربين في ترجمة اللفظين : Dejéuner و Dîner واضطرابهم ظاهر في معاجمهم نفسها : فهم تارة يترجمونها بالغداء ،وطوراً بالعشاء ، وذلك لأسباب أو اعتبارات يعلمها أهلها : ففي القاموس العصري مثلا تجده يقول في ترجمة Dîner (عشاء : أكل المساء — غداء : أكل الظهر) . ولذا اكتفينا في تسمية الوجبات بما اشتهر على الالسنة وتداوله الناس من أعاجم ومستعجمين فانهم يسمون طعام الظهر أو بعده Déjeuner ولانش (Lunch) ، وبقيت كلمة (Dîner) تطلق على طعام المساء لمن يتناول فيه طعاماً : لأن وجبة الغداء عند الأعاجم والمستعجمين أصبحت المعول عليها في قيام الجسم مُدَّة الـ ٢٤ ساعة .

الوجبة العربية الثالثة

الضَّحاء وقالوا في تفسيره هو طعام الضحوة الكبرى ، واسم الضَّحاء هذا مأخوذ أيضاً من اطعام الابل ، ففي المخصص (رَعْيُ الابل في متوع النهار ضحاء) ومتوع النهار بلوغه غاية ارتفـاعه . قال : وقد تَضَحَّت الابل وضحَّاها راعيها .

وهذه الوجبة هي التي نسميها اليوم (غداء) . وكان الأشبه باصطلاح العرب أن نسميها (ضحاء) . ونرى العرب قاربوا بين وجباتهم الثلاث التي تقع في النصف الأول من النهار ، على فرض أنهم يأكلونها كلها ، فلا يأتي نصف النهار حتى يكونوا فرغوا منها .

على أن هناك كلمةً للدلالة على طعام نصف النهار ، حكاها الليث وهي (الكرزمة) وقال (هي الأكل في نصف النهار) . فاذا أردنا أن نسمي

طعام نصف النهار بكلمة غير كلة (الغداء) فليس أمامنا سوى (الضَّحاء) و (الكرزمة) غير أن العدول عن كلة (الغداء) إلى كلة (الكرزمة) ليس بالأمر السهل .

ويقابل وجبة (الضحاء) العربية الثالثة وجبة الافرنج الثالثة ويسمونها (goûter) وهي وجبة اختيارية تكون عند طبقة من الناس دون طبقة وقلما نلتزم معشر العرب فيها ، وسميناها في لهجتنا الشامية (عصرونية) تسميةً غير قياسية نسبةً إلى وقتها الذي تقع فيه وهو عصر النهار .

واشتهر اسم العصرونية على الاكثر بين تلاميذ المدارس الداخلية ، فان ادارة المدرسة تقدم اليهم بين وجبتي الغداء والعشاء كعكاً ونحوه .

ولا أعلم إن كانت وجبة (العصرونية) ما زالت إلى اليوم حية في المدارس الداخلية أو لا .

هذه عصرونية التلاميذ في المدارس والصغار في المنازل ، أما عصرونية الأغنياء في المصايف فتكون على نمط أنظم ، ويتداعون اليها باسم أنغم ، ذلك قولهم (حفلة شاي) و (حفلة كوكتيل) . وقد قلّدنا الافرنج في هذه الوجبة ، ونقيمها في الأغلب احتفالاً بضيف كريم أو تكريماً لصديق عزيز . ويُبسط على موائدها مع الشاي أكواب اللبن وأقراص الحلوى وغيرها مما يسمونه (كاتو) وهو على أشكال شتى .

ويؤخرون وقتها عن العصر إلى الغروب أو الساعة الخامسة مساء محاكاةً للانكليز ، الذين هم أصحابُ هذه الوجبة ، وأبناء بجدتها ، واسمها في لغتهم (فايف أوكلك تي - Five o'clock tea) . ويختصرون أحياناً فيقولون Five o'clock أي شاي الساعة الخامسة .

ولا أذكر أن للعرب في جاهليتهم وجبةً تقع في العصر : بين وجبتي الظهر والمساء .

الوجبة العربية الرابعة

العَشاء (بفتح العين) وهو الطعام الذي يقع في العِشاء (بكسر العين) أي في المساء وهو أول الليل أو بُعَيْد أوله .

قال في المخصص (ورَعْيُ الابل في العَشِيِّ وأول الليل عَشاء . وقد تعشَّت الابل وعشَّاها راعيها) . وقال ابن السكيت : (عَشَوْتُ الابل عشيَّتها وكذلك الرجل) . فابن السكيت نص على أن التسمية بالعشاء تكون للبشر كما تكون للابل . أما صاحب المخصص فلم يذكر البشر ، فربما اتخذ قوله دليلاً على أن الأصل في العَشاء أن يُستعمل في الابل ثم نقل إلى الناس توسعاً أو تسامحاً . وفي هذا رمز إلى ما في نفوس العرب للابل من التعظيم والتكريم والتأسي بهـــا حتى في تكاليف حياتها .

ووجبة العَشاء قل استعمالها أو الاحتفال بها اليوم بيننا معشر سكان الأمصار العربية الكبرى بعد أن كانت أكبر وجَبَات الطعام وأشدّها عناية عند أجدادنا ، فنحن اليوم ولا سيما المترفين منا نحتفل لوجبة الغداء التي تقع بعد الظهر ، ونُصيب من أطايبها . ونختلف ألوانها ، لنستغني بهـا عن طعام العشاء ، وإذا أصبنا منه كان إلمامة خفيفة على حد قول الافرنج (Casse - Croûte) لكنّ ظروفاً استثنائية أو تقليدية قد تدعونا إلى الاحتفال للعشاء . وتعديد ألوانه كما نحتفل للغداء .

ويقابل وجبة العشاء العربية الرابعة وجبة الافرنج الرابعة التي يسمونها Diner والتي كانت قديماً وجبة الظهر عندهم ، فخلفتها الوجبة المسماة Déjeuner وقامت مقامها وأرجئت هي إلى المساء وأصبحت اختيارية ، وهذا كما وقع في الوجبتين العربيتين : الغداء والعشاء . فان الغداء قام مقام العشاء وسلبه ميقاته . والاحتفال له .

الوجبة العربية الخامسة

« الفُحَيْيا ء »: قال ابن سيده في المخصص (جزء ١٦ ص ٧٠) (الفحياء طعام الليل) واسمه هذا مأخوذ من قول العرب فحمة الليل يريدون ظلمته ، والراجح أن هذه الوجبة العربية اختيارية كانوا يفعلونها حين الحاجة إليها لقلة ما نسمع ذكرها في أخبار العرب وكتب الأدب .

ويقابل هذه الوجبة العربية الخامسة وجبة الافرنج الخامسة ويسمونها سوبه (Soupé - Souper) .

ووجبة الـ (Souper) مثل وجبة الـ (Dîner) في أن إحداهما كانت تُطلق على طعام نصف النهار والأخرى على طعام المساء ، غير أن احتفالهم للغداء ولوجبة الشاي (فايف اوكلوك) أحياناً — جعل هذه الوجبة الخامسة (أعني الـ Soupé) اختيارية لمن اضطره اليها الجوع أو السهر في مشاغل العمل ، أو شهود الحفلات والمراقص ودور التمثيل والسينما وسائر ضروب اللهو — فان هؤلاء يرجعون إلى بيوتهم فيصيبون من الطعام ما يسمونه Soupé وتسميه العرب (فُحَيْيا ء) .

على أن هذه (الفحياء) تحولت في المدن الكبرى إلى ما يصح أن نسميه (نوراء) اشتقاقاً من النور : ذلك أن الطعام في آخر الليل قد لا يتيسر في المنازل . فأعدت المدنية الحديثة لمدمني السهر خارجها مقاصف خاصة وهي المسماة (بارات) و (بوفيهات) (Buffet) تكون مفتحة الأبواب على الشوارع الكبرى تحت مواقع الأبصار . منارة بأسطع الأنوار . وعلى موائدها صففت الصحاف والسكرُّجات وفيها الضروب المختلفة من خفيف الطعام وشهي الشراب ، فترى القوم حوالها ، متهافتين على ما عليها ، وقوفاً على أمشاط أرجلهم أو جلوساً على الكراسي الخاصة بتلك الموائد . وأمثال هذا الأكل العَجِل كما هو الحال في هذه المقاصف يُعَبَّر عنه الافرنج بقولهم (رستوران آلامينوت Restaurant à la minute

أي طعام بمقدار الدقيقة أو على مقدار ما تسع الدقيقة ، نظير ما نقول في لهجتنا الدارجة : على الماشي أو على الواقف ، وربما كان بمعناها قول المصريين « على الحركرك » .

ويسمي بعضهم هذه المقاصف الليلية (البارات الأمريكانية) لأنها من جلب الأمريكيين ومحصول مدنيتهم ، وهي تمتاز بأشكال مناضدها وارتفاع مقاعدها ، وصنوف أطعمتها وتنقُّلها ، وازياء سقاتها وندُلها .

*

وخلاصة ما مرّ :

(١) أن العُلفة العربية يقابلها Petit déjeuner الافرنجية

(٢) والغداء العربي يقابله Déjeuner الافرنجي

و Lunch الانكليزي

(٣) والضحاء العربي يقابله goûter الافرنسي

وأشهر منه Five o'clock الانكليزي

(٤) والعشاء العربي يقابله Dîner الفرنجي

(٥) والفُحياء العربية يقابلها Soupé الفرنجي

وقد تبين مما مر أن الوجبات عندنا خمس كما هي عند الافرنج ، اللهم إلا اذا اعتبرنا (الكرزمة) العربية وجبة مستقلة استناداً الى قول الامام اللغوي (الليث) الذي قال انها طعام نصف النهار ، فتكون وجبات الطعام عند العرب ستاً لا خمساً .

ونكرر ما قلناه سابقاً من أن المقارنة بين وجباتنا العربية والوجبات الافرنجية انما هي من حيث العدد والترتيب والوقوع في الخارج ، لا من حيث الزمن . فان ايقاع الوجبات في الأزمان يختلف ولا يطّرد حتى بالنسبة الى الشخص الواحد ، فان في الأشخاص من اذا جاع أكل ولا يتقيد بزمن .

وهذه الوجبات الخمس منها ما هو أصلي راتب أو تقول أساسي ،

ومنها ما هو فرعي يرجع فعله الى اختيار الشخص : ان جاع لَقِمَ ، والا أزَمَ .

* * *

وهناك مآكل خفيفة ومعظمها من ضروب الحساء الذي يشرب شرباً ، وهي ليست ذات وجبات موقوتة ، وانما هي مقدمات للوجبات الراتبة تتناول قبلها بسُوَيْعَة ، وهي مما سنه المترفون لأنفسهم في حياتهم اليومية ، أو في مآدبهم الخاصة . حتى أن المترف من الانكليز يتناول وهو مستلق في فراشه قبل القيام إلى طعام الصباح المسمى بريك فاست (Break fast) ـ ما يلذ له أو يفيد صحته من الأشربة وضروب الحساء(١) ، وكذلك يفعل قبل أن ينام .

أما ما يُقَدَّم عادة أمام الوجبات الكبرى : فيكاد يكون وجبة سادسة لكثرة ما يحتوي على مائدتها من لذيذ الأشربة ، وخفيف الأطعمة ، وضروب المازة (المزة ـ أو ـ اللماظة) لمن يتعاطى الشراب من الآكلين . والذي يجعل هذه المائدة في عداد الوجبات أن فيها مطاعم تؤكل أكلا وأن لها اسماً خاصاً وهو (هورديثر Hôr - d'oeuvre) أي خارج الطعام ، بمعنى أنه مقدم قبل وقته .

وأجدادنا العرب كانوا يعرفون هذه (الوُجَيْبَة) (بالتصغير) ولها في لغتهم عدة أسماء (لُمجة ـ لُهنة سُلْفة) بضم أوائلها ، وفسروها بالطعام يُتعلل به قبل الغداء . وقولهم يُتعلل به يشعر بأنه إنما قُدِّم ليكسرَ سُخفة الجوع (رقته) ريثما يتهيأ الغداء وينضج .

---

(١) الدقيق الذي يعالج بالسمن عند العرب ان كان سرِفاً يشرب سمي حساء وان كان جامداً فيه رخاوة سمي عصيدة . وان كان بين بين بحيث لا يشرب شربا سمي سخينة .

أما أبناء هذا الزمن ، فيقصدون من تناول سُلفتهم (الهورديڤر) (Horo d'oevur^e) إثارة شهوة الطعام بمسكراتها . وضروب مازاتها لمن يسكر ، وبعصير الطاطم (البندورة) أو الليمون لمن لا يسكر . ومها يكن من أمر فلا ينبغي أن تعد السُّلفة الـ (Horo d'oeuvre) طعاماً موقوتاً وانما هي من طلائعه ومقدماته .

ثم إن قول علماء اللغة في تفسير (السلفة) إنها تكون قبل الغداء أرادوا بذكر الغداء مجرد التمثيل لا التخصيص في الغالب ولنا نحن اليوم أن نتوسع في استعمال السُلفه أي الهوردیڤر (Hors doeuvre) فنطلقها على ما يقدّم بين يدي كل الوجبات الراتبة غداء أو عشاء .

* * *

ومن لطيف بحوث الطعام وجبةٌ سلبية يعتذر عنها البخلاء الأشحاء ، ويتبرّم بها حتى الأجواد الأسخياء ، وهي التي تفجأ ربَّ المثوى في غير أوقات الوجبات المعتادة ، وكما أن شاعر العرب قال :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقتُ الزيارة ، فارجعي بسلام

كذلك مضيافهم وأحد ساداتهم قال لصديقٍ له : (أكره أن تزورني في المُلَيْساء) : فهو لا يقول له ارجع بسلام ، كما قال ذلك العاشق البغيض ، وإنما قال له أكره تلك الزيارة منك في المُلَيْساء ، لئلا أعجز عن القيام بحق ضيافتك .

(والمُلَيْساء) أيها السادة هو الوقت الواقع بين المغرب والعتمة أي بين وجبتي (العشاء) و (الضُحَياء) ففي ذلك الوقت لا يكون الطعام مهيئاً عادة : فالطارقُ من الضيفان يُخجل المِضياف ويوقعه في الحيرة ، ولذا قال قائل الكرام (أكره أن تزورني في المُلَيْساء) . ويشبه هذا قول العامة معتذرين أو مفاكهين (ضيف المسا ما له عشا) .

وتطلق « المُلَيْساء » أيضاً لغة على نصف النهار ، إذ لا وجبة للطعام فيه

لأن العربي يكون أكل وجبة الضحاء ، ولا يكون هيأ طعاماً لوجبة العشاء ، فنصف النهار عند العرب ليس وقت وجبة ، وهذا ما أراده (ابن سيدَه) في مخصَّصه حينما قال : (لأنه في ذلك الوقت — أي نصف النهار - يفوت الغداء ، ولم يُهيأ العَشاء) .

ويكون ابن سيده في قوله هذا قد أنكر وجبة (الكَرْزَمَة) التي قال الليث عنها إنها طعام نصف النهار .

وللمليساء في اللغة معنى ثالث ، وهو الشهر الذي تنقطع فيه الميرة ، أي تنفد فيه الأقوات . وترتفع الغلال من البيادر والأسواق ، وهذا الوقت يعبر عنه أهل دمشق بقولهم « عصة المنجل » أي لا منجل يحصد ، ولا محصود يُعوَّن . فقول الأعرابي : « أكره أن تزورني في المليساء » يصح أن يراد به أيضاً هذا الزمن الكزّ ، الثقيل على الأجواد .

* * *

ومما يحسن التنبيه اليه ، قبل إنهاء الكلام في موضوع الوجبات ، ما فسروا به كلمة (التميلة) مما يشبه أن تكون اسماً لوجبة أول النهار ، مرادفة للعُلقة ، مع أن الأمر ليس كذلك . وهذه عبارتهم : « يقال : ما ثمَلتُ شرابي بشيء من طعام ، معناه ، ما أكلت طعاماً قبل أن أشرب ، وذلك يسمى (الثميلة) . وربما كان مرادهم بالشراب هنا الخمر .

فالثميلة إذن هي الطعام الذي يؤكل فيُشرب فوقه ، تقول لآخر : إثمُلْ شرابك ، أي كل قبله ولو قليلاً ، ويكون هذا بالطبع في أي وقت من أوقات الليل والنهار ، فلا ينبغي أن تُعَدّ (الثميلة) بين أسماء الوجبات الصباحية ،

ومما ينبغي التنبيه اليه أيضاً أن استعمال الفطور بمعنى العُلقة التي هي طعام أول النهار غير صحيح لغة ، وبيانه أن الفِطر والافطار معناهما في اللغة أن يأكل الصائم بعد إمساك عن الطعام ، والطعام الذي يُفطر عليه

يسمي (فَطوراً) (بفتح الفاء) فالفطور إذن شيء والعُلْقة التي يأكلها الانسان بعد أن يَهُبّ من منامه شيء آخر . وكأن أصحاب هذا الاستعمال في زماننا يلاحظون أن الذي يصحو من نومه كان ممسكاً عن الطعام طول ليله ، فاذا أكل في ذلك الحين كان كأنه أفطر بعد صوم ، وأشبه أكله الفَطور ، فسموا أكله فَطوراً ، لكنهم يضمون أوله خطأً ، ومع هذا فالأصح أن لا يقال لطعام الصباح فَطوراً بل عُلْقة حسبما ذكرنا في أول هذا البحث الفضفاض الساحب الأذيال الذي أردت بالقائه عليكم أيها السادة تذكيركم أو أقول أردت إثارة عاطفة الاشفاق والحنان في نفوسكم ، على هذه الكلمات اللغوية الفصيحة الجفوّة التي يمكن إحياؤها ، والتمهيد لاستعمالها في لغة الصحافة والكتابة ، قبل أن تطاردها الكلمات الاعجمية فتصل ألسنة السوء اليها ، وتقضي بالموت عليها .

***

ونختم هذا البحث بما تضمنه من ألفاظ نراها صالحة للاستعمال في موضوع الطعام

١ الأُوام
٢ اللُواب
٣ تصرر الصِماخ
٤ الطلَّى (طلى فمه)
٥ التَلَعْلُع (جاء يتلعلع من العطش)
٦ السَغَب
٧ العَلَه
٨ الضَرَم
٩ الخَرَص
١٠ الخَوى
١١ الطوى
١٢ القصَف (بطن قصيف)
١٣ الجَخَر
١٤ الخفوت
١٥ الأُطيط
١٦ العَصْب
١٧ الطباة
١٨ النُدُل
١٩ المِثكلة
٢٠ الجفنة
٢١ الشاة المصليَّة
٢٢ أكل الشِواء بآدمه
٢٣ أكل الشواء بأشماطه
٢٤ الأبزار
٢٥ الأفاويه
٢٦ التابل
٢٧ الفِحاء
٢٨ الدقَّة
٢٩ الصِباغ
٣٠ الكامَخ
٣١ الوجبة
٣٢ الوَزْمة
٣٣ الوَزْبة
٣٤ الوقعة
٣٥ العُلْقة
٣٦ البُلْغة
٣٧ الغفَّة
٣٨ الرماق
٣٩ مُتوع النهار
٤٠ الضَحاء
٤١ الكَرْزَمة
٤٢ الفُحَياء
٤٣ فحمة الليل
٤٤ السُمجة
٤٥ الشُهنة
٤٦ السُلفة
٤٧ سُخفة الجوع
٤٨ المُليساء
٤٩ التَميلة
٥٠ القَضْقاض

دمشق : نيسان سنة ١٩٤٦

أثر الرحلة
في الحياة العلمية والأدبية

للأستاذ محمد الخضر حسين

يكثر الراحلون من بلاد إلى أخرى ، والغاية من هذه المحاضرة النظر في رحلات أهل العلم والأدب لنعرف كيف يكون للرحلة أثر عظيم في ترقية العلوم والآداب ، وتهذيب النفوس وإصلاح حال الاجتماع .

ولعل قائلاً يقول : إن فائدة الرحلة قد عرفها الناس على اختلاف أصنافهم وتفاوت طبقاتهم فهي من المعلومات الموضوعة على ظاهر اليد ، والحديث عنها صرف للوقت في غير جدوى فأقول : إني في شك من هذا ، فإن كثيراً ممن وهبهم الله القدرة على الرحلة وهيأ لهم وسائلها لا يقبلون عليها وينصرفون عنها ، انصرافهم عن الأشياء التي يرونها خالية من كل فائدة .

على أني أريد التنبيه لما في الرحلة من آثار صالحة لأضعها أمام نشئنا حتى إذا خطر لهم ما في الرحلة من حرج وعناء نظر إلى هذه الآثار الحميدة ، فيخف وزن تلك المتاعب وتذهب في جانب هذه الآثار هباء .

الرحلة في نظر الاسلام

لم يدع الاسلام وسيلة من وسائل الرقي ، إلا نبه عليها وندب إلى العمل بها ، وهكذا شأنه في الرحلة فقد دعا اليها رامياً إلى أغراض سامية ، مثل طلب العلم قال تعالى : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » . ويلحق بالتفقه في الدين كل علم يعد من وسائل الرسوخ في علوم الدين كالنحو

والبلاغة ، بل يلحق بالتفقه في الدين كل علم يكسب الامة قوة ويكون له أثر في نجاحها ، والاحتفاظ بعزتها كفن صناعة الغواصات والطيارات .

ومن هذه الأغراض ، أخذ العبرة من أحوال الأمم الماضية ، قال تعالى : « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » ، ويلحق بأحوال الأمم الماضية ، أحوال الأمم الحاضرة ، متى كان في النظر اليها عبرة ينتفع بها في الوصول الى سعادة الحياة ، ومن هذه الأغراض ، الرحلة من دار الضلال والبغي إلى دار الهداية والعدل ، قال تعالى : « ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » . هذه الآية وردت في قوم كانوا يقيمون في دار عسف وغواية فحرضهم على الرحلة إلى المدينة حيث يشدون أزر المسلمين ويقفون في صفوفهم ويكثرون عددهم ، واذا تشابهت البلاد في الاستخفاف بأمور الدين فعلى العالم المصلح أن يجاهد في سبيل الدعوة الى الحق والإصلاح بقدر ما يجد في حرية القول أينما كان .

ومن فرائض الاسلام ما لا يؤدى إلا بوسيلة الرحلة وهو حج البيت الحرام ، وفي الرحلة الى الحجاز في أشهر الحج جانب عظيم من معنى التجول في أقطار مختلفة ، حيث يلاقي فيها الرجل طوائف من أمم مختلفة الأجناس متباعدة البلاد .

ولا يسعني المقام أن أسوق شواهد من عناية علمائنا بالرحلة لأمثال هذه الاغراض النبيلة ، وأكتفي بأن أسوق على هذه الغاية قصة جابر ابن عبدالله الانصاري ، ذلك أنه سمع وهو بالمدينة أن عبدالله بن أنيس بالشام يروي حديثاً عن رسول الله ﷺ فاشترى بعيراً ثم شد رحله وسار الى الشام فسمع الحديث من عبد الله وقفل راجعاً الى المدينة .

المثبطات عن الرحلة وعلاجها

لا أريد من المثبطات عن الرحلة العوائق التي ليس في استطاعة الشخص علاجها ، كفراغ يده من نفقات السفر وكقيامه على أسرة اذا فارقها وقعت في حاجة ونكد من العيش ، بل أريد من المثبطات ما يعرض للنفوس الضعيفة ويغلب على أمرها ، ولولا ضعفها لما كان له عليها من سبيل مثل استعظام مفارقة من يعز عليه من أقارب أو أصدقاء ، سئل إمام الحرمين وهو على المنبر لماذا كان السفر قطعة من العذاب ؟ فقال : لأن فيه فراق الأحبة .

وفي الناس من يذكر ما في الرحلة من متاعب بدنية فيحجم عنها ، وأكثر من يعرض لهم هذا المثبط أولئك الذين ينشأون في ترف وانحلال عزيمة فيخشون أن يفوتهم ما اعتادوا من الرفاهية ولو زمناً قليلاً ، ومنهم من يترك الرحلة حيث تضطره لركوب البحر فرقاً من أهواله ، عزم الحافظ أبو الوليد هشام الوقشي على ركوب البحر إلى الحجاز فهاله ذلك فقال :

لا أركب البحر ولو أنني ضربت فيه بالعصا فانفلقْ
ما إن رأت عيني أمواجه في فرق إلا تناهى الفرقْ

وقد يحجم الرجل عن الرحلة مخافة أن ترمي به بين أقوام لا يعرفون حسبه وأدبه فيلاقي من مرافقهم أو معاشرتهم ما لا يليق بمنزلته ويرتاح له ضميره وقد أشار إلى ما يعرض للرجل من هذه الآلام النفسية الرحالة ابن جبير إذ قال :

لا تغترب عن وطنٍ واذكر تصاريفَ النوى
أما ترى الغصنَ إذاً ما فارق الأصلَ ذوى

وأشار يحيى بن حكم المعروف بالغزال إلى أن الغربة سبب لفقد جانب من العزة . فقال :

فصمصام عمرٍو حين فارق كفه ... رموه ولا ذنب لعجز المضارب
وما عزة الضرغام إلا عرينه ... ومن مكة سادت لؤي بن غالبِ

وتألم الرحالة ابن سعيد الأندلسي حين نزل ببعض بلاد الشرق وناداه بعضهم باسم المغربي فقال :

وأنادى مغربياً ليتني ... لم أكن للغرب يوماً أنسبُ
نسب يشرك فيه خامل ... ونبيه أين منه المهرب
أتراني ليس لي جد له ... شهرة أو ليس يدرى لي أب

وعلاج أمثال هذه المثبطات الناشئة عن ضعف النفس وقلة تمرنها على احتمال المكاره أن يذكر الرجل ما تأتي به الرحلة من ثمرات علمية أو أدبية عامة أو خاصة ، فاذا وثقت نفسه بنبل غايتها وحسن عاقبتها سهل عليها كل صعب واستهانت بكل خطر ، قال عبد الملك بن سعيد في وصية ابنه علي بن سعيد عندما عزم على الرحلة إلى الشرق :

وكل ما كابدته في النوى ... إياك أن يكسر من همتك

وعزم المأمون الخروج إلى بعض الحروب فوقفت له جارية ممن شغف بهن ورغبت اليه ألا يخرج فقال لولا قول جرير :

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم ... دون النساء ولو باتت بأطهارِ

لما خرجت .

وأذكر أن أبا بكر بن العربي الأندلسي الذي قضى في رحلته ثمانية أعوام أورد في بعض كتبه مسألة من مسائل الخلاف حررها وهو في العراق وقال : لو لم أظفر في رحلتي إلا بهذه المسألة لكفتني ، على أن ابن العربي قد لقي في رحلته نصباً في البحر ومخاوف في البر[1]

ليذكر الراحل أن ثمرة الرحلة لذيذة باقية ، وأن تلك الآلام

(١) انظر كتاب القواصم والعواصم له .

النفسية والمتاعب البدنية زائلة ، قال القاضي محمد بن عيسى أحد الراحلين من الأندلس إلى الشرق بعد أوبته :

كأن لم يكن بينٌ ولم تك فرقةٌ إذا كان من بعد الفراق تلاقِ
كأن لم تؤرق بالعراقين مقلتي ولم تمر كف الشوق ماء آماقي
ولم أزر الأعراب في جنب أرضهم بذات اللوى من رامة وبراق
ولم أصطبح بالبيد من قهوة الندى وكأس سقاها في الأزاهر ساق

وجاء في كتب الأدب أشعار رد ناظموها على من يحاول تثبيطهم عن الرحلة كما قال بعضهم :

تقول سليمى لو أقمت بأرضنا فقلت إلى ذاك المقام أطوف

وقال ابن دراج :

ألم تعلمي أن الثواء هو التوى وان بيوت العاجزين قبورُ

وربما كان المثبط عن الرحلة إعجاب الرجل بوطنه إذ يخطر له أنه لا يرى في غير وطنه أحسن مما يرى فيه كما قال أبو القاسم عامر ابن هشام :

يا من يزين لي الترحال عن بلدي كم ذا تحاول نسلاً عند عنينِ
وأين يعدل عن عرجاء قرطبة من شاء يظفر بالدنيا وبالدين

وإعجاب الرجل بوطنه واعتقاده أنه أجمع لمطالب الحياة قد يمنعه من رحلة الانقطاع ولا ينبغي أن يمنعه من الرحلات المحدودة بزمان .

وترى من الأدباء من يمتلىء قلبه حباً لوطنه ولكنه يتغلب على هذه العاطفة ويذكر الداعي إلى الرحلة فتطمئن اليها نفسه كما قال ابن سعيد لما خرج من حدود افريقية :

رفيقيّ جاوزنا حدود مواطن صحبنا بها الأيام طلقا محياها
وما ان تركناها لجهل بقدرها ولكن نبت عنا أعنة سقياها
فسرنا نحث السير عنها لغيرها الى أن يمن الله يوماً بلقياها

فوائد الرحلة

إذا درسنا تاريخ العلماء والادباء الذين رحلوا عن أوطانهم ووجهنا النظر الى ما نتج عن رحلاتهم من فوائد عادت عليهم أو على قومهم أو على الأوطان التي نزلوا بها ، وجدناها من الأهمية بمكان يدعو الى أن تعد في مقدمة وسائل الرقي والتهذيب .

ماذا يستفيد الرجل من الرحلة

من أنفس ما يكسب الرجل في رحلته أن يعلم ما لم يكن يعلم ، كم من عالم لم يبلغ المقام الذي يشار اليه بالبنان الا بالرحلة ، والباحث في تراجم العلماء يقف على أسماء رجال كثيرين بلغوا في العلم الذروة ، وانما بلغوها بما قاموا به من رحلات تقلبوا بها في مدن زاخرة بالعلوم ولاقوا بها كثيراً من أكابر العلماء مثل الامام الشافعي والحافظ ابن عساكر وأبي الوليد الباجى وأبي بكر بن العربي وأسد بن الفرات ، ولابن خلدون في مقدمته التاريخية فصل افتتحه بقوله : ان الرحلة في طلب العلم مزيد كمال في التعلم ، وختمه بقوله فالرحلة لا بد منها في العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ والتلقي عن الرجال .

وللرحلة أثر في سمو الفكر اذ يأخذ الرجل فيها من التجارب ما لا يأخذه وهو مقيم في بلد لا يخرج منه الى غيره ، وقد يكنون بها عن قوة العقل وحسن التصرف في الأمور ، وانظر الى بديع الزمان الهمذاني حين أراد الدلالة على كمال عقله كيف عبر عنه بركوبه ظهري البر والبحر ، إذ قال في كتاب كتبه الى القاسم العرجي : «فاني وان كنت في مقتبل السن والعمر ، قد حلبت شطري الدهر ، وركبت ظهري البر والبحر» .

وللرحلة أثر في تهذيب الطباع ورقي الآداب ذلك أن كثرة ما يلاقيه الرجل في السفر من المشاق يقوي في نفسه خلق الحلم والمداراة وقد قال بعض الحكماء للغريب :

إن ترمك الغربة في معشرٍ   تطابقوا فيك على بغضهم
فدارهم ما دمت في دارهم   وأرضهم ما دمت في أرضهم

ولا يخلو الراحل متى كان بصيراً بمواقع العبرة أن يلاقي رجالاً ذوي آداب سامية فيقتبس من آدابهم ما يزداد به أدباً على أدبه ، وهذا ابن وهب رحل من مصر وتلقن العلم بالمدينة عن الامام مالك ، وقال : « تعلمت من أدب مالك أفضل من علمه » ، واقام يحيي بن بكير عند مالك بعد أن فرغ من سماع الحديث عنه وقال : « إنما أقمت لأستفيد من شمائله » .

وقد ينشأ الفتى في نبوغ ويضيق بلده عن أنظاره الواسعة فيرحل الى مدينة تكون أوسع مجالاً للآراء الخطيرة فتعظم مكانته ويكثر الانتفاع بحكمته ، ولو لا الرحلة لما عظم شأنه ، ولما كثرت ثمرات نبوغه ، أذكر أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام مر عند خروجه من الشام بالكرك فتلقاه صاحبها وسأله الاقامة عنده ، فقال له الشيخ بلدكَ صغير عن علمي وتوجه الى القاهرة . وأسوق شاهداً على هذا أن القاضي يوسف بن أحمد ابن كج بلغ في العلم مرتبة كبيرة ، قال له بعض من لقيه : يا أستاذ الاسم لأبي حامد الغزالي والعلم لك ، فقال القاضي : ذاك رفعته بغداد وأنا حطتني الدينور .

وقد تكون رحلة العالم أو الأديب من أسباب ظهور علمه أو أدبه وانتشاره في الآفاق ، قال الأديب أبو بكر المعروف بابن بقي :

ولي هممٌ ستقذف بي بلاداً   نأت إما العراق أو الشآما

لكيا تحمل الركبان شعري بوادي الطلح أو وادي الخزامى
وكيما تعلم الفصحاء أني خطيب علم السجع الحماما
وقد أطلعتهن بكل أرضٍ بدوراً لا يفارقن التماما

وربما أدرك الرجل في وطنه ضيق عيش يخشى أن يعوقه عن الازدياد من العلم أو التفرغ لنشره بالتدريس والمذاكرة ، فيرحل حيث يلقى كفافاً أو يساراً يساعده على أن يقبل على الدرس والبحث بنفس مطمئنة : رحل القاضي عبد الوهاب بن نصر من بغداد إلى مصر ، ونبه على سبب رحلته فقال :

سلام على بغداد في كل موطنٍ وحق لها مني السلام المضاعف
فوالله ما فارقتها عن قِلىً لها وإني بشطي جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت عليّ بأسرها ولم تكن الأرزاق فيها تساعف

وكذلك قال أبو سعد النيرماني :

فقد سرت في شرق البلاد وغربها وطوفت خيلي بينها وركابيا
فلم أر فيها مثل بغداد منزلاً ولم أر فيها مثل دجلة واديا
ولا مثل أهليها أرق شمائلاً وأعذب ألفاظاً وأحلى معانيا
وكم قائل لو كان حبك صادقاً لبغداد لم ترحل فكان جوابيا
يقيم الرجال الموسرون بأرضهم وترمي النوى بالمقترين المراميا

ومما يظفر به الرجل الفاضل في رحلته أن يتخذ في البلاد التي ينزل بها أصدقاء يغتبط بصداقتهم ، والصداقة الخالصة من ألذ ما يتمتع الانسان به في هذه الحياة ، وكتب الأدب مملوءة بالرسائل والقصائد التي دارت بين علماء وأدباء اختلفت مواطنهم وهي عامرة بروابط صداقات ناشئة بوسيلة الرحلة ، وهذا ابن خلدون ارتبط بصداقات كثيرة من علماء البلاد كلسان الدين بن الخطيب وابن زمرك ، وجرت بينه وبينهم مراسلات ، وأذكر من قصيدة بعث بها اليه ابن زمرك بعد نزوله مصر قوله :

بعيشك خبرني ولا زلت مفضلاً أعندك من شوقٍ كمثل الذي عندي

ومثل الحافظ ابن عساكر رحل إلى بلاد العجم بعد بلاد العرب وأذكر من قصيدة بعث بها إلى صديقه أبي سعد السمعاني قوله :

أنسيت ثدي مودةٍ بيـــــني وبينك وارتضاعه

ماذا يستفيد قوم الرجل من رحلته

قد تحظى البلاد بالعلم بعد انقطاعه عنها ، أو تقوم سوقه فيها بعد خمولها ، والفضل في ذلك لرجال يرحلون إلى الحواضر التي هي منبع العلوم ، ثم يعودون وقد امتلأوا مما اغترفوه من العلوم والفنون ، وقد بلغت الحالة العلمية بالأندلس بعد عودة أبي الوليد الباجي من رحلته الشرقية منزلة أرفع وأرسخ مما كانت عليه قبل أن يعود ، وارتحل أبو القاسم بن زيتون التونسي في أوساط المائة السابعة إلى المشرق فبرع في العقليات والنقليات ورجع إلى تونس فأمتعها بعلمه الكثير وأسلوب تعليمه البديع .

ويرحل العالم أو الأديب من وطنه وهو يحمل علماً غزيراً ويتحلى بأدب سني وينزل بين جماعات من بلاد مختلفة فيرونه مثالاً لأهل العلم والأدب من قومه فيرتفع شأن قومه في أنظارهم ، هذا إلى ما يصفه لهم من محاسن قومه أو ينقله اليهم من ثمرات أفكارهم .

ماذا تستفيد البلاد ممن يرحلون اليها

يرحل العالم أو الأديب ، وينزل ببلد ، فيبذر بها متى كانت في حاجة إلى أمثاله — علماً أو أدباً ، ومن ذا ينكر أن بلاد الاندلس قد استفادت من العلماء الذين رحلوا اليها من الشرق ، مثل تاج الدين بن حمويه السرخسي ، وأبي علي القالي ، كما استفادت دمشق من أمثال ابن مالك وابن السبكي ، واستفادت مصر من أمثال أبي حيان وابن خلدون .

وهذا المعري يحمد السفر الذي جاء بالقاضي عبد الوهاب بن نصر من بغداد إلى المعرة فقال :

والمالكي ابن نصر زار في سفر بلادنا فحمدنا النأي والسفرا
إذا تحدث أحيا مالكاً جدلاً وينشر الملك الضليل إن شعرا

وتفقه البربر في علوم الدين عن عشرة من فقهاء التابعين بعثهم عمر ابن عبد العزيز لهذا الغرض خاصة .

ونرى في تراجم كثير من العلماء الراحلين أنهم كانوا يلقون في البلاد التي ينزلون بها دروساً أو يدرسون بها علوماً يتلقاها عنهم بعض أهل العلم .

فرحلات العلماء والأدباء تنقل العلم والأدب من بلد إلى آخر على وجه أثبت وأنفع مما تنقله المؤلفات وحدها .

أثر الرحلة في تنمية العلوم

للرحلة فضل في نماء العلوم واتساع دائرتها ، وكم من كتاب يعد في علمه من أمهات الكتب هو وليد الرحلة ، ذلك أن أسد بن الفرات الراحل من القيروان إلى الشرق ورد مصر بعد أن تلقى العلم في الحجاز والعراق ، وألقى على ابن القاسم أسئلة يطلب الجواب عنها على مقتضى مذهب الامام مالك ، وجمع تلك الأسئلة وأجوبتها في كتاب كان يسمى الأسدية ، ثم رحل سحنون من القيروان بالأسدية إلى ابن القاسم ، وعرضها عليه ، وهذبها ، وأضاف اليها مسائل أخرى وصارت تسمى المدونة ، وهي المشار اليها بقول بعض أهل العلم :

أصبحت فيمن له علم بلا أدب ومن له أدب عار عن الدين
أصبحت فيهم فقيد الشكل منفرداً كبيت حسان في ديوان سحنون

وبيت حسان الذي لم يرد في المدونة غيره من الشعر قوله :

وهان على سراة بني لؤي حريق بالبويرة مستطير

ومن فضل الرحلة أنها حفظت جانباً عظيماً من التاريخ ، حفظته الكتب التي يودعها مؤلفوها ما شاهدوه في أسفارهم من وقائع وأحوال ، مثل رحلة ابن بطوطة ورحلة العبدري ورحلة ابن جبير ورحلة خالد ابن عيسى البلوي وغيرها ، فانا نرى في هذه الرحلات أشياء لا نجدها فيما بين أيدينا من كتب التاريخ .

أثر الرحلة في ثراء الأدب

للرحلة أثر في ثراء الأدب لا يقل عن أثرها في ثراء العلم ، فكم من قصيدة لا ينظمها الشاعر إلا حين يعزم على الرحلة لالقائها بين يدي ملك أو وزير أو وجيه مثل قصيدة :

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً　　إن السبيل الى منجاتها درسا

فان صاحبها أبا عبدالله بن الأبار الراحل من الأندلس قد نظمها استنجاداً لأمير تونس وألقاها بين يديه .

ومما يرجع الفضل فيه للرحلة ذلك الشعر الوارد في التشوق إلى الوطن أو الأهل والاخوان ، ومن هذا الباب قول محمد بن يوسف الدمشقي يتشوق إلى دمشق وهو ببلاد الروم :

بعاد يزيد الجوى والحنينا　　وبينٌ يعلم قلبي الأنينا

فراقٌ أذاب الحشا أدمعاً　　فأجرى بصافي الدماء العيونا

إلى أن قال :

وجاد الحيا أربعاً بالشآم　　وسلم صحباً بها قاطنينا

رحلنا فما تابعتنا القلوب　　وسرنا فظلت لديكم رهونا

واذكر بهذه المناسبة أن أستاذنا المرحوم الشيخ سالم أبا حاجب كان قد سافر إلى إيطاليا وبعث برسمه إلى بعض أصدقائه في تونس وكتب عليه البيتين :

لما شكت شط النوى روحي التي أبقيتها عند الأحبة بالوطن
أرسلت تمثالي لها بوًّا(١) عسى تسلو فلا تبغي التحاقاً بالبدن

أثر الرحلة في تعارف الشعوب

لا ينزل الرجل الفاضل بوطن إلا التقى بطائفة من فضلائه ، والشأن أن يصف لهم بعض النواحي من حياة قومه العلمية والاجتماعية ، ثم إذا عاد إلى قومه ، وصف لهم حال الأوطان التي نزل بها ، فيكون كل من الشعوب التي رحل منها أو نزل بها على خبرة من حال الشعوب الأخرى .

وقد نبهنا على ان الرجل الطيب السريرة ، يتخذ في كل وطن أصدقاء وهذه الصداقات تمد فيما يربط بين الشعوب الرابطة الوثيقة ، وتعارف الشعوب بوسيلة العلماء والأدباء ، يثير في نفوسهم عواطف الائتلاف والاحترام .

وإذا كان من أفضل آثار الرحلة عقد رابطة التعارف والتعاطف بين الشعوب ، فعلى المستطيعين منا أن يخصوا البلاد الشرقية بجانب عظيم من رحلاتهم ولو وجدوا في سبيل ذلك مشاق فوق ما يلاقونه في سبيل الرحلة إلى البلاد الأجنبية .

أدب الرحلة

الآداب السنية كمال الانسانية ، فيجب على الانسان الاحتفاظ بها في وطنه ، كما يحتفظ بها في غير وطنه ، ورأينا بعض الحكماء يوجهون إلى الغريب أو من رام الغربة عناية خاصة ، فيؤكد عليه في الاحتفاظ بالآداب الشريفة ، فقال بعضهم : ياغريباً كن أديباً ، ومن هذا القبيل وصية عبد الملك بن سعيد الأندلسي لابنه علي عند عزمه على الرحلة إلى بلاد الشرق ، تلك الوصية التي يقول فيها :

اودعك الرحمن في غربتك مرتقباً رحماه في أوبتك
فلا تطل حبل النوى إنني والله أشتاق إلى طلعتك

(١) البو : جلد الحوار يحشى ثماماً او تبناً فيقرب من ام الفصيل فتعطف عليه ، فتدر .

وقال :

فليس يدرى أصل ذي غربة ... وإنما تعرف من شيمتك

ونبه لآداب سامية فقال :

وامش الهوينا مظهراً عفة ... وابغ رضا الاعين عن هيئتك

وكل ما يفضي لعذر فلا ... تجعله في الغربة من إربتك

ولا تجادل حاسداً أبداً ... فانه أدعى إلى هيبتك

وقال :

وانطق بحيث العي مستقبح ... واصمت بحيث الخير في سكتتك

ومن أدب الراحل أن ينصف البلاد التي ينزل بها فيذكر محاسنها ، ويغتبط بما يلاقيه بها أهلها من احتفاء ومؤانسة . ورد تاج الدين ابن حمويه السرخسي بلاد المغرب ، فسأله سلطان المغرب يعقوب بن يوسف ابن عبد المؤمن قائلاً : أين هذه البلاد من بلادك الشامية ؟ فقال السرخسي : « بلادكم حسنة أنيقة ، وفيها عيب واحد ، فقال السلطان : ما هو ؟ قال : إنها تنسي الأوطان » .

وممن قاموا على هذا الأدب الجليل العلامة المقري صاحب كتاب نفح الطيب ، فقد نظم في الثناء على دمشق أشعاراً ، وتمثل فيها بأشعار ، ومما أنشده قول شمس الدين الأسدي :

إذا ذكرت بقاع الأرض يوماً ... فقل سقياً لجلق ثم رعيا

وقل في وصفها لا في سواها ... بها ما شئت من دين ودنيا

وأختم هذه المحاضرة بأبيات خطرت لي معانيها عندما نزلت دمشق ، واني لست بشاعر ولكني درست علم العروض ، فأستطيع أن أقول كلاماً موزوناً ، وإلى حضراتكم هذه الأبيات :

زارها بعد نوى طال مداها ... فشفا قلباً مجداً في هواها

راح نشوان ولا راح سوى ... أن رأى الشام وحياه شذاها

نظرة في ساحها تذكره ... كيف كان العيش يحلو في رباها

ما شكا فيها اغتراباً وإذا ... حدثته النفس بالشكوى نهاها

* * *

من بحث العيس في البيد إلى بُرَدَى بحمد للعيس سراها
فهنا قامت نوادي فتية تبلغ النفس بلقياهم مناها
أدبٌ يزهو كزهر بهجٍ أرشفته السحب من خمر نداها
خلُقٌ لو نصح الخودَ به ناصحٌ لاتخذت منه حلاها
ملأوا جلق أنساً فأرى ليلها طلق المحيا كضحاها
شدَّ ما لاقوا خطوباً فانتضوا مرهفات العزم طعناً في لهاها

* * *

عزة الأمة في نشء إذا نشبت في خطر كانوا فداها
وجناحاً فوزها استمسا كها بهدى الله وإرهاف قناها
هي عينٌ والهدى إنسانها فاذا ما فسقت لاقت عماها

* * *

رتّل الذكر ملياً تره يغرس الحكمة أو يدني جناها
أطلق الأفكار من أصفادها فمضت ترعى الثريا وسهاها
خض علوم الكون أحقاباً وسر في سماها إن تشأ أو في ثراها
لا ترى في الدين إلا مُغرياً بجلاها أو مُزيحاً لقذاها

* * *

ذكّرونا سلفاً قاموا على سيرة غراء والدهر طواها
أمةٌ يذكي التقى غيرتها مثلما يذكي الندى نار قراها
شرفٌ لو آنسته الشمس في أفقها الأعلى لظنته أباها

* * *

أو يجدي مجد أسلاف إذا غرقت أجفان خلْف في كراها
أمةٌ تلهو بذكرى تالدٍ عن طريفٍ لم ترم عهد صباها

* * *

فابعثوها هِمماً تسمو كما سمت الجوزاء تزهو في سناها
ما الفخار الحق إلا نهضةٌ أحكم الايمان والعلم عراها

دمشق : آب سنة ١٩٣٦

رحلة الى العراق

للأمير مصطفى الشهابي

ذكريات وخواطر :

في أصيل يوم من أيام الخريف سنة ١٩٤٠ انطلقت بنـــا السيارة الجبارة من دمشق ، تخترق شارع بغداد ، وسط حدائقه وقصوره ، وتنساب مع قنوات بردى وجداوله ، بين بساتين الغوطة الغناء ، وتحت أدواحها الباسقة ، وخلال المروج السندسية ، وخضرة البقول على أنواعها . وكانت صفرة الشمس قبيل الغروب تحاكي أوراق الشجر في هذه الأيام الذهبيات التي يخلع فيها الشجر حلته المذهبة الجاسئة ليكتسي في الربيع حلة غضراء من الخضرة الحانئة .

ولم يغب عن أعيننا زيتون دومة وكرومها حتى بدت لنا ثنية العقاب حيث وقف خالد بن الوليد ناشراً راية العقاب في وجه ذلك السهل الأفيح ، فودعت هنالك دمشق والغوطة وأنا أترنم بأبيات حسان بن ثابت التي مطلعها :

لله در عصابة نادمتهم ... يوماً بجلق في الزمان الاول

وأعدت الى الذاكرة أبيات حسان بن نمير ولا سيما الأبيات الآتية :

ويا بردى لا زال ماؤك بارداً ... وماء الحيا من ساحتيك نمير

ولا زال ظل النيربين فانه ... طويل ويوم المرء فيه قصير

أبى العيش إلا بين أكناف جلق ... وقد لاح فيها أشمس وبدور

وما كدنا نتيامن في « خان عياش » على بعد ٢٦ كيلو مترا ونصفاً من دمشق ، ونجتاز قبيل الغروب قرية ضمير ومعبدها القديم « ٤٠ ك م من دمشق » وخان أبي الشامات « ٥٦ ك م من دمشق وفيه مخفر

ومكس ، حتى احتوتنا الصحراء ، وحتى دخلنا في غمرتين من ليل دجوجي وبيداء مترامية الآفاق . وربما كان من أشق الأمور على المسافر أن يكون في سيارة تنهب به الارض نهباً ، فلا الظلام الدامس يتيح له أن يرى شيئاً خارج السيارة ، ولا اهتزازها يمكنه من القراءة أو النوم . والشيء الوحيد الذي يستطيع أن يأتيه ، هو أن يتوسد وسادة وثيرة ، ويطلق العنان لأفكاره ، ويغرق في خضم من الأخيلة الشعرية ، ومن التصورات التي تحس أو لا تحس ، والتي لها ظل من الحقيقة أو لا .

وهكذا انقضت ليلتنا في بادية الشام . فلقد كنت فيها رفيق أقدم مدنيات عرفها التاريخ على هذه الكرة الأرضية . وإذا بي أتصور في الخيال ما كانت عليه أجيال السومريين ذوي الحروف المسمارية ، الذين عاشوا في أسفل سقي الفرات منذ اربعين قرناً قبل الميلاد في أريدو ولكاش وأور « المقير » واوروك « الوركاء » وغيرها ، وما خلفوه من نقوش وتماثيل وهياكل ومعابد ، وما أتقنوه من علوم الحساب والهندسة والفلك ، وما سنوه من الشرائع المعقولة في تلك الحقب الخوالي .

وتخيلت موجات الساميين ، أي العرب الأقدمين ، من قلب جزيرة العرب ، كموجة الأكديين إلى الفرات الاوسط ، في أوائل الألف الرابع قبل الميلاد ، ومدنيتهم الساطعة في كيش « الأحيمر » وبابل وبورسيبا « برس نمرود » ، قبل أقدم مدنية مصرية . وكموجة العموريين في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد . وأشهرهم حمورابي صاحب الشرائع المعروفة . وموجة الآراميين الى الشام والعراق في فاتحة القرن الثالث عشر قبل الميلاد . وتذكرت تقاتل بابل وآشور ، ومظالم الآشوريين ، وسقوط دولتهم ، وقيام دولة بابل الكلدانية الجديدة ، ومنها بختنصر صاحب الحدائق المعلقة الشهيرة . وأعدت الى الخاطر استيلاء الفرس على بابل ، وفتوحات الاسكندر الكبير ، ودولة السلوقيين ، ودولة البرثيين ، وتسلط

الروم ، وقيام الدولة الساسانية ، وانقسام العرب في أطراف العراق والشام قسمين قسماً مع الروم وآخر مع الفرس .

ثم رأيتني ابتسم ، وشعرت بفؤادي يهفو لاشراق الكون بمولد النبي العربي ، ولتطهير الجزيرة من رجس الأصنام ، ولاجتماع العرب على عقيدة واحدة وفكرة واحدة ، ولتكوّن قوة عظيمة من قوى العرب المبعثرة ، ولتولد روح الطموح في نفوسهم ، ولاجماعهم على ضرورة إعادة « الهلال الخصيب » الى أمه الجزيرة ، ولجهادهم في سبيل الله ، وفي بث كلمة الله العليا في مشارق الأرض ومغاربها .

واشتدت السيارة في عدوها ، وهي تطارد الظلام في ذلك السهل الأفيح . وصحوت قليلا من غفوتي على ذكريات تاريخنا العذاب ، فاذا بي أرى جيش سعد بن أبي وقاص وقد كتب له النصر في القادسية ، وأرى المثنى بن حارثة الشيباني يستولي على السواد كفراً كفرا ، وألمح عياض ابن غنم يفتح الجزيرة أي ديار ربيعة بلداً بلدا . وهو ذا الصحابي عتبة ابن غزوان قائماً يختط البصرة ويمصرها . وهو ذا سعد فارس الاسلام وفاتح مدائن كسرى وأحد العشرة المبشرين بالجنة قائماً في الكوفة يعلم على مواقعها ويجعلها خططاً لقبائل العرب .

وتمثلت في الخاطر قيام أسواق العلم والأدب واللغة في هاتين المدينتين وتسابقها في هذا المضمار ، وكيف وضع ابو الأسود الدؤلي أسس علم النحو ، وكيف نقل أهل البصرة والكوفة اللغة وأساليبها عن أعرق القبائل العربية وأبعدها عن الأعاجم والعجمة ، ثم كيف لبث هذان المصران كعبة اللغة والادب حتى بناء بغداد وانتقال العلوم والعلماء اليها .

وبينا أنا غارق في لجة هذه التأملات ، وقد برد الهواء وكاد الليل ينتصف ، واذا بزمر السيارة يدوي طويلا ، واذا بنا نقف أمام باب عظيم ، وعلى جانبيه سور شاهق ، والعلم العراقي المربع الألوان يرفرف فوق الرؤوس ، والشرطي العراقي يهدي الناس الى غرفة المكس مترفقاً

مبتسما . وسألت خادم السيارة أين نحن ؟ فقال في « الرطبة » . وهي واحة صغيرة ، بل محطة قائمة في وسط الصحراء ، في منتصف الطريق ، بين دمشق وبغداد ، على بعد ٤٢٠ كيلو متراً من دمشق ، فيها فندق ومطعم ومكتب للبريد والبرق والهاتف ، وآخر للكمس وجواز السفر ، وفيها مدير ناحية ينظر في شؤون الادارة ، ولا سيما ما يتعلق منها بالأمن العام .

وما ان ولجنا مقهى الفندق النظيف ، حيث وسائل الراحة موفورة ، حتى برزت لأعيننا صورة الملك غازي رحمه الله يحيط بها العلم العراقي . وقد استوقف نظرنا فيما بعد أن صور فيصل الأول وغازي وفيصل الثاني وعبد الاله يجدها المرء لا في دوائر العراق الحكومية وحدها بل في معظم الأبنية العامة كالفنادق والمقاهي ودور السينما والنوادي وأبنية السبق والفتوة والالعاب الرياضية وغيرها . وما دخلت داراً من دور رجال الدولة وأرباب الوجاهة والزعامة في بغداد إلا وجدت في بهوها تمثالا او صورة لفيصل الأول فتى فتيان العرب وباعث يقظة العراق الحديثة .

ولم نكد نستريح ساعة في فندق الرطبـــة حتى دعينا إلى استئناف المسير ، فعادت السيارة تطوي بنا الارض في الليل البهيم ، وعاد السفر إلى تخيلاتهم وأحلامهم . وألفيتني أشاهد زوال دولة الامويين ، وانتقـال الخلافة الى العباسيين وعلى رأسهم أبو العباس السفاح ، وكأنني أرى أبا جعفر المنصور يخط مدينة الزوراء ، وأرى بغداد في عصر الرشيد وعصر المأمون ، وقد صارت حاضرة العلم والأدب والشعر والفلسفة ، وارى المعتصم يختط الخطط في مدينة سامرا فتصبح عاصمة الدولة الثانية .

ثم ما عتمت النفس أن انقبضت مذ تذكرت أفاعيل الشعوبية والحمراء والترك المماليك ، وتذكرت نشوء الدول الفارسية والتركية كالبويهية والطولونية والأخشيدية والغزنوية والسلجوقية ودول الأتابكة وغيرها ، وكيف اضمحلت مدنية العرب الزاهرة في العراق ، وأسرع اليها الهرم ،

ولا سيما بعد ان انقض عليها من الشرق برابرة المغول والتتر ، وعلى رأسهم مدمرو المدنية والعمران ، أمثال جنكيز وهولاكو وتيمور ، وكيف استولى الترك العثمانيون على البلاد العربية ، وتحكموا فيها بضعة قرون ، ثم خرجوا منها بمركبات البقر ، كما دخلوا اليها بمركبات البقر ، على حد قول أحد المؤرخين الأوربيين ، فلا هم احتفظوا بمدنية العرب ولغتهم ، ولا أوجدوا مدنية خاصة بهم ، ولا اقتبسوا شيئاً يذكر من مدنية الغرب ، وكل ما عملوه أنهم ناموا هادئين على ما فات المغول والتتر من بقايا المدنية العربية ، ثم غطوا في سباتهم ، بينما كان العالم الأوربي يصعد في مراقي العلوم والعمران بخطى الجبابرة .

وأعدت على البال وقائع الحرب الكبرى الماضية (١٩١٤ - ١٩١٨ م) وذهاب الاتحاديين إلى انها فرصة يجب اهتبالها للقضاء على الروح الوطنية في غير الترك من أقوام الدولة ، ومظالم الاتحاديين الغاشمة لا سيما في ديار الشام ، وقيام الثورة العربية في الحجاز ، والتحاق نفر كريم من الضباط العرب بها ، وخروج فيصل بن الحسين من الشام واعتلاءه عرش العراق ، وانتهاء الانتداب في العراق ، وبلوغه في مراحل المعاهدات درجة الاستقلال .

ورأيتني ابتسم لهذه اللفظة الأخيرة ، وإذا بالصبح آذن بالسفور ، واذا بنا نترسم معالم الصحراء في غبش الليل ، حتى إذا برز الصبح لذي عينين ، وامتد النظر إلى الآفاق ، لاحت لنا عن بعد أشجار وبساتين ، فسألت خادم السيارة عنها ، فقال هذه هي الرَّمادي .

والرمادي بلدة على الفرات بين هيت شمالاً والفلوجة جنوباً ، تبعد ٧٣٨ كيلو متراً عن دمشق بطريق الصحراء . وهي اليوم قاعدة متصرفية الدليم . رأيت فيها شارعاً عريضاً نظيفاً مزفتاً ، وحديقة بلدية غنـاء . وهي مركز مهم للمكوس تمر بها قوافل السيارات بين العراق والشام مخترقةً البادية . ولم نمكث فيها إلا ريثما فحص عامل المكس بعض حقائب المسافرين برفق وأناة ، ثم استأنفنا السير إلى الجنوب ، ووجهتنا الفلوجة ،

ونحن تارة نقترب من الفرات وطوراً نبتعد . ولاحت على يسارنا سقائف المطار الانكليزي في سن الذبان ، وهو ما لبث لانكلترة في العراق بموجب معاهدة التحالف بين الدولتين . وفي سن الذبان أو الحبانية تقيم حكومة العراق اليوم سداً عظيما على الفرات لخزن الماء وصد عاديته عن المدن والقرى أيام الفيضان . وسيكون هذا السد صالحاً أيضاً لاسقاء مساحات واسعة من الأرض بين الفلوجة وكوت الامارة .

السواد وبغداد :

ولم يطل بنا المسير حتى بلغنا الفلوجة [١] . وهي بلدة جميلة على الفرات قبالة بغداد . وقد أقيم حديثاً عندها جسر من حديد عظيم متين تعبر عليه السيارات من الشامية إلى السواد . والسواد هو تلك البقاع والكور التي تقع بين دجلة والفرات من الجزيرة شمالاً إلى شط العرب فعبادان جنوبا . فهو إذن معظم سهول العراق وأجودها . وقد سماه أجدادنا العرب سواداً لخضرته بالزروع والاشجار . وكانت معظم أراضيه تسقى سيحاً بالأنهار والجداول العديدة التي تتفرع من دجلة والفرات والخابور عند السدود التي كانت تقام على تلك الأنهار العظام . وكان السواد عامراً عند الفتح الاسلامي ، فأقر المسلمون فلاحيه على أرضهم ، وجبوا خراجها برفق ، وسدوا البثوق في السدود ، وكروا ما رُدم من الأنهار . ولم يكتفوا بذلك ، بل أقاموا سدوداً جديدة ، وحفروا آلافا مؤلفة من الأنهار والجداول ، ولا سيما حول المدن التي مصروها كالبصرة والكوفة وبغداد وسامراء وغيرها

وقد وصف الاصطخري ألوف الأنهار التي حفروها في كورة البصرة وصفاً يكاد لا يصدقه العقل الا أنه حقيقة . ومما قاله انه كان يرى أحيانا

(١) الفلوجة في اللغة : القرية والارض المصلحة للزرع ، والجمع الفلاليج . ومنها فلاليج السواد .

في مقدار رمية سهم عدداً من الأنهار الصغار تجري في كلها زوارق صغار ، ولكل نهر اسم ينسب به الى صاحبه الذي احتفره ، أو إلى الناحية التي يصب فيها . وجوّز عندئذ أن تكون أنهار كورة البصرة قد عُدت أيام بلال بن أبي بردة بمائة وعشرين الف نهر وجدول كبار وصغار .

أما بين بغداد والكوفة فقد وصفه الاصطخري بقوله انه سواد مشتبك غير متميز تسقيه أنهار تمتد من الفرات الى دجلة . ويتضح من ذلك أن معظم سهول العراق والجزيرة وأخصبها كانت تسقى سيحا أيام الامويين وفي صدر خلافة العباسيين . وقد تتبعت مواقع السدود التي كانت على الخابور مثلاً « في القسم السوري من الجزيرة » ، ورأيت الأنهار المردومة التي كانت تشتق منه . ولم استغرب بعدئذ قول أحد مؤرخي العرب بأن جميع مياه الخابور كانت تسقي الأرضين في الصيف فلا ينصب منها شيء في الفرات في قرقيسيا « البصيرة » وأتيح لي في رحلتي الى بغداد أن أرى عشرات الأنهر المردومة بين الفلوجة وبغداد وسامرا ، وبين بغداد والنجف . وفي الحقيقة أينما سار المرء في السواد فهو يسير بين الانهار القديمة التي جعلت العراق أيام الرشيد والمأمون جنات من الزرع والشجر . ولا غرابة بعد هذا أن يقدر سكان العراق في تلك الأيام بعشرين مليون نسمة ، وأن يبلغ خراج السواد ثمانية ملايين دينار [1] .

ويقول المتعصبون من الكتاب الأوربيين ان ازدهار السواد أيام البابليين والساسانيين أخذ يزول أيام العرب الى أن أصبح معظم السواد خراباً في أيام الناس هذه . والحقيقة أن السواد لبث على حاله ، بل ازداد ازدهاراً وتوسعاً ، طيلة القرنين الأولين اللذين كان فيها الحكم الصحيح

---

(١) الدينار القديم يساوي نصف دينار ذهبي من دنانير هذه الأيام أي نصف جنيه انكليزي ذهبي تقريبا .

للعرب . والبثوق التي حصلت في حروب الأمويين والخوارج سُدت في صدر الدولة العباسية ، ولم يبدأ خراب السواد الا بعد أن أخذ الأعاجم ينتقضون على العرب ، ولم يعم الا بعد هجوم المغول والتتر وانتقال الحكم الى الدولة العثمانية .

اعدت الى الخاطر هذه الذكريات والسيارة تنهب الارض بين الفرات ودجلة . والأرض معظمها براح . وفي كل بضع دقائق نجتاز نهراً أو جدولا قديماً مردوماً . وما ان اقتربنا من بغداد ، وهي على بعد ٨٥٠ كيلو متراً من دمشق ، حتى أشار أحد المسافرين الى شيء يلمع عن بعد في الجهة الشمالية من الطريق ، فتطاولنا عسانا نحزر ما يكون . واذا بالخادم يقول لنا انها قبة جامع الكاظمية شمالي بغداد ، وانها مصفحة بصفائح الذهب ، ولهذا يكون لها في الشمس ذلك البريق . ولقد أتيح لي بعدئذ أن اشاهد هذا المنظر قبيل الغروب من المكان نفسه ، فاذا به منظر فريد لا شبيه له على الكرة الارضية . فهنالك قبتان عظيمتان ومآذن شاهقة في صفرة الذهب الابريز ، تتلألأ وتلمع ، وتكسر أشعة الشمس ، وتنثرها على شجر النخيل قلائد من العقيان . وكلما مشت السيارة خطوة تبدل شكل ذلك النثير من الأشعة الذهبية ، وتراقص بين خوص النخيل ، وانتثر في الفضاء انتثار الدر من العقد ، أو انتثار حباب الماء من فوارة اضيئت بالكهربا في الليل البهيم .

ولم نسر قليلاً حتى بدت بغداد ودورها وقصورها ، ثم دخلنا في شارع عريض مزفت غرس جانباه بأنواع الشجر ، ووقفنا في محطة شركة السيارات « نرن » ، وهي أمام بناء مطار الكرخ المدني ، على بضعة كيلو مترات من قلب المدينة . ووجدنا في المحطة لفيفاً من الأصدقاء ، ومرافق العميد الركن السيد طه الهاشمي وزير الدفاع ، وممثلاً لوزير المعارف السيد صادق البصام ، والمربي الكبير العلامة ساطع الحصري مدير الآثار ، وجمهوراً من الادباء والوجهاء والأساتذة غمرونا بأنسهم وأدبهم العميم .

وكان شارع الملك فيصل أول شارع مأهول مررنا به من شوارع الكرخ (١) وهو مزدوج زرعت الأزهار وبسط الخضير في وسطه . وقام في ساحته بين الزهر والريحان تمثال فيصل بن الحسين في بزته العربية ممتطياً جواداً عربياً ووجهه يستقبل الآتين من الشام . وبعد التمثال جسر الملك فيصل على دجلة طوله ٢٥٠ متراً ، وهو من أعظم الجسور الحديدية ، لا يقل رونقاً وعظمة عن أجمل جسور القاهرة . وبعد الجسر يمتد شارع الرشيد من الشمال الى الجنوب موازياً لدجلة . وهو شارع الفنادق والمتاجر الكبرى ودور السينما والملاهي ، وفيه حركة مستديمة من السيارات والعجلات

عمران بغداد :

قال لي أحد الوزراء في بغداد : يا ليتك عرفت هذه المدينة قبل عشر سنين أو قبل عشرين سنة ، اذاً لأمكنك ان تتبع حركة عمرانها خطوة خطوة ، فلقد كانت بغداد أيام الترك العثمانيين ، كسائر المدن في تلك الدولة ، مجموعة دور متلاصقة مكتظة يبلغها سكانها في ازقة ضيقة معوجة قلما يتجاوز عرض الواحد منها ثلاثة أمتار أو أربعة . وكان الجسر الذي يصل أحد قسمي المدينة بالثاني ألواحاً من الخشب مدت على عدد من الزوارق . وربما طغى النهر في الشتاء ، فجرف هذا الجسر ، فلبث جزءا المدينة أي الرصافة والكرخ منفصلين أياماً عديدة . وكل ما عمله الأتراك انهم فتحوا شارع الرشيد خلال الحرب الكبرى ، فأكمل فتحه وعبد عقب انسحابهم ، وقامت الفنادق والمتاجر في جانبيه ، لأنه كان الشارع الوحيد الذي يبلغ عرضه خمسة عشر متراً .

اما اليوم فقد شملت الشوارع العريضة معظم بساتين الكرادة جنوبي بغداد القديمة ، وكثيراً من بساتين الأعظمية شماليها ، وأصبحت الشوارع

---

(١) الكرخ جزء بغداد الواقع غربي دجلة أي في جهة السواد او جهة الجزيرة . اما الطرف الثاني ففيه الرصافة وهي معظم بغداد .

التي عرضها ١٥ متراً الى أربعين متراً تعد بالعشرات ، كما بلغ ما بين طرفي المدينة ، من الكرادة على مقربة من المدرسة العسكرية جنوباً ، الى المعظم قبالة الكاظمية شمالاً ، نحو خمسة عشر كيلو متراً ، أي كما بين الربوة ودومة . لكن عمران بغداد يمتد مع النهر ، ولا يمتـــد كثيراً الى سائر الجهات .

ومما استوقف نظرنا في بغداد كون عدد كبير من الشوارع الجديدة قد فُتحت وعبدت وزفتت وأنيرت قبل أن يُبنى كثير من الأبنية في جوانبها ، أي أن فتح الشوارع سبق البناء ، وهذا دليل على حيوية أمانة العاصمة . ومما يستوقف النظر أيضاً كون جميع الدور تبنى بالآجر لفقدان الحجر ، وكونها مها تعظم فهي قلما تزيد على طبقة واحـدة تعلو الطبقة الارضية . وقد سألت عن سبب ذلك فقيل لي ان حر الصيف [1] الشديد يضطر السكان الى ان يلجأوا الى الاقباء في النهار ، والى السطوح في الليل ، وكلاهما لا يتيسر في الابنية الكثيرة الطبقات ، عدا ان التربة حول دجلة لا تحمل ثقيلات الأبنية .

ومما يثلج صدر العربي ان الشوارع سميت بأسماء عربية ، وان بعض الاسماء انما وضعت تنويهاً بذكر رجالات العرب في القديم والحديث كالرشيد والمأمون وفيصل وغازي والسعدون والبحتري وابي العتاهية وأبي تمام وغيرهم ممن لهم فضل على هذه الأمة في السياسة والعلم والأدب : وقـد حُظر على أصحاب المؤسسات العامة كالفنادق ودور السينما والمقاهي وأضرابها أن يسموها باسماء أعجمية ، كما حظر عليهم اعلانها بلغة أجنبية دون العربية .

---

(١) تزيد حرارة بغداد في الصيف على حرارة القاهرة ، وتنقص عنها في الشتاء وتتراوح اعلى درجة الحرارة في أشهر الصيف بين ٤٠ و ٤٩ درجة . وتهبط الحرارة في بعض ليالي الشتاء الى ١٠ دون الصفر . ومتوسط الحرارة السنوي في بغداد ٢٢،٨ درجة أي فوق متوسط القاهرة .

وشكل الدور الخارجي لا يظهر جلياً في المدينة القديمة لضيق الأزقة واكتظاظ الدور . ومن المعروف ان أصحاب الدور القديمة ما كانوا يهتمون لشكلها الخارجي ؛ أما في الداخل فمعظم تلك الدور تتألف من فناء مكشوف مربع او مستطيل تحيط به الغرف من جهاته الأربع . ويكون وسط الفناء حديقة للزهر والشجر وحوض فيه ماء او لا ماء فيه . وهذا الوضع الداخلي هو ما نراه في الدور القديمة بدمشق وحلب وسائر المدن الشامية ، وهو أصلح ما يكون للعادات الاسلامية والبلاد الحارة .

أما الأبنية التي تبنى اليوم في بغداد على أطراف الشوارع الجديدة فلا يعرف لها طراز داخلي أو خارجي . واذا استثنينا بناء وزارة الدفاع العربي الجميل ، وبناء وزارة الخارجية ، وبعض القصور والدور المماثلة او المقاربة ، أمكننا القول بان الفوضى ضاربة أطنابها في انماط البناء في بغداد الجديدة . ولعل ابشع الأبنية تلك التي على جانبي شارع الرشيد . فقد قامت فوق رصيفي الشارع على أعمدة لا يدري المرء أهي رومانية او يونانية . واذا أنعمت النظر في جبهة بعض دور السينما أو في نقوشها الداخلية صعب عليك أن تحكم هل أنت في الهند أو في إيران أو أنت تحلم في أخيلة ألف ليلة وليلة . ولا شك أن فوضى البناء موجودة في الشام وجودها في العراق . وهي في البلدين تحتاج الى ضابط .

ويربو سكان مدينة السلام اليوم (١) على أربعمائة ألف نسمة . وكانوا أيام الدولة العثمانية دون نصف هذا العدد . أما في إبان مجد هذه المدينة أيام الرشيد والمأمون فكان سكانها مليونا ونصفاً أو مليونين ، كما أن مساحة أبنيتها وحدائقها بلغت في تلك الأيام نحو خمسين كيلو متراً مربعاً ، نصفها في الرصافة ونصفها في الكرخ . ووسائل أيامنا هذه لا تجعل مجالاً لبناء مثل القصور التي كانت في بغداد في صدر الدولة العباسية كالقبة

---

(١) من المعلوم ان ذلك كان يوم القاء المحاضرة اي في اوائل سنة ١٩٤١ م .

الخضراء وقصر الخلد وقصر الذهب التي شادها المنصور ، وكدار القرار لزبيدة زوج الرشيد ، وكقصر الأمين وقصور البرامكة وقصر التاج للمعتضد ، وقصور الأمراء والوزراء مما أنفق عليه ملايين من الدنانير . ومن المؤسف أن الأيام قد طمست معالم هذه الأبنية العظيمة ، وذهبت بما كانت تحتويه من نقوش وزخارف وآثار نفيسة .

التعليم في العراق

كان في بغداد أيام الدولة العثمانية مدرسة حقوق فتحت في أواخر أيام تلك الدولة ، ومدرسة إعدادية ومدرسة عسكرية متوسطة وبضع مدارس ابتدائية . وكل هذه المدارس الحكومية كانت تدرس بالتركية ، ولم يكن للأجانب ولا للشعب العراقي مدارس خصوصية تذكر . وكان التعليم في مدارس الحكومة المذكورة موجهاً الى إعداد ناشئة تتقن التركية وتدين بالجامعة العثمانية ، وتخدم إما في الجيش العثماني أو في وظائف الحكومة الثانوية . وكانت اللغة العربية لغة ثانوية تدرس بالتركية ، كما كانت القومية العربية تحارب من قبل المعلمين الأتراك والمتتركين . وقد شملت هذه الاوضاع يومئذ سائر البلاد العربية . لكن المدارس الأجنبية والمدارس الأهلية كانت منتشرة في ديار الشام منذ أواخر القرن الماضي . ولذلك لم يكن لمدارس الحكومة العثمانية كبير تأثير في تلك الديار ، كما أن الأمية فيها لم تكن منتشرة انتشارها في العراق .

ويتضح من ذلك أن العراق عندما بدأ يمارس استقلاله وجد نفسه في حاجة قصوى إلى نشر التعليم على أنواعه ، والى توجيه وجهة القومية العربية الصحيحة . ولم يقصر القائمون على شؤون العراق في الناحيتين المذكورتين ففتحوا حتى سنة ١٩٣٥ [١] من المدارس الابتدائية

(١) من كراس ثمين عنوانه (وجهة التربية والتعليم في العالم العربي وخاصة في العراق) للدكتور فاضل الجمالي مدير التدريس والتربية العام بوزارة المعارف العراقية . وللمومأ اليه اختصاص بشؤون التعليم معروف بسعة الاطلاع والخبرة .

٧٤٧ مدرسة بمجموع تلامذتها ٨٦٠٠٠ « وقد بلغ عددهم ٩٠٠٠٠ في سنة ١٩٣٧ ، ولعلهم بلغوا اليوم مائـــة الف » ، و ٤٧ مدرسة متوسطة « الصفوف الاولى من الدراسة الثانوية » بمجموع تلامذتها ٩٠٣٩ ، و ١٤ مدرسة ثانوية ، « الصفوف العليا من الدراسة الثانوية » فيها ١٣٤٦ تلميذاً ، وأربع دور معلمين منها اثنتان للذكور واثنتان للاناث ، وكان فيها سنة ١٩٣٥ نحو الف تلميذ وتلميذة ؛ أما اليوم فدار المعلمين في الرستمية وحدها فيها الف تلميذ تقريباً . ودور المعلمين هذه على قسمين قسم لاخراج معلمين يدرّسون في مدارس المدن الابتدائية وقسم لاخراج معلمين يدرّسون في مدارس الريف الأولية .

وفتح أيضاً في بغداد مدرسة للبنات تدرس الفنون المنزلية والأشغال اليدوية ، وفتح في الموصل مدرسة مثلها . أما التعليم العالي فقد فتح له معهد للحقوق ، ودار معلمين عليا تخرج أساتذة للمدارس المتوسطة ، ومعهد للطب والصيدلة . وأعتقد انه صار بامكان وزارة المعارف اليوم أن تجمعها في جامعة تمنح استقلالاً إدارياً ومالياً .

وأما المدارس الفنية فقد أسس منها مدرسة عسكرية ومدرسة للهندسة ومدرسة للشرطة وأخرى لضباط الشرطة وواحدة للطيران . وأوجدت في معهد الطب مدرسة للممرضات والقابلات وأخرى لموظفي الصحة ، كما أوجدت صفوف تجارية في بعض المدارس التجهيزية . وفتحت مدرسة صناعية في بغداد ومدرسة في الموصل . وكانت فتحت مدرسة زراعية في الرستمية ثم أغلقت على أن ترسل بعثات مدرسية تتعلم الفنون الزراعية في مصر وكليفرْنية وغيرهما من البلاد التي تشبه العراق بجوياتها .

ويتضح من هذه الخلاصة الموجزة أن هناك جهداً عظيما بذل في سبيل التعليم في السنوات القليلة التي مارس فيها العراق استقلاله . ولا شك أن مجال العمل ما برح واسعاً . ولكنه ما دام العزم موجوداً والتوجيه حسناً والمال متيسراً فلن يمر بضع سنوات حتى يصبح العراق في مستوى مصر

والشام بل حتى يفوقها في بعض نواحي التعليم . ومما يستوقف النظر كون وزارة المعارف العراقيـة لم تأنف من استدعاء معلمين شاميين ومصريين وبريطانيين للتدريس في مدارسها المختلفة ، وهذا ما يفعله كل شعب ناهض في بدء نهضته . وسيستغني العراق عن هؤلاء المعلمين رويداً رويداً بازدياد المتخرجين من دور المعلمين والمعلمات العراقيـة وازدياد العراقيـين الذين يتخرجون في كل سنة من جامعات ديار الشام وديار الغرب .

ولقد زرت عدة مدارس في بغـداد ، ودخلت الصفوف ، واستمعت إلى إلقاء الأساتيذ والمعلمين ، وسألت بعض التلاميذ أسئلة في علوم مختلفة ، وخرجت واثقاً بأن التعليم في العراق على أنواعه سائر سيراً يدعو إلى اغتباط القائمين عليه . ولقـد استوقف نظري كون التعليم مشتركا بين الذكور والاناث في بعض المدارس العليـا كالطب والحقوق ودار المعلمين العليا ، وكون عدد الطالبات ليس قليـلا في المدارس المذكورة . واذا جوزت لنفسي الانتقاد قلت إن بناء مدرسة الحقوق وأبنية المدرسة العسكرية لا تنبان على ما لهاتين المدرستين من شأن . فمن المفيد أن يوسع عليها في تشييد الأبنية المناسبة كما وُسع على مدرسة الطب ومدرسة الهندسة ودور المعلمين وغيرها من المدارس التي شيد لها أبنية حسنة .

والعربية هي لغة التعليم في مدارس الحكومة العراقية ، عدا مدرستي الطب والهندسة ، فان معظم الدروس فيها تلقى باللغة الانجليزية . وهـذه اللغة تدرس تدريساً حسناً في مدارس العراق . ويلاحظ أن عدد المثقفين ثقافة انكليزية يفوق كثيراً عدد المثقفين ثقافة لاتينية . والمدارس الأهلية قليلة في العراق ، لا تزيد على سبعين مدرسة فيها نحو عشرين ألف تلميذ . أما المدارس الاجنبية فهي اثنتا عشرة مدرسة تضم ألف تلميذ . ويدل ذلك على أن الدولة هي التي تسيطر في مدارسها على تعليم الأحداث وعلى تربيتهم وعلى توجيهم وجهة واحدة . وهـذه الوجهة تستهدف الاحتفاظ بتراث العرب الادبي والروحي ، واقتباس المفيد من علوم الغربيين وأساليبهم

العلمية ووسائلهم المادية . أما المبادىء القومية فهي تبث في جميع مدارس الدولة على شكل يدعو إلى الارتياح .

وحكومة العراق مهتمة كل الاهتمام بنشر المعارف في جميع أنحاء القطر ، ولا سيما التعليم الابتدائي ، حتى ان ميزانية وزارة المعارف تربو اليوم على ثمانمائة ألف دينار ، وهو مبلغ لا يستهان به في قطر لا يزيد سكانه على أربعة ملايين نسمة ونيف . ومع هـذا ما برح أمام الحكومة مجال واسع لنشر التعليم الابتدائي خاصةً لأن تلامذة المدارس الابتدائية وتلميذاتها لا يبلغون جميعاً ربع الاولاد الذين هم في سن التحصيل الابتدائي . وثلاثة أرباع الأحداث أو اكثر يلبثون أميين . لكنه يلاحظ كون نشر التعليم ربما أدى إلى ازدياد البطالة والشكوى إذا لم يكن مقروناً بجهد كبير يبذل في سبيل إيجاد عمل للمتعلمين على مختلف درجاتهم . فخريجو المدارس العليا والمدارس الثانوية يجدون اليوم عملا في الحكومة والجيش والأعمال الحرة كالتطبيب والمحاماة . لكن خريجي المدارس المتوسطة وخريجي المدارس الابتدائية من أبناء القصبات والقرى لا يجدون أمامهم متسعاً من المتاجر والمعامل والأرض . فالتجارة معظمها بيد اليهود [١] . والارض الزراعية يملكها أفراد معدودون . والمعامل الصناعية قليلة . فالنهضة الثقافية في العراق يجب إذن ان تقترن بنهضة اقتصادية قوامها الري وإيجاد الملكية الصغيرة في الأرض الزراعية وتأسيس المعامل الصناعية ونقل المتاجر الى مختلف طبقات الشعب فلا تظل محبوسة على اليهود . وهكذا يجد المتعلمون أبواب الرزق مفتوحة فيستفيدون ويفيدون بما قرأوه في المدارس من مبادىء العلوم .

---

(١) لقد سهلت حكومات العراق اخيراً هجرة يهود القطر ، فهاجر معظمهم الى فلسطين ، على ما هو معروف .

نظرة اقتصادية

من المفيد ان نذكر كلمة موجزة عن الحياة الاقتصادية في العراق تأييداً لرأينا في ضرورة جعل النهضة الاقتصادية تسير مع النهضة الثقافية جنباً الى جنب. فمساحة العراق ٥٦٥٠٠٠ كيلو متر مربع [1] وسكانه اربعة ملايين نسمة ونيف، فيصيب الكيلو متر المربع الواحد سبعة أشخاص وهو قليل؛ واذا قايسنا بين العراق والشام نجد أن مساحة الاول تكاد تبلغ ضعفي مساحة الثاني، أي ضعفي مساحة سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن جميعاً. وبينما في العراق أربعة ملايين نسمة ففي الشام خمسة ملايين عربي ونحو نصف مليون يهودي وأجنبي ولكن شتان ما بين قابلية العراق وقابلية الشام للاسكان. فالعراق كما هو معروف مؤلف من جزأين، جزء في الشمال أراضيه الزراعية أعذاء، أي تزرع على المطر، كألوية الموصل وكركوت وأربيل والسليمانية، وجزء في الوسط والجنوب لا يمكن زرع أراضيه إلا بالاسقاء لقلة الامطار. وهو يمتد من جنوبي الموصل حتى البصرة، أي يتناول معظم الوية العراق. ففي هذا الجزء الثاني الصحراوي أنهار تخترق أراضيه وهي دجله والفرات والزاب الأكبر والزاب الأصغر وديالة وغيرها من الأنهار الكبار والمتوسطة. والأرض الزراعية تسقى هنالك على شكلين اما برفع الماء بالمحركات والنواعير والمنزفات «كرد» وأمثالها من الوسائل، وإما باقامة سدود في وجه الماء وفتح أنهار وجداول للاستقاء. فوسائل الرفع تسقي اليوم مليونا ومائة الف هكتار تقريباً [2]

---

(١) عن الكتاب الفرنسي «جغرافية سورية ولبنان والشرق الأدنى» المطبوع سنة ١٩٤٠ لمؤلفيه دوبرتره Dubertret وفولرس Weulersse اما في كتاب «الجغرافية العراقية» فقد جاء ان مساحة العراق ٤٥٢٥٠٠ كيلو متر مربع.

(٢) من اراد الحصول على معلومات واسعة ومضبوطة في هذا الباب عليه بمراجعة كتاب «جغرافية العراق» المطبوع سنة ١٩٣٧ لرحل الدولة العالم والعميد الركن طه الهاشمي رئيس الوزارة ووزير الدفاع في العراق.

أما جداول الاسقاء سيحاً فهي تكفي لاسقاء نحو ثلاثة ملايين وسبعمائة الف هكتار . وأهم هذه الأراضي تروى أولاً بسبب إقامة سد الهندية على الفرات في أواخر أيام الدولة العثمانية على يد المهندس المائي الشهير ويلكوكس الانكليزي . وقد أمكن بهذا السد إرواء أرضين واسعة في الوية الحلة وكربلاء والديوانية . ثانياً بسبب اقامة سد الكوت « مشروع الغراف » على دجلة من قبل حكومة العراق أخيراً . وهذا السد يضمن إسقاء سبعمائة وخمسين الف هكتار في لواء الكوت ولواء العمارة . ثالثاً بسبب اقامة سد على نهر ديالة . وبهذا السد أمكن تنظيم توزيع الماء في جداول النهر القديمة . رابعاً بسبب المد والجزر في شط العرب . فكلما حصل مد يرتفع الماء وينساب في جداول إسقاء النخيل بلا مشقة . وهذه الجداول أو الأنهار معظمها قديمة . وقد فتح أجدادنا العرب مئات منها . ونخيل جنوبي العراق يشرب بهذه الطريقة السهلة خامساً بسبب كري أنهار قديمة في لوائي بغداد والديلم تأخذ الماء أيام الفيضان من الفرات وتسير به في اتجاه دجلة أي الى الشرق وقد فتحت الحكومة حديثاً بعض الأنهار القديمة في تلك البقعة كنهر اللطيف ونهر أبي غريب وغيرهما .

ومهما يكن من أمر الاسقاء في العراق فهنالك حقيقتان يجب ذكرهما الأولى انه لا يزال في العراق متسع لاعمال الاسقاء ، ولا يزال قسم كبير من السواد غير مسقي . وأهم المشاريع التي تستوقف النظر مشروع الحبانية الذي أشرت اليه ومشروع نهر الاسحاقي ودجيل على دجلة ، ومشروع الحويجة بين الزاب الأسفل ودجلة ، ومشروع النهروان الخ . وكل هذه الانهار والجداول القديمة معروفة في تاريخ العرب . والحقيقة الثانية أنه لا يزرع سنويا في العراق اليوم سوى قسم من الاراضي التي تسقى سيحاً أو بالمطر . والسبب قلة السكان وقلة رؤوس المال . ولو أنجزت الحكومة شيئاً من المشاريع التي ذكرتها لما وجدت عراقيين يستثمرونها . ويتضح

من ذلك أن في العراق مجالاً لهجرة الفلاحين والأموال العربية بغية استغلال الأرض ، وان في ذلك القطر متسعاً لخمسة عشر مليون نسمة في المستقبل القريب اذا سير في شؤون الهجرة والصحة والاقتصاد على سياسة محكمة .

وليس الري ثروة العراق الوحيدة بل فيه النفط والقار وهما من أعظم الثروات ومن أدعاها الى انتشار مختلف الصناعات . وقد زاد في أيامنا هذه ما يستخرج من النفط سنوياً على أربعة ملايين طن . ولئن كانت الزراعة أهم ركن من أركان الحياة الاقتصادية في العراق ، لأن ثلاثة أرباع سكانه يشتغلون في الزراعة ، فللصناعة فيه مستقبل لا يستهان به بسبب وفرة النفط ومشتقاته خاصةً . وقد أسس حديثاً معمل للغزل والنسيج في بغداد ، وآخر في الموصل ، ومعمل لحلج الأقطان ، وآخر لتقطير الكحول ، ومعامل للدباغة وتصليح الأسلحة والطيارات وصنع الكبريت والآجر وتوليد الكهربا وتصليح السيارات الخ . وذلك عدا المصنوعات اليدوية الكثيرة من نسج وصياغة ونجارة وغيرها مما عُرف القطر به . وقد أثبتت الاحصاءات الاخيرة ولا سيما احصاءات سنة ١٩٣٧ ، أن العراق استورد ما قيمته تسعة ملايين دينار ، وأصدر ما قيمته خمسة ملايين دينار وثلث . أما اليوم فالفرق بين ثمن الوارد وثمن الصادر قد قلَّ ولا يبعد أن يحصل التوازن عما قريب .

أماكن العراق المقدسة

لا شيء أدعى إلى التأمل والاعتبار والخشوع من زيارة أضرحة سيدنا علي كرم الله وجهه وبعض أنساله الأئمة رضوان الله عليهم ، وزيارة بعض الجوامع القديمة التي تثير في النفس ذكريات كثيرة من تاريخنا المجيد . ولقد تفضل العلامة السيد ساطع الحصري فكان خير مرشد لنا في التبرك بزيارة النجف حيث مقام الامام علي ، وكربلاء حيث مقام

الحسين السبط ومرقد أخيه العباس ، وسامراء وفيها الجامع الذي يضم ضريح الهادي علي بن محمد الجواد و أبي الحسن العسكري ، عاشر الأئمة وضريح ابنه الحسن الخالص وهو الامام الحادي عشر . وفي جانب هذا البناء الجامع المحتوي على سرداب الغيبة أي غيبة المهدي محمد بن الحسن الخالص وهو آخر الأئمة الاثني عشر . وفي هذا السرداب باب خشبي جميل جداً صنع بأمر الخليفة العباسي الناصر لدين الله سنة ٦٠٦ من الهجرة . ومما زرناه مسجد الكوفة وهو من أقدم المساجد في الاسلام اختطه سعد ابن أبي وقاص أثناء تمصير الكوفة . وكان الامام علي يصلي فيه ، وقد تجدد في خلافة الأمويين ، وظل عامراً قرونا .

وأقرب الأضرحة إلى بغداد مما تبركنا بزيارته مقام الامام موسى الكاظم ابن الامام جعفر الصادق ، وهو في ضاحية بغداد على نحو ثمانية كيلو مترات شمالي قلب المدينة . وقبالته في جهة الرصافة مقام الامام أبي حنيفة النعمان بن ثابت أحد الأئمة الأربعة .

والجوامع التي فيها مقامات سيدنا علي وآله في النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء كلها حديثة ومبنية على طراز واحد . فالزائر يرى صحناً عظيماً مربعاً أو مستطيلاً أحيط بجدران شاهقة كسيت داخلياً بالقاشاني . وفي وسط الصحن مسجد تعلوه قبة أو أكثر ، وفي أركانه المآذن ، ومقامات الأئمة تحت القباب . ومما لا مرية فيه أن هذه المقامات المقدسة قد اشتملت على كنوز عظيمة ، فالقباب مثلا وبعض المآذن مكسوة خارجياً بصفائح رقاق من الذهب ثمن كل واحدة منها بقدر الكف ليرة ذهبية عثمانية . وشاهدنا بعض جدران المساجد أيضاً مصفحة بالذهب . أما الاقفاص التي تحيط بالاضرحة فمعظمها من فضة وبعضها مطلي بالذهب . وكثير من الثريات والقناديل والسلاسل إما من فضة أو من ذهب خالص او مطلية بالذهب . وفوق ضريح الامام علي ثريا فيها درة ثمينة .

وأرانا شيخ المقام الكريم في النجف عدداً من السجادات والستائر

وقناديل الذهب معظمها هدايا من أبناء الملوك القاجاريين او بناتهم . وبعض السجادات مرصعة بلآلىء منها الصحيحة ومنها الكاذبة . وأشار الشيخ الى احد جدران المسجد وذكر أنه يشتمل في داخله على كنز من الجواهر الثمينة يقدرون ثمنها بما لا يقل عن مليون ليرة ذهبية . وقال ان الجدار لا يفتح اليوم إلا بارادة ملوكية ، وأنه فتح مرة أيام الوالي العثماني الشهير مدحة باشا ، ومرة أيام الملك فيصل بن الحسين طيب الله ثراه .

وداخل المساجد والقباب مكسو بالقاشاني وقطع البلور والمرايا . وقد كتبت آيات قرآنية على عدد كبير من قطع القاشاني ، ورسم على بعضها رسوم مختلفة . ومن أغرب ما استوقف نظرنا في مدخل الجامع الذي يشتمل على ضريح العباس في كربلاء أن الرسوم التي على بعض قطع القاشاني هي رسوم أوربية ، مما يدل على أن تلك القطع قد شريت من معامل للخزف في اوربة ، على حين أن معظم القطع الاخرى هي من صنع فارس وغيرها من الديار الاسلامية . ومهما يكن من أمر القاشاني فلا شك أن معظمه حديث لا يتجاوز عهد الصفويين والقاجاريين ، ولهذا ليس له رونق القاشاني القديم .

وروعة هذه الاماكن ليست في أبنيتها ولا في كنوزها ولا في أوقافها الغنية بل فيما ضمته من رفات أئمة هداة أتقياء صلحاء لهم في تاريخ العرب والاسلام وفي قلوب المسلمين جميعاً مقام أي مقام . ومن المعروف أنه يحج اليها عشرات الالوف من المسلمين في كل سنة . لكن عدد الحجاج الايرانيين قد قل في السنوات الاخيرة كما قلت الأموال التي كانت تخصها بها الدولة الايرانية . ولعله من المفيد ذكر ملاحظتين تترددان على ألسنة كل من يغار على الاماكن المشار اليها ، أولاهما ضرورة منع الاكل والتدخين في صحون الجوامع ، وإخراج الذين لا عمل لهم منها ، ولا سيما الاولاد والاطفال ، وثانيتهما تأسيس متحف خصوصي ملاصق لجامع النجف تحفظ فيه النفائس والكنوز الموضوعة في بعض الغرف وفي أحد

الجدران ، فان هذه المواضع تجعلها عرضة لعبث الحشرات ولتأثير العوامل الطبيعية فيها ، على حين أن المتحف يجعلها في مأمن من التلف ، ويضمن المقام الشريف مورداً لا يستهان به .

أما مسجد الكوفة فلم يبق منه إلا صحنه العظيم تحيط به جدرانه الشاهقة وأمامها أروقة بسيطة حديثة . وفي أحد الأروقة عند المحراب قاشاني حديث يستوقف النظر . وهذا المكان هو الذي طعن فيه الامام علي بيد ابن ملجم لعنه الله . وفي أحد جوانب المسجد أقيم مصلى جديد صغير رأينا الناس يتبركون به ويصلون فيه . ولا شك ان مسجد الكوفة ، على سعة صحنه وبساطة ما تبقى منه ، يثير في نفس المسلم ذكريات تاريخية مشجية . وعندما يبلغ الزائر هذا المسجد قبيل الغروب ، وهي الساعة التي بلغناه فيها ، ويدخل صحنه العظيم الذي كان يتسع لآلاف المصلين ، يشعر بخشوع زائد امام روعة هذه البقعة القدسية ، ولا سيما إذا كان ملما بتاريخ صدر الاسلام .

الآثار في العراق

من المعروف في التاريخ أن أقدم حضارة بشرية كانت في موضعين متجاورين : الأول سفي الفرات الأسفل والأوسط حيث كان السومريون والاكديون ، والثاني غربي إيران حيث كان العيلاميون . وترجع حضارة هذه الأقوام الى نحو أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، أي انها قامت قبل حضارة الفراعنة الأول ببضعة قرون [١] ، ولم يكن السومريون ساميين . أما الاكديون فقـــد كانوا ساميين من جزيرة العرب ، وكذا سائر الأقوام الذين قذفت بهم تلك الجزيرة الأم إلى الهلال الخصيب في موجات

(١) من أراد الاطلاع على مجمل ثمين من حضارات البشر الاولى عليه بمطالعة كتاب « التاريخ والحضارة في الازمنة الغابرة » تأليف العميد الركن السيد طه الهاشمي . وهو مطبوع في بغداد .

متعاقبة ، كالعموريين الذين سكنوا بادية الشام وجنوبي فلسطين ، ثم دخلوا العراق واستولوا على بلاد السومريين والاكديين ، وأسسوا دولة بابل ، واشتهر فيهم حمورابي صاحب الشرائع المدونة على مسلته المعروفة. وكالآشوريين أبناء عم البابليين ، وقد عرفوا بالحروب والفتوح والقسوة ، ولم يؤسسوا مدنية خاصة بهم . وكالآراميين الذين سكنوا على ضفاف الفرات والخابور ، وأسسوا دويلات في دمشق وحلب وحران وحماة . وكالكلدانيين الذين حكموا بلاد بابل بعد زوال دولة الآشوريين وكان منهم بختنصر « نبوخودر أصر » صاحب الحدائق المعلقة في بابل . وكالفينيقيين الذين توطنوا سواحل الشام الشمالية ؛ والكنعانيين الذين سكنوا سواحلها الجنوبية ؛ والاسماعيليين الذين أسسوا دولاً في مشارف الشام ولا سيما دولة سلع « البطرا » في وادي موسى ومدائن صالح ، دع الملك الذي كان للعرب قبيل الاسلام في الحيرة « جنوبي النجف » ، وفي حوران وغيرهما من أصقاع الهلال الخصيب .

ومما لا مرية فيه أن أعظم موجة قذفتها جزيرة العرب هي الموجة الاسلامية منذ ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن . فقد خلص الهلال الخصيب للعرب عقب تلك الموجة المباركة . وقامت في أيام الأمويين والعباسيين خاصةً حضارة عربيـــة زاهرة لا تزال آثارها تشهد بعظمتها في جميع الأقطار العربية .

وأهم الآثار العربية التي شاهدناها في العراق آثار مدينة سامراء « سُرَّ من رأى » على بعد ١٢٠ كيلومتراً شمالي بغداد [١] وهي المدينة التي بناها الخليفة المعتصم أحد أبناء هرون الرشيد سنة ٢٢١ من الهجرة ليجعلها عاصمة لملكه ، ثم وسعها ابنه الواثق ، ثم ابلغها أوج عظمتها جعفر

---

(١) لقد كان العلامة السيد ساطع الحصري مدير الآثار القديمة في العراق لفضل اطلاعنا على اهم الآثار والمتاحف وتزويدنا بما طبعه فيها من كتب وكراريس مصورة ثمينة .

المتوكل . ولم تدم هذه المدينة السحرية إلا نصف قرن أو أقل لأن مقر الخلافة أعيد إلى بغداد فدرست سامراء بسرعة كما أوجدت بسرعة . وبعد أن كان الناس يسمونها « سر من رأى » صاروا يسمونها « ساء من رأى » .

ولكي تعرفوا عظمة الأجداد إبان مدينتهم الزاهرة ، تصوروا مدينة طول أطلالها الحاضرة ٣٤ كيلو متراً ، ينصفها شارع عرضه مائة متر ، يظل مستقيما على طول سبعة كيلو مترات ، وتتفرع منه شوارع عرضانية مستقيمة عديدة يبلغ عرض كثير منها ٥٠ متراً . وقد قامت الدور والقصور على خطوط مستقيمة حول هذه الشوارع ، حتى أن الناظر اليها من طيارة يظن أنه فوق أطلال احدث مدينة أوربية أو أميركيه . والذي ينعم النظر في الآثار الباقية من تلك المدينة كالمسجد الجامع والمئذنة الملوية وجامع أبي دلف وقصر بلكوارا ودار الخليفة وباب العامة وقصر المشرق وغيرها كثير ، لا يستغرب الوصف الذي وصفها به اليعقوبي في كتاب البلدان ، ولا تتعاظمه ملايين الدنانير التي انفقها الخلفاء المشار اليهم ووزراؤهم وقوادهم في جلب الماء من دجلة الى المدينة الجديدة وفي تشييد القصور التي وصف علي ابن الجهم أحدها بقوله :

بدائعُ لم ترها فارسٌ ولا الرومُ في طول أعمارها
صحونٌ تسافر فيها العيون وتَحْسِرُ عن بُعْد أقطارها
وقبةُ ملك كأن النجو م تفضي اليها بأسرارها (١)

وقد شاهدنا آثار البركة العظيمة أمام باب العامة من القصر المسمى « دار الخلافة » ، وهي البركة التي وصفها البحتري في إحدى قصائده التي يمدح بها جعفر المتوكل . ومما جاء في تلك القصيدة قوله :

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها والآنسات إذا لاحت مغانيها

* * *

(١) صحة رواية الأبيات من ديوان علي بن الجهم تحقيق العلامة خليل مردم بك رئيس المجمع العلمي العربي .

تنصب فيها وفود الماء معجلة	كالخيل خارجة من حبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة	من السبائك تجري في مجاريها
اذا علتها الصبا أبدت لها حبكا	مثل الجواشن مصقولا حواشيها
فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها	وريق الغيث أحيانا يباكيها
إذا النجوم تراءت في جوانبها	ليلاً حسبت سماء ركبت فيها
لا يبلغ السمك المحصور غايتها	لبعد ما بين قاصيها ودانيها

والقصيدة طويلة فيها أجمل وصف لتلك البركة التي يبلغ طول كل ضلع من أضلاعها الاربعة ١٢٥ متراً . وشاهدنا أيضاً مضماراً لسباق الخيل على شكل مبتكر وهو اجتماع أربع حلقات أو دوائر متقابلة حول مربع مركزي . فالخليفة ورجاله كانوا يجلسون في ذلك المربع ، والخيل تجري في الحلقات فتبعد عن المركز ستمائة متر ثم تقترب منه وهكذا أربع مرات دون أن تغيب عن النظر . وطول المضمار الذي تقطعه خمسة كيلو مترات تقريباً .

ومما استوقف نظرنا في دار الخليفة حفرة كبيرة مربعة الشكل منقورة في الحجر في عمق عشرة أمتار وفي وسطها حوض للسباحة ، وفي كل جانب من جوانبها الأربعة ثلاثة ايوانات لا تزال زخارف الجص على بعضها ، ولا شك أن هذه الحفرة التي تغدينا فيها مع عدد من الصحاب [١] كانت معدة للتبرد أيام الحر شأنها شأن السراديب التي تكثر في العراق ولا سيما في النجف .

ومن دواعي الأسف أنه بعد انتقال دار الخلافة الى بغداد تخطف الناس ما حوته سامراء من رخام ومرمر وآجر وفسيفساء . لكنه لبث فيها كثير من زخارف الجص الذي كان يلصق على جدران البيوت . وهذه الزخارف وما فيها من تزاويق وتخاريم وتعاريج بعضها هندسي وبعضها نباتي

---

(١) هم السادة سعد الله الجابري ، ولطفي الحفار ، وساطع الحصري .

الشكل هي من أسطع الادلة على عظمة تلك المدينة . وقد ملأت جانباً كبيراً من متحف الآثار العربية في بغداد . وهي أجمل من زخارف قصر الحير التي نقلت الى دمشق لكنها أحدث منها . وبين قصر الحير وسامراء قرن ونيف .

ولم تبق الأيام في بغداد على قصور العباسيين التي طالما قرأنا عن سعتها وعظمتها ونقوشها وزخارفها في كتبنا التاريخية . والقصر الوحيد الذي لبث جزء صغير منه قائماً بناء تسميه العامة « قصر المأمون » ، وهو في الحقيقة يرجع الى أواخر عهد العباسيين . وفي هذا القصر زخارف بديعة جداً من قطع الآجر المحفور والمنقوش على أشكال هندسية او نباتية . وقد اتخذ قسم منه متحفاً لذكرى فيصل الأول ، وقسم اتخذ معرضاً لصور الآثار العربية في أنحاء الأرض بغية تنمية ذوق الزيارة « فن البناء » على الطراز العربي الجميل .

ومن الآثار العربية التي زرناها في بغداد ، بدلالة الاستاذ الأثري السيد عبد الرزاق أمين المتحف العراقي ، المدرسة المستنصرية الشهيرة التي بناها المستنصر بالله العباسي في أوائل القرن السابع من الهجرة . وهي متخذة دائرة لمكوس بغداد منذ أيام الدولة العثمانية . وقد بنى السكان أبنية ودكاكين كثيرة على قسم من بقاياها . وأجمل ما تبقى من زخارفها يراه المرء على طاق ايوان كان أحد السوقة جاعلاً اياه فرناً للخبز و « الكعك » الى عهد قريب .

ومن آثار العباسيين باب خراسان ، والبرج الذى يسمى « البرج الوسطاني » ، وقد اتخذ اليوم متحفاً للأسلحة . وهو من أبواب سور بغداد . ولا بد لمن يرحل الى عاصمة العراق من مشاهدة مأذنة سوق الغزل لقدمها « القرن السابع من الهجرة » وارتفاعها ، والجامع الذي يرقد فيه الشيخ عبد القادر الكيلاني ، وجامع الحيدر خانة حيث كان

يجتمع الشعب في الحوادث السياسية الهامة . وقباب معظم جوامع بغداد مكسوة بالقاشاني البديع .

ومن الأبنية القديمة في بغداد خان مرجان وهو بناء عربي جميل بني في القرن الثامن من الهجرة وأصلح حديثاً واتخذ متحفاً للآثار العربية . وأهم محتوياته الزخارف الجصية الفتانة التي نقلت من سامراء . وقد علق على جدران بهوه صور وخرائط عديدة مفيدة ، كما أن بعض غرفه قد اشتملت على أضرحة ومحاريب وأبواب خشبية وأوان من فخار وأوان من نحاس ومقدار من النقود القديمة .

ولم نتمكن من زيارة الآثار التي بقيت من مدينة سومر وأكد وآشور ، لكننا زرنا بابل الشهيرة وهي تقع على ٩٥ كيلو متراً جنوبي بغداد . وأطلالها الباقية لا ترجع إلى أيام الأكديين ، ولا إلى عهد العموريين الذين منهم حمورابي ، بل ترجع الى أحدث من أيام تلك الدول ، أي الى أيام الدولة الكلدانية التي عاشت في الألف الأول قبل الميلاد . وكان منها نيبولاسر وبختنصر الثاني « ٦٠٤ - ٥٦١ ق . م » . ولم تبق حوادث الدهر الا دمناً من قصور بابل وأسوارها وبرجها وحدائقها المعلقة وأهم ما فيها الأسد البابلي ، وهو تمثال أسد قائم فوق رجل ممدد ، وكلاهما من صخر أصم ، ومما فيها أيضاً باب اشتار وما على جدرانه من أسود وثيران وتنانين مغشاة بالميناء . وقد بنت مديرية الآثار متحفاً صغيراً في خرائب بابل حوى مصورات جميلة لما كانت عليه تلك المدينة في أيامها السالفة .

ولا بد لمن يبغي الاطلاع على آثار أقدم مدنية عرفها البشر ، من زيارة المتحف العراقي في بغداد . ففي هذا المتحف من نفائس مدنيات سومر وأكد وبابل ما يبهر النظر . فكثير منها يرجع عهده الى الألف الرابع والألف الثالث قبل الميلاد . وقد كانوا في تلك الأيام السحيقة ينقشون في الحجر والنحاس ، ويصنعون التماثيل والفسيفساء ، ويصوغون

الذهب والفضة حلياً وتماثيل جميلة ، وينزلون فيها حجارة كريمة . وكان النساء يتزين ويتبرجن كما في أيام الناس هـــذه . ومما استوقف نظرنا معزف خشبي محلى بالذهب والصدف واللازورد وجد في المقبرة الملكية في أور ، وخوذة من الذهب الخالص عليها نقوش تحيط بالشعر ، وعدد كبير من الحلي على أشكال شتى كالاقراط والخواتم والقلائد كلها من ذهب ، وكثير منها مرصع بالأحجار الكريمة ، ومجموعة من الاختام ومن الخناجر الذهبية ، وأحد الخناجر له غمد من ذهب مزخرف الخ . وفي الحقيقة أن نفائس المتحف العراقي شيء كثير . ومن الصعب تصور صورة لهذه النفائس في محاضرتنا هذه . وحسبنا أننا ألممنا بها إلماما .

* * *

نهضة العراق الحديثة

لعل أهم ما في العراق استقلاله وخلوه من جيش أجنبي إلا في مطارين . فقد قضت معاهدته الأخيرة مع انكلترا ، وهي المؤرخة في ٣٠ حزيران سنة ١٩٣٠ ، بأن لا يكون لها فيه سوى مطارين بعيدين عن المدن ، الواحد في سن الذبان ، بين الرمادة والفلوجة غربي الفرات والثاني في إحدى جهات البصرة . ومما يلمسه الانسان في الوزارات وفي الجيش العراقي وفي القوة الجوية الملكية وفي الشرطة وفي المدارس وفي سائر دوائر الحكومة أن السلطة فيها لأبناء العراق دون سواهم ، ولهذا يستطيع المرء أن يجزم أن العراق يمارس السيادتين الداخلية والخارجية شأنه في ذلك شأن البلاد المستقلة . والمستشارون البريطانيون ، على ما قيل لي معلمون يرشدون إذا استشيروا ولا سلطة تنفيذية لهم ، ولهذا يطابق اسمهم المسمى ، والقضاة الانكليز الذين قضت المعاهدة بوجودهم يتقنون العربية ، ولذلك تكون المرافعة امامهم بلسان الضاد . والسفارة الانكليزية في بغداد لا تهتم بغير ما ورد في المعاهدة

من مصالح بريطانيا الجوهرية . ولو أرادت التدخل في شؤون العراق الداخلية لثنتها عن ذلك قوة شكيمة العراقين . ومن المعروف ان الانكليزي متى قبع في برجه العاجي فهو لا يزعج نفسه إلا إذا مُست مصالح امبراطوريته الحيوية بسوء وفي هذه الحال يكون له تدخلات وتنمرات عجيبة .

وممارسة الاستقلال أوجدت في العراق رهطاً من رجال السياسة ورجال الدولة ومديري الدوائر الحكومية ممن تمرسوا بالأعمال الداخلية والخارجية وتعلموا تحمل تبعات الأمور الجسام . وقد كانت الأعمال الحكومية في بادىء الأمر تقع على عاتق الضباط الأشاوس الذين اشتركوا في الثورة العربية في الحرب الماضية . وما برح الأحياء من هؤلاء السادة يعدون في طليعة رجال الدولة العراقية . لكنه نشأ اليوم عدد من الشبان والكهول المخلصين ممن برهنوا على ذكاء وكفاية في تصريف شؤون الحكومة . وأعتقد أن العراق يبني للمستقبل في هذه الناحية الهامة من نواحي النهضة ، ويتخذ الوسائل التي تهيء للقطر في مستقبله البعيـــد رجال دولة قديرين مخلصين .

وقد استقرت الأوضاع السياسية في العراق منذ أيام الملك فيصل على شكل دولة ملكية دستورية ثابتة الأركان . والتف الجميع حول فيصل وذريته ، وهم فوق التحزبات السياسية وفوق الغايات الفردية ، كما أنهم رمز استقلال البلاد ورمز مجدها وعظمتها . وهذا ما يجب ان يكون في كل شعب يشعر بواجبه تجاه رئيس دولته المستقلة .

ولئن سمعنا من حين إلى آخر بحوادث سياسية داخلية فهي لا تتجاوز أبواب الأحزاب ، ولا تتناول الأسس التي يقوم عليها استقلال العراق . وجميع من عرفت من رجال الدولة وأركان الجيش ، أيا كانت آراؤهم الفردية ، يلتقون دائماً عند تلك الأسس ، ويدافعون عنها بالنفس والنفيس

وتقوم الفكرة العربية في العراق على أساس قويم : وهو من حيث السياسة التمسك بالقومية العربية ، والعمل على تساند بلاد العرب اقتصادياً

وثقافياً ودفاعياً ، على شكل عصبة دول عربية متآزرة وبما يتاح اتحادها .
أما من حيث الثقافة فالأساس الذي تقوم عليه الفكرة العربية هو أولاً التمسك باللغة الضادية وتراثها الأدبي والروحي ، ثانياً اقتباس المفيد من علوم الغربيين الحديثة ووسائلهم المادية وأساليبهم في العلم والتفكير . ثالثاً الاحتفاظ بالسليم من عادات العرب وأخلاقهم ، كالاحتفاظ بالأسرة ، واحترام الصغير للكبير ، والدفاع عن العرض ، والشمم وإباء الضيم والكرم والنجدة وأمثالها من الصفات الحميدة .

ومما يدعو الى الارتياح كون مبادىء الفكرة العربية تبث في أنحاء العراق على شكل منتظم سواء في مدارس الحكومة ، أم في نوادي الجمعيات القومية كنادي المثنى ونادي الجوال ، أم في الجمعيات الرياضية كالكشافة وأمثالها ، أم في جمعية الشبان المسلمين حيث اتساع أفق العمل لا يحول دون بث المبادىء القومية الصحيحة . ولا يوجد في العراق قوة داخلية أو خارجية تستطيع التأثير في اتجاه الحركة القومية أو تستطيع عرقلة سيرها المستمر . فالشيعة والسنة العرب « وهما الأكثرية الكبرى » سواسية بالوطنية العربية الراسخة . وأكراد شمالي العراق « وهم سبعمائة الف ونيف » يشعرون بأن ما يلقونه في العراق لا يجدونه في بلاد أخرى . فكيانهم ولسانهم وعاداتهم كلها محترمة . وهم يعدون مع سائر العراقيين أبناء وطن واحد في الحقوق والواجبات . ومن أسهل الأمور عندهم وأدعاها إلى اغتباطهم تثقفهم بالثقافة العربية ومشاركتهم العرب في خدمة وطن هو وطن الفريقين . وقد ألف الكرد الثقافة العربية منذ قرون . وخدمها بعضهم خدمات معروفة في التاريخ . أما المسيحيون في العراق فعددهم اليوم نحو مائة الف نسمة ، ومعظمهم ساميون استعربوا منذ القديم ، وشاركوا المسلمين في اتجاهاتهم القومية سياسياً وثقافياً . وأما يهود العراق فعددهم ثمانون الفاً تقريباً وهم يسكنون العراق منذ زمن طويل ، وليس لهم فيه مطامع سياسية على ما يقولون . وهمهم الأكبر أن يظلوا محتفظين بمركزهم

المالي والتجاري ، وهو حال أو هو احتكار لا يجوز بقاؤه . وخمسة أسداس سكان العراق عرب والسدس أكراد وأتراك . ولا تزيد الأتراك على ٦٥٠٠٠ نسمة أي على واحد ونصف في المئة من مجموع السكان . ويتضح من ذلك أنه لا يوجد داخل العراق عناصر ذات شأن تجحد الفكرة العربية أو تكيد لها . ويشعر كل عربي يحل العراق بأنه في بلده .

وقد ذكرت أن الحكومة العراقية هي التي تهيمن في مدارسها على ثقافة الأحداث ، وهي التي تطبعهم بطابع الثقافة العربية الشاملة . أما الجيش العراقي فهو يبث فيهم بعدئذ فكرة الايثار والتضحية والعمل جماعات منظمة مطيعة في سبيل الأمة والوطن . ويكون عمل الجيش إما في الثكنات ، وإما في المدرسة العسكرية ، وإما في جماعات الفتوة في مدارس التجهيز حيث شاهدنا ضابطا يدرّس في أحد الصفوف ، وشاهدنا مستودعاً فيه لكل تلميذ بندقية وحربة ومجموعة من الأدوات العسكرية . وهكذا يخرج كل تلميذ من مدارس التجهيز ، أو من المدارس العليا ، وهو ضابط احتياطي في الجيش العراقي الباسل . ومتى علمنا أن العراقيين شجعان أشداء الشكيمة لم تخنثهم رذائل المدنية الحديثة ، وعلمنا أن في أعمال الري وفي تأسيس المعامل الصناعية متسعاً لأن تزداد سكان العراق أضعافاً ، أدركنا على الفور ما سيكون للعراق من شأن عظيم في العالم العربي .

وفي العراق نهضة أدبية لمسناها في اجتماعنا إلى أعضاء نادي القلم ، وهم عصبة فيهم الكاتب والشاعر والأديب والعالم . ولا شك أنهم يمثلون ناحية بارزة من نواحي الثقافة العامة في العراق . أما الصحافة فقد تقدمت تقدماً محسوساً ، سواء من حيث المادة العلمية في الموضوعات التي تطرقها ، أم من حيث لغة الكتابة . ومن الصحفيين نواب وأدباء ووطنيون صادقو الوطنية . لكن في العراق كما في الشام إقبالا على اتخاذ الصحافة مهنة سهلة . ولهذا صار يصدر في بغداد وحدها عشر صحف يومية أو أكثر

وهو عدد كبير إذا قيس بعدد قراء الصحف في العاصمة العراقية وفي الأطراف . ومن المجلات الراقية التي أطلعنا عليها مجلة « المعلم الجديد » تصدرها وزارة المعارف ، ومجلة « العالم الاسلامي » تصدرها جمعية الشبان المسلمين . وأسفنا لاحتجاب مجلة « لغة العرب » لأسباب مالية . وهي المجلة العربيه اللغوية المفيدة التي كان يصدرها العلامة الأب انستاس ماري الكرملي . ويقرأ العراقيون كثيراً بعض المجلات التي تصدر في مصر كالمقتطف والهلال والرسالة والثقافة .

وتتجلى النهضة الرياضية في النادي الأولمبي العراقي وبنائه الكبير وملاعبه الحسنة ، وفي بناء السباق الفخم ومضماره الواسع ، وفي جماعة الكشافة والألعاب على أنواعها ولا سيما الكرة والتنس . وللرياضة شأن في مدارس العراق ، لكننا لاحظنا أن بنية عدد من تلميذات المدارس التي زرناها ضعيفة تدل على أنهن في حاجة إلى تزيد ساعات الرياضة البدنية .

ولم أتمكن من درس النهضة النسائية وأهدافها وتقدمها ، إلا أنني لاحظت كون تعليم البنات ينتشر بسرعة ، وشاهدت عدة تلميذات يدرسن في دار المعلمين العليا ومعهدي الطب والحقوق . ووقفت في قاعة التشريح بمعهد الطب أمام طالبة عاكفة على رأس ميت تنكث أجزاءه بمشرط في يدها . فحدقت في وجه الطالبة أترسم الخوف أو الاشمئزاز في ملامحها ، وإذا بها باسمة كأنها تقشر تفاحة ! ولعلها خشيت أن أكون أنا المصاب بالخوف أو الاشمئزاز ! .

وذكر لي من نثق بهم أن المرأة العراقية تقدمت كثيراً في تفكيرها وثقافتها ، منذ أخذت مدارس البنات تنتشر ، ومنذ سهلت وسائل الانتقال في السنين الأخيرة . والحجاب في العراق كالحجاب في الشام لا يوجد إلا في المدن . ومع هـذا فقد كنت أرى عدداً من النساء يستمعن إلى كل محاضرة من المحاضرات الأربع التي ألقيتها في ردهة المحاضرات التابعة لمعهد الحقوق ببغداد ، كما انني كنت أرى عدداً كبيراً من النساء غير

المحجبات في الشوارع ودور السينما ، ولاحظت أن عددهن هنالك يفوق كثيراً عدد المتحجبات . ولا يمكنني أن أتبين دينهن لأن كل النساء يرتدين فوق ثيابهن عباءات سوداً جميلة على نسق واحد معظمها من حرير .

ولا تقتصر النهضة العمرانية على العاصمة وحدها بل تعم سائر مدن العراق . ولقد شاهدت شوارع واسعة نظيفة وحدائق بلدية ودوراً جميلة في المدن الصغيرة التي زرتها أو مررت بها كالنجف وكربلاء والحلة والرمادة وغيرها . وقيل لي إن في الموصل حديقة بلدية من أجمل الحدائق ، وان فيها شوارع نظيفة عريضة مزفتة .

وبعد ، إن العراق ابن عشر سنين أو عشرين سنة في الفرط ، ولهذا لم يبلغ إلى اليوم أشده ، ولا يزال أمامه متسع للعمل في نواحي الحياة العامة ولا سيما فيما أشرت اليه من أعمال الاسقاء ورفع مستوى الفلاح بايجاد الملكية الزراعية الصغيرة وبتحسين وسائله الصحية ، والعمل في تجارة البلاد وسائر اقتصادياتها . لكن العراق عرف الطريق القويم فبدأ يسلكه . وهو اليوم يسير إلى الأمام بخطى واسعة مردداً قول القائل :

تبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثلما فعلوا

دمشق : شباط سنة ١٩٤١ .

الأندلس

«عبرة وذكرى»

للأستاذ عارف النكدي

ما ذكرت الاندلس مرة إلا امتلكت نفسي بهجة وجمة ، ما تزالان بي تتجاذبان دمعة من عيني حتى أرسلها ، وأنا بعد لا أدري أجذلاً أرسلتها أم جزعا .

وكيف لا أجتذل وذكرى الاندلس تعود بصاحبها الى السنة الثانية والتسعين للهجرة ، إذ نحن والأمر أمرنا ، وإذا الوليد ، وقد ربض في هذه العاصمة : دمشق ، ربضة الأسد ، وانتشرت ولاته فيما فتحه العرب من البلاد شرقاً وغرباً ، فكان منهم على افريقية[1] موسى بن نصير ، وتأبى على موسى همته أن يقف دون الفتح بحر ، فيغزي مولاه طريفاً اسبانيا فيلم بها إلماماً ليناً لا يتعدى ما يعرف الى اليوم بمدينة طريف أو طريفة كما يقول الاسبان . فيبعث موسى ثانية جيشاً أكبر ، يعقد لواءه لمولاه طارق بن زياد ، فيكون طارق فوق ظن مولاه به ، يواقع الجزيرة ويظهر على صاحبها ، ويهزم جيشه الضخم ، ويتتبع فلوله حتى يقضي عليها ويتوغل في البلاد غازياً فاتحاً ، فتعنو له مستسلمة صاغرة ، ويهتاج هذا الفتح طاعية موسى فيأمر طارقاً بالوقوف ، حيث انتهى به الفتوح ، ويجتاز بنفسه البحر في جيش لجب ، فيمضي في الفتح ، وقد جعل هدفه القسطنطينية يقطع اليها البلاد فاتحـاً حتى يعود الى المشرق عن طريقها .

---

(١) افريقية لفظ أطلقه العرب على المغرب الاقصى عامة وتونس منه خاصة لا كما يطلق اليوم على القارة بجملتها .

وتنتهي الولاية في هذه الجزيرة الى عبد الرحمن الغافقي فيجتاز جبال البرانة أو الثنايا ويصل إلى تور[1] وهي في قلب مملكة شارلمان .

أيلام العربي مع هذه الذكرى ، إن هو أخذته عظمة الماضي فنسي لمحة من اللمحات انه ابن هذه الأمة العربية المستضعفة اليوم لكل جيل ، المستعمرة في كل قطر ، فذهب به التيه بهذا المجد الغابر ، حتى خيل اليه أنه يسير في جيش الفتح ، يسمع قعقعة السيوف ، وجرجرة الرماح ، وعجعجة المجاهدين .

* * *

ثم كيف لا يتقطع القلب حزازة ، متى رجعت الذكرى الى ما كان من فشل هذه الغزوة ، وكيف ملأ قومنا أيديهم بالغنائم فشغلتهم عن الحرب ، وعن كل تفكير إلا فيها ، فأصيب صاحبنا الغافقي إصابة كانت فيها روحه .

ثم كيف تفرق العرب في الأندلس نفسها وتنازعوا الرئاسة فانشق الأخ عن أخيه ، وثار الابن على أبيه ، ففشلوا وذهبت ريحهم . استسلموا لعدوهم فراراً من الموت ، فوقعوا في العار وفي الموت .

ما ترك الاسبانيول حيلة في الظلم والتقطيع الا أوقعها بهم . حُرِّقوا ، وغرقوا ، وبقرت بطونهم ، وسملت عيونهم ، وقطِّعت أيديهم وأرجلهم ، واستُعبدوا وأذلوا ودجنوا . ثم انهم أزعجوا عن ديارهم — إلا من بدل دينه تبديلا صحيحاً — فخرجوا خروج الغريب عن البلد الغريب .

أذكر هذا فأحس في قلبي وقع هذه المظالم ، وأسمع بأذني أبا البقاء يقول :

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له ... هوى له أحد وانهد ثهلان

أصابها العين في الاسلام فارتزأت ... حتى خلت منه أقطار وبلدان

---

(١) عاصمة مقاطعة تورنيا على ٢٣٦ كيلو متراً إلى الجنوب الغربي من باريس .

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية وأين شاطبة أم أين جيّان
وأين قُرطُبة دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذب فياض وملآن
قواعد كن أركان البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبق أركان

* * *

يا من لذلة قوم بعد عزهم أحال حالهم جور وطغيان
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم واليوم هم في بلاد الضد عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم لهالك الأمر واستهوتك أحزان
يا رب أم وطفل حيل بينهما كما تفرق أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس اذ طلعت كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب اسلام وإيمان

ألا نمي أنت بعد ، إذا أنا لم أدر أدمعة الجزل أرسلت أم دفعة الجزل ؟ بلى لقد صدق أبو البقاء ، فما لمصاب العرب بالأندلس عزاء ، ولا لجرحهم فيها شفاء ، وأنى يكون ذلك والخطب منقطع النظير ، خص العرب وعم الانسانية جمعاء .

وإذا كان العرب قد تركوا التفجع والتوجع فما فعلوا ذلك لبعد الصقع ، والعربي الحق يرى في كل بلد عربي موطناً له ، ولا لبعد العهد ، وأربع مئة سنة ليست في التاريخ شيئاً ، فتنسى بلداً كالاندلس عمره أجدادنا ثمانية قرون كاملة فأنشأوا فيه حضارة عزّ مثلها ، فكانت إحدى مفاخر العالم على وجه الدهر .

كلا لا هو بعد الشقة ، ولا هو بعد العهد ، أنسي العرب ذلك العهد ، ولكنها المصائب تترى آخذاً بعضها برقاب بعض ، الهت كل قطر عن غير

نفسه . فأي بلد عربي وليس فيه جراحة ما تأتلي تمض أحشاءه ، وتنتقص أجزاءه ، حتى شغلته عن البكاء على أمسه بالبكاء على نفسه .

« يبكي ومن شر السلاح الأدمع »

ولسنا من المبالغة في شيء إن نحن قلنا ان حضارة العرب في الاندلس كانت إحدى مفاخر العالم وان مصاب العرب بها عم الانسانية جمعاء .

فمن كان قد علق بذهنه شيء مما تمليه ارساليات الغرب في تصغير شأننا ، وتهوين أمرنا فداخله شك في كلمتنا ، فليرجع الى ما وصف به المؤرخ الافرنسي « لافاله Lavallée » مدنية الاسلام باسبانية وما أتى به من بيان مزايا العرب هناك في الصناعة والزراعة والغراس والبناء ، ووصف قصر اشبيلية ، وحمراء غرناطة ، وجامع قرطبة ، وخصائص الهندسة العربية ، والزخرف الشرقي ، وأسلحة الاندلسيين . وقد قرر أن العرب هم أول من استعمل المدافع النارية في اوربا ، وانهم هم الذين هدوا الاوربيين إلى صناعة البارود ، وعرفوهم بصناعة أخرى أشد تأثيرا في الاجتماع الانساني وهي عمل الورق .

قال : « وانهم في جميع الفنون فاقوا المسيحيين وبلغوا الدرجة القصوى من الحضارة ، حينما كان أقرانهم ملفوفين في حنادس الجهالة والبربرية ، فكانوا فوقهم في العلم ، ومثلهم بالبأس ، وكانوا حكماء في المجالس ، أشداء في المآزق »(١) .

ثم ألق بسمعك الى ما يقوله « كولود فرّار Claude farrère » عن هذه الحضارة ، في مقدمة العباسة أخت الرشيد ننقله كلمة كلمة :

« أناخت على الانسانية في السنة الثانية والثلاثين بعد السبعمائة للميلاد كارثة لعلها أسوأ ما شهدته القرون الوسطى ، تخبط من جرائها العالم

(١) خلاصة تاريخ الاندلس للامير شكيب ارسلان ص ٣٦٥ .

الغربي سبعة قرون أو ثمانية قرون بل تزيد ، في لجة من الهمجية ، بدأت « النهضة » تقشع ظلماتها ، فعادت حركة « الاصلاح » تزيد فيها من جديد .

هذه الكارثة التي أريد أن أحتقر ذكراها ، هي ذلك النصر الهائل الذي أحرزته غير بعيد عن « بواتيا » ، جماعات « المركاس » ، المتوحشين من مقاتلة « الفرنك » ، يقودها شارل مارتال الكولونجياني على فيرق من العرب والبربر فشلت لأن الخليفة عبد الرحمن ؟! أخطأ فلم يحشدها أكثر مما كانت عدداً .

في هذا اليوم المشؤوم تقهقرت الحضارة ثماني مائة سنة . وحسب الانسان أن يكون قد تنزه في جنائن الأندلس ، أو خطر بين أطلال لا تزال بعد تبهر الابصار ، من عواصم السحر والخيال التي كانت عليها اشبيلية وغرناطة وطليطلة ، ليتراءى له في شيء من الدوار المعجب ما كان يمكن أن تصل اليه فرنسا ، لو أن الاسلام الصناعي الحكيم الرصين المتسامح — إذ الاسلام هو كل هذا — استطاع أن ينتزع وطننا فرنسا من فظائع لا تجد لها اسماً اجتاحت بعد ذلك الغول القديمة : استعبدها بادىء الأمر « الاوسترازيان Austrasiens » اولئك السلابون الضواري ثم اقتطع القرصان النورماند « Normandes » أول قسم منها . ثم تجزأت وتمزقت وغرقت في بحور من الدماء والدموع ، وأخلتها الحروب الصليبية من السكان ، وملأتها الحروب الخارجية والاهلية جثثاً ، كان ذلك يوم كان العالم الاسلامي يتمتع بلذة السلم من نهر وادي الكبير الى نهر الهندوس ، في كنف الخلافات الاسلامية الأربع : الأموية والعباسية والسلجوقية والعثمانية .

وإذا كان « فرار » ختم مقالته ذاهباً مذهب الخيال والاغراق ، في السلم الذي وصفه في ظل الخلافة ، فلقد كان مؤرخاً حقاً وهو يتغنى بحضارة الأندلس ، وكان مخلصاً صادقاً وهو ينعي على قومه أن يفخروا

يوم « بواتيا » اليوم الذي تراجعت فيه جيوش العرب مندحرة ، فصدمت الحضارة العربية صدمة لم يكن من مصلحة العالم المتمدن أن تكون .

بل مالنا ولما قاله « لافاله » المؤرخ الفرنسي الخطير ، وما كتبه « فرّار » الكاتب الفرنسي الكبير ، ولنعد الى ما كان من الاسبان أنفسهم في الفترة الأخيرة .

فالاسبان وهم الذين لا يفتأون يحتفلون باليوم الثاني من شهر كانون الثاني ، وهو اليوم الذي في مثله من سنة ١٤٩٢ خرج أبو عبد الله آخر ملوك بني الأحمر من عاصمة الاندلس ، ذلك الاحتفال الفخم ، فتقرع فيه أجراس كنيسة الحمراء أربعاً وعشرين ساعة قرعاً متواصلاً .

هؤلاء الاسبان أنفسهم قام منهم نفر من علماء المستشرقين ، تحللوا من قيود التعصب ، فنزعوا ما ألقاه على أعينهم من غشاوة ، فاذا هم يبصرون تلك الحضارة العربية الفتانة ، وما فيها من عظمة وفن وجلال ، فتتجبهم صبابة منها ، أبقت عليها نزعات الجهل القديم ، والتعصب الذميم ، فاذا بها الى اليوم مفخرة اسبانيا الكبرى ، ومورد من موارد الرزق فيها .

وبينما الاسبانيول يحتفلون بذكرى جلاء العرب عن بلادهم ، شفاء لنزعة التدين ، وقضاء لحق الوطنية ، ينهض هذا النفر فيحتفل بذكرى قيام الخلافة الأموية بالاندلس تقديراً للجهود الانسانية ، وإعجاباً بالحضارة العربية .

أليس حقيقياً أن نتحدث إليكم على ذكر هذه الحفلة يقوم بها أعداء تاريخنا بالامس ، وأصدقاء حضارتنا اليوم ؟ بكلمة عن هذا البلد الطيب تكون كالعبرة والذكرى ليس إلا . أقول عبرة وذكرى ، ذلك اني لا أطمع أن أقف فيكم موقف المؤرخ ، والكلام عن الاندلس حديثه وقديمه ، عربيه وغربيه ، ملء الكتب وملء دورها ، فهل من سبيل الى غير مكرر ملول ؟ واذا كان من حاجة لمزيد في ناحية من نواحي تاريخ هذا

القطر ، أو في ما كان فيه من علم وأدب ، وصناعة وزراعة ، وسائر مقومات العمران ، أو كان في رجال هذا القطر ودولاته وسياسته ماتقتضي غوامضه شيئاً من النور يكشف عن أسراره ، فهذا مالا تتسع له المحاضرة والمحاضرتان ومن حق رجال التاريخ أن يفردوا لكل فرع من هذه الفروع التي أشرنا اليها كتاباً قائماً برأسه ، بل في رجال الاندلس من يستحق أن يؤلف فيه الكتاب المستقل .

أما أنا ، فأكتفي بالعبرة أبسط فيها دخولنا الاندلس وخروجنا منه ، وقد توافقت فيها الاسباب ، واتحدت العلل في القبيلين العرب والاسبان ، وبالذكرى أعيد عليكم فيها لمحة موجزة عن هذا التاريخ تكون كالفذلكة لهذه القرون الثمانية التي عمرنا فيها هذا القطر . نسرد فيها الأحداث الخطيرة ، ونسلسل أدوار الحكم ، بما يمكن حفظه .

ولعل الموضوع يكون أقرب تناولاً ان نحن قسمناه الى خمسة أدوار ، نمهد له بمجمل تاريخي جغرافي عن الاندلس العربية وتاريخها القديم ، أما الأدوار الخمسة فهي :

١ ــ الفتح وأسبابه .
٢ ــ الحكم الاموي .
٣ ــ ملوك الطوائف .
٤ ــ حكم أمراء المغرب المرابطين والموحدين .
٥ ــ الجلاء وأثر العرب في الاندلس وعاداتهم وأخلاقهم .

لمحة جغرافية

الاندلس أو فندالوسيا اسم مقاطعة من شبه جزيرة « البرانه » سميت فندالوسيا أو فندالوشيا باسم الفندال « Vandales » وهي أمة نزلت شبه هذه الجزيرة في أوائل القرن الخامس .

وقديماً عرفت هذه المقاطعة بـ « بتيكيا » « Bétique » باسم نهر « Bétis » الذي يرويها وهو وادي الكبير اليوم .

مساحتها وحدودها :

طول هذه الجزيرة من رأس بنياس في استورياس « اشتوريش » شمالاً الى رأس طريف في بوغاز جبل طارق جنوباً ٥٤٠ ميلاً ، ومعظم عرضها من رأس كروس في قطلونية شرقاً إلى قرب رأس فينستر في جليقية غرباً نحو ٦٣٠ ميلاً .

ويحدها من الشمال سلسلة جبال البرانس الفاصلة بينها وبين فرنسا وهي بمثابة برزخ عرضه ٢٤٠ ميلاً وبحر بسكي المسمى ببحر فرنسا ومن الغرب الاوقيانوس الاتلنتيكي ومن الشرق والجنوب البحر المتوسط وبوغاز جبل طارق الفاصل بينها وبين أفريقية .

وتقدر مساحة هـــذه البلاد وما يتبعها من جزر متممة لها بنحو ستمائة الف كيلو متر مربع « ٦٠٠٠٠٠ » منها اليوم لاسبانيا « ٥٠٤٥٢٠ » كيلو متراً و « ٩٢١٥٧ » للبرتغال .

ويقول جغرافيونا أن مسيرة دَوْرها أكثر من ثلاثة أشهر ليس فيها ما يتصل بالبر الى مقدار يومين .

معادنها :

وأرضها غنية بالمعادن ، منها : الرصاص ، والزئبق ، والتنك ، والحديد ، والفضة ، والنحاس ، والملح ، والفحم ، والرخام ، وحجر الدم . وقديماً استخرجوا منها الذهب .

هواؤها :

يختلف باختلاف أقاليمها فمنه الحار والمعتدل والبارد .

لمحة تاريخية

دخل الفينيقيون هذا القطر سنة ١٠٠٠ قبل المسيح ، فأنشأوا في سواحلها مستعمرات عديدة منها : طرطوشة « Trtessus » وقادس . ثم تبعهم اليونان فبنوا أيضاً عدة مستعمرات منها : أمبوربة على ساحل قطلونية ، وساغونتم « مربيدرو » في بلنسية . وظل داخل البلاد مجهولاً لم يعرفه الرومان الا في الحرب البونيقية الثانية .

وأطلق اليونان على الساحل الشرقي اسم ايبيريا ، وسموا القسم الغربي من شبه الجزيرة ترثشيش وأوسطها كلتيكا ثم توسعوا بعد ذلك فأطلقوا لفظ أيبريا على البلاد كلها ثم سماها الرومان اسبانيا(١) .

ومن أمم اسبانيا القديمة الاستوريون « Asturiens » كانت مواطنهم في أستورياس « Asturie » والقسم الشمالي من مملكة لاون ، وكانت قاعدة بلادهم « أستوريكااوغسطا » ، وهم آخر من خضع للرومان .

أما أول من عرف من سكان هذه الجزيرة فهم القلطبريون « Celtiberiens » وهم خليط من القلط « Celtes » والايبر « Ybéres » ثم أنشأ الفينيقيون واليونان على ما قدمنا مستعمرات وأسواقاً تجارية « وكالات تجارية » على شواطيء هذه الجزيرة . وفي القرن الخامس امتدت اليها سيادة قرطاجة « Carthage » الى أن تغلب عليها الرومان وظلوا أصحاب السلطان فيها الى أن غزاهم الهيلانيون « Alains » والسواف « Suaves » والفندال « Vandales » سنة ٤٠٩ ، وفي ذلك العصر أيضاً أنشأ فيها

(١) قيل اخذ هذا الاسم من لفظة « شافان » السامية ومعناها الارنب لكثرة ما وجد الفينيقيون منه في هذه البلاد . وقيل من لفظة « ازبانيا » البسكية ومعناها شاطيء .

الفيزيقوط « Wisigoths » دولة عظيمة ما زالت قائمة إلى أن قضى عليها العرب يوم استولوا على الاندلس في تموز من سنة ٧١١ بعد معركة شريش أو شدش « كساريس Xérès » .

ملك العرب :

دخل العرب اسبانيا فأطلقوا عليها اسم الاندلس ، إذ كانت هذه المقاطعة أول ما استولوا عليه من شبه هذه الجزيرة ، وغلبوا عليها اسم الجزيرة على اتصالها بالبر — كما سميت شبه جزيرة العرب أيضاً جزيرة . وبسط العرب ملكهم على هذه الجزيرة جزرها ويابستها ، ساحلها وداخلها ، شرقها وغربها ، إلا جزءاً يسيراً من الغرب الشمالي قرب خليج غاسقونيا في ولايات جبلية يسميها الاسبان استورياس ، وسماها العرب اشتورش والصخرة .

عدد السكان :

ليس عندنا ما نعول عليه في عدد سكان الاندلس أيام العرب فقد أوصله بعضهم الى العشرين مليوناً وهذا عدد نشك في صحته وان قيل « انه بلغ من عمران الاندلس ان كان على وادي الكبير أربعة عشر الف قرية حتى كان المسافر لا يكاد ينقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع والصحاري معدومة » .

الفتح :

قلنا : ان موسى بن نصير عامل الوليد بن عبد الملك على افريقية ، أغزى مولاه طريفاً الاندلس ، فسار في اربعة مراكب فيها اربعمائة رجل

ومئة فارس ، فنزل في موضع سمي به[١] على المضيق الذي عرف بعد ذلك بمضيق جبل طارق فأغار وأصاب شيئاً ثم رجع وذلك سنة ٩١ هـ .

وفي سنة الـ ٩٢ بعث موسى مولاه طارقاً في سبعة آلاف[٢] جلهم من البربر والموالي ليس فيهم عرب إلا القليل . فنزل طارق جبلا منيعاً على شاطىء البحر يعرف إلى اليوم به . وجعلت السفن تختلف بالرجال والخيل حتى توافى اليه جميع أصحابه .

قيل وكان في جيش طارق بوليانوس أحد رجالات اسبانيا[٣]

---

(١) طريف او طريفة ثغر اسباني حصين على مضيق جبل طارق سكانه اليوم ١٢٥٠٠ فيه حصن منيع بناه العرب تكتنفه الأسوار المنيعة والابراج . وفي البلدة داخل السور ثغر مغربي اتخذوه الآن سجناً . وظلت طريف في حوزة العرب الى سنة ٦٩١ — ١٢٩٢ . وفي ايام العرب كانت السفن التي تجتاز مضيق جبل طارق تقف في طريف وتدفع رسماً ولهذا زعم بعض كتبة الفرنجة ان لفظة « Tarif » بمعنى التعرفة بالفرنسية والانكليزية وما اشبهها في اللغات الاوربية مأخوذ من لفظة طريف لتقاضي رسم السفن فيها . وكانت طريف من اعظم ثغور العرب شأناً في تلك الانحاء بل كانت أم تلك الثغور وربيئته لمن تولاها على بحر الزقاق اهـ « لاروس ودائرة المعارف العربية » .

(٢) في دائرة المعارف العربية : ان طارقاً جاز في نحو ثلاثمائة فارس من العرب احتشد معهم من البربر نحو عشرة آلاف صيرها عسكرين احدهما على نفسه ؟ ونزل به جبل الفتح وهو جبل طارق والآخر على طريف بن مالك النخعي ونزل به بمكان مدينة طريف ثم اداروا الاسوار على انفسهم للتحصن وبلغ الخبر رودريك فنهض اليهم بجيش يبلغ الاربعين الفا فلقيهم في فحص شريش فهزمه طارق وطريف .

(٣) في صبح الاعشى الجزء الـ ٥ ص ٢٤٢ وبعض الكتب العربية : كان من سير الاعاجم ان يبعث اكابرهم باولادهم ذكوراً كانوا او اناثا إلى بلاط الملك ليتأدبوا بأدبه ، وينالوا من كرامته ، حتى اذا بلغوا انكح بعضهم بعضا استئلافا لآبائهم . وكان لذريق عامل على سبتة من بر العدوة يسمى يليان ، وله ابنة فائقة الجمال ، فوجه بها الى دار لذريق على عادتهم في ذلك فوقع نظر لذريق عليها فأعجبته ، فاستكرهها على نفسها ، فاحتالت حتى اعلمت اباها بذلك سراً . فشق ذلك عليه وحلف ليزيلن سلطان لذريق ، ثم تلطف حتى اقتلع بنته من بيت لذريق ، ثم لم يلبث يليان ان كتب الى موسى ابن نصير امير افريقية من جهة الوليد بن عبد الملك يحرضه على غزو الأندلس وحثه على ذلك ووصف له حسنها وفوائدها ما دعاه الى ذلك وهوّن عليه امر فتحها ، فتوثق منه موسى ودعا مولى له كان على مقدّماته يقال له « طارق ابن زياد » فعقد له وبعثه اليها في سبعة آلاف ، وهيأ له يليان المراكب ...

في جماعة من أهل البلد يدلهم على العورات ويتجسس لهم الأخبار .

وبلغ الأمر رودريك « لذريق أو رزريق » ملك طليطلة فجمع جموعه والتقى بطارق في موضع يقال له البحيرة ، فانهزم رودريك . وسار طارق متبعاً لأصحابه الى مضيق الجزيرة فمدينة إستجة فلقيه أهلها ومعهم من المنهزمين خلق كثير ، فقاتلوه قتالاً شديداً ثم انهزموا . ونزل طارق على عين بينها وبين مدينة استجة أربعة أميال فسميت عين طارق ، ومن استجة فرق جيوشه على مدن الأندلس ، فوجه فرقة الى قرطبة ، وأخرى إلى رية ، وثالثة إلى غرناطة ، وسار هو في عظم الجيش يريد طليطلة ففتحت كلها وكذلك تدمير . وخلى طارق رجالاً من أصحابه وسلك الى وادي الحجارة واستقبل الجبل فقطعه من فج يسمى فج طارق . فكان فتح الاندلس يوم الاحد في الخامس من شوال سنة اثنتين وتسعين .

وكتب طارق الى موسى بالفتح والغنائم ، فحركته الغيرة وكتب الى طارق يأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يصل اليه .

استخلف موسى على القيروان — عاصمة ولايته المغربية — ولده عبدالله ونهض سنة ثلاث وتسعين ومعه حبيب بن منده الفهري في جيش غفير من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر ، قيل انه ١٨ الفاً فأتم موسى الفتح متوغلاً الى برشلونة في المشرق وأربونة في الجوف ، وصنم قادس في الغرب ، ثم أجمع أن يأتي الى المشرق من ناحية القسطنطينية ويتجاوز الى الشام ويخوض ما بينها من أمم الأعاجم مجاهداً إلى أن يلحق بدمشق دار الخلافة .

وبلغ ذلك الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب ورأى أن ما همّ به موسى غرر بالمسلمين ، فبعث اليه بالتوبيخ والانصراف وأسرّ الى سفيره أن يرجع بالمسلمين ان لم يرجع موسى عن عزمه ، فقفل لذلك موسى

عن الاندلس وولى عليها ابنه عبد العزيز وانزله بمدينة قرطبة وأتى القيروان سنة ٩٥ وارتحل الى الشرق سنة ٩٦ بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال ، وقدم على سليمان بن عبد الملك فسخطه ونكبه . . . .

أصبحت الجزيرة كلها في يد العرب إلا ولايات جبلية أهمها اشتوريش وقنطبرية ونوارة التي لقبها العرب بالصخرة فانها دافعت عن استقلالها ولم يهم العرب أمرها فخلوا عنها . فجعلت بلاجيوس ملكاً عليها ثم الفونس الاول الكاثوليكي من بعده فكانت هذه الصخرة الأساس الذي بنى الاسبان عليه ملكهم القومي أول فأول .

لقد أجملنا حكاية هذا الفتح فبقي علينا أن نذكر علله وأسبابه ، وفي رأينا أنها تنحصر في عوامل اربعة :

(١) العوامل الطبيعية . (٢) العوامل السياسية . (٣) العوامل الاقتصادية (٤) العوامل الدينية . ونحن نجملون هذه العوامل من وجهتيها : الايجابية والسلبية .

العوامل الطبيعية :

مجاورة الجزيرة الاندلسية لملك العرب في الغرب فلقد كان بين العدوتين مضيق لا يتجاوز عرضه في بعض المواضع اثني عشر ميلا « نحو ١٢ كيلومتراً » بحيث يرى أهل الجانبين بعضهم بعضاً ويتبينون زروعهم وبيادرهم .

انكشاف البلاد للعرب وسهولة اجتيازها .

هذا ما سهل الفتح ويسر نقل المقاتلة من العدوة الى الجزيرة .

العوامل السياسية :

توحيد أمر العرب ، وتنظيم القيادة ، واعتيادهم على الجهاد ، وعدل أمرائهم ، واشتهارهم بذلك . ومن الجهة الاخرى تضعضع حالة الاسبان

لانقسامهم بعضهم على بعض ، مقاطعة وقومية ، وتشتت آرائهم في انتخاب ملوكهم ، وقيام بعضهم من جراء ذلك على البعض الآخر ، وخراب البلاد بالحروب الأهلية وظلم أولي الأمر فيهم ، وسوء ادارتهم ، وإسرافهم في سفك الدماء ، واضطهاد اليهود واستباحة أموالهم وأرواحهم .

ظهر أثر هذه العوامل في تحريض نفر منهم العرب على فتح البلاد وفي ضعفهم عن مقاتلة العرب وفي التحاق قسم منهم بالفاتحين يدلونهم على عورات البلاد ، وقعود القسم الآخر عن مقاومة تذكر .

العوامل الاقتصادية :

جهل الاسبان استثمار أرضهم ، والمجاعة التي وقعت قبيل الفتح ، ونستطيع أن نضيف إلى ذلك الوباء الذي أصاب هذه الجزيرة في ذلك العهد فذهب بعدد عظيم من السكان قدروه بالنصف .

ثم رغبة العرب والبربر بما يجره الفتح من الكسب والغنائم .

العوامل الدينية :

انشقاق الاسبان بعضهم على بعض ديناً .

ثم رغبة المسلمين في نشر دينهم وما نفثه هذا الدين في صدورهم من الايمان بالقضاء والقدر .

هذا كله ساعد العرب على الفتح ، دع ما كان في صدور القواد من حب الشهرة . وهل وقف موسى طارقاً عن الفتح ، وعزمه على التوغل في بلاد الاعاجم الى القسطنطينية الا دليل على ذلك ؟

الحكم الاموي

يقسم الحكم الأموي في الأندلس الى ثلاثة عهود : الولاية — الامارة — الخلافة .

الولاية الاموية :

بدأت بالفتح سنة ٩٢ — ٩٣ وانتهت بإمارة عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٨ . وأول والٍ عليها عبد العزيز ، وليها لأبيه موسى بن نصير على ما تقدم ذكره ، فثار به العسكر وقتلوه لسنتين من ولايته .

وتتابعت ولاة الأمويين عليها تارة من قبل الخليفة بدمشق ، وطوراً من قبل عامله على القيروان . وكأن مقتل الوالي الاول فتح باب اللدد على مصراعيه ، فظلت هذه الولاية ومدتها ست واربعون سنة وبضعة أيام ، مضطرباً للنزاع والصدام ، قل ان استقام لوالٍ أمر ، أو طال له حكم ، حتى نيف عدد الولاة في هذه الفترة من الزمن على بضعة وعشرين والياً(١) .

---

(١) وهذه اسماؤهم مع اختلاف يسير في ترتيبهم :

	من سنة	الى سنة	مدة ولايته
عبد العزيز بن موسى	٩٥	٩٧	سنتان
ايوب بن حبيب اللخمي	٩٧		ستة اشهر
الحر بن عبد الرحمن بن عثمان		١٠٠	سنتان وثمانية اشهر
السمح بن مالك الخولاني	١٠٠	١٠٢	
الغمر بن عبد الرحمن بن عبد الله؟			من قبل اهلها
عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي			
عنبسة بن سحيم	١٠٣	١٠٧	اربع سنين واربعة اشهر « من قبل يزيد ابن ابي مسلم عامل افريقية »
عذرة بن عبد الله الفهري			
يحيى بن سلمة الكلبي	١٠٧	١١٠	سنتان وستة اشهر « من قبل بشر بن صفوان الكلبي عامل افريقية »
عثمان بن ابي نسعة الخثعمي اللخمي	١١٠	١١٠	خمسة اشهر « من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي صاحب افريقية »
حذيفة بن الاحوص التيمي	١١٠	١١١	سنة « من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي صاحب افريقية »
الهيثم بن عبيد الكلابي	١١١	١١٣	سنتان « من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي صاحب افريقية »

—

والسبب في ذلك مطامع الرؤساء ، وتضارب الأهواء ، ونزعة العرب إلى العصبية الجاهلية الاولى . فقامت القيسية واليمنية تتنازعان السلطان — والقيسية واليمنية حزبان كان لهما في تاريخنا الى أجل غير بعيد شأن خطير .

كان عامل الاندلس منقطعاً به في أقصى ثغور المسلمين ، بعيداً عن قلب الدولة ومادتها ، فكان لا بد له من عصبة تؤيده في ولايته ، وتحتفظ له بها ، ولا تكون هذه العصبة مخلصة ثابتة ، الا اذا كانت منه ، وكان منها في عصبية واحدة . ففزع كل والٍ من ولاة هذا العهد إلى عصبية القيسي إلى المضرية ، واليماني إلى اليمنية . والعصبية تقتضي الرجل أن ينصر أخاه ظالماً ومظلوماً ، فخرج الوالي عن أن يكون حاكماً عاماً ، وأصبح

	من سنة	الى سنة	مدة ولايته
— محمد بن عبد الله الأشجعي	١١٣	١١٣	شهران
عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي	١١٣	١١٤	سنة وثمانية اشهر « من قبل عبيد الله ابن الحجاب صاحب افريقية »
عبد الملك بن قطن الفهري	١١٤	١١٦	سنتان « من قبل عبيد الله بن الحجاب صاحب افريقية »
عقبة بن الحجاج السلولي	١١٦	١٢١	خمس سنين « من قبل عبيدالله بن الحجاب صاحب افريقية »
عبد الملك بن قطن الفهري	١٢١	١٢٤	« من قبل نفسه ثائراً »
بلج بن بشر	١٢٤	١٢٥	سنة
ثعلبة بن سلامة الجذامي ؟			سنتان
ابو الخطار حسام بن ضرار الكلبي	١٢٥	١٢٩	اربع سنين وتسعة اشهر « من قبل حنظلة ابن صفوان صاحب افريقية »
ثوابة بن سلامة	١٢٩		سنة « من قبل عبد الرحمن بن حبيب صاحب افريقية »
عبد الرحمن بن كثير			« من قبل اهلها »
يوسف بن عبد الرحمن الفهري			« من قبل اهلها »

زعيم عصبية ، يتصحب لذويه ، ويتحامل على أعدائهم . فكان من جراء ذلك أن انشقت الجماعة ، وهاجت الأحقاد ، وتقدمت الناس بأحزابها ، لا على أقدارها .

ومن طبيعة السياسة الحزبية أن تشتد معها العداوة ، وتستحكم البغضاء ، وأن يتربص كل فريق بصاحبه لوثبة يهتبلها منه ، فيُدال له عليه ، القيسي من اليمني ، واليمني من القيسي ، وكان الأمر بينهما دواليك . وهزُل الأمر حتى بلغ أن لا يكون للوالي حكم نافذ إلا على قومه ، الوالي القيسي يطيعه القيسيون ، وينحاز عنه اليمانيون ، واليماني يخضع له اليمنيون ، ويعصيه القيسيون . وزاد هذا الخلاف التياث أمر أمية بالمشرق ، وتضعضع أحوالهم فشغلوا عن قاصية الثغور ، بكثرة الخوارج . فبقي أهل الأندلس فوضى : فتن دائمة ، وولاية متداولة ، وحال لا تستقر من القلق . واتفق جند الأندلس آخر الأمر أن يجعلوا الولاية في القيسية واليمانية مداولة بين الجندين ، سنة لكل دولة . فقدم المضرية على أنفسهم سنة ١٢٩ يوسف ابن عبد الرحمن الفهري ، فاستتم ولايته بقرطبة . ثم وافته اليمانيـة لميعاد ادالتهم ، واثقين بمكان عهدهم وتراضيهم واتفاقهم ، فبيتهم يوسف في قرى قرطبة بممالأة القيسية وسائر المضرية فاستلحموهم ، وتمت الغلبة للقيسية في معظم أنحاء الجزيرة ، إلى أن كان من أمر عبد الرحمن ما نحن ذاكروه ،

لهذا ، ولما انبعث عن ذلك من تبدل الولاة ، ظلت الولاية الأموية في الأندلس متناقلة ، غير متوارثة بين الآباء والأبناء ، على ما وقع من ذلك في كثير من الولايات الأموية ، ولا سيما ما بعدت الشقة بينه وبين دار الخلافة كالأندلس .

شغلت هذه الفتن ولاة الأمويين عن الفتح فلم تنهض بهم همة اليه ، إلا ما كان من فتوح عبد العزيز بن موسى . ثم عقبة بن الحجاج السلولي

الذي جاهد مظفراً حتى بلغ سكى المسلمين في أيامه أربونة ، وصار رباطهم على نهر ردونة . والهيثم بن عبيد الكلابي غزا مقوشة فافتتحها .

والسمح بن مالك الخولاني نهض بالفتح إلى جنوبي فرنسا . وعنبسة بن سحيم مات — وقيل قتل — وهو على حصار تولوثة « تولوز » . وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي فتح قرقشونة ، ونيم ، وغيرهما من جنوبي فرنسا ، واستولى على أرل ، وليـــون ، وبزانسون وانتهى إلى تور . وعبد الملك بن قطن الفهري غزا البشنكش « البسكة » .

وأكثر هؤلاء كان جهادهم في العدو أقرب بنتيجته إلى الغزو منه إلى الفتح . ومن بقي من هؤلاء الولاة لم يذكر لهم غزو ولا فتح بل انشغلوا في أنفسهم ، وفي عصبياتهم ، وفي المجاحشة عن كراسيهم أو صحونهم عن لغة السياسة اليوم — عن المضي فيما كان يريده موسى بن نصير أو في بعضه .

ونحن وإن لم نكن ممن يستهوينا تبسط ذلك الفتح إلى أبعد مما وصل اليه ، بعد أن ضاع الفتح كله ثمرته ونواته .

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وبعد أن انتهت تلك الأقطار التي كانت تمد تلك الجزيرة إلى ما انتهت اليه . غير أنا نود لو هذبت حواشي ذلك الفتح بتطهير مخارمه ومفازعه ، فلعل ذلك كان يكون أحفظ للملك ، وأبقى عليه ، وهو ما نشير في موضعه اليه .

موقف الاسبان :

ويتساءل الانسان بعد أن صورنا له هذا العهد ، عما كان من أمر الاسبان أصحاب البلاد الأصليين ، وقد رأوا هؤلاء الذين سلبوهم ملكهم منشقة كلمتهم ، منقسمين أحزاباً يقاتل بعضهم بعضاً .

لقد كان فتح الاندلس أمراً خطيراً كان له دوي كبير ، فأصبح اسم العرب ملء الأسماع والأبصار ، فانصدعت من جراء ذلك قلوب الاسبان ، وصغرت نفوسهم عن مقاومة العرب أول الأمر ، فلم يشجعهم هذا الخلاف الذي نجم بين العرب عن منازلتهم وعهدهم بالفتح وببأس العرب قريب . وأخرى هي أن العرب كانوا في حكمهم أعدل من الاسبان ، فلم يكن ينال الاسبان الذين تفيأوا ظل الحكم الاسلامي وبقوا على نصرانيتهم ، شيء من الظلم الذي كان ينالهم أيام حكم امرائهم المسيحيين ، وللعدل روعة في النفوس وجلال ، حمل اولئك الاسبان الجبليين الذين اعتصموا بتلك الولايات الجبلية أن يتربصوا الى حين .

فلما كثر بين العرب الخلاف واستحكم أمره ، وكان قد مضى على الفتح ردح من الزمن ، أخذ الاسبان يتحيفون أطراف الملك العربي فتغلبوا على جزء من بلاد برشلونة ثم على برشلونة . وهذا الذي استخلصوه من العرب ان لم يكن شيئاً مذكوراً بالنسبة إلى الجزيرة ، فهو شيء كبير بنفسه . وأخرى أنه فتح على العرب باباً من مطامع الاسبان يدخلون منه إلى سائر أنحاء الجزيرة ، فيعيدونها إلى حيازتهم وهو ما قد كان .

الحضارة والعمران :

شجع عبد العزيز بن موسى الهجرة إلى الاندلس ، فوفد عليه الناس من الشام والعراق ومصر وغيرها ، فأقطع كل قبيلة ناحية . وازدحمت الاندلس بالعرب ، وكثر أهل الشام في قرطبة عند أبي الخطار حسام ابن ضرار الكلبي الوالي اليمني ، حتى لم تحملهم دار الولاية ففرقهم في البلاد . أنزل أهل دمشق البيرة لشبهها بها وسماها دمشق ، وأنزل أهل حمص اشبيلية وسماها حمص ، وأهل قنسرين وأهل الاردن رية ومالقة

وسماها الأردن ، وأهل فلسطين شدونة وهي شريش وسماها فلسطين ، وأنزل أهل مصر تدمير وسماها مصر .

وانتشرت اللغة العربية في الجزيرة بانتشار العرب أنفسهم فيها أولاً ، وبتغلبها على لغة البلاد بقوة الفتح ثانياً ، وأنشأ عبد العزيز بن موسى ديواناً للتوفيق بين الشريعة الاسلامية السمحة ، وقوانين أهل البلاد المفتوحة وعاداتهم ، رعاية للمصالح . ووضع السمح بن مالك الخولاني بأمر عمر ابن عبد العزيز نظاماً للأرض ، وبنى قنطرة قرطبة الشهيرة .

الإمارة الاموية :

مدتها مئة وسبع وسبعون سنة ، بدأت في العاشر من ذي الحجة من سنة ثماني وثلاثين بعد المئة « ٧٥٦ » بصقر قريش — عبد الرحمن الملقب بالداخل . وانتهت سنة خمس عشرة وثلاثمائة ، في عهد عبد الرحمن الناصر . فتعاقب على هذه الامارة بعد عبد الرحمن الداخل ، ابنه هشام الرضي — فابنه الحكم بن هشام — فابنه عبد الاوسط بن الحكم — فابنه محمد بن عبد الرحمن — فابنه المقتدر بن محمد — فأخوه عبد الله بن محمد — ثم حفيده عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله وهو ثامن الأمراء الأمويين وبه ختمت الامارة . فهو لما بلغه أن يونساً الخادم قتل المقتدر بالله العباسي بالمشرق ، أعلن خلافته وتسمى بأمير المؤمنين وضربت السكة باسمه .

عهد الإمارة :

هذا العهد هو خير العهود التي عرفتها الأندلس العربية فقد كان فاتحته عبد الرحمن الداخل ، وواسطته عبد الرحمن الاوسط ، وخاتمته عبد الرحمن الناصر : ثلاثة لا تدري أيهم أفضل من صاحبيه ، فكانوا رجال أمية بالغرب غير منازعين ولا مدافعين ، بل كانوا عرانين أمية عامة في المشرق والمغرب ، ومن رجالات الدهاء والحزم والسياسة في العرب .

عبد الرحمن الداخل

لما انقرضت الدولة الأموية بالشام ، وصار الأمر إلى بني العباس ، تتبعوا بقايا بني أمية ، ووضعوا فيهم السيف ، وفر من نجا منهم واستخفى . وكان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام إذ ذاك بذات الزيتون[1] ففر منها إلى فلسطين ، وأقام هو ومولاه بدر يتجسس الأخبار ، ويتنقل من موضع إلى موضع ، الى أن دخل بلاد الاندلس . وإليكم حديث خروجه من الشام يقصه بنفسه على مثال المذكرات السياسية اليوم . قال :

« لما أعطينا الأمان ثم نكس بنا بنهر أبي فطرس ، وأبيحت دماؤنا ، أتانا الخبر ، وكنت منتبذاً من الناس فرجعت إلى منزلي آيساً ، ونظرت فيما يصلحني وأهلي ، وخرجت خائفاً حتى صرت الى قرية على الفرات ذات شجر وغياض ، فبينا أنا ذات يوم وولدي سليمان يلعب بين يدي وهو يومئذ ابن أربع سنوات ، فخرج عني ثم دخل الى باب البيت فزعاً باكياً فتعلق بي ، فجعلت أدفعه وهو يتعلق بي ، فخرجت لأنظر ، وإذا بالخوف قد نزل بالقرية ، واذا الرايات السود منحطة عليها ، وأخ لي حديث السن يقول : النجاء فهذه رايات المسوّدة . فأخذت دنانير معي ، ونجوت بنفسي وأخي ، وأعلمت أخواتي بمتوجهي فأمرتهن أن يلحقني مولاي بدراً .

---

(١) لم اجد فيما عندي من الكتب ما يعرف منه موضع ذات الزيتون . وفي معجم البلدان الزيتونة موضع كان ينزله هشام بن عبد الملك في بادية الشام فلما عمر الرصافة انتقل اليها فكانت منزله الى ان مات ، فهل الزيتونة هي ذات الزيتون ؟ ان عبد الرحمن مات ابوه وهو صغير فكفله جده هشام صاحب الزيتونة ، فلعل للموضعين واحد ، فيكون عبد الرحمن قد لجأ الى موضع له سابق عهد فيه والله أعلم . او ان ذات الزيتون في جبل حوران المعروف اليوم بجبل الدروز .

وأحاطت الخيل بالقرية فلم يجدوا لي اثراً ، فأتيت رجلاً من معارفي ، وأمرته فاشترى لي دواب وما يصلحني ، فدلّ عليّ عبد له العاملَ فأقبل في خيله يطالبني ، فخرجنا على أرجلنا هراباً والخيل تبصرنا ، فدخلنا في بساتين على الفرات فسبقنا الخيل الى الفرات فسبحنا ، فأما انا فنجوت والخيل ينادوننا بالامان ولا أرجع ، واما اخي فانه عجز عن السباحة في نصف الفرات فرجع اليهم بالامان واخذوه فقتلوه ، وانا انظر اليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة . فاحتملت فيه ثكلاً ومضيت لوجهي فتواريت في غيضة أشبة ، حتى انقطع الطلب عني وخرجت فقصدت المغرب فبلغت افريقية ،

ثم ان اخته ام الاصبغ الحقته بدراً مولاه ومعه نفقة له وجوهر ، فلما علم به عامل افريقية وهو يومئذ عبد الرحمن بن حبيب بن ابي عبيدة الفهري ، لج في طلبه ، واشتد عليه ، فهرب منه فأتى مكناسة — وهم قبيل من البربر — فلقي عندهم شدة يطول ذكرها ، ثم هرب من عندهم فأتى نفزاوة — وهم اخواله — وبدر معه . قيل وخلص عبد الرحمن الى المغرب يحاول فيه ملكاً فلما أعياه الامر ورأى شدة عامله عبد الرحمن بن حبيب ، وما كان من فتكه بالعاص وعبد المؤمن ابني الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، رأى الاندلس أوسع لعمله ميداناً ، وأضمن منالاً لبعد الشقة ما بينها وبين بغداد : دار الخلافة العباسية ، ولما بين اهلها من تنافس وشقاق . فرمى بهمته اليها .

وجه عبد الرحمن مولاه بدراً الى من في الاندلس من موالي المروانيين وأتباعهم يدعوهم الى نفسه ، فاجتمع بهم ، وبثوا له في الاندلس دعوة ، ونشروا له ذكراً ، ووجهوا اليه مركباً مع وفد منهم وأبلغوه طاعتهم له ، ورجعوا به الى الاندلس .

جاز صقر قريش — وهو اللقب الذي أطلقه عليه عدوه وابن عمه المنصور العباسي — البحر الى الاندلس . وما لبث ان سار الى قرطبة فاتخذها له عاصمة ، ، وجعل يقاتل من نازعه ، ويقضي على من خالفه ،

وبعد قتال شديد ، وفتن متطاولة ، تمت له الغلبة على جميع من ناوأه : من عرب وإسبان ، وظهر على جيشي المغرب والفرنجة اللذين قاتلاه نصرة للعباسيين ، او بحجة النصرة لهم .

وناجته نفسه حيناً من الزمن بالزحف على بغداد ، وانتزاع الخلافة من العباسيين ، كما انتزعوها من قومه ، وهمَّ بذلك لولا ان شغله الاسبان والفرنجة ، والخارجون عليه ، يمدهم العباسيون بالمال والرجال .

والذي ساعد عبد الرحمن على أمره ، وأعانه على ما كان فيه من خلق الرئاسة الموروثة ، وأسبابها المكتسبة عوامل اربعة :

الاولُ : ما أنفذته اليه اخته من المال .

الثاني : أتباع الأمويين ومواليهم ، الذين كان يؤلمهم ان يذهب الملك من أصحابهم بني أمية ، لهوى لهم معهم ، او لعصبية كانت لهم فيهم .

الثالث : اليمانية المغاضبة التي تغلبت عليها القيسية فسلبتها حقها من الولاية ووترتها وتراً مضاضا .

الرابع : استعانته بالموالي والبربر الناقمين لاستئثار العرب دونهم بالحكم والرئاسة .

جمع عبد الرحمن هذه القوى اليه ، بدهائه ومضاء عزمه ، حتى تم امره ، وانقادت اليه الاندلس قاصيها ودانيها ، على شرتها وعرامها . وليس من شيء يدلك على اناة الرجل وسعة حيلته ، وصبره على ما يكره ، مثل ان يدعو للعباسيين على منابر بلاد غلب ولاتهم عليها ، بعد حروب حمي وطيسها ، وبعد ان كان من أفاعيل العباسيين بقومه ما يضيق عنه حلم الحليم . لم يقطع لبني العباس خطبة الا بعد ان تم له الاستقلال .

ولي عبد الرحمن الحكم ٣٢ سنة وكان فصيحاً لسناً ، عالماً شاعراً ، حليماً حازماً ، سريع النهضة في طلب الخارجين عليه ، لا يخلد الى راحة ، ولا يسكن الى دعة ، ولا يكل الامور الى غيره . شجاعاً مقداماً ، بعيد الغور ، شديد الحذر ، سخياً جواداً .

ومن شعره وقد نظر الى نخلة منفردة بالرصافة وقيل انه هو زارعها فقال :

تبدت لنا وسط الرُصافة نخلة	تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلتُ شبيهي في التغرب والنوى	وطول التنائي عن بنيَّ وعن أهلي
نشأت بأرض انت فيها غريبة	فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن من صوبها الذي	يسيح ويستمري السماكين بالوبل

ومن قوله يتشوق الى معاهده بالشام :

ايها الراكب الميمم أرضي	أقر من بعضي السلام لبعضي
ان جسمي كما علمت بارض	وفؤادي ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا	وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الله بالفراق علينا	فعسى باجتماعنا سوف يقضي

وخلف عبد الرحمن ابنه هشام بعهد منه اليه ، وكان هشام ذا رأي وشجاعة عادلاً ممدوحاً يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز – ويبث عيونه يتسقطون له شكاوى الناس ومظالمهم فيشكيهم ، غير ان اخويه سليمان وعبد الله شاقاه وخرجا عليه فقاتلهما حتى تغلب عليهما .

وشق عليه عصا الطاعة غيرهما ، منهم سعيد بن حسين الانصاري بطرطوشة ، ومطروح بن سليمان بن قيظان ببرشلونة ، وغيرهما في غيرها ، فغلبهم كلهم . وجاء بعد هشام ابنه الحكم سنة ١٨٠ فكانت مدة ولايته ستاً وعشرين سنة تعاظمت فيه الفتن وقام عليه ايضاً عماه ، سليمان وعبد الله ، صاحبا الفتنة ايام ابيه ، واستنصر عبد الله شارلمان ملك الفرنجة فكان اليه سريعاً . وهو الذي كان لا يني يعمل على ايقاد النار في بلاد المسلمين . وانتهى الامر بان تغلب الحكم على معظم المصاعب التي واجهته ، أوقع بأهل قرطبة ، وبأهل طليطلة ، وبأهل ماردة ، ورد غارات الفرنجة عن بلاده ، واعتدى عليهم بأشد مما اعتدوا عليه ، وفتك بهم فتك عزيز مقتدر . فعاد الامن الى نصابه .

وأحاديثه بالفتك وسفك الدماء طويلة مستفيضة . ومما يدل على نجدته وبطشه ، انه لما كثرت عليه الفتن الداخلية ، واشتغل بعصيان اهل ماردة طمع الفرنج في ثغور المسلمين فقصدوها بالغارة والقتل والنهب والسبي . فأتاه الخبر بشدة وطأتهم . وقيل ان العباس الشاعر كان قد مرّ بوادي الحجارة فسمع امرأة تقول : وا غوثاه بك يا حكم ! لقد أهملتنا على كلب العدو علينا ، فأيمنا وأيتمنا . فسألها عن شأنها فقالت : كنت مقبلة من البادية في رفقة ، فخرجت علينا خيل عدو فقتلت وأسرت . فنظم العباس قصيدة يعرضّ فيها بذلك وأنشدها الحكم وأخبره بأمر المرأة . فجهز الجيوش وخرج غازياً ، وقصد الناحية التي أقبلت منها تلك الخيل ، واتى بالأسرى فذبحهم بحضرة تلك المرأة وأهل بلدها . وقال للعباس قل لها : هل أغاثها الحكم ؟ فقالت لقد شفى الصدور ، ونكى العدو ، وأغاث الملهوف . فأغاثه الله ، واعز نصره . فارتاح لقولها وبدا السرور في وجهه وأنشد :

ألم تر يا عباس اني أجبتها	على البعد أقتاد الخميس المظفرا
فأدركت اوطاراً وبردت غلّة	ونفست مكروباً واغنيت معسرا

وعلى الجملة فقد كان عهد الحكم عهد فتن متصلة ، وفي ايامه كانت وقعة الربض فنسب اليها ، ووقعة الحفرة . وكان على صرامته وبطشه مستهتراً يميل الى اللهو والصيد ، ويؤثر مجالس المغنين والشعراء ، على مجالس العلماء والفقهاء ، وهو اول من استكثر من المماليك بالاندلس وأظهر فخامة الملك وأسرف في تأييد هيبته . ارتبط الخيل على شاطىء النهر قبلي قصره ، ألفي فرس . وبلغت مماليكه خمسة آلاف ، وكان يسميهم الخرس لعجمتهم . وتشبه بالجبابرة ، وكان يباشر الأمور بنفسه ، فأنكر عليه الفقهاء استهتاره واهاجوا العامة عليه ، فشدد هو عليهم ومنعهم ان يداخلوه في اموره ، ونكبهم وأجلى جمهوراً منهم عن الجزيرة .

وكان الحكم مع هذا عادلاً جواداً ، فصيحاً شاعراً ، يقرب اهل

الفضل ، ويؤاسي اهل الحاجات ، ويشبّه بأبي منصور في شدة الملك ، وتوطيد الدولة وقمع الاعداء .

ثم ولي الامر عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٠٦ فكانت مدته ثلاثين سنة . ولم تكن ولايته أقل اضطراباً وفتناً من ولاية ابيه الحكم . وكان هو لا يقل عنه بأساً وسطوة . صرف همه لاخماد الفتن داخل بلاده ، ورد غزوات الافرنج ، فكان منصوراً في أكثر الحروب التي كانت بينه وبين العرب ، وعماله ، والاسبان ، والافرنسيس ، والنرمنديين المعروفة غزواتهم عند العرب بغزوات المجوس . فتغلب على اعدائه كافة بعد جهد جاهد وقتال متطاول .

وكان عبد الرحمن أديباً شاعراً عالماً بالشريعة ، وغيرها من علوم الفلاسفة . وكثرت عنده الأموال فصرفها في العمارة .

واخذت الأمور بعد عبد الرحمن بالضعف ، فاضطرب الأمن ، ونجمت قرون الفتن في ثغور الأندلس ، واشتعلت الثورات في جوانبها ، حتى كادت تعمها فتلتهمها بجملتها ، لولا ان قيض الله لهذه الجزيرة عبد الرحمن الناصر ، ففقأ عين الثورة ، ونظم عقد الدولة ، وأعاد الجزيرة سيرتها الأولى ، أيام جديه : وسميّيه عبد الرحمن الاوسط ، وعبد الرحمن الداخل .

موقف الاسبان :

قوّت هذه الفتن من عزائم الاسبان ، وزاد في الأمر نصرة الافرنج لهم ، واستنصار بعض الامراء بهم ، فكثر اعتداؤهم على الاندلس العربية وعملوا على التدخل في سياستها الداخليه ، ينصرون الأمير الأموي على اخيه الأموي ، والعامل على أميره . وعلى الجملة فقد كانت نصرتهم للثورة على السلم ، وللفوضى على النظام .

فاسترجعوا من جراء ذلك قسماً كبيراً من ولاية قطالونية .

الحضارة والعمران :

لم يصرف عبد الرحمن ما عاناه من الفتن والحروب ، وتأسيس الملك ، عن اعمال الحضارة والعمران . فلقد أنشأ المدارس ، ودور الكتب ، شحنها بالمؤلفات النفيسة . وبنى الحدائق الغناء ، منها الرصافة تشبهاً بجده هشام الذي بنى الرُصافة بالشام . وبنى مسجد قرطبة الاعظم ، وكان معبداً للفيزقوط ملكه المسيحيون واخذ المسلمون نصفه . ولما شرع عبد الرحمن في بنائه ابتاع النصف الآخر ، (١) فعاجله الموت عن إتمامه .

وأطلق الحرية للنصارى بدينهم ، وكتب لهم عهداً بذلك ..

وأما هشام بن عبد الرحمن فقد أتم مسجد قرطبة الذي شرع فيه ابوه ، وبنى عدة مساجد غيره ، وجدد قنطرة قرطبة التي كان عقدها السمح الخولاني .

وجند الحكم الأجناد ، وجمع الاسلحة ، واستكثر من الحشم والحواشي .

واما عبد الرحمن الأوسط فقد كان عصره عصراً زاهياً زاهراً بالحضارة والعلم ، وبكل فن من فنون الأدب . وأحدث أشياء لم يكن للبلاد سابق عهد بها . شاد القصور الفخمة والمتنزهات ، وجاء اليها بالماء العذب من الجبال ، وبنى المدارس والجوامع الكثيرة ، ومهد الطرق ، ونظم الشوارع ، وأقام بها الجسور ، وجمع اليه ذوي الشهرة من شعراء العرب وذوي الفضل منهم .

واليه وفد زرآب المغني معلم ابراهيم الموصلي فأورث صناعة الغناء بالأندلس .

ويعترف الاوربيون انه لم يكن في زمانه دار ملكٍ كدار ملكه أبهةً ومجداً (٢) .

دمشق : سنة ١٩٢٩ .

---

(١) غرائب الغرب للاستاذ محمد كرد علي .

(٢) دائرة المعارف العربية للبستاني .

ثقافة المتنبي ومصادرها (1)

للأستاذ محمد سليم الجندي

في فاتحة القرن الرابع للهجرة ولد أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي في الكوفة وفيها نشأ وترعرع وشب ، وفيها تعلم وتثقف ، وفيها انبجست قريحته بالشعر ، فجوّده وأحكمه ، وفيها بلغ درجة الشعراء المفلقين .

ثم شاء القدر أن تنبو به وأن يجتويها ، فأجمع أمره على مفارقتها وضمّ جراميزه إليه ، ثم سار منها الى بلاد الشام ، فوضع فيها عصيّ الحاضر المتخيم ، وفيها غزر أدبه وحصف عقله ، و ظهرت مقلدات شعره ، فسطع نجمه ، وذاع صيته ، حتى ملأ الدنيا وشغل الناس .

وقد رزق أبو الطيب السعادة التامة في شعره ، وكتب له من الرواج في أبهاء الملوك والأمراء والوزراء وأعيان الأمة ورجالات العلم والأدب ما لم يكتب لغيره ، ونال شعره من سرعة الشيوع والانتشار في القاصية والدانية ما لم ينله شعر آخر ، حتى سارت به الركبان ، وأنست به السمار ، وعمرت مجالس العلم والأدب .

وطمع كثير من الطامعين في الشهرة الطامحين الى الخلود أن يخلد ذكرهم في شعره الخالد ، واستدعوه الى قصورهم ومقارّ عظمتهم وسلطانهم ، وبذلوا له في سبيل ذلك أموالاً عظيمة ، ومنهم من وعده أن يشاطره ماله ويغمره بالهبات والأعطيات ، فلبّى فريقاً وترفع عن إجابة آخرين .

وحسده الناس على فضله وأدبه وتفيسوا على ممدوحيه مدحه وكثر

---

(1) ألقيت في مهرجان المتنبي الذي اقامه المجمع العلمي العربي في تموز سنة ١٩٣٦ .

منتقدوه وعائبوه من حساده وممن ترفع عن مدحهم ومن أشياعهم ، وفي مقدمة هؤلاء الصاحب بن عباد في فارس والوزير المهلبي في بغداد وأبو الفضل بن خنزابة في مصر ، فان هؤلاء لم يدخروا وسعاً في الكيد له ، وإثارة الشعراء والعلماء والملوك عليه ، والبحث والتنقيب عن مساوئه هم وأشياعهم .

وتوفر العلماء والأدباء على دراسة شعره ، ورأى فريق منهم الحق في جانبه فتولى الانتصار له والردّ على خصومه الذين أرادوا أن يطمسوا نجوم السماء بأكفهم ويطفئوا نور الله بأفواههم ، فظهر من هذا وذاك ما كان في كلامه من الآيات المعجزة والروائع الباهرة ، واطلع عليها من قصر فهمه عن إدراكها ، فازدادوا إعجاباً بأدبه وحسداً لفضله وتنقيباً عن مساوئه ومثالبه ، وازداد الآخرون إظهاراً لمحاسنه ومناقبه .

وقلما وجد الباحث ناحيةً من نواحي هذا الشاعر الفذّ ، إلا وقد قتلها العلماء بحثاً وأشبعوها تمحيصاً وتحقيقاً ، ما خلا ثقافته ومصادرها فان حظها من ذلك قليل عند المتقدمين وأقل من القليل عند المتأخرين ، لا ينقع غلة ولا يشفي علة ، وهو على قلته محفوف من الغموض والشكوك بحجب مُصمتة لا تنفذ منها أشعة البحث ، محاط بحواجز من التناقض في الأقوال والتضارب في الآراء التي نقلها المتأخر عن المتقدم وطبع فيها الآخر على غِرار الأول من غير تمحيص ولا تدبر ، فكانت الحقيقة فيها أخفى من السهي وأغمض من السر في الضمير .

ثقافة المتنبي

مبدؤها ، منتهاها ، مكان كل منها

لقد تصدى كثير من العلماء والأدباء لذكر المتنبي وأطالوا القول في تنبئه ومدحه بجودة شعره ، وانتشاره واطلاعه على غير العربية وما شاكل ذلك

ولكن منهم من أعرض عن التصدي لثقافته ، ومنهم من أوجز فيها إيجازاً مخلاً .

وممن ذكره من هؤلاء ابن الأنباري في نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، والبديعي في الصبح المنبي ، والأصفهاني في إيضاح المشكل ، والثعالبي في يتيمة الدهر في نحو تسعين صفحة ، وابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ، وابن العماد في شذرات الذهب ، وابن خلكان في وفيات الأعيان ، والعثماني في معاهد التنصيص ، وابن نباتة في سرح العيون ، والبغدادي في خزانة الادب ، وأبو الفداء وابن الوردي في تاريخيهما ، وابن حجر في لسان الميزان ، والخطيب في تاريخ بغداد ، والعكبري في شرح ديوانه ، والواحدي كذلك .

وليس في كلام هؤلاء الاعلام ما ينير السبيل للباحث عن ثقافة المتنبي إلا وميض يسير نسير على ضوئه الضئيل في هذا المجهل القاتم ، وإن كان الجمع بين ما فيه من التناقض أشق من عقد شعيرة على الاجذم ، وأصعب من الجمع بين الماء والنار .

ويمكن أن يلخص كلام هؤلاء القوم ومن احتذى على مثالهم من بعدهم ، بأن فريقاً منهم زعم أن أبا الطيب وُلد في الكوفة وفيها ترعرع ، واختلف الى كتّاب فيه أولاد أشراف الكوفة ، فتعلم دروس العربية لغةً وشعراً وإعراباً ، وخرج الى البادية ، فصحب الاعراب ، وعاد بعد سنين بدوياً قحاً ، ونظر في أيام الناس ، وأكثر ملازمة الوراقين ، فكان علمه من دفاترهم ، وقال الشعر صبياً ، ووقع في صغره الى رجل بالكوفة من المتفلسفة يكنى أبا الفضل فهوّسه وأضله كما ضلّ .

وزعم فريق آخر أنه ، وإن كان كوفيَّ المولد ، شاميُّ المنشأ سافر به أبوه الى بلاد الشام وهو صبيّ ، فلم يزل ينقله من باديتها الى حضرها ومن مدرها الى وبرها ، ويسلمه الى المكاتب ، ويردده في القبائل ،

ويشتغل فيها في فنون الادب حتى مهر فيها وتضلع من علم اللغة ؛ وأنه تخرّج بها ومنها خرج نادرة الفلك .

ومنهم من جمع بين الامرين : تعلمه بالكوفة وتعلمه بالشام .

وفي هـذه الاقوال على تباينها شيء من الحقيقة ، ولكنه منتشر في تضاعيف الكلمات انتشار ذرات الذهب في معدنه بين التراب والصخر ، لا يتسنى أن يصاغ منها شيء من الحلي ، حتى ينخلها المعدّن ، ثم يحصلها وينقيها ، ثم يؤلف بينها ، ثم يصهرها ، ثم يفرغها بعد ذلك في القالب الذي يريده .

وهذا ما نريد معالجته في هذه الكلمة الموجزة في الوقت الموجز .

قد رأينا هؤلاء العلماء اتفقت كلمتهم على أنه ولد في الكوفة واختلفت في المكان الذي تثقف فيه ، وليس في أقوالهم ما يكشف القناع عن وجه الحقيقة الناصعة ، إذ لم يبين فيهـا ما درسه في الكتّاب من اللغة والشعر وغيرهما ، ولا ما هوّسه به أبو الفضل الضال المضل ، كما لم يبين من هم الاعراب الذين صحبهم ، والوراقون الذين لازمهم ، والعلماء الذين لزمهم في الكوفة أو في الشام ، ولا ما هو الذي أخذه عن كل منهم ، ولا ما تعلمه في مكاتب الشام ، ولا ، ولا .

وكل ما ذكروه مما أسلفنا ذكره وأمثاله مما ضربنا عنه الذكر صفحاً كلمات مجملة يقول مثلها المادح أو القادح ليقضي منهـا حاجة في نفسه ، ولكن الباحث الذي يتوخى البسط والابانة والتفصيل لا يستطيع أن يتخذها أساساً يقيم عليها صروح بحثه .

وقد يخيل إليّ أن أقرب شيء تسكن اليه النفس في هذا أن يقال : إن المتنبي درس في الكوفة اللغة ، وفيها تثقف وقال الشعر الجيد ، ولكن لم يشتهر كثيراً ، ثم خرج الى الشام سنة ٣٢١ ، وكان عمره إذ ذاك ثماني عشرة سنة ، فاطلع على ثقافة أهلها ، واجتمع بطائفة من علمائهـا

وأدبائها ، وتابع الدراسة ، فازدادت ثقافته وغزرت مادته واستحصد شعره وحصف عقله وشاع ذكره ونضج أدبه .

والدليل على هذا أمران ، الاول : أن المؤرخين رووا له أبياتاً قالها في صباه في المكتب وهي :

أبلى الهوى أسفاً يومَ النوى بدني وفرّق الهجر بين الجفن والوَسنِ
روحٌ تردّد في مثلِ الخلال إذا أطارت الريح عنه الثوب لم يبن
كفى بجسمي نحولاً انني رجلٌ لولا مخاطبتي إياك لم ترني

ورووا له قصيدةً مدح بها رجلاً يقال له أبو الفضل ، وقد أراد أن يستكشفه عن مذهبه ، ولا أعلم إن كان أبو الفضل هذا هو الذي هوّسه وأضله أم غيره ، يقول فيها متغزلاً :

غصن على نقوَى فلاة نابتٌ شمس النهار تقل ليلاً مظلما
لم تجمع الاضداد في متشابهٍ إلا لتجعلني لغرمي مغنما

ويقول مادحاً :

يا أيها الملك المصفى جوهراً من ذات ذي الملكوتِ أسمى من سما
نورٌ تظاهر فيك لاهوتيه فتكاد تعلم علمَ ما لن يعلما
كبر العيان علي حتى إنه صار اليقينُ من العيان توهما
يا من لجود يديه في أمواله نقم تعود على اليتامى أنعما

وذكروا له قصيدة قالها في صباه حين اجتاز برأس عين سنة ٣٢١ ، وذلك أن سيف الدولة أوقع بعمرو بن حابس من بني أسد وبني ضبة ورباح من تميم ، فمدحه بها ولم ينشده إياها ، فلما انفه دخلت في جملة المديح ، مطلعها :

ذكرُ الصبا ومراتع الآرامِ جلبت حِمامي قبل يوم حمامي
دمنٌ تكاثرت الهموم عليّ في عرصاتها كتكاثر اللوّام

وفيها يقول متغزلاً :

فكأن كلَّ سحابة وكفت بها تبكي بعيني عروةَ بن حزام
ليس القبابُ على الركاب وإنما هنَّ الحياة ترحلت بسلام
ليت الذي خلق النوى جعل الحصى لخفافهن مفاصلي وعظامي

ويتخلص الى المدح فيقول :

لم يتركوا لي صاحباً إلا الأسى وذميل ذِعلبة كفحل نعام
وتعذر الاحرار صير ظهرها إلا اليك عليَّ فرج حرام
أنت الغريبة في زمان أهله ولدت مكارمهم لغير تمام
ملكٌ زُهت بمكانه أيامه حتى افتخرن به على الايام
وتخاله سلب الورى أحلامهم من حلمه فهم بلا أحلام

ويقول فيمن عصوا الامير :

فتركتهم خلل البيوت كأنما غضبت رؤوسهم على الاجسام
أحجارُ ناسٍ فوق أرض من دمٍ ونجومُ بيضٍ في سماء قتام

ورووا له شعراً كثيراً قاله في صباه فيه من عيون الكلام وروائع الشعر ما يندر مثله في غير كلام الفحول .

وهذا الشعر المذكور وأمثاله شعر محكم التأليف مصقول الديباجة صحيح المعنى مشتمل على شيء من مصطلحات العلوم كجمع الأضداد في متشابه والغرم والمغنم والجوهر واللاهوتية والعيان واليقين والتوهم ونحوها ، وعلى الإشارة إلى رجل اشتهر في التاريخ بحبه وهو عروة بن حزام ، وعلى كثير من الطباق والجناس وغيره من صناعة البديع كالهوى والنوى والغرم والمغنم والنقم والأنعم ونحوها ، وعلى ضروب من المجاز اللطيف والتشبيه الرائع والكنايات الجميلة وما شاكل ذلك مما لا يتسنى لشاعر أن يأتي بمثله إلا بعد أن يمهر في الشعر ويحتنك .

ولئن كان فيما قاله المتنبي من الشعر بعد هذا ما هو أجود منه وأعلى فان كل شاعر لا يكون شعره في أول عهده بالشعر أعلى من شعره بعد أن يتمرس به عهداً طويلاً ولا تبلغ باكورة شعره في قريحة شبابه

ما يبلغه شعره بعد أن يزاول الشعر ويعالجه بعد أن ينضج أدبه ويستحصف عقله وتكمل ثقافته .

وبهذا يتضح لنا أن قول الثعالبي وابن خلكان ومن تتبع خطاها أنه قدم الشام صبياً وجال في أقطارها ودخل المكاتب وتخرج بها الخ .. قول لا يؤيده الواقع ولا تقره الحقيقة .

الأمر الثاني : ما رواه المؤرخون من أنه كان يصحب ديواني أبي تمام والبحتري حتى إنه لما قتل وجدا معه بخطه وعلى الحواشي علامة كل بيت أخذ معناه وسلخه ، وأنه كان له دفاتر كان يصحبها حيثما رحل وكان كثير الإشفاق عليها لأنه انتخبها وأحكمها قراءة وتصحيحاً ، وأنها وجدت معه حين قتل .

وهذا دليل صريح على أنه ما فارق الدراسة والمطالعة حتى فارق الحياة وكان فوق هـــذا يخالط جماعةً من الشعراء والأدباء والعلماء في بلاط سيف الدولة وغيره .

وهذا القدر كاف في الدلالة على أن المتنبي ابتدأ تثقفه وقوله الشعر الجيد في الكوفة وأتم الأمرين معاً في بلاد الشام ، ومنه يتبين لنا المكان الذي ابتدأت فيه ثقافته والمكان الذي تمت فيه .

تقسيم ثقافته ومصادرها

ومن المفيد أن نقسم ثقافة المتنبي إلى أقسام يتميز كل واحد منها من الآخر ليسهل ضبطه وتفرقته من غيره وإن كان بعضها مشتركاً مع غيره في بعض الوجوه ، ثم نبين مصدر كل منها بقدر ما سمحت لنا النصوص فهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام لغوية وأدبية وعلمية ولكل واحد من هـذه الأقسام الثلاثة مصدر مجهول ومصدر معلوم ؛ أما المصدر المجهول فتشترك فيه الأقسام الثلاثة على السواء ، وهذا المصدر لم يسعف البحث بمعرفته معرفة تكشف النقاب عن حقيقته ، وذلك ما تقدم ذكره من مثل دخوله الكتّاب في الكوفة والمكاتب في الشام « إذا صحّ ذلك » . وخروجه إلى

البادية وصحبته الأعراب وملازمته الوراقين ودفاتره ولزومه العلماء وبما شاكل هذا من المصادر المبهمة المجهولة التي لم يبين ما تعلمه وما أخذه من كل منها .

ولكل قسم مصدر آخر معلوم تحته أنواع متعددة أو مصادر أخرى معلومة يتميز بها من الاقسام الاخرى وقد يشارك غيره في بعضها .

ثقافته اللغوية :

من مصادرها كلام الشعراء الذين زعموا أنه أخذ معانيه منهم كامرىء القيس والنابغة وزهير وغيرهم ممن سيأتي ذكرهم في ثقافته الأدبية .

ومنها أنه وجد في أشعاره وأخباره ما يدل على تضلعه باللغة واطلاعه على أسرارها ودقائقها وغريبها اطلاعاً حمله على الاعجاب بنفسه والتمرد على بعض مذاهب النحاة ، واحتقاره مثل ابن خالويه في مجلس سيف الدولة ، وأبي الفرج الأصفهاني وغيره من الأدباء والعلماء في مجلس الوزير المهلبي ، وأبي علي الآمدي شيخ الجماعة في حضرة الوزير أبي الفضل بن حنزابة في مصر .

فما ورد في شعره قوله :

إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً ... مضى قبل أن تلقى عليه الجوازمُ

وقوله :

أمضى إرادته فسوف له قدٌ ... واستقرب الأقصى فثمَّ له هُنا

وقوله :

وكان ابنا عدوٍ كاثراه ... له ياءي حروف أُنيسيانِ

وقوله :

حولي بكل مكان منهم خلقٌ ... تخطي إذا جئت باستفهامها بمَنِ

ومما روي في أخباره : أن أبا علي الفارسي قال له يوماً : كم من الجموع على فِعلى ، فقال في الحال : حِجلى وظِربى . و حجلى جمع حجلة

أو اسم جمع لها لنوع من الطير وظربى جمع ظربان ، وهو دويبة شبه الكلب أصم الأذنين طويل الخرطوم أسود السراة أبيض الظهر كثير الفسو منتن الرائحة » . قال أبو علي : فطالعت كتب اللغة ثلاث ليال على أن أجد لهذين الجمعين ثالثاً فلم أجد . وقال في المتنبي : ما رأيت رجلاً مثله في معناه .

وأن الحاتمي لما ناظر المتنبي في بغداد ، سأله : ما الفرق بين التقديس والقَدَّاس والقادس ، فقال له المتنبي : أي شيء غرضك في هذه المذاكرة بل المهاترة ، ثم قال له : التقديس التطهير ولذلك سمي القدس قدساً لاشتماله على الذي يكون فيه الطهور وكل هذه الأحرف تؤول إليه ، فقال الحاتمي : ما أحسبك أمعنت النظر في كتب اللغة وعلوم العرب ولو تقدم منك مطالعة لها ما جمعت بين معاني هذه الكلمات مع تباينها لأن القدّاس حجر يلقى في البئر ليعلم غزارة ما فيه من قلته ، والقُدّاس يشبه الجمان يعمل من الفضة ، والقادس السفينة .

وإذا تأملنا جواب المتنبي على إيجازه وعلى أنه جواب على سؤال متعنت فوجىء به . تبين لنا أنه جواب عالم باللغة مطلع على أسرار وضعها واشتقاقها ، فإن علماء اللغة قالوا : القُدْس الطهر والبيت المقدّس لأنه يتطهر فيه من الذنوب ، والتقديس التطهير ، والقدوس الطاهر ، ونقدّس لك نطهر أنفسنا لك ، والأرض المقدّسة المطهرة ، وروح القدُس روح الطهارة أي خلق من طهارة ، ولا قدّست أمة لا طهرت ، والقدَس والقدْس قدح يتطهر به ، والقدس السطل لأنه يتطهر به ، ومن أسماء مكة قادس والمقدسة لانها تقدس من الذنوب أي تطهر ونحو ذلك ، ولا يضير المتنبي أن لا يعرف معنى القادس والقُدّاس والقَدّاس ، فإن كثيراً من أئمة اللغة توقفوا على معان لا يعرفونها وما عرف التاريخ رجلاً وعى صدره معاني اللغة كلها حتى العرب أنفسهم ، فإن قرشياً قال له ملك حمير « ثِبْ » فلم يفهم معناه بلغة حمير فوثب فمات ، وإن عمر بن الخطاب توقف في معنى الأب ؛ وان كثيراً من

أئمة اللغة جهلوا معاني بعض الكلمات وأخطأوا في تفسير بعض آخر . فالكسائي لم يفرق بين معنى عييت وأعييت حتى نبه الى ذلك ، عبيدة سئل عن أسماء أعضاء الفرس فتوقف وقال لست ببيطار . وكفى المتنبي فضيلة أنه لم يهرف بما لم يعرف ولم يجب بغير ما يثق بعلمه ، على أن ما ذكره الحاتمي في تفسير القدّاس لم أرَ من ذكره من أئمة اللغة ، وإنما قالوا : هو حجر يوضع في حوض الإبل أو وسطه اذا غمره الماء رويت الإبل ، أو يطرح فيه يقدّر عليه الماء يقتسمونه بينهم ، أو حصاة يقسم بها الماء في المفاوز .

والحاتمي إنما تطوع بمناظرة المتنبي ليظهر على أكتافه ، ويتحدث الناس أنه ظهر عليه وأفحمه ، ولينقع من ذلك غلة معز الدولة ووزيره المهلبي اللذين توقعا من المتنبي أن يمدحهما فترفع عن ذلك ، والحاتمي على صلفه وتعنته لم يستطع أن يجحد فضل أبي الطيب وتفوقه وتفرده ، فقد قال في رسالته التي ضمنها مناظرة المتنبي : فلما علوته بالكلام قال : يا هذا اللغة مسلمة لك ، فقلت : كيف تسلمها وأنت أبو عذرتها وأولى الناس بها وأعرفهم باشتقاقها والكلام على أفانينها ، وما أحد أولى بأن يسأل عن غريبها منك ؛ ثم قال في موضع آخر منها : ورأيت له حق التقدم في صنعته فطأطأت له كتفي .

هذه شهادة خصم لدود وعدو شديد للمتنبي « والفضل ما شهدت به الأعداء » .

وقال ابن خلكان فيه : إنه كان من المكثرين من نقل اللغة والمطلعين على غريبها وحوشيها ، وإنه لا يسأل عن شيء إلا واستشهد فيه بكلام العرب . وقال الاصبهاني في إيضاح المشكل : وجملة القول فيه أنه كان من حفّاظ اللغة ورواة الشعر ، وكل ما في كلامه من الغريب المصنف سوى حرف واحد هو في كتاب الجمهرة وهو قوله : « ... تطوى الجلحة العقد » ، وهذا من بيت وهو :

وأمضي كما يمضي السنان لطيتي وأطوي كما تطوي المجلحة العقدُ

يريد بالمجلحة الذئاب الجريئة الشديدة الماضية ، وأطوي من الطوى وهو الجوع ، والعقد جمع أعقد وهو الذي في ذنبه عُقد أي التواء ، وذئب أعقد معوجّ .

وقال أيضاً : كان المتنبي يغشى أبا الفضل بن العميد كل يوم ، وكان أبو الفضل يقرأ عليه ديوان اللغة الذي جمعه ويتعجب من حفظه وغزارة علمه .

وديوانه طافح بالأبيات والكلمات الدالة على غزارة مادته وسعة اطلاعه وأخباره مكتظة بالادلة على هذا .

وكان أبو الطيب فوق هذا صَنعاً ماهراً في صوغ الكلمات وتأليفها ، لبقاً بارعاً في تخير ما يلائم منها كل غرض ، حاذقاً في وضع كل كلمة في موضعها .

قال ابن فورّجة أو فوزّجة : قرأت على أبي العلاء المعري ، ومنزلته في الشعر ما قد علمه من كان ذا أدب ، فقلت له : ما ضرّ أبا الطيب لو كان قال مكان هذه الكلمة كلمة أخرى أوردتها ، فأبان لي عَوار (١) الكلمة التي ظننتها ، ثم قال : لا تظنن انك تقدر على إبدال كلمة واحدة من شعره بما هو خير منها فجرب إن كنت مرتاباً ، وها انا ذا أجرب هذا العهد فلم اقدر ، وليجرب من لم يصدق يجد الامر كما قلت . وشهادة ابي العلاء هذه تعدل شهادة أمة بأسرها او تزيد ، وإنما يقدرها حق قدرها من عرف من هو ابو العلاء ، وما هو في اللغة والادب والشعر ، وإن كانت لا تخلو من شيء من المبالغة التي سببها حب ابي العلاء المتنبي وتواضعه .

---

(١) العوار بالفتح العيب وقد يضم .

ثقافته الادبية :

ولثقافته الادبية غير ما سبق ذكره من المصادر مصادر أخرى منها اقوال الشعراء الذين زعم حساده انه اغار على معانيهم وسلخها ، ثم تصرف فيها بما شاء من زيادة ونقص وتوليد ونقض وقلب ، وهؤلاء الشعراء كثيرون منهم : امرؤ القيس ، والافوه الاودي ، والنابغة الذبياني ، وزهير ، والحصين بن الحمام المري ، وعنترة ، وذو الاصبع العدواني ، والاعشى الاكبر ، وعروة بن الورد ، وحاتم الطائي ، وربيعة بن مرداس ، وابو صخر الهذلي ، والمثقب ، وعروة بن عشبة ، والعوام بن عمرو ، واوس بن حجر ، وابو جويرية العبدي ، وخفاف بن غصن البرجمي ، وحطايط بن يعفر ، والحزين الدؤلي ، وقيس بن الخطيم ، وقيصر الاسد ، وعين بن مالك ، وعلاقة بن عربي ، ولبيد ، وإياس الكلابي ، ومعاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب ، وذؤيب بن كعب التميمي ، وعبد يغوث ، ومضرس بن ربعي ، والخادرة ، وجابر بن حباب ، وتأبط شراً ، وسويد ابن ابي كاهل ، وأمية بن ابي الصلت ، وخداش بن زهير ، وعنترة بن الاخرس ، وزياد العبدي ، وطرفة ، والنابغة الجعدي ، وحسان بن ثابت ، وعمرو بن معد يكرب ، والعباس بن مرداس ، والاهتم بن سنان ، وعلقمة بن اسوى ، وأحيحة بن الجلاح ، والفرزدق ، وجرير ، والاخطل ، وكثيّر ، والطرماح ، وعمر بن ابي ربيعة ، والراعي ، وذو الرمة ، وقيس ابن ذريح ، ويزيد بن الطثرية ، وعقيل بن غفلة ، والكميت ، والجلاح ، واعشى باهلة ، ونصر بن سيار ، وسالم بن وابصة ، ومتمم بن نويرة ، والبعيث ، والاعور الشني ، وعدي بن الرقاع ، والمؤرج بن عمر ، وابو العميثل ، والحطيئة ، وزياد الاعجم ، وعمران بن حطان ، وعبد الرحمن ابن دارة ، وعميرة بن جعيل ، وعمر بن الاهتم ، ورؤبة ، وعبد الله ابن الزبير الاسدي ، وثابت بن قطنة العتكي ، وعبد الله بن معاوية ، وابن الرقيات ، وهدبة بن الخشرم ، وزفر بن الحارث ، وابن هرمة ،

وبشار ، وحماد ، والعتابي ، وأبو العتاهية ، ومروان بن ابي حفصة ، وابو الشيص ، وأبو نواس ، وأبو تمام ، والبحتري ، وابن الرومي ، والعباس بن الأحنف وابن المعتز ، وأبو هفان ، وابن الخياط ، وعبد الله بن طاهر ، وأشجع السلمي ، وعلي بن جبلة ، وبكر بن النطاح ، والناشيء الأكبر ، وعبد الله بن محمد المهلبي ، وموسى بن جابر الحنفي ، وأبو دلف ، ومسلم بن الوليد ، وديك الجن ، ودعبل ، ومحمود الوراق ، وعلي بن الجهم ، ويعقوب بن الربيع ، ومحمد بن وهيب ، ومنصور النمري ، وأبو سعيد المخزومي ، وأبو عطاء السندي ، وأحمد بن أبي فنن ، والعتبي ، ومنصور الفقيه ، وابن المعذل ، والخليع ، وعلي بن الخليل ، والخبز أرزي ، والحمدوني ، وابن الناصر ، وخالد الكاتب ، والخزيمي ، وأحمد بن طاهر ، وسعيد بن حميد ، وأبو طاهر ، وابراهيم بن المهدي ، ويزيد المهلبي ، ويحيي بن زياد ، والسيد ، والخيم الراسي ، وصالح بن عبد القدوس ، وسلم الخاسر ، وحمزة بن بيض ، والطرمي ، وأبو حفص الشطرنجي ، وإسحاق بن خلف ، والناجم ، ومنصور بن بسام .

وكثير من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين والمولدين ممن سموا وممن لم يسموا .

زعموا أن أبا الطيب أغار على معانيهم فانتزعها ، أو أغار على من أغار عليها فانتزعها منه .

ومن مصادر ثقافته الأدبية أقوال الحكماء ، فقد زعم فريق من المولعين بالإغراب من شراح ديوانه وغيرهم ، أنه أخذ كثيراً من معاني الحكماء وجعلها في شعره ، وذلك مثل قوله :

وإذا كانت النفوسُ كباراً تعبتْ في مرادها الأجسامُ

قالوا : إنه أخذه من كلام أرسطاطاليس : إذا كانت الشهوة فوق القدرة كان هلاك الجسم دون بلوغ الشهوة . وقوله :

أرى أناساً ومحصولي على غنمٍ وذكر جودٍ ومحصولي على الكلمِ

من قول الحكيم : من كانت همته الأكل والشرب والنكاح فهو بطبع البهائم ، لأنا نعلم أنها متى خُلي بينها وبين ما تريده لم تفعل شيئاً غير ذلك . وقوله :

وربّ مالٍ فقيراً من مروته لم يثر منها كما أثرى من العدمِ

من قول الحكيم : من أثرى من العدم افتقر من الكرم ، وقوله :

وشبه الشيء منجذبٌ إليه وأشبهنا بدنيانا الطغامُ

من كلام الحكيم : الأشكال لاحقة بأشكالها ، كما أن الأضداد مباينة لأضدادها . وقوله :

ذلٌ من يغبط الذليل بعيشٍ رُبَ عيش أخف منه الحِمامُ

من كلام الحكيم : إذا لم تنصرف النفوس في شهواتها : فحياتها موت ووجودها عدم . وقوله :

كل حلمٍ أتى بغير اقتدارٍ حجةٌ لاجئٌ إليها اللئامُ

من كلام الحكيم : الفرق بين الحلم والعجز أن الحلم لا يكون إلا عن قدرة ، والعجز لا يكون إلا عن ضعف . وقوله :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعمُ

من كلام الحكيم : العاقل لا يساكن شهوة الطبع لعلمه بزوالها ، والجاهل يظن أنها خالدة وهو باقٍ عليها ، فهذا يشقى بعلمه وهذا ينعم بجهله . وقوله :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراقَ على جوانبه الدمُ

من كلام الحكيم : الصبر على مضض الرياسة ينال به شرف النفاسة . وقوله

الظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفةٍ فلعلة لا يظلمُ

من كلام الحكيم : الظلم من طبع النفس ، وإنما يصدها عن ذلك إحدى علتين : إما علة دينية أو علة سياسية كخوف الانتقام . وقوله :

هوّن على بصرٍ ما شق منظره فانما يقظات العين كالحلمِ

من كلام الحكيم : كرور الأيام أحلام ، وغذاؤها أسقام وآلام . وقوله :

سبحان خالق نفسي كيف لذّتها فيما النفوس تراه غاية الألمِ

من قول الحكيم : النفس الشريفة ترى الموت بقاء لدركها أماكن البقاء ، وهذه حاله تعجز الخلق عن ركوبها . وقوله :

كثير حياة المرء مثل قليلها يزول وباقي عمره مثل ذاهبِ

من قول الحكيم : آخر حركات الفلك كأوائلها ، وناشىء العالم كلاشيء في الحقيقة لا في الحس . وقوله :

فهذه الأرواح من جوّه وهذه الأجساد من تربه

من قول الحكيم : اللطائف سماوية والكثائف أرضية ، وكل عنصر عائد الى عنصره . وقوله :

تبخل أيدينا بأرواحنا على زمانٍ هنّ من كسبه

من قول الحكيم : إذا كان تناشؤ الأرواح من كرور الأيام فمالنا نعاف رجوعها الى أماكنها . وقوله :

وغاية المفرط في سلمه كغاية المفرط في حربه

من قول الحكيم : آخر إفراط التوقي أول موارد الخوف . وقوله :

أرى كلنا يبغي الحياة بسعيه حريصاً عليها مستهاماً بها صبّا

فحب الجبان النفس أورده البقا وحب الشجاع النفس أورده الحربا

من قول الحكيم : النفس المتجوهرة تأبى مقارنة الذل جداً وترى فناءها في طلب العز حياتها ، والنفس الدنية بضدّ ذلك . وقوله :

إلف هذا الهواء أوقع في الأنـــــفس أن الحِمام مرّ المذاقِ

من قول الحكيم : النفوس البهيمية تألف مساكنة الأجساد الترابية ، فلذلك تصعب عليها مفارقة أجسامها ، والنفوس الصافية بضد ذلك .

وأمثال هذا كثير في شعره ، مما زعموا أنه اقتبسه من كلام الحكماء بين حكيم معلوم سمي وبين حكيم مجهول لم يسمَّ .

ولو استطاع خصومه لنسبوا كل جيد من معانيه الى غيره من الشعراء والحكماء ، وإذا صحّ كل ما قيل فأبو الطيب أوسع الشعراء اطلاعاً على

كلام الفحول من حكماء وشعراء ، وأبصرهم بالمعاني الجيدة ، وأبرعهم في انتقائها ، وأقدرهم على التصرف بها زيادة ونقصاً وتوليداً وقلباً ، وأحذقهم صوغاً وتأليفاً .

وقد شهد له فريق كبير من خصومه بتفوقه في مواطن كثيرة على من زعموا أنه أخذ منه في قوة السبك ، وروعة الألفاظ ، وجمال المعاني . ولو ادعى مدعٍ أن هذا الحكيم المعلوم أو المجهول خلقه حساد المتنبي ونسبوا إليه تلك الأقوال ليسلبوه محاسنه ، لكان ذلك غير بعيد ، ولشهد له ما في أقوال أولئك الحكماء من الركاكة في التأليف ، والتقصير عن الإحاطة بالمعنى ، وإن جاء بعضها مسجعاً .

ومن أمعن النظر في كلام أبي الطيب ، وكلام ذلك الحكيم يتضح له في مواضع متعدّدة أن لا علاقة بين الكلامين إلا من حيث اشتراكها ببعض الألفاظ أو بطرف من المعنى ، وأن المعنى في شعر أبي الطيب أجل وأتمّ منه في كلام الحكيم ، والشواهد على هذا كثيرة ، منها قوله :

كلما أنبت الزمان قناةً ركب المرء في القناة سنانا

قالوا : إنه من قول الحكيم : من صحة السياسة أن يكون الانسان كلما ظهرت سنة عمل بها بحسب السياسة .

وعند التأمل لا يجد الباحث بين الكلامين رَحماً واشجةً ، ولا نسباً جامعاً ، ولا رابطةً بينهما إلا تعلق كل منها بعمل الانسان ، ولكن هذا العمل مختلف في كليهما جدّ الاختلاف من حيث الغاية والقصد والسبب والعلة . وكذلك قوله :

دعِ النفس تأخذ وُسعها قبل بينها فمفترقٌ جاران دارهما العمرُ

قالوا : إنه منقول من قول الحكيم : مَن قصر عن أخذ لذاته عدمها وعدم صحة جسمه .

والفرق بين المعنيين من حيث الصحة والجمال كالفرق بين اللفظين من حيث البلاغة وقوة الأسر ، وصفاء الديباجة ؛ فان المتنبي يقول : أعط

نفسك حظها قبل أن تموت ، فان الحياة لا تدوم . والحكيم يقول : لا تقصر عن أخذ لذتك فانك تعدم تلك اللذة وتعدم صحة جسمك . ولا علاقة لأحد هذين المعنيين بالآخر إلا من جهة الحض على التمتع باللذة ، ولكن علة ذلك مختلفة في كليهما ، والأمر المترتب على المخالفة مختلف فيها أيضاً .

وهذا شأن أكثر الأبيات التي زعموا أنه أخذها من قول الحكماء ، وكثير من الأبيات التي ادعوا أنه سلخها من معاني الشعراء ، كقوله :

حسان التثني ينقش الوشي مثله   إذا مسن في أجسامهن النواعم

قالوا إنه من كلام امرىء القيس :

من القاصرات الطرف لو دب محول   من الذر فوق الإتب منها لأثرا

وقد رأيت نحواً من ثلاثين شاعراً بين امرىء القيس والمتنبي أخذوا هذا المعنى ولم يستطع أحد أن يجود فيه بعد صاحبه مثل المتنبي ، وكذلك قوله :

له عسكرا خيل وطير إذا رمى   بها عسكراً لم يبق إلا جماجمه
سحاب من العقبان يزحف تحتها   سحاب اذا استسقت سقتها صوارمه

وقوله في وصف جيش :

تمر عليه الشمس وهي ضعيفة   تطالعه من بين ريش القشاعم
اذا ضوؤها لاقى من الطير فرجة   تدور فوق البيض مثل الدراهم

قالوا إنه من قول أبي تمام :

وقد ظللت عقبان راياته ضحى   بعقبان طير في الدماء نواهل
أقامت مع الرايات حتى كأنها   من الجيش إلا أنها لم تقاتل

وأصل هذا المعنى للأفوه الأودي أخذه منه النابغة الذبياني فزاد فيه زيادة حسنة ثم تتابع عليه شعراء كثيرون مثل أبي نواس ومسلم بن الوليد وغيرهما ثم جاء أبو تمام فزاد فيه ما زاده حسناً وجاء المتنبي فزاد فيه زيادة حسنة ولم يأخذ معنى أبي تمام كله بل وافقه في أصل المعنى المأخوذ

عن النابغة والأفوه ثم فارقه في بقية المعنى وهو على غاية من الجودة ، ورحمة الله التي وسعت طائفة كبيرة من الشعراء الذين ألموا بهذا المعنى ولم يؤاخذوا به لا تضيق عن أبي الطيب .

وكان ابو الطيب سئل مرة عن اتفاق الخواطر فقال : الشعر ميدان والشعراء فرسان فربما اتفق توارد الخاطر كما يقع الحافر على الحافر . وهذا مما لا ريب فيه فانا قد نرى شاعراً وافق غيره في معنى من غير أن يطلع على شعره ، ونرى أيضاً شاعراً أعجمياً قد يوافق شاعراً عربياً وبالعكس من غير أن يعلم أحدهما لغة الآخر فضلاً عن أن يطلع على شعره ويقتبس من معناه .

وليس القصد من كلامنا هذا أن نبرىء المتنبي من السرقة للمعاني ، وانما نريد أن نبين أن كل ما نسب اليه من ذلك غير صحيح ، وأن دعوى خصومه مبالغ فيها ، وأن غيره شاركه في مثل هذا ولكن لم يكن له من الخصوم والمنتقدين ما كان للمتنبي .

وبعد كل ما تقدم فاننا لا ننكر أن المتنبي كان كما قال الخالديان كثير الرواية جيد النقد ، وقد أسلفنا قول ابن خلكان : إنه كان من المكثرين من نقل اللغة والمطلعين على غريبها وأنه لا يسأل عن شيء إلا استشهد فيه بكلام العرب ؛ ولكننا ننكر أن يكون كل معانيه أو جلها مأخوذاً من غيره .

وأغرب من كل ما سبق ذكره ما ذكره بعض خصومه المتعنتين المنقبين عن سرقاته : وهو أن قصاراً كان يعمل على شاطىء النهر وكان يرى كل يوم كركياً يجيء فيلتقط من الحمأة دوداً ويقتصر في القوت عليه ، ثم رأى الكركي يوماً صقراً ارتفع في الجو وانقض على حمامة فاصطادها وأكلها ، فقال الكركي : مالي لا أصطاد الطيور كما يصطاد هذا الصقر وأنا أكبر منه جسماً ثم ارتفع في الجو وانقض على حمامة فأخطأها وسقط في الحمأة فتلطخ رأسه وتلطخ ريشه ، ولم يمكنه أن يطير

فأخذه الصياد ورجع إلى منزله فاستقبله رجل فقال ما هذا فقال : كركي يتصقر ، فسمع المتنبي هذه الحكاية فأخذ منها معنى قوله :

ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

وهذا البيت من قصيدة قالهـــا حين هرب من مصر ووصل إلى الكوفة مطلعها :

الا كل ماشية الخيزلى فدا كل ماشية الهيدبى

يصف فيها رحلته ما بينها ولا نعلم في أي موضع سمع هذه الحكاية ، وقد كان فاراً من كافور يختبىء في مكان بعد آخر وليس يصحبه غير غلمانه ، فمن قص عليه ذلك ومن رواه عنه ؟ .

وهذا يؤيد ما قلناه أن خصومه لو استطاعوا لنسبوا كل معنى جيد في شعره إلى غيره ، ولذلك قال ابن نباتة في سرح العيون : وهـذا من نوادر المنقبين على سرقات المتنبي ، ومن نادر التعصب على هـذا الرجل الفاضل المحسود .

ثقافته العلمية ومصادرها :

وأما ثقافته العلمية فهي أشد غموضاً من سابقتيها وأخفى طريقاً وأقل عناية في كلام المتقدمين .

وقد كان أبو الطيب في عصر زخرت فيه بحور العلم وانتشرت كتب الفلسفة وفشت فيه آراء الحكماء والفلاسفة والزنادقة ، وأصحاب الأهواء والنحل بين طبقات العامة والخاصة .

ومن استقرى كلامه ، وجد فيه كثيراً من الآراء والمنازع الفلسفية والالمام إلى بعض المذاهب ، وما يعتقده بعض الفرق في الأفلاك العلوية ونحو ذلك كقوله :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجب والخلف في الشجب
فقيل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب

ومن تفكر في الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعبِ

فان فيه إشارة إلى اختلاف الكلمة في فناء الجسم والروح معاً ، أو في فناء الجسم وحده ، وكلاهما قول لبعض الحكماء ، وأبو الطيب وقف بين العجز والتعب ولم يصرح بما ارتضاه من القولين على ما في كلامه من احتمال وقبول للتأويل .

وقوله من قصيدة يعزي بها عضد الدولة بعمته :

نحن بنو الموتى فما بالنا نعاف ما لا بد من شربهِ
تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هن من كسبه
فهذه الأرواح من جوه وهذه الأجسام من تربه

فان فيه إشارة إلى مذهب القائلين ان الروح جوهر لطيف يصعد إلى الجو بعد مفارقة الجسم ، وإن الجسم جوهر كثيف يعود إلى عنصره الأول ، ويصلح أن يكون فيه إشارة إلى مذهب القائلين أن المادة تبق ولا تفنى .

وقوله في هجو كافور :

ألا فتى يورد الهندي هامته كيما تزول شكوك الناس والتهمُ
فإنه حجةٌ يؤذي القلوب بها من دينه الدهر والتعطيل والقدم

فإن فيه إشارة إلى مذهب الدهرية القائلين إن العالم موجود أزلاً وأبداً لا صانع له ، والمعطلة القائلين إن العالم فارغ عن صانع أتقنه وزينه .
وقوله في مدح كافور :

وكم لظلام الليل عندك من يدٍ تخبر أن المانوية تكذبُ

فان فيه إشارة إلى مذهب المانوية القائلين إن مبدأ هذا العالم كونان أحدهما نور والآخر ظلمة ، وإن الخير من النور والشر من الظلمة .

وقوله من قصيدة يمدح بها طاهر العلوي :

إذا علوي لم يكن مثل طاهرٍ فما هو إلا حجةٌ للنواصبِ

فان فيه إشارة إلى فرقة يقال لهـــا الناصبية وهي تدين ببغضة علي بن أبي طالب .

وقوله :

تهوّن على بصرٍ ما شق منظره   فإنما يقظات العين كالحلم

فان فيه إشارة إلى مذهب السوفسطائية المنكرين لحقائق الأشياء ، وقد استدل فريق بهـذا البيت على أن المتنبي كان يعتقد هذا المذهب كما استدل آخرون بقوله :

تمتع من سهاد أو رقادٍ   ولا تأمل كرى تحت الرجام

فان لثالث الحالين معنىً   سوى معنى انتباهك والمنام

على أنه كان يدين بالتناسخ الذي يقول أصحابه إن الروح تنتقل من جسم إلى آخر مكافأة لصاحبه على خير قدمه ، أو مجازاة على شر اجترمه . وقوله :

يقولون تأثير الكواكب في الورى   فما باله تأثيره في الكواكبِ

وقوله :

وقد زعموا أن النجوم خوالدٌ   ولو حاربته ناح فيها الثواكلُ

وقوله :

فتباً لدين عبيد النجوم   ومن يدعي أنهـا تعقلُ

فان في هـذه الأبيات الثلاثة إشارة إلى مذاهب بعض الحكماء وما يعتقدونه في الكواكب العلوية من تأثير في عالم الأرض ، وقد يستلزم الخلود لها ، وإثبات العقل لهـا وإشارة إلى أن كلمة القوم لم تتفق على ذلك ، وان لكل معتقد من يخالفه ، ولهذا عبر بكلمات : يقولون وزعموا ، ومن يدعي ، ولم يبين رأيه في ذلك ، ولكن التعبير بالكلمات السابقة يدل على أنه لا يشايع هذه الفرق في اعتقادها هذا .

ووقع في شعره ذكر رجال من الحكماء المشهورين في مثل قوله :

يموت راعي الضأن في جهله   ميتـة جالينوس في طبه

وقوله :

من مخبر الأعراب أني بعدهم شاهدت رسطاليس والإسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكاً متبدياً متحضرا

وقوله :

إذا داء هفا بقراط عنه فلم يعرف لصاحبه ضريبُ

وربما جرى على طريقة الحكماء في الاستدلال والتعليل كقوله :

إذا غامرت في شرفٍ مرومِ فلا تقنع بما دون النجومِ
فطعم الموت في أمرٍ حقيرٍ كطعم الموت في أمرٍ عظيمِ

وقوله :

وإذا لم يكن من الموت بدٌّ فمن العجز أن تكون جبانا

وقوله :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ

ومن تتبع كلام أبي الطيب بإمعان ، وجد فيه كثيراً من الآراء والمنازع الفلسفية ، مما يدل على أنه كان مطلعاً على شيء من هذا العلم عارفاً بأخبار رجاله ، وما اشتهر به كل منهم من الخصائص ، عارفاً بمذاهبهم واختلافهم في فناء الروح والجسم وبقائها وبما يعتقده فريق منهم في النجوم وما شاكل ذلك .

ولكنه لا يجد فيه كلَّ نوع من أنواع الفلسفة العلمية والعملية ، بل لا يكاد يجد للفلسفة الطبيعية والرياضية والالهية إلا أثراً ضئيلاً يتراءى في الأبيات المتقدمة وأشباهها . ومثل هذا القدر يجوز أن يكون شائع فيه الحكماء بعد أن اطلع على أقوالهم أو سمعها ، ولكنه لا يدلُّ على أنه درس هذا العلم درساً وافياً واتخذ لنفسه فيه طريقاً اختصَّ به كما يفعله الراسخون في هذا العلم .

فلم يبق من الأقسام التي برع فيها براعةً فائقة إلاَّ طرفٌ من الفلسفة العملية وأكثره مما يتصل بالأخلاق ، وليس له فيه نظريات يثبتها

بالبراهين وآراء يدعمها بالأدلة وإنما هي جملٌ محكمةٌ رائعةٌ بليغة ينطق بمثلها الحكماء إذا تصدّوا للبحث في الأخلاق وإن كان كلامهم أدنى في باب البلاغة من كلامه .

وليست حكمته كلها مقتبسة من كلام الحكماء ولا كلها خطرات نفسية ، وإنما هي مزيجٌ مما اقتبسه من غيره ومما هدّته اليه فطرتُه وأرشدته إليه تجاربُه .

ولعلّ أعظمَ مصدر لحكمته هذه هو حياته لأنه تعاقبت عليه أطوارٌ من الحياة مختلفةُ الأشكال من سعادةٍ وشقاء وفاقةٍ ورخاء وروعةٍ وأمن وقد جرب الناس وذاقهم وأكلهم ، ودرس الحياة درساً دقيقاً وافياً واستقصى كثيراً من سجايا الناس وطباعهم ونعى عليهم كثيراً منها ، وقد كان جيد النقد دقيق الحس شديد الطموح إلى الإمارة شديد الاعتداد بنفسه عظيم الاعجاب بشعره محباً للمال حباً جماً متبذلاً في سبيله مفتوناً بالقوة منذ الحداثة كثير التغني بها فأثرت هذه العوامل المختلفة في نفسه وكان من أثرها ما تمثله أبياته في الحكمة كقوله :

أذم إلى أهل الزمان أهيله   فأعلمهم فدمٌ وأحزمهم وغدٌ
وأكرمهم كلبٌ وأبصرهم عمٍ   وأسهدهم فهدٌ وأشجعهم قِردٌ

وقوله :

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى   عدوّاً له ما من صداقته بدٌّ

وقوله :

وإنما نحنُ في جيلٍ سواسيةٍ   شرٍّ على الحرّ من سقمٍ على بدنِ

وقوله :

إنما أنفس الأنيس سباعٌ   يتفارسن جهرةً واغتيالا
من أطاق التماس شيءٍ غلاباً   واغتصاباً لم يلتمسه سؤالا
كلُّ غادٍ لحاجةٍ يتمنى   أن يكون الغضنفر الرئبالا

وقوله :

كلُّ حلمٍ أتى بغير اقتدارٍ   حجةٌ لاجئٌ اليها اللئامُ

وقوله :

عشْ عزيزاً أومت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

فرؤوسُ الرّماح أذهب للغيـــظ وأشفى لغِلِّ صدر الحسود

فاطلب العزَّ في لظى وذرِ الـــذلَّ وإن كان في جنان الخلود

يقتل العاجزُ الجبانُ وقد يعـــجز عن قطع بخنق المولود

ويُوقى الفتى المخشُّ وقد خوّض في ماء لبة الصنديد

وقد يجد الباحث في شعره غير ما تقـدم كثيراً من الاشارات إلى المصطلحات الفقهية كقوله :

وأخٍ لنا بعث الطلاق أليةً لأعللنَّ بهذه الخرطوم

فجعلت ردي عرسه كفارةً في شربها وشربت غير أثيم

وقوله :

إذا ما فارقتني غسلتني كأنا عاكفان على حرام

وقوله :

شيخٌ يرى الصلوات الخمس نافلةً ويستحلُّ دمَ الحجاج في الحرم

وقوله :

وزارك بي دون الملوك تحرّجي إذا عنَّ بحرٌ لم يجز لي التيممُ

وكذلك يجد كثيراً من أسماء الأمم والقبائل والرجال الذين اشتهروا في التاريخ بحوادث معروفة كقوله :

فكأن كل سحابةٍ وكفت بها تبكي بعيني عروة بن حزامِ

وقوله :

لو كان صادف رأسَ عازرَ سيفُهُ في يوم معركةٍ لأعيا عيسى

ويجد كثيراً من أسماء الأماكن من أوديةٍ وجبالٍ وهضباتٍ وأنهارٍ ومياهٍ وقرى وأمصار كما يتمثل ذلك في قصيدة قالها عنـد رجوعه من مصر ووصوله إلى الكوفة وغيرها .

ويجد كثيراً من أسماء الكواكب وما يتعلق بطلوعها وغروبها من الحوادث المزعومة كقوله :

وتنكرموتهم وأنا سهيلٌ طلعت بموت أولاد الزناء

وقوله :

أحبك يا بدر الزمان وشمسه وإن لامني فيك السُّهى والفراقدُ

وهذا وأمثاله يدل على أن أبا الطيب كان عارفاً بعلوم الدين عالماً بأيام الناس وأخبارهم واسع الاطلاع على التاريخ وعلى تقويم البلدان عالماً بكثيرٍ من الأمكنة وما يتصل بها من حوادث ملماً بمعرفة الأفلاك وما يرتبط بها مما كان يعتقده أهلُ عصره .

ولولا خشية الاطالة لأوردنا أمثلةً متعددة تدل على علو كعبه في كل ما تقدم .

ولعل في هذا القدر ما يبين أن المتنبي وُلد ونشأ وشب ودرس وقال الشعر الجيد في الكوفة وانه استمد ثقافته اللغوية والأدبية من الكتّاب والأعراب وكتب الورّاقين وأقوال الشعراء والحكماء المعلومين والمجهولين ، وثقافته العلمية من مصادر سبق ذكرها ومن مصادر أخرى لم يسمح الزمن بكشف النقاب عنها بعد ، ومن العلوم اللسانية والشرعية ، وأن فلسفته تكاد تنحصر فيما يتصل بالأخلاق ، وأنه استمدها من حياته وفطرته وتجاربه وأمدها بما اطّلع عليه من كلام الحكماء ، وان ثقافته على علاتها عاليةٌ جداً لا سيما الأدبية وقد ظهرت آثارها في أبياتٍ من شعره بلغت الغاية القصوى في طلاوة التركيب ونبالة المقصد والاعجاز في الايجاز وقد قدرها أهل الفضل حق قدرها منها قوله :

لا يسلم الشرف الرفيعُ من الأذى حتى يُراقَ على جوانبه الدمُ

قال أبو الفتح بن جني : أشهد بأنه لو لم يقل إلاّ هذا لكان أشعر المجيدين ولكان له أن يتقدم عليهم . وقوله :

مَنْ يهن يسهل الهوان عليه ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ

قال العكبري : هذا من أحسن الكلام ، ولو خرس بعده لكفاه . وقوله :

إلف هذا الهواء أوقع في الأنـ	ـفس أن الحمام مرّ المذاق
والأسى قبل فرقة الروح عجزٌ	والأسى لا يكون بعد الفراق

قال أبو العلاء المعري : ولو لم يقل شاعرها سواهما لكان له شرف منها وجمال . وقوله الذي قال فيه أبو العباس النامي : كنت أشتهي أن أسبقه إلى معنيين قالهما ما سبق اليها ، أحدهما :

رماني الدهر بالارزاء حتى	فؤادي في غشاء من نبالِ
فصرت إذا أصابتني سهامٌ	تكسرت النصال على النصالِ

والثاني :

في جحفل ستر العيون غباره	فكأنما يبصرن بالآذانِ

وكان النامي عاتب سيف الدولة لتفضيله المتنبي عليه وسأله عن سبب ذلك فأمسك عن الجواب ، فلما ألح عليه قال له : لأنك لا تحسن أن تقول كقوله (أي المتنبي)

يعود من كل فتح غير مفتخرٍ	وقد أغذّ اليه غير محتفلِ

ولكثرة ما في شعره من العيون والمقلدات ، لا يكاد الانسان يستطيع أن يعلم ما هو الأفضل فيه . فله في باب الغزل أبيات فذة كقوله :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي	وأنثني وبياض الصبح يغري بي

وقوله :

وخصر تثبت الأحداق فيه	كأن عليه من حدقٍ نطاقا

وقوله :

سفرت وبرقعها الحياء بصفرة	سترت محاسنها ولم تك برقعا
فكأنها والدمع يقطر فوقها	ذهبٌ بسمطي لؤلؤ قد رصعا
كشفت ثلاث ذوائب من شعرها	في ليلة فأرت ليالي أربعا
واستقبلت قمر السماء بوجهها	فأرتني القمرين في وقت معا

وقوله :

حسان التثني بنقش الوشي مثله إذا مسن في أجسامهن النواعم
ويبسمن عن در تقلدن مثله كأن التراقي وشحت بالمباسم

وله في المدح أبيات منقطعة القرين كقوله في مدح علي بن ابراهيم التنوخي :

كأن الهامَ في الهيجا عيونٌ وقد طبعت سيوفك من رقادِ
وقد صغت الأسنة من هموم فما يخطرن إلاّ في فؤاد

وقوله في مدح عضد الدولة :

حمى أطراف فارس شمريٌّ يحض على التباقي بالتفاني
بضربٍ هاج أطراب المنايا سوى ضرب المثالث والمثاني
فلو طرحت قلوب العشق فيها لما خافت من الحدق الحسان

وقوله في مدح سيف الدولة :

تدوس بك الخيل الوكور على الذرى وقد كثرت حول الوكور المطاعمُ
إذا زلقت مشيتها ببطونها كما تتمشى في الصعيد الأراقمُ

وله في باب الوصف ما يقصر عن إدراكه المتطاول إليه كقوله في وصف خيمة كان تحتها سيف الدولة :

عليها رياضٌ لم تحكها سحابة وأغصان دوحٍ لم تغن حمائمه
وفوق حواشي كل ثوب موجه من الدر سمط لم يثقبه ناظمه
ترى حيوان البر مصطلحاً بها يحارب ضد ضده ويسالمه
إذا ضربته الريح ماج كأنه تجول مذاكيه وتدأى ضراغمه

وقوله في وصف أغصان شعب بوان :

غدونا تنفض الأغصان فيها على أعرافها مثل الجمانِ
فسرتُ وقد حجبن الشمس عني وجئن من الضياء بما كفاني
وألقى الشرق منها في ثيابي دنانيراً تفرُّ من البنان
لها ثمرٌ تشير إليك منه بأشربةٍ وقفنَ بلا أوان

وله كثيرٌ من الوصف الرائع في وصف الأسد والصيد والخيل والحرب وغيرها .

الخلاصة :

صفوة القول أن أبا الطيب أمةٌ وحده في شعره وأدبه وحكمته وان محاسنه لا تكاد تحصى وطرائفه لا تستقصى .

وان هـذا الموضوع على قلة مظانه مترامي الأطراف صعب المراس يفتقر إلى معارضة الأبيات التي قالها بالأبيات التي زعموا أنه أخذ معانيه منها وبيان ما بينها من الفروق وايراد الشواهـد من كلامه لتأييد ما أسلفنا ذكره .

وهذا كله يستدعي زمناً طويلاً ، ولكن ضيق الوقت المحدود تحجر واسعاً ، واضطررنا إلى أن نبلغ بالايجاز درجة الإلغاز ، وان نحشر المباحث الواسعة في عناوين ضيقة ، وندمج نوعاً من ثقافته في آخر ، وان نضرب صفحاً عن إيراد أبيات أخر من شعره هن المثل الأعلى في ثقافته الأدبية والعلمية ، حتى جاءت كلمتنا هذه كقائمة التجار يسرد فيها أعداد الثياب ولكن لا يبين فيها ما لكل واحد منها من الخصائص والمميزات ولا ما في كل منها من روعة في الوشي ودقةٍ في الصنعة وجمالٍ في الهيأة والشارة .

وعسى أن تسامح الايام بوقتٍ يتسع لتوفية هـذا الموضوع حقه والسلام عليكم .

دمشق : تموز سنة ١٩٣٦ .

شيء عن أناتول فرانس

للأستاذ شفيق جبري

سير العلم • القديم والحديث • الكلام على أناتول فرانس • تراجم الكتاب • مذهب أناتول في الشك • التفاؤل • الحزن وأسبابه • التسامح • الحب • الأسلوب المدرسي • الأسلوب الوجداني • طراز أناتول في النقد • لغة لافونتين • ميل أناتول الى لغته • حرصنا على اللغة •

قال الأستاذ شارل ريشه أحد أعضاء معهد باريز في كتابه « العالم » :

« يسير العلم في سبيله سيراً تحار ثواقب الأنظار في سرعته ، على أن العلم لا يزال في عنفوان أمره وريْعان عمره ، فالعالم « أرخميدس » على نبوغ فضله وبراعته كان يجهل ما يعلّمه المعلمون اليوم في المدارس الابتدائية ، وأجهل تلميذ من تلاميذ المدارس التجهيزية يعرف من العلوم أموراً يجهلها العالم « غليله » نفسه ، ما بين العالم « فرانكلان » وبين العالم « أنشتين » مائة وخمسون سنة ، فتصور مسير العلم في مائة وخمسين سنة ! ما أعظم انقلاب الأفكار ! لم يكن من قبلُ علمُ الأحافير ولا علم الجراثيم ولا علم التصوير ولا الطيران ولا خطوط الحديد ولا حلّ الطيف الشمسي ، فلا يتجاوز عمر علوم البشر قرناً ونصف قرن وما هو قرن ونصف قرن . المشي غير وئيد ، اننـــا نسير إلى معرفة الأشياء على سلسلة هندسية متزايدة ، وفي يوم من الأيام سيكون للرجل بفضل ما يقتبسه من العلوم سلطان عظيم على المادة مها اختلفت أشكالها » .

هذا ما قاله الاستاذ «ريشه» فلم يتجنب نهج الصواب في وجيز كلامه ،
لقد ظهرت علوم في أيامنا لم تظهر من قبل ، فانبسطت آفاق العقول فتبدل
بانبساطها طراز التفكير وتغير نمط النقد ، وطفق الكتاب يتغلغلون في
حقائق الأمور ، فظهرت على كتاباتهم آثار هذا الانقلاب واختلفت
أصولهم في التفكير عن الأصول التي كانوا يبنون عليها من الف سنة ،
لقد تبدلت الأرض غير الأرض والسموات ، واستفحل العمران
واستفاضت مذاهب الحضارة فأصبح الجمود على القديم متلفة للقرائح ، إلا
أنه ما كل قديم فاسد ولا كل حديث صالح ، وإذا جاز لنا أن نستهجن
البكاء على الأطلال أو وصف مرابض الغنم ومعاطن الابل في عصر طارت
فيه الطيارات ودبَّت فيه الدبابات ، وإذا جاز لنا أن نستشنع الكلام على
قبة من أدم أو مظلة من شعر أو خباء من صوف أو بجادٍ من وبر
أو خيمة من شجر أو قنة من حجر في دهر ذهبت فيه القصورُ في السماء
فلا يجوز لنا أن نشذ عن لغة نسجت أفوافها الليالي وطرَّزت أبرادها
الأيام فوسعت ما في السموات والأرض .

لقد انقلبت العقول والافكار فنشأ النمط الحديث في الادب وليس في
هذه الثورة الفكرية شيء يستكره إذا لم يكن معها ثورة تذهب بمحاسن
اللغة والأسلوب فان الحياة تستلزم الحركة ولا ريب ، قال أبو الحسين
احمد بن فارس بن زكريا المقيم :

« ومن ذا حظر على المتأخر مضادة المتقدم ، ولمه تأخذ بقول من
قال : ما ترك الأول للآخر شيئاً ، وتدع قول الآخر : كم ترك الأول
للآخر ، وهل الدنيا إلا أزمان ولكل زمان منها رجال ، وهل العلوم
بعد الأصول المحفوظة الا خطرات الاوهام ، ونتائج العقول ، ومن قصر
الآداب على زمان معلوم ، ووقفها على وقت محدود ، ولمه لا ينظر الآخر
مثل ما نظر الاول حتى يؤلف مثل تأليفه ويجمع مثل جمعه ، ويرى في

كل ذلك مثل رأيه ، وما تقول لفقهاء زماننا إذا نزلت بهم من نوادر الاحكام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهم ، أو ما علمت أن لكل قلب خاطرا ولكل خاطر نتيجة ، وله حجرت واسعاً وحظرت مباحاً ، وحرمت حلالاً وسددت طريقاً مسلوكاً ، ولو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير ولذهب أدب غزير ولضلت أفهام ثاقبة ، ولكلّت ألسن لسنة ولما توشى أحد لخطابه ، ولا سلك شعباً من شعوب البلاغة ولمجّت الاسماع كل مردد مكرر وللفظت القلوب كل مرجع ممضغ » .

أبو الحسين هذا حفظه الله من المجدّدين أو المتجدّدين على ما يستنبط من كلامه ، إلا أنه نشأ في عصر انتهت فيه اللغة إلى أبعد غايات الحسن وبلغت أقصى نهايات الجودة والظرف ، فكانوا إذا نزعوا عن اللغة برداً قشيباً خلعوا عليها برداً أقشب ، وإذا جرّدوها من ديباجة طريفة ألبسوها ديباجة أطرف ، وحسبي أن أذكر من أئمة ذلك العصر ابن العميد والخوارزمي والصابي والصاحب والبديع والثعالبي وأمثالهم من الذين حسنت بهم صناعة الانشاء ، وما بينهم وبين الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد الا فيئة من الدهر ، فكانت اللغة في حصن حصين وركن ركين فلم يكن في تجديدهم خوف عليها ، وما انحطت اللغة عن طبقتها إلا لما ذهبوا بين سمع الارض وبصرها . أما المجددون في هذا العصر فقد بالغت طائفة منهم في الامر حتى أصبح جديدهم خَلَقاً رثّاً . فذهبوا إلى اطراح كل قديم ومحدث ، وجاهلي ومخضرم ، واعرابي ومولّد ، فلم يستملح ذوقهم كلام الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد وأشباههم من أمراء البيان . وزعموا أن أساليب المتقدمين لا تسع علوم هذا العصر ولا تستوعب طرائف الحضارة وبدائعها فاذا بدّلوا أنماط التفكير لزمهم أن يبدلوا أساليب الكلام ، وهذا موطن الغلو في آرائهم . لئن ارتقى الفكر البشري في هذا العصر فان

كلام العرب منحط عن طبقته في الجاهلية والاسلام . فاذا لم يبلغ كلامنا اليوم مبالغ كلام المتقدمين فأي عذر لنا في الشذوذ عن أساليبهم ، وكيف نزعم أن لغتنا أعلى من لغة القرآن والمنسحبين على أذيال القرآن .

ترجم الدكتور ماردوس القرآن إلى لغته الفرنسية بعد أن استعد لهذا الامر عشرين سنة وقد كتب عن هذه الترجمة الاستاذ باولوسكي في مجلة (Les Annales) جاء في خاتمتها ما يلي :

« لقد بلغ من تأثير القرآن في قلوب الثلاثمائة مليون مسلم مبلغاً أجمع معه المبشرون على الاعتراف بأنهم لم يستطيعوا أن يردوا مسلماً عن دينه حتى اليوم . واستنتج الدكتور من ذلك أن الكلمة إذا وضعت مواضعها وأنزلت منازلها كانت سحراً حلالاً » .

فمن الذي يتبجح اليوم بأن يأتي بكلام ينزل على أكباد ثلاثمائة مليون رجل نزول الماء الزلال على الكبد الحرّى . فاللغة التي تخرج عليها طائفة المجددين هي لغة جمهور من الكتاب والخطباء والشعراء تدارسوا كلام القرآن حيناً من الدهر طويلاً حتى وصلوا إلى ما وصلوا اليه من شعاب البلاغة ، تزعم هذه الطائفة أنها تذهب مذاهب الغربيين في كتابتها فكأنما خيل اليها أن أدباء الغرب لا يبالون بقدماء كتابهم وشعرائهم .

هذا أناتول فرانس باقعة دهره !

تحدرت اليه بلاغة المتقدمين فحل في الانشاء المحل الارفع حتى أطبق أدباء وطنه وفيهم عدوه وصديقه على الاعتراف بأن أناتول حفظ اللغة في القرن العشرين ، فلم يتطرق اليها الفساد ، فلولا حرص أناتول على اللغة القديمة وتعلقه بأهدابها لم يكن له المنزلة الرفيعة في الأدب .

وما اللغة القديمة التي يحرص عليها أناتول إلا لغة المدرسيين أي لغة القرن السابع عشر ، والقرن السابع عشر أطيب عصور الأدب الفرنسي ،

فقد بلغت فيه اللغة المبالغ وبينها وبين لغة كتابنا البلغاء أمثال ابن المقفع شبه عظيم وان رجلاً حفظ لغـــة قومه لجدير بأن نعرف سيرته ، ونتقيل طريقته .

الـكلام على « أناتول فرانس » بعيد الشقة ، مترامي الأطراف ، فلا يأمن النائص على هذا اللؤلؤ المكنون أن يغرق في لجة خضم ملتطم الأمواج . واني أخاف إذا حاولت أن أقول فيه كل شيء أن لا أقول شيئاً . وإني لأخشى إذا أردت أن أعرض على الجمهور كل طرائفه أن لا أعرض طريفة . فآثرت أن ألمّ بأناتول إلماماً دون الافاضة في مطولات أخباره وآرائه . ولو أردت أن أشبع القول في عبقريته لعمدت إلى كتب ومجلات وصحف شتى توغل أصحابها في هذا الافق المنبسط كل متوغل . بيد أني أحببت أن أبرز آثاراً بقيت في نفسي ورسوماً رسخت في ذهني من مطالعة بعض كتب ألّفها أناتول فرانس . واني أرى أن الباحث عن أديب من الأدباء إذا اجتمعت له عناصر البحث وتوفرت لديه مواد التنقيب لزمه أن يكون مستقلاً في حكمه ، حتى يكون هذا الحكم صادقاً ، ولكنه إذا نقل ما قاله الناس دون إعمال فكره كانت الصورة التي يعرضها مزورة مرقّشة .

ولد أناتول فرانس في باريز سنة ١٨٤٤ فكان لمشاهد جوادّ باريز الجميلة تأثير كبير في ذهنه فقـد كانت هذه الجواد يومئذ هادئة مخضلّة فكان أناتول يسرّح الطرف في قصر « اللوفر » ويصوب النظر ويصعده في قصر « مازاران » فملأت هذه المباني عينه ، وغمرت قلبه فمتع خلقه برونقها ومزج قريحته برقتها ، ولم يصدق أنها من آثار البشر . فكان الشك يختلج في صدره ، وقد بعثه تأمله هذا على الشغف بالفنون والحنين الى الماضي وكان أبوه كتبياً فأيقظت فيه هذه الحرفة ولعاً بالأدب القديم وبالكتابة .

* * *

من محاسن أدب الافرنجة انك إذا تفرغت للكلام على أديب من أدبائهم أو شاعر من شعرائهم أو خطيب من خطبائهم إلى غير هذه الطبقات من الناس الذين يقلبون العالم بنسج طبائعهم وسبك أفهامهم وصوغ أذهانهم وجدت في بعض الأحايين مجال القول ذا سعة ، فانك لا تشاء أن تعرف شيئاً عن أخلاق هذه الطبقات وآرائهم وعاداتهم وتقاليدهم وأوضاعهم ونشأتهم وسحنتهم وهيآتهم إلا عرفته وقد بالغوا في ذلك فوصفوا في كتبهم كيف ولدوا وكيف عاشوا وكيف رباهم أهلهم . ووصفوا أخلاق آبائهم وأمهاتهم فيقيدون كل شاردة ويدونون كل نادرة وقد يتولى أدباؤهم وصف حياتهم بأقلامهم ، والمرء أعرف ببواطنه وكوامنه من غيره ، وهذا النمط قليل في أدب العرب .

من هؤلاء الكتاب الذين وصفوا في كتبهم بداءة حياتهم ومَيْعة شبابهم أناتول فرانس فهو يرى أن اتقان الكتاب لهذا الطراز أشد من إتقانهم لغيره فانهم يجدون لذة في هذا الوصف فيحملون القراء على مشاركتهم في اللذة وقلما ينزل الوحي على كاتب مثلما ينزل عليه وهو يكتب عن خوالجه ولواعجه ، فأجمل كتب روسو « اعترافاته » ، وأجمل كتب شاتو بريان « مذكرات ما وراء القبر » .

ألف أناتول فرانس أربعة كتب رائعة تصرف به الكلام في تصوير حياته كل متصرف ، وأناتول فرانس كلف بالاستطراد في كتاباته فهو يخرج من الجد إلى الهزل ، ومن الحزن إلى السهل نفياً للكلل وبعداً من الملل فكثيراً ما يحب أن يلهو في سبيله ، فاذا مضى لطيته ولم يلو على شيء وصل الى غرضه في طرفة عين وهذا ما لا يريده ، فانه يرى اللذة في الجيئة والذهوب لأن التنقل في الكلام مدرجة إلى اللهو وهذا هو طراز الجاحظ في الكتابة والتأليف .

كان والد أناتول يرى في أول نشأة ولده أن عقل كلبه نمو أكثر من عقل ابنه ، فلم يقع في خلده أنه يأتي يوم يصبح فيه أناتول مفرداً علماً يملأ الدنيا ويشغل الناس .

وقد كان بين أناتول وبين أبيه اختلاف في المعتقد والذوق فكان والد أناتول يؤمن بالله يختلف عن هذا العالم ، وبروح تختلف عن هذا الجسم ، أما أناتول فانه لم يؤمن بما وراء الطبيعة ولم يصدق كل ما يقال له . وقد شرع وهو طفل صغير في تعلم الكتابة فحاول أن يكتب في اللاهوت والأخلاق فافتتح كتابته بهذا الكلام « ما هو الله » وعرض العبارة على أمه فأوعزت اليه في وضع علامة الاستفهام بعد كلمة « الله » إشارة الى أنه يسأل عن أمر يجهله ، فاستعصى وقال : اني أعرف الله ولا أستفهم وطال الجدال بينهما وامتنع عن وضع العلامة .

قال أناتول : وقد تغير طبعي من ذاك الحين فاني لا أمتنع عن وضع علامة الاستفهام في كل مقام مناسب وقد أتعرض لوضع هذه العلامة في كل ما أكتب وأقول وفي كل ما أفكر فيه . ولو تراخى أجل أمي لقالت لي « لقد جاوزت الحد يا أناتول » وفي هذا الكلام إشارة إلى أن أناتول يشك في كل شيء في العالم . فان فلسفته الشك ، ووضع علامة الاستفهام بعد الكلمة إلماع إلى الشك ، على أنه يقول مهما كان شكنا الفلسفي فانا مضطرون إلى أن نعمل في الحياة كأننا لم نشك في شيء . فلم يكن مذهب أناتول الشك المطلق فهو يخشى هاتين الكلمتين الجافتين « أنا أشك » لأن المرء إذا كان شك في الامور وجب عليه أن يسكت فالكلام إثبات وأناتول لم يجرأ على السكوت والاعتزال فقد شاء أن يؤمن فآمن الا انه آمن بأن الأمور نسبية في هذه الدنيا .

كان أناتول يرى أن ايمان أبيه بالله هو الذي جعله متفائلا بالحياة ، إلا أن هذا الوالد كان مع تفاؤله سويداويا قليل الضحك قليل الميل الى المهزأة ، أما أناتول فقد أخذ عن أبيه مذهب التفاؤل إلا أنه كان فرحاً في حياته على خلاف أبيه ، فقد نظر إلى الحياة من وجهها الصحيح فلم

تغلب عليه السويداء التي غلبت على أبيه ، ولا مثلت له الأوهام أموراً لا حقيقة لها ، فليس للدنيا على ما يقول حياة حسنة ولا حياة سيئة ، لا شيء شريف أو معيب في ذاته ولا شيء عادل أو غير عادل ، لذيذ أو أليم ، صالح أو فاسد . وانما الرجل هو الذي يجعل صفات للأشياء كما يجعل الملح طعماً للآكل . هذا هو رأي أناتول في الحياة وهو يقول : من عاش طمحت نفسه فطلب المطالب وبقدر ما يحسب المرء أن مطالبه حلو أو مرّ تكون الحياة في نظره حسنة أو سيئة . يألم الرجال لأنهم ليس في أيديهم ما يظنون أنه خير أو إذا صار اليهم هذا الخير خافوا ضياعه ، ويألمون أيضاً لأنهم يكابدون ما يظنون انه شر من الشرور فاذا بطلت هذه المعتقدات ذهبت آلامهم ، والناس سواء في عجزهم عن عمل الخير والشر فان الخير والشر لا أثر لهما الا في الرأي . والعاقل من الناس يرى العادة والمصطلح أصل كل شيء . هذا هو معنى كلامه : الأمور نسبية في هذه الدنيا » . وقد قذف أبو الطيب المتنبي هذه الفلسفة في بيت فقال :

راعتك رائعة البياض بمفرقي ولو انها الأولى لراع الأسحم

البشر في نظر أناتول هم الذين يستجلبون العذاب إلى قلوبهم ويدخلون الآلام على نفوسهم فاسمع ما قاله في الحزن وكيف علله :

« أشد ما يكون حذقنا باستجلاب العذاب إلى قلوبنا ، وأعظم ما تكون مهارتنا في جر الألم الى نفوسنا ، لقد ضاعفنا آلامنا وتممنا نقصها لمّا زيَّنا اللذة لحواسنا . لقد ظهرت منذ بدء الخليقة ونشوء العالم امرأة مقنعة اسمها « السويداء » ، ولكن فلنعدل دون شيء من الاشتطاط فقد أضفنا ولا ريب بعض الشيء الى أحزان النفس ولكل منا نصب في إنشاء هذه الآلام ، آلام الروح .

العلم لا ينشيء شيئاً من السعادة ، فقد قطفنا ثمر شجرة العلم وأكلناه ، ولم يبق منه في الأفواه إلا طعم الرماد . لقد مشينا في مناكب الأرض

وخالطنا أمماً شتى منها السود والحمر والصفر ، وبان لنا اختلاف البشرية ، ورأينا أن هذا الاختلاف أعظم مما كنا نتصوره ، ووجدنا أنفسنا أمام إخوان أجانب لا تشابه أرواحهم أرواحنا الا بقدر ما تشابهها أرواح الحيوانات ، ثم جلنا في الفكر كل مجال فقلنا ما هذه البشرية التي تتغير سحنها وأرواحها وآلهتها بتغير مباآتها ، كنا لا نعرف من الارض إلا حقولها التي كانت تخرج لنا الخيرات وكانت هذه الأرض كبيرة في أعيننا فلما عرفنا مقامها في العالم تصور لنا صغرها ، فقد علمنا انها ما كانت الا قطرة طين ، فوضع هذا العلم منا ، وكنا محمولين على الظن بأن أشكال الحياة والعقل كانت أعظم مما تمثل لنا ، وأن في الكواكب والعوالم بمجامعها مخلوقات تفكر ، ففهمنا بعد ذلك أن عقلنا صغير . ان الحياة في ذاتها لا هي طويلة ولا هي قصيرة . والأغرار الذين يقيسونها بالنسبة إلى مدتها الوسطى يقولون والحق يقولون أن المرء إذا مات بعد أن يخطه الشيب فقد قضى لبانته من الحياة ، أما نحن فماذا صنعنا ؟ فقد شئنا أن نحزر عمر الارض القديم وعمر الشمس وها نحن الآن نقيس حياة البشر على أدوار طبقات الارض وعلى أعمار العوالم فرأينا بعد هذا القياس أن الحياة قصيرة ، غرقنا في بحر الزمن والمسافة فتبين لنا أننا لم نك شيئاً فثقل علينا هذا الأمر ولم نشأ أن نقول شيئاً بسبب كبريائنا فخجلنا واصفرت وجوهنا والخطب الجلل ان إيماننا ذهب بذهاب جهالتنا الحسنة ذهب رجاؤنا واضمحل أملنا فلم نؤمن اليوم بالذي كان عزاء لآبائنا وهذا شديد علينا ، فقد كان الايمان بجهنم نفسها يطيب ويعذب .

ومما زاد في بؤسنا أن تكاليف الحياة المادية أصبحت أثقل من قبل ، فان الجماعات الحديثة قد جوزت ضروب الأماني فاستثارت بذلك كل مجهود . وأصبح التزاحم على الحياة والتنازع فيها أشد من كل دهر وصار الظافرون أحمق ، والمنكسرون أعظم انكساراً ، لقد أضعنا حب الخير بضياع الايمان

والرجاء وكانت هذه الفضائل الثلاث تحمل الأرواح البائسة على ظهر هذا البحر بحر العالم ، فمن الذي يأتينا اليوم بالايمان والرجاء وحب الخير ! ».

* * *

كان أناتول سعيداً في حداثة سنه ولكنه يقول : السعداء لا يعرفون أموراً كثيرة عن الحياة فالألم هو مهذب الرجال الأكبر والألم هو الذي علمهم الفنون والشعر والاخلاق وهو الذي أوحى اليهم البطولة والشفقة وهو الذي جعل قيمة للحياة عندما يغامر الناس في حياتهم .

ومن كان متفائلاً بالحياة فأخلق به أن يكره الموت ، ويخاف شدته ، وأناتول من الذين يكرهون الموت قال :

كان الموت في كل دهر من الدهور مخوفاً فظيعاً ، ومها قالوا لك لا ينبغي للمرء أن تأخذه المخافة من ظلمة اللحد وضيق الارماس فما الموت الا العدم فالرجل يجيب عن مقالهم هذا بأن الساعة الأخيرة تملأ القلوب خوفاً ورعباً . كان الاغريق يرهبون غم الضريح ويخشون هول الموت الا أنهم لم يقبحوه ولا شنعوه ، فان مخيلاتهم قد زينت كل أمر من أمور الدنيا وجعلت لقلع الحياة بهجة ورونقاً أما القرون الوسطى فقد هولت علينا بنار جهنم وخوفتنا بمخيالات كئيبة مستكرهة فصورت لنا شياطين تمر بنا فتنتزع من بين جوانب المذنبين أرواحهم ورعبتنا بصور المقابر المحزنة وأشكال الهياكل العظمية والديدان التي تأكل لحم الأجسام الفاسد وعلى هذا كان الموت شديداً .

ولم يذهب هول المقابر الا في القرن الثامن عشر فقد كانوا يجعلون في أعالي القبور الاواني المستظرفة والرياحين والأزاهير فكانت هذه القبور زينة بساتين الانكليز وحدائقهم .

لم تفجع باريز وحدها بأناتول فرانس وانما فجعت به البشرية برمتها ، لان أناتول رجل الانسانية وليس حظ وطنه منه بأوفر من حظ العالم بأسره . يقول أناتول : لا يكون الواحد منا انساناً الا اذا أشفق على أخيه ، فلا يليق بنا أن نستجبل جلود صخر فلنشفق على الضعفاء لأنهم يألمون من الاقوياء ولنرأف بالسعداء في هـذا العالم فقد جاء في الكتاب « ويل للذين يضحكون » .

كان أناتول شفيقاً على الضعفاء وقد بلغت به شفقته المبالغ فكان عطفه على الضعفاء الذين يألمون من الضهد مثل عطفه على الضعفاء الذين ينشأ ضعفهم عن أعصابهم فيذهبون في الحب كل مذهب . ألف الكساندر دوماس رواية بحث فيها عن مقتل رجل لزوجته لخروجها عن العفاف . قال أناتول : لو كنت قاضياً لما برأت القاتل من جنايته اللهم الا أن يطبق أطباء الشرع على أنه مصاب بفالج في جملة أعضائه ، ولا عجب في ذلك ، فان قتل المرأة لامر عجاب وهيهات ما يطاق الذين يجترؤن على أشباه هذه المذابح . لا ريب في أن زوجة هذا القاتل كانت فاسدة الخلق ، ذات غرائز سيئة ، ولكن هل نسأل عن غرائزنا ، ألم يك للتربية والميراث تأثير في أعمالنا . فمن موجب الأسف اننا نولد معوجين لا سبيل إلى تقويم اعوجاجنا ، اننا نولد شيباً لا شباناً . لو فكر القاتل في العناصر التي تؤلف جسم زوجته اللطيف لما حطم هذه الآلة الدقيقة ، ولكان غفر لهذه الروح المظلمة جناية أعصابهـا ودمها . اسمع ما تقوله الفلسفة الطبيعية في شعرها : ان لأمور الحب أسراراً غامضة ، ان غرائز المتقدمين التي كانت في الأصل تجمع في بطون الغاب بين أطراف الأبدان المرأة هي نفسها التي تقلق اليوم المرأة تحت ثيابها النفيسة . ما فتئت المرأة تحفظ دم حواء الغابات الكبيرة على علمها بالخفر ، وحرصها على القوانين » .

يعرف أناتول كل ما يستوجبه الأدب ومعاذ الله أن يذهل عنه ، ولكنه يرى أن الرأفة هي أحسن الفضائل وأن الفلسفة الطبيعية تعلم المسامحة وفضلاً عن ذلك فاذا جاء أمر الحب فلا تجد الى التمييز سبيلا : « حبك الشيء يعمي ويصم » .

الحب في رأي أناتول فرانس هو اللذة التي تحمل الأنواع الحيوانية على التزاوج والتناسل ، فهو عنده بمنزلة بقاء النوع عند علماء التاريخ الطبيعي ، وقد ألـّهه في كتاباته فهو في نظره أقدم الآلهة .

لما ولد هذا الاله لم يكن في العالم أثر من آثار العدل والعقل فلم يجد هذا الاله التمس شيئاً يخلق به دماغاً وعيوناً وآذاناً . ولد أعمى فهو الآن على الصورة التي ولد عليها وسيبقى على هذا الشكل في كل دهر ، يعمل فيخبط في أعماله خبطاً دون شيء من الروية ، ألق نظرة على أعماله انها عظيمة ! لقد خلق كل شيء ولكنه خلق بغير عقل ولا فهم ، لقد برأ في أول الأمر حيوانات لله درها من حيوانات ! انه خلق أصدافاً وأسماكاً وزواحف ، وقد كان هذا الاله يومئذ يعيش في الماء ثم حسّن على سبيل الانفاق والتدريج طرائقه فخلق الحيوانات اللبونة ، التي أتعبته وأجهدته ثم خلق القردة فبقيت القردة زمناً طويلاً آياته الرائعة ، وقد خلق الانسان بعد القردة فلم يغير هذا الالـه من طبيعته ، ولم يبدل من طريقته ، فبقي أعمى كما كان ولم يستعن بالعقل ، وان يستعين به سجيس الليالي وهو محق في ذلك لأن الحياة سرعان ما تنتهي إذا كان نشرها معقوداً بالعقل .

ان هذا الالـه أعمى ولكنه يقودنا والشر كل الشر في ذلك ولكنه شر أبدي ، لأن الحب يدوم ما دامت العوالم ، اننا نقاومه ونستولي عليه اذا كان أضعف منا ، ولكنه اذا اشتد استولى علينا وهذا ما يسمونه :

منازعة الهوى ومثل الارادة والغريزة كمثل كفتي ميزان فالكفة الثقيلة هي التي ترجح وتميل .

هذا هو الحب في نظر أناتول فرانس فقد كان سبب حياة الحيوانات من أدناها إلى أرقاها ، وهو غريزي في البشر من مبدإ الخليقة الى منتهاها. وهذا ما حمل أناتول على الرأفة بالفاجرة التي خرجت عن العفاف لأنها لم تخرج عنه الا بعوامل غريزية متمكنة من لحما ودمها وأعصابها فلا سبيل لها الى التخلص منها . . .

قلت في صدر المحاضرة كان بين أناتول وبين أبيه اختلاف في المعتقد وقد امتد هذا الاختلاف الى الذوق فقد كان أناتول يميل الى النمط المدرسي ، ما هو النمط المدرسي ؟ بعد أن خمدت شآبيب الثورة الفرنسية ولمت عوارضها انفجرت ثورة أدبية خلقية قلبت طرائق التفكير والحس واسمها النمط الوجداني بدأ بها مدام ستال وشاتوبريان وتجسمت في أربعة شعراء كبار وهم : لامارتين وموسه وفيني وهوغو كان المدرسيون أمثال الشاعرين بوالو وراسين يرون أن يمثلوا في فنهم جمال الحياة ويعتبرون العقل في الشعر الملكة الغالبة ويقتبسون عن التاريخ القديم نماذج فنهم ويستنزلون وحيهم من سماء الأمم المتقدمة فخرج الوجدانيون على هذه القواعد بحذافيرها وهدموا بناء المدرسيين ، فرأوا أن يمثلوا في فنهم كل ما هو شنيع ومضحك في الحياة ، وأن يكون الخيال الملكة الغالبة ، وأن يستنزلوا وحيهم من أدب الأمم العصرية فيأخذوا عن غيتي وشلر وبارون وشكسبير ، فبدلاً من أن يكتبوا عن أساطير الاولين كتبوا عن الفن النصراني في القرون الوسطى .

فأناتول فرانس كان يميل الى الفن المدرسي أي انه كان على النمط القديم ، وله في النقد اسلوب خاص فهو من فرقة النقد الذاتي فانه يغتنم فرصة ظهور كتاب من الكتب فيفصح عن خوالج نفسه ، ويعرب عن

رأي يخامر ضميره وقد جمع رسائل نقده في أربعة كتب سماها « الحياة الأدبية » تكاد هذه الكتب تكون معلمة يرى أناتول أن النقد انما هو ضرب من الروايات على نحو الفلسفة والتاريخ تستعمله العقول الفطنة الطلعة وكل رواية إذا فهمناها كل الفهم انما هي ترجمة المؤلف بقلمه ، فالناقد الحاذق هو الذي يروي خوالج نفسه في أثناء روائع المؤلفات وهذا الطراز في النقد يسمى النقد الذاتي ، قال أناتول : « لا يوجد نقد موضوعي أكثر مما يوجد فن موضوعي ، وكل الذين يتبجحون بأنهم يضمون في مؤلفاتهم شيئاً غير لواعج أنفسهم فهم واهمون ، فالحقيقة ان المرء لا يخرج من نفسه أبداً وهذا من أكبر شقاء الانسانية .

اننا محبوسون في أنفسنا فكأننا في حبس أبدي ، فالذي يليق بنا أن نعمله هو أن نعترف بحالتنا الفظيعة ونقرّ بأننا نتكلم على أنفسنا كل ما عجزنا عن السكوت فاذا كان الناقد حراً وجب عليه أن يقول :

« سادتي اني أريد أن أتكلم عليّ في أثناء كلامي على شكسبير أو باسيل أو باسكال أو غيتي فان في ذلك فرصة جميلة » .

قال أناتول : تعرفت إلى السيد كوفيليه فلوري وقد كان ناقداً قديماً ، وفي ذات يوم انطلقت نحوه وهو في داره الصغيرة فأراني مكتبته الحقيرة التي كان يفتخر بها وقال :

« سيدي انك لتجد كل الانواع ممثلة في هذه المكتبة كالبلاغة والآداب الرفيعة والفلسفة والتاريخ ما خلا النقد فانه يحيط بكل الانواع ، نعم يا سيدي فالناقد يكون تارة خطيباً ، وتارة فيلسوفاً ، وتارة مؤرخاً » .

لقد أصاب السيد كوفيليه فلوري في كلامه فالناقد يجمع كل هذه الصفات أو انه قد يمكنه جمعها فاذا أراد أن يبرز أندر القوى العقلية وأشدها تنوعاً واختلافاً أمكنته مناهز الفرص ، وهو يعمل تاريخ البشر العقلي

من دون أن يخرج من نفسه ، فالنقد من حيث التاريخ هو آخر صيغة من الصيغ الادبية كلها وربما وصل الى استغراق هذه الصيغ كلها فانه بليق كل اللياقة بالجماعة الممدنة التي تكون ذكرها كثيرة وتقاليدها طويلة وعلى الخصوص فانه مناسب للجماعات الطُلَعة ، المتعلمة ، المصقولة ، وتقدم النقد يستلزم ثقافة اكثر مما تستلزمه كل الصيغ الادبية الباقية . ابتدع النقد مونتان وسانتبوف وبيل ومونتسكيو فانه بتحدر من الفلسفة والتاريخ وقد استوجب انتشاره وترقيه جيلا أطلقت فيه الحرية العقلية » .

هذا هو نظر أناتول فرانس في النقد وقد كان نقده أشبه شيء بأحاديث يطارحها أهله وخلطاءه وكان يسير فيه سير المتنزه . فيقف حيث يطيب له الوقوف ويسترسل الى أذواقه وخيالاته على شرط أن يكون في هذا كله صادقاً ، أميناً ، رؤوفاً فلا يريد أن يعرف كل شيء ولا يشاء أن يفسر كل شيء ويعتقد باختلاف الآراء وتباين العواطف ويتكلم على ما يجب أن يحب .

شغف أناتول فرانس بالنمط القديم شغفاً عظيماً ، فانظر الى رأيه في هوغو وهو من أكابر الشعراء المجددين :

« لا جرم أن علاج هوغو للكلمات كان أكثر من علاجه للافكار فقد ظهر أنه أدمج في اسمى الفلسفات طائفة من الخيالات والاحلام متقطعة مبتذلة ، والذي يؤلمنا ويفزعنا أننا لا نرى في تآليفه الكبيرة بين الكثير من أشخاصه الفظيعة صورة بشرية . قال الاغريق : الرجل مقياس كل شيء إلا أن فيكتور هوغو جاوز كل قياس لأنه غيرا انساني ولم ينكشف له قط سر النفوس . لم يخلق هوغو ليفهم وليحب ، وقد شعر بذلك من غريزته ولهذا فقد أراد أن يدهش الناس وقدر على ذلك حيناً من الدهر طويلاً ، ولكن هل يستطيع المرء أن يدهش غيره في كل وقت . عاش

فيكتور هوغو ثملاً تسكره الالوان ورنات الاصوات وقد أسكر العالم بذلك . هذه هي عبقريته كلها ، انه ذو أفكار غريبة وانه متفنن منقطع النظر وهذا شيء كثير ولكنه ليس بكل شيء .

هذا هو رأي أناتول في هوغو فان أناتول شغف بلغته القديمة ، وذهب في الحرص عليها كل مذهب ، وولع بمفردات اللغة لأنه يرى في اللغة صورة وطنه وقومه من قديم الدهر وحديثه ، ومرآة تنعكس فيها حضارة أمته ، فاللغة ملكت عليه عقله ولبه فهو يحب معجمات اللغة لأنها تحتوي على شيء جميل ضخم فقد قال :

« انظر الى معجم غازيه أو غيره من المعجمات ، وتصور انك ترى روح وطننا في هذا المعجم ليتصور ذهنك أن في هذه الصفحات عبقرية فرنسة وطبيعتها . ليتصور ذهنك أن فيها أفكارنا وأفكار أجدادنا ، وأفراحنا وأفراحهم ، وأعمالنا وأعمالهم ، وآلامنا وآلامهم . ليخطر ببالك أن في هذا المعجم آثار الحياة العامة وحياة الدور والمنازل ، آثار الذين استنشقوا الهواء الصالح وشموا النسيم الرقيق الذي نشمه اليوم . ليخطر ببالك أن كل كلمة من كلمات المعجم يقابلها فكر من الأفكار كان فكر طائفة من البشر لا يعلم عديدهم ، وعاطفة من العواطف كانت عاطفة جمهور من الناس لا يحصى مقدارهم ، ليهجس في صدرك أن كل هذه الكلمات المجموعة انما هي لحم الوطن والبشرية ودمها وروحها » .

بحث أناتول فرانس في كتابه « العبقرية اللاتينية » عن لغة الشاعر لافونتين فقال :

كان لافونتين يولع بالكلمات ويعرف كيف ينتخبها ، ولا يكون المرء كاتباً إلا إذا حسن اختياره للالفاظ . فالكلمات هي أفكار ، ولا سبيل إلى الاصابة في الحكم إلا بالتمكن من النحو والمفردات الصحيحة . وأظن أن الشعب الاول في العالم انما هو الشعب الذي يملك أحسن الاصول

في النحو وتنسيق اللفظ . قد يقع في اغلب الحالات ان الرجال يتناحرون بسبب كلمات لا يدركون معانيها ، ولو فهم بعضهم كلام بعض لتعانقوا . ولا شيء يعمل على رقي العقل البشري مثل معجم يضيء ظلمة كل شيء .

اني لا أجد عناء في بيان المآخذ التي أخذ عنها لا فونتين أسلوبه ، لقد أخذ عن المتقدمين من الشعراء والقصاص ، يحب لافونتين العبارات القديمة فاذا وقع نظره على كلمة قديمة جزلة المعنى استخرجها من موضعها واستعملها في شعره في المقام المناسب وقد استعمل أيضاً في أشعاره عدداً كبيراً من التعابير التي استعملت في عصر غير عصره ، ولكنه أعاد إلى هذه التعابير شبابها .

فلا ينبغي لنا أن نضيع شيئاً مما يمكن أن ينفعنا ، وهذه حكمة اقتصادية تنطبق على كل الخيرات ، فهي تنطبق على خيرات اللغة كما تنطبق على غيرها فاذا أضاعت كلمة طيبة الأصل معناها الأول وأصبحت لا تستعمل إلا في معناها الخاص أو في معناها المحرّف ، فجدير بالكاتب الحكيم أن يعيد إلى هذه الكلمة سعة معناها الأول وفسحته وعلى هذا مشى راسين ولافونتين . ثم قال :

يتبين لنا أن لافونتين الذي استعمل هذه الكلمات كلها لم يخترع شيئاً منها وليعلم الانسان أن حذاق الكتاب هم في الأعم من الأحوال قليلو الميل الى توليد الألفاظ ، فان كنز اللغة المشترك كاف وهذا الكنز لا ينقب فيه الذين يكتبون على السواء ، فكثير منهم لا يجدون فيه ما يحتاجون اليه اما لكسلهم واما لفقدان عبقريتهم . أما لافونتين فقد استخرج منه كنوزاً .

وبعد أن أشبع أناتول الكلام على لغة لافونتين قال :

« أتمنى لو أن آرائي هذه تقوي في بعض العقول محبة لغتنا ، لقد تغيرت هذه اللغة مرات كثيرة ، ولكن لم تتغير الا محاسنها . لقد قوي أسرها ، وانبسط أفقها وأغناها كل نشء من عنده بكلمات تدل على

أفكار وعواطف وأفراح وآلام وعلى مجهود ملايين من الناس ، لقد جاءت الينا على هذا النحو مترعة الجوانب من قرن إلى قرن ، وهذا الميراث الوطني عزيز على كل النفوس التي تحب وطنها .

* * *

هذا بعض ماتمثله الخاطر وتصوره البال من آيات اناتول فرانس ، وما ذكرته انما هو غيض من فيض . ولئن فاتني كثير من صوب عقله ، ونسج طبعه فلا يفوتني حفظه لغة قومه في القرن العشرين ، ودعوته شباب وطنه الى محبة لغتهم . فقد ملكت عليه لغته مشاعره ، أحسن اليها ولم يسيء ، وبرّها ولم يعق ، وأشفق عليها ولم يك جباراً عنيداً ، ولم ير فيها رأي طائفة من ادبائنا في هذا العصر رغبوا عن لغتنا القديمة كل مرغب ، وانقبضوا عنها كل منقبض على انه ما ادخرت الآباء للأبناء ، ولا أبقت الموتى للاحياء شيئاً أفضل من هذه اللغة . ولئن عبثت الايام بعديد ملكنا فانها عجزت عن العبث بميراثنا الوطني وهو اللغة . صارعت لغتنا لغات شتى تعاقبت في آفاق الشام من قديم الدهر[1] فصرعت هذه اللغات بحذافيرها ، بعد أن سلبت حضارات أهلها أجمل جمالها وأحسن حسنها وتمكنت في ربوع الشام وكثير من بقاع الارض تمكن الاحياء الذين صارعتهم الطبيعة وصارعوها ومارستهم ومارسوها فعجزت عنهم فتركتهم وشأنهم يستضيئون بضيائها ويستنشقون من نسيمها ، اشتملت لغتنا على بداوة الجاهلية وحضارة الاسلام . واستوعبت شدة بني أمية ورخاوة بني العباس . ولئن درست رسومنا وطمست آثارنا فأضعنا ما أضعنا فقد بقي لنا رسم حفظ لنا ما قذفت به الخواطر وجاشت به الصدور . فرحم الله امرءاً تعهد هذا الرسم وتفقده ، فزاد في محاسنه ونقص من مقابحه !

دمشق : كانون الثاني ١٩٢٧

---

(١) الق نظرة على الجزء الاول من خطط الشام للاستاذ العلاّمة محمد كرد علي رئيس مجمعنا العلمي ، وتدبر فيه فصل « لغات الشام » البارع .

ألف ليلة وليلة

« تاريخ حياتها »

للأستاذ أحمد حسن الزيات

يخطو الدهر دائباً في وناة وكبرياء وصمت ، فيعفو الأثر ، ويفري الحجر ، ويبري الحديد ، وتنال يده العابثة كل شيء في حياة المرء بالتغيير والنقص ، إلا شيئاً واحداً يلوذ منه بسواد القلب فيستقر في قراره ويكمن كمون السر في دخيلته وإضماره ، أريد به ذكريات الصبى ، واحلام الحداثة ، فهي باقية والجسم يتخونه البلى ، ثابتة والعيش تزعزعه الاحداث ، ناضرة والمنى يصوّحها اليأس ، مشرقة والنفس يغشاها من الهمّ ظلام وسحب ، فمن منكم يا سادة لا يذكر أول بيت أبصر فيه الوجود ، وأول ملعب عرف فيه الرفيق ، وأول مكتب رأى فيه المعلم ، وأول موعد لاقى فيه الحبيب ؟؟ ومن منكم لا يذكر ساعات السمر اللذيذة الهادئة ، في غرفة النوم الوثيرة الدافئة ، حيث كان أطفال الأسرة يتجمعون حول الجدّة الحنون ، أو الأم الرؤم ، أو الظئر الحانية ، فينصتون في سكون وشوق إلى ما تقصه عليهم من روائع الأسمار ، وبدائع الأقاصيص ، وهم من طلاوة الحديث وجاذبية الحادث وبشاشة المحدّث في حال لا يصف الشعور بها غير الشاعر ، ثم لا يلبث هذا الرحيق العجيب أن يخدر الأعصاب الطفلية الرقيقة ، فتغفو تحت جناح الكرى ، وتسمع بقية الحديث الشهي في الحلم !

هذه الأقاصيص الشائقة التي كانت لعقولنا الصغيرة سحراً ، ولعواطفنا المشبوبة سكراً ، ولقلوبنا الغضة فتنة ، هي نوع من الاحلام والاماني تراءت في ليل الحياة الطويل ، ثم تجمعت في ذاكرة الزمن القديم ، وتنقلت

من عهد إلى عهد ، ومن مهد إلى مهد ، ومن بلد إلى بلد ، تحمل في طواياها نفحات الحكمة المشرقية العالية ، وعطور الأزمن البعيدة السعيدة . فوجودها أثر لوجود الانسان ، لأنها ظاهرة طبيعية من ظواهره : كالغناء والشعر والرقص فلا تعرف لها أولية ، ولا تحدد في الغالب لظهورها علة . ولكن علماء الأساطير يزعمون أنها نشأت في الهند ، وهاجرت منها إلى بلاد الفرس ، ثم رحلت إلى بلاد العرب ، ثم استقرت بها النوى في أقطار الغرب ، وفي كل مرحلة من هذه المراحل كانت تصطبغ بصبغة البيئة ، وتتأثر بخصائص الجنس ، وتتسم بسمات العقيدة .

وأما أبطالها الذين وُجدوا على الرغم من قانون الوجود ، ونازعوا أبطال التاريخ ثوب الخلود ، فقد كان لبعضهم ولا شك حظ من الحياة ، وشهرة بملازمة الأسفار وملابسة الغير ، فتحدث الناس أولاً بما فعلوا ثم سرَّجوا حول أسمائهم وأنبائهم الاكاذيب والاعاجيب حتى أصبحوا أعلاماً على شخصيات متميزة في البطولة والحرب والحب والحيلة والكرم : كدعد وليلى في الشعر . وأبي نواس وجحا في التنادر .

أما أكثر الابطال فمن خلق الخيال ، ابتدعهم رموزاً المثل الأعلى ، أو القدر العابث أو الجد العاثر ، أو السلطان الجائر ، أو الهوى المتسلط ، أو الأمل الآسي ، أو الحظ السعيد .

وعلى ذكر الطفولة ومناغيات الأمومة أراكم ولا ريب تركتموني أتكلم وعدتم بالذاكرة إلى تلك العهود الحبيبة تتخيلون سحرها ، وتستعيدون ذكرها ، وتصيخون إلى ذلك الصوت الحنون ، ينبعث خافتاً من أعماق الماضي القريب أو البعيد ، مردداً أسماء أولئك الأبطال الذين طالما اكتأبتم لاكتئابهم ، وتألمتم لمصابهم ، وشاركتموهم بالعطف في نعماء الحب ، وبأساء الحرب ، ولأواء الخطب : من أمثال حسن البصري ، ونور الدين المصري . والشاطر محمد ، والشاطر حسن ، إلى آخر ما سجلته الذاكرة ...

أنا كذلك يا سادتي ذكرت حين كتبت هذه السطور — هاتيك

القبور التي ضمت هواي ، ورفقة صباي ، ونوعاً من الحنان والاخلاص لم أذق له طعماً منذ غاض في هوة البلى منبعه .. ثم ذكرت شيئاً آخر : ذكرت مجلى من مجالي الأنس في القاهرة كان جمة القلوب ، وألفة النفوس ، ومستجمّ الخواطر ، فعصفت به روح المدنية الحديثة ، ذلك منظر المحدث أو القصاص أو المسامر أو الشاعر في مقهى الحي وهو في حلته الشرقية المفوّفة الضافية ، فوق صفته الخشبية البالية العالية ، وقد تجمع بين يديه ، وعن يمينه ، وعن شماله ، أوزاع العامة ، وشيوخ المحلة يستجمّون من كلال العمل اليومي برشف القهوة العربية ، وتدخين النرجيلة العجمية ، وتبادل العواطف الأخوية ، ثم الاصغاء المشترك إلى « أبي درويش » وهو يقص بصوته العريض المتئد ، وجرسه الهادىء المتزن — حروب « عنترة » ، أو وقائع « أبي زيد » ، أو مخاطر « ابن ذي يزن » فينقلهم بقوة تمثيله أو بحسن ترتيله ، على جناح الخيال — إلى عصور هؤلاء الأبطال ، فيشهدهم مجد البطولة وسلطان الحب وفتك السحر وبطش المردة . ثم يرى الخبيث أن فورة الحماسة أو الشوق قد طغت في النفوس لوقوع البطل في أسر أو شدة ، فيسكت ليجمع النقوط من السمار والنظار فلا يجدُ هؤلاء مندوحة عن تعجيله ليعجل هو إلى إطلاق البطل من إساره ، وإنقاذ الجمهور من شدة قلقه ومرارة انتظاره ...

وفي ليلة من هذه الليالي الساهرة تجدون هـــذه القهوة ذات الضوء الشاحب ، والصمت الحالم ، والمنظر الكئيب — قد خفقت فوقها الرايات ، وأشرقت في جوها الثريات ، وتلألأت في سمائها المصابيح ، وأخذت زخرفها بالسامرين ، وقد جلسوا متقابلين على الدكك العالية يطوف عليهم غلمان بأكواب من ذوب السكر المعطّر بماء الورد ، وصاحبنا المحدث قد خرج إلى القوم يتهادى في عمته المكوّرة وجبته المعصفرة وقفطانه الأنيق الأصفر . وقد تدلت من حزامه الحريري ذلاذل تنوس على بطنه المنتفخ الضخم . فاذا استوى على عرشه المنجَّد — توهج البخور من جانب

وتضوعت العطور من جانب ،ثم خشعت الأصوات ورنت إليه العيون وأنشأ يحدث . فاذا بدا لأحد أن يسأل بعض الجالسين عن سبب هذا المهرجان عجب أولاً من أنه لا يعرفه، ثم أجابه بلهجة الفخور المزهو : هذه ليلة زفاف عبلة إلى عنترة . . . فاذا كانت القصة قصة بني هلال – وجدتم هذا الهوى الجميع قد استحال إلى عصبية شنيعة . ورأيتم إخوان الأمس قد أصبحوا أعداء اليوم : فطائفة تتعصب لبني هلال . وطائفة تتعصب لبني زناتة . وهؤلاء يريدون الشاعر على أن يقص واقعة . وأولئك يسألونه أن يقص أخرى ، والشاعر لا يجيب إلا من يجزل له العطاء . فاذا رجحت كفة وشالت كفة أخذ يروي من ذاكرته وغيبه – على هوى الفئة الغالبة ما لم يسجله تاريخ . ولم يدونه كتاب . فيزوّر الغرائب ، ويختلق الوقائع ، ويقمش مما خزنه في حافظته – من مختلف الأسمار ورقائق الأشعار ليحوك منها للبطل حلةً تهز العجب في قلوب أشياعه ، وتلهب الغيرة في صدور خصومه ، فاما نفحة أخرى تميل به إلى الجهة الثانية ، وإما معركة بين الحزبين تكون هي القاضية .

هذا الرجل الذي صورته لكم هذه الصورة المتقاربة ، هذا الرجل الذي ينام النهار ويجلس الليل يحدث أربع ساعات متعاقبة ، هذا الرجل الفكه اللبق الحافظ الواعظ – هو الأثر التاريخي والنموذج الحقيقي ، لذلك القصاص البارع الذي خلَّف لنا كتابنا العالمي الخالد « ألف ليلة وليلة »

يرجع تاريخ هذا القصاص يا سادة إلى صدر الاسلام ، والفضل في وجوده كان أيضاً للقرآن الكريم . فقد اشتمل كما تعلمون على مجملات من أخبار القرون الخالية والنذر الأولى ، وكان أعلم القوم يومئذ بتفصيلها – من أسلم من أهل الكتاب كتميم الداري ووهب بن منبه وكعب الأحبار وعبد الله بن سلام : فكان هؤلاء ومن أخذ عنهم يجلسون إلى الناس في المساجد ، يفصلون ما في كتاب الله من قصص الأنبياء ، ويسرفون في تهويل هذه الأنباء ، ابتغاء للعبرة ، والتماساً للموعظة ، ووافق هذا الضرب من الوعظ هوى النفوس فازداد إقبال الناس عليه ، وكثر القصاص الافك فيه ،

حتى طردهم أمير المؤمنين علي من المساجد ، ما خلا الحسن البصري .

ولكن دهاة السياسة رأوا سلطان هذا الفن على العقول وقوة أثره في توجيه الميول — فاتخذوه لساناً للدعاية وسبيلاً لافتعال الأحاديث واختلاق الأقاصيص في الأغراض الحزبية المختلفة . بدأ بذلك معاوية فولى رجلاً على القصص كان إذا صلى الصبح جلس يذكر الله ورسوله ، ثم دعا للخليفة وحزبه ، ودعا على أهل خصومته وحربه . وكان هو إذا انفتل من صلاة الفجر جلس إلى القاص حتى يفرغ من قصصه ، وكان ولاته وقواده يقدمون القُصاص في بعض حروبهم ليقصوا على المقاتلة أخبار الشهداء وما وعدوا به من حسن الجزاء . فعل ذلك الحجاج في العراق ، وجاراه فيه من حاربهم من زعماء الفرق . فقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة « ٧٧ » أن عتّاب بن ورقاء سار في أصحابه قبيل المعركة يحرضهم على القتال ويقصُّ عليهم . ثم قال : أين القصاص ؟ فلم يجبه أحد . فقال : أين من يروي شعر عنترة ؟ فلم يجبه أحد .

وسار الشعر والقصص في ركاب السياسة جنباً إلى جنب يشبهان على الناس وجوه الرشد ، ويموّهان على العقول صور الباطل ، والقصاص كانوا في ذلك أشدُّ وطأة على الحق ، لأنهم ينسبون ما يفترون إلى التاريخ أو إلى الدين . فلما هدأت نائرة الأحزاب ، وسكنت طائرة الفتن ، ونضجت العقول ، عاد القصاص إلى المسجد ، فوجد الواعظ قد غلبه على مكانه ، والعالم قد فطن إلى كذبه وبهتانه ، والخليفة قد استغنى عنه برواته وندمائه ، فانقلب إلى العامة يسامرهم في أملائهم وأعراسهم بما أثر من أيام العرب ونقل من أساطير العجم ، وروي من أخبار الفتوح .

وانتشر القُصاص في العواصم العربية حتى صاروا ظاهرةً من ظواهر اجتماعها ، وحاجةً من حاجات عامتها ورعاعها ، واشتدت هذه الحاجة حين انفجرت الدواهي على العالم الاسلامي في أواخر العصر العباسي وبعده : من عنف المتسلطين من السلاجقة ، وعسف المتغلبين من المغول ، وغزو

المتعصبين من الفرنك ، فطلبهم العامة تفريجاً للكرب ، والخاصة تشجيعاً على الحرب ، ولكنهم كانوا في مصر أبرع صناعة ، وأنفق بضاعة ، وأرفع مكانة ، لأن طبيعة إقليمها ، ونظام اجتماعها ، وطباع سكانها كانت تعين على ذلك : فهي قطر زراعي ملموم الرقعة ، متصل العمارة ، يجود بالخير الكثير ، على الجهد القليل ، فكان لذلك أهله قليلي الأسفار يؤمنون بكل خبر ، كثيري البطالة يميلون إلى اللهو والسمر ، وكانوا لا ينفكون بين يسر متدفق طلق — إذا عم الفيضان ، وعدل السلطان ، واقتصد الموت — وعسر متجهم كز — إذا لحش الغلاء ، وألح الوباء ، وبغى الحاكم — . وعلى الحالين كان السامر أو المسامر عنصرين من عناصر الحياة ينضّران بهجة العيش في الرخاء ، ويسرّيان كربة النفس في الشدة .

وكان أول من تولى القصص الرسمي في مصر سليمان بن عنتر التجيبي سنة ٣٨ تولاه مع القضاء ثم أفرد به ، ثم تعاقبت القصّاص من بعده في مصر على اختلاف بينهم في القدرة والغرض ، فكانوا أصداء للعقيدة ، وأبواقاً للسياسة ، تسمع منهم في كل عهد لهجة ، ولكل دولة سنداً وحجة . وترون ذلك أقوى ظهوراً في عهد الفاطميين . فقد كان « يعقوب ابن كلس » وزير المعز يعتمد على المناظرات في نشر فقه الشيعة ، وعلى القصص في جذب القلوب لأهل البيت . وكان مقتل الامام « علي » ومأساة الامام « الحسين » موضوع المنابر والسوامر في شهري رمضان والمحرم .

وقيل ان ريبةً حدثت في قصر « العزيز بالله » فتناقلتها الأفواه ورددتها الأندية فطلب إلى شيخ القصاص يومئذ « يوسف بن اسماعيل [1] » أن يلهي الناس عنها بما هو أروع منها ، فوضع قصة عنترة ونشرها تباعاً في اثنين وسبعين جزءاً سمرت بها مجالس القاهرة منذ ذلك الحين إلى

(١) وقيل انه الشاعر الطبيب ابو المؤيد محمد بن الصائغ الجزري . وممن قال بهذا الرأي الاستاذ كوسين برسيفال الذي طبع لهذه السيرة ملخصاً في باريس .

اليوم وهي الياذة العرب لا ينازعها هذا الشرف إلى الآن عمل فني آخر .

وفي القرن الرابع للهجرة كانت فورة هذا الفن ونهضته في بغداد والقاهرة . ففي عهدي « المقتدر بالله العباسي » و « العزيز بالله الفاطمي » كان القصاص الحكوميون والشعبيون يحتشدون لوضع الأخبار ، ويتنافسون في جمع الأسمار ، من الوراقين والرحالين والعامة .

ولكن القصص في العراق كان من عمل الكتاب ، يصورون فيه أنبل عواطف الناس ، وأجمل مواقف الحياة ، ويلقونه زهوراً وعطورا في مجالس الخلفاء ، وسوامر الملوك ، فكانت بلاغة المحدث وجلالة السامع ونبالة الموضوع تطبع القصة بطابع الجمال والاعتدال والقصر ، وتنزع بها إلى السليقة العربيـة المجبولة على الايجاز والقصد في الشعر والخطب والرسائل والقصص .

فما جمعه ووضعه « الجهشياري » و « ابن دلان » و « ابن العطار » في القرن الرابع من الأقاصيص في الحب الطروب ، والترف المسرف ، وما وضعه من قبل هؤلاء « سهل بن هرون » و « علي بن داود » و « أبان بن عبد الحميد » من الاسمار في الأمثال الرمزية والحكمة العالية والسياسة الرشيدة ، وما صنعه من قبل هؤلاء « عيسى بن دأب » و « هشام الكلبي » و « الهيثم بن عدي » من الأخبار في الهوى العذري والسخاء العربي في الاسلام والجاهلية — كل أولئك موسوم بسمة العقلية العربية الخالصة من حذف الفضول وترك الاستطراد وقلة المبالغة .

أما القصص في مصر فكان غالباً من عمل القصاصين والسامرين ، يلفقونه من الكتب ، ويتلقفونه من الأفواه ، ويحدثون به الدهماء في المجالس العامة . ورزق هؤلاء القصاص على قدر ما عنـدهم من القصص . فاذا ما انقطع أحدهم عن الحديث لنضوب معينه انقطعت به أسباب العيش ، فهم لذلك مضطرون إلى تطويل الموضوع بالاستطراد . وبسط الحادث بالتزيد ، وجذب القلوب بالاغراب والمبالغة .

ومن ثم اتخذ الأدب القصصي في مصر شكلاً لا عهد للأدب العربي به ، ذلك هو شكل القصة بالمعنى الذي نفهمه من كلمة رومان « Roman » في اصطلاح الفرنك ، فان المعروف الشائع من قبل — إنما كان المثل « Fable » والأقصوصة « Conte » والحكاية « Nouvelle » وهذه الأنواع قد تولد بعضها من بعض على نحو ما يرى الاستاذ « برونتير » الناقد الفرنسي من تطبيق مذهب « داروين » على الأنواع الأدبية ، فالأقصوصة نشأت من المثل ، والحكاية نشأت من الأقصوصة ، والقصة نشأت من الحكاية ، باتساع الخيال ، وفعل المبالغة ، وحكم الزمن . ولكن القصة العربية قد تأخر نشوءها إلى القرن الرابع حتى ظهرت بمصر ، لأن عملها يقتضي التطويل والتحليل والعلم بطبائع الناس وأوصاف الشعوب ، والعرب في عهودهم الأولى كانوا أبعد بطبيعتهم ومعيشتهم عن هذه الأمور ، ثم كانوا في عصور التحضر والاستقرار يؤثرون الخاصة بأدبهم فيضطرون في حضرة الملوك أن يراعوا أدب الحديث فلا يغرقون في الحادث حتى يجانب العقل ، ولا يسهبون في السمر حتى يجاوز المجلس ، ولا يسفون في القول حتى يصادم الخلق ، أما القصاص المصري فقد تهيأت له الأسباب اللازمة لخلق القصة : كان سمير الأوزاع والعامة فلم يتقيد معهم بقوانين الخُلق ، ولا بقضايا المنطق ولا بوقائع التاريخ ، فهو يصطنع اللهجة الصريحة ، ويستعمل الألفاظ القبيحة ، ويبالغ في الخلط والتلفيق ، قصداً إلى الاغراب والتشويق ، ويعتمد غالباً على المفاجآت القوية ، ويستطرد كثيراً إلى الحوادث العرَضية ، ثم يصادم الوقائع ويشوه الحقائق ، لأنه يجهلها ، والجمهور الذي يسمعه لا يعلمها ، فاستطاع بذلك أن يزور أغرب الحوادث ، ويجمع شتى الأحاديث ، ويترك لنا هذه المجموعة القصصية التي كانت ولا تزال للخاصة مبعث لذة ، وللعامة مصدر ثقافة .

كان القصاص المصري يعتمد في مادته على ما يصدر عن بغداد من الاقاصيص الموضوعة والمنقولة ، والروايات القديمة الصحيحة والمدخولة ،

ثم يضيف إلى ذلك ما تنوقل في مصر وما تجمع من الأخبار من التجار والرحالين والبحارين ، فقد كان هؤلاء بعد عودتهم من البلدان النازحة يدونون ما رأوا من الأعاجيب ، كما فعل اليعقوبي وابن فضلان وبزُرك بن شهريار مثلاً ، إذ يحدثون بها الناس كأن يقولوا لهم ما حكاه ابن خرداذبة من أن في بعض الأمم رجالاً عراض الوجوه ، سود الجلود ، لا تزيد قامة أطولهم على أربعة أشبار ، وفي جلودهم نقط حمر وصفر وبيض ، وإن فيهم من له أجنحة يطير بها ومن رأسه كرأس الكلب ، وجسمه كجسم الثور أو الأسد ، وما جاء في كتاب « المستطرف » من أن في « البلغار » من طوله أكثر من ثلاثين ذراعاً ، يأخذ الفارس تحت إبطه ، كما تأخذ الطفل الصغير ، ويكسر ساقه بيده كما تقطع حزمة البقل . وما رأى الرحالون بالطبع هذه الأشياء ، وانما رأوا صورَها على الآثار التي خلفها البابليون والفراعنة والرومان والفرس فظنوها حقيقة .

كان القصاص يتناول هذه الاخلاط فيؤلف منها قصة كثيرة الفصول والفضول ، تدور حوادثها على بطل واحد ، ولكنها تعرض من قبيل الاستطراد إلى حوادث شتى ، لا يصلها بحياة البطل إلا صلة واهية . انظروا مثلاً كيف صنع قصة « عنترة » : بناها على حادثة أصلية صحيحة هي « حرب داحس والغبراء » التي شبت لظاها بين عبس وذبيان قبيل الاسلام . ثم دارت رحاها على قطب من أقطابها وهو « عنترة بن شداد » العبسي ، فذكر نشأته في حادثة خرافية جذابة ، ثم وصف رجولته وبطولته وفصاحته وحبه وكرمه ، وما اتصل بذلك من عادات البدو ، كالضيافة والحماسة والاجارة والشعر والغزو والسلب والثأر ، ولكن حروب عبس وذبيان مهما هوِّل فيها وطول لا تشغل بال السامعين طويلا ، ولا تدرّ عليه من المال كثيراً ، فهو يوقع الخصومة بين عنترة وبين فرسان العرب فيقابلهم ويقاتلهم ويسمهم جميعاً بالنكول والعجز . والقصاص في أثناء ذلك ينقلنا في السهول والأودية ، ويقلبنا بين المضارب والأخبية ، حتى جلا

لنا من الحياة الجاهلية صورة صادقة لا تتمثل في خواطركم من طريق التاريخ المقتضب المفكك إلا بعد جهد . ثم ترى مع ذلك أن الشوق شديد ، وان الأمد الذي يريده بعيد ، فيخرج البطل من الجزيرة العربية ويقدم به إلى مصر بلد القصاص فيقود عنترة بها حروباً ، ويهلك شعوباً ، ويبتني حصوناً لا تزال العامة تعرفها إلى اليوم باسمه ، ثم يذهب إلى القسطنطينية ويزوجه من امرأة رومية . حتى إذا ظفرت المنون أخيراً بالشجاعة الخارقة عاد ابنه من « بيزنطة » إلى الحجاز فطالب بعرش أبيه وحارب معاديه ومغتصبيه ، والميتة التي اختارها القصاص لعنترة تدل على قدرة فنية عجيبة ، وكان « لامرتين » لا ينفك بها معجباً ، ومنها طروباً ، فقد ذكر أن « الأسد الرهيص » أحد خصوم « عنترة » المقهورين الموتورين رماه غيلةً بسهم مريش مسموم ، فلما أحس البطل فعل الموت في جسمه الوثيق خشي على قومه من بعده شرَّ الهزيمة وعار الفشل ، فوقف حيال العدو الثائر ممتطياً جواده ، متكئاً على رمحه ، وأمر جيشه بالتقهقر والنجاة . فارتد الجيش وبقي هو واقفاً يعالج سكرات الموت ، والعدو متحفز للهجوم ولكنه لا يجرؤ عليه خوفاً من عنترة حتى فاضت روحه على صهوة جواده ، وكان الجيش المتقهقر قد بلغ مأمنه ، ولمـــا طال وقوفه ، وجاوز الحد سكونه ، ارتاب الجيش المهاجم ، فدبر الحيلة لكشف الأمر فأرسلوا إلى جواده حجراً تهيجه ، فلم يكد يراها الفرس حتى وثب وثبةً خرَّ لها فارسه على الأرض صريعاً .

والغالب فيما أظن أن القصاص الماهر قد أخذ هذا الختام البارع من مصرع « سليمان بن داود » أمام عماله المسخرين من الجن ، وقد أجملته البلاغة المعجزة في هـذه الآية الكريمة « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الأرض تأكل منسأته . فلما خرَّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين » .

ظهرت هذه القصة الحماسية الجليلة في عصر كان وادي النيل فيه منبع

الحوزة ، باهر الجلالة ، صافي المورد ، لا يكدره والغ ولا واغل ، فكان استقلاله يلهم العزة ، وعروبته توحي الشهامة . فلما هبت الأعاصير الهوج بالبربرية الجامحة ، فأطفأت منائر بغداد ، وزعزعت عرش الخلافة ، وعبثت العجمة الجاهلة بتراث العرب : من علم وأدب ، وخلق ودين ، وعدت ذئاب الغرب باسم الصليب على الشام ومصر ، تنبح الهلال الآفل ، وتنهش المجد الطريد ، رأينا القصة المصرية تصور هذه الحياة الحزينة تصويراً عجيباً ، ورأينا القصاص قد اتسع خياله ، بقدر ما ضاق علمه ، فهو يخلق بلاداً لم توجد ، ويتصور حوادث لم تقع ، ويعتمد في العمل على الجن والسحر والخوارق .

فبين القرنين السادس والثامن من الهجرة ظهرت في مصر سلسلة من القصص الطويلة الجذابة غُفلاً من أسماء مؤلفيها : لأن القُصاص المحترفين إما كتبوها لانفسهم فيما أرجح ثم توارثوها خلفاً عن سلف حتى بلغت عهد المطبعة ، فنشرت على شكلها ، دون اسم ولا وسم ولا تعريف .

وأشهر قصص هذا الدور سيف بن ذي يزن ، والاميرة ذات الهمة ، وفيروز شاه ، فأما أنها كتبت في هذه العهود فذلك واضح لأدنى نظر من لغتها وأسلوبها وما تدور عليه من عادات واعتقادات وصور ، وأما أنها كتبت بمصر فذلك ثابت من أماكن وقائعها ، وأسماء أشخاصها ، فأبطالها جميعاً عاشوا بمصر ، حتى الذين لم يروها أقدموهم اليها . . .

فالمهلهل بن ربيعة كان الوجه البحري ميدان حروبه ، وسيف بن ذي يزن هو الذي أجرى النيل من جبال القمر بكتابه السحري الذي دفنه في جزيرة الروضة بالقاهرة ، وهو الذي خطط مدن مصر ، فالجيزة اسم من أسماء زوجاته ، وسبك الثلاث ودمنهور الوحش قائدان من قواده ، والنيل تفرع إلى فرعي رشيد ودمياط : لأن الملك « سيفاً » ، وهو قادم به من السودان وقف يقاتل الكفار الذين اعترضوه في رأس الدلتا فوقف النيل بوقوفه ، ولكن الماء وراءه قد عب عبابه وطفحت أواذيه فاندفق شطر منه إلى الشمال . واتجه الملك بالشطر الآخر إلى اليمين .

ومدينة « سمنود » أصلها سماء نود لأن الحكيم « نودا » صاحبها قد عقد عليها سماء بالسحر توقياً لغارات الملك سيف وهو ذاهب بالنيل إلى مصبه . ثم دفنه المؤلف أخيراً فوق جبل المقطم ، وقال أن قبره هو الذي يعرف الآن بالجيوشي .

ولقد كان للحروب الصليبية أثر ظاهر في نسج هذه القصص في هذا الدور ، فان العواطف الدينية والحماسة القومية التي ألهبتها في قلوب المسلمين هذه الغارات حملت القصاص على أن يتملق هذه العواطف ويغذيها بما يلفق من الاشعار والاخبار في فضائل الجهاد والاستشهاد والصدق والصبر .

فسيف بن ذي يزن كان حنيفاً مسلماً يقتحم المعاقل والارصاد على على الوثنية والشرك في معالم الارض ومجاهلها ، وهو يقول : « لا اله الا الله إبراهيم خليل الله » . وكذلك سائر الابطال في سائر القصص ، الا أنهم كانوا بعد الاسلام لا قبله .

وبين القرنين الثامن والعاشر للهجرة كان حكم المماليك بفساده ، وحكم الاتراك باستبداده ، قد أتيا على ما بقي من أركان الاجتماع ، وحللا أواصر الاخلاق والطباع ، ومُني الناس بالحاح الأوباء ، وشراهة الجباة والرؤساء ، واستشعرت نفوسهم ذل الحرمان والقهر ، فأخلدوا إلى التصوف أو إلى المجون ، وعالجوا همومهم بالحشيش والافيون ، وحارب بعضهم بعضاً بالشطارة والحيلة ، وتقاتلوا على حطام الحياة بالخديعة والغيلة ، وحال نظام الفتوة في مصر إلى مناسر من اللصوص والعيارين ، يقطعون متون السبل ، ويعبثون بالأمن والناس من ضعف السلطان يخضعون لهؤلاء ويجلونهم إجلال الزعماء ويتناقلون حوادثهم وأحاديثهم بالاعجاب والمبالغة فظهر حينئذ ذلك القصص الوضيع الذي يمثل هذه الحال بحقارتها وسفالتها ، ويصور تلك البيئة بخرافاتها وجهالتها ، كالقصص الذي يدور على « علي الزيبق » و « أحمد الدنف » ، و « حسن شومان » ، و « دليلة المحتالة » ، أو « دالة

المحتالة » كما يسميها « المسعودي » . وأصبح أسلوب القصاص في هـــذا الدور دائراً بين الجهالة والقحة . فهو يستعمل في قصصه لغةً مبتذلة وتراكيب فاحشة وجملاً محفوظة ووقائع واحـدة يرددها في كل قصة . ويكررها في كل مناسبة . وكانت شهوة السهر والسمر قد بلغت مداها في ذلك الحين لتغلب البطالة على أهل القاهرة واعتماد الناس في جمع الثروة على الحيلة والشعوذة والسحر والقدر . فتكدّسوا في السوامر حول القصاص وقد تجمع لهؤلاء من خلال القرون ذخيرة وفيرة من الأساطير والأسمار . فهبوا يدونونها كما دونت تلك السير من قبل . فكان مما دون في تلك الحقبة الغريبة كتابنا وموضوع محاضرتنا « ألف ليلة وليلة » .

« ألف ليلة وليله » يا سادة كتاب شعبي تمثلت فيه طوائف الشعب وطبقاته ، وتراءت من خلاله ميوله ونزعاته ، وتكلمت فيه أساليبه ولهجاته ، فهو كالشعب وكل شيء للشعب . قد لقي من جفوة الخاصة وترفّع العلية أذىً طويلا ، أغفله الأدب فلم يتحدث عنه ، واحتقره الأدباء فلم يبحثوا فيه ، ورآه « محمد بن اسحق المعروف بابن النديم » فقال إنه غثّ بارد ، لأنه نظر إليه نظره إلى الأدب الارستقراطي الذي يصور ترف الخيـال وجمال الصناعة . فلمـا حقق العصر الحديث تغلّب الديمقراطية وسيادة الشعوب ، واستتبع ذلك عناية أصحاب المذهب الابداعي « الرومانتكيين » في الغرب بحياة السوقة والدهماء عنايتهم بحياة الملوك والنبلاء ، وهبّ رواد الاستعمار وعشاق الآثار ينقبون عن « فولكلور [1] الشرق أخـذ أدباؤنا بحكم التقليد والعدوى — يعطفون على أدب السواد ، فدونوا اللغة العامية ، وجمعوا الأغاني الشعبية ، ونظروا بعض النظر في فن القصص ، وسمعوا في رجفة من الدهش — إلى قول الأوربيين : ان في أدبنـا الموروث

(١) فولكلور « Folklore » كلمة انكليزية يراد بها في الأدب الأوربي — مجموع التقاليد والأساطير والأسمار الشعبية لأمة من الأمم .

كنزاً دفيناً — من هذا النوع له في أدبهم أثر قوي وشأن نابه . ولكنهم لم يخلدوا بدياً إلى هذا القول بثقة . واستكثروا على هذا الكتاب الخرافي السوقي أن يذكر في الكتب ويوضع في المكاتب وينبه الناس إلى فضله ويهنأ العرب بانتاجه حتى رأينا بعيوننا أنه نقل منذ أوائل القرن الثامن عشر إلى كل لغة . وحلّ الموقع الأول من كل أدب ، وظفر باعجاب النوابغ من كل أمة . حتى قال « فولتير » انه لم يزاول فن القصص إلا بعد أن قرأ ألف ليلة وليلة أربع عشرة مرة ، وتمنى القصصيّ الفرنسي « استندال » أن يمحو الله من ذاكرته « ألف ليلة وليلة » حتى يعيد قراءته فيستعيد لذته .

ثم قرأنا أن أقلام المستشرقين أخذت تتجادل منذ أوائل القرن التاسع عشر في أصله ، وتكشف عن مناحي جماله وفضله ، وان دوائر المعارف الكبرى سجلته في حقولها ، وخصته بالطريف الممتع من فصولها . وان الأستاذ « فكتور شوفان » أفرد له في كتابه « تاريخ المؤلفات العربية » جزءين سرد فيها مخطوطاته ومطبوعاته وترجماته ، وجزءين آخرين لخص فيها طائفة كبيرة من حكاياته ، وان الكتاب الروائيين قد استغلوه للسينما والمسرح فاستخرجوا للأول رواية « لص بغداد » وللثاني « قسمت » أو « القضاء والقدر » ، وان رجال التربية والتعليم في فرنسا والمانيا وانكلترا — قد اقتبسوا منه أدباً للأطفال فاختصروه وصوروه ، ولقيت أنا منذ عامين في القاهرة مستشرقاً اسبانياً وآخر اميركياً قد أرسلت الأول جامعته ، والثاني جمعيته ، لينقبا في مدن الشرق عن مخطوطات « ألف ليلة وليلة » .

حينئذ أخذت خاصتنا تقرؤه وتسمعه ، ومطابعنا الراقية تصححه وتطبعه ، وأدباؤنا المترفعون يشيرون إليه في تاريخ الأدب . ولكنهم إلى اليوم لم يدرسوه دراسةً علمية تكشف عن لبابه ، وتستقطر النطف العذاب من عبابه ، وهو على الرغم من جميع ما فيه ، قد سجل على توالي القرون

أطوار اجتماعنا ، وصوّر بالألوان الزاهية مختلف أخلاقنا وطباعنا ، ونشر في الشرق والغرب أنوار حضارتنا وازدهار ثقافتنا وجمال تقاليدنا ، وأتم نقص التاريخ الذي تجاهل الشعب ، والأدب الذي احتقر العامة . فكان منه للناقد الاجتماعي والمؤرخ الفيلسوف والأديب الباحث والكاتب القصصي منهل ثرّ الينابيع ، صافي المورد . وهو — فضلاً عن ذلك — كان للشعب العربي في زمن انحلاله ، وضياع استقلاله ، وصعوبة اتصاله قبساً يبعث الحرارة في النفوس الخامدة ، وذكرى تلوع القلوب أسىً على المجد الذاهب ، وصلة ثقافية تجمع المنازع المتفرقة على الوحدة .

يكاد يكون « ألف ليلة وليلة » علماً ثانياً على بغداد ، بل ربما كان أدلّ عليها اليوم في نظر الشعوب الحديثة من شأنها الرفيع في الحضارة ، ومكانها البارز في التاريخ : ذلك لأن آثارها المادية قد ألح عليها طغيان الدهر وفيضان النهر حتى محواها . أما هي في هـــذا الكتاب فلا يزال سناها باهياً لم يخبُ ، وصداها داوياً لم ينقطع ، فهو للحضارة العربية في « بغداد » متحف زاخر بالأعاجيب ، دونه ما للحضارة الفرعونية في مصر من معابد ومقابر وكنوز ، لأنه يسير في البلاد وهي ثابتة ، ويتحدث إلى جميع الشعوب وهي صامتة ، حتى أصبح لفظ « بغداد » في جميع اللغات مرادفاً للعمران الزاهر ، والترف العجيب ، واسم الرشيد رمزاً للعدل الشامل والزمن الخصيب . ذكر أحـد كتاب الانكليز فترة من الزمن الرخي فقال : كان ذلك في العصر الذهبي إذ كان يحكم الخليفة العادل هرون الرشيد .

ذلك بعض فضل الكتاب على « بغداد » . وقد ذكرت من قبل أنه لم يُؤلف على هذه الصورة فيها ، ولم يؤلفه أحد من بنيها ، وإنمـا جمع في مجالس القصص في القاهرة ، ودون على هذا الشكل في القاهرة

وطبع أول طبعة كاملة في مطبعة الحكومة بالقاهرة . ثم كان حظ القاهرة من كتاب « ألف ليلة وليلة » أن صوّرها للناس مثابةً للاحتيال والشطارة والشعوذة والجهل بينما يصور « بغداد » مهبطاً للفضل ، وموطناً للنبل ، ومعدناً للكرم ، وعشاً للحب ومظهراً للترف ، حتى كان من جرّاء ذلك أن أهل « بغداد » لا يزالون يقولون « عياق مصر وحيال مصر » ونحن ما زلنا نقول في القاهرة : تبغدد فلان إذا أظهر البغددة . وهي كلمة مشتقة من « بغداد » تدل على السرف والترف والبطر والنبل !

وسبب اختلاف حظ البلدين من الكتاب أن القصاص المصري إذا تحدث عن مصر — وهو منها وفيها — تحدث عما يرى ، وعبر عما يسمع ، وقد علمنا في أي عهد من عهود الضعف والانحلال ظهر هذا الكتاب بمصر . أما إذا تكلم عن بغداد فانما يتأثر بعوامل أربعة : يتأثر بما وُضع من الأقاصيص الجميلة في بغداد ، ويتأثر بما ملأ الآذان وشغل الأذهان عن عظمة بغداد وأبهة الخلافة ، ويتأثر بما ركّب الله في طباع الناس من تقديس الماضي ، وتعظيم البعيد ، ويتأثر بجهله أحداث التاريخ وتطور الأمم ، فيأبى وهو في القرن العاشر من الهجرة ان يعترف بموت « الرشيد » ، ومصرع « بغداد » ، ونكبة المجد الأثيل .

أما بعد فاني أحاول الآن يا سادتي أن أكشف عن حقيقة « ألف ليلة وليلة » بمقدار ما تهيأت لي المراجع في « بغداد » ، بعد أن توفرتُ على قراءته ودراسته في مختلف الطبعات ، ووقفتُ على ما نشر عنه من الأبحاث في بعض اللغات . وما أريد بالطبع أن أدفع السأم في نفوسكم بذكر ما لا يحتمله المقام من التحليل المفصل ، وانما أجتزيء بذكر ما لا يسع الرجل المثقف جهله من أمر هذا الكتاب .

ليس من اليسير على الباحث الكشف عن حقيقة كتاب كألف ليلة وليلة أصله مفقود ، ومؤلفه مجهول ، وزمان وضعه مبهم ، ومكان حوادثه مشتبه ، لأننا إذا فزعنا إلى التاريخ نسأله قال : إن ما يتصل بالأقاصيص والأساطير كان خارجاً بطبيعته عن اختصاص الأديب ومنهاج المؤرخ ، وإذا رجعنا إلى نص الكتاب ندرسه لنتبين من لغته وأسلوبه وأسماء أبطاله ومواطن رجاله وعقائد أهله ، نصيب كل جنس وجيل في تكوينه ، وجدناه من هذه الجهة ضعيف الحجة خادع الرأي قليل الغناء ، لأن كثيراً من الناسخين والقصاصين في البلاد المختلفة قد اعتوروه فنقلوه على وفق لهجاتهم ، وعبثوا به على مقتضى شهواتهم ، حتى لا تجد نسختين منه تتفقان لا في الترتيب ولا في النص . ففي حكاية البنات مع الحمال والصعاليك الثلاثة مثلا يقول الصعلوك الثاني : انه قرأ القرآن بالروايات السبع ، وحفظ الشاطبية ، والشاطبية في علم القرآت كالألفيـة في علم النحو ، وفي بعض النسخ لا يذكر الشاطبية ويكتفي بذكر الروايات السبع . فلو أن ذكر الشاطبية كان عاماً في جميع النسخ لحكمنا بأن هذه الحكاية كتبت بعد سنة ٥٩٠ وهي السنة التي توفي فيها الشاطبي . وفي حكاية مزين بغداد يذكر المزين الفيلسوف سنة ٧٦٣ في نسخة وسنة ٦٥٣ في نسخة أخرى ، فعلى أي الرقمين نعتمد في تاريخ هذه الحكاية ؟ إذن لم يبق للباحث غير الاعتماد على النقد المبني على تاريخ الحضارات المقارن ، وعلى ما بقي في الكتاب من صور الأساليب ورسوم التقاليد التي لم يشوهـــا الناسخ ، ولم يعف عليها الزمن .

كان أول من ذكر الف ليلة وليلة من المؤرخين علي بن الحسين المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦ في كتابه مروج الذهب ، فقد قال حين عرض لأخبار إرمَ ذات العماد : « ان هذه أخبار موضوعة من خرافات مصنوعة نظمها من تقرب من الملوك برواياتها وان سبيلها سبيل الكتب المنقولة الينا

والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية » — وفي رواية أخرى الفلهوية بدل الهندية — مثل كتاب هزارأفسانة ، وتفسير ذلك بالفارسية ألف خرافة واسم الخرافة بالفارسية « أفسانة » . والناس يسمون هذا الكتاب الف ليلة . وهو خبرالملك والوزير وابنته وجاريتها شهرزاد ودنيازاد » ثم جاء بعده محمد ابن اسحق المعروف بابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ فقال في الفهرست : « أول من صنف الخرافات وجعل لها كتباً وأودعها الخزائن الفرس الأول ، ثم أغرق في ذلك ملوك الاشغانية وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس ، ونقلته العرب الى اللغة العربية وتناوله الفصحاء والبلغاء فهذبوه ونمقوه وصنفوا في معناه ما يشبهه ، فأول كتاب عمل في هذا المعنى كتاب هزار أفسانه ومعناه الف خرافة .

وكان السبب في ذلك أن ملكاً من ملوكهم كان اذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد ، فتزوج بجارية من أولاد الملوك لها عقل ودراية يقال لها شهرزاد ، فلما حصلت معه ابتدأت تخرفه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ويسألها في الليلة الثانية عن تمام الحديث الى أن أتى عليها الف ليلة . . . ورُزقت في أثنائها منه ولداً أظهرته وأوقفت الملك على حيلتها عليه ، فاستعقلها ومال اليها واستبقاها ، وكان للملك قهرمانة يقال لها دنيازاد فكانت موافقة لها على ذلك . وقد قيل ان هذا الكتاب ألف لحميا ابنة بهمن » .

ثم قال ابن النديم في موضع آخر : « والصحيح ان شاء الله أن أول من سمر بالليل الاسكندر وكان له قوم يضحكونه ويخرفونه لا يريد بذلك اللذة وانما كان يريد الحفظ والحرس ، واستعمل لذلك بعده الملوك هزارافسانه ويحتوي على الف ليلة وعلى دون المائتي سمر لأن السمر ربما حدث به في عدة ليال . وقد رأيته بتمامه دفعات ، وهو بالحقيقة كتاب غث بارد الحديث » .

فالرجلان كما ترون متفقان على أن الكتاب منقول عن هزار افسانه الفارسي، وانه موضوع في خبر الملك والجاريتين شهرزاد ودنيازاد، وان اسمه في عصرهما كان الف ليلة لا الف ليلة وليلة « ولا عبرة بمجيء اسم الكتاب كاملا في الطبعة الحديثة المصرية لمروج الذهب فان ذلك من زيادة المصحح » . ويختلفان في نسب البنت والجارية، فيقول المسعودي ان شهرزاد بنت الوزير ودنيازاد جاريتها وهو الصحيح، ويقول ابن النديم ان شهرزاد من أولاد الملوك وان دنيازاد قهرمانة الملك، ويزيد أن الكتاب يحتوي على الف ليلة وعلى دون المائتي سمر وانه ألف لحميا أو هميا أو حماني أو حمانة أو جمانة أو خماني على اختلاف الروايات وهي بنت الملك بهمن بن اسفنديار .

هاتان هما الوثيقتان الخطيرتان في تاريخ هذا الكتاب ولا يوجد غيرهما فيما نشر علينا من كتب مؤرخينا القدماء، اللهم إلا إشارة إلى وثيقة ثالثة مفقودة نقل عنها المقريزي في الخطط والمقري في نفح الطيب وعزواها الى مؤرخ مصري اسمه القرطي الف كتاباً في تاريخ مصر على عهد الخليفة العاضد الفاطمي، ذكر فيه الف ليلة وليلة وقايس بين قصصه وبين ما يتداوله الناس في عصره من الحكايات المشهورة . وفي هذا دليل على ان الكتاب على أي صورة من الصور كان معروفاً في مصر على عهد الفاطميين ، وان اسمه كان اذ ذاك الف ليلة وليلة ، وان عنصراً من القصص العربي قد دخل في هيكله . ثم تجاهله بعدئذ أدباؤنا ومؤرخونا فلم يحققوا مصدره ، ولم يسجلوا نموه وتطوره ، حتى جاء رأس المستشرقين البارون سلفستر دساسي ، فبدأ البحث العلمي في أصله بمقالين نشرهما في جريدة العلماء Journal des savants أولهما في سنة ١٨١٧ والآخر بعده باحدى عشرة سنة . وجملة رأيه أن الكتاب تأليف جماعة لا تأليف واحد

وانه مؤلف في العهد الأخير، وانه عربي الوضع من فاتحته الى خاتمته، ودفع قول المسعودي أن فيه عناصر أجنبية من الهندية أو الفارسية. فناقش أدلته قوم آخرون وأشهرهم الاستاذ « يوسف ڤون هامر » الالماني فقد نشر في سنة ١٨١٩ مقالاً في احدى المجلات الالمانيـة، وفي سنة ١٨٢٣ مقالاً آخر في المجلة الآسيوية أيد فيها رأي المسعودي تأييداً لا سبيل عليه لآخذ. وفي سنه ١٨٣٩ ترجم الاستاذ « وليم لين » الانكليزي قسماً من الف ليلة وليلة وقدم له مقدمة حاول أن يثبت فيها أن الكتاب تأليف رجل واحد وانه ألف فيما بين سنتي ١٤٧٥ و ١٥٢٥ للميلاد. ثم استأنف هذا البحث في هذا العصر طائفة من ثقات العلماء أشهرهم: كوجي ومولر ونولدكي واوستروب وكريمسكي وشوڤان وكارادڤو، فاستجلوا على قدر إمكانهم ما غمض من أصل هذا الكتاب حتى أصبح من الممكن بعد تمحيص ما قالوه وتصحيح ما جهلوه أن تثبت في هـذا الأصل رأياً يقارب الصواب ان لم يكنه.

أصل الكتاب وطبقاته

أصل هذا الكتاب نواة من الاقاصيص الهندية والفارسية تسمى هزارافسانه ترجم الى العربية من الفهلوية في أواخر القرن الثالث للهجرة بعنوان « الف ليلة »، وهو الذي رآه المسعودي وانتقده ابن النديم. ثم تجمع حول هذه النواة في الازمنة الواقعة بين القرن الرابع والقرن العاشر من الهجرة طبقتان طبقة بغدادية صغيرة، وطبقة مصرية كبيرة. فأما النواة أو الأصل أو الاطار كما يسميه الباحثون فمؤلف من الحكايات الباقية الآتية: حكاية الملك شهريار وأخيه شاه زمان، وهي مقدمة الكتاب، وحكاية التاجر والجني، وحكاية الصياد والجني، وحكاية حسن البصري،

وحكاية الحصان الآبنوس ، وحكاية الامير باسم وجوهر السمندلية ، وحكاية أردشير وحياة النفوس ، وحكاية قمر الزمان بن الملك شهرمان والاميرة بدور ، وحكاية سيف الملوك وبديعة الجمال .

وقد اختلفت كلمة الباحثين في أصل هذا الأصل كما ألمعنا الى ذلك من قبل ، ففريق يرى ورأيه الأرجح أن المقدمة وبعض حكايات الاصل هندية ويبني هذا الرأي على المشابهة في الموضوع والطريقة والأسلوب ، فأما المشابهة والموضوع فان في حكاية الملك شهريار وأخيه مشابه من « كاتاسارت ساجارا » الهندية . وأما المشابهة في الطريقة فان إدماج حكاية في حكاية وتوليد قصة من أخرى احدى خصائص الأدب القصصي الهندي وهي ملحوظة في قصة « مهابهاراته » و « بنجه تنتري » أصل كليلة ودمنة ، لان الباعث الاول على القصص في أدب الهند كان ابتاء الفرصة واكتساب الوقت حتى يؤفك المتهور عن عزمه ، ويحجز المتسرع عن وجهه ، كما فعل الببغاء مثلاً مع زوجة صاحبه في حكاية « سوكاسابتاتي » فقد كان يقص عليها كل يوم أحسن القصص ليعوقها بلهو الحديث عن زيارة خليلها في غيبة حليلها ويقطع حديثها دائماً بقوله : سأقص عليك البقية غداً اذا بقيت في البيت . وهذه الطريقة وذلك الباعث نجدهما في كثير من حكايات الف ليلة وليلة فلا نزاع اذن في انها هندية . وأما المشابهة في الأسلوب فان من لوازم القاص الهندي أن يقول : لا تفعل ذلك وإلا أصابك ما أصاب فلاناً ، فيسأله السامع وكيف ذلك ؟ فيجيب القاص على هذا السؤال برواية القصة . وهذا الاسلوب نفسه مستعمل في تلك الحكايات من الف ليلة ، وقولهم فيها وكيف ذلك ؟ ترجمة حرفية لهـــذه الجملة السنسكريتية « كاتام إتات » ، ثم يمضي هذا الفريق في تطبيق نظريته على بعض الحكايات ، وينتهي إلى أن هناك طائفة من الاقاصيص لا شك في أنها

فارسية ، وهي حكاية الحصان الآبنوس وحكاية حسن البصري وحكاية سيف الملوك وبديعة الجمال وحكاية قمر الزمان والأميرة بدور وحكاية الامير باسم والاميرة جوهر السمندلية وحكاية أردشير وحياة النفوس .

وفريق آخر يرى أن الاصل كله فارسي تأثر بالعقائد اليهودية والاغريقية والاسلامية ، ويريد أحدهم وهو الاستاذ كوجي أن يجعل بين هيكل الف ليلة وليلة وبين قصة استر اليهودية صلة ونسبة . ذلك لأن ابن النديم في الفهرست يقول ان هزارافسانه ألف لحميا بنت بهمن ، والطبري يقول ان استر هي زوج بهمن ، والمسعودي يجعل استر زوجة لبختنصر ويسميها دينازاد ، ثم يطلق اسم شهرزاد أيضاً على أم حميا بنت بهمن أي على زوجة بهمن وهي التي سماها الطبري استر . ويقول المسعودي أيضاً في موضع آخر أن أم حميا يهودية ، ويعود الفردوسي والطبري والمسعودي فيطلقون اسم شهرزاد على حميا نفسها وهي بنت الملك بهمن وزوجه على عادة الفرس الاولين . أما وجه الشبه بين قصة استر المذكورة في التوراة وبين مقدمة الف ليلة فهو أن الملك أسريوس كان كالملك شهريار لا يرى المرأة الا ليلة واحدة ، فتزف اليه البكر مساء ليطردها من قصره صباحاً دون أن يقتلها كما يفعل شهريار ، واستر كانت كشهرزاد تستهوي الملك وتخلب لبه فيستبقيها ، وهي بنت الوزير وشهرزاد بنت الوزير ، وهي تغرر بنفسها لتنقذ بنات جنسها من شر الفضيحة والذل ، وشهرزاد تفعل ذلك الفعل لتدرأ عن بنات قومها خطر السباء والقتل .

أما علة هذه الآراء المتناكرة التي تجعل هذا الاصل عربياً بحتاً أو فارسياً بحتاً أو هندياً مشوباً ، فهي ان القصاص العرب قد عبثوا به عبثاً شديداً فبدلوا أسماءه وغيروا أسلوبه وموهوا لونه واخترعوا بعضه وطبعوه بطابع اسلامي محض ، ثم بثروه في جوانب الكتاب وثنايا القصص حتى التاث على المقاييس الفنية فرزه وتحديده .

وأما الطبقة البغدادية فتتألف من أقاصيص غرامية صغيرة انتزعت من حياة العرب واتسمت بسمة الاسلام وفاضت بنعيم الحب والترف . تمثل حياة الطبقة الوسطى بأسلوب صحيح عذب وتصور حضارة بغداد في أيام العروس[1] بخيال قوي خصب ، وتشهدكم سورة الغنى في الأسواق ، وضجة الغلمان في الافنية ، وقصف الجواري في المقاصير ، ومداعبة الزوارق اللاهية في دجلة ، وتجعل من الخليفة الرشيد ملاك رحمة ورسول عناية يجيء متنكراً وظاهراً في كل مكان بالثروة المحروم والعدل المظلوم والوصل للعاشق البائس . ولا أقصد بذلك الى أن كل حكاية يتدخل فيها الرشيد تكون بغدادية ، فان افتتان الناس بمجده ، وازدهار العراق في عهده ، جعلاه رمزاً للرخاء والعدل حتى في زمن غير زمنه ووطن غير وطنه .

تجمعت هذه الطبقة في مدى القرنين الرابع والخامس مما أثر عن الرواة ودوّن في الكتب مستقلاً وغير مستقل ، فهي على ما أرجح بقايا القصص التي نشرها الادباء البغداديون ثم طواها الزمن ، وقد عد ابن النديم في الفهرست عشرات منها كقصة علي بن أديم ومنهلة ، وقصة عمرو بن صالح وقصاف ، وقصة أبي العتاهية وعتب ، وقصة وضاح وأم البنين ، وقصة احمد بن قتيبة وبانوحه ، وقصة ريحانة وقرنفل ، وقصة سكينة والرباب الخ . . .

وأشهر حكايات هذه الطبقة حكاية علي بن بكار وشمس النهار ، وهي قصة شهيدين من شهداء الحب تشعر النفوس حرقة الأسى على جدهما العاثر ونهايتها المحزنة ، وقد صيغت في أسلوب رقيق وعبارة مهذبة واشتملت على نوع من الأدب يكاد يخلو منه أدب الخاصة وهو الرسائل الغرامية

(١) ايام العروس اسم كان يطلقه البغداديون على عصر الرشيد . (للمسعودي)

التي تجري بين العاشقين إذا عز اللقاء وعيل الصبر . ثم حكاية أنس الوجود وورد الأكمام ، وهي قطعة حب وشعر وغزل . تجدون من فيها : اما محباً أو حبيباً أو واصلاً بينها ، والشعر الذي تضمنته انما أنشيء لها خاصة فهو مطابق لمقتضى أحوالها ، مشتمل على أسماء أبطالها ، وذلك قليل في سائر الكتاب كقوله من أبيات :

ما خاب من سماك أنس الوجود يا جامعاً مابين أنس ٍ وجود
يا طلعة البدر الذي وجهه قد نوّر الدنيا وعم الوجود

ثم حكاية البنات الثلاث مع الحمال والصعاليك الثلاثة . ثم حكاية النائم اليقظان أو أبي الحسن الخليع ، ثم حكاية بدور وجبير بن عمير الشيباني ، ثم حكاية الرشيد مع الخليفة الثاني محمد بن علي الجوهري ، ثم حكاية المعتضد مع أبي الحسن الخراساني ، وهي تدور على السرف والترف والحب وتقص علينا مصرع المتوكل ، ثم حكاية الشاب البغدادي مع جاريته . ثم حكاية الجواري الضرائر . ثم حكايات السندباد البحري ، وهي وصف جذاب شائق لسبع سفرات مخطرات في مياه الهند والصين قام بهن السندباد في عهد بلغت فيه بغداد والبصرة غاية لم تدرك يومئذ في العمران والعظمة .

ومما لا جدال فيه أنها كانت في الأصل رحلة حقيقية شوهها الناس بالمبالغة ، وزيفها القصاص بالافتعال والتزيد ، ولعل صاحبها هو الذي نحا بها هذا المنحى من الاغراب كما فعل بزرك بن شهريار في كتابه عجائب الهند . فلو صفيناها من سخف الاساطير وصرف الحديث كالسمكة العملاق التي يظنها الملاحون جزيرة ، وبيضة الرخ التي يحسبها الراؤن قبة ، إذن لتكشفت عن تفاصيل دقيقة تطابق ما كتبه الرحالون في هـــذا الموضوع كوصف جزر المهراجا أو المهرجان كما يسميه السندباد ، والبحث

عن الماس بواسطة النسور في سيلان ، وما ذكر عن الفيل والكركدن وشجر الكافور وتجارة القرنفل الخ ...

وأصدق ما في حكايات السندباد تصويرها لنفسية الرحالة الذي يشغف قلبه حب الأسفار ومصارعة الأخطار وجهاً لوجه ، فهو في كل سفرة يخوض غمرات الهول ويكابد غصص الغرق ويأخذ على نفسه الموثق الغليظ الا يزمع رحلةً بعد هذه المرة . فاذا ما عاد سالماً غانماً الى دياره ، ونعم حيناً بالعيش الرخي بين ندماه وسماره ، عاده الوله الشديد الى البحر الغادر ، ونازعته نفسه الطلعة الى الأفق البعيد ، فيجتوي الراحة ، ويعاف النعيم ، ويبتاع البضائع ، ويكتري السفينة ، ثم يقلع من البصرة !!

وأما الطبقة المصرية فهي أوسع الطبقات وأجمعها وأصلحها للبحث وأصدقها في اللهجة وأقلها في البلاغة . تألفت في مدى خمسة قرون بين القرن الخامس والقرن العاشر من القصص العربية والتقاليد الاسلامية والسير اليهودية والأساطير الفرعونية . وقد قسمتها حين حللتها إلى طبقتين قديمة تنتهي بالقرن الثامن وحديثة تنتهي بالقرن العاشر . فالطبقة القديمة حسنة الأسلوب مطردة السياق شريفة الغرض تدور على المغامرة والحرب ، وتعارض الأخلاق وتضارب العواطف ، وتعتمد على الطلاسم والارصاد والجن والسحر والقدر ، كحكاية جودر التاجر وإخوته ، وحكاية الوزيرين نور الدين وشمس الدين ، وحكاية مسرور وزين المواصف ، وحكاية قمر الزمان الثانية ، وحكاية الخياط والأحدب ، وحكاية مزين بغداد ، وهي قطعة فنية قوية رائعة ، ثم حكاية علي شار أو بشار مع زمرد . والطبقة الحديثة على الجملة عامية اللغة ركيكة الاسلوب جريئة العبارة تدور تارة على حيل المحتالين ومكايد العيارين ومخاطر اللصوص ، وتارة على تصوير الاخلاق وتذكير النفوس الغافلة بالعبر . وظهور القصص المحتال

الداعر ، بجانب القصص المتصوف الزاهد في هذه الطبقة ، انما اقتضته طبيعة المجتمع المصري يومئذ من التجاء فريق من الناس الى الله وانصراف فريق آخر الى الشيطان . وقد كان من الممكن أن تبدو هذه الظاهرة أيضاً في قصص بغداد لولا أن مغامرات اللهو والحب فيها قد غلبت في نفوس القصصيين على كل شيء ، وهم الى ذلك كتاب يتأبهون عن حياة العامة . فقد كان في بغداد على عهد الخليفة المعتضد بالله رجل اسمه العقاب وكنيته أبو الباز شهر بالكيد والحيلة حتى قال فيه المسعودي في الجزء الثاني من مروج الذهب ص ٤٧٩ من طبعة مصر « انه برز في مكائده وما أورده من حيله على دالة المحتالة وغيرها من سائر المكارين والمحتالين ممن سلف وخلف منهم » ثم ذكر بعض حوادثه وهي غريبة .

وكان في بغداد كما كان في القاهرة نظام « التوابين » وهم اللصوص الذين اذا أقعدهم الكبر عن السرقة تابوا ورسمهم الخليفة شيوخاً لأصناف اللصوص فاذا حدثت حادثة عرفوا فعل من هي . ذكر ذلك المسعودي أيضاً في ص ٤٧٣ من الجزء نفسه وكانت بغداد والقاهرة تتبادلان هذا الصنف من الزعماء والشيوخ كما يقصه علينا الف ليلة وليلة .

تأثر القصاصون المصريون في حكايات الحيل إذن بطبيعة العمران ، فضلاً عن تأثرهم بما بقي مذكوراً على بعض الالسنة من أساطير العهود الفرعونية ، فان قصة علي بابا واللصوص الاربعين مثلاً تشبه قصة وردت في « كتاب الاقاصيص الشعبية في مصر القديمة » لكبير الأثريين الاستاذ « ماسبيرو » . ثم تأثروا في أقاصيص العبر والعظات بالاسرائيليات ، كحكاية مدينة النحاس ، وقصة حاسب كريم الدين وبلوقيا وجان شاه ، وذلك ما دعا الاستاذ « فكتورشوفان » إلى أن يقول أن القصص المصرية الأخيرة إنما وضعها يهودي مصري أسلم ، وذلك بالطبع وهمٌ من الأستاذ لأن علم العرب بالاسرائيليات منذ ظهر الاسلام لا يقل عن علم اليهود بها .

وأشهر أقاصيص هذه الطبقة حكاية علي بابا واللصوص الأربعين ، وحكاية علاء الدين أبي الشامات والمصباح العجيب ، وهي التي اقتبسوا منها لص بغداد للسينما ، ثم حكاية معروف الاسكاف ، وحكاية أبي قير وأبي صير ، وقصة حاسب كريم الدين وملكة الحيات ، وقصة مدينة النحاس ، وحكايات أحمد الدنف وحسن شومان وعلي زيبق ودليلة المحتالة وزينب النصابة ، وحكاية الملك الناصر والولاة الثلاثة ، وحكاية الرجل الصعيدي وامرأته الافرنكية .

وفوق هذه الطبقات الثلاث أو الأربع تراكم في العصور الحديثة عدد من القصص الكبيرة والأقاصيص الصغيرة ليبلغ الكتاب الغاية التي حددها له اسمه . وفي هذه الزيادة تختلف النسخ اختلافاً شديداً . من تلك القصص طائفة حائلة اللون من أثر التقليد كقصة عجيب وغريب وسهيم الليل ، وهي من قصص البطولة والحرب تستعر وقائعها في العراق بين العرب والعجم أو بين دين الحنيفية والمجوسية ، وتستعير صورها من قصة عنترة وسيرة ابن ذي يزن ، ثم قصــــة عمر النعمان وأولاده وهي مضروبة على قالب أردشير وحياة النفوس ، ثم قصة تاج الملوك والأميرة دنيا وهي كسابقتها تقليد لقصة أردشير ، ثم حكاية جان شاه وهي تقليد سخيف لحكاية حسن البصري ، ثم حكاية وردخان والملك جليعاد وهي ملفقة من أمثال كليلة ودمنة .

وطائفة أخرى يغلب فيها أثر التجديد كحكاية هكتار الحكيم ، وأقصوصة شول وشمول ، وحكاية الجارية تودد ، وهي حكاية ثقافية تعليمية كتبها فقيه مصري في العهد الأحدث على الرغم من وقوع الحادثة ببغداد ، وقيام المناظرة برياسة النظام المتكلم في مجلس الرشيد ، فان الجارية كانت تجيب السائل في الفقه على المذهب الشافعي وتصرح بذلك ، وتذكر في التقويم الزراعي الشهور القبطية ككيهك وبرمودة وبشنس ومسرى وأمشير ،

ثم تقول في حضرة الرشيد : الويل ثم الويل لمصر والشام من جور السلطان . ومن الغريب أن الاستاذ اوستروب يقول في دائرة المعارف الاسلامية ان هذه القصة نشرت في اسبانيا بعنوان « لادون زلاتيودور » أو تودور . ويظن أن تودد تصحيف تودور . ولم يتح لي الاطلاع على هذه القصة لأرى كيف تتفق مع قصة كل ما فيها مناظرة في علوم الثقافة الاسلامية البحتة .

وهناك عدا ما ذكرت مجموعة من أقاصيص الفرسان والاجواد ونوادر الأولياء والزهاد نقلت من العقد الفريد والمستطرف وعروس المجالس ومناقب الصالحين لم يقصد بها الا توسيع الكتاب .

مؤلف الكتاب وزمن تأليفه وسبب تسميته

ذهبت جهود الباحثين باطلاً في تحقيق هوية المؤلف ، لان هزار افسانه نقل إلى العربية غفلاً لم يدم واضعه ، ثم غشيته الطبقتان البغدادية والمصرية على التدريج ، فكان كل قصاص يكتب لنفسه ما سمع وجمع في عصره من ثمرات القرائح وقطرات الاقلام دون أن يسندها إلى راو أو يعزوها الى مؤلف . ولماذا يفعل ذلك وهو يريد أن يحفظ ويقص لا أن يروي وينشر ! فلما هيأت الاحوال أسباب تدوينها في العهد الذي ذكرته قيض الله لها من ضم شتات الفتها ونسق نظام وحدتها ثم دونها على هذه الصورة . ولم يستطع ذلك الجندي المجهول أن يعلي اسمه على الخلود ، إما لتواضع فيه حمله على إنكار ذاته ، وإما لتواطوء من النكران والنسيان أمات اسمه بعد مماته ، ومن التوافق الغريب أن أسماء الكتّاب الذين وضعوا القصص الفرنسوية الكبيرة في العهد الذي دوّن فيه الف ليلة وليلة قد سحب النسيان عليها ذيله كذلك ، كأغاني رولان وقصص المائدة المستديرة وقصص الحكماء السبعة مثلاً .

وقد اختلف العلماء في أن يكون المؤلف واحداً أو جماعة ، ولست أرى لهذا الخلاف وجهاً فان الكتاب تكوّن على اليقين من أعمال مستقلة ثم نما بالاتفاق على توالي الحقب ، فوضعه وتكوينه إذن عمل جمع ، وجمعه وتدوينه عمل فرد ، وتحليله الى الاعمال الفردية المتعاقبة أمر فوق القدرة ومن وراء الامكان . أما التاريخ الذي قرّ فيه على هذا الوضع الأخير فهو النصف الاول من القرن العاشر من تاريخنا ، ومن الممكن أن نحصره منه في السنوات العشر الواقعة بين سنتي ٩٢٣ و ٩٣٣ وهما توافقان سنتي ١٥١٧ و ١٥٢٦ من التاريخ المسيحي . وقد حصره الاستاذ وليم لين الانكليزي بين سنتي ١٤٧٥ و ١٥٣٥ للميلاد أي في مدى خمسين سنة فوافقناه في الغاية وخالفناه في البدء ، ولم نر هذا الرأي اعتباطاً من جهة ، ولا استنباطاً من النص الظنين من جهة أخرى ، وانما اعتمدنا في تحقيقه على دليل مادي وهو أن الاستاذ الفرنسي « جلان » قد أخذ بنشر ترجمة الكتاب لبلاط الملك لويس الرابع عشر سنة ١٧٠٤ وقد نقله عن نسخة عربية مخطوطة في ثلاثة مجلدات أرسلت اليه من سورية بعد سنة ١٧٠٠ وهي مكتوبة بعصر غفلاً من التاريخ ، ولكن الذي نقلها إلى الشام وهو من طرابلس كتب عليها بخطه أنه امتلكها سنه ٩٤٣ للهجرة ثم انتقلت من يده إلى يد آخر من حلب فكتب عليها أيضاً تاريخ هذا الانتقال وهو سنة ١٠٠١ فيكون تأليف الكتاب اذن قد تم قبل سنة ٩٤٣ بزمن نقدره كما قدره « لين » بعشر سنين .

هذا من جهة الطرف الاعلى أما من جهة الطرف الادنى فانا نجد ذكر القهوة المعروفة يتردد في بعض الحكايات كحكاية أبي صير وأبي قير وحكاية علي نور الدين ومريم الزنارية مثلاً وذلك لا يكون قبل العقد الاول من القرن العاشر لأن القهوة لم تنتشر في الشرق إلا في هذه المدة ، ثم نجد لفظ الباب العالي وبعض النظم العثمانية تذكر من حكايات أخرى

كحكاية معروف الاسكاف وهي مصرية قطعاً والعثمانيون لم يستولوا على مصر قبل سنة ٩٢٣ فيكون الكتاب إذن قد دوّن بعد هذه السنة وقبل سنة ٩٣٣ .

ذلك تحقيق الزمن الذي صنف فيه الكتاب جملة ، أما تحديد التاريخ لكل حكاية وكل طبقة فذلك عمل ان تيسر في حكاية تعذر في أخرى ، وبعض الباحثين قد حاول ذلك في شيء من التوفيق كالاستاذ وليم بور الامريكي فانه نشر سنة ١٩٢٤ بحثاً في ٤٤ صفحة من المجلة الآسيوية جزم فيه بان حكاية الوزيرين شمس الدين ونور الدين قد كتبت بعد حكم الظاهر بيبرس أي بعد سنة ٦٧٦ ورجح انها كتبت سنة ٧٠٦ وان قصة الخياط والاحدب بما تشتمل عليه من الحكايات الاخرى كمزين بغداد قد ألفت سنة ٨١٩ للهجرة والدخول في هذا الموضوع يخرج بنا إلى التفصيل الذي يمكّ في الروح ويخمد نشاط الحديث .

سمى العرب هزار افسانه الف ليلة ولو أرادوا الترجمة الامينة لقالوا الف خرافة أو أسطورة ، فعدولهم عن العنوان الصحيح يدلنا على أحد أمرين : إما ان الليلة كانت في اصطلاحهم ترادف الاسطورة باعتبارها زمناً لها وذلك ما نستطيع استنباطه من قول محمد بن اسحق الوراق : « وابتدأ ابو عبدالله الجهشياري صاحب كتاب الوزراء بتأليف كتاب اختار فيه الف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم كل جزء قائم بذاته لا يتعلق بغيره وأحضر المسامرين فأخذ منهم أحسن ما يعرفون ويحسنون ، واختار من الكتب المصنفة في الأسمار والخرافات ما يحلى بنفسه . . فاجتمع له من ذلك اربعمائة ليلة وثمانون ليلة كل ليلة سمر تام يحتوي على خمسين ورقة وأقل وأكثر ، ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما في نفسه من

تميمه الف سمر . . . » وإما أن يكون عدد الألف في الأصل انما أريد له التكثير لا التحديد على حد قوله تعالى : « إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » وأحر به أن يكون كذلك فان ابن النديم قد رآه تمامه مراراً وقال ان فيه دون المائتي سمر وهو الوم بطبقاته وزياداته واستطراداته لا يتجاوز ٢٦٤ حكاية قسمها المؤلف على الف ليلة وليلة تقسيماً فيه عبث الهزل أو سخف الصناعة فان شهرزاد يدركها الصباح دائماً ولما يمض على حديثها غير بضع دقائق على أنه لم يبق مما رآه ابن النديم الا تلك الحكايات التي سردناها عندما تحدثنا عن الأصل .

اما زيادة الليلة على الالف فمن عمل القرن السادس لان النسخة التي رآها القرطي بمصر على عهد الخليفة العاضد الفاطمى كانت تحمل اسم الف ليلة وليلة . ويقول « جلدمستر » في تعليل زيادة الليلة ان العرب يتطيرون بالاعداد الزوجية وهو زعم غريب ما رأيت في تاريخنا ولا في أدبنا ما يؤيده . ولقد ظل الكتاب أكثر من قرنين يسمى الف ليلة وكان الجهشياري يريد أن يسمي كتابه الف سمر وعندنا الفية ابن معطي والفية ابن مالك ، وأغرب من هذا الزعم أن يؤيده اوستروب في دائرة المعارف ويزيد عليه أن ميل الناس في تلك العصور الى التسجيع في عناوين الكتب كان من البواعث أيضاً على هذه التسمية ! وليس في قولنا الف ليلة وليلة كما تعلمون تسجيع ولا مزاوجة . والغالب في رأيي أن الليلة انما زيدت فوق الالف لافادة الكمال كطفحة الاناء ورجحة الميزان ، لان الالف عدد تام بالنسبة الى هذا الكتاب فاذا زيد عليه الواحد كان كاملاً . والكمال درجة فوق التمام ، وان في لغة التخاطب ما يشبه ذلك فقد يقال في المنّ قضيت لك الف حاجة وحاجة وفي المبالغة زرتك الف مرة ومرة وهلم جرّا .

طريقة الكتاب وأسلوبه

كانت طريقة العرب في القصص أن يسردوا الأسمار والأحاديث على نمط يجعل كل حكاية قائمة بذاتها لا يربطها بما يسبقها ولا بما يلحقها علاقة. وترون ذلك واضحاً في أمثال لقمان وكتب النوادر فلما نقلت الأقاصيص الهندية إلى العربية في القرن الثالث عن طريق الفارسية ادخلت في أدبنا القصصي طريقة طريفة تجعل الحكايات سلسلة متماسكة الحلقات متعاقبة الخطوات متتابعة النسق، وذلك على ضربين: الأول أن تتعلق جميع الحكايات بحكاية أصلية تكون فاتحة لبدايتها وسبباً لروايتها ابتغاء التعويق عن فعل ما لا يحل، وذلك في العربية مذهب كتاب الوزراء السبعة وكتاب كليلة ودمنة وأغلب كتاب ألف ليلة وليلة، وهو في الفارسية مذهب بختيار نامه وقصة جهار درويش وقصة نوروز شاه وكتاب طوطي نامه وأنوار سهيلي مثلاً. والضرب الثاني أن تروى الحكايات موزعة في الكتاب على عدة أبواب بحيث تكون الحكاية في أي باب من هذه الأبواب مقدمة لحكاية الباب الذي يليه. ومن هذا الضرب في أدبنا كتاب سلوان المطاع في عدوان الاتباع لابن ظفر الصقلي المتوفى سنة ٥٦٥، وكتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء لاحمد بن عربشاه الدمشقي المتوفى سنة ٨٥٤، وفي أدب الفرس كتاب مرزبان نامه لمرزبان بن رستم بن شروين، وقد ترجمه ابن عربشاه واستمد منه، ذلك فضلاً عن الطريقة الفارسية التي احتذيناها في الأقاصيص الغرامية المطولة. فألف ليلة وليلة إذن يجري على ثلاث طرق: يجري على الطريقة الهندية في الحكايات المتداخلة المتسلسلة كحكايات الأصل وحكايات البنات الثلاث والصعاليك الثلاثة وحكاية الخياط والأحدب والطبيب وحكاية جان شاه وحكاية وردخان ... الخ.

ويجري على الطريقة الفارسية في الحكايات المفردة المجردة كحكايات العشاق في بعض أقاصيص الأصل وما جرى مجراها من حكايات الطبقة

البغدادية فانها مضروبة على قالب القصص الفارسي في الاعتماد على الحب الوهمي الذي يصيب ظرفاء الشباب على أثر طيف يزور في الكرى ، أو صورة تعرض في الطريق ، أو حكاية تلقى في المجلس . ثم يجري على الطريقة العربية الخالصة في الأقاصيص الصغيرة المقتبسة من كتب الأدب كحكاية حاتم الطائي وحكاية معن بن زائدة وحكاية ابراهيم بن المهدي وحكاية خالد بن عبد الله القسري مثلاً ، أما أسلوبه فيختلف باختلاف الزمان والمكان والجنس والشخص ، فاذا حكمنا عليه فانما نحكم على جملته لا تفصيله ونتوخى الصفات العامة في نقده وتحليله ، فهو في عمومه أسلوب سهل المأخذ مضطرد السياق، سوقي اللفظ مبسوط العبارة كثير الفضول كثير التضمين جريء الاشارة لا يعرف الكناية ولا يتقي الحياء ولا يصطنع التحفظ ، لأن سبيله سبيل العامة فهو يسايرهم في ثرثرتهم وفضولهم وسذاجتهم وصراحتهم وبلادتهم ولا يستطيع أن يكون إلا كذلك . يسير سير الأعرج المفلوج وراء المذهبين الكتابيين اللذين راجا على التعاقب في عهده وهما مذهب ابن العميد في العراق ومذهب القاضي الفاضل في مصر . فهو يسرف في السجع ويكثر من اقتباس الأمثال وتضمين الملح ، ويتطرّف أحياناً بذكر مصطلحات النحو على سبيل التشبيه أو التورية كقوله في قصة قمر الزمان الثانية : « باتا على ضم وعناق ، وإهمال حرف الجر باتفاق ، واتصال الصلة بالموصول ، وزوجها كتنوين الاضافة معزول » وهو يغالي في تضمين الأبيات في خلال الحكايات ويمعن في ذلك غالباً حتى يمل . وترصيع النثر بالشعر اسلوب لا يألفـــه الأدب العربي ولا الأدب الفارسي ، وانمـــا هو ميزة من مزايا الأدب الهندي أيضاً . . اقتبسه الفرس ثم نقله كتابهم إلينا في منتصف العصر العباسي وروّجه في عهد بني بويه مؤلفو القصص ومنشئو الرسائل والمقامات كابن العميد والصاحب والبديع والخوارزمي ومن ترسم خطاهم أو سار على هداهم . وموضع هذه الأشعار يكون عادة في مواقف السرور والحزن والوصف وثوران العواطف .

ولكن القصاص يسيء في الغالب استعمال التضمين فيخطيء مواضع الأشعار ، أو يجهل محل المناسبة ، أو يردد الأبيات نفسها في كل موقف . وقد تدفعه السماجة إلى الاستطراد الغث فيقول : « وقال الشاعر أيضاً في المعنى » ثم يورد أبياتاً لا يصلها بالموضوع سبب ، كما فعل في مقدمة علي نور الدين ومريم الزنارية مثلاً ، فانه حين وصف البستان لم يترك نوعاً من أنواع الفاكهة إلا ذكره وروى ما قيل فيه من الشعر حتى استغرق في ذلك خمس صفحات من الكتاب !

إن خير ما يمتاز به اسلوب ألف ليلة وليلة هو الوضوح والصدق والصراحة والجاذبية ، فالمعاني تسبق الألفاظ إلى الذهن ، والصور تسبق الوصف إلى الخاطر ، والشوق يبعث اللذة ويثير الاهتمام ويحرك الانتباه ويربط السامع أو القاريء بموضوع القصة . على أن القصاص يعالج التصوير والحوار بدقة وبراعة في كل ما يتصل بأحوال الشعب وأخلاق العامة ، فاذا سما إلى مقام الملوك والخاصة خانته قدرته وغلبت عليه بيئته وطبيعته ، فيفقد ما يسمى في الفن الكتابي بالصبغة المحلية ، وهي أن يسند إلى الشخص ما يلائم طبيعته وطبقته وبيئته من قول أو فعل . فالأقاصيص الهندية والفارسية تشوبها روح القصاص الاسلامية كحكاية قمر الزمان بن الملك شهرمان ، والحكايات البغدادية تظهر فيها اللهجة المصرية كحكاية أبي الحسن الخليع ، ثم نراه يجري على لسان الخليفة الرشيد ما يأبى عليه جلاله وكماله أن يقوله ويحمله يفعل ما لا يجوز في العقل أن يفعله ، كأن ينادي وزيره جعفراً بقوله : يا كلب الوزراء ويكلفه في قصة الفتاة المقطعة بالعثور على القاتل في مدى ثلاثة أيام وإلا شنقه هو وأربعين من بني برمك . وكأن يخلع في حكاية علي نور الدين مع أنيس الجليس حلة الملك ليرتدي مرقعة بالية قذرة لكريم الصياد فيفيض قملها على أطرافه ، ويسيل قذرها على منكبيه وأعطافه ، ولو أن ما كلف به الرشيد من التعب المزري كان لضرورة ملجئة لوجدنا له مساغاً من الفن . ولكنه جشمه ما جشمه ليتسنى للخليفة أن يسمع غناء

انيس الجليس وهي في قصر من قصوره وفي ضيافة خادم من خدمه ! فهو يدخله في هذا الزي الزري على الحبيبين والبستاني ليقدم إليهم ما معه من السمك فيكلفوه شيه في المطبخ فيشويه ! !

وكثيراً ما تدفع القصاص شهوة الاغراب إلى تجاوز المبالغة المعقولة فتفوته من الفن صفة الامكانية ، وهي أن يلبس القصصي الحوادث الخيالية ثوب الحقيقة فيقرّب ما بينها من الظروف ويمهد لها أسباب الوقوع حتى لا تتنافر مع العقل والعلم والعرف والتقاليد . والأمثلة على هذا العيب مستفيضة في كل قصة . وفي الكتاب طائفة من الحكايات قد استوفت شروط الفن القصصي كلها كقصة الصياد والجني وقصة مزين بغداد ومقدمة حكايات السندباد وقصة علي بن بكار وشمس النهار .

هذا إذا نظرنا إلى الاسلوب في جملته وعمومه ، أما إذا تتبعناه باللمح الخاطف في نواحي الكتاب وجدناه فيما بقي من الأقاصيص الهندية والفارسية وما جرى مجراها من الحكايات المحدثة المقلدة بين السذاجة أبله الاشارة لأنها من نوع الخوارق التي تدخل على القلوب الغريرة ، ولا تظفر إلا بتصديق العقل البسيط ، فهو جارٍ مع طبيعتها متفق اللون مع صورتها ، وفي الطبقة البغدادية تراه متين العبارة عفيف اللفظ حسن السبك دقيق الوصف كثير السجع قليل الفضول لأنه في الغالب مكتوب يحذى على المثل العليا من قصص الفرس وتاريخ العرب ، وقد يسف في بعض الاقاصيص اسفافاً قبيحاً فيثقل بسخفه على الطبع ويعتدي بضعفه على الذوق ، كما تراه في قصة الخليفة مع النائم اليقظان مثلا .

أما الاسلوب في الطبقة المصرية فهو في قسمها الأول وخاصة الأقاصيص المكتوبة منه أشبه شيء بأسلوب الطبقة البغدادية مع اتساع في السجع وجرأة على الحشمة ، والغالب عليه التقليد ، فتارةً يجري على منهاج الطريقة الهندية كما نرى في حكاية وردخان والملك جليعاد ، وتارةً ينسج على منوال الطريقة الفارسية كفعله في قصة قمر الزمان الثانية وحكاية مسرور وزين المواصف ، وقد يجري في مجراه

الخاص من التهكم الساخر والمزاح المضحك فيكون رقيقاً كما نراه في قصة الأحدب وخاصة في مزين بغـــداد ، ولكنه في القسم الثاني وفي سائر القصص الالقائية التي ألفها القصاص ليلقوها في السوامر مهلهل النسج عامي اللفظ مرذول المبالغة سيء التلفيق شديد الوطأة على الحياء والمروءة لصدوره عن قصاصين محترفين جهلاء يتملقون فيه شهوات العامة بالافحاش ، ويستفزون فضول الجمهور بالمبالغة ثم يكثر فيه ترداد الجمل المحفوظة الملتزمة فيقال دائماً في وصف القينة العارفة : « فعملت على العود من غرائب الموجود إلى أن طرب الحجر الجلمود وصاح العود في الحضرة يا داود » وفي إيثار البعد : « بعدك عن الحبيب أجمل وأحسن . عين لا تنظر وقلب لا يحزن » وفي غرابة الحادثة « لو كتبت بالإبر على آماق البصر لكانت عبرة لمن يعتبر » وفي وصف الشيخ الفاني « قد أبقى ما أبقى وعركه الدهر فما استبقى ، كأنه مُغْنىً مُلْقى ، في خِرْقةٍ زرقا ، تمُرُّ بها الأرياح غرباً وشرقا » كما قال فيه الشاعر :

أرعشني الدهرُ أيْ رعش والدهرُ ذو قوة وبطش
قد كنت أمشي ولست أعيا واليوم أعيا ولستُ أمشي

وفي وصفه ساحة الحرب ومجالس الأنس ورياض الأرض وأثاث البيت لا يكاد يغير شيئاً من الاسجاع والاوضاع ومقطوعات الشعر .

ذلك يا سادتي ما استطعت استشفافه من صور الأساليب الأثرية في الكتاب ، وسترون حين تعيدون قراءته أن القصاص والمصنفين والمصححين في مصر قد أخضعوه اخضاعاً شديداً للهجاتهم وأساليبهم وأمثالهم ، حتى جعلوا البحث اللغوي الفني من البعد بحيث لا تبلغ إليه وسيلة .

فلسفته ومراميه

سيداتي وسادتي : إن من يطلب من ألف ليلة وليلة فلسفة خاصة وفكرة عامة ووجهة مشتركة كان كمن يطلب من كافة الناس عقيدة واحدة وطبيعة

ثابتة وأغراضاً متفقة ، فهو كما قلنا من قبل كتاب شعبي يصور الحياة الدنيا كما هي لا كما ينبغي أن تكون ، فاذا رأينا مذاهبه تتناقض ومراميه تتعارض وآراءه تختلف ، فذلك لأن المجتمع الذي يصوره كذلك .

ولم يكن الكتاب نتاج قريحة معلومة ولا نتيجة خطة مرسومة حتى نتلمس في جوانبه الدوافع والنوازع والغاية ، إن هو إلا صدى يتردد خافتاً لعقائد الشرق القديم وعقلياته وعاداته ، ففي الفلسفة نراه يتأثر بالأفلاطونية الحديثة والاخلاق الاسلامية فيدعو إلى القناعة باليسير والعزوف عن الدنيا والاعتدال في اللذة والمبالغة في الحذر والتفويض المطلق للقدر ، فروحه من هذه الجهة تتنافر مع صوره البراقة ووسائله الطامحة وحوادثه المغامرة ، ثم نراه في أقاصيص أخرى ولا سيما الحديثة يزين الانانية ، ويرتضي القسوة ، ويتشوف إلى المكاسب الدنيئة ، ويشره إلى اللذة الخسيسة ولا يكاد يعتقد بالعواطف الكريمة . وقد يصور المتاع الحسي واللهو الجموح بما لا يتمثل في الذهن إلا على سبيل الخيال كالذي يحكيه عن فتى من أبناء الملوك رسا إلى جزيرة كل من فيها من تجار وصناع نساء كأنهن اللؤلؤ المكنون فقضى بينهن في هذا النعيم أياماً أقل ما أصاب فيها من اللذة أنه كان يلقي الشبكة في الماء على سبيل اللهو فتخرج إليه من الأصداف خريدة من بنات الجان كأنها حورية من حور الجنان الخ . . فاذا اختبرناه في السياسة والاجتماع رأيناه ملكياً يقيم في كل مدينة عرشاً وينصب على كل مجمع من الأحياء ملكاً حتى الحيات والحشرات والطيور والوحوش والقردة ، ديمقراطياً يشرك الملك والصعلوك في مُتع الحياة ومجالي الانس عائلياً يبني نظام البيت وتأثيل المجد على الزوجة والولد . لذلك تجدونه يستهل معظم أقاصيصه بحنين الوالدين إلى النسل ، وفزعهما إلى الله أو إلى المنجم من داء العقم . وقد يسمو مغزاه إلى الفلسفة الاجتماعية العالية ، مثال ذلك حكاية السندباد والحمال . فالحمال يؤوده الحمل الفادح ، وينهكه الحر اللافح ، فيلقي حمله

على مصطبة أمام بيت من بيوت التجار يتردد إليه النسيم الرطيب، وتفوح منه روائح العطر والطيب، ثم يرى عظمة ذلك التاجر في كثرة خدمه وغلمانه، ويسمع تغريد البلابل والفواخت في بستانه. ويصغي إلى رنين أوتاره وغناء قيانه، وينشق أفاويه الطعام الشهي من صحافه وألوانه، فيرفع طرفه الحائر إلى السماء ويقول سبحانك يا رب لا اعتراض على حكمك ولا معقب لأمرك! أين حالي من حال هذا التاجر؟؟

أنا مثله وهو مثلي، ولكن حمله غير حملي!!

على أن أسوأ ما سجله ألف ليلة وليلة من ظلم الانسان وجور النظم هو القسوة الجائرة على المرأة، فان حظها منه منكود وصورتها فيه بشعة، وكيف ننتظر من كتاب بني على خيانة المرأة أن ينصف المرأة؟ ان شهرزاد المسكينة انما تسهر جفنها وتكد ذهنها لتقص على الملك شهريار أعجب القصص ابتغاء الحظوة لديه حتى تدرأ القتل عن نفسها والخطر عن بنات جنسها، ومن الخطل الأليم أن يسند القصاص كل هذه النقائص إلى النساء على لسان واحدة منهن في مقام الدفاع عنهن، وان يجري على فمها في حضرة الملك تلك الكلمات الجريئة المخزية في وصف بهيمية الرجل!!

ألف ليلة وليلة يصور لنا المرأة في القسم الهندي الفارسي خطالة خائنة تبيع عرض الملك للعبد في قصة شهريار وأخيه، لجوجة جموحة أنانية في قصة الحمار والثور تصر على أن يبوح لها زوجها بسره، وهي تعلم أن في افشائه ضياع عمره، حاقدة كائدة منتقمة في قصة الوزراء السبعة، قاسية عاتية مرهوبة في حكاية قمر الزمان الأولى، وهي في بغداد سجينة في قصرها، مغلوبة على أمرها قـــد انتبذها زوجها وألقى زمامه في أيدي الجواري والقيان، وعلى كلتا الحالتين من حرية ورق نراها وسيلة لذة وغرض شهوة وأداة خدمة، أما هي في مصر والشام فوجودها عدم، لا تسمع لها صوتاً في بيت ولا ترى لها أثراً في سوق، فاذا خرجت من

ظلام الستار إلى ضوء النهار كانت طاغية جاهلة كزوجة معروف الاسكاف ، أو لصة حيالة كدليلة وبنتها زينب ، أو قوادة مرتادة كأولئك العجائز اللاتي ينقلن الفتنة من مكان إلى مكان ويصلن المنكر بين فلانة وفلان .

أما تصوير الكتاب لمظاهر الاجتماع الشرقي في القرون الوسيطة من العادات والأخلاق والمراسم في السوامر والولائم والأعراس والمآتم والأسواق والمحاكم فقد بلغ الغاية من ذلك كله ، إلا أن الطبقة المصرية في هذا الباب كما قلنا أصدق وأجمع لأن القصاص وهم مصريون تكلموا عن علم ووصفوا عن رؤية ونقلوا عن سماع ، فاذا قرأتم مثلاً حكاية نور الدين وشمس الدين وجدتم المصريين كانوا في حفلة العقد يطلقون البخور ويشربون السكر وينضحون الوجوه بماء الورد ، وفي زفاف العروس ينقطون المواشط والقيان بالقاء النقود في الدف أو الإطار كما يسميه ألف ليلة أو الطار كما يسمى الآن في مصر ، وفي جلوتها على المنصة يجلسونها بين صفين من كرائم السيدات في يد كل منهن شمعة موقدة ، ثم يلبسونها حلة بعد حلة في فترة بعد فترة حتى يخلع عليها سبع حلل ، ومع كل سيدة من المدعوات إلى الحفل صرة من الثياب المعدة لذلك الزفاف يحملها خادم ، فكلما خلعت العروس حلة خلع المدعوات كذلك حلة إلى تمام السبع ، ولا تزال هذه العادات باقية في بعض البلاد وبعض الأسر في مصر .

وإذا قرأتم حكاية علاء الدين أبي الشامات وجدتموهم كانوا يستعملون الحشيش قوة للزوج ويتخذون المحلل خلاصاً من الطلقة الثالثة وهما خلتان شائنتان اليوم في الطبقة الدنيا ، اقرأوا حكاية معروف الاسكاف تجدوه مثالاً صادقاً لبعض الناس هناك في ضعف الارادة وسلامة الصدر وحب الأبهة وتبذير ما في الجيب اتكالاً على الغيب واهتضاماً للحق ، وتجدوا زوجه فاطمة العرة التي فر من جبروتها وجفوتها وقسوتها وعنادها إلى أقصى مجاهل الأرض فتبعته ، لا تزال لها شبه في الباقيات الصالحات بعصر من عهد الجهالة .

أما الطبقة البغدادية فقد عبث بها القصاص وشالوها بلهجاتهم وعاداتهم ولكنها مع ذلك حرية بثقة الباحث إذا استطاع تنقيتها من شوائب الهرج والدخيل .

بقي علينا أن نعرف وجهة كتابنا في الدين ، وليس من العسير على القارئ العادي أن يتبين تلك الوجهة فان في كل صفحة من صفحاته دليلاً على أنه مسلم صادق الايمان قوي العقيدة يأخذ تقاليد الدين صحيحة أو مشوبة مأخذ العامي الواثق المطمئن فلا يبحث ولا يستنبط ولا يطبق حتى في مقام الحكمة والموعظة ، لا يكاد يذكر حديثاً أو آية وانما يستند في ذلك إلى مأثور الشعر ومنثور الحكم ، فسبيله في الدين إذن أن يدعو إليه ويهتف به ويتعصب له ، لذلك نراه لا يتحدث إلا عن المسلمين ، ولا يتخذ أشخاصاً لقصصه حتى الأجنبية منها إلا من المسلمين ، فاذا كان أحد الجنة أو الناس غير مسلم واضطر إلى الحديث عنه ، انتهى به إلى الاسلام أودبر له عقبى سيئة وذلك نادر ، كما فعل في حكاية مسرور المسيحي وزين المواصف وزوجها اليهوديين ، فالحبيب والحبيبة أسلما فورفت عليهما ظلال النعيم والحب وظل الزوج يهودياً فدفنته امرأته حياً . وألف ليلة وليلة بعد ذلك سني لا يكاد يعرف فرقة أخرى من فرق الاسلام حتى الشيعة ، وكان لهم على عهده في مصر دولة الفاطميين ، وفي العراق نفوذ البويهيين لم يذكرهم إلا في حكاية علاء الدين وهي مكتوبة بمصر على عهد المماليك ، ولقد دلّ حين تعرض لهم في هذه القصة على جهالة قبيحة أو دعاية سيئة ، فقد أشار في موضع منها إلى أن الروافض كانوا يكتبون اسمي الشيخين على بواطن الأعقاب ، وقال في موضع ثان أن أهل بغداد كانوا يغلقون الأبواب خوفاً من الروافض أن يلقوا الكتب في دجلة ، وقال في موضع ثالث : ان الرشيد سأل الرجل الذي همّ باغتياله وهو يلعب الكرة والصولجان فنجاه أصلان بن علاء الدين : أما أنت مسلم ؟ فقال كلا وانما أنا رافضي .

مخطوطاته ومطبوعاته وترجماته

صنف المنقبون ما عثروا عليه من مخطوطات ألف ليلة وليلة فكان ثلاث مجموعات مختلفة : مجموعة آسيوية ومجموعتين مصريتين ، فأما المجموعة الآسيوية وهي أقدمهن فلا تشتمل إلا على القسم الأول من الكتاب واحدى نسخها مبتورة ، وأشهرها نسخة كلكوتا وهي تحتوي على مائتي ليلة وقد شرع بطبعها الشيخ اليمني في جزءين بمدينة كلكوتا سنة ١٨١٤ م وأتمها سنة ١٨١٨ م فكانت أول مخطوطة طبعت من هذا الكتاب في الشرق والغرب . ثم نسخة « برسلو » وهي التي طبعها الاستاذ « هبكت » في اثني عشر جزءاً ، ظهر الجزء الأول في سنة ١٨٢٥ والأخير سنة ١٨٤٣ . وأما المجموعتان المصريتان : فهما أحدث من الأولى وبين نسخها اختلاف شديد في الأسلوب والترتيب والعدد والقصص ، ومن هاتين المجموعتين نسخة كلكوتا الثانية التي جمعها وطبعها الاستاذ « ماك نوكتن » في أربعة مجلدات من سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٨٤٢ ، ثم نسخة بولاق التي طبعتها الحكومة المصرية في مطبعتها بالقاهرة سنة ١٨٣٥ في مجلدين وهي أكمل النسخ جميعاً وأصحها ومنها صدرت جميع الطبعات في مصر والشام وبومباي ، ونقلت جميع الترجمات إلى جميع اللغات ما عدا ترجمة « جلان » . فأما الطبعات : فكلهن سواسية في قبح الشكل وسوء النقل وقلة العناية لصدورهن عن أرباب المكاتب وأصحاب المطابع وهؤلاء يبتغون أوفر ربح في أيسر كلفة . على أن أديباً من الآباء اليسوعيين قد طبعه ببيروت طبعاً جميلاً في أربعة مجلدات بعد أن قص من قصصه واقتضب من جمله وهذب من عبارته ، ثم جاء منشيء الهلال فأربى عليه في الحذف والبتر والاختصار وطبعه بمصر في خمسة أجزاء صغار ، وهاتان الطبعتان ولا سيما الأولى أليق الطبعات بأخلاق الفتى وحياء الفتاة ولكنها لا تنقعان غلة الأديب الباحث .

وأما الترجمات فأولها في الوجود ترجمة الاستاذ جلان وهي أنيقة الأسلوب رائعة السبك إلا أنها غير دقيقة ولا أمينة ولا وافية ، على أن

لها اليد الطولى على الكتاب في التعريف به والتنويه باسمه والدلالة على فضله ، طبعت هذه الترجمة بباريس في اثني عشر مجلداً ابتداء من سنة ١٧٠٤ إلى سنة ١٧١٧ ونقلت عنها سنة ١٧٠٧ ترجمة انكليزية مختصرة في ستة مجلدات بعنوان الليالي العربية ، وأشهر الترجمات بعد ذلك في السعة والدقة والصدق ترجمة بورتن بالانجليزية ، وترجمة ماردروس بالفرنسية ، وترجمة هبكت بالألمانية .

* * *

ذلكم يا سادتي ما يتحمله المقام والوقت من تاريخ ألف ليلة وليلة ، وانكم لترون من هذا الاجمال فعل القريحة العربية فيه ، ومظهر العقيدة الاسلامية في جميع نواحيه ، وطابع العقلية السامية في أخيلته ومراميه ، حتى أصبح الكتاب عنواناً عريضاً من عناوين آدابنا ، وشاهداً جديداً على الحيوية القاهرة والشخصية الآمرة في آبائنا ، والا فبماذا نفسر هذا ؟

لقد خلفوا اليهود على الدين فظهر عربياً رائعاً في رسالة محمد ، وخلفوا اليونان على العلم فعاد عربياً ساطعاً في فلسفة ابن رشد ، وخلفوا الرومان على الحضارة فبهرت العالم بالعمران والعدل في عصر الرشيد ، وخلفوا الفرس على الأدب فأخضعوا ألسنتهم وأفئدتهم لأدب القرآن ، وخلفوا الهنود على القصص فأروهم روعة الخيال وقوة الالهام في ألف ليلة وليلة ، وخلفوا الأمم العظمى على أكثر الأرض فأوشكوا أن يعرّبوا العالم !
فليت شعري أتغيرت الصحراء ، أم فسدت الدماء ، أم ضويت الأبناء ، أم هي ربضة الأسد واستجامة المتعب واستجاعة الواثب ، ثم استئناف الهجمة الأولى على الموقع الأول في الحياة .

لقد اعتقكم طويلاً وأتعبتكم كثيراً وكدت أخرج من المحاضرة إلى الخطابة فعذراً يا سادتي وشكراً .

دمشق : شباط سنة ١٩٣٥ .

الأدب العربي في بلاد فارس

واللغة العربية في البلاد الإسلامية غير العربية

للدكتور عبد الوهاب عزام

الساميون والايرانيون قبل الاسلام

ليس من قصدي أن أتكلم في الصلات اللغوية والأدبية التي كانت بين الساميين عامة والعرب خاصة وبين الايرانيين قبل الاسلام . فأجتزيء بأن أقول ان الآشوريين والبابليين كان لهم سلطان سياسي ، وسيطرة أدبية على ايران ، ولا سيما غربها منذ الف سنة قبل الميلاد ويتبين هذا في الأمور الآتية :

١ً — ان آثار الدولة الفارسية الاولى التي تسميها الآثار الفارسية هخامنشى ، ويسميها الاوربيون الاكمينين ، وتسمى بأسماء أخرى في أساطير الفرس ، آثار هذه الدولة كتبت بلغات احداها سامية وكتبت بخط مسماري مشتق منه الخط الآشوري .

٢ً — وان لغة ايران أيام الساسانيين اللغة التي تسمى الفهلوية ، كتبت بخط مأخوذ من الخط الآرامي ، واشتملت على كثير من الالفاظ السامية ولا سيما الارامية منها .

وكان من أثر هذا الاختلاط هذا الخط العجيب الذي سماه ابن النديم هزدارش . وهو خط تكثر فيه الكلمات الآرامية بل تجد فيه ما لا يستعار من لغة الى أخرى من الضمائر وأسماء الاشارة والاستفهام والموصولات وحروف العطف والجر ، وعلامات الجمع والاعداد .

وقد فسر هذا تفسيراً عجيباً ذلكم ان الكاتب بالخط الفهلوي الغامض كان اذا خشي أن تتبهَّم الكلمة إذا كتبها باللغة الفارسية وضع مكانها كلمة آرامية تتضح في هذا الخط ، فاذا أراد أن يكتب « كوشت » مثلاً وهو اللحم بالفهلوية كتب « بسرا » بالارامية وقرأها « كوشت » ، وان أراد أن يكتب « نان » ، وهو الخبز بالفهلوية كتب « لحما » بالارامية وقرأها « نان » ، وهكذا . . .

ومعنى هذا أن الكاتب الفهلوي على هذه الطريقة كان يعرف الارامية فيستعين بها في مواضع اللبس .

***

وأما العرب فقد جاوروا الفرس وخالطوهم وكان بين القبائل العربية والدولة الفارسية احداث وغِيَر من سلم وحرب وموادّة ومعاداة ، وسيطر الفرس على أقاليم عربية . وقد روي أن سابور الملك الساساني صالح العرب وأسكن بعض قبائل تغلب وعبد القيس وبكر بن وائل كرمان وتوّج والأهواز .

وقد ذكر مؤرخو الفرس أن بهرام كور الملك الساساني نشأ في الحيرة في كفالة المنذر أحد أمرائها ، وتأدب بآداب العرب وعرف لغتهم ونظم بها الشعر وكان اول من نظم الشعر الفارسي ، وقد أنكره عليه الموابذة ونهوه عنه .

وكذلك دخلت الفاظ فارسية في العربية وعرف بعض العرب الفارسية ، وكان عدي بن زيد ، وابنه زيد بن عدي يكتبان لكسرى بالعربية والفارسية .

وفي أساطير الفرس صلات كثيرة بين العرب والفرس لها دلالتها .

في العصور الاسلامية

فتح العرب ايران لنشر الدعوة الاسلامية وشمل الفرس عدل المسلمين وإحسانهم ، وسارعوا الى الدخول في الاسلام فعمتهم الأخوة الاسلامية .

قال الطبري : « فكانوا كأنما هم في ملكهم الا أن المسلمين أوفى لهم وأعدل عليهم » . فاغتبطوا وغبطوا بل أسلم بعض الايرانيين ونصروا العرب في وقائع الفتح . أسلم الديلم بعد القادسية وشاركوا في فتح جلولاء ونزلوا الكوفة ، وشارك أحد أعيان الفرس في فتح الري وتولاها بعد الفتح ، وطلب سياه أحد زعمائهم أن يفرض له كأكثر ما يأخذ عربي ليشارك في الفتح .

وقد انساح العرب في أرجاء ايران منذ عهد عمر ، أذن لهم الخليفة في الانسياح حين ثار أهل فارس والجبال . وقد روى الطبري قول عمر : « ألا وان المصرين - البصرة والكوفة ، من مسالحها اليوم كأنتم والمصرين فيما مضى من البعـــد . وقد وغلوا في البلاد والله بالغ أمره .

وبالفتح صارت لغة القرآن لغة الدولة ولغة العلم والأدب في ايران ، يستعملها العربي والعجمي في علوم الدين وغيرها . وبقيت زهاء مائتين وخمسين عاماً منفردة بالعلوم والآداب لا تشاركها لغة أخرى الا كتب دينية قليلة كتبها المجوس بالفهلوية تبييناً لدينهم ودفاعاً عنه .

وصارت العربية كذلك لغة الخطاب بين المثقفين ، وفي الأمصار الكبيرة ولا سيما في خراسان وغربي ايران .

وفي النصف الثـــاني من القرن الثالث الهجري شرع الفرس يستقلون عن الخلافة في أرجاء من ايران ، وكانت دولهم تعظم على مقدار تأخرها زماناً وبعدها عن دار الخلافة مكاناً .

نشأت امارة الصفاريين في سجستان شرقي ايران وامتدت شطر المغرب حتى قاربت العراق وبدأت عهدها بالثورة على الخلافة. وقد قرنت الاساطير الفارسية نشوء هذه الدولة بنشوء أبيات من الشعر الفارسي.

ثم قامت فيما وراء النهر وشمالي ايران الدولة السامانية وقد انتقل مؤسسوها من ولاة للعباسيين الى ملوك مسلطين يقرون بالطاعة للعباسيين قولاً.

وفي رعاية هذه الدولة التي نشأت في إقليم قصي نشأ الأدب الفارسي وحاولت الفارسية أن تشارك العربية في العلوم والآداب.

فشرع الفرس يترجمون الكتب العربية الى لغتهم، كما ترجم العرب من قبل الكتب الفارسية الى العربية، فترجم تاريخ الطبري وتفسيره مختصرين.

وشرع الفرس يؤلفون بالفارسية ابتداء، ككتاب أبي منصور الهروي في الطب.

وشرع الشعراء ينظمون بالفارسية ونبغ الرودكي السمرقندي اول شعراء الفرس الكبار أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع، وقد ذكرت كتب الأدب الفارسي ثلاثين شاعراً في عهد بني سامان.

وأما الدولة البويهية التي قامت في غربي ايران سنة ٣٢٠ ﻫ واستولت على بغداد بعد أربعة عشر عاماً ودام لها السلطان على دار الخلافة أكثر من مائة سنة، فكانت في سلطان الادب العربي ونظم معظم أمرائها بالعربية، وكان من كتابهم أئمة في الكتابة العربية وحسبكم ابن العميد، والصاحب بن عباد، والوزير المهلبي، وأبو اسحق الصابي.

ومما يصح به القياس بين اللغتين في دولة البويهيين أن الصاحب مدحه بالعربية خمسون شاعراً ولم يمدحه بالفارسية إلا شاعران: المنطقي والخسروي.

والدولة الزيارية التي سيطرت على الاقليم الذي بين جبال البُرز وبحر قزوين ، وهو الاقليم الذي احتجز عن سائر أقاليم ايران واستعصى على العرب سنين طوالاً بعد أن فتحوا ايران – أعني اقليم طبرستان . فقد تسمى ملوكها وتلقبوا بالأسماء والألقاب الفارسية مثل : قابوس وكيكاوس .

وقد مدح قابوس صاحب الرسائل العربية المعروفة باسم كمال البلاغة شاعران من شعراء الفارسية : الخسروي والسرخسي ، وألف كيكاوس حفيد قابوس كتاب « قابوس نامه » بالفارسية .

وأما الدولة الغزنوية فهي دولة تركية النسب وقد امتد سلطانها على ايران الشرقية والشمالية وبلغت من السطوة ما لم تبلغه دولة قبلها في ايران في العصور الاسلامية . وكان الادب الفارسي قد ازدهر فاجتمع حول السلطان محمود بن سبكتكين كثير من شعراء الفارسية ، والى محمود أهدى الفردوسي الطوسي كتاب – الشاهنامة – المنظومة التي تضمنت أساطير الفرس وتاريخهم منذ العصور الخرافية الى الفتح الاسلامي . وكتبت بالفارسية كتب قليلة : كتب اليميني الشاعر تاريخ السلطان محمود ، وكتب البيروني كتاب التفهيم في التنجيم بالفارسية والعربية ، وترجم نصر الله بن عبد الحميد كتاب كليلة ودمنة الى الفارسية .

وحينما امتد سلطان السلاجقة على ايران في القرن الخامس والسادس ، وكانوا تركاً بداة ، كان الادب الفارسي استحكم ونضج ، وقد عدّ عوفي مؤلف لباب الألباب في تاريخ شعراء الفرس أكثر من مائة شاعر عاشوا في ظلال هذه الدولة .

***

نشأ الأدب الفارسي الحديث في أواخر القرن الثالث الهجري ونما وترعرع على مر الزمان ، ونبغ الشعراء والكتاب باللغة الفارسية . فكيف

كانت مكانة العربية في العلم والادب بعد أن نشأ لايران لغة علمية أدبية .

تختلف أحوال اللغتين في الشعر ، وفي النثر ، وفي كتابة التأليف ، أعني في البيان الذي يغلب فيه العاطفة والخيال ، والبيان في الحقائق التي لاشية فيها من العاطفة والتخيل ، وما هو وسط بين هذا وذاك .

فأما الشعر فقد أولع به الفرس منذ نشأت لغتهم ، وكثر الشعراء على مر العصور ، ونبغ عظماء الشعراء فيستطيع مؤرخ الادب أن يعد منذ القرن الرابع الهجري من أئمة الشعر الفارسي من لا يجد نظيرهم كثرة ومكانة من شعراء العربية في ايران ، ولقي هؤلاء الشعراء من الملوك تأييداً وتشجيعاً فالتفوا حولهم ونظموا لهم القصائد والقصص المطولة .

ولكن الشعر العربي لم يضمحل بظهور الشعر الفارسي ، بل بقي مزدهراً شائعاً في أرجاء ايران . عدّ الثعالبي في الجزأين الثالث والرابع من كتاب اليتيمة مائة وواحداً وخمسين شاعراً نظموا بالعربية في عصره . وهؤلاء أكثر من كل من ذكرهم محمد عوفي في لباب الالباب من شعراء الفارسية منذ نشأ الشعر الفارسي الى حين تأليف الكتاب .

وقد ألف في أوائل القرن السابع الهجري وعدد صاحب دمية القصر ثلاثمائة شاعر بالعربية وسنبين بعدُ أثر الشعر العربي في هذا الشعر الفارسي الذي زاحمه منذ القرن الرابع كما قدمت .

ويدل على أن ايران بقيت إلى غارات التتر على الاقل ، موطناً رحيباً للشعر العربي ، أن ثلاثة من كبار شعراء العرب عاشوا فيها ووجدوا مجالاً ومستقراً ، وحسبنا أن ينشأ في ايران في القرن الخامس الشاعر القرشي الاموي ، الذي أشاد بمجد العرب وأخلاقهم وأدبهم ، ومثل في شعره طموحهم وإباءهم ، وصور مواطنهم وعاداتهم وبيئاتهم وهو أبو المظفر الابيوردي المتوفى سنة ٥٠٧ﻫ فقد نشأ في أبيورد من خراسان ، ونبغ في

الشعر هناك ، وتردد من بعد بين العراق وايران ، ومدح خلفاء العباسيين وأمراء العرب من بني صدقة أمراء الحلة وغيرهم ، ومدح ملوك الدول الاعجمية كذلك ؛ وما يخرج شاعراً كالابيوردي إلا موطن للأدب العربي خصيب ، وجناب للغة العرب رحيب .

والشاعر الثاني القاضي ناصح الدين الأرجاني ، ينتسب إلى أرجان في إقليم فارس وهو الصقع الجنوبي الغربي من ايران ، وهو شاعر أنصاري يُعدّ من كبار شعراء العربية ولد سنة ٤٦٠ وتوفي سنة ٥٤٤

وأدل من هذا على تمكن الأدب العربي في ايران حتى القرن السادس الهجري أن أبا اسحق الغزي الكلبي هاجر من بلاد العرب إلى ايران ، فأمضى النصف الثاني من عمره فيها ومات بها ومدح كثيراً من ملوكها ورؤسائها . ولد الغزي سنة ٤٤١ وتوفي سنة ٥٢٤ .

***

والنثر يخالف الشعر وقد بقي السبق فيه للعربية الى غارات التتر ، سواء في هذه الرسائل الديوانية والرسائل الخاصة المعروفة بالاخوانيات ، وقد حاكى الفرس كتاب العرب ولم يدركوا شأوهم .

ولسنا في حاجة الى بيان مكانة الكتابة العربية في دولة بني بويه ، وحسبنا ان نذكر من وزراء هـــذه الدولة أبا الفضل بن العميد والصاحب بن عباد .

ولم تكن العربية دون الفارسية فيما وراء النهر في دولة السامانيين ، ونجد نتفاً من الاخبار تدل على أن كبار كتاب الدولة كانوا يكتبون بالعربية : مثلاً الاسكافي كاتب نوح بن منصور الساماني كتب حينما هزمت الجيوش السامانية ماكان بن كالي : « وأما ماكان فقد صار كاسمه والسلام » .

وأحمد بن حسن الميمندي ، وزير للسلطان محمود الغزنوي ولابنه مسعود عشرين سنة ، وكان يكتب بالعربية في هذه البقعة النائية ، ومن توقيعاته المأثورة ما كتبه لجماعة طلبوا أن يحط الخراج عنهم : « الخراج خراج ، دواؤه أداؤه » .

ومن الدلائل على أن العربية كانت ذات المكانة الاولى في دواوين هذه الاصقاع وان كانت لغة العامة أعجمية ، أن أحد وزراء الغزنويين اتخذ الفارسية لغة الدواوين ، ولو أن العربية كانت غريبة في تلك الاقطار لوجد هذا قبولاً ، واستمرت الدواوين بالفارسية لغة البلاد ، ولكن الوزير أحمد بن حسن الميمندي ردّ الدواوين الى العربية . ومن الممتع في هذا أن نقرأ ما كتبه في هذا الصدد العتبي الذي كتب تاريخ محمود بالعربية مسجوعاً كله ، قال في كتابه :

« وكان الوزير أبو العباس قليل البضاعة في الصناعة لم يمتن بها في سالف الايام ، ولم يرض بنانه بخدمة الاقلام ، فانتقلت المخاطبات مدة أيامه من العربية الى الفارسية ، حتى كسدت سوق البيـــان ، وبارت بضاعة الاجادة والاحسان ، واستوت درجات العجزة والكفاة ، والتقى الفاضل والمفضول على خطي الموازاة .

ولما سعدت الوزارة بالشيخ الجليل . . . جزم على أوشحة ديوانه أن يتنكبوا ويتحاشوا الفارسية الا عن ضرورة من جهل من يكتب اليه . وعجزه عن فهم ما يتعرب به عليه » .

فهذه حال العربية في أفغانستان في القرن الخامس الهجري .

وأما الرسائل الاخوانية فلم تبلغ الفارسية فيها هذه القرون مبلغ العربية ، ولم تنشيء الفارسية كاتباً كبديع الزمان والخوارزمي وابن العميد وأبيه والصاحب ورشيد الدين الوطواط .

وكان البديع والخوارزمي يكتبان بالعربية إلى أمراء البلاد وأعيانها شرقاً وغرباً كأنهم في بلاد العرب، ولولا معرفة المكتوب اليهم العربية وتقبلهم هذا الرسائل بقبول حسن ما كتب كتابها بالعربية .

***

ومما يبين ما بين اللغتين من صلات في تلك العصور الترجمة من العربية الى الفارسية ، والانشاء باللغتين .

ولم تقتصر الترجمة على الكتب التي ألفت بالعربية قبل أن تكون الفارسية لغة كتابة كالطبري وكليلة ودمنة ، بل ترجمت كتب وضعت بالعربية بعد أن صارت الفارسية لغة تأليف: كتاريخ بخاري للنرشخي . كتب لنوح بن نصر الساماني سنة ٣٣٢ وترجم الى الفارسية ٥٢٢ . وكتاب اليميني الذي ألفه العتبي للسلطان محمود بالعربية ترجم من بعد إلى الفارسية .

وكتب كثير من الادباء باللغتين شعراً ونثراً وسمي كل منهم ذا اللسانين « دوزبان » ، وعطاء بن يعقوب له ديوانان عربي وأعجمي . وللبستي والباخرزي شعر فارسي ولابن سينا والشيخ سعدي الشيرازي ، بل بديع الزمان الهمذاني نظم بالفارسية قليلاً .

ويقول صاحب المعجم في معايير أشعار العجم وقد ألفه في أوائل القرن السابع ان شعراء زمانه يعرفون اللغتين ، والحق أن معظم شعراء الفرس كانوا يعرفون العربية على اختلاف حظهم منها ، وكثير منهم أنشأ بها كثيراً أو قليلاً .

على أن أمر العربية كان يضعف على مر الزمان شيئاً فشيئاً ، فمؤلف كتاب راحة الصدور في تاريخ السلاجقة يروي شعراً عربياً ، ويقول أن قليلاً في زماننا من يفهم مثل هذا الشعر .

ويقول عوفي في أوائل القرن السابع : إن كل مستعرب يعرف الفارسية، وليس كل فارسي يعرف العربية . وقد الف كتابه في العروض بالعربية ، فنقم عليه أدباء زمنه ، فكتب ما يتعلق بأشعار العجم بالفارسية ،

وأما اللغة العلمية لغة التأليف فقد كانت العربية مسيطرة عليها الى غارات التتار ، ثم شاركت فيها بعد التتار ، وما زال التأليف بها يقل على مر الزمان ولكنه لم ينقطع حتى عصرنا هذا .

وقد قال أبو الريحان البيروني : ان الكتاب اذا الف بالفارسية ذهب بهاؤه ، وقال ان لغته الخوارزمية ، وان الفارسية والعربية سواء لديه ليست احداها لغته ، ولكنه يرى الفارسية لا تصلح للتأليف .

قال : « والى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدانت وحلت في الافئدة ، وسرت محاسن اللغة فيها في الشرايين والأوردة » .

وقال : « والهجوُ بالعربية أحب إليَّ من المدح بالفارسية ، وسيعرف مصداق قولي من تأمل كتاب علم قد نقل الى الفارسيّ كيف ذهب رونقه ، وكسف باله ، واسودّ وجهه ، وزال الانتفاع به إذ لا تصلح هذه اللغة الا للأخبار الكسروية والأسمار الليلية » .

وقال ابو هلال العسكري في القرن الرابع :

ولا نعرف اليوم علماً جاهلياً ولا اسلامياً الا وأهله عربيون ومتعربون يكتبون باللفظ العربي والخط العربي .

وإذا نظرنا الى جماعة من كبار المؤلفين كابن سينا ، وأبي الريحان البيروني ، والغزالي ، والرازي ، والزوزني ، والبيضاوي ، ونصير الدين الطوسي ، وهم من مؤلفي القرون الرابع والخامس والسادس والسابع ، وجدنا لغة التأليف عندهم العربية ، لم يكتبوا بالفارسية إلا كتباً صغيرة لا تقاس بما كتبوا بالعربية .

فابن سينا وتأليفه بالعربية لا يحتاج الى بيان ، كتب بالفارسية دانش نامه علائي لعلاء الدولة كاكويه أمير أصفهان .

والبيروني كتب بالعربية كتبه الخالدة ، وكتب بالفارسية كتيباً في التنجيم وكتبه بالعربية أيضاً .

والغزالي لا يعرف له بالفارسية إلا كيمياء السعادة ، وقد كتبها بالفارسية لإفهام العامة كما يقول ، وكتاب آخر يسمى نصيحة الملوك ، كتب بالفارسية كذلك .

والرازي له ثلاثة وثلاثون كتاباً منها واحد بالفارسية .

والبيضاوي له كتاب بالفارسية صغير اسمه نظام التواريخ ، وسائر مؤلفاته بالعربية .

والطوسي ، وهو من علماء القرن السابع وقد صحب هولاكو ، له زهاء خمسين كتاباً قليل منها فارسي .

وقد استمرت العربية لغة للتأليف في ايران بعد غارات التتار على على تقلب الغير بها وتحيف الزمان إياها . ولم يخل عصر من التأليف بها الى عصرنا هذا ، وحسبنا أمثال صدر الدين الشيرازي والسيد الشريف الجرجاني وسعد الدين التفتازاني .

أثر العربية في الفارسية

وهذه اللغة الفارسيه التي نشأت وترعرعت في رعاية العربية وكفالتها هي اللغة الفهلوية التي كانت لسان الدولة ولغة العلم أيام الساسانيين ، ولكن كتبت بالخط العربي واشتملت على الفاظ عربية كثيرة . وقد أمدّت العربية الفارسية غير ضنينة ، والألفاظ العربية في الفارسية تختلف كثرة وقلة باختلاف الموضوع ، فهي في الشعر أقل منها في النثر ، وهي في النثر الأدبي أقل منها في لغة التأليف ، ويجد قارىء النثر الفارسي أحياناً ألفاظاً عربية

متوالية ليست للفارسية فيها إلا التراكيب والصلات . وقد استمر هذا إلى يومنا ولا تزال العربية في هذا العصر تمد الفارسية بألفاظ جديدة ، إلى الألفاظ التي أمدتها بها في العصور الخالية .

وكذلك استعمل شعراء الفرس الأوزان العربية والقوافي ، ولكن تصرفوا بها بعض التصرف فزادوا في البحور وفي التفعيلات ، والزحافات والعلل ، وأفتنوا في نظام التقفية .

وبقيت الأوزان العربية في معظم أشعارهم وبقيت اصطلاحات العروض والقافية كلها . ومن العجيب أن شعراء الفرس هجروا الأوزان الشائعة في الشعر العربي ، وأكثروا من أوزان لم يكثر النظم فيها شعراء العرب . هجروا أوزان الدائرة الأولى كلها فلم ينظموا في الطويل والمديد والبسيط ، إلا محاولة بعضهم أن يستكمل الأوزان العربية ، ويبين عن قدرته على استيعابها .

وعمدوا الى أبحر الدائرة الرابعة التي فيها المقتضب والمجتث والمضارع ، الأبحر التي يندر فيها النظم العربي فأكثروا النظم فيها وتفننوا ، وشاركوا العرب في الأبحر الأخرى .

وفي هذا برهان على اختلاف مزاج الامتين ، وتباين أذواقها في توالي الحركات والسكنات في الأوزان . وعلم البلاغة العربي يسيطر على الفارسية بقواعده وألفاظه ، وكتاب حدائق السحر لرشيد الدين الوطواط لا يختلف عن الكتب العربية إلا بأمثلة فارسية معها أمثلة عربية .

وأخذ الأدب الفارسي موضوعات الأدب العربي كذلك ، فهو يستمد من الاسلام وتاريخه ومن تاريخ العرب ، ويزيد موضوعات مستمدة من تاريخ الفرس .

ويمتاز من الأدب العربي امتيازاً واضحاً في موضوعين :

الأول : الشعر الصوفي : فقد ذهب فيه شعراء الفرس مذاهب عجيبة ، وأبانوا عن دقائق النفس الانسانية ، ونظموا المنظومات المطولة كحديقة الحقائق لمجد الدين سنائي ، ومنطق الطير لفريد الدين العطار ، والمثنوي لجلال الدين الرومي ، ومنظومات أخرى يضيق بها العد .

وما أحسب أدباً يجاري الأدب الفارسي في هذا الصدد .

والموضوع الثاني القصص : فقد افتن فيه شعراء الفرس بين قصص حماسي مستمد من أساطير الفرس وتاريخهم كالشاهنامة ، وقصص غرامي كقصة ليلى والمجنون ، وخسرو وشيرين ، ويوسف وزليخا ، وهم في هذا لا يملون الاطالة وقل أن تنقص القصة عن خمسة آلاف بيت وكثيراً ما تجاوز عشرة آلاف . وقد نظم القصة الواحدة شعراء عدة في عصور مختلفة .

***

في بلاد الترك والهند

أسلفتُ القول في مكانة اللغة العربية في إيران قبل أن تصير الفارسية الحديثة لغة علم ، ثم بينت كيف سايرت العربية الفارسية بعد استعمالها ، في الشعر والكتابة وكيف بقيت غالبة في التأليف .

وأبين اليوم حال اللغة العربية في بلاد الترك والهند ، وليس غريباً أن يتناول الكلام بلاد الترك والهند في بحث واحد ، فكلتاهما تجاور إيران ، وكلتاهما أثرت فيها العربية مباشرة وبتوسط الفارسية ، ثم العربية أثرت في الفارسية ، وهذه أثرت في التركية ، وثلاث اللغات أثرت في الأردية . فكان القول في بلاد الترك والهند متشابهاً متشابكا .

بلاد الترك

أعني تركستان الشرقية والغربية وموطن الترك العثمانيين .

فأما تركستان الغربية فهي التي سماها جغرافيو العرب ما وراء النهر وتسمى اليوم تركستان الروسية لاستيلاء الروس عليها. وكان نهر جيحون في العصور المختلفة يعدّ حداً بينها وبين إيران. وأما تركستان الشرقية فتسمى كشغر وتسمى اليوم تركستان الصينية.

وفي الاقليمين زهاء ستة ملايين يعيشون في أكثر من مليونين من الكيلات المربعة. ونهر جيحون قد عدّ في أساطير الفرس وتاريخهم حدّاً بين إيران وتوران، ودارت على ضفافه المعارك المتمادية بين الايرانيين والتورانيين، المعارك الهائلة التي صورتها الشاهنامة. ولكنه لم يكن في الحق فاصلاً بين الأمتين اللتين تعيشان شماليه وجنوبيه على مرّ الزمان. فقد عاش الفرس شماليّ النهر منذ عصور بعيدة، وعبر الترك النهر، ولا سيما في العصور الاسلامية، وانتشروا في إيران. وفيما وراء النهر اليوم قرى كثيرة لغتها الفارسية، ومعظم القرى التي لغتها التركية تعرف الفارسية.

ومن اللهجات الفارسية اللهجة الصغدية وهي لهجة الصغد في تركستان.

وقد قامت الدولة السامانية فيما وراء النهر وكانت حاضرتها بخارى فنشأت في عهدها الفارسية الحديثة وترعرعت في ظلالها فصارت لغة كتابة وعلم.

ولو كانت هذه البلاد خالصة للغة التركية ما كانت لغة الدولة السامانية ولغة شعرائها الفارسية دون التركية.

وأول شاعر فارسي كبير هو أبو جعفر الرودكي السمرقندي، فقد ترعرع الشعر الفارسي أول ما ترعرع شمالي نهر جيحون.

وقد ألف جار الله الزمخشري مقدمة الأدب ليعلّم أهلَ تركستان الأدب العربي، فجعلها معجماً من العربية إلى الفارسية، ولم يحاول تعليم أهل البلاد باللغة التركية وانما صارت التركية لغة أدبية في بعض أقطارها في عصور متأخرة.

فاذا تعرفنا حال العربية في تركستان ومكانتها في العلم والأدب ، وقسنا إليها لغة البلاد الأدبية ، وجدنا أحوالاً تشابه ما بينا في إيران ، من أحوال العربية والفارسية .

فحال الشعر الفارسي في تركستان كحاله في إيران ، ومسايرة العربية للفارسية في الشعر هنا كمسايرتها إياها هناك فلا نحتاج إلى إعادة القول ، وغلبة النثر العربي في إيران تقاس بها غلبته فيما وراء النهر أيضاً . وقد نشأ هناك من كتاب العربية أبو بكر الخوارزمي الكاتب المعروف « توفي سنة ٣٨٢ » ، والعميد والد أبي الفضل ابن العميد ، والزمخشري « توفي سنة ٥٣٨ » ، ورشيد الدين الوطواط العمري « توفي سنة ٥٧٣ » .

وأما لغة التأليف في العلم والأدب فكانت العربية إلا قليلاً . وحسبنا أن نذكر اسماعيل بن حماد الجوهري صاحب الصحاح ، وخاله اسحق ابن ابراهيم ، والفارابي ، والقفال الشاشي « توفي سنة ٣٦٦ » ، والخوارزمي سنة ٣١٥ ، وأبا الريحان البيروني .

ولا بد من وقفة عند الزمخشري لنستدل على مكانة العربية ، بما ألف فيها وبما بين من مكانتها في مقدمة كتابيه المفصَّل ومقدمة الأدب . فالزمخشري قد عاش بين منتصف القرن الخامس الهجري ومنتصف القرن السادس في تلك البلاد ، وكان من أئمة العربية في اللغة والنحو والأدب ولم يؤثر عنه أنه كتب بالفارسية أو التركية .

وقال في مقدمة المفصل :

« ولعل الذين يغضون من العربية ويضعون من مقدارها ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها ، حيث لم يجعل خيرة رسله وخيرة كتبه في عجم خلقه ولكن في عربه ، لا يبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج ، وزيغاً عن سواء المنهج » .

ويظهر من تضاعيف كلام الزمخشري أن هؤلاء الذين يغضون من

العربية كانت كراهيتهم في صميمها للنحو لا للغة العربية نفسها . ثم قال الزمخشري عن هؤلاء :

« وبهذا اللسان « يعني العربية » مناقلتهم في العلم ومحاورتهم وتدريسهم ومناظرتهم وبه تقطر في القراطيس أقلامهم ، وبه تسطر الصكوك والسجلات حكامهم . فهم ملتبسون بالعربية أية سلكوا ، غير منفكين عنها أينما وجهوا ، كلٌّ عليها حيثما سيّروا . ثم انهم في تضاعيف ذلك يجحدون فضلها ، ويدفعون خصلها ، ويذهبون عن توقيرها وتعظيمها ، وينهون عن تعلمها وتعليمها ، ويمزّقون أديمها ، ويمضغون لحمها . فهم في ذلك على المثل السائر « الشعير يؤكل ويذمّ » ، ويدّعون الاستغناء عنها وأنهم ليسوا في شيء منها ، فان صح ذلك فما بالهم لا يطلّقون اللغة رأساً والاعراب ، ولا يقطعون بينها وبينهم الأسباب ، فيطمسوا من تفسير القرآن آثارها ، وينفضوا من أصول الفقه غبارها » إلى أن يقول :

« وما لهم لم يتراطنوا في مجالس التدريس وحلَق المناظرة ، ثم نظروا هل تركوا للعلم جمالاً وأبهة ، وهل أصبحت الخاصة بالعامة مشبّهة وهل انقلبوا هُزْأة للساخرين وضُحكة للناظرين » .

أبان الزمخشري في هذه الكلمات عن تبرّم قوم بالعربية وبيّن أنها ، على هذا ، لغة العلم ولغة القضاء ولغة التعليم والمناظرة ولغة الأدب وان التدريس بغيرها يذهب بجمال العلم ، ويجعل الخاصة كالعامة . فلغة الخاصة العربية ، ولغة العامة الرطانة العجمية .

وألف الزمخشري مقدمة الأدب ، وضعه على نسق كتاب الثعالبي ، فقه اللغة ، وجعله عدّة لطالب الأدب العربي ، وفسر الكلمات العربية بالفارسية فتلقاه الناس بالقبول كما قال :

« لأن هذا الكتاب قد أصاب قبولاً من القلوب ، وهبّ في البلاد مهبّ الصبا والجنوب » وقال المؤلف في فاتحة الكتاب عن اللغة العربية :

« وجلالة هذا اللسان ، وما جعل الله له من نباهة الشأن ، وأن الحاجة إليه سانحة في الملة الاسلامية في أنواع علومها وفنون آدابها ، كان المتعاطون لاتقانه والتبحّر فيه معدودين في علماء هذه الأمة ، المذكورين في طبقات الأئمة ، ومن صُنع الله لهذه الطبقة ، أن الملوك لم تُمطر سحائبهم ولا فاضت عطياتهم ومواهبهم ، على أحد فيضها على هؤلاء من أدبائهم وخطبائهم ومترسّليهم وشعرائهم . ولم يخل بعد انقضاء دولة العرب عصر من الأعصار من ملك فاضل جواد يرغب فيهم ويكفلهم ويكفيهم ، ويتعصب لصناعتهم ويحرص على تنفيق بضاعتهم . وأما الذي اصطفاه الله في زماننا لنصرة الأدب ، وقذف في قلبه الرغبة في كلام العرب فالأمير الأجل الأسفهالار بهاء الدين علاء الدولة الأمير أبو المظفر آتسز ابن خوارزمشاه » اهـ .

وآتسز هذا أحد ملوك خوارزم تولى الملك من سنة ٥٢٢ إلى سنة ٥٥١ هـ وقد تولى رشيد الدين الوطواط العمري الكاتب المعروف ديوانَ الرسائل لهـذا الملك ثلاثين سنة وله رسائل عربية ذائعة تدل على متانة أسلوب العربية في ذلك العصر .

وقد عرفت محاولات للكتابة بالتركية بلهجات مختلفة منذ القرن الخامس الهجري فنظم يوسف خاص حاجب في بلاساغون وكشغر منظومة باللهجة الأيغورية اسمها قوداتغوبيليك . ونظم أديب أحمد رباعيات سماها « عتبة الحقائق » في القرن السادس الهجري ، وفي هذا القرن نظم الصوفي الكبير أحمد يَسوِي ديوان الحكمة .

وكذلك نظم بعض الأدباء من بعد غارات التتار في صحراء القفجاق وغيرها ، فنظم الشاعر قطب قصة خسرو وشيرين في القرن الثامن الهجري . ونظم في هذا القرن أيضاً الخوارزمي منظومته المسماة « محبت نامه »

وأنشئت منظومات وكتب قليلة بلهجات مختلفة ولكنها لم تبلغ ، قبل نشوء الأدب العثماني في رعاية الدولة العثمانية ، أن تنافس العربية أو الفارسية في النظم أو النثر أو التأليف .

وأعظم ما وعته اللغة التركية الشرقية « لغة جغتاي » منظومات علي شيرنوائي وبابرنامه وهي سيرة السلطان بابر التي كتبها بنفسه .

فأما علي شيرنوائي فكان وزيراً أو مشيراً للسلطان حسين بيقرا أحد الملوك من سلالة تيمورلنك وله في العدل والبرّ أياد بيضاء ، وله في الآداب العربية والفارسية والتركية مكانة ، وقد حاول أن يذلل التركية للنظم الادبي فنظم قصصاً خمساً من القصص المعروفة في الادب الفارسي ، وتبع سنَّة نظامي الشاعر في خمسته . وكتب في القياس بين التركية والفارسية كتاباً سماه « محاكمة اللغتين » بيَّن فيه فضل التركية على الفارسية في بعض الخصائص . وكتب في اللغة العربية معجماً جمع فيه بين سبعة من معاجم العربية وسماه « سبعة أبحر » .

ولكن هذا الشاعر القدير سلك طريقاً وعراً كان فيها فريداً لم يسبقه مثله ولم يلحقه ، وبقيت منظوماته منقطعة النظير في لغة جغتاي .

وعلي شير توفي سنة ٩٠٦ هـ فتاريخه يرجع إلى عصر متأخر ولكن اللغة التركية الشرقية لم تكن قد مهدت للادب فلم تجدِ عليها عبقرية هذا الشاعر الكبير كثيراً .

وكتب محمد ظهير الدين بابر كتابه « بابر نامه » في العصر الذي أنشأ فيه نوائي منظوماته ؛ كتبه في لغة طبيعية خالصة لا تكلف فيها ولا زينة لكنها كانت كمنظومات علي شير ، مثلا فريداً في لغة جغتاي .

التركية العثمانية

لم تتخذ التركية الغربية لسان أدب وعلم قبل قيام الدولة العثمانية

إلا في الندرة . اتخذها أمراء قرمان لغة ديوان في ثورتهم القصيرة الامد ، قبيل نهاية الدولة السلجوقية ، وأثر فيها ، نظم لجلال الدين الرومي المتوفى سنة ٦٧٢ ولابنه سلطان ولد .

وكان سلاجقة الروم — أي سلاجقة آسيا الصغرى — يلقبون بالالقاب الفارسية ويزينون قصورهم بأبيات من الشاهنامة ، وهي منظومة الفرس التي تروي جلاد إيران وتوران وتنتصر للايرانيين على التورانيين أي الترك .

وكانت العربية والفارسية لغتي العلم والادب في تلك الاقطار أيام السلاجقة .

ولما قامت الدولة العثمانية شرعت تستعمل التركية في رسائلها مع استعمال الفارسية والعربية .

وفي منشآت السلاطين — وهي الرسائل التي جمعها في القرن الحادي عشر الهجري أحمد فريدون بك — نماذج من رسائل السلاطين العثمانيين باللغات الثلاث . ثم نظم شعراء باللغة التركية وكتب فيها كتّاب . وتطورت الصناعتان تطورهما . فنبغ شعراء كثيرون وكتاب قليلون محاكاة للأدب الفارسي . وصيغت أوزان الشعر وقوافيه على غرار الشعر الفارسي ، وقد أسلفنا القول فيه ، واتخذ شعراء الترك موضوعات الشعر الفارسي وطرائقه ، واكثروا من استعمال الألفاظ الفارسية والتركيبات والألفاظ العربية ، حتى ليمرّ قارىء الشعر التركي بأبيات فارسية ليس فيها من التركية إلا حرف أو فعل ، وبقي تسلط الفارسية واضحاً حتى عصر عبد الحق حامد وأضرابه ، وقد توفي عبد الحق منذ بضعة عشر عاماً .

ويمكن أن يقال في صلة الادب التركي بالادب العربي ، ما قيل من قبل في الصلات بين الادبين العربي والفارسي . إذ كان الشعر التركي ، كما قلت ، محاكاة للشعر الفارسي في ألفاظه ومعانيه وموضوعاته .

وأكثرَ التركُ من تسجيل تاريخهم بلغتهم ، فغشيت اللغة التركية بسلسلة من كتب التاريخ قيمة ، والاسلوب القديم في النثر ينوء به التكلف والزينة اللفظية .

وأما التأليف في العلوم العقلية والشرعية واللغوية فقد غلبت عليه اللغة العربية شأنها في إيران وتركستان . وحسبنا أن نذكر من المؤلفين صدر الدين القونوي « توفي سنة ٦٧١ هـ » والكمال بن الهمام السيواسي « توفي سنة ٨٦١ » ولطف الله بن حسن التوقاتي الذي ألف في موضوعات العلوم للسلطان بايزيد الثاني « توفي سنة ٩٠٠ » . وأحمد بن سليمان المعروف بابن كمال باشا وهو من أكثر المؤلفين في العلوم الشرعية واللغوية . وعصام الدين أحمد بن مصطفى المعروف باسم طاشكبري زاده وهو مؤلف الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ، وله مؤلفات بالعربية تزيد على الثلاثين اجلها كتاب موضوعات العلوم المسمى مفتاح السعادة « توفي سنة ٩٦٨ » ومحيي الدين القونوي « المتوفى سنة ٩٥١ » ومصطفى بن شعبان صاحب الحاشية على تفسير البيضاوي « توفي سنة ٩٦٩ » وحامد القونوي صاحب الفتاوى « توفي سنة ٩٨٥ » والانقروي صاحب الفتاوى « المتوفى سنة ٩٩٨ » والحاج خليفة صاحب كشف الظنون « المتوفى سنة ١٠٦٧ » .

ولم يخل عصر من التأليف بالعربية في بلاد الترك العثمانيين على اختلاف أطوار العربية والتركية في التأليف على مر العصور . ولم يخل أديب أو شاعر من معرفة العربية قليلاً أو كثيراً حتى عصرنا هذا .

اللغة العربية في الهند

– ١ –

لما امتد الفتح بالعرب شطر المشرق حتى جاوزوا افغانستان ، هبطوا إقليم المُلتان من الهند ولكنهم لم يستقروا فيه . ثم حاولوا فتح الهند من جهة الساحل حيث يصب نهر السند في البحر المحيط فغزوا غزوات هناك . فلما كان زمان الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك سيّر الحجاج ابن يوسف الثقفي جيشاً لفتح الهند وجعل إمرته لابن أخيه محمد بن القاسم ، ففتح العرب اقليم السند حتى المُلتان ولم يتوغلوا في الهند .

ودام لهم سلطان فيما فتحوه زهاء مائتي سنة وبنوا هناك المدائن وعمروا الأرض .

وفي القرن الرابع الهجري اتخذ المسلمون لفتح الهند طريقاً آخر وتولى الفتحَ السلطان محمود الغزنوي أحد ملوك الدولة الغزنوية « ٣٥١ – ٥٧٩ هـ » وقد أعدّ العُدة وحشد الجيوش واحتفل للغزو وهبط سهول الهند بجيوشه أكثر من خمس عشرة مرة ما بين سنة ٣٩١ وسنة ٤١٧ فدانت له بنجاب وكشمير وكجرات واستقر سلطان الغزنويين في بنجاب .

ولما غُلبوا على غزنة دار ملكهم – غلبتهم عليها الدولة الغورية – اتخذوا لاهور حاضرة الملك سنة ٥٥٣ . فكانت لاهور أول حاضرة في الهند لدولة اسلامية .

ومهّد فتح الغزنويين طريق الدول الاسلامية إلى الهند ، وهيأ البلاد لنشوء دول اسلامية فيها ، ففتح الغوريون طرفاً من البلاد ، ونشأت في داخلها دول كثيرة منها دول سلاطين دهلي التي سيطرت على دهلي وما يتصل بها من سنة ٦٠٣ إلى سنة ٩٣٢ . وقد فتحت الدولُ الاسلامية شماليَّ الهند حتى خليج بنغالة وبسطت سلطان الاسلام وحضارته هنالك .

وفي القرن العاشر الهجري توجّه إلى الهند داهية عبقري لا تنشّىء الأجيال مثله إلا قليلاً ، فأقام فيها أعظم الدول الاسلامية الهندية . ذلكم محمد ظهير الدين بابر من حَفَدة الفاتح الجبار تيمورلنك .
ورث هـذا الأمير من أبيه إمارة فرغانة وسمرقند سنة ٨٩٩ وهو في سن الثانية عشرة وتقلبت به غِيَر ، وتداولته خطوبٌ حتى غُلب على إمارته الموروثة بعد سبع سنوات : ولكن هذا الشاب العبقري كان أجرأ وأصبر من أن يستكين للحادثات ، فبقي ثلاث سنين شريداً ليس في يده من الملك شيء ، ولكن كان في ضمان عزمه وهمته أن يكون ملكاً في بلاد أوسع من فرغانة وسمرقند . فتوجه تلقاء كابل ففتحها سنة ٩١٠ . وتمكن ملكه من كابل واتجه طماحه وهمه إلى الأرض الواسعة الغنية ، عزم

على فتح الهند . فأخذ يغير على أطرافها منذ سنة ٩٢٥ حتى مكنته شجاعته وهمته ودهاؤه أن يهزم السلطان ابراهيم اللودي سنة ٩٣٢ في موقعة پانيپات التي سقط فيها السلطان بين خمسين ألفاً من جنده . وبعد هذه الموقعة بستة أيام خُطب لظهير الدين بابر في دهلي يوم الجمعة الرابع عشر من رجب سنة ٩٣٢ هـ .

ولم يثبت له جيش بعد ذلك حتى الجيوش التي حشدها أمراء الهند وحشروا فيها من الجند والفيلة جموعاً يقودها مائة وعشرون قائداً على رأسهم سانجا زعيم أمراء رَجْپوت . فلقي بابر بعد سنتين من موقعة پانيپات ظفراً أعظم من ظفرها في موقعة كندها . لم يثبت أحد من بعد لسطوة بابر ، فأقام دولة في الهند دام سلطانها ثلاثة قرون ونصف على اختلاف الغير وتبدل الحالات .

توالى على عرش الهند ملوك عظام مدوا سلطانهم على أرجاء الهند ، وأقروا فيها القانون ، والعدل ، وأشاعوا فيها الحضارة والثقافة ، ولا سيما الستة الأولون من ملوك هذه الدولة من بابُر إلى أورَنك زيب ، فقد تداولوا السلطان مائتي عام ، وبلغت الدولة في سلطانهم أوجها . وقد شرعوا شرائع عادلة ، وسنّوا سنناً حسنة ، وجمعوا حولهم العلماء والفلاسفة والأطباء والأدباء والصناع من أقطار الأرض ، وشادوا من الأبنية ما لا يزال يحدث بقوتهم وحضارتهم . وقد بقيت هذه الدولة إلى سنة ١٢٧٤ هـ حين أزالها الانكليز بعد أن نقصوا أطرافها وزلزلوا أركانها .

— ٢ —

هذه الدول الاسلامية التي توالت على الهند منذ الفتح العربي الأول عملت في نشر الحضارة الاسلامية واللغة العربية . نشر العرب لغتهم هناك ، واتخذ مسلمو الهند ، كسائر مسلمي العالم اللغة العربية لغة علم وأدب على مرّ العصور . وكان دخول العربية إلى الهند على طريقتين :

الأولى : في ثنايا اللغة والآداب الفارسية . فالفارسية قد أخذت من

العربية على النحو الذي بيّنت من قبل ، ثم صارت لغة الدولة ولغة التدون في الهند منذ عهد الغزنويين . لا سيما في عهد الدولة المغولية التي ذكرتها آنفاً . وقد عدّ الشيخ شبلي النعماني في كتابه « شعراء العجم » واحداً وخمسين شاعراً فارسياً جاءوا إلى الهند في عهد السلطان جلال الدين أكبر « ٩٦٣ - ١٠١٤ هـ » وعد المداوني أكثر من هؤلاء ومعظمهم فارسي الأصل ، منهم من نشأ في الهند ، ومنهم من طرأ عليها . كما عدّ من العلماء والفلاسفة والأطباء الذين عاشوا في كنف هذه الدولة أكثر من مائة وخمسين .

ثم نشأت اللغة الأردية في كنف اللغة العربية والفارسية ، فكان أثر العربية فيها كأثر العربية في الفارسية :

شرع أدباء الهند يدخلون في الأدب ألفاظاً وجملاً من الهندية في القرن السابع الهجري إذ استعمل الشاعر الكبير الأمير خسرو الدهلوي « ٦٥٣ - ٧٢٥ » كثيراً من هذه الألفاظ ، ونظم شعراً ملمّعاً من الفارسية والهندية . ثم كتب بعض الصوفية في القرن التاسع الهجري بالهندية ليقربوا إلى العامة آراءهم ومواعظهم ، ولم يكن لهم بدّ من استعمال كثير من الألفاظ العربية والفارسية ، إذ كانتا لغتي العلم والأدب حينئذ . وكتبوا هذه الهندية المشوبة بالعربية والفارسية بالخط العربي فنشأت اللغة التي عرفت من بعد باسم الاردية . ولم ينبغ شعراء الاردية العظام إلا منذ القرن الثاني عشر الهجري .

فهذا دخول العربية إلى الهند في ثنايا الفارسية والعربية .

وأما استعمال العربية لغة مستقلة فقد عرف في عصور الهند كلها منذ الفتح العربي الأول ، ولا سيما بعد أن توغل المسلمون في أرجاء الهند ونشروا لغة القرآن ، فكتب فيها مؤلفون على مرّ الزمان .

ومن المؤلفين بالعربية فيضي المتوفى سنة ١٠٠٤ ، وهو صاحب التفسير المسمى « سواطع الالهام » وقد التزم أن يخلي تفسيره من الحروف المعجمة كلها . وهذا ، على قلة جدواه ، لا يتاح إلا لمتمكن في العربية

واسع العلم بها . ومن كبار المؤلفين عبد الحليم السيالكوتي المتوفى سنة ١٠٦٧ ، ومؤلفاته في علم الكلام معروفة . ومن الفقهاء محب الله البهاري ، له مؤلفات في الفقه والمنطق . ومنهم الشيخ نظام الذي أشرف على جمع الفتاوى الهندية في عصر السلطان اورنك زيب « ١٠٦٩ - ١١١٨ ه » . وفي مقدمة هذه الفتاوى ما يدل على التأنق في العربية والادلال بمعرفة غريبها ، جاء فيها :

« وبعد فان الفقه حاجز بين الهداية والضلال ، وقسطاس مستقيم لمعرفة مقادير الأعمال ، وعبابه الزاخره لا يوجد لها قرار ، وأطواده الشامخة لا يدرك قنونها بالأبصار . . . فمنّ الله عليهم باستنارة صديع سلطنة الملك الصيلهام ، وانفلاق صبح دولة السلطان الهميسع القمقام ، القرم المقرَم ، والقيدَمّ الفيلهَدَم ، زُزَم آجام الوغى ، وَقفصل غياض المزدحَم المطيم على العدل والشجاعة والنـــدى ، والمفطور نقنه من الزهد والورع والتقوى أمير المؤمنين ورئيس المسلمين ، إمام الغزاة ورأس المجاهدين ، أبو المظفر أورنك محي الدين محمد زيب بهادر علم كبير بادشاه غازي أيّد الله تعالى سلطانه ، وعمّم على البرية كافةً احسانه » .

ومن المؤلفين بالعربية الشيخ ولي الله الدهلوي مؤلف « حجة الله البالغة » ، وكتب أخرى .

ولا يزال علماء المسلمين وأدباؤهم في الهند يؤلفون بالعربية وينشرون القيّم من كتبها ، ويشرحونه أحياناً ، ولا تزال الهند موطناً من مواطن لغة القرآن .

ومن المؤلفين بالعربية في عصرنا الشيخ شبلي النعماني وأصحابه من رجال ندوة العلماء ، والسيد صديق حسن خان مؤلف كتاب حقوق النسوة وكتب اخرى قيمة ، وكرامت حسين مؤلف فقه اللسان في اللغة ، والشيخ عبد العزيز الميمني ، له كتب قيمة في الأدب منها كتابه عن أبي العلاء و « زيادات شعر المتنبي » ، وقد نشر في القاهرة كتاب سمط

اللآلي في شرح الأمالي للزبيدي . ومنهم زاهد عليّ ناشر ديوان ابن هانىء ، وكثيرون غير هؤلاء . وقد نشروا من كتب العربية القيمة كتباً كثيرة منها الجمهرة لابن دريد ، ولزوميات المعري .

وقل أن لقيت في مصر من مسلمي الهند عالماً أو متعلماً إلا يعرف العربية ويتكلم بها على حداثة عهده بالبلاد العربية ، ولولا عنايتهم بتعلمها والتكلم بها في ديارهم ما تيسر لهم كتابتها والتحدث بها في بلاد العرب بعد إقامة قصيرة . وكثيراً ما أتلقى رسائل عربية من علماء في الهند لم يقيموا بالبلاد العربية ، وهي تشهد بتمكنهم من العربية ، ومسايرتهم تطورها في هذا العصر .

دمشق : ايلول سنة ١٩٤٦ .

الديمقراطية وأهدافها في التعليم والتربية

للدكتور عبد الرحمن الكيالي

١ — ما هي الغاية من الاستقلال ؟

ان الحصول على الاستقلال التام الناجز لا يعد الغاية من جهادنا الذي استدام خمسة قرون . فما هي غايتنا ؟ لماذا نشتكي ونشتكي ونتألم ونصيح وقد أصبحنا سادة بلادنا أحراراً فيما نريد وما لا نريد ؟ هل يعوزنا المال والزمن والرجال ، أم تعوزنا الارادة والعمل والثبات حتى يخيب أملنا ولا نكاد نلمس فرقاً بين الأمس الغابر واليوم الحاضر ؟ هل مبعث شكوانا حيويتنا الوثابة ، وطبيعتنا الحساسة أم أهدافنا السامية وآمالنا العديدة ؟ كيف نعالج بلوانا ونتحرر من القيود التي غلت أيدينا ؟ وما هي الوسائل التي تنقذنا من أخطاء الجهل ومساوىء الاستكانة ، وأسباب التذمر وتنهض بنا بسرعة وحماس كما نهض غيرنا وتدفعنا للأمام كما دفعت من سبقنا فارتقى وتقدم ؟ هل تنقصنا المواهب والاستعداد الفطري أم ينقصنا شيء آخر بدونه لا نستطيع ادراك ما يلزمنا ، وتدارك ما يحوجنا ؟ وإذا سعينا نكون من الناجحين في علومهم ، وتجاربهم وصناعاتهم وتجاراتهم وآدابهم وأخلاقهم وزراعاتهم وشركاتهم فما هو العامل لبلوغ النجاح ؟ وما هي أدلة النجاح ومقياس الرقي ؟

٢ — ما تطلبه الديمقراطية :

لا شك أن هذه المسائل وأمثالها وما لها من أهداف ووسائل مما يجب معالجته بعلم ، وتمحيص ، وإخلاص ، فيجاب عليها وتنشر ويبشر

بها ، ويعلمها طلاب العلم ورجال الدولة وأصحاب العمـــل وكل مؤمن بالديمقراطية وساع لعزة قومه وكرامة وطنه .

وما دام الاستقلال كما يقول علماء الاجتماع هو وسيلة لا غاية فكل استقلال لا يؤدي الى طمأنينة النفوس ، ورفاهيـة الشعب ، ولا يهيء الاجيال للبقاء والتقدم ولا يضمن للأفراد والجماعات حرياتهم التي هي من حقهم المقدس ، ولا يصون الحقوق ، ويحمي المصالح والعلاقات التي تربط الأفراد والجماعات والدولة ، ولا يرعى ارادة الأمة ورفاهيتها باستتباب الأمن وفرض النظام وادارة الأمور بعدل وتجرد ونزاهة ، يورث الاضطراب وينشر الفوضى ، ويعرض كيان الوطن إلى أخطر العواقب . وإذا كانت المدنيات قد اختلفت أنواعها وأنظمة الحكم قد تعددت أشكالها ما بين ، استبدادية ، ومطلقة ، واقطاعية ، وملكية ، واشتراكية ، ونازية ، وفاشيستية ، وديكتاتورية ، وديمقراطية ، وجمهورية ، فان خيرها وأبقاها ما كانت مبادئها مستقرة في روح الشعب ، ونظامها صادراً عن ارادة الشعب ، وغاياتها لخير الشعب ولها دستورها وممثلوها المنتخبون ، وحكومتها ، ومؤسساتها ، ومجالسها ، وجمعياتها ، وشركاتها ، ومعاهدها تدين بعقيدة وطنية موحدة وتتبع غاية واحدة وتخضع لنظام عام واحد .

٣ — ما هي الديمقراطية ؟

تعرّف الفلسفة السياسية الديمقراطية بأنها « نظام موضوع للحصول على قرارات تشريعية تحقق الصالح العام بجعل الشعب تصدر عنه تلك القرارات بواسطة انتخابه أفراداً يمثلون ارادته ، ويجتمعون لهذه الغاية ، ومعناه أن هنالك صالحاً عاماً هو منار السياسة التي هي بسيطة بحد ذاتها يستطيع كل عاقل أن يراها ويناقشها ولذا لا يعذر من لا يقررها ولا يراها ولا معنى لوجود شعب لا يفهمها ولا يرى الا الجهالة والبلادة

وعدم الاجتماعية « اللااجتماعية » ومعناه أن هذا الصالح العام يدل على جميع المسائل التي بطبيعتها إما ان تكون خيراً للشعب أو شراً له ويدل على ضرورة اتفاق الأفراد على وجود الارادة العامة أو وجود مبدئها على الأقل » .

٤ — ما يقول ادوار بنش عن الديمقراطية :

وتأييداً للتعريف المذكور يقول رئيس جمهورية تشكوسلافيا في كتابه الديمقراطية « ان الديمقراطية لا تزال في نظري تمثل أرفع درجة في سلم البناء الاجتماعي ، لأنها تدعو الى تشييد البناء على أساس احترام القيم المعنوية للفرد ، ولذلك لم يكن نضالنا ضد النازية والفاشيستية حرباً على أحلام الجرمانيين الطامحين إلى السيطرة على العالم فحسب ، بل كان جهاداً في سبيل هذه الدعوة الديمقراطية أيضاً ، وفي سبيل إخراجها إلى حيز التطبيق » ويختم كلامه بقوله : « وما غاية الحرب التي خاضتها الامم المتحدة الا تحرير الانسان وصون كرامته ، وأن تصبح حقوقه الاساسية الى جانب الحرمات الاربع — حرية القول والعقيدة ، حرية الرأي والعبادة ، التحرر من العوز والفاقة ، التحرر من الظلم والاستعباد — محور الوجود الانساني في العالم كله . فعلى ديمقراطية المستقبل ان شاءت بلوغ هذه الغاية أن تؤمن المساواة الفكرية والاقتصادية مع المساواة السياسية التي حملتها في الماضي الى أبناء الأمة الواحدة ، وعليها أن تدرك جيداً أن المبادىء الديمقراطية يجب أن تتعدى حياة الأمة الداخلية ، لتصبح شريعة سياستها الخارجية . وها هي عبر الحرب تعلم الدول الكبيرة والصغيرة ان المجتمع البشري لن يتقدم مالم تقم فيه سلطة سياسية عالمية تحل النظام والقانون المقام الأول حتى في العلاقات بين الدول »

٥ — مبادىء الديمقراطية

ويستنتج من كل ما تقدم أن الديمقراطية سواء أكانت عامة أم خاصة ، اجتماعية أم اقتصادية ، سياسية أم ثقافية تنطوي على مبدأين « ارادة الشعب ، والصالح العام » . وهي خلافاً لبقية المذاهب الاجتماعية والأنظمة الحكومية التي منها من اعتبر الفرد للدولة وحدّ من حريته وتصرفاته لسلامة الدولة ، فانها أخذت بمبدأ العدل الاجتماعي والتعاون الاجتماعي لسلامة المجموع وجعلت الدول الظافرة التي أراقت دماء الملايين من أبنائها للقضاء على السيطرة الديكتاتورية وعلى فكرة التصرف بعقول الشعب وحرياته وجهوده لحساب طبقة مستأثرة تحكم تحت ستار مصلحة الدولة ، تعدل قوانينها ونظمها لتمكين السواد الأعظم من اقتسام ثمرات الظفر وثروات الدولة لتأمين حياته ومستقبل أبنائه وترفيه أفراده .

ونحن الذين قبلوا النظام الديمقراطي كما تجلى في ماضينا العظيم وفي دستورنا الحكيم وأسلوب حكمنا الحاضر وفي تشريعنا الصادر عن ممثلينا لهذه الغاية يجدر بنا أن لا نفصل عن تيارات المدنية وتطورات الدول وأن لا نهين حق الشعب وآماله فنسعى الى تحقيقها . والعرب أحق الأمم وأولاهم بفهم الديمقراطية التي لم تتجل في أي عصر مثلما تجلت في عصر الرسول وخلفائه الراشدين .

وعلينا أن نربي أولادنا وأنفسنا على تأدية ما تفرضه علينا من واجبات وتضحيات فنعمد الى محاربة الأمية ، والقضاء على الجهل بنشر التعليم الصحيح بين جميع الأفراد وإلى احترام الرأي وصيانة الحقوق ، والطاعة للنظام ، وتكون الأحزاب لا المنافسات وخدمة الأشخاص ولكن لتنفيذ برامج تعالج قضايا البلاد ؛ والى حسن انتخاب النواب بوعي ، وإدراك المسؤولية ، والى العمل التعاوني المشترك .

٦ – أهداف الديمقراطية في التعليم والتربية :

ولما كانت الديمقراطية لا تقوم على أساس الجهل بل لا بد لها من وعي قومي ومن تطور اجتماعي في الأفكار والأخلاق فان أهم ما يبتدأ به هو التعليم والتربية . ولماذا ؟ لأن المواهب القومية تحتاج لنمو وتربية وتغذية ، والأذهان تتطلب تنويراً وارشاداً لأحسن الطرق والوسائل وفاقاً لاستعدادها حتى تتبع الأفراد والجماعات أهدافها ومثلها العليا في الحياة والتنظيم والانشاء . واذا صح أن للرقي مقاييس وللديمقراطية أدلة فأعتقد أن أصحها معاهد العلم والتربية ، ومخابر الدرس والتجربة . ولكن ما هو الرقي وأي تعليم يبعث النهوض والتقدم ؟

٧ – أدلة الرقي والنهوض

أجيبكم وتسلمون معي بأن الرقي ليس في الزينة وجمالها ، ولا في الملبس وأناقته ولا في المآكل ونفاسته . والمدنية ليست في كثرة الطرق والبنيان ، والنهضة ليست باتساع العمران وجمال المنشآت . إنما في أمور أخرى في الانسان هي مصدر الحركة والنمو ، وباعثة التجدد والتطور وسبب الازدهار والتقدم . في الفرد « الوراثة ، والفعالية ، والاستعداد ، والمقاومة ، وقابلية التكيف والائتلاف والملائمة مع المحيط ، ومقدار النمو ، ونسبة نتاج العمل ، وفي المجموع « سيادة الأمة على قوى الطبيعة وخيراتها والمقدرة على استخدامها واستثمارها ، ونمو الاخلاق ، وحسن العلاقة ، والادب الفكري ، ورفاهية العموم ، ورضاؤه في الحياة » .

ومما لا جدال فيه أن السيادة على قوى الطبيعة لا تتم بدون العلم ، واستثمارها لا يكون بغير العلم وتعاليمه في كل وجوه الحياة ومرافقها إذ كيف نسخر قوى الطبيعة ومعظم أفراد الامة يجهلون نواميسها ، وخواص جواهرها وفوائد قواها وموادها . وهل من يجهل الكيمياء

وطبقات الأرض والمعادن ، ووظائف الجسم ومنافع الصحة وخواص النباتات والحيوانات وفوائد العقاقير والادوية وما يعتري الجسم من أمراض وأوباء وكيف تقاوم وتعالج الجراثيم الفتاكة وغيرها من العلوم والفنون يستطيع مقاومة المحيط ومؤثراته وسد احتياجاته ؟ وهل ينمو العقل البشري وتتسع المدارك ويقوى الانسان على الاختراع والاكتشاف وهو بعيد عن العلم ، مقيد بقيود الاهمال والجهالة ؟ وهل تؤسس المعامل وتنشأ الصناعات ، وتنجح الشركات بدون معرفة علمية ؟ وهل يستتب الامن والنظام وتمارس السيادة وتتمتع بالحرية دون حكومة ديمقراطية ، ودستور محترم ، وجيش مدرب منظم ومعدات كاملة ؟

وأما سمو الاخلاق المنطوية على الصدق ، والنبل ، وحب الخير وأداء الامانة وتهذيب المعاشرة وحسن الطبع ، ورقة الشعور وصفاء القلب وحدة الخيال ، ولا نهائيـــة التصور بما وراء الكون ، فمزايا وصفات لا تتأتى إلا عن العلم والتربية .

٨ — أي تعليم ينفعنا ؟

وبما أن الاهداف المذكورة غاية ما تتطلبه الديمقراطية وهي أساس الرقي ، وما دام التعليم والتربية والاداة الصالحة لها ، وما دام واجبنا في عهدنا الاستقلالي التأسيس والانشاء ليكون وطننا حراً كامل السيادة ، كافل العيش الهني ، وما دمنا نعشق مجد الآباء ونعمل لاستعادة مجدهم وأداء رسالتهم فيا ترى أي تعليم ينفعنا وأي المدارس تحسن تربية أولادنا وأي منهج من مناهج التربية والتثقيف خير لنا ؟ هل نعلم أولادنا ليكونوا لنا أم لذويهم أم لبلادهم أم لأمتهم ، أم لطائفتهم ، أم لحكومتهم ؟ وهل نربيهم ليكونوا أصحاب إرادة وعزم ، وتثبت ، أقوياء الجسم ، أصحاء الفكر يعتمدون على أنفسهم واثقين من نجاحهم يعرفون متاعب الحياة

وقضايا الحياة ؟ أم نريدهم تبعاً لنا مستسلمين لارادتنا ، متكلين على مواردنا مرتزقين من الوظائف مسيرين بتيارات المحيط وتقاليد المجتمع ، أسيرين للأهواء والمطامع ؟ وأي سياسة تعليمية نتبعها ؟ أسياسة التعليم الحر النظري ، أم التعليم المهني العملي ، أم التعليم الزراعي الصناعي ، أم التعليم العالي الجامعي ؟ أسئلة هي من صميم الحياة ومن ضروريات المستقبل ، ولا بد لذوي الامر من آباء ، وحكومة ، ومجلس أن يفكروا بها ويقروها ، ويهيئوا الجيل لما يجدونه خيراً لهم وله في تطبيقها .

٩ – صلاح التعليم وشروطه :

على أننا لن نتأكد من صلاح التعليم وملائمة التربية لأهدافنا وحاجاتنا ما لم يقم أساسها على الثقافة القومية ، والتفكير العلمي ، والوحدة الوطنية والتعاون الاجتماعي ، والمساواة في الفرص .

ولن تفيدنا التربية المدرسية في جميع أنواع العلم ومختلف المدارس ان لم نعمل لانماء الشخصية ، وتقوية الخلق الأدبي وتنوير الذهن بالحقائق الواقعية والمعارف العملية ، والانقياد إلى المثل العليـا في المعاملات والسياسة والاقتصاد وما لم تمكن الطالب بعد الانتهاء من تحصيله أن يُفهم غيره وينقل اليه أفكاره بلغة فصيحة ومنطق سليم وما لم يكن له المثل الصالحة مستمدة من أسفار التاريخ والادب والاجتماع والأخلاق ومن السير التي تعلمها وقرأ عنهـا ، وما لم يكن له العزم والارادة والرغبة لتطبيقها في أعماله وعلاقاته ، وما لم يدم نشاطه متأججاً ، وفعاليته متزايدة بحيث يتسع علمه وتسمو مداركه كلما تقدم في التجارب ، وما لم يوفق نفسه بأي عمل وفي أي محيط وفقاً لما يريده بثبات ونجاح .

١٠ - كيف يؤدي رجال التعليم هذه المهمة

والذي أعتقده أن رجال التعليم لن يوفقوا في أداء مهمتهم إن لم يقفوا على هذه المبادىء ويعملوا بموجبها ، ويلموا حاجات الوطن وطبيعة المحيط وتاريخه ، وموارد الثروة فيه وموقعها ، ويبحثوا عن قوى الطبيعة واستثمارها وعليهم أن يفهموا تكوين الأمة الاجتماعي وأحوالها الروحية والسياسية والأدبية ومن الضروري لنجاحهم أن يحيطوا بالنظم القائمة والعادات الجارية والتقاليد السائدة . وأعتقد أنهم لن ينالوا ثمرة أتعابهم وعلمهم ما لم يعرفوا نفسية الطفل وذهنيته والأدوار التكوينية التي يمر بها دماغه وجسمه وما يطرأ عليها من علل وتحولات وما لم يدركوا كيف تنمو قواه البدنية والفكرية والروحية وأعتقد أنه من الضرر الفادح تسليم أولادنا وهم ثمرة حياتنا وسبب وجودنا إلى مربين لا يعرفون الغرائز وتأثيرها على العقل الباطن وتحكمها في الطباع والأعمال اللاشعورية ومن الويل ان تناسوا ما جهزتنا به الطبيعة من وراثة ، وأفعال منعكسة ، وعادات ومحيط ، وجهد ذهني واستعداد لحل قضايانا الحياتية .

١١ - حاجاتنا الحاضرة

أجل ! لقد بينا الغاية من الاستقلال ، وعرفنا معنى الديمقراطية ، وذكرنا مبادئها وأهدافها ، وشرحنا ضرورة التعليم والتربية ، وفصلنا مقاييس الرقي وأدلة التمدن ؛ وبحثنا أهداف التربية والثقافة ؛ وعددنا مطاليب الحياة وما أعدته الطبيعة لنا وما هي أدلة النجاح وأنواع المدارس وما يتحتم على الآباء اختياره ، وشرحنا ما يجب على رجال العلم والتعليم معرفته وكيف تؤدى هذه المهمة وبقي علينا كنتيجة لما تقدم أن نبين ما هي حاجاتنا الحاضرة من التعليم والتربية وأي المدارس والمعاهد أفيد لنا في عهدنا الاستقلالي الديمقراطي .

ان حاجاتنا مها اختلفنا في تعدادها وبحثها تبدو صريحة إذا أخذنا بعين الاعتبار أولاً: ان بلادنا زراعية ونحن أمة تعيش من موارد الزراعة ومن خيرات الأرض وموقعنا يقع في ملتقى مواصلات الشرق والغرب وبحكم الطبيعة ورثنا الميل للتجارة والصناعة . ثانياً: ان الأمية لا تزال متفشية بيننا في المدن والقرى وهي علة التأخر. ثالثاً: ان ما مر بنا من أدوار الحكم وأنواعه وما خلفته السنون في نفوسنا ومجتمعنا وأخلاقنا من أسواء ، وعادات ، وما أبقته بيننا من مقوضات تحتاج إلى معالجة قاطعة . رابعاً: ان أمر المرأة والعائلة أساسي في تكوين المجتمع وله التأثير الأكبر في كل اصلاح ونهضة . أقول إذا أخذنا هذه الأمور بعين الاعتبار وقدرنا ماللنظام والتنظيم والدفاع ، من ضرورة استطعنا أن نوجه تعليمنا وتربيتنا كما تفرضه الحاجة ويفرضه نظامنا الديمقراطي ويقول به العلم . ونظرة إلى ما بلغته المدارس الرسمية في سوريا من حيث العدد والنوع ترينا أن التعليم الاولي والابتدائي والثانوي وإن ازداد اتساعاً وتناول البنين والبنات وفاق ما كان عليه أيام العثمانيين والافرنسيين فانه من حيث الحاجة الملحـــة ، والضرورات التربوية المهمة لا يزال دون الغاية .

فالمدارس الابتدائية بلغ عددها « ٨٥٥ » مدرسة رسمية تحوي « ١١٢٠٣٥ » تلميذاً والمدارس الثانوية بلغ عددها « ٣٠ » مدرسة تحوي « ١٤٣٢١ » تلميذاً والمدارس المهنيـة بلغت « ٦٠ » مدرسة تحوي « ٩٦٢ » تلميذاً . وهنالك « ٩ » معاهد أهلية تحوي « ١٧٢٢ » تلميذاً فهل يكفي هذا المقدار للقضاء على الامية ؟ ولو فرضنا أن ربع السكان يحتاجون الى العلم ويجب أن يكونوا في المدارس كما دلت عليه احصائيات الامم الراقية ، واذا فرضنا أن نفوس سوريا ثلاثة ملايين فالواجب أن

يكون هنالك « ٧٥٠,٠٠٠ » طالب وطالبة ، واذا كانت النفوس بعد الاحصاء الفني الدقيق تبلغ أربعة ملايين لكان الذين يجب أن يكونوا في المدارس مليون شخص ، فكم يقتضي لهؤلاء من المدارس ، ومن المعلمين ومن الأبنية ومن الزمن ؟

وإذا نظرنا إلى الكليات الثانوية وإلى عدد المتخرجين منها بالاعتبار الحاضر لهالنا عددهم ولوجدنا أن لا مخرج نهائياً لهم سوى التحصيل الجامعي وهو غير كاف لتأمين مستقبلهم ولتأمين حاجة البلاد . ألا يبقون حيارى مزودين بنظريات العلم ومحرومين من تطبيقاته العملية ؟ ألا تنقصهم أدلة النجاح ، وينقصهم التوجيه المفيد ؟ ان التعليم الجامعي مفيد ولكن البناء يبدأ من الأساس لا من الرأس .

اين التعليم الزراعي ؟ والتوجيه الزراعي ؟ وأين المدارس الصناعية الزراعية ؟ وأين كليات الهندسة الزراعية ؟ وأين المخابر والحقول الزراعية الفنية ؟ ان هذه غير موجودة والموجود هزيل وناقص . والبلاد بلاد زراعية وخمسة وسبعون من في المائة سكانها يتعاطون الزراعة ؟ فكيف تزدهر البلاد وتتلافى أخطار الثقافة الناقصة ، وكيف يزيد انتاجنا وتزداد ثروتنا وصادراتنا والمزارعون يزرعون ويحصدون وهم على ما هم عليه منذ القرون الوسطى لم يتقدموا إلا قليلا ؟ هذه بعثاتنا العلمية تذهب إلى الغرب فكم عددها وكم خصص منها للزراعة وفروعها وللدراسات الزراعية وهندستها . كان الواجب أن نوجه تعليمنا لهذه الغاية منذ الابتداء وأن نرسل البعثات من شبابنا للتزود مما في الغرب من رقي زراعي وعلم زراعي حتى اذا عادوا تولوا التعليم ، والتطبيق والارشاد .

ان لكل تعليم فوائده ومحسناته وزيادة المدارس وكثرة انتشارها وانتشار التعليم مفيد ولكن حاجتنا إلى المدارس العلمية العملية الزراعية والصناعية أهم من كل شيء ، ويجب أن نتداركها قبل استفحال داء الحيرة

والتوظف . اننا بحاجة إلى مدارس لكل منها طابعها الخاص واختصاصها العلمي فبعضها للأثمار وبعضها للحبوب ، وبعضها للالبان والمواشي واللحوم والمراعي وبعضها المروج والغابات ، وبعضها للاغنام والاواجن والصوف ، وبعضها للزهور والعطور والنحالة ، وبعضها للكيمياء الزراعية ودراسة التربة والأسمدة ، وبعضها للقطن والري ، وبعضها للصناعات الزراعية التي لا تعد .

ولترقية الصناعات نحتاج إلى مدارس مهنية ترفع مستوى الصناعة ومستوى الحياة وتستخدم العلم والفن وتخدم الشعب والحكومة والجيش وحسب علاقاتها تقسم الى مهن ميكانيكية ، ومهن يدوية . فالميكانيكية تتناول مهنة المحركات ، والسواقة ، والسيارات ، والمطاحن ، وتركيب المعامل والآلات ، والكهرباء وما يشتق منها كالبرق اللاسلكي ، والراديو ، والتمديدات ، والتنويرات وغيرها ، والسكك الحديدية والمباني والنسيج ، والانوال . والمهن اليدوية تتناول شتى الصناعات كالخزف ، والبللور ، والقزاز ، والنجارة ، والنحت ، والحدادة ، والخياطة ، والنحاسة ، والزخرفة ، والدهان ، والحياكة وغيرها مما يدخل في حاجات الانسان والعمران .

ولجعلها تتفق والنظريات العلمية والترقي العلمي يجب تعليمها في المدارس تعليماً علمياً وعملياً . ونظراً لأهميتها فان البلاد الاميركية ، والانكليزية ، والسوفياتية عممتها وزادتها بصورة لم يسبق لها نظير . لان المدارس العالية والجامعية لا يستطيع معظم الطلاب الوصول اليها واتمامها لاسباب عديدة ولذا كي يتبع كل ما يستطيعه وحتى لا يبقى عالة على المجتمع يعيش بوحي التقليد والاستسلام احدثت هذه المدارس ، ونظمت ، واعتني بها حتى غدت محببة الى النفوس وضامنة للنجاح .

أما ما يخص المرأة وحاجاتها فلاختلاف حالة البلاد عن غيرها ولضرورة فتح المجال لها كي تكون عضواً صالحاً يؤدي وظيفته ويتبوأ مكانته فيجب أن يكون لها مدارس مهنية خاصة تتلائم مع حاجتها وطبيعتها . ومع أنها تؤم اليوم دور المعلمات ، والحقوق والطب والآداب والحقوق لأنها لا تجد سواها فهي في حاجة لمؤسسات أخرى تكفي للعدد الوافر من الطالبات تعلم فيها ما يضمن لها حسن الأمومة ، وبناء العائلة ، وكسب الرزق وخدمة الصناعة النسائية اليدوية والفنية .

والمدارس المهنية الموجودة والمدارس الثانوية والكليات الجامعية لا تستطيع بعلومها وتأسيساتها أن تمد الطلاب لمكافحة الحياة وتأمين حاجات الوطن وصيانة العقيدة والضمير ما لم تكن نموذجاً صالحاً للعائلة والحكومة والمعمل ، والشركة ، والقرية يخضع فيها الطلاب الى القانون لانه من منفعتهم ، ويقومون بالواجب لأنه واجب وأداؤه فضيلة ، ويمرنون أبدانهم لأن التمرين يكسبهم النمو والصحة ويعبدون ربهم لأن العبادة غذاء روحهم ويحترمون الحرية لانها حقهم والاساءة لها إساءة لانفسهم ، ويفكرون عما يعملون لأن العمل بدون تفكير ضياع للعمر ، ويشعرون بالثقة لأن شعور الثقة يقوي ارادتهم ويبعد عنهم مركب النقص . ولتكون المدرسة العالم المحبب اليهم يجب معرفة رغائبهم وفهم مسائلهم ومعالجة مشاكلهم بروح العطف والتقدير ويجب أن تكون صلة المعلم والمعلمات مع الطلاب صلة الوالدين مع اولادهم والصديق مع أصدقائه . والمدرسة لا تكون محببة إلا إذا وجد الطلاب فيها ما يريح روحهم ويهذب عواطفهم بانشاء النوادي المختلفة والجميات المفيدة الجدية . ومما هو ضروري أن تكون المدرسة نظيفة ومرتبة ومنسقة وأن تكون عناية النوادي والجميات التوجيه في مختلف الشؤون حتى يتعاون الطلاب على الأعمال الخيرية ويتعودوا عملها برغبة وتقدير . وللتخفيف من متاعب الفكر يجب أن تقام في المدارس

الالعاب الرياضية وتمارس التسليات البريئة ويجب أن يكون نظام الادارة والاشراف يشابه نظام الحكم القائم على المبادي الديمقراطية فيكون بجانب جهاز الادارة والتعليم هيئات للطلاب ينتخبون من قبلهم يمثلون مصالحهم ومصالح المدرسة ويشرفون على المنظمات المدرسية والجمعيات كما يشرف النواب على جهاز الحكومة ويشرعون لصالح الطلاب والمدرسة .

ومن المفيد تعويدهم كيفية الانتخاب وممارسته والبحث والمناقشة وتقديم الاقتراحات ونقد الآراء ووضع القرارات في المسائل التي سيجابهونها يوماً ما في مستقبلهم . ومن الواجب ايقاظ شعور الاحترام والمحافظة على موجودات المدرسة وكتبها وأدواتها وجمالها ولكي لا تنقطع صلة المدرسة بمن انجبتهم من طلابها ولمعرفة ما يؤول أمر كل منهم بعد خروجه يتخذ سجل خاص لتاريخ حياتهم وأعمالهم ويسعى لادامة العلاقة معهم والاتصال بهم وبيان مراجعاتهم ومشاكلهم واتباعاً لروح التربية الحديثة يجب أن يكون للرياضة جمعية وناد وللمطالعة مكتبة وناد وجمعية ، والمباحث العلمية ناد وجمعية ، وهكذا لكل عمل تعاوني ولكل عمل علمي ناد وجمعية وقانون ويجب أن تمتزج النزعات البسيكولوجية والعلمية مع النزعات الاجتماعية لجعل التربية العمل اللانهائي المقصود منه تكييف الفرد جسماً وروحاً وعقلاً مع محيطه العلمي ، والعاطفي ، والارادي . وإلا كان من الضرر جعل المدارس قاطات للعقل ، ومكابس للعواطف ، وزرايب لقتل النفوس ومراتع لافساد الغرائز ، وسجوناً لقيد الحريات . ولا أدل على هذا من قول اللورد يفردج الذي ينادي « ان قيام الديمقراطية دون تعليم الشعب وتثقيفه لا بد أن يؤدي الى جعلها ستاراً خداعاً لطغيان جبار لا خلاص منه ، واذا كانت الديمقراطية هي الغاية التي تستهدف اليها الشعوب صوناً لحريتها وكرامتها ، فلتعمل جادة مخلصة لنشر التعليم وتذيع الثقافة بين أفرادها وطبقاتها جميعاً لتصبح ديمقراطية صحيحة ،

لا زائفة خادعة » وبؤيد هـذا القول الحكيم بيان امبراطور اليابان « هيروهيتو » لشعبه ، بعد ما استسلمت بلاده الى الحلفاء فقال لهم « لقد غلبنا لأننا لم نتعلم » ومعنى أننا لم نتعلم أن تربية الشعب وعلومه ومعارفه بالنسبة إلى الحلفاء كانت ناقصة فلم تعدّ العيدة ، ولم تفهم مطاليب الحياة . . أليس في قول الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه: « لا تربوا أولادكم لزمنكم فانهم خلقوا لزمن غير زمنكم » ما يؤيد هذه الحقيقة ويحذرنا من الوقوع بما وقعت فيه اليابان .

يقول المربي « جاكوب فام » وهو من علماء أمريكا في بحثه عن التعليم وأهدافه « ان التعليم في كل زمن ومكان عملية يقوم بها جيل بعد جيل قصد اعداد الجيل الآتي للحياة والاضطلاع بمسؤولية الحياة ولا يخرج التعليم عن كونه تجربة قد تصيب وقد تخطيء وقد تنفع وقد لا تنفع شأنه في هذا شأن جميع التجارب التي يقوم بها الناس » .

١٢ - الخلاصة

وأخيراً ان محاضرتي ليست برنامجاً للديمقراطية والتعليم ولكنها ، فكرة توجيهية قصدت منها تنبيه المسؤولين لعلها تفتح أمامهم مجالاً للبحث والتنقيب والنقد وتنير لهم طريق الاصلاح بأفضل الوسائل فيختارون ، للأجيال تعليماً صحيحاً مفيداً ينقذهم من الحيرة ويمكنهم من العمل ويجعل ديمقراطيتنا لصالح الشعب وإرادته وهذا ما نبتغيه وإياكم والسلام .

دمشق : كانون الثاني سنة ١٩٤٧

المبادئ أو الأخلاق العامة
في تكوين وتطور الأمم

للدكتور أسعد الحكيم

أيها السادة :

اقتربت الساعة وانشق القمر ، وآن للعليل الثمل وقد أوشك النصل أن يصل إلى قلبه ، أن يصحو من سكره ، وينتبه من رقاده ، فينظر إلى حقه وقد اغتصب ، وإلى مورد رزقه وقد نضب ، وإلى جسمه وقد هزل ، وإلى شبابه وقد هرم ، وإلى ثيابه وقد خلقت ، وإلى حاله وقد رثت وإلى أهله وقد تفرقوا ، وإلى بنيه وقد استعبدوا ، عله يذكر ، وعسى أن تنفع الذكرى ، ذكرى عز وسلطان ، وقصور وجنان ، وحول وطول وعلوم وفنون ، وحضارة ومدنية ، فيأسف ويتلهف ، ثم يعقل ثم يتبصر . فيعلم أن مرض الوالد ينتقل إلى الولد ، وأن سبب شقائه خطيئات الآباء والأجداد . وعلة شقاء بنيه ما جنته وما تجنيه يداه . فيكفّر بنفسه عن الأولى ، ويخفف بحكمته وجهاده من وطأة الأخرى .

خطأ إداري في صدر الاسلام شق عصا المسلمين إلى شطرين . وخطأ آخر في عهد الدولة الأموية ، تداعت لهول انفجاره أركان تلك المملكة العربية الفتية . وخطأ ثالث في ذمة الدولة العباسية ، أودى بالأمة العربية وسلطانها إلى هذا اليوم . وجمود يستمر فينا إلى الغد سيقضي عليها إذا لم ينتزع إلى الأبد .

وما هي إلا نظرة في نظام هذا الكون المظيم حتى يدرك أن هـذا

العالم لم يخلق سدى ، ولم يترك أمره فوضى . بل قدر تقديراً ، وأحكم صنعاً . فلكل شيء سبب . ولكل أجل كتاب ، وان العلة لازمة لمعلولها . والقضاء مرهون بأسبابه . والقدر مرتبط بأحكامه . فلا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وان الأرض لله يورثها عباده الصالحين لحكمها ، المصلحين لأمرها . سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

فالزلازل في زلزالها ، والبراكين في انفجارها ، والزوابع في عصفها ، لا تختلف في قانون نشوئها ، عن الامم في تطورها ، والممالك في تقلبها . بل كل يخضع لقانون طبيعي واحد : قانون الحركة الدائمة والقوى المتنازعة . فالنار والهواء والماء والتراب ، والنبات والحيوان ، ما هي إلا مظاهر للقدرة كيفتها الحركة الدائمة وميزتها القوى المتباينة . فاختلفت في طباعها وتباينت في أشكالها وكذلك الامم من حيث النشوء والتطور فهي واحدة في جوهرها ، متباينة في حركتها ، وبقدر اختلاف تلك الحركة . تختلف عناصرها ، وتتكيف أحوالها ومقياس القوى الفعالة هي الأعمال . ومعيار القوى الاجتماعية : هي الأخلاق .

جيشان متساويان بالمدد والعُدد ، والدُربة والنظام ، والقوة والمناعة ، فالظفر لأعظمها خلقاً .

وآخران متفاوتان بالمدد والعُدد . هذا صغير منظم وذاك عظيم أمره فوضى فالغلبة للنظام على الفوضى .

وأمتان متساويتان بصلابة الأخلاق ، فالظفر بجانب العالمة على الجاهلة والكثيرة المدد والعُدد على قليلها .

وامة مجتمعة على ضلالة أوفر حظاً في الحياة من أخرى متفرقة على حق سنة الطبيعة في أبنائها .

دعا موسى قومه يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم

ولا ترتدوا على أدباركم . قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين ، وإنا لن ندخلها ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، فتاهوا في الأرض أربعين سنة ، ثم عادوا فتغلبوا على تلك الارض المقدسة ، وذللوا أولئك القوم الجبارين ، وظفروا بما تقاعدوا عنه بالأمس ، فما السر في هذا الانقلاب العظيم وما علة هذا الاقدام بعد ذلك الاحجام ؟ تلك الأخلاق

وركب البحر طارق بن زياد باثني عشر ألف مقاتل من عناصر شتى ، مختلفي الوجوه ممتزجي الأرواح ، حصونهم سيوفهم ، وقوتهم زاد عدوهم ، فنزل الاندلس غريباً وفيها من العـــدد والجيوش ، والقلاع والحصون ، ما لا يقع عليه حصر ، فشتت جموعها ، ودك حصونها ، وفتح بلادها وأخضع رجالها ، وأسر ملوكها وامتلك كنوزها ، ثم وقفت ملوك الطوائف ومعها الجيوش الجرارة ، والفرسان الكرارة ، ومن خلفها الحصون والقلاع ، والذخائر والعتاد . والعلوم والفنون والحضارة والمدنية . فلم يغن العلم المتخاذل من صولة الجهل المتكاتف شيئا . ولم تدفع المدنية المتفرقة من الهمجية المتحدة شراً . وما هو إلا حين من الدهر أتى ، حتى باتت تلك المملكة العربية العظيمة كأن لم تكن شيئاً مذكورا . فليت شعري . ما علة هذا الاندحار ، وما كان السبب في هذا الانتصار ؟ : تلك الاخلاق .

وانفجرت قنبلتان في عام واحد ، إحداهما تركية والاخرى عربية فتداعت لهول صدى الاولى حصون اليونان وقلاعها وتغير نظام العالم ومحت لوزان من سيئ عهودها . ولم تهتز لصوت الثانية ذرة النسيم وباء بالخسران رماتها ، فما علة هذا التباين الفاضح يا ترى وهما سهمان راشتهما قوس واحدة وإلى هدف واحد ؟ تلك الاخلاق ، تلك الاخلاق .

فالاخلاق أيها السادة ـ وأريد بها الاخلاق الاجتماعية العامة ـ هي الروح الحيوية التي تتجلى بهـا الامم في كل طور من أطوار حياتها ، قوية أو ضعيفة ، صالحة أو فاسدة ، هي الجملة العصبية التي تربط الفرد بالمجموع

والمجموع بالفرد ، فيتداعى الأول لنصرة الثاني ويتأثر الثاني لتألم الأول . وما الأمم في بنائها إلا كالأجسام في تكوينها ، هذه تتألف من حجيرات مستقلة في ذاتيتها ، مختلفة في أشكالها متباينة في أفعالها ، غير أنها متحدة في روحها مرتبطة في كليتها ارتباطاً يحار العقل البشري في انتظامه . لكل منها عملان مختلفان هذا خاص بذاتيتها فهي تتكون وتنمو وتتكاثر وتموت . وذاك عام تفرغه حفظاً لكيان المجموع . فبينا نرى الحجيرة الواحدة تستمد من المجموع جميع مقومات حياتها ، نشاهدها تمده بكل قواها ونتاج عملها الخاص الذي تتألف من مجموعة تلك المقومات . ونسبة قوة هذا التبادل النفعي بين الجزء والكل تسمى قوة الجسم الحيوية التي يتوقف على شدتها ووهنها صحة الجسم وضعفه . يحيى ما دامت ويموت إذا تلاشت . وكذلك الامم أيها السادة ، فهي تتألف من أفراد يتباينون في صورهم وأعمالهم ، غير أنهم متحدون اتحاداً قوياً بروحهم ، مرتبطون ارتباطاً محكماً بحلقة تاريخهم ، لكل منهم حياة ذاتية خاصة مستقلة ، وعمل فردي يختلف عن عمل جاره ولكن من شأن كل من تلك الحياة وهذا العمل أن يتلاشى في حفظ كيان المجموع كما أن المجموع من شأنه أن يتداعى للمحافظة على كل من أفراده . ونسبة قوة الرابطة ما بين الفرد والمجموع هي قوة الأمة الحيوية أو الخلق العام .

فالأمة وأفرادها مجموع قوى مختلفة محصلها قوة الأمة الحيوية أو الأخلاق العامة ، وبعبارة أوضح الأخلاق العامة حاصل قوة ارتباط الفرد بالمجموع والمجموع بالفرد . ومن هذا يتضح لنا أن قوة الأمم الحيوية لا تقاس بعدد القوى الفردية التي تتألف منها . بل بحاصل اتحاد هذه القوى بعضها ببعض . فقد يكون في الأمم حين سقوطها أفراد ذوو عقول وعلوم وخبرة ودراية أكثر بكثير مما كان فيها أيام صعودها . ولكن قوة الرابطة أو الأخلاق العامة تكون على الدوام في هذا العهد أضعف

بكثير منها فيما قبل . فقد كان في آخر عهد المملكة الرومانية والعربية فيها من عوامل الحضارة والمدنية . ورجال العلم والأدب والذكاء والدهاء ما يربو كثيراً على ما كان إبان نشوئها . فلم يغن ذلك عنها من أمر الاضمحلال شيئاً . لأن نسبة الرابطة ما بين الفرد والمجموع كانت ضعيفة لا تكفي لقوام ذلك الجسم العظيم . فانتثر عقده وتساقطت جدرانه وبات أثراً بعد عين .

ولا غرو فالأمة من حيث كيانها كالبنيان الحجري لا تقاس متانته أو قوة مقاومته العمومية بصلابة كل حجر من أحجاره فحسب . بل بقوة تلاصق تلك الاحجار بعضها ببعض . فاذا كانت الأحجار صلدة وليس فيما بينها ارتباط تام يتداعى ذلك البناء لأقل زلزال يحصل . وهكذا حال الامم فانها لا تكون حية ذات كيان قوي مهما توفر فيها من أفراد تضارع تلك الاحجار صلابة بعلومها ومزاياها الخاصة إذا لم يكن في نفوس تلك الافراد أخلاق شريفة تربطهم ومبادىء سامية تجمعهم .

تلك ماهية الاخلاق . ومنها يتضح لنا أن الامة هي الاخلاق تحيا بقوتها وتتلاشى بضعفها . ترقى بصلاحها وتنحط بفسادها . فهي لحمة الامة والافراد سداها وهل يقوم سدى بلا لحمة وهل يقف بنيان بلا أوصال .

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقد ذهب بعض علماء الاجتماع إلى أن الخلق هو الطبع . بينا الفرق بين الاثنين كبير . فالخلق مظهر من مظاهر النفس يبعثه الفكر وتبديه الحوادث فيظهر عفواً لمجرد ارتياح النفس واطمئنانها . فهو معنوي بالدرجة الاولى لا عمل للوراثة فيه . انما العمل للتربية والبيئة . أما الطبع فهو ينبعث عن الجبلة وتتجلى به المشاعر . فهو مادي في خاصيته تعمل فيه الوراثة ويؤثر اختلاط الدم .

فالانكليزي لا يستطيع أن ينقلب فرنسياً . ولا الهندي اميركيا من

حيث الطبائع ولكن بوسع جميع الشعوب أن يباري بعضها بعضاً بالاخلاق فالوطنية والقومية والعصبية والشجاعة والإباء ، كالعلم والادب ليست ملك أمة دون سواها إنما هي مشاع . لكل من الشعوب نصيب منه قدر سعيه وجهاده .

وإذا كان للطباع تأثير في تباين الامم واختلافها فللأخلاق القول الفصل في تطورها وكيانها . وإلا لاندثرت الشعوب الضعيفة . وتلاشت الامم الهينة الطبائع ولما ضاهى الياباني الاميركي والجرماني ووقف التركي امام الفرنسي والبريطاني .

فبالأخلاق بلغت رومة قبلُ أوج العظمة والمجد ، وبالاخلاق حطم العرب عروش القياصرة والاكاسرة وبالاخلاق يحكم المستعمرون اليوم أضعاف أضعاف عددهم من الامم المتقطعة الاوصال وفيها من ذوي العقول والسجايا الحميدة ما لا يرجح عليه عقل الاوروبي ، ولا تقاس به أخلاقه الفردية .

ومهما تضاربت الآراء في كنه الاخلاق فالحقيقة التي لا يشوبها ريب هي أن الاخلاق العامة معيار قوى الامم الحيوية . وان نصيب كل أمة من الحياة بقدر ما عندها من الاخلاق . وان الامم ذات الاخلاق الصلبة لا تغلب قط على أخلاقها انما تستعبد الامم بالسلاح الذي لا يجرح مبادئها . وقد أدرك الفاتحون والمستعمرون ولا سيما في العصر الحاضر هذه الحقيقة الراهنة . فهم لا يوجهون قواهم إلى مراكز الانفعال في نفوس الأمم التي يطمعون بها ، انما يعمدون إلى هذه المراكز الحساسة فيخدرونها بكل ما اوتوه من حكمة ودهاء . يعللونها بما تصبو إليه من ألفاظ الانسانية والمدنية وخدمة البشرية وحرمة ما هو مقدس في عرفها إلى غير ذلك من المخدرات المعنوية التي لا تضارعها فعلاً أشد المخدرات المادية ، حتى إذا فلج بها خلق الأمة العام الذي به قوام كيانها ينتثر عقدها وتتفرق كلمتها ويتغلب فيها الشقاق والنفاق والفساد وتروج في سوقها الدسائس والفتن ويسهل على الفاتح أخذها وعلى المستعمر حكمها .

ولعمري إن من الانسانية والمدنية وما رادفها من الألفاظ التي في ظاهرها الرحمة ما هو أشد فعلاً في استعباد الأمم وتذليلها من قنابل المدافع وحراب الأسنة . وما من خطر أشد على حياة الأمة من قتل خلقها العام على مذبح خيال خلّب تنصبه الأمم القوية شركاً في سبيل مطامعها يسمونه : الانسانية .

وخلاصة القول الأخلاق قوى نفسانية كامنة تثيرها مؤثرات خاصة كما يشتعل البارود لأقل شرارة ، وهي كما قدمنا معيار قوى الأمم الحيوية تعرب عن شدتها وضعفها وصلاحها وفسادها كما تعرب الأعراض عن حالة الجسم من حيث الصحة والمرض . وقد يتوصل الحكيم الاجتماعي إلى تعيين أحوال الأمم بالنظر إلى أخلاقها ، كما يشخص الطبيب المرض الملم بالجسم بالنظر إلى أعراضه ، وكما أن الاعراض الصحية والمرضية ليست عللاً بل مسببات حادثة تعرب عن حدوث انفعال بالجسم تتكيف بحسبه ، كذلك الأخلاق فانها حالات روحيه تعرب عن انفعالات في النفوس تثيرها مؤثرات معنوية مختلفة من أهمها فيما يتعلق بهذا الموضوع : الدين . والوطنية والقومية .

***

الخلق الديني

فالخلق الديني هو الحالة الروحية التي تتجلى بها النفوس عندما يمتلك الايمان جميع قواها ومشاعرها فتنقاد لسلطانه عفواً بلا تردد ولا تفكر . فقد تكون الأمة متدينة عالمة وليس عندها خلق ديني شأن العرب في هذا العصر . كما أنها تكون ذات خلق ديني متين وإلمامها بأحكام دينها ضعيف شأنهم في بدء الاسلام . والخلق الديني أقوى العوامل الفعالة في حياة الأمم وتطورها . وأشد الروابط التي تجمع ما بين أفراد الشعوب

المختلفة العناصر والمواطن . فالحوادث الدينية أعظم حوادث التاريخ وأجل أعمال الأمم ما جاء في عصر تدينها وما من مؤثر ذي سلطان على النفوس كالدين لأن فيه السعادة المثلى التي تصبو إليها النفوس البشرية وتسكن طبيعة الانسان الميالة إلى البقاء الواجفة من الفناء المفادية بالعرض في طلب الجوهر . فهو خير عامل تتوحد به مشاعر الأمة ومنافعها وأفكارها . وسيظل الدين حياً لا يفنى ما بقي في العالم أسرار وغوامض لا يقوى العلم على حلها والعقل على إدراك كنهها : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » إنما الاخلاق الدينية تضعف وتقوى وتموت وتحيا وحسب تطورها هذا تتطور حال الأمة التي قامت عليها وتكونت بها . والأمم التي يسود فيها الخلق الديني أمنع الأمم وأشدها بأساً وقوة وتحملاً للمشاق وصبراً على المكاره وتضحية بالنفس والنفيس . ولم يذكر التاريخ أمة تسامى فيها الخلق الديني غلبت على مبدئها الاهم إلا إذا كان الغالب اسمى منها اعتقاداً وأمتن ايماناً . والامم التي يسود فيها الخلق الديني تسير في منهجها الاجتماعي اما إلى اسمى منازل الرقي أو إلى أدنى درجات الانحطاط المدني وفقاً لمرمى تعاليمها الدينية ولكنها تحتفظ بكيانها وحياتها .

وفي تاريخ العرب في الجاهلية وفي صدر الاسلام وبعده أجلى مثال لتطور الخلق الديني في الأمم وتطورها بحسبه . فالعرب في الجاهلية لم يكونوا أقل منهم في صدر الاسلام أخلاقاً . فقد كانوا على جانب عظيم من الكرم والاباء والشهامة والشجاعة والعصبية والفروسية والنجدة والوفاء بيد أنهم لم يكونوا أمة ذات كيان اجتماعي انما كانوا قبائل وشعوباً لا حضارة لهم تذكر ولا مدنية تخلد لا يعبأ بهم الجار ، ولا يُرعى لهم جوار وذلك لفقد رابطة تجمعهم وخلق عام يوحدهم . فلما جاء الاسلام بدعوته وألف ما بين قلوبهم بحكمته وصار لهم خلقاً تلاشت فيهم نفوسهم وانقادت لسلطانه مشاعرهم ، تدفقوا ولا السيل في طغيانه من أقصى صحاري

البداوة إلى اسمى انحاء العالم المتمدن فجرفوا. عروش الأكاسرة ونكسوا تيجان القياصرة ورووا غليل الارض عدلاً وكرماً فأثبتت من الحضارة أكلها ومن المدنية أجلها . ثم لما تغيرت الحال ، وتمردت النفوس على سلطان الايمان ، واستولت المشاعر على الدين فاصبح خليقة لا خلقاً ونسبة لا نسباً ، وعلماً لا عملاً . ومذاهب لا مذهباً ، تغيرت الأرض غير الأرض وتبدل العرب غير العرب فباتوا كالغراب لا عصبية ولا سجايا جاهلية تجمعهم ولا أخلاق اسلامية تنهض بهم فحق القول عليهم «وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون» .

وقد ألقى بعض الناس تبعة هذا المسيخ على الاسلام لقوله بالقضاء والقدر تارة واخماده روح العصبية والشعوبية ونشره مبدأ الإخاء والمساواة بين جميع العناصر البشرية التي تدين به تارة أخرى ، فانحوا باللائمة عليه كأنه لم يأمر بالعدل والاحسان والعلم والعمل والسعي والجهاد والحزم والشورى والتضامن والعزم قبل التوكل والحذر والاستعداد للطواري، إلى غير ذلك من دعائم الملك ومناهج الرقي والحضارة ، أو كأنه خفي عليهم أن العرب لولا الاسلام لما كانوا أمة تعرف وان العربية لولا القرآن لما استطاعت أن تنتشر في سائر الممالك الاسلامية المختلفة اللغات . ولولا كتاب تركه الاسلام حرزاً واقياً على صدورهم لاندمجوا بغيرهم من الأمم الحاكمة من عهد بعيد ولباتت العربية طلاسم لا تحل رموزها مصير الأمم الغابرة واللغات المتينة .

أما العوامل الحقيقية التي قذفت بالعرب إلى أقصى درجات الانحطاط فهي معقدة كثيرة لا يسمح مقتضى الحال بطرق بابها أهمها ضعف الخلق الديني القويم في نفوسهم .

وخلاصة القول : لم يتمسك العرب بخلقهم الديني القويم فضلوا السبيل وتفرقوا شيعاً . ضعف الجسم وتشوه الرسم فمن العبث والحالة هذه يحاولون النهوض والرقي قبل أن ينبعث في نفوسهم خلق عام جديد يحييها . خلق

يجمع أعضاء هذا الجسم الكبير المبعثرة في جميع أنحاء الأرض بعد شتاتها وهذا الخلق هو الوطنية ، هو القومية .

* * *

الوطنية

خُلق الانسان حراً ، وخلق الزمان له عبداً ، وأعطي الأرض مُلكا يغدو من مشرقها فيروح إلى مغربها ، ويبادر شمالها فيأويه جنوبها . لا حاجز يمنع ولا حد يردع ، انما الأرض لله أورثها الناس جميعاً ، ملكاً مشاعاً للانسان متاعاً ، يأكل ثمارها ويشرب ماءها وينشق هواءها ويفترش أديمها ويلتحف سماءها ، فأقام من الدهر ردحاً يمرح فيها مرحاً . مزاجه مزاجها وطبائعه طباعها . لا يلفحه حرها ولا يؤذيه قرها . ثم لما تبدلت منه الحال وآثر الحل على الترحال أو العبودية على الاستقلال ، نحت من الجبال بيوتا . كانت لسعادته الطبيعية لحودا . ثم حرث الأرض وحرسها فكانت لحريته الأولى قيودا . وكان كلما ازداد ثراءاً . يزداد شقاءا . وحساداً واعداءاً . فيعتصم بالجار ، وحق الجوار يشد به ازره ويرهب عدوه ، فنشأ البيت ثم القرية ثم المدينة ثم المملكة . وكانت الأرض كلما طال بالانسان عهدها تصبغه بصباغها وتفرغه بقالبها وتكيفه وفقاً لطبائعها وعناصرها فتعارف من البشر من ائتلف ، وتناكر منهم من افترق فكانت القبائل والأقوام والشعوب والأمم . ولا غرو فالمرء من حيث الطبع ابن الارض التي جبل من تربتها ومن حيث الخلق ابن الأمة التي نشأ في حجرها من ماء الاولى ونارها وتربها وهوائها فطرت حجيرات جسمه ، ومن روح الاخرى بعثت قوى نفسه ، فهو لا يسكن الا فيها ولا يرتاح الا اليها . فلكليها عليه حق وفي ذمته عهد . وحق الارض حب الوطن . وعهد الأمة الوطنية .

تفاوتت الحدود في تعريف الوطن ، فهو في معناه الحقيقي البيت أو القرية

أو المدينة التي نشأ الانسان فيها وترعرع بين جدرانها وشب تحت سمائها وشاخ على مودتها وعهودها . فكانت له أماً في طفولته ، وأبا في شبيبته ، ومسرح سعي وجهاد في كهولته ، وجنة خلد يسكن اليها في شيخوخته . الفها فأحبها والالف مدعاة للحب . فكان لذلك حب الوطن أي المكان والسكان غريزة تنشأ مع المرء ولا تولد ، وتموت ولا تورث . فهو حس طبيعي كامن في نفوس الناس جميعاً . يهيجه البعد ويسكنه القرب كالصحة تاج على رؤوس الاصحاء لا يراه إلا المرضى . وهل من غريب لا يحن إلى أهله ومبعد لا يشوقه ذكرى وطنه . وفي دواوين الادب وبين أوتار ربات الطرب من الاشعار والألحان في وصف هذا الحب الطبيعي ما لا يسعه حصر .

وفي عرف السياسة والاجتماع الوطن حيث يخفق اللواء ويرتفع العلم ويتجلى سلطان الأمة ، أو هو حيث رقد الاجداد وينبض عرق الأمة ، ذلك هو الوطن الصحيح الذي قامت عليه حضارة الأمم الحية وسياستها لا تبغي به بدلاً ولا تخشى به تضليلا .

أما الوطنية فهي غير حب الوطن والمكان . هي خلق تبعثه التربية في النفوس الحرة فترى في معنى الوطن حياة تبغيها وديناً قويماً تجاهد في سبيله بالنفس والنفيس . هي ايمان بمعبود معنوي لا تدركه الابصار انما تختلج لذكره القلوب التي في الصدور ، هي خلق نفساني ، بينا حب المكان غريزة حيوانية ، فكل امرىء يحب وطنه بالطبع وليس كل امرىء وطنياً .

والوطنية خير خلق عام للممالك المختلفة العناصر والاديان تحتفظ به كيانها وتستجمع قواها وتؤيد وحدتها اللهم اذا قام على أسس العدالة العامة أي الحرية والرقي . وذلك لان الوطنية لا تنبت إلا في ظل الحرية والعدالة . فهي متاع الأمم الراقية الحرة وضالة الأمم المغلوبة على أمرها تنشدها ولا تجدها وانى تجدها وليس هنالك وطن تأويه ولا سلطان تحميه . قال الغازي دي جوكور :

« حيث لا توجد الحرية هنالك قطيع من الرقيق وليس هنالك شعب ذو وطن . لان الوطن من خصائص الرجال الاحرار ، ولا غرو فان الهيأة الاجتماعية لم تنشأ وتنمو الا لغرض واحد هو المحافظة على حرية أعضائها وسائر حقوقهم المتبادلة . فاذا فقدت تلك الامنية فسد المتن الذي بني عليه معنى الوطن . فيتعذر اذ ذاك نمو الفكرة الوطنية في نفوس تلك الجماعة » .

واذا استقرأنا روح الوطنية في حياة الامم في مختلف أدوارها نجد أنها لم تك شيئاً في عهد الانسان الاول حينما كان منفرداً مستقلاً في حياته بدوياً رحالاً بطبيعته . لأنها بنت الاجتماع وربيبة الحضارة والمدنية . أما في القرون الاولى والوسطى فقد كان للوطنية فيها عند سكان بعض المدن كأثينة وروميه وقرطاجنة وغيرها حظ عظيم ، لكنه غير تام من الوجهة السياسية ، وذلك لأن فكرة الوطن كانت محدودة في تلك العصور لا تتجاوز أسوار . فهي لم تتعد عند الاغريق دائرة المدينة . فكانت مدنهم في حرب مستمر فيما بينها تنظر كل واحدة منها لشقيقتها بعين ملؤها العداء والازدراء . وعاشت الهند من ذلك العهد إلى ما يقرب من هذا اليوم وهي لا تعرف غير وحدة القرية . فظلت اسيرة الفتح ورهينة الاستعمار ومسرح أطماع الطامعين . ولم تتجل الوطنية في نفوس الامم بمظهرها الحالي الا من عهد قريب .

أما العرب فانه لم يكن للوطنية حظ عندهم بالرغم من شدة محبتهم أوطانهم حتى عدوا حبها من الايمان ، وذلك لأن نفوسهم كانت مشبعة بكليتها بفكرة العصبية في الجاهلية وبفكرة الاسلامية في صدر الاسلام . أما بعد ذلك حينما بات الاسلام مجمعاً لا جامعاً والاسلامية مذهباً لا خلقاً . ظهر في نفوسهم شعور جديد ليس هو من العصبية الجاهلية في شيء ولا من الوطنية والاسلامية في شيء ، بل هو مسيخ من كل ذلك دعوه العصبية الطائفية كان من عواقبه اضمحلال دولهم وفقد مجدهم وضياع سلطانهم .

ومما تقدم يتضح لنا أن الوطنية لا تكون عاملاً صالحاً في حياة الأمم الا إذا كانت خلقاً عاماً تتأثر به نفوس جميع أفرادها . أما الوطنية المتجزأة الخاصة فهي كالطائفية الدينية أشد خطراً على حياة الأمم من أشد أعدائها . فهي رهن على انحلالها وهلاكها . لأن العهد متى طال على المدن والأقاليم الصغيرة ذات العنصر الواحد وبعضها مستقل عن البعض الآخر تتولد في كل منها روح اقليمية ثابتة خاصة يتعذر معها تأليف جسم واحد من مجموع تلك الاعضاء المتفرقة فتتلاشى وحدة الامة وتضعف قواها ويتقلص رويداً رويداً ظلها من عالم الأمم الحية ، شأن العرب في الماضي وشأنهم في الحاضر ، فان فكرة الوطن بمعنى القطعة الحقيرة المجردة من ذلك البيت الكبير وفكرة الوطنية بمعنى الطائفية الصغيرة المبتورة من جسم تلك الأمة العظيمة مضر باستقلالهم باعث على ضعفهم وانحلالهم ...

فعبثاً تحاول الأمم المشتتة أن تنهض وتحيا قبل أن تنتزع من صدورها ما فسد فيها ، قبل أن تغير ما بأنفسها ، قبل أن تتخلق بخلق عام يدين به جميع أبنائها على السواء تصبح به بلادها من أقصاها الى أقصاها هيكل عبادة يتراصون في صفوفه جنباً لجنب وكتفاً لكتف لا نفرق بين أحد منهم يتقربون جميعهم الى جامعة واحدة هي القومية .

* * *

القومية

يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم . حكمة اجتماعية ، وحقيقة علمية ، آمن بها السلف . واختلف في حكمها الخلف . فتفرقوا شيعاً ، وذهبوا في أمرها مذاهب شتى . فمن مؤمن بخاصية الأصل الانساني ووحدة

جنسه . ومن معتقد بوحدة الاصل ونشوء الجنس وتطوره ، ومن قائل بتعدد الاصل والجنس معاً . ولكل من أئمة هذه المذاهب العلمية أدلة على تأييد دعواه وبراهين أقرها علم الأمس وأخذ ينقض دعائمها علم اليوم ، وذلك لأنها لم تتقيد بقيوده ، ولما تقف في دائرة حدوده . ولعمري إن في تعدد المذاهب العلمية واختلافها دليلاً على غموض الحقيقة وضياعها . فالعلم الطبيعي لم يهتد بعد إلى مصدر الحياة . ومعرفة أصل الاجسام الحية وادراك كنه تلك النفس التي خلق الناس منها . وصدروا عنها . كما أن التاريخ وعلم الآثار لم يتوصلا إلى تعليل تطور البشر ونشئه تعليلاً علمياً يتفق مع الطبيعة وعلم النفس . وآخر كلمة فاه بها علم القرن العشرين حتى سنتنا هذه على لسان أجل أعلامه الاستاذ ڤيالتون في كتابه « أطراف ونطق ذوات الفقرات الرباعية الأرجل » الذي نقد فيه مذهب النشوء والتطور نقداً علمياً أماط الغطاء عن وهن الاسس التي ارتكز اليها ، وخطأ الادلة التي قام بها . وأهمها ناشيء عن عدم ادراكه ان استحالة الاجهزة الى غير أشكالها بعد تكاملها مستحيل الوقوع . لأنها تستلزم انتقال بعض الاقسام وتقطع أوصالها مما لا يلتئم مع الحياة . ومنها تصنيفه الأعضاء حسب مظاهرها الخارجية بصرف النظر عن ارتباطاتها . إلى غير ذلك من الاخطاء العلمية . وتلك الكلمة هي قوله : « إن النشوء لم يحدث قط ولما يقع طبق النظريات الموضوعة ، وان الادلة الرشيمية والتشريحية المقامة على تأييد هذا المذهب ليس لها القيمة العلمية التي صبغت بها . وانه من الواجب أن نعترف ونقر بأننا لا نعلم شيئاً من أصل الحياة ومن مصدر الموجودات الحية . وانه قد يسهل علينا هذا الاعتراف بجهلنا فيما إذا فكرنا أننا لا نعلم أيضاً من أصل الأجسام الجامدة شيئاً » ، وفي ذلك بيان عن وهن الدعائم التي أقيم عليها بناء فكرة النشوء والتطور .

تلك كلمة العلم الأخيرة في هذا الموضوع . ومنها يتضح لنا أن ما قيل فيه ونسب إلى العلم الصحيح المجرد عن الأهواء والأغراض لا يقره العلم . إنما هنالك نظريات تحتمل الخطأ والصواب لم يتوصل العلم بعد إلى درجة الحكم فيها . تنازعتها الاهواء . وعضدتها المنافع الخاصة ، وروجت سوقها سياسة العصر الماضي والحاضر لملاءمتها روح الامم المستعمرة وموافقتها مطامع الدول العظمى اهمها نظريات النشوء الفجائي الوضعي التي أيدها مكتب الاجتماع البريطاني الفرنسي ونظريات مذهب اختلاف العناصر البشرية التي نشرته المكاتب الجرمانية . وأجل أئمته الكونت دي غوبينو وجميعها يرمي الى القول بتعدد الجنس البشري واختلاف أصوله وإلى أن الاقوام البشرية لم تنشأ من أصل واحـــد إنما لكل منها جوهر وأصل خاص . ونشوء تاريخي محدود بنسبة ذلك الجوهر . وان الامم مسيرة . منها ما تؤهلها قابليتها الخاصة إلى الرقي المتواصل ومنها ما تقضي عليها طبيعتها بالانحطاط الدائم . وان ذلك الرقي وهذا الانحطاط مقدران وواقعان حتماً بعامل القوى الحيوية . وان العنصر الآري أشرف العناصر البشرية وأفضلها . فهو الشعب المصطفى الذي لا نهـــاية لمراج رقيه . حبته الطبيعة بأكرم مواهبها . فاليه تنتهي سيادة العالم وقيادة الامم . وما الشعوب الباقية الا أنواع بشرية متفاوتة في المواهب إلا أنها محدودة الرقي . تقضي عليها طبائعها الخاصة بالخضوع الدائم لسلطان القوى المطلقة . وقد كان لانتشار هـــذه المذاهب في اوربة سرعة البرق . ولا عجب فانها خير مؤيد لسياسة حكوماتها الاستعمارية . وأعظم مبرر لما ترتكبه في معاملة الشعوب الضعيفة المغلوبة على أمرها من ضروب المظالم والقساوة .

وقد كاد سبات الشرق العميق يُلبس هذه النظريات ثوب الحقيقة الراهنة لو لم تزلزل النهضة اليابانية دعائمها وتقوض الحرب العالمية الأخيرة

مبانيها . فأسفر الصبح لذي عينين وانكشف الغطاء عن فساد المبادىء التي قامت بها وأخذت الابصار العامة تتراجع نحو نظرية النشوء التاريخية القائلة بوحدة الجنس البشري . وبان الناس يمتون جميعاً الى أصل واحد أو نفس واحدة . وبأن ما يشاهد بينهم من الفروق إن هي إلا صفات حديثة وبأن البشر لم يبعث وهلة في جميع أنحاء البسيطة انما ظهر للمرة الاولى في بقعة من الارض محدودة ومنها انتشر كالموج المتتابع في سائر أنحاء الارض المختلفة الاقاليم والطبائع والعناصر ، فاختلفت طباعه وتباينت أشكاله . ولا غرو فالجسم المقيم في القطبين يخضع لنواميس وقوى فعالة طبيعية تختلف كل الاختلاف عن المؤثرات التي تعمل في الجسم المقيم في خط الاستواء والعكس بالعكس . فكان الانسان يتكيف في هجرته حسب الاقليم الذي يستقرّ فيه . فنشأ اختلاف العروق البشرية . وكانت الاقوام الثابتة والفروق المشاهدة بين جميع الامم التي حافظت على دمها وموطنها . وقد أيد هذا المذهب اكتشافات علم نشوء البشر الحديثة . فان اليوسميت Elliot Smith في كتابه : تأثير المدنية المصرية في جزر الهند وأمريكا . المطبوع عام ١٩١٦ لم يرهب الاقدام على استقراء الحضارة المصرية في أمريكا والجزر الهندية . وكذلك استقراآت علم اللغات ومقارنة الالسنة فانها تؤيد نظرية الهجرة البشرية بشكل جـــلاء . فقد أثبتت تتبعات فرانسز بوب . عام ١٨٣٦ فكرة تقارب اللغات الاوروبية من اللغات المقدسة الهندية التي ألمع اليها وليم جون والاخوان شليفل عام ١٧٨٦ فأحدث هذا الاكتشاف دوياً عظيماً في العالم المتمدن وفسح مجالاً للاعتقاد بان أصل الشعوب الاوروبية يمت إلى الهند ومنها تقدم رويداً رويداً من الشرق إلى الغرب .

هكذا نشأت الشعوب في البدء حسب النظرية التاريخية . فهي واحدة

في جوهرها متباينة في طباعها وأمزجتها وأشكالها تباين القوى الطبيعية المختلفة الدائمة المحيقة بها منذ الازل ، فهي صنيعة الاقليم ووليدة الوراثة .

ثم ان الهجرة والفتوحات والحروب العظيمة التي قام بها البشر منذ بدء التاريخ أحدثت اختلاطاً عظيماً بين الشعوب المختلفة اللغات والطبائع والعروق فامتزج بعضها ببعض وتولد منها مع الزمن شعوب جديدة عظيمة ذات صبغة جنسية واحدة هي الشعوب التاريخية ، ولا يكاد يوجد اليوم في العالم شعب خاص خالص حافظ على نقاوة دمه منذ القــدم اللهم إلا الشعب الياباني . فانه لم يتبين انه اختلط بغير دمه حتى الآن ، سنة (١٩٢٤) وما الأمم الاوروبية العظيمة التي نشاهدها تفاخر العالم بقومياتها إلا أمم تاريخية ولدتها عوامل شتى ذات هدف واحد ، فهي مزيج من عناصر مختلفة منها من ثبت اتحاده بكرور الايام كالأمة الانكليزية ومنها ما هو في دور الاتحاد كالأمة الفرنسية ومنهـا ما هو في دور الاختلاط كالأمة الايطالية .

ولم يكن اتحاد هذه العناصر بعضها وتأليفها أمماً ذات كيان واحد نتيجة الاتفاق أو بسائق الطبيعة . انما كان بعامل قوى فعالة وحروب وضغط شديد ، فاتحاد فرنسة الجنوبية بفرنسا الشمالية ، كان نتيجة مذابح واضطهاد وضغط وارهاب دامت ما يقرب من قرن . وهذا ما حمل أرنست رينان على القول : « إن النسيان والخطأ التاريخي عاملان أساسيان في تكوين الامة . وان رقي الدروس التاريخية خطر على القومية لأن التتبعات والاستقراءات التاريخية تحيي ذكر الفظائع وأعمال البأس والشدة التي حصلت في بدء كل التشكيلات السياسية حتى التي كانت نتائجهـا حسنة للغاية . إذ الوحدة لا تحصل إلا بالضغط الشديد . وما اتحـاد فرانسة الشمالية بفرنسة الجنوبية إلا نتيجة مذابح وإرهاب دام ما يقرب

من قرن . إلى أن قال : وقد كان لتفريق الجماعات حسب المعتقدات الدينية التي اتبعتها تركية أسوأ عاقبة عليها . فهي سبب خراب الشرق . اليكم مدينتي سلانيك وازمير تجدوا فيها خمس أو ست جماعات لكل منها خاطراتها الخاصة . وقد لا يوجد بينها جامعة البتة . بينما روح القومية تتطلب أن يكون ما بين جميع الأفراد جوامع كثيرة وأن يتناسوا أشياء كثيرة . فما من وطني فرنسي يدري إذا كان بورغونياً أو أليناًنايفاليني أو فيزيغوتيا كل فرنسي نسي سانت برتلمي ومذابح فرانسة الجنوبية في القرن الثامن عشر .

هكذا تتألف الأمة أيها السادة . فهي صنيعة التسامح والنسيان ، والتحاب والاتحاد . وإذا لم ينس العرب أو يتناسوا كثيراً من حوادث تاريخهم المؤلمة التي كانت السبب الاقوى في تفرق كلمتهم ويحيوا في أذهانهم كثيراً من محاسن ماضيهم المجيد التي أنستهم اياها الضغائن والاحقاد فمن العبث أن يؤلفوا أمة ذات كيان واحد يعود اليهم فيها سالف مجدهم وغابر حضارتهم .

وقد كان الدين أو العصبية المذهبية حتى أوائل القرن التاسع عشر أشد العوامل فعلاً في تأليف الامم ومزج الشعوب المختلفة ببعضها . أما مبدأ القوميات فانه لم ينشأ إلا من عهد ليس منا ببعيد ، فهو وليد القرن الماضي وربيب الجيل الحاضر ، نفخته من روحها في نفوس الامم الاوروبية العظامية أو حق الدم وفكرة الفتح والاستعمار والفلسفة الاجتماعية الحديثة فعلقت به قلوبها وحملته كرهاً في سويدائها ردحاً من الزمن غير قليل إلى أن تمخضت به الثورة الفرنسية بأشد الآلام وأعظم الاضاحي فقبلته الحرب الايتالية بالظفر والنصر . فبدأ عام ١٨٥٩ في عالم حقوق الدول غضاً نضيراً يدعو الناس في المهد وهو صبي إلى دين

جديد أو جامعة واحدة . دين فيه الحق لجسم الامة أن يطالب ولو بالسلاح بضم جميع أعضائه المبعثرة في سائر الاقطار اليه . جامعة لكل جماعة فيها الحق أن تنفصل ولو بالقوة عن الحكومة المنتسبة اليها سياسياً بصورة مشروعة أو غير مشروعة لتنضم الى الامة أو الحكومة التي تربطها بها صلات وجوامع قومية . دين وجامعة أضرمت وستضرم في سبيلها حروب هائلة ما الحرب العالمية الاخيرة إلا شرارة من شرارها . ألا وهما دين الحرية . وجامعة القومية . قال جون ستوارميل « حيث يوجد شعور القومية فهنالك حق قاهر لتوحيد جميع أعضاء الامة تحت حكم واحد خاص منهم ولهم » .

وقد كان لانتشار هذا المبدأ في اوربة سرعة هائلة . فانه لم يبدُ حتى اعتنقته جميع شعوبها . فكانت من معجزاته الوحدة الايتالية والالمانية والدول البلقانية وبولونيا والتشكوسلوفاكيا وتركية الجديدة والنهضة المصرية الحديثة . أما بقية الامم الشرقية والافريقية فانها لم تنل من جنات هذا الدين الجديد حظاً . ولا عجب فهي لم تؤمن بعد بقرآنه ولما تجاهد بالنفس والنفيس في سبيل أحكامه .

وقد ذهب علماء الاجتماع في تعريف القومية وتعيين الشروط التي تقوم بها مذاهب شتى . فقال قوم انها جامعة الاصل والعرق . وقال آخرون انها جامعة اللغة لأنها مرآة العادات والاخلاق والافكار العامة وعنوان الامتزاج القديم والاتحاد الشديد . وذهب فريق إلى أنها جامعة الدين والمنافع العامة والتاريخ والحدود الجغرافية . إلى غير ذلك من الجوامع العامة . ولكل من هذه الآراء حجج لها وعليها . أما الحقيقة الناصعة فهي أن الامة تتألف من كل ما ذكر ، قال توبينار Topinard الامة أو القومية هي اجتماع سياسي ولدته الظروف وساعدت نموه التشكيلات الارضية ووحدة اللسان والدين وأحكمت بنيانه العادات وذكرى السعادة والشقاء العام . أما المنفعة فانها منه بدرجة ثانية .

تلك ماهية الامة من حيث التاريخ والنشوء البشري . أما من الوجهة الاجتماعية في عصرنا الحاضر فالأمة جسم معنوي قوامه شعور القومية . فهي لا تختلف في قانون تكوينها عن الاجسام الحية الفردية . تتألف من عنصرين مختلفين أحدهما مادي والآخر معنوي . أو بكلمة أوضح من جسد وروح فحيثما توجد جماعات يتمشون بخلق عام واحد فهنالك أمة حية مهما اختلفت لغاتها وتباينت عناصرها . وحيثما لا يوجد خلق عام فهنالك قبائل وطوائف ، هنالك أجسام بلا روح لا كيان لها في الحياة الاجتماعية مهما توفرت فيها جوامع العرق واللغة والاقليم . أجسام تقضي عليها الطبيعة بالاستخذاء لغيرها من الامم الحية . كما أنها تدفع هذه للاستيلاء عليها واستخدامها في سبيل منافعها . وذلك الخلق العام قوام الامم وروحها فقد كان الدين في العصور السالفة أما في هذا الجيل فهو الشعور القومي .

فسويسرة وبلجيكا أمتان حيتان بالرغم من اختلاف الالسنة والعناصر والمعتقدات المذهبية فيها . وجل الامم الآسيوية والافريقية لا تعد أمماً حية على ما فيها من وحدة العرق والاقليم وذلك لعدم نمو أو تكامل شعور القومية فيها . وكذلك العرب أيها السادة من حيث مجموعهم ، أقول ذلك والحزن ملء القلب والوجه يصبغه الخجل . فانهم بعد أن كانوا خير أمة أخرجت للناس . بعد أن كانوا أفضل الأمم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً خُلقهم العام الدين وجامعتهم اللغة باتوا على الرغم من توفر جميع الجوامع الطبيعية والحيوية التي يقوم عليها بناء الأمة والقومية الطبيعي فيهم مما يندر اجتماعه في أمة سواهم ، باتوا على الرغم من ذلك لا يطلق عليهم في عرف السياسة الاجتماعية الحاضرة لقب أمة . انما يدعون شعوباً وقبائل . لانحلال رابطتهم وتشتت أهوائهم وعدم وجود خلق عام يتخلقون به على اختلاف مللهم ومواطنهم .

قال جون ستوارميل « ليست الأمة جسماً أو وحدة طبيعية تحد باشارات وأوصاف خاصة . وانما هي جسم معنوي قوامه الشعور . وما أدراك ما هذا الشعور . هو شعور القوميه . ذلك الخلق العام أو الروح الملية العامة التي تبعثها الجوامع الطبيعية الحيوية والتاريخية المشتركة في نفوس أفراد الجماعات المتحدة . فيرى كل منهم في معنى الامة جسماً حيوياً مستقلاً هو عضو عامل من أعضائه . لا يعيش الا فيه ويموت اذا بتر عنه . فيعمل فيه وإليه » قال موريس بارس « شخص فصل عن قومه ووطنه أشبه بغصن انتزع من أصله لا يلبث أن يذبل ويموت » .

وقد ظل هذا الشعور الطبيعي كامناً في نفوس البشر حتى أوائل القرن المنصرم حيث تزلزلت دعائم السلطة الدينية في اوروبة . وبات الدين لله كله وقامت السلطة الزمنية المؤسسة على مبادىء الفلسفة الحيوية القائلة بتنازع البقاء وحق القوة ، وطما في نفوس الدول العظمى شره الفتح والاستيلاء والاستعمار فاصبحت اوروبة ميدان حروب هائلة خشي الناس فيها الناس وخافت الشعوب منها الشعوب وشعر كل قوم بوحشة العزلة وضرورة التعارف والانضمام إلى أشد الناس بهم صلة وأقربهم رحماً وأقدمهم عهداً اتقاء الفاتح أو طمعاً بالفتح . ولما كانت المعتقدات الدينية لا تصلح أن تكون أساساً لهذا الاتحاد لشدة اختلافها بين أبناء البلد الواحد نشأت في النفوس عاطفة العصبية القومية فكان لظهورها في اوروبة أعظم مؤثر على تكوين ممالكها وعلى حياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية الحاضرة .

وما زال الشعور القومي حكر الامم الاوروبية ومثار عظمتهم وافتخارهم إلى أن أضرمت فيما بينهم نيران الحرب العالمية الأخيرة التي زلزلت كما قال سيرفالانتين شيرول : ايمان آسية القديم بسر التفوق الاوروبي المادي والأدبي فكان للشعوب الشرقية والافريقية في ميادينها مواقف عظمى وضحايا كبرى ملأت نفوسهم عصبية قومية أورت آيات الرئيس ولسن الاربعة عشر زنادها فستعرت على ما يواريها من رماد الجهل وانقاض

العبودية . اشتعلت ولا بد لاشتعالها من ضرام يلتهم أفئدة الاستعمار ويذيب قيود الظلم والعبودية .

في مصر لهيب ، وفي السودان أجيج وفي مراكش استعار وفي الهند شرار وفي نيجرية دخان وفي البلاد العربية زفير يستمد جميعه من بركان واحد حتى اذا انفجر تتغير الارض غير الأرض ويتبدل العالم غير العالم .

وقد أهاب هذا المنظر الرهيب عقلاء الامم المستعمرة فأخذوا يصيحون بأممهم يحذرونهم من هول ذلك اليوم العصيب . ولكن أنى للثمل أن يعي وللطامع الشره أن يرعوي . قال الدكتور دي بوا في مقدمة كتابه Daker Water : « اذا لم يقعد العالم الابيض عن ظلم العنصر الاسود والاحمر والاصفر وعن احتقارهم واذلالهم فان أهوال الحرب الاخيرة سوف لا تكون شيئاً مذكوراً أمام تلك الحرب الطاحنة التي سوف تضرمها الشعوب المستعمَرة لنيل حريتها » .

وقال ماركس غارفي Marcus garvey : « كما يتطلب الانكليز انكلترة والفرنسيس فرنسة والايطاليون ايطاليا وطناً لهم كذلك تتطلب الأمم الافريقية افريقية وسيريقون دماءهم في سبيل خلاصها وان أشد الحروب الدموية هي الحرب التي ستظهر في المستقبل حينما توجه اوروبة قواها على آسيا فيستل الافريقيون سيوفهم لتحرير بلادهم » .

وقال تيوفيل سيمار في كتابه الذي نقد فيه مذاهب العناصر البشرية : « أخذت الأمم المستعبَدة تطالب بمساواتها بمستعمريها باسم المبادىء التي أعلنتها شعوب الحلفاء أثناء الحرب الكبرى . وإن مذاهب الفوبينيين والنيليشبين والسمترلانيين قد فسحت للغرب مجالاً واسعاً للاستعمار تتلغل في أحشائه بيد أننا أخذنا نبصر اليوم ظهر المجن ونتساءل مع الدكتور لجاندر الى أين انت ذاهبة يا أوروبة . فلنتراجع بكل جرأة ولنعترف

بخطائنا بلا تردد . ولنعلم أن تلك الألفاظ الخلابة كالعنصر وشرف الدم والنجابة القومية لا تحل لنا ذلك المشكل المعقد الخطير الذي يبدو اليوم لاعيننا بكل جلاء ألا وهو مصير علائقنا في المستقبل مع الآسيويين والافريقيين »

هكذا دبت روح القومية في نفوس الشعوب الشرقية والافريقية فأخذوا يبصرون مواقع الضعف فيهم ومواطن القوة في مستعمريهم . ولعمري أن في معرفة الداء وصف الدواء ونيل الشفاء .

وباعتبار القومية شعوراً قد تكمن وقد تبدو وقد تسكن وقد تثور وقد تظهر في طبقة من الناس دون سواها كما انها قد تم جميع أفراد الامة وذلك بتأثير عوامل مختلفة أهمها ماهية العناصر التي تتألف منها الامة ودرجة امتزاج بعضها ببعض . ففي الامم المؤلفة من قومية واحدة كاليابان أو من عناصر مختلفة تلاشت اصولهم في قومية واحدة كفرنسة ، أو من شعوب مختلفة اللغات تربطهم علاقات تاريخية ودية كسويسرة وبلجيكا لا يكون شعور القومية ثائراً هائجاً انما يكون ساكناً ويختلط بشعور الوطنية .

أما في أعضاء الامم المبتورة من أجسامها الخاضعة لغير سلطانها كالأرمن واليونان العثمانيين قبل الحرب الاخيرة وفي الحكومات المؤلفة من عناصر مختلفة متوازنة القوى كاوستريا قبل الحرب أو متباينتها كالدولة العثمانية سابقاً فان شعور القومية في هـذه المواطن يكون شديداً متهيجاً بعامل الانفعال المنبعث عن تنازع السلطة والبقاء . خلافاً لشعور الوطنية فانه يكون ضعيفاً ضئيلاً في هذه الاحوال .

وإذا نظرنا إلى العرب قبل الحرب وبعدها نجد أن روح القومية كانت أشد في نفوسهم قبل الحرب منها في هـذا العهد ، وذلك لأن الانفعال الذي كانت تحدثه القومية التركية المتأججة في نفوسهم خمد بجلاء الاتراك عن البلاد العربية ، لعدم قيام مؤثر عام يهدد العنصرية العربية مباشرة بدلاً منه . ولما ولدته التشكيلات الادارية بينهم من عدم الاعتماد على النفس

ومن النعرة الاقليمية والطائفية التي هي أشد خطراً على وحدتهم واستقلالهم من قيود الاستعمار وبراثن الظلم والاستبداد . على اننا إذا استقرأنا تاريخ نشوء هذه الروح فيهم نجدها ترجع إلى ما قبل الحرب الكبرى بسنين ، وان سوريا كانت أسبق البلاد العربية إلى اعتناق المذهب القومي والجهاد في سبيله . فهي البؤرة التي اتقدت فيها تلك الروح الشريفة ومنها انتشرت في جميع البلاد العربية ، وما الاخاء العربي والمنتدى الادبي والفتاة والجمعية القحطانية والعهد والثورة والنهضة والاصلاح واللامركزية والاستقلال الا فيالق تولى السوريون قيادتها وتراص في صفوفها أبناء الامة العربية البررة للجهاد في سبيل الدعوة القومية العربية واحياء مجد العرب ، وما النفوس الزكية التي زهقت على أعواد المشانق والدماء الشريفة التي اهرقت على الربوع والطلول إلا شهداء الاخاء العربي وضحايا سورية المحبوبة على مذبح القومية العربية . . . .

تلك ماهية الاخلاق أيها السادة وتلك الاخلاق العامة التي تكيفت بحسبها أحوال الامم منذ بدء التاريخ إلى يومنا هذا اللهم بصورة عامة لا تتجرد عن الشاذ والغريب . أما كيفية نشوء الاخلاق في الامم وأسباب فسادها فليس لي أن اخوض في البحث عنها الآن لأن المقام والحال لا يساعدان على ذلك .

ومما تقدم يتضح لنا ما عرضته في صدر محاضرتي من أن الامم هي الاخلاق تصلح بصلاحها وتفسد بفسادها لانها روح اجتماعها وقوام اتحادها وأس بنائها وان الامة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ما اتحدت أحجاره اما إذا تخلخلت فلا يلبث أن يندك وينهار . وانه يتعذر على الامة العربية المتفرقة المتمزقة المتفسخة أن تستجمع قواها وتوحد كيانها وتبرز للعالم بمظهر الامم المستقلة الحية قبل أن تتخلق بخلق عام واحد يكون لها روحاً تنتعش بها وجامعة تتوحد فيها . وليت شعري أي المبادىء أو الاخلاق تألفه أمزجتها وتتحد به عناصرها ؟ هل الدين ؟ وهو كما

جعله فرق مثار عصبيتها ومصدر اختلافاتها ومنبع تفرقها لتعــدد اسمائه وتشوه محاسنه ولما أصيب به من كثرة المذاهب ووفرة الطرق ولما دخل عليه من البدع وتطرق اليه من العلل مما هو براء منه ومما لا سبيل الى اصلاحه الا بصلاح الأمة نفسها . . . . هل الوطنية ؟ وأنى الوطنية أن توجد وليس هنالك وطن . وأنى للروح أن تتجلى وليس هنالك جسد . وهل ينمو الحب قبل أن يخلق المحبوب ، وينبت الحب قبل أن ترضعه الارض ؟ فالوطنية بنت الحرية وربيبة الاستقلال ومتاع الأمة الحرة . تنشدها الامم المستعبدة ولا تجدها ولن تجدها ما دامت ايديها مغلولة ورقابها مرهونة .

هل القومية ؟ بلى أيها السادة إن القومية خير جامعة تجمع شتات الأمة العربية على اختلاف اديانها ومذاهبها ومواطنها يدين بها المسلم والنصراني عراقياً أو سورياً ، مصرياً أو حجازياً ، نجدياً أو يمنياً . هي الجامعة الطبيعية التي تجمع الابن بأبيه والأخ بأخيه . هي البقية الباقية من ذلك الارث التاريخي العظيم الذي لم تقو الايام بعد على اختلاسها ، ولا جرائم السياسة على افسادها . هي الغيث الوابل الذي ينهمر على الارض الجافة فيحييها حتى إذا رويت يتدفق سيلاً يجرف الحدود الصنعية ولا يتعدى الحواجز الطبيعية .

هذا هو الدواء الناجع لذلك الداء العضال ينظر اليه العليل وقد أضناه المرض فهو لا يقوى على أخذه . فليت شعري هل يهب الله له من نفسه قوة تحمله اليه فيشربه أو يقيض له ممرضاً حكيماً مخلصاً يحقن به قلبه فينتعش به . هذا سؤال سيجيب عليه الغد وان غداً لناظره قريب .

دمشق : تشرين الأول سنة ١٩٢٤ .

قـــــوة الإرادة

للدكتور جميل صليبا

شرائط الارادة الصحيحة:

لم يعن الفلاسفة الأولون بالارادة عنايتهم بملكات النفس الأخرى. فكان أفلاطون يقول : ان النفس ثلاث نفوس : نفس عاقلة ، ونفس غضبية ، ونفس شهوانية . فالنفس العاقلة مبدأ الحكمة . والنفس الغضبية مصدر الشجاعه . والنفس الشهوانية منبع الرغائب . ولم يزد أرسطو على تصنيف أفلاطون شيئاً ، يدل على اهتمامه بقوة الارادة . كما أن فلاسفة العرب ، لم يشيروا إلى قوة الارادة ، إلا عند كلامهم عن الصفات الالهية ، والعناية الربانية ، ومقامات العارفين ، والتكليف والاستطاعة ، وحرية الاختيار . ثم جاء « ديكارت » أبو الفلسفة الحديثة ، فأعطى الارادة المحل الارفع ، وازداد اهتمام المتأخرين بقوة الارادة حتى جعلها « شوبنهاور » أساس مذهبه في كتابه : « العالم ارادة وتصور » . ولم يزل علماء العصر الحاضر يهتمون بالارادة حتى جعلوها أساس الحياة . فكأن الانسان في زعمهم ارادة قبل كل شيء . وكأن الحكم والاعتقاد ، وكل ملكة من ملكات النفس ، وكل فعل من أفعال الانسان ، وكل عاطفة من عواطفه ، ونزعة من نزعاته ، نتيجة لوحي الارادة وهديها .

ويظهر أن اهتمام المعاصرين بالارادة ، انما كان نتيجة طبيعية لما شاهدوه في أيامنا هذه من ضعف إرادة الشبان ، وتشتت عزائمهم ، ونقص ثباتهم ، وعجزهم عن الاقدام والشجاعة والصبر . حتى لقد انتشرت الروح الرومانتيكية في جميع نواحي الحياة ، وعمت نفوس الشبان والشابات ،

وكثر أعداء الارادة ، وقل حلفاؤها . وأصبح الانسان كريشة في مهب الريح . ومتى ضعفت ارادة الانسان عَجَزَ عن الاقدام والمشقة ، وأصبحت الامة ضعيفةً خاملة . فمن واجب المربي ، والمصلح الاجتماعي أن يُعنى بتربية الارادة ، وأن يبحث عن أسباب ضعفها ، ويبين طرق الوقاية وأساليب العلاج .

* * *

ولنبحث أولاً في الارادة الصحيحة والارادة القوية .

لا يمكننا الاطلاع على صفات الارادة الصحيحة إلا إذا حللنا الفعل الارادي وأحطنا بشرائطه . ولكن المجال لا يتسع الآن للقيام بهذا التحليل ، فلنقتصر إذن على الاشارة دون الابانة وعلى الاقتضاب دون الاسهاب . لنبين أن الفعل الارادي يشتمل على عدة مراحل : أولها التصور ، وثانيها المذاكرة ، وثالثها العزم ، ورابعها التنفيذ . فاذا أردت المجيء إلى هذا النادي مثلاً تصورت الاسباب الباعثة على ذلك ، والعوامل الدافعة اليه . ثم قايست بين هذه البواعث والعوامل ، فوجدت بعضها يدفعني إلى المجيء وبعضها الآخر يمنعني .

فمن العوامل التي تدفعني إلى المجيء اليكم أنني أحب رؤية اخوان كرام تعودت ألفتهم والاستئناس بهم ، وانني أحب السمر في أيام الصيف ، والتحدث إليكم في موضوع فلسفي ، وانني أحب أن أترك أثراً طيباً في نفوسكم ، إلى غير ذلك من البواعث القلبية والاسباب العقلية . ومن العوامل التي تمنعني من المجيء كثرة أعمالي في أيام الامتحانات ومرض أحد أفراد أسرتي ، وخوفي من التعب ، وميلي الطبيعي إلى الكسل ، فتتجاذبني كما قلت قوى مختلفة ، وتصبح نفسي في وقت واحد مسرحاً للمذاكرة والمقارنة والمقايسة والمناقشة ، حتى اتخذ قراراً ، فاذا اتخذته نفذته ، وحظيت برؤيتكم . وليس التصور في الحقيقة يتقدم على المذاكرة ،

كما ان المذاكرة ليست متقدمة على العزم ، بل الارادة كلها فعل واحد مشتمل على التصور والمذاكرة والعزم والتنفيذ .

ان هذا التحليل البسيط يدلنا على شرائط الارادة الصحيحة والارادة القوية . فالارادة الصحيحة هي الارادة التي تستطيع أن تدبر أفعالنا وتوجهها توجيهاً منظماً . لا يكون الانسان صحيح الارادة الا اذا تصور لفعله غاية . وفكر في الأسباب التي تحبب هذه الغاية اليه . وهذا يدلنا على أن الارادة الصحيحة تخضع لشرطين أساسيين هما : تصور المثل الأعلى ، والايمان بالنفس .

أما تصور المثل الأعلى فهو ضروري لكل انسان . وهو يختلف باختلاف الناس ، ويتبدل بتبدل ظروفهم المادية والنفسية والاجتماعية . فالمثل الأعلى عند الشاعر هو التعبير عن الجمال . والمثل الاعلى عند العالم هو الكشف عن الحقيقة ، والمثل الاعلى عند القائد هو الانتصار في المعركة ، والمثل الاعلى عند الطالب هو النجاح في الامتحان ، والمثل الاعلى عند الفاتنة الحسناء هو أن تحظى بفتى جميل غني حلو الحديث ، يحبها وتحبه . ولهذا المثل الاعلى سلطان قوي على النفس . ان التلميذ الذي يدرك ان نجاحه في الحياة متوقف على اجتياز امتحان ما ، يزدري مباهج الحياة كلها ، ويصطنع لنفسه حياة كادحة ناصبة . ان مثله الاعلى هو الذي يوجه أعماله ويحشد قواه النفسية في خدمة غاية واحدة . وكلما كان هذا المثل الاعلى أسمى وأرفع ، كانت القوى التي يستدعيها لتحقيقه أكثر وأغزر . هناك من يتطلع إلى اللذة وهناك من يتطلع إلى المال ، وهناك من يتطلع إلى المجد والشرف والشهرة والجمال . واتساع مدى التطلع هو الذي يخلق الرجل الناضج . واذا فقد المثل الاعلى خمدت جذوة الحياة ، لان الطبيعة تمنحنا من القوة مقادير تفوق حاجاتنا . فاذا كنا نحيا في سبيل غايات صغيرة وأباطيل حقيرة حرمتنا الطبيعة هباتها السخية .

وهكذا ، فالهدف العظيم يخلق الرجل العظيم . ونحن جميعاً نعيش في علم أوسع من العالم الذي يشير اليه عنواننا البريدي ، لأن دموعنا — كما يقولون — أكثرُ مما تحتاج اليه آلامنا ، كما أن ابتساماتنا أكثر مما تحتاج اليه أفراحنا .

وأما الشرط الثاني في قوة الارادة فهو الايمان بالنفس . إذا لم يؤمن الانسان بنفسه خسر معركة الحياة . وإذا لم يحارب شعوره بالنقص هبط إلى الهاوية . إن الشاب الضعيف الارادة يقول في نفسه : أنا لا أستطيع أن أقوم بهذا العمل ، وإذن أنا لا أصلح لشيء . أما القوي الارادة فيجد نفسه قادراً على القيام بكل عمل . ولكن لما كانت الحياة لا تتسع للقيام بجميع الاعمال التي يتصورها الانسان في ريعان الحداثة ، كان لا بد له من الاقتصار على عمل واحد معين موافق لمواهبه ومنسجم مع ميوله . فعلى المرء أن يبحث إذن عن العمل الذي يستطيع أن يقوم به ، وأن يقبض عليه بقوة ، وأن يؤمن بكفاءته ويثق بنفسه ، ويقدم عليه بحماسة . فان من فساد المنطق أن نستنتج اننا لا نصلح لشيء لمجرد أننا لا نقدر على كل شيء ، كما أنه من السخف أن نبدد قوانا في أعمال ليس في ميولنا الطبيعية ما يساعدنا على النجاح فيها .

فأنت ترى أن قوة الارادة تستلزم تصور مثل أعلى قابل للتحقيق ، كما أنها تقتضي الايمان بالنفس . وإذا فقد أحد هذين الشرطين اضطربت حياة الانسان وكان نصيبه الفشل والاخفاق .

وفي الارادة الصحيحة تنظيم للأفكار والعواطف ، وسيطرة على النفس . إن أعاظم الرجال أكثر الناس سيطرة على عواطفهم وأهوائهم وإدارة أنفسهم بأنفسهم . لأنهم يريدون ما يفعلون ، ويفعلون ما يريدون ، والناس يختلفون في قوة الارادة كما يختلفون في قوة العقل ، فهناك ارادات قوية وارادات متوسطة وارادات ضعيفة ، إلا أن صحة الارادة

شيء ، وقوتها شيء آخر . لا تكون الارادة قوية إلا إذا كانت الافكار والنزعات المقومة لها قوية أيضاً ، كما أن الجسم الصحيح لا يكون قوياً إلا إذا كان قوي الوظائف والأعضاء ، ان الحصان الجموح يحتاج إلى سائس قوي ، والملكات القوية لا ينتظم أمرها ، ولا ينسجم فعلها إلا إذا دبرتها ارادة قوية .

أعداء الارادة

وهذا البحث في شرائط الارادة الصحيحة والارادة القوية يكشف لنا في الوقت نفسه عن أسباب ضعف الارادة ، ويرشدنا الى معرفة أمراضها .

لا تضعف الارادة إلا إذا أضاعت سيطرتها على الأفكار والعواطف . ومتى أضاعت سيطرتها هذه اختل توازن الوظائف النفسية المختلفة وخسر المرء وحدته .

وقد بين العلماء أن للارادة أعداء ، تضعف سيطرتها ، وتخل بتوازن الوظائف النفسية المقومة لها ولنذكر الآن بعض أعداء الارادة .

فمن أعداء الارادة العواطف الغامضة ، والخيال الوهمي ، والاحلام . والرفيق السوء ، والاهواء الخسيسة ، والميل الطبيعي إلى الكسل .

أما العواطف الغامضة فتستولي على الشبان في نهاية الدراسة الثانوية أو عند دخولهم معترك الحياة . إن حياة الطالب في المدرسة الثانوية مقيـــدة على الأغلب بنظام ثابت . فلا تترك له مشاغله المدرسية وقتاً للابتعاد عن الواقع . ولكنه إذا ما أدرك سن البلوغ وقرأ الروايات الغرامية ، وشاهد الافلام السينمائية ابتعد بخياله عن الواقع وعاش في عالم مفعم بالعواطف الغامضة . عرفت شاباً نشيطاً من طلاب المدارس الثانوية . كان لا يهمل درساً من دروسه ، ولا يتقاعس عن القيام بواجباته . فلما قرأ رواية « ماجدولين » التي ترجمها مصطفى لطفي المنفلوطي تغيرت حاله تماماً . فانقلب نشاطه الى يأس ، واقدامه إلى فتور ، وسروره الى ، حزن

حتى أهمل دروسه كلها ، وعاش في عالم من الوساوس والأحلام . وأصبح ضيق الصدر كئيباً ، سيء الخلق ، ضائق الذرع بنفسه ، ومن عجيب أمره أنه أراد أن يقلد بطل الرواية في عواطفه وميوله ، فأصبح عاشقاً ولكن من غير أن يكون له معشوق ، ومحباً للحب نفسه ، يعشق آلهة خيالية ، لا وجود لها في الواقع . ولم يكن تأثير رواية آلام « فرتر » التي ترجمها الاستاذ أحمد حسن الزيات في نفوس شبابنا أقل من تأثير رواية « ماجدولين » . فقد كادت تودي بحياة أحد الشبان لو لم أطلعه على أن « غوته » صاحب الرواية لم ينتحر كما انتحر « فرتر » ، وان الفرق بينه وبين بطل روايته انه كان قوي الارادة ، فأنقذته ارادته من الانتحار . أما « فرتر » فقد كان ضعيف الارادة ، فأظلمت الحياة في وجهه وقضى عليه الحب .

وأما الخيال الوهمي فيرفع الشاب الى عالم مفعم بالاحلام اللذيذة . فيرى نفسه في هذا العالم مجرداً من قيود الواقع ، ومن قيود الزمان والمكان . وينسى ما هو فيه من الألم والحرمان . يحب هذا العالم الخيالي ، ويفضله على العالم الحقيقي لما يجده فيه من السهولة في ارضاء رغائبه وميوله . فالفقير يصبح فيه غنياً ، والضعيف قوياً . ولا يحتاج الانسان في الوصول اليه إلا إلى قليل من الخيال ، فالخيال الوهمي عدو من أعداء الارادة لأنه يبعدها عن الواقع ، وينسيها ما يجب عليها اتخاذه من الوسائل للوصول إلى ما تصبو إليه من الخير المتوهم والنفع المؤمل .

نعم ان قليلاً من الخيال ضروري للنجاح في العمل ، وتخيل النجاح في العمل هو في الحقيقة ، بدء له . والمرء انما يقطع أول مرحلة من مراحل النصر ساعة يفكر في النصر ويتخيل نتائجه . ولكن ما نعزم عليه يجب أن يجد طريقه الايجابية في العمل والجهد المستمر . فإذا أفسحنا المجال للخيال الوهمي انتصب خيالنا لمقاتلة الارادة وخسرنا المعركة .

وأما الرفيق السوء فيسرق الوقت ويلهي عن العمل المنظم ، ويشتت الذهن ويبعثر الشخصية ، فهو يعوّد صاحبه ارتياد المقاهي والحانات والمطاعم والنوادي وحفلات الرقص والملاعب وأماكن اللهو ، فيمسي عبد شهواته ، وأسير عاداته المألوفة . تصوروا شاباً قضى ليلته في حفلة راقصة بين ضجيج الآلات واختلاف الصور والأشكال والحركات ، في جو محموم من الهيجان والهوى : هل يستطيع في غده أن يبكر إلى عمله ويطرد من ذهنه تلك الصور ، ويسيطر بارادته على عواطفه وغرائزه . وتصوروا شاباً آخر قضى ليلته في أحد النوادي على مائدة الميسر الخضراء تتقاذفه آمال الربح ومخاوف الخسارة ، وتتجاذبه شتى العواطف والأفكار ، هل يستطيع أن ينظم أعماله ويوجه أفكاره ، ويكون سيد نفسه في الحكم على الأشياء بهدوء واعتدال . لا لعمري إن شر الاهواء الاهواء الخسيسة ، لانها تنتج من الأخلاق قبائحها ، وتظهر من الأفعال فضائحها ، وتجعل ستر المروءة مهتوكاً ومدخل الشر مسلوكاً . وقد قيل في منثور الحكم : « من أطاع هواه أعطى عدوه مناه » .

ومما يضعف الارادة أيضاً الميل الطبيعي إلى الكسل . ان الكسل يمنعنا من القيام بواجبنا ويحول بيننا وبين العمل المثمر والسعي المتصل . والكسلان يشغل الفكر في تمييز ما اشتبه من الامور فيطلب الراحة في اتباع ما استسهل . وأكثر الناس يفضلون العمل السهل على العمل الصعب ، ويتبعون في أعمالهم طريق الانحدار دون طريق الصعود ، وفقاً لقانون الجهد الأقل . فاذا جلسوا المطالعة مثلاً استلقوا على ظهورهم في أسرّتهم حتى يغلبهم النوم ، وإذا قرأوا كتاباً قلّبوا صفحاته بعقول شاردة ، فلا يفقهون ما يقرأون ولا يعرضونه على ميزان الروية والفكر ، وترى انتباههم العفوي أقوى من انتباههم الارادي ، وذاكرتهم أكثر إحاطة بالأشياء من عقولهم .

وجائز أن يكون ضعف الارادة راجعاً إلى أن جزءاً هاماً من شخصيتنا يخضع لنوع من الكبح والكبت . وقد يرغب الانسان في شيء ويكون في الوقت نفسه منجذباً بفطرته وغريزته الى أمور أخرى . مثال ذلك : قد تقرأ كتاباً وتنصرف اليه بارادتك انصراف المصمم العازم ، ولكنك تجد نفسك عاجزاً عن تركيز أفكارك وجمعها حول موضوع الكتاب لانشغال عقلك الباطني في نزعات مخالفة لرغبتك الواعية . وقد تحاول بارادتك التغلب على هذه النزعات فيأخذك صداع ويصيبك سهاد وأرق . وكلما حاولت تركيز انتباهك حول موضوع الكتاب هام عقلك في أودية من الاحلام . ان موضوع الكتاب يبقى على سطح الشعور . ولكن ميولك المكبوتة تعمل في الخفاء ، وتسعى لتأكيد ذاتها وتمنعك من النجاح في العمل . مثال آخر : قد يتلقى الشاب أو الشابة صدمة من فسخ عقد الزواج فيحاول كل منها أن يلطف من خطورتها فيقول في نفسه : ان هذا الزواج غير موافق لي ، ومع ذلك فها يكبتان أبداً هذه الصدمة التي أصابت كبرياء الذات والغريزة الجنسية . والمصدوم لا يستطيع أن يواجه الحياة بابتهاج وقوة . إن عقله منقسم ، فنصفه يصلح للعمل اليومي في حين ان نصفه الباقي يقف حارساً على ذلك الجزء من الشخصية ويصرخ بأعلى صوته مطالباً بحقه ، ولا يستطيع الانسان أن يتغلب على هذه الحالة إلا إذا حوّل ميوله الغريزية وصعّدها ، حتى تصبح منسجمة مع المثل الأعلى الذي يصبو إليه .

والفعل الارادي أعلى من الفعل الغريزي والفعل المنعكس . فاذا اتبع الانسان غرائزه وغلبت شهوته عقله ، ضعفت ارادته ، وقاده الهوى إلى كل ما فيه لوم عليه ، فلا وجود للارادة عند أسير الهوى ، ولا عند الثائر الذي يعيش على هامش الحياة الاجتماعية ، ولا عند الفوضوي الذي لا يحب النظام ولا يقيد نفسه بعمل دائم ، والارادة ضعيفة أيضاً عند الذين

لا يستطيعون أن ينضموا إلى جماعة من الجماعات ، قال « بلوندل » :
« من ضعفاء الارادة الظرفاء الذين يميلون الى جميع الأعمال للتلذذ بها
بدون نظام ، ومنهم أيضاً المقلدون الذين يشبهون خراف « بانورج » في
أعمالهم ، فيتبعون عاداتهم أو عادات غيرهم كالآلات المتحركة » ، ويدورون
في دائرة واحدة من غير أن يخرجوا منها ، ويكررون أعمالهم بدون
تفكير ، لعجزهم عن تفهم الأشياء الجديدة .

والارادة الصحيحة تقتضي أن يكون الفكر ذا مرونة ، إلا أن
ضعفاء الارادة لا يستحسنون من الآراء إلا ما ألفوه ، فاذا جاءت الاشياء
موافقة لتقاليدهم تعصبوا لها ، واذا خالفتها أنكروها . لأن تقاليدهم
تلقي على أعينهم حجاباً يمنعهم من ادراك الحق فيحكمون العادة في معارفهم
وأفكارهم ، ويسيطر الجمود على عقولهم ، حتى تصبح ارادتهم عمياء وإذا
ما أصبحت الارادة عمياء صعب عليها الخروج على العادات المألوفة ،
حتى لقد تمسي أشبه شيء بالآلة تكرر الحركات المرسومة أو تعيد
الحركات الجديدة سيرتها الاولى ، فاذا أطلعتها على الامثلة الجديدة
المقتبسة من التجربة والحياة ردتك الى التاريخ والماضي ، والماضي عندها
أصدق من الحاضر ، والعادة أقوى من العقل ، والغريزة أكمل من
الفكر . دع أن العادة تقلب مرونة العقل الى جمود وحريته إلى
اضطرار ، ونوره الى ظلمة دامسة . ومتى أضاعت العقول مرونتها
ضاق أفقها وصغرت أحلامها . لا يبلغ العقل هذه الحالة الآلية الجامدة
إلا إذا أهمل الرياضة الفكرية واكتفى بالتقليد وهبط من فضاء الحرية
إلى حضيض المادة . ان شر القيود لقيود الفكر ، فقد يفقد الانسان
حريته المادية فيعتقل وينفى ويسجن ويقيد بالسلاسل . وقد يجاري
عادات بلاده ويداري زمانه ويجامل الناس ، ويتقيد بكثير من الاعتبارات

السياسية والاجتماعية ، ولكن هذه القيود لا تقضي على ارادته إلا إذا أفقدته حرية فكره .

ما أكثر الذين لا يستطيعون أن يتحرروا من تقاليد المجتمع الضيقة ! إنك إذا طلبت اليهم أن يطلقوا نفوسهم من عقالها لقيت عجباً عجابا . فهي لا تنطلق من أسرها مرة حتى تقع في الحيرة والارتياب ، ولا تنجو من حيرتها وارتيابها حتى تقع في الاسر مرة ثانية . فكل من تعوّد السير متكلاً على غيره يعجز عن السير وحده في فضاء الفكر لعجزه عن التحرّر من العادات المألوفة وخوفه من التبعة وضعف ارادته وكسله عن الابتكار .

وهذا كله يدلنا على أن ضعفاء الارادة في زماننا هذا كثيرون : فمنهم السلفي الجامد الذي لا يستطيع أن يعيش إلا بالتقليد ومنهم المجدد الاهوج الذي لا يتبع إلا قلبه ، ومنهم الظالم الذي يحب أن يسخّر الناس لارادته العمياء ، ومنهم الحاكم السخيف الذي لا يستطيع أن يبدل أحكامه بحسب الزمان والمكان ، ومنهم صاحب العواطف الغامضة والخيال الوهمي الذي لا يعرف ما يريد ، ومنهم رجال الأعمال الذين ليس لهم مثل أعلى ، ومنهم الموظف الذي لا يحترم نفسه ولا يؤمن بكفايته ولا يشعر بكرامته ، ومنهم المرأة العصبية التي تظلم زوجها وأولادها ، ومنهم الصحافي أو المحامي أو السياسي الذي يبدل الحقائق ويجعلها خاضعة لمصالحه ، والمتقلب الذي لا ثبات عنده ولا قدرة على الجهاد ، ومنهم أسير الهوى الذي كبت ميوله وعجز عن تصعيدها وتحويلها ، وفقدَ بذلك اتزانه العقلي والعاطفي . فهم ضعفاء الارادة لتشتت ميولهم وعدم انسجام أفكارهم وسرعة انقيادهم لغرائزهم ، وقد يبلغ فقدان التوازن بين الأفكار والعواطف حداً ينقلب فيه الضعف الى مرض ، والاضطراب إلى علة مزمنة .

امراض الارادة

ان أمراض الارادة كثيرة والمصابون بها كثيرون . ولو استقصينا الآن اعراضها وعرضناها على الناس لوجد الناس في نفوسهم كثيراً منها . ولكن المجال لا يتسع للاحاطة بجميع الامراض . فلنقتصر إذن على الاشارة إلى المسائل الرئيسية منها .

لقد قسم « ريبو » أمراض الارادة إلى ثلاثة أنواع وهي فقد الاندفاع ، وفرط الاندفاع ، وفناء الارادة . ولنبحث الآن في كل من هذه الأمراض على حدة .

١ — فقد الاندفاع — يكون المصاب بهذا المرض ضعيف الحس ، قليل التأثر ، وتكون فاعلية الحياة عنده بطيئة ، والنزعات راكدة . وأكثر المصابين بهذا المرض النفسي يشبهون المصابين بمرض الارتخاء العصبي . فهم لا يستطيعون أن يتحركوا بانفسهم ، بل يحتاجون إلى إرادة أخرى تحركهم . وقد وصف « غيزلان » هذا المرض فقال : ان المريض يريد ولكن بارادة داخلية ، ويحب أن يفعل ولكنه لا يستطيع إلى ذلك سبيلاً . حتى ان بعض المرضى ليتحيرون من عجزهم ، فاذا بقي أحدهم وحده أقام في داره ولزم سريره أو جلس على كرسيه عدة أيام . وذكر « بنيت » رجلاً لا يستطيع أن ينجز ما رغب فيه ، فاذا أحب أن ينزع ثيابه مثلاً فكر في ذلك عدة ساعات دون أن يقترن تفكيره بالتنفيذ . لقد كانت ملكاته العقلية صحيحة ، ولم ينقصه إلا الاقدام على الفعل . طلب مرة قدح ماء فقدم له على طبق فلم يستطع أن يتناوله رغم رغبته فيه . وكان يقول عن نفسه يظهر لي أن شخصاً آخر قد سلبني ارادتي .

والسبب في فقد الاندفاع ضعف قابلية الحس . وبيان ذلك أن المريض نفسه يعلن بعد شفائه أنه كان لا يشعر في داخله بقوة تدفعه إلى الفعل . فهو لم يفقد وظائف الحياة العادية ، ولكنه فقد الاحساس بها واللذة التي

كان يجدها فيها . ومما يؤيد ذلك أن فتاة ايطالية مهذبة تهذيباً عالياً عشقت رجلاً . فلما هجرها حزنت حزناً عميقاً أدى بها إلى الجنون ، فلما شفيت من مرضها هذا أصيبت بحالة الركود الانفعالي ، وأصبحت لا يؤثر فيها شيء ولا يهيجها أمر ، ولا تشعر بحب ولا بغضاء . وكانت لا تعرف هل هي في قيد الحياة أم ميتة ، أم هي في سبات عميق ، حتى لقد كان العالم الخارجي محجوباً عنها برداء من سحاب ، وكان الاشخاص ، المحيطون بها أشبه شيء بالظلال . وكان يخيل اليها أن أصواتهم ضعيفة كأنها دوي خفيف منعكس من عالم بعيد .

والضعف في قابلية الحس ينشأ عن انحطاط عام في وظائف الحياة وقد يبلغ هذا الانحطاط درجة يشعر بها المريض أنه أصبح جماداً ، أو حطباً يابساً ، كما في حالات المليخوليا ، فتبطىء دورته الدموية ، وتهبط حرارته وتضعف حركات جسده .

وشبيه بفقد الاندفاع مرض التردد . وهو لا ينشأ عن ضعف الانفعال بل ينشأ عن فرط التفكير وكثرة التصور ، وقد يتولد من فقدان الاتزان في الحياة الانفعالية ، مثال ذلك أن امرأة ذكية فطنة كانت لا تخرج من بيتها الا بعد أن تحاور نفسها قائلة : إذا سرت في الطريق فربما وقع علي جسم من احدى الشرف . وقد يكون هذا الجسم رجلاً أو امرأة . وقد يموت أو يجرح . فاذا جرح فربما كان جرحه في رأسه أو في احدى ساقيه . وقد يجري دمه على الطريق . فاذا مات ذعرت واستغثت بأحد الناس أو هربت أو تلوت بعض الصلوات . وقد يتهمني الناس بقتله فأساق إلى الحاكم ، وقد يحكم علي بالسجن وقد تظهر براءتي . فالمتردد كثير التصور . ومن أجل ذلك يستقصي جميع الوجوه . فيمنعه فرط التفكير من الفعل . فاذا كتب كتاباً قرأه عدة مرات ، ثم وضعه في المغلف ، ثم فتح المغلف لاعادة قراءته . عرفت رجلاً بخيلا كان

لا يخرج من بيته الا إذا فحص صندوقه عدة مرات . وقد ذكر لي بعضهم أن أحد المصلين كان لا ينهي وضوءه الا بعد مسح رأسه عشر مرات . وان بعض علماء اللغة كان يحتاج عند الكتابة الى مراجعة كل لفظة في القاموس لعدم اعتماده على ذاكرته وتردده وشكه في علمه .

والمصابون بفقد الاندفاع أكثر الناس خيالاً . فهم يدعون أنهم أقوياء الارادة ، وانهم قادرون على جلائل الأعمال ، وانهم سيطلعون على الناس بكتاب جديد أو رسالة جديدة أو اختراع عظيم . فعقولهم مفعمة بالمشاريع الجميلة والنيات الطيبة والاحلام اللذيذة ، ولكن هذه المشاريع لا تقترن أبداً بالتنفيذ .

٢ — فرط الاندفاع — ان أعراض هذا المرض تختلف عن أعراض فقد الاندفاع تماماً . لان الملكات العقلية انما تكون فيه أضعف من الدوافع الحسية والانفعالية . ومتى ضعف العقل أمست الارادة آلة في يد الغرائز والنزعات فتسير على غير هدى . وقد تكون الدوافع المحركة شعورية ، وقد تكون لا شعورية . ولكنها في كلا الحالين مقرونة بالتنفيذ السريع . والفعل الذي يتلوها شبيه بالفعل المنعكس . مثال ذلك ان امرأة قعدت على ضفة غدير وهي في حزن عميق ، فلما وقعت عينها على الماء ألقت نفسها فيه كمن يريد أن ينتحر . ثم انقذت من الغرق فلما عاد اليها رشدها أعلنت أنها لم تفكر في الانتحار قط . وشبيه بذلك أيضاً مرض الفكرة الثابتة وجنون السرقة والميل إلى القتل . قال الدكتور « بيرجانه » اجتمعت إلى خمس أمهات يوم ألقيت محاضرة عن هـــذا الموضوع في مستشفى « سالبتريير » ، فقالت لي كل واحدة منهن وهي باكية ان شيئاً أقوى منها كان يدفعها إلى طعن أولادها الصغار بموسى حادة . وقال « مارك » عرفت امرأة كانت تضرب أولادها بالرغم منها وتطلب إلى الناس أن يقيدوها ويمنعوها من ضربهم . وذكر أن أحد المصابين بمرض الماليخوليا استيقظ

من نومه ذات ليلة وقرع باب أخيه وهو يصرخ تعال الي بسرعة انقذني . ان فكرة الانتحار قد ملكت علي مشاعري . وذكروا أيضاً طفلاً فقد أباه فهذبته أمه تهذيباً حسناً فلما بلغ السادسة عشرة من سنه تغيرت حاله تماماً فأصبح سيء الخلق سريع الغضب . ولما سألته والدته عن سبب حزنه قال لها انه يحبها حباً عميقاً ولكن فكرة قتلها قد اقضت عليه مضجعه وشوشت عليه عقله . ثم طلب اليها أن تتقي شره ثم تركها وانخرط في الجيش . وذكر « تولستوي » أن أحد الأطفال أضرم النار في بيت أبيه وهو يبتسم مع أن أباه وأمه واخوته كانوا نائمين فيه . وأن أحد القرويين نظر إلى حد الفأس المسنونة فأمسك بها وضرب أباه وهو نائم ، ثم نظر إلى الدم الجاري على الارض نظرة الفضولي البليد .

كلكم تعلمون أن الانسان لا يستطيع في الغضب الشديد أن يملك نفسه . فرط التهيج يؤدي إلى فرط الاندفاع ، كما أن فقدان الفكر في حالات الطيش وارتباك النفس يؤدي إلى فقدان الارادة . ومتى كانت الاهواء شديدة والتهيجات عظيمة ملكت على الانسان عقله . وقادته إلى الفعل كأنه آلة عمياء ، أو كأن هناك قوة داخلية تسيره أو قوة خارجية تدفعه إلى الشيء وهو لا يريده .

٣ — <u>فناء الارادة</u> — وقد تنحل الارادة انحلالاً تاماً كما في حالات التشويش الذهني وفقدان التوازن والفوضى النفسية ، والخبل . فلا يستطيع المريض كبح جماح نفسه ولا السيطرة على حركاته ، ولا مقاومة الدوافع التي تختلج في صدره . وقد يؤدي تشويش الذهن وفقدان التوازن وارتباك النزعات إلى محو الارادة وفنائها ، كما في حالات الهستريا والوجد النفسي .

وربما كان مرض الهستريا أحسن مثال يدل على انحلال الارادة . ان إرادة الانسان تشتمل في الحالة الطبيعية على ثلاث مراتب . فالاولى هي

مرتبة الافعال اللاإرادية من أفعال منعكسة وعادات . والمرتبة الثانية هي مرتبة الافعال الصادرة عن العواطف والتهيجات والاهواء . والمرتبة الثالثة هي مرتبة الافعال الصادرة عن العقل . أما في حالة الهستريا فان فاعلية الانسان تقتصر على المرتبة الاولى والثانية فقط ، إذ تنحل ضوابطه العقلية ، ويفقد توازنه العاطفي لفقد توازنه العضوي ويجمع بين المتناقضات وينتقل من حالة إلى ضدها من غير نظام ولا وحدة .

ومن الأحوال التي تفنى فيها الارادة حالة الوجد . للوجد أنواع مختلفة فمنها ما هو صوفي ومنها ما هو مرضي ، ومنها ما هو طبيعي ومنها ما هو كسبي . ولفقراء الهند أساليب مختلفة في الوصول إلى الوجد منها السكون التام والتحديق في السماء أو في جسم مضيء . وتكرار صوت واحد على نمط واحد وحبس النفس أو التنفس ببطء ونسيان الزمان والمكان ، حتى يصبح المريد كما يقولون أشبه شيء بمصباح ساكن وضع في مشكاة لا تهب عليها الريح .

وقد ذكرت القديسة « تريز » للوجد أربع مراحل : فالمرحلة الاولى هي مرحلة العناء ومثلها كانسان يسقي حديقته بدلو يغرف به الماء من الجب . ومثل المرحلة الثانية كانسان يسقي حديقته بماء الناعورة . ومثل المرحلة الثالثة كانسان يسقي حديقته بماء الجدول . ومثل المرحلة الرابعة كانسان يسقي حديقته بماء الغيث العميم . فالله في هذه المرحلة الرابعة يرسل غماماً يسقي به قلوبنا اليابسة من غير تعب ولا جهد ارادي . وفي هذه المرحلة الأخيرة تفنى الارادة ويتحد الانسان بالله .

ووصف ابن سينا في كتاب الاشارات مقامات العارفين وفناء ارادتهم فقال إن أدنى درجات السلوك درجة الارادة .

ثم تأتي درجة الرياضة وهي نهي النفس عن هواها وأمرها بطاعة مولاها ومنعها من الالتفات إلى سوى الحق . وقد يرتقي المريد أكثر من ذلك فيرى الحق في كل شيء . ثم انه لتبلغ به الرياضة مبلغاً يصير به المخطوف مألوفاً والوميض شهاباً .

ثم يعبر درجة الرياضة ويتقرب من الحق فتفيض عليه اللذات الحقيقية . ثم انه ليغيب عن نفسه فلا يرى الا المعبود المبدع ، ولا يلحظ الا الجمال المطلق وينسى ذاته وارادته . وهذه الدرجة هى أعلى درجات السلوك . ويليها درجات الوصول . وهي تنتهي عند بعض المتصوفين الى المحو والفناء فالمريد اذا بلغ درجة الوصول غابت ذاته وفنيت ارادته في ارادة الله . وربما خلع بدنه وخرج عن العالم كما قال « افلوطن » فصار جوهراً مجرداً بلا جسم .

فهذه الاحوال الصوفية تدل على أن الارادة قد تفنى بالرياضة وتقتل نفسها بنفسها كما تفنى ارادة النائم في نومه نوماً مغنطيسياً وتصبح تابعة لارادة المنوم ، وكما تفنى ارادة المصاب بمرض الجمود « كاتالبسي » . وهو مرض عصبي يفقد المصاب به الاحساس والحركة جميعاً ولا يختلف عن الموت الا بعدم فساد الجسد وانحلاله . وفي الامراض العصبية الناتجة عن خلل دماغي أحوال أخرى تنحل فيها الارادة انحلالاً تاماً لا يتسع المجال لذكرها الآن .

هذه لمحة بسيطة عن أمراض الارادة وفي وسعنا الآن بعد أن ذكرنا أسباب ضعف الارادة وأشرنا إلى أمراضها أن ننبه إلى بعض طرق الوقاية وأساليب العلاج .

طرق الوقاية

ان خير طريقة للوقاية من أمراض الارادة هي في محاربة أسبابها . وقد ذكرنا جملة من هذه الاسباب كفقد المثل الاعلى وعدم الايمان بالنفس والعواطف الغامضة والخيال الوهمي وتأثير الرفيق السوء والهوى والميل الطبيعي إلى الكسل . والارادة مثل الضرع تنمو بالامتراء . وكلما مرن الانسان نفسه على الجهد الارادي اكسبه التمرين عادات نافعة . والمرء

لا يولد قوي الارادة كما أنه لا يولد كامل العقل فيجب عليه أن يمرن نفسه في كل وقت وان يتعود حرية الاختيار . وكثيراً ما يكون ضعف الارادة ناشئاً عن مرض الجسم والتعب والشيخوخة والكسل . ولكن تربية الارادة ممكنة في كل سن فلا يظن الشيخ أن زمن تربية ارادته قد انقضى ، بل التربية لا تنتهي إلا بانتهاء الحياة .

ولنذكر الآن بعض طرق الوقاية .

١ ــ صحة الجسد ــ ان الارادة القوية لا تكون الا في الجسم السليم . وصحة الجسد هي القاعدة الاساسية في امتلاك النفس . فلا بد إذن في تربية الارادة ووقايتها من الاخذ بقواعد الصحة الموافقة كالغذاء والراحة والتمرين الرياضي . لا يكون الانسان قوي الارادة الا إذا كان ذا جملة عصبية صحيحة . ولا تكون جملته العصبية نشيطة الا اذا اعتنى بغذائه وتنفسه وراحته . ان الاطعمة الثقيلة تتعب الجملة العصبية وتضعف الارادة . فلنأكل قليلاً ولنهضم جيداً . ان رأس الحكمة هضم الطعام . وأول الجنون النهم وإتعاب المعدة والاعصاب . والتنفس الجيد لا يقل خطورة في وقاية الارادة عن الغذاء الجيد ، ويشترط فيه أن يكون عميقاً وان يكون الهواء نقياً مطهراً للدم . ولا بد في ذلك كله من ممارسة الرياضة . وأعني بالرياضة التمارين البدنية المعقولة المبنية على الاعمال الطبيعية لا تمارين البطولة التي تؤدي في أكثر الاحيان إلى انماء عضو من الاعضاء على حساب الآخر . ومما يلحق بالتمارين الرياضية المشي في الهواء الطلق والرحلات العلمية والكشفية وتمارين الفتوة وتعاطي بعض الاعمال اليدوية في أوقات الراحة . والراحة المنظمة تختلف عن الكسل . ان تنظيم أوقات الراحة يقوي الارادة . أما الكسل فهو عدو الارادة اللدود . وقصارى القول ان التمارين الرياضية هي مدرسة الارادة الابتدائية . والجهد العضلي هو الصورة الاولى للجهد الارادي .

٢ — روح النظام — ومن شرائط تربية الارادة محبة النظام والميل إلى التعاون والعمل المشترك . ان ضعفاء الارادة لا يحبون النظام ولا يميلون إلى العمل الدائم والجهد المستمر ، ولا يطيعون رؤساءهم ولا يصغون إلى حاكم العقل ، بل يعيشون في قلق نفسي شديد ، ويفقدون توازنهم العقلي والعاطفي ، ويفضلون الفوضى على الحرية المعقولة ، والتقليد الاعمى على الابداع المنظم . لذلك كان لا بد في تربية الارادة من تعويد الاطفال الطاعة والنظام ، لان ذلك يعلمهم قهر النفس والتغلب عليها ، ويهيء لهم أسباب النجاح في الحياة . ومن تعلم الطاعة عرف كيف ينظم أعماله ويدبر نفسه ، وكيف يسوس غيره من أبناء جنسه . وللأسرة والمدرسة أثر عميق في خلق روح النظام . وكلما نمت مدارك الطفل اتبع النظام عن ارادة ورضى ، لا عن قسر وقوة وقهر . وارادة النظام تقتضي الاعتماد على النفس ، وتستلزم الثبات والشعور بالتعاون الاجتماعي .

٣ — تثقيف الذهن — ثم ان للارادة حليفاً قوياً وهو العقل . لا تنمو ارادة الانسان الا إذا تعلم التفكير وتعود الانتباه الارادي . وكثيراً ما بيّن العلماء اضرار الطيش والذهول وتشتت الافكار . اننا لا نريد فعلاً من الافعال ارادة صادقة الا إذا فكرنا فيه تفكيراً واضحاً وتصورنا غايته تصوراً بيناً . قال « وليم جيمس » : ان الرجل القوي الارادة يصيخ بسمعه من غير تردد إلى صوت العقل مهما يكن ضعيفاً ، ويصغي من غير خوف إلى فكرة الموت . فيرحب بها ويصدقها ويحارب اعداءها ، هكذا تتغلب الفكرة الجديدة على أعدائها . مستعينة بالانتباه الارادي والجهد والحزم . فتجمع حولها اصدقاءها وتغير في النهاية مجرى العواطف . ومتى أصبحت الفكرة الجديدة سيدة الموقف سيطرت على الافعال والحركات ، فالصعوبة كل الصعوبة هي في ابقائها في النفس . والانسان انما يتعود الانتباه الارادي شيئاً فشيئاً . اطلبوا إلى الطفل ان

يحصر انتباهه في شيء من الاشياء مدة دقيقة واحدة . وليفكر في لونه وشكله وفائدته والمادة التي صنع منها . انكم إذا فعلتم ذلك عدة مرات استطعتم أن تعودوه الانتباه الارادي . ان جهد الانتباه هو العامل الأساسي في بناء الارادة . ولئن كان التفكير لحمة الارادة فالانتباه سداها . وقوة الارادة انما تقوم على جهـــد الانتباه كما تقوم على وضوح الفكر .

٤ – تهذيب العواطف – ومن حلفاء الارادة أيضاً العواطف المنظمة التي تحبب إلى الانسان ادراك المثل الاعلى . لا يستطيع الانسان أن ينجز امراً من الامور الا إذا رغب فيه رغبة شديدة وتحمس له واراده بكل نفسه ونظم عواطفه . فينبغي له اذن أن يصقل عاطفته ، وان ينظمها ، وان يتحمس للامر الذي يريده وان يروي أفعاله بماء العواطف الشديدة وان يتعود تحمل الالم . فالالم أشبه شيء بأتون يصهر النفس ويولد فيها العزم والقوة .

٥ – تنظيم العادات – ولا بد في تربية الارادة من استخدام العادات الصالحة وتجنب العادات السيئة ، وتنظيم الحركات اللاارادية والعادات الآلية وإخضاعها للارادة الواعية . اننا لا نستطيع أن نفكر في كل حركة من حركاتنا . ومتى انصرف العقل الى أجزاء هذه الحركات ضاعت عليه المقاصد . وينبغي أن تكون حركاتنا متصفة بشيء من المرونة . إذا تحكمت الآلية المطلقة في حركاتنا عجزنا عن تبديل اتجاهها وانقلبت حياتنا الواعية إلى آلة عمياء . لا تتم تربيـة الارادة الا إذا أقلع الانسان عن عاداته السيئة وتجنب نتائجها المخلة بصحة النفس والجسد . لان العادات السيئة تقيـد النفس بسلاسل من حديد وتمنعها من بلوغ غايتها . قال « وليم جيمس » : « يجب على المرء أن يغتنم كل فرصة لتحقيق كل رغبة من رغائبه . فالرغبات لا تبدل الجملة العصبية الا إذا انتقلت من القوة الى الفعل . وعلى المرء أن يحيي في نفسه قوة الجهد بالتمرن عليها

كل يوم ، وان يتعود التقشف والبطولة المنظمة ، وان يرغم نفسه كل يوم مرة واحدة على القيام بأمور لا تميل اليها . فاذا دقت ساعة الشدائد وجد نفسه قادراً على الصبر والمشقة والمقاومة . تلك هي ضمانة الحياة . وقال أيضاً : لو عرف الشبان أنهم سيصبحون يوماً كتلة متحركة من العادات لانتبهوا الى سلوكهم وهم لا يزالون في نضارة الحياة . فالمرء ينسج مصيره بيديه وسواء أكان ذلك خيراً أم شراً فإن خيطه المنسوج لن يحل . » .

هذه بعض القواعد التي يجب على الانسان أن يعمل بها لاحياء إرادته وانمائها ووقايتها والمحافظة على صحتها . فاذا عملنا بها عشنا في أمن وسلام وأدركنا السعادة بالارادة . فان الارادة الصالحة تسعدنا ، والارادة الفاسدة تشقينا . وربما كانت الارادة أدل على حقيقة الانسان من العقل . ومتى فقد الانسان ارادته الصالحة أمسى كالحيوان لا بل أضل سبيلا . والمرء يحتاج الى قوة الارادة في السلامة ونعمى العيش أكثر مما يحتاج اليها في الشدائد . وحاجة الامم اليها في زمن السلم أكثر من حاجتها اليها في الحرب . ولنحن اليوم أحوج الامم الى تقوية اراداتنا الشخصية وتوحيدها وجعلها منسجمة مع الخير العام . وكما أن ارادة الفرد الشخصية لا تكون صحيحة الا اذا اتحدت نزعاته وتوازنت قواه الفكرية والانفعالية فكذلك ارادة الامة لا تكون قوية الا اذا انتظمت أعمالها واتحدت ارادات جميع افرادها واتجهت الى غاية واحدة . ولا كمال للارادة الفردية الا اذا خضعت للعقل ، واستقلت عن الاهواء ، كما أنه لا كمال لارادة الأمة الا في ترفعها عن الانانية الفردية ، وتطلعها الى المثل الأعلى ، واستقلالها ، وايمانها بمستقبلها ، وابتعادها عن الأحلام والتقاليد البالية ، واعتمادها على العلم ، وتفضيلها المصلحة العامة الواسعة على المصلحة الشخصية الضيقة .

دمشق : كانون الأول سنة ١٩٤٤ .

شعوب سورية
وآثارها القديمة
للأمير جعفر الحسني

عنيت الامم منذ القديم بالفنون الجميلة وخاصة منها الصنائع وكان حظ كل أمة من هذا الشأن بحسب رقيها وحضارتها وكان الملوك والعظماء يجمعون آثار مشاهير فناني العالم ويتنافسون باقتنائها لا لغاية علمية بل للزينة والتفاخر ودام هذا حالهم حتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلاد لما ظهر كتاب تاريخ الفن عند الاقدمين لمؤلفه « Winckelmann » الألماني وهو أول من وضع أسس هذا العلم الحديث علم الآثار القديمة ومنذ ذاك اليوم أصبحت المجموعات الأثرية مكتبة يرجع اليها بعد ما كانت من جملة المتاع تزين بها القصور .

لم يقتصر التجدد في عصرنا هذا على العلوم والفنون فقط بل تعداه إلى التاريخ ونهج المشتغلون به نهجاً جديداً . فقد كان التاريخ فيما مضى كتاب أدب يجمع بين الأخبار والفكاهات ويدس فيه حوادث ما أنزل الله بها من سلطان رغبةً في تأييد مبدإ أو خدمة حاكم حتى أصبح الكثيرون يشكون بصحة ما ورد في أكثر هذه الكتب ولطالما قرأنا روايتين أو أكثر لحادث واحد تختلف الواحدة عن الأخرى اختلافاً كبيراً حتى أصبح التاريخ القديم في ارتباك عظيم .

ان مؤرخي العرب هم أول من أدرك وبال هذا المنهج العقيم لما عانوه من المشاق في استنتاج الحقائق من المصادر التي دوّنها الأقدمون

وحضوا الكتّاب على أمانة النقل حرصاً على الفائدة ولإدراك الغاية التي وضع التاريخ من أجلها ، فليس هو مضماراً تتبارى فيه قرائح الشعراء أو تخدم بواسطته الاهواء . ولذلك نرى مؤرخي العرب مثل الطبري وأبي الفرج وابن الاثير وابن خلدون وابن عساكر وغيرهم قد نهجوا منهجاً جديداً في تدوين الحوادث والأخبار حتى أصبحت مصنفاتهم من مفاخر الحضارة العربية لما امتازوا به من الضبط والدقة والصدق في إيراد الأخبار وياحبذا لو اتصلت سلسلة تلك التواريخ العربية حتى يومنا هذا . وقد توسع علماء الغرب بالضبط والدقة منذ ظهور الطباعة وانتشارها في العالم حتى أنه لا يقدم أحدهم على سرد حادث دون أن يؤيده بادلة راهنة أو الاشارة الى المصادر والمآخذ مع تعيين الصفحة والسطر وإذا لم يتوصل الى معرفة أمر أقر بعجزه بكل صراحة دون أن يرى بذلك ما يحط من قدره ولا يستنكره عليه أحد . ولما لم يجد علماء التاريخ في التآليف القديمة ما يفي بحاجتهم وضاقت بهم سبل الهداية لمعرفة الماضي عمد بعضهم إلى بطن الارض يستنطقون دفائنها ويستضيئون بقبس كنوزها . وأطلق على هذه الفئة اسم علماء الآثار لانهم يعتمدون على الآثار دون سواها .

إن علم الآثار القديمة فرع من فروع التاريخ ومن أصعبها مراساً إذ يحتاج صاحبه الى انتباه قوي وذوق سليم فان هذا العلم لا يقتصر فيه فقط على جمع الآثار القديمة في المتاحف ووصفها بل الصعوبة كل الصعوبة في حل رموزها وفهم كنهها واستجواب تلك الشهود الصامتة واستنتاج الحقائق منها وقد قال « Volney » ما ترجمته : « ان مهمتنا أصعب من مهمة علماء الطبيعيات لأننا لا نشتغل مثلهم بأجرام ملموسة أو بحوادث واضحة للحواس بل نعمل كهيئة تحقيق لديها حوادث أدبية غائبة وربما

كانت مختلفة نقلها الينا بعض شهود عيان أو اتصلت بهم أخبارها من الرواة ويتكلم هؤلاء المحدثون لغاتٍ مختلفة قد تلاشت فيتطلب منا تعلمها وهي العثرة الاولى في بدء الأمر وقد نخطيء بترجمتها . ثم يجب علينا البحث عن الحوادث أو الوقائع المبعثرة التي تؤيدها وتكون هذه غالباً محرفة بتناقلها من فم إلى فم ويتطلب منا بعده مقابلة هذه الروايات والتثبت من أخلاق محدثيها وصدق تحقيقهم ويكون التناقض في بعض الحوادث واضحاً فينشأ عنه صعوبات لا نخرج منها . ا ﻫ » .

وقد أصبح النظر اليوم في أبحاث علماء الآثار وتحقيقاتهم من الواجب على كل مؤرخ ومحقق كما يستنير بها كل لغوي ومفسر . فكم معضلة تاريخية ولغوية حسمت بفضل هذا العلم . وكم من حوادث جاءت في كتب السلف بل وفي الكتب المنزلة فذهب الناس في تأويلها وشك بعضهم في صحتها ولولا علم الآثار الذي أماط عنها اللثام وأظهرها للعيان ملموسة محسوسة لقالوا عنها أساطير الاولين . أليس أشور والكلدان ومصر وفارس ويونان شهود عدل على جهود الذين اكتشفوا آثار تلك البلاد وبعثوا ذكرهم بعد أن كانوا نسياً منسياً ألوفاً من السنين .

لم يدوّن الأقدمون غير النفر اليسير الذي وصلهم من أخبار الشعوب القديمة وأغفلوا ذكر أكثر الأمم البائدة التي ذهبت أخبارهم بزوال أصحابها ولو اكتفينا بهذه النصوص المشوهة لما كنا أوفر حظاً ممن تقدمنا بمعرفة أخبار السلف . وبفضل هذا العلم نعرف اليوم أكثر أخبار هذه الأمم كما نعرف حوادث الامم في القرون الوسطى . وقد توصلوا الى معرفة ما كان عليه الانسان قبل عشرات الألوف من السنين يوم كانت الارض وطاءه وأديم السماء غطاءه يقتات بالنبات ويفترس الوحوش مع اننا نجهل اليوم ونحن في القرن العشرين كثيراً من عقائد بعض الشعوب المعاصرة وعاداتها ممن تقطن مجاهل إفريقية

وسواها من القارات الخمس ، ومن الانصاف أن لا ننكر فضل من نقلوا الينا أخبار السلف لان هذا الشيء اليسير هو الذي أثار في فئة من الناس حب الاستطلاع فدفعهم في هذا السبيل . وكانت هذه النصوص على علاتها نوراً يستضاء به ومرجعاً يستأنس به ، وعلماء الآثار أصدق الناس في هذه الروايات وان كانوا لا ينكرون وقوعها فهم لا يجزمون بصحتها الا متى عثروا على دليل من ذلك العصر يؤيدها . ولابحاث علماء الآثار ميزة جديرة بالاعتبار فهي في أكثر الاحايين تكون منزهة عن الاغراض والغايات والاهواء . وقد يخطيء الاثري في استنتاجه ولكنه لا يعتمد تشويه الحقائق لان همه الوحيد أن يحيي الماضي البعيد ويجعل المعاصرين كأنهم يعيشون في ذلك العصر وذلك المحيط . ومن منا لا يشعر بمثل هذا الشعور عندما يزور متحفاً أو معبداً أو أطلالاً قديمة . وكيف يمكنه أن ينكر الحقيقة ولسان حال هاته الامم البائدة تقول :

إن آثارَنا تدلُّ علينا فانظروا بعدَنا الى الآثار

لقي هذا العلم الحديث اقبالاً عظيماً في بلاد الغرب فعنيت حكوماتها به وأرصدت للمشتغلين به أموالاً طائلة ، وأنشأت له المدارس والمجامع العلمية أسوة ببقية العلوم وقد أبدت هذه الفئة فئة الاثريين رغم قلة عددها نشاطاً عظيماً ووضعت في مدة قصيرة كثيراً من المؤلفات القيمة المفيدة وأحيت كثيراً من اللغات القديمة المندرسة وحلت رموزها . وقد نال الشام قسطاً وافراً من هذه الابحاث فهي أول بقعة اتجهت نحوها الانظار وخصوصاً فلسطين لمكانة الشعوب التي استوطنتها منذ الزمن الاطول وأهمها الشعب الاسرائيلي وعلاقة الامم الغربية بكتابهم المقدس . فقد أوفدت أكثر حكومات الغرب بعثات علمية للتنقيب عن آثار سورية وأول بعثة رسمية وطئت بلاد الشام هي البعثة الافرنسية التي رافقت الحملة الافرنسية في سنة ١٨٦٠ .

يقسم التاريخ القديم في سورية كما في غيرها من البلدان إلى عهدين واضحين الاول عهد ما قبل التاريخ والثاني العهد التاريخي .

فالعصر الاول هو عصر الظران أو الطور الحجري ويقسم الى قسمين أحدهما حقبة الحجر المنحوت « Paléolithique » والآخر حقبة الحجر المصقول « Néolithique » وهو أحدث من القسم الاول وتختلف مدة هذا العهد بحسب الامكنة . وليس هذا العهد تاريخ حياة البشرية بل هي مرحلة من تقدم الجماعات الفكري والمادي وقد اختلف العلماء بتحديد أقدم تاريخ لهذا العهد فمنهم من يقول من « ١٠٠ الى ٢٠٠٠٠٠ » سنة ومنهم من يقول من « ٦ الى ٨٠٠٠ » سنة . تعتمد الفئة الاولى على تكوين طبقات الارض والهواء وتعتمد الثانية على نظريات دينية تأييداً لما جاء في التوراة عن تاريخ الخليقة فلا يمكننا أن نهمل نظريات علم طبقات الارض وقد ثبت أن طبقة الأرض كانت منذ مئات ألوف من السنين صالحة لحياة البشر كما أنه لا يمكننا إلا التسليم بما جاء في الكتب المنزلة « وهنا يبدأ دور علم الآثار على أن يوفق بين النظريتين والعلم لا ينافي الدين » .

لقد ثبت حتى الآن ان الانسان لم يكن منتشراً في أكثر أنحاء الأرض كما هو اليوم لأنها لم تكن جميعها صالحة لسكنى الانسان الاول فكان يكسو الجليد المرتفعات وتغمر المياه السهول ما خلا بعض السواحل والهضاب في القارات الخمس حيث أوى اليها الانسان . منها سيبريا والقفقاس وجزيرة العرب فكانت تمتاز هذه الاصقاع عن غيرها باعتدال هوائها وخصب أرضها ووفرة دواجنها وكانت سيبريا والقفقاس مأهولتين بجماعات الآريين وجزيرة العرب بجماعة الساميين ودام هذا الحال حتى طرأ على الأرض بعض الطوارىء الجوية فتقدم الجليد من شمال اوروبا

حتى جنوبها فاشتد البرد وكثرت الأمطار وارتفعت المياه فغمر الطوفان معظم السهول فهلك خلق كثير من البشر فتفرق من بقي من هذه الجماعات فراراً من الموت تلتمس أرضاً تقيها من الخطر فنزح قسم من سكان سيبيريا والقفقاس نحو الجنوب فوصل جماعات منهم إلى سورية وكانت سهول سورية يومئذ مغمورة بالماء الا قليلاً منها وبقيت سورية زمناً طويلا مأهولة بجماعات الآريين ثم حدث في أثناء إقامتهم بعض الزلازل وتقلصٌ في القشرة الأرضية . فجاءت هذه النقمة نعمة على سورية اذ انشقت الجبال وانفتحت الوديان فتسربت منها المياه للبحار واتخذت الأنهر لها مجاري ثابتة فجفت الأرض وأصبحت سورية قابلة للسكنى .

وقد وصلتنا أخبار هؤلاء القوم من آثارهم التي خلفوها لنا في الكهوف التي سكنوها ومما أودعوه من مصنوعاتهم قبور موتاهم . وثبت أن أشكال ذلك الانسان الصياد لا تختلف عن انسان اليوم وهذا يبطل ما علق في بعض الاذهان من أن الانسان القديم يفوقنا بكبر جسده مع أنه كان معتدل القامة يسكن الكهوف الطبيعية ويلبس الجلود ويقتات من النبات والصيد فبقي زمناً طويلاً يجهل المعادن . واحتياجاته محدودة جداً لا تتعدى قطع الظرّان والصوان التي تشبه رؤوس الحراب والسكاكين والمناشير والفؤوس كان يستعملها للدفاع عن نفسه وللصيد ثم تدرج في الرقي فتغلب على الحجر فصار يصقله ثم استخدم العظم فنقشه ثم اكتشف صنع الخزف وهو أول ابتكار صناعي عرفه الانسان . وتشبه قبور هؤلاء القوم وصناعاتهم صناعات معاصريهم أو أسلافهم في غيرها من البلدان في القارات الخمس وهذا ما يؤيد هجرة الانسان وتنقل هؤلاء الجماعات عقب الطوارىء التي فاجأت الارض وغيرت أوضاعها الجغرافية . وقد حلت في جزيرة العرب طوارىء طبيعية عقب التي

حلت في سورية بزمن طويل قاسى أهلها الشدائد من جدب الأرض وقلة الامطار فنزحت جماعات الساميين نحو الشمال لأنه المنفذ الوحيد لهم إذ البحار تكتنفها من جهاتها الثلاث فسلكوا سواحل خليج فارس حتى نزلوا العراق . ثم توغلوا في شمال سورية ثم في جنوبها حتى وصلوا الى بلاد الحبشة . وقد تغلبت جماعات الساميين في برهة ألفي سنة على جميع سكان تلك البلاد حتى أصبحت سامية اللغة كما عرفها التاريخ . ونشأ من مزيج هذين العنصرين عهد جديد يمتاز برقيه ومدنيته . وتفرق هذا المزيج بطول الزمن الى شيع وشعوب عرفنا منهم منذ الألف الثالثة قبل الميلاد الآشوريين والبابليين في العراق والكنعانيين في فلسطين والآراميين في سورية الداخلية والفينيقيين في سواحل لبنان والعرب في جزيرة العرب فأصبح لكل منهم حضارة ولغة يتنازعون بينهم السيادة رغم انهم يمتون جميعاً إلى أرومة وأصل واحد .

وما هجرة بني اسرائيل من صحراء التيه إلى فلسطين وغزوات العرب في صدر الاسلام للبلاد الدانية والقاصية سوى مثال قريب العهد لتلك الموجات البشرية التي غشيت البلاد . ولم ينس هؤلاء الشعوب رغم تقادم العهد على استيطانهم هذه البلاد انهم دخلاء فيؤكد المؤرخون الأقدمون أن الفينيقيين جاؤا من جزيرة العرب وروى هردوتس « Herodote » المؤرخ اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد أنهم انحدروا اليها من سواحل البحر الأحمر ويقول استرابون « Strabon » إن أصلهم من خليج فارس كما كانوا يدعون . وكذلك يتذكر الكنعانيون نزوحهم من مدينة اور من بلاد آشور في سني الألفين قبل الميلاد . وان تكن هذه الشواهد حديثة العهد بالنسبة للحوادث التي سردناها غير أنها تشير بوضوح إلى اتصال أخبار السلف بالخلف والشعوب السامية أكثر الشعوب تمسكاً بأنسابها وحفظ أخبارها ، وقد برهن العلم الحديث على فائدة هذه الروايات لاستنتاج الحقائق منها وهكذا وصل الينا غيرها من الأخبار .

أذكر منها روايتي الطوفان وسيل العرم . فقد عثروا في خرائب نيبور من بلاد آشور على وثيقة تاريخها من نحو « ٢٢٠٠ » سنة قبل الميلاد أي قبل هجرة ابراهيم عليه السلام بمئتي سنة وفيها وصف لطوفان اتصل بهم خبره وخلاصته : انه كان انكي « Enki » اله الماء وزوجته نينلا « Ninella » يحكمان البشر والسعادة سائدة في العالم والانسان يأمن من الموت والأمراض والآفات فنقم انكي « Enki » على عباده لمخالفتهم تعاليمه وعزم على إبادتهم بطوفان فدعى أحد عباده الصالحين واسمه اوتو « Uttu » وأسرَّ اليه بالأمر وطلب منه أن ينجو بنفسه على سفينة وهكذا كان الأمر فهلك جميع البشر الا صاحبه أوتو « Uttu » فتناسل منه البشر ثانية ولكنه حرم البشر السعادة التي كانوا يتمتعون بها من قبل وقدر على الانسان أن يسعى ليعيش وعرضه للأمراض وأخطار الفناء . وهكذا خرج الانسان بذنبه من النعيم الى الجحيم ، وما أشبه هذه الرواية بطوفان سيدنا نوح . وقد اتصل بسكان جزيرة العرب حادث آخر وهو سيل العرم وليس هذا السيل الا إحدى الكوارث الآنفة الذكر لأنه لا يُعقل أن يكون في بلاد سبأٍ سدٌّ يجمع هذا المقدار من الماء وخصوصاً مياه جزيرة العرب قليلة شحيحة . والأرجح أن العوامل التي دحرت الانسان القديم من الشمال الى الجنوب هي نفسها التي أرغمت جماعات جزيرة العرب على أن يهجروا بلادهم الى الشمال . وما سيل العرم إلا طوفان حصل لمّا اشتدت حرارة الهواء في العصور القديمة فأذابت الثلوج المتراكمة منذ ألوف السنين في قمم جبال جزيرة العرب ومرتفعاتها فهكذا كان سيل العرم في بلاد سبأٍ فتفرق سكانها في كل البلاد أيدي سبأ .

وقد دامت هذه الحوادث التي استعرضناها في أسطر عشرات الألوف من السنين كان يتدرج الانسان خلالها نحو الرقي وساعده على ذلك استقرار حالة الأرض الطبيعية في الألف العاشرة فثابر على خطة الابتكار

والعمل اتباعاً لسنة تنازع البقاء فتوفرت لديه المدات وجعل لنفسه مسكناً ونسج ملابسه واستخدم الحيوان واستثمر الأرض فأصبح صانعاً وفناناً وفلاحاً بعد أن كان ألوفاً من السنين متشرداً صياداً فانتقل في آخر العهد الحجري من البداوة الى الحضارة فصار قسم منهم يتعهد الأرض وقسم يعتني بتربية المواشي وهكذا تكون صنفان من البشر بدو وحضر . رعاة ينتقلون بمواشيهم من بقعة الى بقعة ارتياداً للماء وانتجاعاً للكلأ وفلاحون يقيمون بمزارعهم يعملون في الارض ويستغلونها .

وقد أبقت لنا جماعات عصور قبل التاريخ كثيراً من آثارهم في سورية وجدت في الكهوف التي كانوا يأوون اليها أو في قبور موتاهم ويمكن منها تتبع رقي الانسان وتدرجه في الحضارة وليست هذه الآثار تماثيل ونقوشاً أو أواني نفيسة . بل هي شظايا من الظران والصوان المنحوت والمصقول أو عظام حيوانات زينتها أيدي الصانع أو خزف بسيط وقبور تلك الشعوب البائدة وهذه الآثار كانت صنعتها تتحسن كلما اقترب الانسان من العهد التاريخي . ورغم قلة المشتغلين من العلماء بعصر قبل التاريخ في سورية فقد اهتدوا الى أماكن عديدة وجد فيها من آثار ذاك الانسان في عدلون . ونهر ابراهيم . وانطلياس . ونهر بيروت . وطرابلس . ونبع نهر الكلب والمامالتين . وتبنة . والبقيعة . وتعناك . ومجدو . والكرمل . واذرعات . وجرش وعمان . والكرك . ووادي موسى . والقدس . وفي الفلاة الممتدة من جيرود حتى دير الزور وفي كثير من الاماكن في سورية الشمالية .

وطال أمد العهد الحجري في سورية أكثر منه في مصر والعراق ولهذين القطرين فضل كبير في تحضير جماعات سورية والعالم أجمع . فقد شيدا بين سنة « ٤٠٠٠ و ٣٠٠٠ » قبل الميلاد عمراناً عظيم الشأن بينما كانت سورية وبقية العالم تتخبط في ظلمات الجهل والامية وقد ارتقت سورية الى مصافها في الالف الثالثة قبل الميلاد لما تقوى عليها العراق وحمل اليها معارفه ومكتشفاته وأهمها المعادن والكتابة . والعصر التاريخي

ينتهي في كل أمة من يوم وقوف أهلها على الكتابة لتسجيل أخبارهم وتدوين وقائع عصرهم . وقد دفعت سورية ثمناً باهظاً لحصولها على حضارة مجاوريها وهذا الثمن هو حرمانها استقلال جماعاتها . فمنذ ذلك التاريخ وسورية تنتقل من يد مسيطر الى آخر حتى يومنا هـذا . وكأن موقع سورية الجغرافي وخصب أرضها وكثرة غاباتها هو سبب بلائها في حلقة الاتصال بين الغرب والشرق ومنفذ لكليهما . فمنها كانت تستورد مصر والعراق ما يعوزهما من الخشب لبناء دورهم وصنع عمارتهم البحرية .

وكانت سورية في أكثر أدوارها التاريخية ساحة حرب يتنازعها العراق ومصر ويطمع بها الحثيون واليونان والفرس والرومان كما جاءها العرب والترك من بعد . وقد ترك كل من هذه الشعوب أثراً من حضارتهم وعوائدهم . ولا يمكن معرفة تاريخ سورية الا بالرجوع الى وثائق تلك الشعوب ورقمها وقد امتزج تاريخ سورية بتاريخ هذه الشعوب ولا يمكن عزله عنه لعلاقته بحوادث الامم التي كانت تدين لسلطانها . ولذلك نرى في سورية مدنية ظاهرها مزيج من مجموع حضارات مختلفة يتعذر لأول وهلة تمييز بعضها عن بعض وتتبع سير تطورها . ومع أن هـذا الدور يدعى بالعهد التاريخي فهو بالحقيقة اعقد مما سبقه من الادوار على كثرة المصادر والوثائق . وقد أصبح في سورية من جراء هذه التجزئة والمنازعات السياسية دويلات مختلفة بلغاتها وعوائدها وعقائدها أهمهم الكنعانيون والآراميون والعموريون والفينيقيون وكثير غيرهم من طوائف حدود سورية الشرقية والجنوبية . وقد خضعت هذه الدويلات لسلطة الآشوريين والبابليين والمصريين والحثيين وفارس واليونان والرومان . وكانت دمشق أقوى ممالك الآراميين . ويتعذر على المؤرخ أن يسرد حوادث كلٍ من هذه الأدوار لو لم يُسعفه الأثري ويرشده في هذا المسلك الوعر .

وحوالي سنة « ٢٠٠٠ ق . م . » كان هؤلاء الساميون بلغوا درجة من الحضارة لا يستهان بها . معظمها مستمد من مصر وبابل . وقد شغف

الفينيقيون بحب البحر ومهروا بعلم الملاحة حتى سيطروا على البحار والأسواق التجارية في جميع سواحل البحر المتوسط فحملوا سلعهم وتعاليم الحضارة الشرقية الى أقصى بلاد أفريقيا الشمالية واسبانيا وجنوبي فرنسا وجزر صقلية وقبرص وكريت وقد استوطن هذه البلاد جماعات من الفينيقيين وأسسوا فيها حكومات كان لها شأن عظيم في التاريخ .

ولم يبق لنا الزمن الا النذر اليسير من آثار شعوب سورية السامية في العصور القديمة لأن أسلافنا كانوا يبنون بيوتهم وهياكلهم من الطوب المجفف بالشمس كما هو الحال حتى اليوم في بعض المدن والقرى السورية ولا يخفى أن هـذا النوع من البناء لا يعمر طويلاً فتنهار البيوت برمتها فيعمد أصحابها الى بناء غيرها على أنقاضها وجرى الناس على هذا الأسلوب من البناء قروناً متوالية تكونت منها تلال اصطناعية وهـذه التلال تعد بالمئات في سورية : كتل أريحا في فلسطين وتل الصالحية في الغوطة وتل الدرخبية في وادي العجم وتل النبي مندو وتل المشرفة بجوار حمص وتل جرابلس على الفرات وقد حفظت لنا الأيام في بطن هذه التلال والقبور كثيراً من الآثار التاريخية المهمة ، وقد عثر المنقبون على كثير من تواريخ الأسر والرسائل والصكوك والحسابات والمذكرات وغيرها من الرقم ووجدوا أيضاً كثيراً من الأثاث والأواني الجميلة المزخرفة والرسوم المنقوشة . وأما البنايات الأثرية القديمة مثل بعلبك وجرش وتدمر وغيرها فهي من العهد الروماني فقط ولكنها شيدت على أنقاض هياكل ومدن أقدم منها عهداً .

ولقد تبين من الحفريات التي أجريت في سورية ومن الآثار التي اكتشفت فيها — ان آثارها تختلف عما وجد في البلاد المجاورة لها ولا يرجى أن نعثر في هذه البلاد على آثار تثير بجسامتها إعجاب العامة قبل الخاصة كما هو شأن آثار مصر وأشور والفرس . والسذاجة في الصناعات تغلب على السوريين منذ القديم وهـذا ناشئ عن طبائعهم ومعتقداتهم

فالسوري في جميع أدواره التاريخية يميل إلى الساذج وهذا يظهر في صناعاته وفلسفته الدينية وتتجلى في هذه البساطة مواهب السوري الفنية فقد جمع بين الساذج والجميل فأحسن الصنع وأبدع . وتقل الآثار المنقولة النفيسة التي اكتشفت في سورية بالنسبة إلى ما وجد في غيرها من البلدان المتجاورة . وهذا القليل يشهد ببراعة الصانع السوري وذوقه السليم وهو ذو مكانة بين أقرانه من فناني بقية الشعوب . وليس معنى قلة العاديات عدم انتشارها في البلاد بل لأنها لم تصل الينا لاسباب وعوامل شتى . أولاً : لأن أكثر تربة سورية رطبة لا تحفظ ما يودع فيها . وثانياً : لأن السوريين قلما يودعون مدافن موتاهم نفائسهم كما هو شأن المصريين وغيرهم من الأمم القديمة بل يكتفون بالأشياء البسيطة كقوارير الشبه أو الخزف وشيء من أدوات الزينة من الفضة أو النحاس أو الذهب أو قطع سلاح وإذا أضفنا إلى خلو القبور من الأعلاق ما قد كتبه اشمو نزار ملك صيدا على تابوته مخاطباً به نباشي القبور ناصحاً لهم بأن لا يهتكوا حرمته مؤكداً أن لا ذهب في قبره ولا فضة — تدركون سرّ ندرتها بين أيدينا فاذا كان هذا حال ملوكهم فما بالك بالرعية . وخلو القبور منها هو حجة لسورية لا عليها ودليل على سمو عقيدة سكانها ونضج فكرتهم منذ القديم . لأن السوري كبقية الشعوب السامية يغلب عليه الاعتقاد بأن الجسم مادة تتلاشى مع الزمن ليست جديرة بالاكرام الذي يبالغ به غيرهم من الشعوب ومع هذا فقد انتشرت في سورية عادة وضع بعض الاشياء في القبور وذلك بمؤثرات خارجية واقتباس عادات الغالب لأن سورية كانت في أكثر أدوار تاريخها خاضعة لسلطان أجنبي كما ذكرنا آنفاً .

سورية مهد ثلاث ديانات يدين بها اليوم معظم البشر وهذه الديانات لم تكن ابنة ساعتها بل هنالك عوامل مهدت لها السبل مدة قرون عديدة قبل ظهورها ويهم العالم أن يعرف تطورها قبل نشوئها وهذا ما يزيد في مكانة آثار سورية ويجعل اقبال العلماء عليها أكثر من سواها لعلاقتها

الكبيرة بنظامنا الاجتماعي الحاضر . وقد أدركت جمعية الامم هذا الامر واحتاطت له خوفاً من المزاحمة أو استئثار دولة بهذه الآثار دون سواها . ولذلك اشترطت في المادة الرابعة عشرة من صك الانتداب أن يكون النظام الذي سيوضع لحماية العاديات مستمداً روحه مما يدعو إلى التنشيط أكثر منه الى التثبيط كما أنها اشترطت على الحكومة المنتدبة عند منحها إجازات بالحفر أن لا تتصرف بشكل يرمي إلى حرمان علماء أي شعب كان من تلك الاجازات دون أسباب موجبة .

***

آثار سورية

إن معظم البنايات الاثرية التي نعرفها اليوم ويؤمها الزائرون من جميع أنحاء العالم مثل بعلبك وتدمر وجرش وبصرى الشام ومادبا هي حديثة العهد بالنسبة لقدم حضارة سورية ويغلب عليها تأثير الفن اليوناني والروماني والبيزنطي وقد ثبتت هذه البنايات على طوارىء الايام لان بناءها من الحجر الصلب المنحوت بخلاف البنايات التي قبلها فقد درست لانها كانت من الطوب المجفف وهذه البنايات هي معابد وهيا كل ومدن لها شهرة عالمية لانها بالحقيقة احدى معجزات الفن المعماري وهي في غنى عن كل وصف وقد برع السوريون بالبناء وكانت روما تستدعيهم لتشييد بناياتها العامة .

وفي سورية بقايا بنايات أثرية لها أهمية تاريخية عظيمة منها منبج من أقضية حلب وقد أطلق عليها اليونان اسم « Hierapolis » نسبة لا ُراه « Aera » المعبود الاشوري وجاء اسمها « Mappigu » في الوثائق الآشورية وفي هذه البلدة أقدم معبد سوري وكانت هذه المدينة مقدسة يقصدها الحجاج من جميع انحاء سورية وقد كتب لوسيانوس المؤرخ الآشوري الاصل كتاباً في هذا المعبد وطقوسه الدينية وشعائره وحكاية بنائه وأسبابها ونسب بناءه إلى « Stratonice » زوج ملك أشور . كما انه عقد في

كتابه فصلاً في قدم مدينة جبيل الواقعة على طريق بيروت - طرابلس ووصف عبادة أهلها لأدونيس اله الانتاج وقد أيدت الحفريات الأخيرة قدم هذه المدينة فقد عثروا فيها على معبد قديم وجدوا تحت بلاطته عدداً من الاواني والادوات زبر على بعضها اسم الفرعون « Mycerenus » من السلالة الرابعة وباني احد اهرام مصر الكبيرة بين سنة « ٢٩٠٠ و ٢٧٥٠ » قبل الميلاد واسم الفرعون « Ounas » من السلالة الخامسة واسم « Pepi II » الثاني من السلالة السادسة ووجدوا أيضاً غيرها من الادوات المصرية أحدث عهداً من الاولى وهذا يؤيد علاقة مصر بالفينيقيين قديماً وكان المصريون يطلقون اسم « Keben » على مدينة جبيل حتى في عهد السلالة الثانية عشرة وذُكرت بهذا الاسم في الرقم المصرية منذ سنة « ٣٠٠٠ » قبل الميلاد وكان المصريون يستوردون من جبيل الخشب اللبناني لصنع سفنهم وربما كانوا يصنعونها في نفس مدينة جبيل وقد أطلق المصريون اسم « Kebenit » على اسطولهم الضخم نسبةً إلى « Keben » وهي جبيل كما ذكرنا . وقد عثروا أيضاً على بعض مدافن ملوك جبيل وأمرائها منهم أحرام المتوفى في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وقد نقشت على جوانبه صورة الملك يتناول القرابين من أتباعه وبعض الشعائر الدينية وهو قائم على أربعة اسود ومما يزيد في شأن هذا الأثر الكتابة الفينيقية التي زبرت عليه وهي أقدم كتابة أبجدية عرفت حتى اليوم وهذه ترجمتها « عمل هذا الارران « أي التابوت » إفسبعل بن أحرام ملك جبيل لابيه كي يكون مقره الأبدي فاذا ناصب ملك من الملوك أو حاكم من الحكام العداء لجبيل وأخرج هذا التابوت من تحت البلاط فيكون خاتور خصمه فيدك عرش ملكه ويعم الخراب جبيلاً فيما إذا محا هذه الكتابة ... » وآثار جبيل هي أهم ما عثر عليه حتى اليوم في سورية من الوجهتين الفنية والعلمية ويحق لمتحف بيروت أن يفاخر بها .

ومن أعجب ما ذكره لسيانوس المؤرخ عن عبادة أهل جبيل لأدونيس أنهم كانوا يزعمون أن أدونيس هذا خرج للصيد في جبال لبنان فوثب عليه خنزير وافترسه عند نبع نهر ابراهيم حيث نرى إلى الآن نقوشاً ورسوماً تشير إلى هذا الحادث وقد أطلقوا على هذا النهر اسم أدونيس تخليداً لذكر معبودهم . ولكن موت أدونيس لم يكن ابدياً بل كان يموت في فصل الخريف من كل سنة ويبعث في ربيعها وكانوا يقيمون في ربيع كل سنة مأتماً عليه تلبس نساؤهم ثياب الحداد ويجلن في شوارع جبيل باكيات يضربن صدورهن ويشققن جيوبهن حزناً عليه ولكن في اليوم الثاني ينقلب الترح فرحاً اذ يُبعث أدونيس ويرتفع إلى السماء فتقام في المدينة معالم الزينة والسرور فيحلق النساء شعور رؤوسهن ومن لا تقدم على هذه التضحية تكفر عن سيئتها باباحة جمالها لكل طالب طول هذا اليوم ويخصص ريع هذا العمل الشائن لأعمال البر والتقوى ولم يكن هذا العمل الفظيع يستنكر عندهم بل اللواتي يقدمن عليه ينلن حظوةً كبيرة لدى مواطنيهم . وكان الفينيقيون يعدون أعمال العهارة والفجور أعمال تيمن يتقربون بها إلى أربابهم . وقد عثر المنقبون على عدد من الكهوف التي كانت تجري بها مثل هذه المخازي في بلاد فينيقية . ومن الاعمال التي كانت تقشعر لها الجلود عادة تقديم الضحايا البشرية فكان كل منهم يقدم ابنه البكر ضحية لاربابهم ليحصل على بركتهم أو دفعاً لخطر داهم وهذه العادة الفظيعة قديمة جداً في سورية وقد دامت حتى العهد الروماني . وبنو اسرائيل هم أول من استفظع هذا الامر وحرموه واستعاضوا عنه بالختان وهو فداء الكل بالجزء .

وفي دمشق أثرٌ لا يقل مكانة عن غيره وهو الهيكل بالأمس أو جامع بني أمية اليوم . ونرى كثيراً من الكنائس والجوامع شيدت على انقاض هياكل ومعابد قديمة . وتبدأ أقدم معلوماتنا عن هذا الهيكل من القرن

العاشر قبل الميلاد إلى العهد الذي تلاشت فيه الوثنية من هذه البلاد وكان يعبد فيه الاله « Hadad » أو « Ramman » ورفيقته « Atargatis » وحداد هذا عند الآراميين بمنزلة « Jupiter » و « Zeus » عند اليونان والرومان وقد ورد ذكر هذا المعبد مرتين في التوراة في حديثه عن شفاء نعمان وكانت شهرة هيكل دمشق عاصمة مملكة ارام عظيمة جداً حتى ان اخاز « Achaz » ملك بني اسرائيل لما جاء إلى دمشق للسلام على « Tiglathphalazar » ملك اشور دهش من معبدها وأخذ مقياس مذبحها لكي يبني مثله في بيت المقدس وهيكل دمشق هو في سورية الوحيد الذي احتفظ بهندسته القديمة رغم الطوارىء التي نزلت به والايدي التي تعاقبت عليه وتقسم جميع المعابد السامية السورية إلى قسمين : الحرم وهو مختص بالكهنة ولا يقصد الا في أيام الزيارات والقسم الخارجي وهو مباح للعوام . ونرى هذين القسمين واضحين حتى اليوم في هيكل دمشق والحرم هو المسجد الآن والقسم الخارجي هو السور الذي يحيط به ونري احد أبوابه عند مدخل باب البريد واقدم آثار الهيكل جدران المسجد الخارجية الغربية والشمالية وهي على طراز بناء الجدر المصرية القديمة وقد تحول هذا الهيكل إلى كنيسة في عهد « Théodose » في سنة « ٣٧٩ — ٣٩٥ » للميلاد وبقي كذلك حتى الفتح الاسلامي .

وقد كشفت الحفريات آثار قيمة في تل النبي مندو وهي قديش القديمة أحد حصون الحثيين وثبت هذا الحصن طويلاً أمام هجمات المصريين حتى استولى عليه الفرعون سيتي الاول في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ودك حصونه وقد خلد انتصاره بنصب محفوظ في متحفنا نقش عليه رسم الفرعون يتناول القرابين من أربابه وأرباب الحثيين المغلوبين . وقد عثر الكونت « De Mesnil » منذ سنوات على مدينة قطنا القديمة في تل المشرفة شرقي حمص وهذه المدينة كانت زاهرة في القديم فعثر فيها على

قبور ملوكها ووجد فيها آثار لها شأن تاريخي عظيم يرجع معظمها إلى النصف الاول من الالف الثانية قبل الميلاد . وفي شمال سورية كثير من المدن التي سكنها الحثيون زمناً طويلاً وسيكون لآثار هذا الشعب المجهول مكانة عظيمة متى حلت رموز رقمه وفهمت لغته .

لا يمكننا في ساعة واحدة الا التلميح إلى آثار سورية اذ كل أثر منها يستغرق ساعات . وقد سبقنا الغربيون وكتبوا المجلدات عنها فاليهم يرجع الفضل بكشف هذا الماضي المجيد . وآثار سورية هي أحق بعناية أبنائها فتعود علينا بفوائد مادية وأدبية لا تقدر .

دمشق : شباط سنة ١٩٢٩ .

لغة شوقي

للأستاذ عز الدين التنوخي

بلغ في القرن الماضي انحطاط البيان العربي ، شعره ونثره ، أسفل دركاته في جميع الأقطار العربية ، ولولا من تداركه من أمراء الشعر وزعماء النثر الذين تعهدوا روضه بالحرث والتشذيب والتهذيب لما اكتست لغتنا حلتها العصرية الزاهية ، ولما عادت إلى مكانها السالفة ، فعدت من اللغات الحية السامية ، ولما ظهر في مصر والشام والعراق من الشعراء المتصرفين في فنون الشعر الحي ، والكتاب الأبيناء من أعانوا من تقدمهم في الأخذ بناصر هذه اللغة العذبة المباركة فأعادوا إليها شبابها بما أحيوه من آدابها ، وإلا فإن سخنة عين الأدب ما كان عليه البيان منثوره ومنظومه قبل الشيخ محمد عبده وإبراهيم المويلحي والبارودي وصبري وحافظ وشوقي : تعابير سوقية مبتذلة ، وكلف بالصناعة وشغف بالتصنع ، وألفاظ لا منخولة ولا معسولة ، ومعانٍ سقيمة مرددة مملولة ، والغالب مع ذلك على النثر انطباعه على سجع ليس تحته رجع ، ولنا أن نعتبر البارودي هو المهلهل الثاني ، لأن الأول قد هلهل الشعر وقصّده ، والثاني قد أنشه وجدده ، وعرض للناس أسلوبه الجزل المستقطر من أساليب البحتري والمتنبي وأبي تمام والرضي وصريع الغواني وسائر من اختار لهم في مختاراته من حذاق القريض ورواض القوافي ، وقد حذا صبري حذوه في تنقيح الشعر وتنويقه ، إلا أنه قد فاقه بتقصيره وترقيقه ، وقد باراهما حافظ وأخذ إخذهما في شد أسر الشعر وتجويد حبكه ، وأما راحلنا الكريم فقد كان

بادي الرأي يخشب الشعر في شبيبته ، بينا كان حافظ يبالغ في تنقيحه وتحكيكه ، فكان المولعون يومئذ بصناعة الشعر يفضلون في ذلك حافظاً على قرينه شوقي ، وأما المولعون بقوة الشاعرية وسمو المعنى ، وسعة الخيال وخلود الحكمة والأمثال وبعد الشعر عن التعسف وقربه من الطبع والطلاوة فكانوا في ذلك كله يفضلون شوقي على خدينه ، وكأن لسان حالهم يقول :

إذا صح أن شوقياً يخشب الشعر وحافظاً ينقحه ، فان خشب شوقي خير من تنقيح حافظ ، كما قيل مثل ذلك في جرير والفرزدق ؛ والحقيقة أن شوقي ما كان يخشب الشعر في شبيبته إلا لسرعة خاطره ، وفيض قريحته التي كانت تحمله على قول الشعر على البديهة لا يكدّ فيه طبعاً ولا يسهر عليه جفناً ، مع أنا رأيناه بعد كهولته يعنى بتنقيح لغة شعره حتى أوشك أن يجاري في ذلك أخاه حافظاً ، ذلك الذي كاد لفرط تنقيحه وتحكيكه للشعر يشبه الحطيئة الذي يقول : « خير الشعر الحولي المنقح المحكك » ، وبذلك حق لشوقي أن يقلد إمارة الشعر بمبناه ومعناه معاً ، وقد كان العرب كما ذهب إليه صاحب الوساطة « إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته ، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة . ولا تحفل بالابداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض . » وشوقي في الكثير من ذلك وبوفرة إنتاجه ، وازدياد شعره شباباً وفتوة بازدياده شيخوخة وضعف قوة يتفوق على سائر المعاصرين .

تخرج شوقي في اللغة على الأستاذ النابغة المرصفي صاحب الوسيلة ، وكان أحب الشعراء إليه — كما أجاب به سائلاً — هو المتنبي قال ما نصه : « وأنا أعده أستاذي الأول ثم يلي المتنبي ابن الرومي ، وأحب شعراء الغرب إليّ فكتور هوغو ودي موسه الذي لا أمل القراءة فيه » ؛ ومن

ذلك نستنتج أن لغة أمير الشعراء قد تأثرت كل التأثر بلغة نبي الشعراء أبي الطيب المتنبي ، الذي كان يذكره في شعره قائلاً :

ولو مشت بي الليالي تحت كوكبه غادرت أحمد نسياً وابن حمدانا

وتأثرت بعده بلغة ابن الرومي ، ثم بلغة من عارضهم من فحولة الشعر وصاغة القريض كالبحتري الذي عارضه في سينيته ، والحصريّ في داليته والأبوصيري في البردة والهمزية وابن زيدون في أندلسيته النونية ، وأمثالهم ممن يمر كلامهم العذب على الآذان مر الصبا على عذبات الأغصان ، وإنما تأثرت لغة شوقي بمعارضة قلائدهم المشهورة لأن المعارضة تدعو إلى المضارعة ، فان كان المعارَض جيد الحبك نقيّ المستشف اقتبس المعارض ذلك منه طبعاً وارتاض على طريقته ، وإن كان المعارَض رديء السبك ، ضعيف التأليف متجافياً عن مضاجع الرقة ومتجانفاً عن مذاهب السلاسة أثرت لغته بمقدار زمن المضارعة والتقليد ، ذلك أن العبارة السقيمة أعلق بالنفس كما ذهب إليه الجاحظ من العبارة القويمة ، وأسهل مراساً وأهون اقتباساً ، والحقيقة أن المتأمل في شعر شوقي وأسلوبه وتعبيره وتركيبه ، يوقن أنه خلاصة أساليب فحولة القريض ، هذا في الشعر ، وأما النثر فقد كان يعجبه أسلوب ابن خلدون كما يظهر ذلك من شعره ، وتروقه لغة المبرد في كامله ، قال في تحليته لكتاب فتح مصر الحديث لحافظ عوض :

لغة الكامل في استرساله وابن خلدون إذا سجع وصابا

ولغة المبرد امتازت بمتانتها وابن خلدون بطلاوتها ، فشوقي على ذلك تعجبه لغة المجودين من أمراء الصناعتين وإن كان لا يحسن استرسالهم إلى تكلف في سجع يرد الطبعُ كثيراً منه ، ولا يعجب بلغاء الكتاب المترسلين .

إن الشعر على مذهب شوقي لا يسمى شعراً ما لم يكن عاطفة وحكمة وذكرى ، فاذا ما نحن حللنا شعر ديوانه ، وأنعمنا النظر في أسلوب تفكيره وبيانه ، حكمنا بأن ذكراه وعاطفته الذائبة في شعره الوجداني قد قويتا فيه بتأثره بشعر أبي تمام والرضي وابن الرومي والبحتري وبشار

ومهيار وأضرابهم ، وأن حكمته التي أكثر منها في شعره ، وكثيراً من أساليب بيانه قد احتذى فيها طريقة أستاذه الأول أبي الطيب ، كما قال في حكمة الشعر :

والشعر ما لم يكن ذكرى وعاطفة أو حكمة فهو تقطيع وأوزان

ومن الأمثال الدالة على تأثير المتنبي في أسلوب شوقي قوله مثلاً :

ولا تبال بشعر بعد شاعره قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

وشوقي يقول محتذياً أستاذه :

ولا تبال بكنز بعد مبسمه أغلى اليواقيت ما أعطيت والدرر

والمتنبي يقول في ابن العميد :

عربي لسانه فلسفي رأيه فارسية أعياده

وتلميذه شوقي يقول في الخديوي سعيد :

عربي زمانه عمري عهده فيه رحمة ووفاء

وانظر الى قول شوقي في حور دمر والهامة :

والحور في دمر أو حول هامتها حور كواشف عن ساق وولدان

تجد أنه في تشبيه الحور بالحور وقد كشفن عن ساق ينظر إلى قول مهيار في الأشجار :

وعزت فصانت سوى ساقها وما إن أباحته إلا اضطرارا

كشمر عنه جلابيبها لمادته أن يخوض الغمارا

ثم انظر إلى تأثره بشعر المعري مثلاً :

لعلاك المذكرات عبيد خضع والمؤنثات إماء

وأبو العلاء يقول من قبله :

للمليك المذكرات عبيد وكذاك المؤنثات إماء

وكذلك يقول شوقي :

ومهد المرء في أيدي الرواقي كنعش المرء بين النائحات

مثلما قال المعري من قبله :

وشبيه صوت النعيّ إذا قيـــس بصوت البشير في كل ناد

وألفت نظرك بعد ذلك كله إلى قول شوقي وهو يصف الأطلال المندثرة والرسوم المبعثرة :

فلا تستبين سوى قرية أجدُّ محاسنها ما اندثر

فتحسبه ينظر إلى قول أبي نؤاس في وصف الرسوم :

لمن دمنٌ تزداد حسن رسوم على طول ما أقوت وطيب نسيم

ولا نكران أن تأثر الشاعر بمن تقدمه من فحولة الشعر أمر طبيعي ، وقلما نجا منه أحد من رواض القوافي ، بيد أن من التأثر ما يبعث إليه التقليد والتقديس مما لا يدعو إليه مقتضى حال ، ولا يولده صدق عاطفة ، وهو ما يجب أن يتخلى منه الشعر المعبر عن الشعور ، ولولا مثل هذا التقليد الناشىء عن تقديسه لأساليب الجاهلية لجبَّ عن نفسه غيبة من تهجم عليه من المجددين ، ولأضعف من حجتهم عليه وإن كان فيها كثير من روح التحامل ، فلما انتقد عليه قوله :

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

قالوا : لقد كان بامكانه أن يشبب بريم مصري يرتع بين الجيزة وحلوان أو النيل والأهرام فيقول مثلاً :

ريم على المرج بين النيل والهرم أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

ولكنه جرى تقليداً على أسلوب من سبقه من شعراء الجاهلية الذين كانوا يتغزلون بما يعرفون في جزيرة العرب وما يشاهدونه ويشمرون به ، وأما من ترسم آثارهم من التابعين فأية علاقة لهم بالبان والعلم وكاظمة وذي سلم ، والروحاء ودارة العلم ، وأي ذكرى تهيجهم لذكرها ووصفها ، فان قلنا لهم إن شوقي ما تشوق إلى البان والعلم — وهو في هذا الموطن صحيح — إلا لاتصال هذين الموضعين بمدينة النبي العربي المبين ، قالوا : فما باله إذن لا يترك مثل هذا التشبيب في قصيدة يقولها في مشروع ملتز :

اثن عنان القلب واسلم به   من ربرب الرمل ومن سربه

وما باله يقول في قصيدة أخرى أنشدت في حفلة تكريم لمعتقلين يخرجون من السجن :

يحدجن بالحدق الحواسد دمية   كظباء وجرة مقلتين وجيدا

مقلداً في ذلك قول امرىء القيس وبينهما ما بينهما من القرون :

تصد وتبدي عن أسيل وتتقي   بناظرة من وحش وجرة مطفل

ألا سمعت ما قاله القاضي في وساطته : « ولا تلتفتن إلى ما يقوله المعنوبون في وجرة وجاسم ، فانما يطلب به بعضهم الاغراب على بعض ، وقد رأيت ظباء جاسم فلم أرها إلا كغيرها من الظباء ، وسألت من لا أحصي من الأعراب عن وحش وجرة فلم يروا لها فضلاً عن وحش ضرية وغزلان بسيطة ، وقد يختلف خلق الظباء وألوانها باختلاف المنشأ والمرتع ، وأما العيون فقلّ أن تختلف لذلك » .

وهذا لا يمنع أن شوقياً كان واقفاً على أسرار العربية عارفاً بفرائدها الفصحى ، مميزاً بين معسولها ومرذولها ، وأنه كان لا يستعمل الوحشي الغريب إلا إذا عز وجود الإنسي القريب ولم يقم مقامه في دقة التعبير وفي وضوح الدلالة والاشارة ، وكثيرا ما تجيئه للغريب المهجور ضرورة القافية كالقنا المشتجر ، وأقام الصعر ، والخميس الدثر أو ما هو أغرب من ذلك كجرضى وحضوضى والبوغاء بمعنى التراب والعماء بمعنى السحاب وهلم جرًّا ، ولعله لولا طول نفس القافية في طويلاته التي يختلف عدد الواحدة منهن ما بين مائة وثلاثمائة بيت تقريباً ، لولا ذلك لما اضطر إلى استعمال غريب القوافي المهجور ، وترك القريب الحبيب المشهور ، ثم إن من الموضوعات ما يلجيء الشاعر بطبيعته إلى الاسهاب ، وإنه ما زالت الصلة بالشعر القديم وثيقة العرى ، غير أن الخلود في الشعر بهذا العصر لا يكتب إلا للقصائر ، التي لا يلجأ فيها الشاعر إلى التعمل والضرائر ؛ على أن له من القصائر الخالدة لامتيازها بألفاظها المتخيرة ومعانيها العلوية

وعواطفها المتأججة ما يتغنى به العاشق الشاكي والصندوق الحاكي في الشوارع والمجامع .

وفي لغة شوقي مفردات عامية كان يتجوز في استعمالها إيثاراً لوضوح الدلالة ، وماذا كان عليه لو نقى لغته من أمثال طار بمعنى إطار الواردة في قوله يصف قرص الشمس طالعاً :

فسمت فكانت نصف طار ما بدا حتى أناف فلاح طاراً أكبرا

إذ لم ترد طار في الفصحى بمعنى إطار الذي هو حلقة الشيء وما أحاط به ومنه إطار الدف والمنخل ، وإطار البيت كالمنطقة حوله ؛ ومنها فعل حرق بمعنى أضرم فيه النار إذ لم يرد متعدياً إلا بالهمزة ، وأما الثلاثي فقد ورد بمعنى آخر وهو حك بعض الأسنان ببعض من الغيظ والحنق نحو حرق عليه الارم ومنه قول الشاعر :

نبئت احماء سليمى انما باتوا غضاباً يحرقون الأرَّما

ويقال : حُرِق الرجل مبنياً للمجهول فهو محروق اذا انفصلت حارقته وهي العصبة الجامعة بين رأس الفخذ والورك ؛ كما انه جاء بمعنى برد الحديد بالمبرد ، فالأفصح إذن أن يقال أحرق لا حرق كما يقال أغلق لا غلق ؛ ومن هذه الألفاظ العامية لفظة دهان بمعنى نقش في قوله :

صحب الزمان دهانها حيناً عهيداً بعد حين

فالدهان جمع دهن ، وقد وردت في قوله تعالى : « فكانت وردة كالدهان » ، قال الفراء : شبهها في اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه ؛ ويطلق الدهان على الجلد الأحمر ، فالدهان على ذلك لم يرد بمعنى النقش والطلاء Peinture ، إلا اذا اعتبرنا الدهان من قبيل المجاز المرسل لحلول الصبغ في الدهن وهو زيت الدهانين المعروف ، ولو قال : « صحب الزمان نقوشها » لاستقام الوزن ولأصاب شاكلة الفصحى .

ومنها لفظة المعية بمعنى الحاشية والبطانة في قوله :

قامت السراة به والمعية النجب

فان البطانة تحل محل المعية ويستقيم الوزن معها ، والمعية من مصطلح النحو بمعنى المصاحبة ؛ وأما استعمالها بمعنى البطانة فمن المصطلحات التركية لا العربية ، وفي استعمالهـا التباس ينافي التخصيص ولا حاجة في التعبير إليها .

بيد أن من الألفاظ العامية ما يحتاج إليها لعروبة مادتها ورشاقة صيغتها ، ولعدم ما يقوم مقامها كلفظة مرفع بمعنى كرنفال ، فقد استعملها شوقي في قوله يخاطب النفس :

كم بنت فيه وكم خفيت كأنه ثوب الممثل أو لباس المرفع

وإذا نحن أبينا أن نستعملها فقد حجرنا واسعاً وحملتنا الحاجة إلى استعمال « كرنفال » ، كما أنا لو لم نستعمل جريدة لاضطررنا إلى استعمال « جورنال » .

هذا وقد امتاز بما وفق إليه من حسن استعمال الأعلام الأعجمية مع المحافظة على رنة الشعر الموسيقية ، فتسمعه في مطلع قصيدة « طوكيو » التي وصف بها نكبة اليابان بزلزالها يقول :

قف بطوكيو وطف على يوكوهامه وسل القريتين كيف القيامه

وتصغي إليه في قصيدة أخرى يخاطب اللورد كرومر :

هل من نداك على المدارس أنها تذر العلوم وتأخذ الفوتبولا

فتجد للفظة الأعجمية في هذا البيت مع بشاعتها حسن الشيء بمحل محله ، ثم يذكر لك وزيرين انكليزيين ومدينة انكليزية في بيت واحد وهو :

واحمل بساقك ربطة في لندن واخلف هناك غراي أو كمبيلا

ومع أن الإكثار في الشعر من الألفاظ والأعلام الأعجمية الثقيلة مما ينافي لغة الشعر وسلاسته ، وهي أجمل حلاه ، ويجافي رنته الموسيقية وهي نشوة طلاه ، نجد الشاعر بحسن تصرفه وتأتيه وتلطفه يكاد يعرب لنا تلك الطمطانية حتى نسيغها ، من ذلك التلطف قوله :

أأم المالكين بني أمون ليهنك أنهم نزعوا أمونا

ولدت له المآمين الدواهي ولم تلدي له قط الأمينا

فقد أتبع البيت الأول المنتهي بأمون بالثاني المنتهي بالأمين ومن هذه القوافي التي أحكم وضعها قوله :

لك الأصل الذي نبتت عليه فروع المجد من « كرنارفونا »

خليليّ اهبطا الوادي وميلا إلى غرف الشموس الغاربينا

وخصا بالعمار وبالتحايا رفات المجد من « توتنخمينا »

وأما قوله في وصف ينبوع « كوك صو » بالاستانة فهو من مائه أعذب وتحيته منه أطيب :

تحية شاعر يا ماء « ككسو » فليس سواك للأرواح أنس

وله من التعابير ما اختص بها ، أو أحياها وأذاعها بشعره كقوله في دمشقيته المشهورة :

و « للحرية الحمراء » باب بكل يد مضرجة يدق

وأعاد « الحرية الحمراء » في قصيدة أخرى بقوله :

لا بد « للحرية الحمراء » من سلوى ترقد جرحها كالبلسم

وأورد هذا التعبير والحرية موصوفة بوصف آخر في قوله :

سلوا « الحرية الزهراء » عنا وعنكم هل أذاقتنا الوصالا

فهذا التعبير مما اقتبسه شوقي من أستاذه الأول أبي الطيب ، وله فضل إذاعته ، فقد قال المتنبي يصف الحدث بالحمراء لانصباغها بالدماء .

هل الحدث الحمراء تعرف لونها وتعلم أيّ الساقيين الغمائم

ومن تعابيره الشوقية المبتدعة قوله : « العلم بدريّ » ، فانه نسب العلم إلى بدر مشيراً إلى الأثر القائل : « إن أهل بدر مغفور لهم هفواتهم » :

والعلم بدريّ أحل لأهله ما يصنعون

ومنها كليوباترة المكايد ، وإزيس الندى ، وعيسى الشعور ، وعمرو

الأمور ، ونعته لأبي الهول بديدبان القدر أي حارسه ورقيبه ، وأمثالها كثيرة في شعره ، وآخر ما صنع من ذلك تلقيبه لصديقه حافظ بحافظ الفصحى .

ومن المفردات التي يظن أن شوقياً أول من استعملها ونشرها لفظة « مثّال » أطلقها على نحّات التماثيل وصناعته « المثالة » ولم تنتشر هذه الكلمة إلا بدافع الحاجة إليها ، ولا كتب لها البقاء إلا بمقتضى ناموس بقاء الأصلح ، ونحن أحوج ما نكون في هذا العصر إلى أمثال هذه المفردات المخصصة التي تعين على التدقيق في التعبير العربي ، وقد أحياها أو أذاعها شوقي باستعمالها ، واللغة تحيا بالاستعمال وتموت بالاهمال ، ومن أحق من الشاعر النابغة أو الكاتب البليغ بالأخذ بناصر اللغة بما يحييه أو يذيعه من مفرادتها .

وهذا لا يمنع اللغوي الضليع كشوقي أن يسجد في محراب اللغة سجدة السهو كقوله في أسواق الذهب يتحدث عن التزوج باثنتين : وإن التيس لو عقل ما اتخذ نعجتين ، فكيف يتزوج الفقير العاقل باثنتين ، والصواب أن يقول : ما اتخذ عنزتين ، إذ التيس ذكر المعزى لا الضأن الذي يطلق الكبش على ذكره والنعجة على انثاه .

ومن أبلغ من عني بلغة شوقي ونقدها في مصر محمد المويلحي ، وفي الكثير مما نقده ما يدل على ذوق سليم وملكة في الأدب قوية مثال ذلك قول شوقي :

وقطعة خد بينما هي جنة ... لعينيك يا رائي إذا هي نار

قال المويلحي : « لو قال صفحة خد لكان التعبير أحسن وأجمل لأن القطعة بغير الخد أنسب » .

وتنقحت لغة شوقي ، ورقت عبارته وازداد شعره رصانة وانسجاماً ، وأين قوله أيام كان يخشب الشعر :

كم يا جماد قساوة ... كم هكذا أبداً جحود
نطوي إليك دجى اللي ... لي والدجى عنا يذود

من قوله أيام تنقيحه وتهذيبه :

الله في الخلق من صبٍّ ومن عاني تفنى القلوب ويبقى قلبك الجاني
صوني جمالك عنا إننا بشر من التراب وهذا الحسن روحاني

ولئن قيل ان امرأ القيس قد سبق الى أشياء ابتدعها واستحسنها العرب واتبعه عليها الشعراء ، وعدوا منها استيقافه صحبه في الديار ، فان شوقي قد سبق معظم شعراء عصره في كثرة الاستيقاف وطلب القيام في مطالع قصائده كقوله مستوقفاً :

قف ناج اهرام الجلاد وناد هل من بناتك مجلس أو ناد

* * *

قف بالممالك وانظر دولة المال واذكر رجالاً أدالوها باجمال

* * *

قف بروما وشاهد الأمر واشهد ان للملك مالكاً سبحانه

* * *

قف على كنز بباريس دفين من فريد في المعاني وثمين

* * *

قفي يا أخت يوشع خبرينا أحاديث القرون الغابرينا

ومما سأل به القيام وهو كالاستيقاف من أساليب تعبير شوقي ولغته الشعرية :

قم ناج (جلق) وانشد رسم من بانوا مشت على الرسم أحداث وأزمان

* * *

قم ناد (أنقرة) وقل يهنيك ملك بنيت على سيوف بنيك

* * *

قم في فم الدنيا وحيِّ الأزهرا وانثر على سمع الزمان الجوهرا

* * *

قم سابق الساعة واسبق وعدها الارض ضاقت عنك فاصدع غمدها

* * *

قم حيِّ هذي النيرات حيِّ الحسان الخيرات

وأما لغة مطالع قصائده فمنها الركيك بمعناه ومبناه كقوله مثلا :

يا بارك الله في الدنيا بعباس وبارك الله في عمات عباس

ونحن إذا جارينا في هذا البيت من انتقد مطالع شوقي ، لا نجاريه في النقد على إطلاقه فان لشوقي من المطالع ما يعد من الروائع كقوله مثلاً :

ضمي قناعك يا سعاد أو ارفعي هذي المحاسن ما خلقن لبرقع !

• • •

رمضان ولّى هاتها يا ساقي مشتاقة تسعى الى مشتاق

• • •

قلب يذوب ومدمع يجري يا ليل هل خبر عن الفجر ؟
بالله يا نسمات النيل في السحر هل عندكن عن الأحباب من خبر

• • •

يا نائح الطلح أشباهٌ عوادينا نشجى لواديك أم نأسى لوادينا

وقد يستعين الانسان لتوضيح عبارته بالتشبيه ولا يستغني عنه أحد من العامة ولا الخاصة ، والأصل الذي يعتمد عليه فيه أن يشبه المتكلم المجهول بالمعلوم لدى المخاطب ، فاذا انعكست القضية خفي المقصود وهو المشبه على المشبه له ، وبذلك يكون التشبيه ركناً خطيراً من أركان البيان ، وعوناً مليباً للمصور الواصف ، ولكن التشبيه قد خرج في عصور انحطاط البيان العربي عن محوره ، وبعد عن غايته ، وأصبح مطمح الشاعر ومسعى خياله أن يشبه شكلاً بشكل ولوناً بلون وطولاً بطول ، وإن لم يكن وجه الشبه واضح الملامح ، لأن المشبه لم يقصد في محاكاته تصويراً ولا تبييناً ، وإنما أراد تزويقاً وتحسيناً ، وبذلك لم يصبح التشبيه من أركان البيان بل أمسى من محسنات البديع اللفظية ، وقد انتبه الشاعر إلى ذلك فأنقذ كثيراً من شعره وشفاه من هذه العلة وهذا النوع من العيّ والحصر ، وإذا أردت مصداق ذلك فانظر مثلاً إلى ذلك التصوير البارع في التشبيه التالي :

بنّا فلم نخلُ من روح يراوحنا من بر مصر وريحان يغادينا
كأم موسى على اسم الله تكفلنا وباسمه ذهبت في اليمّ تلقينا
ومصر كالكرم ذي الاحسان فاكهة لحاضرين وأكواب لبادينا

ومنها :

نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا ولم يهن بيد التشتيت غالينا
ولا يحول لنا صبغ ولا خلق إذا تلوّن كالحرباء شانينا

وأنعم النظر في تشبيه للحمام الأسود المفرّد بالراهبات المرتلات في سود الجلابيب ، وتأمل ما في ذلك من جمال البيان ولطف المحاكاة :

بيض القلانس في سواد جلابب حلين بالأطواق والأوضاح
رتلن في أوراقهن ملاحناً كالراهبات صبيحة الأفصاح !
يخطرن بين أرائك ومنابر في هيكل من سندس فياح

وإذا جردت بقوة مخيلتك ما في البيتين التاليين من صورة دقيقة واضحة ، شهدت بما للتشبيه الصادق من قوة التصور وبلاغة التعبير :

وترى الفضاء كحائط من مرمر نضدت عليه بدائع الألواح
الغيم فيه كالنعام بدينة بركت وأخرى حلقت بجناح !
وجرت سواقٍ كالنوادب في القرى رعن الشجيّ بأنة ونواح
الشاكيات وما عرفن صبابة الباكيات بمدمع سحاح
من كل بادية الضلوع غليلة والماء في أحشائها ملواح
تبكي إذا ونيت، وتضحك إن هفت كالعيس بين تنشط ورزاح
هي في السلاسل والغلول وجارها أعمى ينوء بنيره الفداح !

اللغة المجازية في شعر شوقي

لا نكران أن لغة الحقيقة في كلام أمير الشعراء هي لغة الشعر الرقيقة المنسجمة ، المنخلة الألفاظ ، المتقنة التركيب ، ومَن أحق منه بالاهتداء إلى كرائم الألفاظ ورقائق العبارات ، فقد آخى في شعره بين فصاحة اللفظ وبلاغة القول في سلك بيان ناصع ، ترافقه رنة موسيقية علوية أشبه شيء بالرنة البحترية ، وأما لغة شوقي المجازية فغالبة على بيانه ، وقلما خلت جملة أبيات منها ، والظاهر أن الاستعارة بأنواعها متغلبة على المجاز العقلي والكنايات في شعره ، ولأمر ما ولعت العرب بالمجاز لما فيه من قوة التصور وفخامة التعبير مع الايجاز ، ولما يحصل به للنفس من أريحية مما يدل على ميل بالعرب إلى اتساع الكلام . وإن التفنن في وجوه

التعبير نتيجة لازمة لقوة التصور والتفكير ، وقديماً كان الانسان إذا عجز في الكتابة عن التعبير بالرموز الحرفية يلجأ إلى رموز الصور مستعيناً بوضوح دلالتها ، فالتصور الخطي والبياني من أقوى وسائل التعبير .

ومن مجازاته العقلية قوله في مطلع نهج البردة .

«ريم» على القاع بين البان والعلم ... أحل سفك دمي في الأشهر الحرم
رمى القضاء بعيني «جؤذر» «أسداً» ... يا ساكن القاع أدرك ساكن الأجم

فالريم وهو الظبي الخالص بياضه والجؤذر وهو ولد البقرة الوحشية قد أطلقها على محبوبته مجازاً وأطلق الاسد على نفسه ، وكنى عن الغزال بساكن القاع وعن الأسد بساكن الأجم ؛ وفي هذين البيتين من فن البديع طباق بين قوله «أحل» وبين «الحرم» ، وهو من المحسنات التي يزين بها شوقي لغته كثيراً ، وبعد أربعة أبيات من هذا البيت بيتان في كل منها مطابقة وهما :

لقد أنلتك أذناً غير واعيـة ... ورب «منتصت» والقلب في «صمم»
يا ناعس الطرف لاذقت الهوى أبداً ... «أسهرت» مضناك في حفظ الهوى «فنم»

استعارات

أما الاستعارة المبنية على التشبيه فكأنها ما غلبت على لغة شوقي إلا لاعتقاده بأنها أبلغ من المجاز العقلي لما بين طرفي الاستعارة من المناسبة القوية والمبالغة التي تجيز لك أن تسمي الشيء بغير اسمه وتبلغ بها حد الاتحاد ، ولولا القرينة الدالة على مرادك لما انتبه المخاطب إلى غير المفهوم من العبارة ، وإنك لترى الاستعارات البليغة بأنواعها فيما سنورده على سبيل المثال :

القاتلات بأجفان بها سقم ... وللمنية أسباب من السقم
الحاملات لواء الحسن مختلفاً ... أشكاله وهو فرد غير منقسم

فقوله القاتلات بأجفان استعارة مكنية لحذف المشبه به وهو السيوف التي رمز اليها بشيء من لوازمها وهو القتل ، وفي قوله : الحاملات لواء الحسن استعارة مكنية أيضاً ولواء استعارة تخييلية والحمل ترشيحية ، ومع ذلك نجد في حمل لواء الحسن كناية جميلة عن نهاية الحسن فيه ، ومن الاستعارات التصريحية التبعية الكثيرة في شعره قوله :

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثواني

فقد شبه في هذا البيت الحكيم الدلالة على الشيء بالقول بجامع الايضاح ، واشتق من القول قائلة بمعنى دالة ، والقرينة نسبة القول الى الدقات ، ومن استعاراته اللطيفة قوله :

رأس الحماية مقطوع فلا عدمت كنانة الله حزماً يقطع الذنبا

. . .

يتمشى القضاء خلف نواهيـــك حديد الأظفار يطلب صيدا
قصد الدهر منك ركن المعالي ورمى طودها الذي كان طودا

. . .

قف ناج أهرام الجلال وناد هل من بناتك مجلس أو ناد

ففي مناجاة الاهرام استعارة وفي المجلس والنادي مجاز مرسل وبين ناد الامر ونادي الاسم جناس تام ، ووجود ذلك كله في بيت واحد دليل على ولع شوقي بالاستعارات والمحسنات .

كناياته

وقد أولع بالكناية لأنها من أبلغ ضروب المجاز بقوة تأكيدها وبيان تعبيرها ، بل جعلها البيانيون أبلغ من المجاز لأن دعوى الكناية مؤيدة بالبرهان ، ودعوى الاستعارة لا دليل عليها ، ومن كناياته البليغة وهي كثيرة قوله :

فدع كل طاغية للزمان فان الزمان « بقيم الصمر »

. . .

رفقاً بجفن كلما أبكيته سال « العقيق » به وقام الماء

. . .

وبين الهوى والعدل للقلب موقف تخالك بين السيف « والنار » ثاويا

. . .

وبيان كما تجلى على الرسـ ـل تجلى على « رعاة الضال »

ومن جناساته التي شغف بها قوله :

و « سلا » مصر هل « سلا » القلب عنها أو « أسا » جرحه الزمان « المؤسي »
يا قصوراً نظرتها وهي « تقضي » فسكبت الدموع والحق « يقضى »

. . .

« زار » والحرب بين جفني ونومي قد أعد الدجى لها « أوزارا »
ما لرب الجمال « جار » على القلـ ـب كأنْ لم يكن له القلب « جارا »

ومن المطابقة في هذه القصيدة والطباق من محسنات البديع المعنوية قوله :

يا ليالي لم أجدك « طوالاً » بعد ليلى ولم أجدك « قصارا »
إن من يحمل الخطوب « كباراً » لا يبالي بحملهن « صغارا »

ومنها الشيء الكثير في شعره قوله :

وبي رشأ قد كان دنياي « حاضراً » فغادرني أشتاق دنياي « نائياً »

وفي هذا البيت « إيهام المطابقة » فان النائي ليس بضد الحاضر وإنما يوهم بلفظه أنه ضد ، ومثله قول دعبل :

لا تعجبي يا سلم من رجل « ضحك » المشيب برأسه « فبكى »

ومن مطابقته الرائعة ويسمى طباق المقابلة قوله :

وكن بالألحاظ « مرضى » « كليلة » فكانت « صحاحاً » في القلوب « مواضيا »

ومن محسنات شوقي المعنوية أيضاً « الاستخدام » أي ذكر لفظ بمعنى وإعادة ضمير عليه بمعنى آخر كقول البحتري :

فسقى الغضا والساكنيه وإن هم شبوه بين جوانح وقلوب

ومثله قول شوقي في إزيس وهو القمر عند قدماء المصريين وإحدى معبوداتهم سميت باسمه :

تضيء على صفحات السما	ء وتشرق في الأرض منها الحُجر

ومنها « الجمع مع التفريق » كقول البحتري :

ولما التقينا والنقا موعد لنا	تعجب رائي الدر منا ولاقطه
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها	ومن لؤلؤ عندالحديث تساقطه

ومثله قوله في مخاطبة الحمام :

أراك يمانياً ومصر خميلتي	كلانا غريب نازح الدار موجع
هما اثنان : دان في التغرب آمن	وناء على قرب الديار مروَّع

ومن محسناته « التصريع » وهو استواء آخر جزء في صدر البيت وآخر جزء في عجزه في الوزن والروي والاعراب وهو أليق ما يكون بمطالع القصائد ، وفي وسطه ربما يمجه الذوق وينبو السمع عنه ، ومعظم مطالع شوقي مصرعة وقد تجده في أوساط قصائده أيضاً مع انسجام ورنة موسيقية يستعذبه الذوق ولا ينبو عنه السمع لأنه وليد الطبع كقوله :

لك أن تلوم ولي من الأعذار	أن الهوى قدرٌ من الأقدار

ومن الترصيع المستحسن في الوسط قوله من قصيدته الأندلسية التي مطلعها :

اختلاف النهار والليل ينسي	اذكرا لي الصبا وأيام أنسي

وفي وسطها يقول :

في ديار من الخلائف دَرْسِ	ومنار من الطوائف طُلس

وكل ذلك ما كان ليحط من منزلة أمير الشعراء أو ليدق من خطره وهو القابض على ناصية البلاغة في شعره الخالد ، والملقن ما يحاوله ، والمحدث بما في نفسك ، وقد وقف على أسرار العربية وشغف بسواحرها

شغفاً جعله يتغنى بعربيته وعروبته ، غافلاً عن جنسيته وأرومته ، فمن تغنيه بعروبته قوله وفيه من محسنات البديع الاكتفاء :

تسأل أترابها مومئة بالعنم
أيّ فتى ذلكن العربي العلم ؟
قلن تجاهلنه ذاك رب القلم
شاعر مصر الذي لو خفي النجم لم

ومن تغريده في عربيته وهيامه بمحاسنها الأدبية ومزاياها العلمية قوله :

إن للفصحى زماماً ويداً تجنب السهل وتقتاد الصعابا ؟
لغة الذكر لسان المجتبى كيف تعيا بالمنادين جوابا
كل عصر دارها إن صادفت منزلاً رحباً وأهلاً وجنابا
ائت بالعمران روضاً يانعاً وادعها تجر ينابيع عذابا
لا تجئها بالمتاع المقتنى سرقاً من كل قوم ونهابا
سل بها أندلساً هل قصرت دون مضمار العلى حين أهابا
غرست في كل ترب أعجم فزكت أصلاً كما طابت نصابا
ومشت مشيتها لم ترتكب غير رجليها ولم تحجل غرابا

ومنه قوله :

إن الذي ملأ اللغات محاسناً جعل الجمال وسره في الضاد

دمشق : تشرين الثاني سنة ١٩٣٢ .

فهرس الجزء الثالث

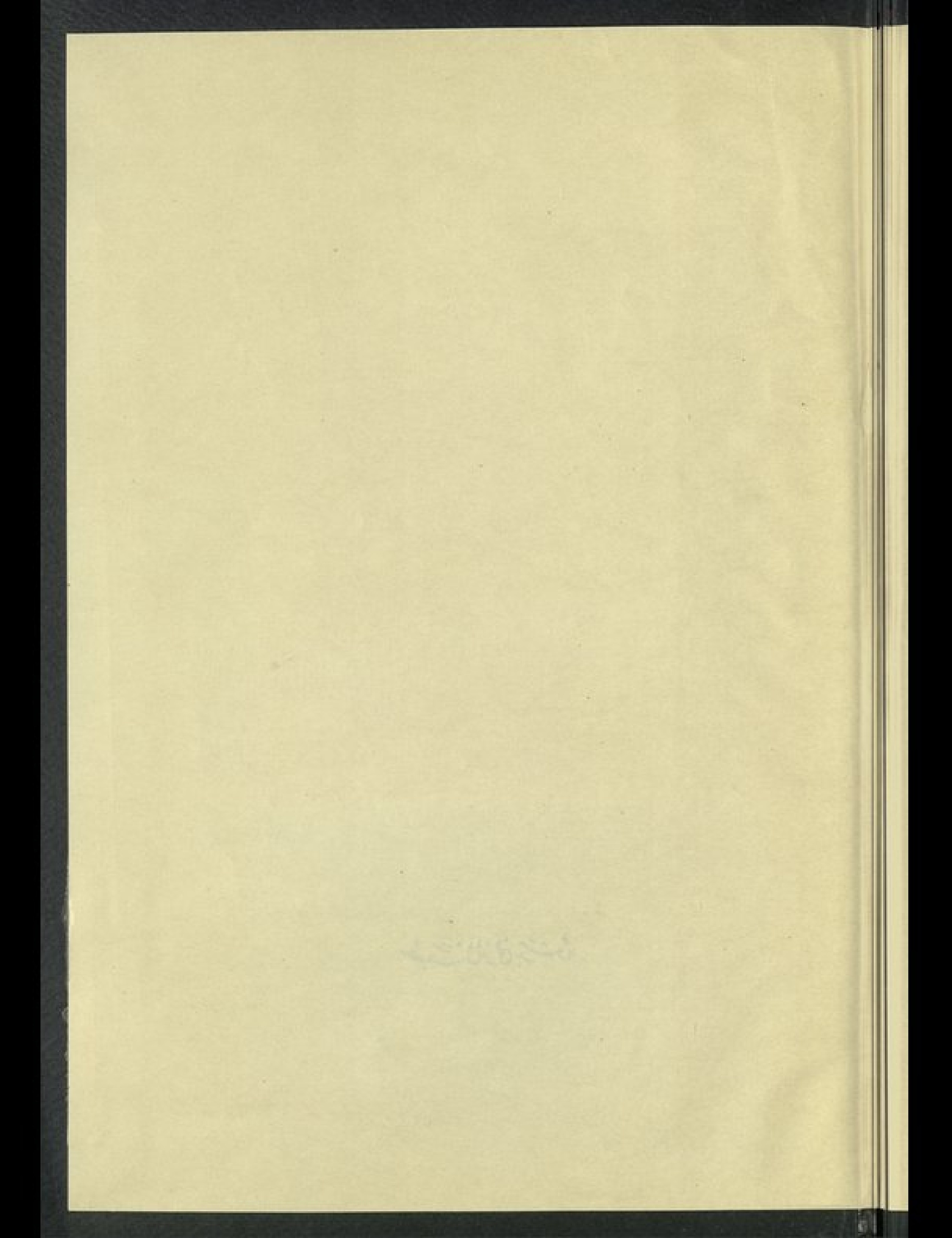
من محاضرات المجمع العلمي العربي

القسم الأول

يحتوي على ثلاث عشرة محاضرة للمتوفين من أعضاء المجمع العلمي العربي «رحمهم الله» هي :

القسم الثاني

يحتوي على أربع عشرة محاضرة هي :



مطبعة الترقي بدمشق

